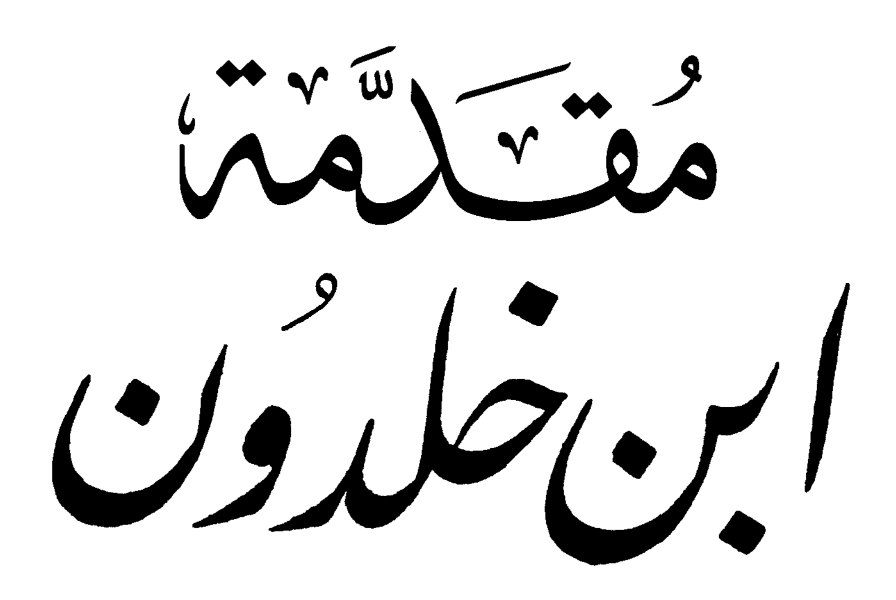


الجزء الأول

تأليف

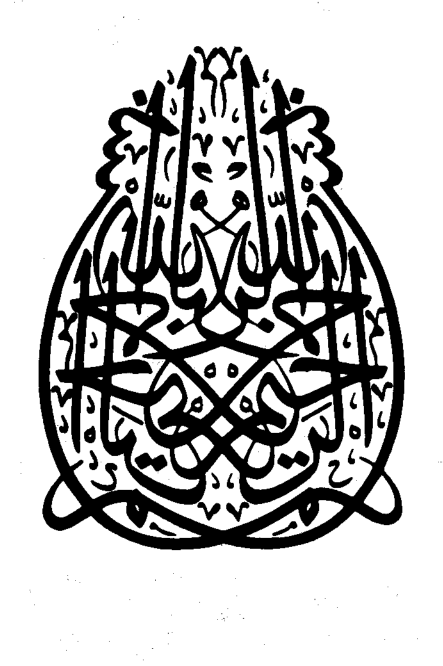
العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد

ابن خلدون

(٧٣٢ - ٨٠٨ هـ)

حققه نصوصه، وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه

عبد الله محمد الدرويش



مُقَدِّمَة ابن خلدُون

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

الكتاب: مقدمة ابن خلدون.
المؤلف: عبد الرحمن بن خلدون.
المحقق: عبد الله محمّد الدرويش.
رقم الموافقة: (٧٧٠٨٤).
تاريخها: ١٤/٤/٢٠٠٤م.

الطبعة الأولى

تاريخ الطبع: ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م.
عدد النسخ: /١٠٠٠/ نسخة.

جميع الحقوق محفوظة للمحقق

توزيع:

دار يعرب

دمشق: هاتف: ٢٣١٢٥٠٩
ص.ب: ١٢٣٧٣

بسم ا الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

مقدمة ابن خلدون مَعْلَمَةٌ ثرة بكل طريف، أظهرت تفرّد مؤلفها، وغَناء علومها، وتميزها.

وهي معين ينهل منه الواردون، ويَقْبس منه السالكون، منذ تأليفها إلى الآن، فلم تفقد جدتها، رغم تقادم عهدها، وإن أصابها غبار وتراكم، مما دعا العلماء للعناية بها؛ لإزالة الشوائب التي حجبت محاسنها، ومنعت من فهم مقاصدها.

ولكل نسخةٍ سبقت هذه خصالٌ تختلف عن مثيلاتها، وإن كانت هذه قد جمعت فضائل السابقين، وأضافت ما أمكن مما ستجده مسطراً.

وقد تميزت هذه النسخة بـ:

١ـ المقابلة على المخطوطات المتوفرة في مكتبة الأسد بدمشق. وكانت العناية بالنسخة الكاملة الموسومة بالظاهري، وهي المهداة للملك الظاهر برقوق عام ٧٩٧هـ، وعنها أخذت هذه النسخة، وهي في ٣١٩ ورقة، وهي ذات خط نسخي حسن، وقد رمزت لها بـ (**ظ**).

ـ والنسخة الثانية كتبت سنة ١٠١٢هـ، وهي مشوشة الأوراق، وقد تناوب في كتابتها اثنان، لاختلاف الخط، وهي في ٢٨٩ ورقة، وقد رمزت لها بـ (**ث**).

٢ـ إثبات فوارق النسخ المطبوعة سابقاً (**ن**).

٣ـ ضبط المشكل.

٤ـ شرح الغريب من:

- الألفاظ.
- الأماكن.
- الأعلام.

٥ـ المطابقة بين المقبوسات ما أمكن.

٦ـ دراسة المقدمة والتاريخ ومحاولة تعليل بعض الظواهر المشكلة في حياة المؤلف.

٧ـ الفهارس المتنوعة للتمكين من الاستفادة من الكتاب.

٨ـ التنبيه على بعض ما وقع فيه الأفاضل في طبعاتهم، من أمثال:

أ- تخطئة بعض الألفاظ، والصواب خلاف ما ذُهِبَ إليه، مثلاً تخطئة الشاعر في قوله: (عباديد) - انظر فصل في إبطال صناعة النجوم، وفي هذا:
تخطئة الصواب.
وإثبات جمع لا وجود له في اللغة، إذ قال: (إنها محرفة عن عبابيد جمع عبد). والصواب أنها لا واحد لها من لفظها هي وعباديد.
وعبد يجمع على: (عبدون، وعبيد، وأعبد، وعِباد، وعُبْدان، وعِبدان، وعِبِّدان، ومَعْبَدَة، ومَعَابِد، وَعِبِدَّاد، وَعِبِدَّى، وعُبُد، وعَبُدَ، وَمَعْبُوداء). وجمع الجمع: أعابدُ.
ب - استغلاق فهم بعض الجمل، رغم أن السياق العام يوضح المقصود منها، انظر مثلاً فصل في إبطال الفلسفة.
ج - الظن أن في بعض الجمل سقطاً أو تحريفاً، لعدم تبين المراد من العبارة، انظر آخر بحث علوم السحر والطلسمات.
هـ - عدم تخريج الأحاديث النبوية.
و- تجاهل بعض الآيات القرآنية أو نسبتها إلى غير موضعها.
ز- عدم مطابقة النصوص التي نقلها المؤلف على مصادره.

* * *

وقد نصَّ ابن خلدون في بحثه عن **مقاصد التأليف**، في الفصل (٣٥/٦). على الأشياء الداعية للتأليف، فذكر منها سبعة.

ولعلي في عملي قد حققت مقاصده السبعة - وإن لم يكن ذلك مما لا مزيد عليه، إذ لا بد من وجود القصور في العمل ليظهر فضل الآتين، وفوق كل ذي علم عليم - فناقشت أموراً مستجدة لم يتعرض لها، وأوضحت مشكلات عرضت، وشرحت مشكلات استغلقت، وكشفت عوار قضايا لم يتنبه لها، كما بوبت ونظمت مداخل لكل الفصول تعين على فهم المراد وتساعد على استجماع الموضوعات، وهي تشبه الملخصات التي لا تخل بمقصد المؤلف. كما ربطت بالإشارات والإحالات المفرق والموزع في الفصول المتباعدة. فأكون بذلك قد حققت مقاصده التي ارتضاها، وأعنت على إيصال مبتغاه.

كما استفدت من جهود السابقين في متابعتهم لهذا الكتاب تحقيقاً أو تعقيباً أو دراسة، ولا سيما من كان له اليد الطولى في تحقيق الكتاب سابقاً، فأفدت منهم، وأعنت على تطوير عملهم والارتقاء به ليصار إلى فهمه على الشكل الذي أرادوه وسعوا إليه، فجزاهم الله خير الجزاء، وأعان على تحقيق كل ما فيه الخير والرضا.

* * *

أوراق خلدونية في مطلع قرن جديد

ما هي الأسباب التي جعلت الناس يعزفون عن الاستفادة من كتاب ابن خلدون قروناً كثيرة؟!.

هل هي أسباب تعود إلى عدم قدرة العقل العربي في تلك القرون على فهم ما قدَّمه؟.

أم أن هناك جريمة ما اقترفت في حقّ هذا الرجل - وبالتالي في حقِّ الأجيال التي تلته - ساعدت على إغفاله، واقتلاع فكره من أحضان أمته وشعبه لتنقله إلى أمم أخرى قَدَّرَتْهُ قدره، واستفادت من ثاقب فهمه، فقفزت قفزات فاهمة وواعية ألقت بكل أعبائها المثقلة، وأصبحت في مكان الصدارة...

أما إنَّ العقل العربي غير قادر على الاستيعاب فذلك غير واردٍ فقد قدم العلماء في عصره وفي العصور المتلاحقة الكثير من العلوم والمعارف المنبئة عن تفهم ووعي..

فلم يبقَ إلا أن هناك مؤامرة دبِّرت لم يكن يراد منها كتابه بالذات، وإنما أريد منها شخصه.. وهذا يجعلنا ندمج بين المسألتين، فإن المؤامرة ضد الشخص لذاته معركة نابعة من علل نفسية داخلية تنعكس، عن عقول لم تعش تربية إيمانية صحيحة..

إن الأسباب التي ساعدت على تجاهله، وغمطِه حقَّه، تعود إلى ما ذهب إليه في مقدمته من طبائع العمران، من أمثلة:

- عدم وجود عصبية قوية يعتمد عليها.
- تسلط العصبيات القوية والضعيفة عليه.
- وصوله إلى مرحلة الهرم وتعرضه للصدمات في أهله وأبنائه..

ويضاف إليها:

- الحرب الشخصية الخفية على النطاق السياسي.
- الحرب الدعائية الطاعنة في أخلاقه وسلوكه.

كما يضاف إلى ذلك، وهو أخطرها:

- طعن العلماءِ المقبولين عند الناس في علمه وفهمه.

فهي حربٌ استَخْدَمت لبوس الدين مما أكسبها قدسية جعلت الناس يحجمون عن الثقة به وبما يقوله.

ومنشأ ذلك والداعي إليه:

- الحسد؛
- والبغي: ﴿وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾.

وقد نَفَسَ عليه علماء عصره تَفرُّده وفهمه وحظوته عند ذوي السلطان..
وكيف يقبلون على أنفسهم أن يتقدمهم رجل غريب الدار لا أهل له يشدون أزره، ولا عشيرة تحمي ذمامه...؟!
كيف تقبل النفوسِ التي لم تتزكّ بعدُ أن يكونَ لغيرها العزُّ والسلطان والنجاح...!!
وهذا ما يحدث دائماً في المجتمعات، ولم يكن عبثاً ما حدثنا عنه ربنا عز وجل في كتابه العزيز عن الأمم التي قتلت أنبياءها، ومنعت العلماء من أداء علمهم، وتبليغ مكنون صدورهم، بل تآمرت عليهم بكل الوسائلِ من غيبة ونميمة وسعاية..
إن المتتبع لسير علمائنا يلحظ شيئاً مهماً يبرز فيه الصدامات الصريحة والسافرة بينهم، بحيث أصبح المعيار الموضوع لبحث تلك المعضلة: أن كلام المتعاصرين بعضهم في بعضهم غير مقبول.
وهي عبارة مشكلة لا تتفق ومنهج النقد الحديثي؛ لأن المعاصرة تكشف أشياء غير ممكنة أو متوفرة للآخرين ممن لم يعش معهم وتجمعه وإياهم ظروف واحدة؟! وقد كنت أقف منها موقف المتشكك في صحتها والفائدة منها إلى أن وقفت على حقيقتها، والمعنى المراد منها. يظهر والله أعلم أن من دعا إلى ذلك أراد أن يحلّ الإشكالات المطروحة أمامه من خلال ما اكتشفه من نوازع الحسد والبغي الموجودة في النفوس.
ويكفي أن ننظر إلى عصر ابن خلدون لنلمس حقيقة هذا الواقع، إذ كثير منهم يدعي أن الآخر سَلَبَهُ كتبه، أو أخذ أفكاره.. وبالتدقيق في حقيقة المتنازعين نجد أنهم أعلام عصرهم، وإليهم المفزَع في الملمّات إلا أنَّ أولئك كانوا يبحثون في القضايا الآنية الشاغلة لأذهان أفراد المجتمع فيما يتعلق بحياته الدينية والمعاشية المباشرة.. والتي لا تتطلب من العقل جهداً أو قيمة ما.. إنهم أبناء عصر آثر الراحة الفكرية الباعثة على عدم النهوض وتحسين الأوضاع.. إنه عصر الهرم الذي بدأ يدبُّ في أوصال الأمة من قرونٍ تجلت صورته في عصور لاحقة حيث آذنت بدماره.
ولعل ابن خلدون لم يلحظ جانب الهرم الذي يلحق الفكر في مجموع الأمة، فبقيت نظريته عن الدول فقط، ولو أنه أَسْقَطَ نظريته على حالة العلماء المعاصرين له لاكتشف حقيقة ما يعانونه من هَرَم نتج عن الترف الذي يعيشونه والمكاسب التي يحصلونها من علومٍ عاشوها أو تكسبواً بها..
فلَيس مستغرباً أن يدافع الإنسان عن لقمة عيشه فيما يظن، ولو أدى ذلك إلى اختلاق الأكاذيب والادعاءات والدسائس الخفية والظاهرة.

وكم يُسَرُّ أحدهم حين يجد ما يساعده على الطعن فيمن يفوقه علماً وفهماً، وخاصة إذا وجدَ مَغْمَزاً يؤلب الحكام على صاحبه، وهذا ما كان متوفراً في حياة ابنِ خلدون وكتاباته، فهو حين يتحدث عن العبيديين أعداء العباسيين يعطي خصومه أسلحة للفتك به وتدميره.. وبما أن ذلك لا مكان له في حياة هذا الإمام، فلا أفضل من طمس معالم فكره بين أفراد عصره، ونسيان ما يحيط بكتاباته في العصور التي برز فيها عزٌّ جديد للعباسيين ساعد على طمس معالمه وإخفائها...

ولا يعني هذا وَصْم كل العلماء والأفراد بهذه السمات، وإنما تبيين حقيقة من كان بيده الأمر، ويستطيع التغيير، وإلا فإن من عرف ما يمتلكه ابن خلدون من فهم لم يكن قادراً على الاستفادة مما كتبه لنقصٍ في أدواته، أو لمعرفته أن ذلك يحتاج إلى مؤسسات عامة تستفيد مما كتبه، وتحرص علىً تطبيقه وتطويره..

* * *

لم يكن ابن خلدون ممن ينظر إلى علماء عصره نظرة احترام وإكبار (إلا القليل منهم)، ويحث السلطان على إقصائهم وإبعادهم عن حاشيته، ويعلل ذلك بأسباب منها:

ـ عدم مطابقة أقوالهم لأفعالهم.

ـ عدم مقدرتهم على إعطاء المشورة السياسية لعدم استيعابهم لمجريات الأحداث:

١ـ لانغماسهم في الترف والدعة.

٢ـ ولاعتبارهم موظفين كباقي الموظفين الذين هم عيال على الدولة.

ولعل نظرته هذه إلى العلماء، قد جعلت منهم أعداءً له يحاربونه، ويكيدون له.

* * *

الدوافع غير المعلنة في كتابة المقدمة:

إن جملة الظروف المعاشية التي لابست حياة ابن خلدون أبرزت الحسّ العام بالغربة في عالمٍ كله فتن وزلازل.

إذ بدلاً من التعاون المشترك بين أبناء الأمة الواحدة، بل القبيلة بعشائرها.. نجد الخصومات على أوجها، والصدامات تعصف بأركان الدولة، وتؤذن بخراب العمران.

الدولة الكبيرة التي ينتمي إليها ابن خلدون مقطعة الأوصال، مفككة العرى، تتقاذفها المحن والبلايا..

في كل يوم خبرٌ جديدٌ عن ضياع جزءٍ من ذاك العالم، وإن لم يكن من خارجه، فما يجري بين أفراده أشدُّ وأنكى.

وكثيراً ما تتناقل الأخبار عن أمم محيطة بذلك المعمور ترسم وتخطط لاختراقه وإخضاعه لسلطانها..

والذي يحزُّ في النفس ويبعث على الأسى، أن أفراد هذه الأمة بدلاً من أن توحدها وتزيل ما بينها من خلافات ــ المصائبُ التي تفصلهم عن إخوانهم وأبناء جلدتهم، يتناسون ذلك ويستمرون في لهوهم وأخطائهم.. وكأن النخوة والشهامة قد نزعت من قلوبهم، وجعلت منهم أجساداً خاوية هشة لا روح فيها ولا حياة...

ومن ذا الذي يتأثر بهذه الأوضاع المأساوية؟! ومن ذا يشعر بالجراح التي يعاني منها أبناء دينه؟! إنهم ولا شك الذين جعل الله في طباعهم رهافة الحسِّ والإحساس بالواقع على وجهه..

إنهم ممن يبحثون عن المضمون ويعوِّلون على نتائجه، ولا يأبهون بالشكل إلا إذا قَدَّمَ فائدة وجدّة..

ولعل خير من يمثِّل هذا الموقف العلامة ابن خلدون الذي أضناه الهمّ، وأتعبه الفكر، إنه المحكوم منذ نشأته بسماع ذهاب أمجاد أسرته، وتفكك دولتهم، واقتطاع أجزاء متتالية من أسبانيا التي نزحوا عنها.. غير الأخبار المتكررة والمسموعة عن غزوٍ ماضٍ قريب لم يبعد عهده للتتار والمغول..

وكأني به قد أعياه ذلك فدفعه ليحاول إزالة العوائق من عالمه، ولذلك ركب الأخطار في العمل في قصور الحكام، وهمه يدفعه ليصل إلى أعلى المناصب ليستطيع أن يكون ذا أثرٍ حسنٍ، وهو يسير نحو هدفه، تتلمس خطوته مقتربة من بوادر إصلاحه، ومعالم نجاحه..

لم يكن إنساناً يقبل بالأمور على عواهنها وعلاتها، إنه يحاول دائماً أن يصحح ويقوِّم..

رفض أسلوب كُتّاب الرسائل السلطانية بالطريقة التقليدية، إنه يبحث عن المضمون، فما معنى أن يضيع في الشكل؟ لا بدَّ من تغيير، وكيف يتم؟ لا بدَّ من وسائل وطرائق،.. وها هو يبحث وينقب، ولعل هذه البداية له أبرزت شخصيته كإنسان متميز ينظر إلى الأمور بعين الرجل الفاهم الواعي، فلا يمرُّ شيء قربه إلا ويرى فيه أشياء لم يرها غيره، ذلك أنه يريد الجَوْهَرَ ولا يهتم بالعَرَض.

* * *

عوامل تجاهل المقدمة:

نتيجة للظروف الاجتماعية التي يعيشها المجتمع في أيام ابن خلدون لم يكن من الممكن الاستفادة من المقدمة، ويعود ذلك لأسباب:

ــ تقليل العلماء في عصره من شأن مقدمته.

ـ سلوكه الخاص الذي جعل الكثير ممن يحيط به يعزف عن الاستفادة مما قدمه..
ـ **وأعظم تلك الأسباب** :

عدم الشعور لدى قارئه بفائدة فعلية يستطيع أن يستفيد منها، ذلك أن طبيعة الطرح المقدم يحتاج إلى مؤسسة كبيرة ـ كالدولة ـ لتستطيع توظيف المعالم المقدّمة في تلك المقدِّمة.

ولم يكن القادة الذين احتك بهم ممن هو مؤهل لتحصيل الفوائد العملية من مقدمته لتثبيت حكمه أو محاولة تجنب ما فيه دمار دولته.

ولذلك سُرَّ ابن خلدون كثيراً حين لقائه بتيمورلنك، لأنه وجد فيه تحقيق نظريته، وأحسب ـ والله أعلم ـ أن في حاشية تيمور الكثير من الأتراك الذين هم من قبائل الخزر المشتركين مع تيمور في النسب، وقد استمعوا لحديث ابن خلدون الشيق عن طبائع العمران، وخاصة أن سمعة ابن خلدون كانت قد وصلت إلى تيمور من قبل، فهو معروف بفكرته، مطلوب من قبل الساسة فحسب، ولذلك قدّم لتيمور خلاصة فكره في النقاش، ثم قدَّم كراريس بَيَّن فيها طبائع بلاد المغرب.

ويظهر أن تيمور لم يستفد فعلياً من فكر ابن خلدون، ولكن أقاربه المنافسين له قد وجدوا فيها ما دفعهم إلى التفكير بتأسيس ملك يقوم على المنهجية التي ذكرها ابن خلدون مستفيدين من الوثائق التي قدمت لتيمور ولا سيما أنها ترجمت إلى اللغة التركية.

ومما يؤكد ذلك، ما شاهدناه بعد ذلك من فتح القسطنطينية، وحديثها المبشر بفتحها مذكور في المقدمة..

إضافة إلى إلزام كل من يعمل في السلك السياسي للدولة العثمانية بقراءة المقدمة.

ثم ترجمة المقدمة إلى اللغة التركية.. ذلك أن العثمانيين في أول أمرهم كانوا تابعين في الثقافة للغة العربية، فكانوا كساسة يتقنون اللغة العربية.. وفي الفترة التي ترجموا فيها المقدمة، وهي تسبق ترجمة الأوربيين لها بما يزيد على القرن.

ذلك أنهم بدؤوا عملية التتريك من لحظة قرروا الترجمة إلى لغتهم الأم.

وبعد ذلك بما يقارب القرن ترجمت إلى اللغات الأوربية، ودرست دراسة متقنة، قناعة منهم أن سِرَّ نجاح العثمانيين نابعٌ من المقدمة لما شاهدوه من عنايتهم بها.

وكان لدراسة الأوربيين لها أكبر الأثر في معرفة مكامن الضعف في كيان الدولة، فشجعوا عصبيات كل دولة من جهة، حتى أجهزوا بعد مضي زمن يقارب القرن على الرجل المريض..

ذلك أن ذاك الرجل لم يعد قادراً على تفهُّم المقدمة بالشكل الذي وضعت له، وحسب أن العناية بالمقدمة في نطاقه السياسي الخاص يحفظ للدولة كيانها ويُبْعدُ العامة عن معرفة أسرار الملك، فالذي فُرَّ منه وُقِعَ فيه، ولكن مع أعداء ألداء خططوا له ودبروا حتى قضوا عليه وعلى من يمكن أن يفكِّر بتفكيره.

قد يقول قائل: ما ذهبت إليه محض ظنٍّ، وليس مستنداً إلى وثائق رسمية، تثبته وتؤكده.

وهو محق في قوله، إلا أن المسار العام الذي جرى يوحي بصدق ما توصلت إليه، وربما يكشف لنا التاريخ وثائق تبين طبيعة دراسة الأمراء العثمانيين الأوائل فتتضح حقيقة ما ذهبت إليه..

والذي يؤكد أن الأوربيين حطموا العثمانيين بعد دراسة المقدمة، النظرة العدائية للعرب التي اتسم بها (هيغل) في دراسته للتاريخ، والتي تؤكد الوقائع أن روح حملاتهم كان منطلقةً من أفكاره، وأفكار تلامذته.

ولذلك لم نر العرب يهتمون بالمقدمة إلا بعد أن وجههم إليها الأوربيون، ليس حبّاً بهم، وإنما مساعدة لهم في تحطيم الدولة العثمانية وتقويض دعائمها.

وكأني بهم قد وضعوهم في إطار محدد غير قادرين على الانفكاك منه، في توجيههم لفكرة محددة، شعروا على أثرها بفقدهم كل شيء.

وربما كان من عوامل استمرار العرب في متابعة ابن خلدون والاهتمام به، الرغبة العارمة في داخل المثقفين العرب للانعتاق من إسار الغرب المسيطر على عالمه، للانفصال عنه وإثبات أنه أقدر منه على الفهم والإدراك، وربما من أجل ذلك تأكد اهتمام العرب بابن خلدون في فترة تصفية الاستعمار في العالم العربي[١].

* * *

قد يسأل سائل: ما بال العالم العربي في أخرياته يدرس كثيراً ابن خلدون؟ ألا يحسنُ به أن يعود لدراسة المعاصرين الذين مَحَّصُوا العلوم التي درسها، وقدموا أشياء مفيدة أكثر من المقدمة؟.

ذلك أنهم يظنون أن كل جديد لا بد أن يكون خيراً من القديم، ولم يعرفوا ــ أو أنهم عُلِّموا نتيجة ظروف اجتماعية كثيرة احتقارَ ماضيهم وتراثهم.. وشعورهم بالنقص إذا نُسِبُوا إلى تراثهم!!.

---

(١) ــ انظر تفصيل هذه الظاهرة في الإشكالات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون. د. عبد القادر جغلول (ص٨٧).

إن الأمم الْمُحْدَثَة التي لا جذور لها، تشتري من الأمم التي سبقتها حضارتها، وتزرعها في أراضيها، لتثبت لنا فيما يأتي من الزمن أنها أثبت جذوراً منا، وأسبق حضارة من حضارتنا..

إنَّ ابن خلدون ـ رغم تقدم زمنه عن زمننا ـ جديدٌ جدَّةً يشهد له بها، من نقف الآن خاشعين خاضعين نستجدي منهم ما نحسبه نِتَاجهم وإبداعهم.

إنني لا أدعو أن ننسلخ من عصرنا، أو نتقوقع ضمن تاريخنا، دون أن نلحظ ما يجري في العالم، ونسخر ما فيه الفائدة والصلاح لنا ولأمتنا.

ولكن لا يعني ذلك أن نكون مسلوبي الإرادة أمام الآخرين، نشعر بالعجز والخوف والقهر..

إن دراسة ابن خلدون في ظاهرها الأولي توحي للقارىء بالعجز والاستسلام للواقع.. ولكنها في حقيقتها تُوَصِّفُ له الواقع، وتبين له مواقع خَطْوه، وتكشف له عن نقاط ضعفه.

ذلك أنه يجب علينا التعرف على الأمراض التي نعانيها، ونكتشف حقيقة المرض الذي أصابنا قبل أن نبادر إلى وصفات العلاج التي لا فائدة منها، والتي تكاد تكون مخدِّرات تزيد المرض مرضاً.

إن الإنسان القاصر عن فهم أمراض مجتمعه غير جدير بأن يكون طبيباً يصف الأدوية. وكم ابتلينا في تاريخنا بمن يتصدر للعلاج، وهو أبعد الناس عن الصحة...

وهل صحيح ما يذهب إليه المتشائمون: من أنه لا نهوض لأمتنا مما هي فيه، حتى ولو نزعت جلدها، وغيرت لبوسها؟!

وأكاد أقول معهم: نعم، ما داموا يرغبون في نزع ما يميِّزهم، وتغيير ما يزيِّنهم..

قد لا يكون ابن خلدون النهاية في فهم عالمنا، ولكنه البداية العملية التي تدفع لاستجلاء الصورة ووضوحها انطلاقاً من فهمنا، ومعارفنا، مما يجعلنا نشعر بخصوصيتنا أمام مجريات العصر الراهن، الذي يسعى لنسيان ذكرانا، إلا فيما يريده من تجارب يشاهد نتائجها، في حقول تجاربه. وليس هذا بخافٍ على البسطاء من الناس، فكيف بغيرهم؟!.

* * *

خصوصية ابن خلدون

اختلف ابن خلدون عن سابقيه ممن عالج قضايا المجتمع بتميزه في طريقة المعالجة.

لم يجعل من نفسه واعظاً، وإن كان ينبه إلى الطريق الأمثل، ذلك أنه يُوَصِّفُ المجتمع، ويكشف دواخله، باحثاً عن القوانين الحاكمة لسيرورته.

رغم أنه لم يُنَظِّر لمدينة فاضلة، إلا أنه حمل في داخله همَّ ما يمكن أن يحدث، والظروف الأفضل والملائمة لتحسين الصورة العامة للمجتمع.. ولذلك وجدناه يقرر بعد دراسته للمحيط الغارق فيه أفضل إطار يُمَكِّنهُ من التغلب على أعراضه المرضية التي لا علاج لها إلا في الدين.

إنه يريد التعرف على المجتمع، وليس كما ظنَّ بعض الدارسين بأنه اكتفى بذلك، ولم يرد التجاوز.. إنه بعمله يماثل الطبيب الذي يبحث عن المرض وأسبابه، ثم يصدر العلاج الناجع.. وهو بذلك يصل بنا إلى اكتشاف الوسائل المعينة على نجاح المجتمع.

وربما كان من عوامل تميزه على الآتين بعده، أنه عالج المجتمع على أنه كتلة تحتوي الألوان كلها، وأنه لا يمكن أن يجعل المجتمع لوناً واحداً، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك حين يعتبر اللون الواحد متدرجاً، وهذه النظرة نابعة من فهمه للدين الذي أبان عن وجود التنوع في البشر في كل خصائصهم حتى اللون..

فمن ظن أن المجتمع بعامة يصبح إيماناً كاملاً كان بعيداً عن فهم حقيقة المجتمع، وبالتالي فهم حقيقة الدين.. وربما كان في الحديث الشريف: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة...». ما يؤكد هذا المعنى، إذ أن التنوع والتعدد هو السمة العامة الطابعة للمجتمعات وإزالتها مخالفة لطبيعة الكون..

ولذلك قلت: إن الحياة تحتوي ضمنها تَدَرُّجَ الألوان، وكل ذلك ليصار بالمرء إلى اختيار اللون الذي سيصبغ به، ذلك أنه في تجربة منذ خلق.. وما قصة آدم عليه السلام وإبليس ـ لعنه الله ـ إلا تأكيد للمعنى الذي يجب أن يتأصّل في القلب، إذ أن الواقع في أحد الألوان، قد يجد في نفسه كوابح تمنعه من تجاوز ذاك اللون، ذلك أنه إذا تجاوزه عاد إلى طبيعته الأصلية وهذا ما كان من آدم صلى الله عليه وسلم في حين سقط إبليس.

إن مجمل الشريعة يؤكد وجود التنوع والاختلاف، وهو بالتالي يحث على نَبْذِ ذلك ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[هود: ١١٨] أي: خلقهم ليكونوا مختلفين فمن كان على الهدى كانت له الرحمة من الله تعالى. ففي ذلك دعوة إلى وضع الأمور في نصابها الصحيح بعيداً عن المثالية مع الآخرين.. ذلك أن المثالية تطبق في النطاق الفردي ومن أراد تعميمها طحنه الواقع الأليم...

إن وعي ابن خلدون لأحكام الشرع وما بنى عليه مطالعاته وتطلعاته جعلت منه إنساناً متميزاً، له خاصية معرفية واضحة المعالم يستفيدها من أبصر حقيقة المنطلق الأساس الذي اعتمده.

* * *

عاد ابن خلدون بالفلسفة من تحليقها في سماء اللوامع واللامحسوس إلى ملامسة الواقع وتحسس قوانينه وضوابطه.

وهو في هذا يختلف عما كان عليه السفسطائيون الذين قالوا بعدم الحقيقة المطلقة في الدنيا، وأنها نسبية. منطلقين من واقعهم الاجتماعي الموجود على الأرض ذلك أنهم كانوا من عامة الناس.

فهو يختلف عنهم بكونه من طبقة الأسياد في تعاملهم مع حياتهم وسلوكهم، فهو من جهة يعتبر نفسه فوق كثير ممن في مجتمعه، ولكنه من جهة ثانية منطلق من جذور المجتمع، وكثرة النكبات التي أصابته جعلت منه شخصية متميزة تجمع صفات الطبقتين أو بمعنى أوضح مكنته من امتلاك ناصية فهم حقائق ما يجري في الطبقتين، وهو من أجل ذلك تمكّن من المزاوجة بين المدرستين الفلسفيتين، محققاً لنفسه مدرسة خاصة ميَّزته عن باقي المدارس الفلسفية مما دعت المحدَثين لاعتبار مدرسته متقدمة في مضامينها، متوافقة مع أحدث ما وصل إليه فلاسفة العصر الحالي.

فهو ينظر إلى الأمور من خلال عواقبها منطلقاً من بدايتها المرتبطة بالواقع ارتباطاً أكيداً، راغباً في نقل المجتمع من مرحلة المرض إلى الشفاء التام، ولكن بطريقة صحية لا تخالف الطبيعة العامة ولا طبائع الكون..

فهو يسخر معرفته بالشبكة الاجتماعية لكافة الطبقات وما فيها من محاسن ومساوىء، ليوصلها إلى الدرجة العليا من إمكانية تجاوز الأخطاء والسلبيات.. وليتمكن كل فرد من أداء وظيفته بعيداً عن التنطح لأشياء ليست له، ولا يمكن أن تحصل له إلا بالانتباه لما قدَّمه من معلومات أساسية في حياته وتكوينه.

* * *

الذين درسوا العصبية عند ابن خلدون تجاهلوا إشارته إلى أنها تكون بالنسب أو ما في معناه.. وذكر هنا الولاء والحلف، والتي يبغى منها المناصرة والدفاع.. فلذلك قال: إن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة **وما فوق ذلك مستغنى عنه.**

إذ أنه لا ينظر إلى النسب إلا من حيث الفائدة المرجوة منه والتي حصرها بـ:

١ـ الوصلة.

٢ـ والالتحام.

ولذلك قال: **النسب أمرٌ وهمي لا حقيقة له.**

فإذا هو ينظر إلى النسب بمعناه العام الذي يحقق:

١ـ التواصل.
٢ـ والنصرة.

فبالتواصل يكون التواد والاتفاق على فكرة جامعة تربط بين الأفراد، فإذا عدمت، عدم التناصر..

وهو بهذا يفيدنا معرفة الجامع العام للأفراد في المجتمعات الحديثة، التي استعاضت عن النسب، بالتجمعات بأصنافها المتعددة، والتي يجمعها رابط المصلحة المشتركة مما يؤدي إلى الدفاع عن تلك المصالح إذا تعرِّض لها، وكثيراً ما تكون سبباً في الوصول إلى المراكز السياسية الهامة إذا كانت مبنية على قاعدة منطلقها سياسيٌّ.

* * *

يبدأ ابن خلدون بعرض تفصيلات تبين مقاصد العلوم التي يعرض لها، ثم يعود ليظهر تهافت مقاصدهم وما ذهبوا إليه.

ثم يكشف ما يمكن أن يستفاد منها وثمرته. وفي هذا يتبع منهج الإمام الغزالي في احتوائه لعلوم الآخرين ثم تفنيده لما فيها...

وهو يحدد معالم يتبعها أهل الملة في تعاملهم مع المستجدات، فإذا هو يقدمُ أفضل نظرية جهلت في عصرنا الحاضر من قبل الذين انجرفوا وراء الغرب قبل أن يتمكنوا من العلوم التي كانت لهم. [انظر آخر فصل في إبطال الفلسفة].

وهو يريد في عرضه للعلوم أن:
- يقدم مقاصد العلوم.
- يؤرخ لتاريخ تلك العلوم.
- وأهم ما ألف فيها.

مع تفصيله لهذه الجوانب في مختلف الدول التي اطلع على علومها في المشرق أو المغرب، وتوقفه عن ذكر مالم يعرفه مع تنبيهه على ذلك.

وهو يميز بين العلوم المقصودة والعلوم الموصلة للمقاصد التي سماها الآلية، مع تحديده لمقدار المطلوب من الآلية، وأنها غير مقصودة بذاتها، فمن الضرر البالغ المبالغة في متابعتها لعدم القدرة على الإحاطة بها، ولاستفراغ الجهد فيما لا طائل وراءه [فصل٣٩].

كما يقدم للمتعلمين نصائح تعينهم على تجاوز ما يعترضهم من عقبات في متابعتهم وتحصيلهم [فصل٣٨].

* * *

* الملاحظ دقة ملاحظات العلامة ابن خلدون، وتعميم طبائع العمران التي تحدث عنها في كشفه لدخائل النفوس البشرية في إقدامها أو إحجامها.

وهذا ما دعاه إلى الرّد على مدعي صناعة الذهب بأن الحاجة والفاقة دعتهم وأَمَّلتهم في إمكانية حصولهم على مخالفة الطبيعة، في حين لم ينجرف في ذلك من كان من ذوي اليسار والقدرة.. فقد عمّ فهمه للطبائع ليكشف حقيقة العلماء المتحلين لذلك.

* وهو يستفيد من المقارنات بين الإنسان والطبيعة لتتكشف له المعاني المضمرة في حقيقة التخلق، وما يتبع ذلك من التحولات.

* وإن كان لا يعدو في ردّه على المعلومات العلمية التي عُرِفَت في عصره، إلا أنه يقف متشككاً من صحة بعضها، فيقول عن تخلق العقرب، وزعموا أنه من الماء والنتن... [انظر فصل إبطال ثمرة الكيمياء].

* * *

إن رهافة الحسِّ عند ابن خلدون قد نبهته لخطورة **الاستبداد والعسف والقهر** في:

- **الإطار الفردي**: متعلم، مملوك، خادم.
- **الإطار الاجتماعي**: الأمم.

إذ أن القهر من الأسباب الداعية إلى الخبث والمكر والخديعة، كما أنها من دواعي الذّلِّ والمهانة.

فهو ممن دعا إلى تربية الأفراد التربية الراقية التي تجعل منهم أناساً صلحاء يُفيدون ويستفيدون.

كما دعا إلى رعاية الأمة والأخذ على يدها، ليستطيع المجتمع أن يحافظ على كيانه، ويمتلك أسباب الحمية والمدافعة.

وهو بذلك قد سبق كل من تحدث عن نظريات الاستبداد وما تعكسه على حياة الأمة أفراداً وجماعات. [فصل ٤١].

* * *

إن العلم والتعليم من المسائل الهامة التي تعرض لها ابن خلدون وأشبعها بحثاً.

ولذلك وجد له في التعليم نظريات تكاد تكون مسلماتٍ.

فهو يحذر من الاختصارات، كما ينبه على ضرورة وجود الاستعداد لتلقي العلم قبل إعطائه ثماره، فهو يحث على التعليم المنطلق من القبول الفطري ثم التدرج بإعطاء المعلومات لتبنى على قواعد ثابتة. [انظر فصل ٣٧].

ويدعو إلى تعليم الصغار أصول الحساب ومسائله لما فيها من حثٍّ له على الفضائل من خلال ما تحمله في طياتها من معاني الصحة والصواب.

* * *

إن للسياسة عند ابن خلدون ضوابط عامة تحكمها، ولذلك يطلب من السياسي:

- مراعاة مافي الخارج.
- وما يلحقه من الأحوال.
- وما يتبعه من الآثار.

أي أنه يدرس الحادثة كقضية مستقلة مع الالتفات إلى ما يؤثر فيها من الخارج أو الداخل أو ينتج عنها.

ولذلك أخرج من السياسيين:

١ـ العلماء.

٢ـ وأهل الذكاء والفطنة من أهل العمران.

وأدخل فيهم:

- العامي، سليم الطبع، متوسط الذكاء.

وكل ذلك لأن من يقيس الأمور على بعضها بقياسات كلية عامة، يقع في الخطأ كثيراً، إذ أنه لا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر. [فصل ٤٣].

* وهو لا يرى السياسة مصدراً للشرور والرذائل، وإنما هي داعية إلى الفضائل والخير، لأن وجود خلال الخير شاهدة بوجود الملك لأهل العصبية، فإذا تنافسوا في الخير ومكارم الأخلاق فقد تمكن منهم خُلُقُ السياسة، واستحقوا أن يكونوا ساسةً لمن تحت أيديهم.

وإذا ما ابتعدوا عن الفضائل ومكارم الأخلاق وتمادوا في الرذائل والقبائح فقد حكموا على أنفسهم بانقراض ملكهم، وزوال عزهم. [فصل ٢٠].

ومن هذه الخصال المطلوب التنافس فيها:

١ـ إقامة مراسم الشريعة : بإكرام العلماء والصلحاء.

٢ـ الترغيب: - بإكرام الأشراف وأهل الأحساب.

- و إكرام التجار.

٣ـ مكارم الأخلاق: بإكرام الغرباء لما فيه من إظهار مكارم الأخلاق.

٤ـ العدل والإنصاف: بإنزال الناس منازلهم. [فصل ٢٠].

* * *

* **يستفاد من مقدمته:**

- تفصيلات عن حياته الشخصية من أصحابه، ومحفوظاته وعلومه [انظر فصل ٥٨].
- وضع تصور لقوانين سير الدول بأسمائها وأسماء رجالاتها.
- رصد حركة الثقافة بأنواعها في الدول قديمها وحديثها ـ نسبة للمؤلف ـ.
- إفراد خلاصة فكره وتجاربه في مناقشاته وتعليلاته.

* ولا نعدم خلال كلامه استطرادات أراد منها التعبير عن مكنونات نفسه وما يحمله من محبة أو بغض في قبول أو ردّ معلومة، أو تعريفٍ بأحد معارفه.

فهو حين ذكر الوزير لسان الدين ابن الخطيب صديقه في الفصل (٥٣) في معرض تبيين أنه ذو ملكة لسانية لا تدرك، لم ينس أن يذكر أنه هلك (لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه) فأرَّخ هلاكه، وبين أسباب ذلك، مع تعبيره الصريح عن داخلته تُجاهه، فلذلك قال عنه: (شهيداً) وكأنه في ذلك يؤرخ لنفسه التي تقاسي من سعاية الأعداء، وتترقب أن تأتيها الخاتمة، مع أمله أن تكون شهادة..

* وهو يكثر من ذكر أصحابه الذينٍ لهم الحظوة والمكانة العلمية، ويعرِّف بهم، وبوظائفهم، وينصُّ على أنهم أصحابه مثلاً:

(أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية) [فصل ٥٨].

(ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب، وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة)[فصل ٥٨].

* ولا يغمط مشايخه حقهم، بل يذكرهم بالإجلال والإكبار، ويعرف بهم وبعلومهم، مثلاً:

(سألت شيخنا أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا ـ وكان شيخ هذه الصناعة [أي النثر والنظم] أخذ بسبتة عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوبين، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه) [فصل ٥٨].

وهو حين يذكرهم يشيد بذكرهم ليبين نظرتهم إليه، وما استفاده منهم، أو استفادوه منه، انظر آخر [فصل ٥٨].

* * *

إن ما ذهب إليه ابن خلدون من أعمار الدول، مَيَّزَ فيه بين العمر الطبيعي والعمر الصنعي.

العمر الطبيعي: مقترن بالمؤسس. انتقاله إلى حالة الهرم.

العمر الصنعي: مقترن بقلة وكثرة القائمين بها.. وهو عمر قد يطول مئات السنين ـ [انظر فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين في القلة والكثرة].

* * *

*** ينظم حركة الحياة قانونان:**

ـ قانون التشابه.

ـ قانون التباين[1].

ففي الأول نتعرف على الحوادث المتماثلة والمتشابهة، وفي الثاني نعرف أنهما رغم تشابههما إلا أنهما حوادث متباينة متعددة.

وقد قام ابن خلدون بتصنيف أحداثه المتشابهة ومَايَزَ بينها بحيث استطاع أن يصل إلى قانون يشمل حركتها العامة الشاملة.

* * *

يغلب عليه أن يختم فصوله بآية كريمة أو دعاء، أو تنزيه لله تعالى.

وهو في ذلك يعبر عن شدة ارتباطه بخالقه عز وجل، ويبين أنه لا وصول له إلى الصحيح الموزُن من أعماله، وإصابة الرمية في أفكاره إلا إذا اقترن ذلك بتوفيق الله عز وجل، وإن لم يكنِ هناك توفيق من الله للصواب، فإن الوقوع في الأخطاءِ واضحٌ بيِّنٌ.

وإذا ناقش أمراً من الأمور، ووجد أن الحقّ فيه يجنح إلى منازعة غير بيِّنة المعالم، فهو يرجو أن يهديه الله عز وجل لأحسن الطرق ويريه الصواب فإنه سبحانه الموفق للصواب بمنه وكرمه، وهو عز وجل أعلم.

* الفواصل الإيمانية التي يضمنها فصوله أو يختم بها كلامه: وهي تظهره بمظهر الإنسان الواعي الذي يعلم قصور معرفته وعلمه، مما يدعوه إلى الارتباط بالعالم على الحقيقة.

وهي تعبر عن مقدرته على تفهم الموضوع وربطه بالآيات المعبرة عنه، أو المشيرة إليه.

كما يكشف فيها عن تردده في قبول بعض المعاني المطروحة.

* * *

وإذا توقفنا عند كلامه في المفاضلة بين **الشعر والنثر بين الجاهلية والإسلام**. وجدنا نظريته تُعَبِّرُ عن مدرسةٍ دقيقة في فهمها، لا تجعل للأهواء الشخصية مكاناً.. فلم يذهب

---

(١) ـ انظر فلسفلة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين (ص٤٢ - ٤٦).

إلى ما قاله المحدثون ممن تبعَ الغربَ، فجعل الشعر والنثر الجاهلي أعلى قيمة، وأجمع جمالية منهما في الإسلام. بل بَيَّنَ بما لا شك فيه أن نظم الإسلاميين ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً، وأرصف مبنى، وأعدل تثقيفاً، وكلٌّ ذلك تابعٌ لاستفادتهم من الكلام العالي الطبقة من القرآن والحديث..

وهذا الذي ذهب إليه يحتاج منا إلى رعاية ودراية، حتى ننزع من الأذهان ما قبلته من أفواه من لم تتقوم نفسه، ولم تتهذب المعاني في قلبه، بحيث أسقط ما حقه التقديم، وأخَّرَ ما حقه الرفع. [فصل: ٥٨].

* * *

ليس من مقاصد كتابه تبيين الأحكام الشرعية، ولذلك يحيل على المصادر التي تبين الأحكام الشرعية فيما يتعلق بالبحث الذي يذكره.

ـ وذلك أن مقصده من الكتاب بيان ما يتعلق بطبيعة العمران في الوجود الإنساني فلذلك يدرس وظائف الخلافة والملك والسلطان.[انظر فصل ٣٤ ـ].

* * *

موقفه من آل البيت:

إن نظرته إليهم نظرة من يعظم الدين وحرماته، وإن لم يكن ممن يحابي في الحق.

فهو ينظر إليهم كعلماء أجلاء ـ الحسين رضي الله عنه ـ لهم الأهلية لتولي خلافة المسلمين، وإن لم تتوفر لهم الشوكة، وذلك في كل مجريات الأحداث الإسلامية.

وموقفه منهم يتبع موقفه من الصحابة أجمعين، فهم أهل الخيرية التي شهد لهم رسول الله ﷺ بالفضل.

ولذلك دعا إلى حمل كل ما جرى بينهم على المحامل الحسنة وتلمس الأعذار. [وانظر فصل ٣٠].

وهو يحترم هذا النسب الشريف، ويجله، ويعظمه، ولكن ذلك لا يدعوه لغفران ما يمكن أن يبدر من الأفراد الذين لم يحافظوا على الشرع ويلزموه كالعبيديين...

امتاز ابن خلدون في دراسته وما وصلنا من علومه بكونه:

* رجلاً مستقلاً متميزاً غير تابع لأحدٍ، فهو يصدر أحكامه وفق ما يعرض له من **دلائل** وقرائن، ولا يسمح لنزعاته وأهوائه أن تتحكم في النتائج التي تبرزها الوقائع.

عندما درس نسب الأدارسة والفاطميين رفض بشكل قاطع الاتهامات الموجهة لهم انتصاراً للحق، وبعداً عن الطعن في النسب النبوي، ولم يخرجه ذلك إلى تبرير ما وقعوا فيه

من مساوىء وأخطاء، مفرقاً بين المسألتين، لأن النسب لا يبرر العمل، فمن أخطأ ولو كان ذا نسبٍ لحقه العقاب والمعرَّة.

وليس في دفاعه عنهم نزعة تشيعية، لأنه يعرف تماماً أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم من تمام الإيمان، ولا يجره ذلك للوقوع في الصحابة رضوان الله عليهم، بل ينعى على الطاعنين في عدالة الصحابة، كما أنه لا يقبل من فقه آل البيت ما تفردوا به من مذاهب ابتدعوها، منكراً عليهم ادعاء عصمة الأئمة، معتبراً ذلك من الأصول الواهية.

وهو في ذلك ينطلق من منهج فكري واضح، وهو تمايز العلاقات، واختلاف المحاكمات، إذ لكل ميزة ومنطلق، فإذا اختلطت الأمور ضاعت الموازين المساعدة على وضع الأمور في نُصُبُها الصحيحة.

* * *

يمكن تقسيم مراحل حياته إلى:

* المرحلة الأولى: الاستقرار والتعلم وتصل إلى السنة **الثامنة** عشر من عمره.

* المرحلة الثانية: القلق الإِجتماعي، وتبدأ بالطاعون الذي أخذ والديه وأساتذته، وقد امتلأت بالأزمات والصدمات، وتنتهي مع مقتل أمير بجاية.

* المرحلة الثالثة: العزلة، وهي مرحلة الانسحاب من الحياة محاولاً فيها مراجعة أسباب النكبات التي أصابته، ومن ثم اختيار الطريقِ الذي عليه أن يختطه لحياته المستقبلة وفيها خرج على الناس بمقدمته، واتخذ العلم طريقاً وصل به إلى منصب القضاء وبه ختم حياته.

* * *

إن التعبيرَ الصريح والواضح عن **أخلاقيات وسلوك ابن خلدون** واضحٌ في (المقدمة والتاريخ).

فهو يُقَعِّدُ مبرراً ومفلسفاً ما جرى معه الذي يوافق طبيعة الحياة وما فيها من عوارض ذاتية.

وقَلَّما تجد فصلاً في المقدمة، إلا وتتعرف فيه على لوحة أخرى من اللوحات المكونة لشخصية هذا المؤرخ.

ولذلك تجده يكثر من ذكر كلمات تنم عما يجري في عهده وعصره.

كما يعرض لنا مشاهداته وتصرفاته، فهو يحقق ويجرب، وإذا ما انتقدت سلوكه الإِجتماعي مع من هم أعلى منه منزلة، فما عليك إلا أن تقرأ ما كتبه في المقدمة. (فصل في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً **لأهل الخضوع والتملق**، وأن هذا الخلق من أسباب السعادة).

وإذا ما انتقدت سعيه الحثيث للاقتراب من مراكز السلطة وسعيه ليكون من رؤوسها، فاقرأ (إن الجاه والسلطان جالب للمال)..

* * *

* يظهر أن **طبيعة العصر** الذي عاناه ابن خلدون دفع النخبة منه إلى محاولة استخلاص الضوابط والقواعد الشاملة الحاكمة لكثير من العلوم.

ويمكن أن نعرض هنا سيرة الإمام الشاطبي في كتابه **الموافقات** فهو أصل من الأصول لم يؤلف قبله مثله قعَّد فيه قواعد، وبين مهمات من خلال منهجه الاستقرائي.

* * *

* ينظر إلى طبائع العمران التي تحدث عنها ابن خلدون على أنها قوانين طبيعية تنتج آثاراً عند تحققها، فهي الشرط اللازم للسير التاريخي المؤدي لتعاقب الدول وتغير الأحوال.

ولكن هل هي لازمة لكل شيء في رأي صاحبها؟ أم أنها قوانين ضابطة لمسار ما أسماه بالدول أو السلطنات؟.

وهنا يلزم التمييز بين ما يُعْرَفُ بالخلافة، وما يطلق عليه السلطنة أو الدولة؟

فالخلافة: تعبيرٌ اصطلاحي يراد منه القيم الفكرية التي جعلت الدول والسلطنات حامية لها، وهي بهذا المعنى خارجة عن الصيرورة التاريخية لأنها فوق التغير والتبدل لثبوتها وشموليتها.

فإذا كانت الدولة مسخرة لتنفيذ المعاني المطلوبة من الخلافة، أفادت النجاح والاستمرار، لاندغامها مع الفكرة المطلوبة منها فلا تعتريها العوارض الذاتية ـ بتعبير ابن خلدون ـ وإن هي جعلت الفكرة خادمة لمصالحها وأهواء رجالاتها آذن نجمها بالأفول، واعتراها ما يعتري الإنسان من عوامل الضعف والموت.

إذا فالأولى تستمدّ وجودها واستمرارها من التأييد الإلهي، لأنها تطبق أوامر الله، فتقدم ما أوجب الله على مصالحها الذاتية «حدٌّ يقامُ في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحاً». فهي تستمر ما دامت محققة لأهدافها، مؤمنة بأنها أداة تنفيذٍ لشرع اللهِ، فتستفيد عندئذٍ من أمثال قوله تعالى: ﴿إنْ تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وقوله عز وجل: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مئتين..﴾.

* * *

غايته من كثير من أبحاثه نقل المعرفة الحقة لأفراد الأمة، وكأنه يرغب أن يكونوا على مستوى عالٍ من الفهم والوعي السياسي، ونلمس ذلك في حديثه عن معنى البَيْعة في

الفصل التاسع والعشرين؛ إذ يحث القارىء على فهم معنى البيعة في العرف، لأنه من اللوازم الأكيدة للمرء لما يلحقه من:

ــ حقوق السلطان والإمام.

ــ حتى لا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً.

وكل ذلك لتكون ممن يعتبر ويوازن كل ما يقرؤُه ليجعل منه تطبيقاً فعلياً عملياً في علاقته مع الملوك.

أي أنه إنسان جعل من رعاية حقوق الملك ديدنه، وأراد أن يجعل من ذلك سلوكاً عاماً ينظم أفراد الأمة لتسير السير الصحيح بدون وقوع في الكوارث والفتن.

* * *

* عدم اعتماده على الوثائق الشفهية ولو تكرر سماعه لها، رغبةً منه في ضبط المسموع بالكتابة ــ التي تُؤَكِّدُ بالسماع ــ الشفاهية.

إن نظرته إلى ضبط المرويات تنطلق من قناعة داخلية تتطلب دائماً البحث عن الدقة المساعدة على الوصول إلى صحة المسموع، ودقة المكتوب. [انظر فصل علم التصوف ــ في حديث عن شيخه أبي المهدي، وسماعه لعبارات منه، وتثبيته ذلك في نقله عن الوزير ابن الخطيب].

* * *

ــ لما دقق في نفيه ما قيل عن العباسة أخت هارون الرشيد، تعرفنا على ملامح من نفسيته وعقليته.

فهو إذ ينفي الحادثة يُعَبِّر عن حقائق من شخصيته، تَنُمُّ عن عِظَمِ اعتداده بأصله العربي، فهو يأبى على العباسة (أن تُدَنِّسَ شرفها العربي بمولًى) رغم أن مَا كَان بينهما زواج، فهو لا يرى فضلاً أو شرفاً للفرس الموالي..

ولعله يذهب إلى ذلك من خلال المدرسة الفقهية أن تطلب الكفء في النسب والحسب، ولا تجد غير العربي كفؤاً للعربي.

وهو يقرُّ باحترامه وإجلاله للنسب النبوي، وأنه من دواعي البعد عن الفحش والموبقات..

كما أنه يؤكد بعض الجوانب المهمة في دفع الموبقات وضبط العلاقات بين الناس، فمن ذلك:

الملك المنيع، والخلافة النبوية المرتبطة بالزمان (قرب العهد) والمكان (مهبط الوحي) والأشخاص (الصحابة) والروابط الفكرية (نور الوحي) وأضاف إلى ذلك البساطة التي لم يشبها ترف..

* * *

الركائز التي انطلق منها ابن خلدون في اكتشافه القوانين الناظمة لطبائع العمران:

١ـ التحليل والتركيب: فبعد غوصه في عمق الظاهرة بعد تحليلها وتفكيكها، يرجع إلى تجميع الجزئيات في مقدمة كلية.

٢ـ التجارب البشرية التي شاهدها [المقدمة الخامسة].

٣ـ ملاحظة العلائق بين الإنسان والحيوان.

٤ـ الاستفادة من التجارب المقامة على الحيوان وعكس ذلك على واقع الإنسان [المقدمة الخامسة] فهل يمكن اعتباره ممن دعا إلى المدرسة التجريبية؟.

٥ـ استعانته بآخر ما وصل إليه عصره من علومٍ طبية وتشريحية في تحليله للظاهرة التي يدرسها [المقدمة السادسة: بحث الرؤيا].

* * *

* تفيد دراسة المقدمة علماء التغذية في تعريفهم بالأغذية وتفاعلها مع النفوس، ونواتجها.

كما ينبه خلال ذلك على ضرورة فهم طبيعة التغذية وتدرجها زيادة أو نقصاناً، وأن الإفراط مؤد لعكس المقصود.

كما يستفيد المزارعون ومربو الدجاج معلومات عن نوعية الغذاء المفيد لسمن الدجاج وكبره..

ويعرفنا بالأغذية المفيدة للبدن والأغذية الضارة، وطبيعة الأغذية المساعدة على تقوية الأبدان.. انظر المقدمة الخامسة.

* * *

* اكتشافه قوانين جديدة في علوم الشريعة، كقانون التمييز بين المكي والمدني مما لم يشر إليه قبله. [المقدمة السادسة ـ آخر حقيقة النبوة].

* اكتشافه لحقيقة الدوافع وراء تمرد بعض المتنبئين [المقدمة السادسة: آخر الكهانة].

* تحليله لظاهرة الرؤيا عند الإنسان بما يشابه ما وصلت إليه آخر الدراسات الفلسفية في تفصيلها لجانب من جوانبها وابتعادها عن الجوانب الأخرى المدروسة في بحثه [السادسة ـ الرؤيا].

* اتباعه المنهج التجريبي فيما يصل إليه من معلومات إن كان يمكن ذلك، وتطبيقه على نفسه، واستخلاصه النتائج من ذلك [المقدمة السادسة ـ الرؤيا] كذكره الأسماء الأعجمية من أجل الرؤيا..

* منهجه في قبول التعليلات:

١ـ الرسوخ في المعارف.

٢ـ وتحصيل العلوم من أهلها.

وصلنا إلى ذلك في رده على المسعودي في مروج الذهب في تعليله لأمر الكهانة والعرافة.. [السادسة..].

* * *

* إن اعتراض ابن خلدون على بعض الوقائع الحادثة في التاريخ يحتاج منه إلى إعادة نظرٍ وتريث.

* رفضه لبعض الأحداث بناء على أنها مخالفة لقوانين الطبيعة كنقل المسعودي لغطس الإسكندر داخل صندوق من الزجاج داخل البحر.. وهو في ذلك ينفي قدرة السابقين على القيام بشيء بدون أن يكون لديه ثوابت قطعية في رد ما ادعي، وإن كان يمكن أن يكونوا ممن وصلوا إلى تقنيات علمية لم تصل إلى عصر ابن خلدون...

* * *

الحديث الشريف:

يؤخذ عليه في استدلاله بالأحاديث النبوية:

ـ عزوه أحاديث إلى مصادر ثم لا توجد فيه.

ـ نسبته أحاديث إلى أحد الصحابة ثم لا توجد له: انظر السحر والطلسمات.

ـ عدم تنبيهه على الأحاديث الموضوعة: «كنت كنزاً..».

ولعل ذلك نابع من:

اعتماده على ذاكرته فيما يتعلق بالحديث الشريف، وعدم مناقشة ما سمعه كثيراً مما أوجد عنده قناعة جعلت ما ينقله كالمسلمات العقلية.

ويستفاد من استدلاله بالأحاديث النبوية:

١ـ تنبيهه على معان جديدة قلما طرقت من قبله.

٢ـ استخدامها كقواعد يستند عليها في انطلاقه وتأكيده.

* كما أن اعتراضه على بعض الأحاديث والآثار النبوية يحتاج إلى وقفة تأمل، إذ أنَّ اعتراضه يتنافى مع منهجه التاريخي الذي أصله، ودعا إليه.

ولا يرد هنا دراسته الأحاديث المتعلقة بالمهدي لأنه:
- درس الأسانيد وبين الصحيح من غيره وفق منهج نقاد.الحديث.
- ثم بين ضرورة مراعاة السيرورة التاريخية التي نبه عليها من طبائع العمران.

* * *

اقتباساته

كثيراً ما يظن أن استفادة المرء من الآخرين هي الشيء الوحيد الذي جعلهم يصلون إلى ما هم عليه.. ولذلك يتهم الكثير من الأدباء والمفكرين بسرقة إنتاج الآخرين وتقديمه بصورة أو بأخرى مع إغفالهم لذكر صاحب الأصل.

وهذا ما نلمسه فيما ذهب إليه بعض الدارسين لابن خلدون في بحثه للشعر الأندلسي.

وأحب أن أشير إلى أن ذلك لا يستحق أن يوصم به ابن خلدون لأسباب:
- ذكره لصاحب الفصل في أكثر من موطن في ضمن الفصل.
- استخلاصه لهذا الفصل تحديداً من كتاب كبير يحوي فصولاً متعددة تتعلق بكثير من تلك القضايا ينبىء عن مقدرة خاصة توحي بالتمكن، ومعرفة الأشياء النافعة والمفيدة له في بحثه وما يريده بحيث اعتبر ذلك الفصل من مهمات دراسة ذلك الشعر، فهو مقتبس بارع، يمتاز باختيار النافع من دراسات وأبحاث الآخرين.
- كما أنه لا يطلب من دارس لعلم العمران أن يكون ملماً بكل العلوم، وهو حين ينتقي من العلوم ما ينفع أبحاثه يؤكد ضمناً عبقريته، وجودة فهمه.
- وهذا الإتهام يشبه إلى حدّ ما ما نسب إلى الكاتب المسرحي برتولت بريخت من إغفاله ذكر المسرحي ميرخولد الذي اعتبره بعض الدارسين من أهم أسباب نجاحه، وهذا يمكن أن يكون صحيحاً لو كان ميرخولد مبرّزاً في كل الجوانب المسرحية، في حين كان اهتمامه منصباً على الجانب الاستعراضي الذي استفيد منه ووظف لغايات وأهداف غير التي أرادها ميرخولد.

* * *

إن **المدرسة التجريبية** في كل ما قدمته ـ لم تخرج عن المنهج الذي سار عليه ابن خلدون، فهو يقدم معلوماته من خلال:
- استقراء المعلومات.
- السماع من الأشخاص.
- التأكد من المسموعات عن طريق:
- التثبت من أقوال الأشخاص بمتابعة غيرهم لهم.

- البحث عن مداخل ما ينتحله من سمع عنه.
- التجربة الشخصية لما وصل إليه من بينات يمكن التعامل معها.. [انظر السحر والطلسمات].
- الاستفادة من الإحساس الداخلي الذي يرقى به إلى مستوًى يجعله يعتبره واقعاً ملموساً يشترك فيه كل من يمر بتلك الممارسة، وهذا ما أفاده في بحثه عن الغناء، وما يؤثره في النفس من حالة شعورية تماثل ما يصيب العاشق الولهان، وهو في ذلك يبين لنا مدى تعامله مع المشاعر الإنسانية، وتداخل معطياته مع كل مادة يقدمها. [انظر فصل صناعة الغناء].

* * *

ظلال شخصية:

- إن الكتابة هي انعكاس لشخصية الكاتب، وبالتالي هي صورة عن تفكيره وسلوكه، مهما حاول إخفاء معالم ما يريد، ونلمس ذلك في:
- طريقة المعالجة التي استخدمها في عرض المعلومات وتوزيعها، والشعور العام الذي لا يوحي بالترابط بين أجزائها، مما يوحي بتفكك شخص الكاتب، وتمزقه.
- فهو مشتت البال، يستذكر عند إيغاله في بحثٍ من أبحاثه أنه قد تعرض لهذه المعاني فيما مضى.
- وهو دبلوماسي في تحليله وإصدار أحكامه، يجعل لنفسه مخرجاً مما يمكن أن يثير خصومه عليه. وهو في ذلك مثال للذي لا يرى الحياة بمنظارين فقط، وإنما بتدرج ألوانها، فلا وجود لبياض مطلق ولا سواد مطلق..

ابن تومرت:

يذهب الدكتور الوردي في منطق ابن خلدون (ص٢١٧) إلى أن دفاع ابن خلدون عن ابن تومرت بسبب أنه أراد إهداء كتابه إلى ملك ينتمي للموحدين. وأحسب أنه جانب الصواب في ذلك، لأنه يدافع عن هذه القضايا دفاع المؤمن بها، إضافة إلى احترامه الأساسي للغزالي، وبما أن ابن تومرت من تلامذته فهو محبوب له، مما دعاه لاعتقاد صلاحه، ولا سيما أن ابن تومرت لم يحصِّل من وراء دعوته دنيا..

* * *

ويشبه هذا قوله (ص٢١٥ - ٢١٦): إن ابن خلدون مع الثورات الناجحة فقط.

بل هو مع الحث على استكمال شروط الثورة، ولا يقبل بالعشوائية والارتجال.. وهو ينتبه لنجاح بعض الثورات بدون سابقة، ولكن بعد أن تكون الدولة قد آذنت بالزوال،

وأصبح أي آتٍ قادراً على انتزاعها، وهو عندما يذكر النبي محمداً صلى ا لله عليه وسلم لم يغفل عصبية قريش، وعصبية آله، وإنما نبه على المعونة الإلهية.. وإن كان لم يشر إلى أن النبي صلى ا لله عليه وسلم لم يكتمل له الدين حتى دخلت قريش في الإسلام، كما لم يكتمل ليوسف صلى ا لله عليه وسلم الملك حتى جاءه أهله وخروا له ساجدين حين ذاك.

* * *

ابن تيمية:

الملاحظ على ابن خلدون إغفاله ذكر ابن تيمية في كتابه، رغم استفادته من منهجه في رده على المناطقة، وقد ذكر الدكتور علي الوردي الدلائل والشواهد على ذلك في كتابه (منطق ابن خلدون).

فلماذا لم يشر إليه من قريب أو بعيد؟ هل هي رغبة في طمس معالم شخصية ذاك العَلَم؟ أم لخلافٍ فكري منهجي بينهما؟! أو خوفاً من الظروف المحيطة التي تكره تلك المدرسة وتحاربها؟.

وأحسب أن هذه العوامل مجتمعة قد أثرت به.

وربما كان لأستاذه محمد بن إبراهيم الآبلي الذي له الأثر الأكبر في حياته، وهو الذي تتلمذ على أيدي دعاة الشيعة وتأثر بهم ونشر أفكار الطوسي في بلده تونس، ما جعله يوحي لتلميذه بكراهة لابن تيمية الذي كان معروفاً في العالم بردوده ومحاجته للشيعة والمناطقة، إضافة إلى انتهاجه مدرسة خاصة في العقيدة يكاد أهل عصره يجمعون على رفضها، كما أن السمعة العامة تظهر ابن تيمية كمعادٍ لمدرسة التصوف.. وابن خلدون يشعر براحة في عزلته متشبهاً بالغزالي..

كل ذلك أثَّر في توجهه نحو ابن تيمية، فاتخذ وسيلة الإغفال تجنباً للمصادمة مع أعداء ابن تيمية، وتجاهلاً لكل ما حسب أنه لم يعد مثار نقاش وجدل، ذلك أنه يعتبر العقائد قد رسخت في القلوب، ولم يعد هناك من يحتاج إلى حوار ومناقشة لاضمحلال أهل البدع وظهور أهل السنن.

علماً أنهما يتشابهان في نظرهما إلى المجتمع وما فيه من آثار سلبية، وكلاهما عمل في النطاق السياسي إلا أن ابن خلدون انجرف مع تيار السياسة الميكافيلية، مما جعله يخرج كلياً عن دائرة العمل السياسي. في حين بقي ابن تيمية في نطاق العمل السياسي الفقهي، معتبراً نفسه حاكماً للمجتمع يتصرف فيه رغم وجوده داخل الأسوار، فكاتب الحكام منبهاً على ضرورة تغيير ما هم فيه، وهدد أعداء الأمة المتربصين فيها داخلاً وخارجاً، ولا ننسى رسالته إلى حاكم قبرص شديدة اللهجة، لا يشعر من يقرؤوها إلا أنه الخليفة

يخاطب من هم دونه.. ولذلك ألف كتابه (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، لأنه يرى للمسألة شقين راعٍ ورعية، وكلاهما يحتاج إلى إصلاح. كما رأيناه قائداً عسكرياً يرسم الخطط، وينبه إلى وجود النصر المحقق بناءً على منهجه في المقارنات التاريخية التي استوعبها وسطرها في رسالة تبين أنه لم يخرج عن العمل في إخراج الإسلام من غربته بدون عجزٍ أو خور. وبدون تزلُّف وخنوع بخلاف فعل ابن خلدون مع تيمور. ولو جمعت أفكار ابنٍ تيمية الاجتماعية لعادلت في مضمونها - والله أعلم- مقدمة ابن خلدون الاجتماعية، إلا أن ابن تيمية كان من أساس المجتمع، نابعاً من بين أفراده البسطاء، وابن خلدون يجد نفسه فوق المجتمع، وله حق يوجبه له تراث أجداده.

ومع ذلك لاقيا الصدَّ والمحاربة ممن يحيط بهما، ذلك أن الطبيعة البشرية تَنْفُس على الآخرين أن يكونوا متفهمين للوقائع أكثر منهم... وخاصة إذا نظَّروا لهم، وبينوا مواطن أخطائهم.. وإذا ما تعرضت مصالحهم للخطر كانوا أشدَّ عناداً ومدافعةً، وخاصة من أصحاب السلطة والمتنفذين الذين يأنفون أن يساويهم أحد أو يحاول أن يكشف ما هم فيه من السوء.

فبقي ابن تيمية فقيهاً منذ البداية إلى النهاية، بخلاف ابن خلدون الذي اتخذ من الفقه صناعة في آخر أيامه.. وبينهما فرق أساسي أن الأول قرشي يمكنه المطالبة بالخلافة، بخلاف الآخر الحضرمي الذي وجد أن النسب القرشي غير ملزمٍ للأمة لتعيين الخليفة.

* * *

* استفاد ابن خلدون في إبداع نظريته من عوامل متعددة مكنته من التوصل إلى فهم طبيعة ما يجري، من ذلك:

ـ ثقافة عصره والعصور التي سبقته، إذ أن اطلاعه عليها ساعده على اختزان المعلومات، ومن ثمَّ التمكن من تحليلها وتركيبها من بعد.

ـ تنوع التجارب الاجتماعية التي مرَّ بها في حياته العامة والخاصة، إضافة إلى رحلاته وتنقلاته في ربوع المغرب والأندلس ثم الشرق. وما عاناه من اضطهاد وسجن.. بحيث يقال: إنه عاش مع أصناف البشر الذين تحدث عنهم فيما بعد في طبقاتهم المتنوعة والمتعددة.

ـ لحظات التأمل التي عاشها نتيجة الأزمات السياسية التي عاناها، مما دفعته لإعادة النظر في مجريات الأحداث لاستخلاص الأسباب والدوافع التي أدت إلى ما هو فيه، إضافة إلى العوامل المساعدة على تحقيق المبتغى مما سعى إليه طول حياته.

ـ التربية والنشأة التي طبعته بطابعها وحثته على خوض غمار هذه الحياة، وهو يحمل همَّ وطموح الآباء والأجداد. فاجتمع له الدراسة المتوازنة في ظل والده، كما دفع دفعاً داخلياً للاهتمام بأمور السياسة التي كان لأسرته قصب السبق فيها، ولهم المنزلة العالية الرفيعة، فهل يتمكن من تحقيق طموحه؟ ولما لم يجد في ذلك ما فيه فائدة ترجى عكف معتزلاً الحياة، دارساً أسباب فشله وضياعه.. فأنتج ما يمكن اعتباره دستوراً يبين الطريقة والمنهج لمن يريد أن يسير مسيره، ويقتفي أثره.

ـ الشعور بعدم القدرة على التأثير الفاعل في الحياة مما يؤدي إلى الانكفاء على الذات، والبعد عن مواطن الفعل الفاعل.

وهي مرحلة من المراحل الروحية التي يصل إليها المرء في حياته وتعرض له بعد مروره بتجارب يشاهد خلالها تجاوب الكون معه، وكأنه يسير وفق إرادته ومشيئته، أو بمعنى أنه يأتمر بأمره وينفذ أهواءه ورغباته.

ويعقبها النظر إلى الكون والإنسان بعين الشفقة والرحمة، وهي منعكسة عن وصوله إلى مرحلة ضعفه البشري الظاهر والبَين فيعرف أنه غير فاعلٍ حقيقةً، وأنَّ ما يجري ويظن نفسه سائقاً له، إنما هو الذي يسوقه فيعيش حياة روحية يشعر فيها بنشوة خاصة لها لذتها التي تمنعه من محاولة تغيير أي شيء يمرّ به أو إقدامه على فعلٍ لتغيير ما هو فيه.

* * *

ولزيادة التعرف على منهج ابن خلدون العلمي وكيف نظر إليه كعالم اجتماع، ألحقت بالدراسة مقالتين قدمتا لمهرجان ابن خلدون في القاهرة.

تاريخه وعلاقته بالمقدمة

إن تاريخ ابن خلدون لم يلقَ من عناية الباحثين ما يستحقه من دراسة ورعاية بسبب عدم عناية من اعتنى بالمقدمة من الغربيين وغيرهم به، وسبب إطلاق بعضهم على الكتاب أنه غير مستوفٍ للشروط والضوابط التي أثارها في مقدمته. وهو بلا شك ظنٌّ خاطىء لا يحسن أن يلتفت إليه، ولا سيما أنه ألف كتابه مترافقاً مع مقدمته. وأجرى الإصلاحات والتعديلات خلال رحلاته ومراجعاته وهي بلا شك قد شملت كلّ الكتاب لا جزءاً واحداً منه..

يلاحظ على تاريخه:

ـ عنايته بالأحداث السياسية المتعلقة بتاريخ أحداثه.

ـ تجاهله للعلماء وغيرهم ممن لا علاقة له بمجريات الأحداث السياسية.

ـ انتقاء الضروري من أحداث التاريخ التي تعين على ترابط الأحداث العامة وإن كان يذكر في كثير من الأحيان بعض الأحداث الصغيرة التي لا تقدم أو تؤخر في الوقائع.

ـ فهل يعتقد ابن خلدون أن العلماء ومن شاكلهم لا قيمة لهم في التاريخ أو بمعنى آخر السياسة التي يريدها..؟ هل هو نأي بهم عن تلك المهالك، أم أنهم غير قادرين على أي فعل مؤثر في الحياة الاجتماعية السياسية؟!.

وهذا يستجر إلى السؤال: لماذا كان بعض الخلفاء أو الأمراء أو الوزراء يراعون جانب العلماء؟ أو يسيرون في جنائزهم...؟.

وإذا ذكر أحد العلماء فإنما في معرض تبيين نسبة أحد السياسيين، كما في تبيين نسب البساسيري، فذكر أبا علي الفارسي صاحب الإيضاح (٣/٤٦٥).

* اهتمامه ببناء المدارس كالنظامية ومن درس فيها، و...(٣/٤٦٩).

* اهتمامه بذكر اهتمام بعض السلاطين والأمراء بالعلماء، واهتمام العلماء.. انظر (٤/٣١٧).

* عنايته بمن زوج أو تزوج من الأمراء والحكام (٤/٣١٦).

* ذكر خصائص الملوك واهتماماتهم، مثل:

اقتنى من الأواني والآلات..

جمع في عصمته بنات الملوك.

أرسل طباخين على الديار المصرية.. حتى تعلموا الطبخ (٤/٣٢٠).

ـ يغلب عليه الاقتصار من الأعلام على التعريف العام، الذي لا يوقع في اللَّبس، فمثلاً لما ذكر (٣/٤٧٠) صاحب ديار بكر (ماردين) «ابن مروان» اكتفى بهذه النسبة، و لم

يذكر اسمه، ولعل مرد ذلك إلى ذكره في المصادر التي بين يديه تحت اسم «نصر بن مروان» وفي أخرى: «نصر بن أحمد بن مروان». فاقتصر على الترجمة المعبرة عن الفكرة دون دخول في الجزئيات التي لا فائدة منها لكتابه.

* * *

*مناقشته للأحداث والوقائع والأنساب مرتبطة بضرورة توضيح وتبيين ما أراده من الباب الذي عقده ولذلك وجدناه يناقش النسب العبيدي في ضمن تاريخه [٤/٣١ - ٤٠] بعد أن كان أشار إشارة إلى ذلك في مقدمته.

وبهذا نخلص إلى **نتيجة مهمة**، وهي: تطبيق ابن خلدون لمنهجه النقدي ليس في مقدمته فقط وإنما ضمن تاريخه في الأماكن الداعية لذلك، وإذا كان بحثه لها سابقاً غير مستوفٍ للبينات والدلائل التي رغب في إيضاحها.

ولا داعي لمناقشة ما وصل إليه من قناعات أيدها بالحجج فيما ظهر له، لأسباب منها:

ـ مضي الأحداث بحيث لا فائدة من كثرة الجدل حولها.

ـ عدم وجود البينات القاطعة المثبتة أو النافية لأي شيء من الآراء الذاهب إليها أو المخالف لها [انظر بني عبيد].

* تعتبر المقدمة المدخل الرئيس لأبحاث التاريخ، فقد قدم بداية كل ما يتعلق بطبائع العمران ونتائجه، وضرب أمثلة كثيرة توضح وتبين وجود أو عدم تلك الجوانب في الدول التي عرضٍ أحداثها ذاكراً الضروري مما يكشف عن طبائع العمران في ثنايا مقتطفاته، معتمداً كون قارىء تاريخه قد طالع مقدمته واستكمل الصورة عن الدولة التي يستعرض أحداثها.

لذلك يطلب ممن يريد فهم وقائع التاريخ كما عرضه ابن خلدون أن يجمع بين النتف التي عرضها عن تلك الدولة في المقدمة ـ واضعاً إياها في محتواها الاجتماعي والثقافي، قبل استعراضه للأحداث عامة.

* هناك ارتباط وثيق بين المقدمة والتاريخ، ويلمس ذلك في:

ـ إحالته على التاريخ في مواضع من مقدمته حيث يذكر الأسباب العمرانية في المقدمة، ويسرد الأخبار في التاريخ [انظر آخر الفصل ٤١ من المقدمة].

* * *

المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون

للدكتور حسن الساعاتي[١]

تمهيد:

حقائق الماضي هي الميدان المشترك بين التاريخ من جهة، وعلم الاجتماع من جهة أخرى. ولذلك كان هم كبار المؤرخين نقل الأخبار والروايات بأمانة، وتسجيلها بدقة، وتحصيل مادة وفيرة منها، تعين على تصوير الماضي تصويراً واضحاً، يجعل قراءته مفيدة والعبرة منه أكيدة. فالمسعودي يمتدح الطبري، لأن تاريخه قد زها على المؤلفات، وزاد على الكتب المصنفات، (فقد جمع أنواع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشتمل على صنوف العلم)[٢]. ويشير المسعودي إلى غزارة المادة التي جمعها في مصنفه التاريخي الذي اشتهر به فيقول: (ولم نترك نوعاً من العلوم، ولا فناً من الأخبار، ولا طريقة من الآثار، إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصلاً، أو ذكرناه مجملاً، أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات، أو لوحنا إليه بفحوى من العبارات)[٣]. فلا غرابة إذن. بعد هذا الجهد والمعاناة في جمع تلك المادة الغنية التي احتوى عليها كتاب مروج الذهب، أن يستمطرمصنفه اللعنات على (من حرف شيئاً من معناه، أو أزال ركناً من مبناه، أو طمس واضحة من معالمه، أو لبس شاهدة من تراجمه، أو غيره، أو بدله، أو شحنه، أو اختصره، أو نسبه إلى غيره أو أضافه إلى سواه)[٤].

ولئن كان فضل المؤرخين القدامى في أمانة النقل، وغزارة المادة التي صنفوا منها كتبهم، فإن عبد الرحمن بن خلدون قد أضاف إلى ذلك فضلاً آخر ظهر في ناحيتين:

الأولى في تفريقه ما بين التاريخ وفلسفة التاريخ، **والثانية** في تساؤله الدائب عن العلل والأسباب للحوادث والوقائع.

فأما **الناحية الأولى** فواضحة من قوله: (إن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل، فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار، فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده، وتتبين به أخباره)[٥]. ولقد هداه هذا الإتجاه إلى استقراء نظريات

---

١ – البحث المقدم لمهرجان ابن خلدون المنعقد في القاهرة ١٩٦٢.

٢ – مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ، القاهرة، المطبعة البهية، ١٣٤٦هـ ، ص ٦.

٣ – المصدر نفسه،ص ٨.

٤ – المصدر نفسه،ص ٨، وفي النص نسبة إلى غيرنا، وإضافة إلى سوانا.

٥ – مقدمة العلامة ابن خلدون، القاهرة، مطبعة مصطفى محمد، ص ٣٢. وقد اعتمدنا عليها اعتماداً أساسياً في هذا البحث.

كثيرة ومتنوعة خاصة بالعمران البشري، (وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس، والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال)[١].
وهداه هذا الإتجاه أيضا إلى إدراك ظاهرة التغير الإجتماعي، فهو يقرر (أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول)[٢].

والناحية الثانية التي ظهر فيها فضل ابن خلدون، والتي ميزته عن فطاحل المؤرخين في عصره ومن سبقه من المؤرخين القدامى، تنحصر في اهتمامه بتقصي الأسباب والعلل والدواعي للواقعات أو الحقائق الإجتماعية، ذواتاً كانت أو أفعالاً. ولذلك نجده في المقدمة يقرر استقراءاته في شكل قضايا عامة، ثم يبدأ في تحليلها بذكر عبارتي (والسبب في ذلك)، (وذلك لأن)[٣]. ويقرر ابن خلدون رأيه في ربط الأسباب بالمسببات بقوله: (إنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والأحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض)[٤].
ولذلك نجده ينقد من سبقه من المؤرخين لغفلتهم عن ذكر أسباب الوقائع والأحداث[٥].

ذلك لأن ابن خلدون قد فطن إلى ما بين التاريخ وفلسفة التاريخ، أو التاريخ التحليلي من بون شائع. فهو يقرر أن (فن التاريخ... في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع بالتساؤل عن أحداث الماضي فيسجلها، ولكنه يسأل أيضا عن كيفية حدوثها، وهذه مرحلة متقدمة عن سابقتها. ثم هو لا يقف عند ذلك فحسب، بل يتقدم أيضا إلى مرحلة سامية في المعرفة فيتساءل عن سبب وقوع هذه الأحداث، لقد كان مبدؤه في كتابة مقدمته، أن يسأل بخصوص أية ظاهرة من ظواهر العمران، ماذا؟ وكيف؟ ولماذا؟ فإجاباته عن الأولى والثانية (ماذا؟ وكيف؟) تكون مادة

---

١ - المقدمة، ص ٣٥.
٢ - المقدمة ص ٢٨.
٣ - هذه العبارات مذكورة عشرات المرات في فصول كثيرة من المقدمة.
٤ - المقدمة، ص ٩٥.
٥ - المقدمة، ص ٥.

فن الوصف الإجتماعي، أما إجاباته عن الثالثة (لماذا؟) فتكون موضوع علم الإجتماع. فلا غرابة إذن أن نقرأ أن الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة، عندما سأله ابن خلدون: (ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين؟)[1] ثم ذكر له إجابته الواردة في مقدمته، قد شهد لعظمة تفكيره بقوله:(يا فقيه! هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب[2]) هكذا كان دأب ابن خلدون، الفيلسوف الإجتماعي، الذي كتب في اعتداد وصدق في بداية مقدمته: (ولم أترك شيئاً في أولية الأجيال والدول، وتعاصر الأمم الأول، وأسباب التصرف والحول، في القرون الخالية والملل، وما يعرض في العمران من دولة وملة، ومدينة وحلة، وعزة وذلة، وكثرة وقلة، وعلم وصناعة، وكسب وإضاعة، وأحوال متقلبة مشاعة، وبدو وحضر، وواقع ومنتظر، إلا واستوعبت جمله، وأوضحت براهينه وعلله)[3].

المنهج العلمي في مقدمات كتب كبار المؤرخين المسلمين القدامى:

إن كبار المؤرخين المسلمين القدامى هم الطبري والمسعودي وابن خلدون[4]. وفي رأينا أن المقريزي، الذي عاصر ابن خلدون في أواخر أيامه، يمكن أن يذكر اسمه بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة. ولما كانت عظمة ابن خلدون وأصالته تتجلى في منهجه العلمي الذي فصله ودعمه في مقدمة تاريخه (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، فقد رجعنا إلى مقدمة كتاب (تاريخ الأمم والملوك) لمحمد ابن جرير الطبري، وهي مقدمة تقع في أربع صفحات، ومقدمة كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ) لعلي ين الحسين بن علي المسعودي، وصفحات هذه المقدمة أربع عشرة صفحة، ثم إلى مقدمة كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار لأحمد بن علي بن عبد القادر المعروف بالمقريزي، وعدد صفحاتهاأربع صفحات. وغايتنا من ذلك أن نقف على المنهج العلمي الذي ذكره كل منهم في مقدمة كتابه، وبذلك تتسنى المقارنة، وتظهر أصالة ابن خلدون.

أما الطبري فقد وقف عند مشاهدته الخاصة، واكتفى بالنقل عن الرواة نقلاً أميناً، دون أن يشك في رواياتهم وأخبارهم. ويقول شارحاً منهجه في التاريخ:(وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه، مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو

---

١ – المقدمة ، ص ٥٨٠.

٢ – المقدمة ص٥٨٠.

٣ – المقدمة، ص ٧

٤ – انظرUiKEN,HILMI ZIYA, LA PFENSEE DE L ,ISLAM ,ISTAMBUL, FAKKULTELER MATBAASI١٩٥٣P,٤٠,

على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أبناء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم، إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول والإستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فيعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا)[١]. حقاً إنه لفضل كبير أن ينقل المؤرخ الأخبار بأمانة، ويؤديها على النحو الذي أديت إليه به، ولكن الفضل الأكبر يكمن في بذل الجهد لتمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها.

وأما المسعودي فقد ارتقى درجة عن الطبري، لأنه وقف ممن سبقه من المؤرخين موقف الناقد، فأثنى على ابن قتيبة والطبري ونفطويه والصولي لغزارة مادتهم وتنوع الأخبار التي حوتها كتبهم، ونقد سنان بن ثابت بن قرة الجرجاني لأنه انتحل ما ليس من صناعته، واستنهج ما ليس من طريقته[٢]. وهكذا يعتمد المسعودي على الثقات من المؤرخين. وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه: ولم نذكر من كتب التواريخ والأخبار والسير والآثار إلا ما اشتهر مصنفوها وعرف مؤلفوها[٣]. وعلى الرغم من ذلك فقد وقع المسعودي في أخطاء كثيرة، لأن ثقته ببعض المؤرخين جعلته ينقل عنهم الأخبار، غثها وسمينها، وما كان منها مستحيل الوقوع. وبذلك استحق نقد ابن خلدون اللاذع في أكثر من موضع في مقدمته.

وأما المقريزي فقد ضمن مقدمة كتابه فصلاً عنوانه: ذكر الرؤوس الثمانية بدأه بقوله: اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمرتبة، وصحة الكتاب، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه[٤]. وبعد ذكر الرؤوس السبعة الأولى، يقول عن الثامنة: وأما أي أنحاء التعاليم قصدت في هذا الكتاب، فإني سلكت فيه ثلاثة أنحاء، وهي النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من مشيخة العلم

---

١ – تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، المطبعة الحسينية، الطبعة الأولى، (بدون تاريخ)، ص ٥.
٢ – مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ. القاهرة. المطبعة البهية ١٣٤٦ ص٧.
٣ – المصدر نفسه (ص٧).
٤ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ص٣).

وجلة الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته، فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم، فإني أعزو كل نقل إلى الكاتب الذي نقلته منه لأخلص من عهدته، وأبرأ من جريرته، فكثيراً ممن ضمني وإياه العصر واشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم، وقصور باعه في معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس، يهجم بالإنكار على مالا يعرفه، ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله. وليس ما تتضمنه هذا الكتاب من العلم الذي يقطع عليه ولا يحتاج في الشريعة إليه. وحسب العالم أن يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه. وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فإني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثني إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته، وقل ما يتفق مثل ذلك. وأما ما شاهدته فإني أرجو أن أكون و لله الحمد غير متهم ولا ظنين[1].

إن هؤلاء المؤرخين الكبار متشابهون في طريقة تفكيرهم، وفي منهجهم العلمي. فهم ينقلون من كتب من ألف قبلهم، ويروون عن أناس وضعوا فيهم ثقتهم، ويسجلون مشاهداتهم، ويرعون في ذلك كله أمانة النقل والرواية، وصدق التسجيل. وهذه شروط أساسية في البحث العلمي، ولكن الدعامة الأساسية التي ترتكز عليها هذه الشروط، هي أن تكون الأخبار، أو الحقائق التي تنقل أو تروى، صادقة، أي: أن تكونَ **قد وقعت فعلاً، أو كان لها وجود أصلاً**. وهذا أمر لم يفطن إليه الطبري، والمسعودي، والمقريزي، ولكنه لم يفت ابن خلدون الذي نبه إليه، وألف فيه مقدمته التي تربو صفحاتها على ست مئة صفحة، والتي اهتدى فيها إلى معيار الحقيقة في الأخبار والروايات، ألا وهو العمران البشري، وماله من طبائع في أحواله[2].

فبه يمكن تنقية الأخبار والروايات من الباطل المبتدع، وزخرف القول المصطنع، الذي موه به المرجفون صفحات التاريخ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، و لم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال و لم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها. فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل. والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل.

---

١ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ص٣ و٤).

٢ - المقدمة ص٤.

المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون

عندما نستعرض مقدمة ابن خلدون نجد أنفسنا أمام عمل عظيم، أمام بناء جديد فريد شامخ، وطيد الأركان، محكم البنيان. فالأفكار فيها غزيرة منسقة، تسير في تسلسل منطقي، فابن خلدون **يبدأ** مقدمته بتمهيد يحمد فيه الله الذي أنشأنا من الأرض نسماً، واستعمرنا فيها أجيالاً وأمماً، ويسر لنا منها أرزاقاً وقسماً، تكنفنا الأرحام والبيوت، ويكلفنا الرزق والقوت، وتبلينا الأيام والوقوت [المقدمة ص٣]. وواضح من ذلك أن أفكار المؤلف منذ البداية مركزة حول السكان، والعمران والتغير الاجتماعي والتطور، والسياسة، والاقتصاد، والطبقات، والأحوال الاجتماعية المعيشية.

وفي **التمهيد** بعد ذلك انتقال إلى تعريف فن التاريخ في ظاهره، وفي باطنه، وتأكيد لمبدئه في تمحيص الأخبار والروايات، وإشارة إلى التغير الاجتماعي، وتبيان لأهمية أسباب ذلك وعلله، وتفصيل لمحتويات كتاب العبر والمبتدأ والخبر.

ويلي التمهيد مقدمة في المنهج العلمي يبين فيها ما يحتاج إليه الباحث المؤرخ، والسبيل الذي يجب عليه أن يسلكه، حتى يقي نفسه من الزلل، والحيد عن جادة الصدق. كذلك يجري في هذه المقدمة تحقيقات مختلفة، سكانية وإحصائية، وحربية، وجغرافية، وحضرية، وتاريخية، ثم يبين أخطاء المؤرخين وأهم أسبابها.

ويلي المقدمة ما أسماه ابن خلدون الكتاب الأول الذي يتناول طبيعة العمران في الخليقة، وما يعرض فيها من البدو، والحضر، والتغلب، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها، وما لذلك من العلل والأسباب [المقدمة: ٣٥].

ويمكن **تقسيم المنهج** العلمي في مقدمة ابن خلدون إلى قسمين أساسيين، **أحدهما** خاص بقواعد عامة، **والآخر** يشتمل على قواعد خاصة. فأما القواعد العامة فهي التزود بالعلم، ومعرفة طبائع العمران والتشكك، والموضوعية، والحيطة عند التعميم، وأما القواعد الخاصة فتشمل التأمل والاستقراء، والتحقيق العقلي، والتحقيق الحسي، وسؤال الخبراء، والمقارنة، والتجربة، والنظر في الحوادث في إطارها الزماني.

قواعد المنهج العامة في مقدمة ابن خلدون:

إن القواعد التي ذكرناها آنفاً، سواء كانت قواعد عامة، أو قواعد خاصة، قد وردت في مقدمة ابن خلدون، إما صراحة في شكل تعاليم محددة واضحة، وإما ضمناً في سياق الحديث والشرح والتحليل. والمقدمة شاهد ناطق على أنه معلم بارع، وحجة في المعرفة، فهي تتناول كل فروع علوم العرب وحضارتهم، ولهذا فهي من غير شك، أعظم عمل في

ذلك العصر، من حيث عمق الفكرة، ووضوح العرض، وسداد الحكم. ومن الواضح أنه لم يكن مسبوقاً في ذلك بأي عمل آخر لأي مؤلف مسلم[1].

والقواعد العامة التي سنفصلها فيما بعد، من مستلزمات المنهج العلمي الأساسية في البحث. فهي شروط لا بد من توافرها في الإنتاج العلمي إذا أريد له الأصالة والسلامة. وقد اتبعها ابن خلدون نفسه في مقدمته، فأعثره الله بفضلها على علم جعله سن بكره، وجهينة خبره، علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته [المقدمة ص٣٨].

أولاً ـ التزود بالعلم:

التزود بالعلم قاعدة عامة أساسية للبحث العلمي في أي فرع من فروع المعرفة. والباحث المؤرخ في نظر ابن خلدون محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط [المقدمة: ص٩].

ويوضح ابن خلدون ما يقصده بالمآخذ والمعارف في موضع آخر من المقدمة، فيقول: فإذاً يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة، وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار، في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل، ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها، ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعباً لأسباب كل خبره [المقدمة ص٢٨].

وابن خلدون حين يشير إلى ضرورة التزود بالعلم، كعملية إعداد قبل الخوض في موضوع البحث نفسه، يضرب لنا المثل على ذلك بنفسه فهو لم يكتب هذا العمل الخالد إلا بعد أن تزود بالعلم، واطلع على الآثار الفكرية التي خلفها كبار المؤرخين القدامى. ولولا ذلك ما تسنه له إنشاء ما أنشأ من علم جديد، استلهم أفكاره من بين أحضان التاريخ، فجاء كتابه فذاً بما ضمنه من العلوم الغريبة، والحكم المحجوبة القريبة [المقدمة ص٧].

ثانياً ـ معرفة طبائع العمران:

---

١ - encyciopedia of isiam, vol. 11,p. ٣٩٦.

إن معرفة طبائع العمران تقوم أساساً على الإحاطة الواسعة بشتى العلوم والتعمق فيها. ولقد بلغ من دقة ابن خلدون في تصور مفاهيمه وتحديدها، أن ميز بين الاجتماع الإنساني الذي يقتضيه التعاون للحصول على ضروريات الحياة، والعمران البشري الذي ينشأ عن الاجتماع الإنساني حين يصبح مجتمعاً ديناميا، تتحكم فيه النظم الاجتماعية في السلوك الجمعي لأفراده، الذين ينخرطون في سلك جماعات متمايزة، تكسبهم العناصر المختلفة للتراث الاجتماعي. فالاجتماع الإنساني، في نظر ابن خلدون، اجتماع عددي، أي: مجرد تجمع الأفراد للتعاون. وهذا واضح في قوله: فلا بد من اجتماع القدرة الكثيرة من أبناء جنسه، ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف [المقدمة: ص١٧٧]. وكذلك يشير ابن خلدون إلى اجتماع الأيدي على العمل بالتعاون فيه وإلى اجتماع الفعلة [المقدمة ص٤٢]. ويقول في وضوح لا لبس فيه: قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم، وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم، وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته [المقدمة ص١٨٧] فالاجتماع صورة سابقة على العمران الذي ينشأ عما يحدث بين المجتمعين من معاملات، ويقوم بينهم من علاقات.

والاجتماع الإنساني الذي يؤدي إلى العمران، هو الاجتماع الذي يعرف اصطلاحاً بالمدينة، أي: هو الاجتماع الذي تظهر فيه الظواهر الاجتماعية، وتنشط فيه النظم الاجتماعية، فتتشكل حياة الأفراد في جماعاتهم وتجمعاتهم المختلفة [المقدمة ص٤١]. ويفسر ذلك مغزى قول ابن خلدون في أكثر من موضع: الاجتماع الإنساني أو البشري الذي هو العمران [المقدمة ص٦]. ومعنى ذلك أنه ليس كل إجتماع إنساني عمراناً، وإنما الاجتماع الإنساني الذي يكون عمراناً بشرياً، هو الاجتماع الذي هو المدينة أو القرية، أو الحلة.

فالاجتماع الإنساني في شكل جماعة الأسرة لا يكون عمراناً إذا كانت الأسرة مفردة، أي: مستقلة ومنعزلة. ولذلك نجد ابن خلدون يذكر في وضوح هذه العبارات: وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً [المقدمة ص٦] والكتاب الأول في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان [المقدمة ص٦] وما يعرض في العمران من دولة وملة [المقدمة ص٧]. ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع [المقدمة ص٤٠] ومنها العمران، وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات [المقدمة ص٤١] ومن هذا العمران ما يكون بدوياً، ومنه ما يكون حضرياً [المقدمة

ص٤١] يتضح من ذلك أن اصطلاح العمران البشري، أو علم العمران، أدق وأوضح وأصدق على العلم الذي نتصوره ونطلق عليه اصطلاح علم الاجتماع.

ومن طبائع العمران، ما يراه ابن خلدون من تبدل الأحوال في الأمم والأجيال، بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول [المقدمة ص٣٨].

ومن طبائع العمران أيضاً، أن كل حادث من الحوادث، ذاتاً كان أو فعلاً، لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله [المقدمة ص٣٥ و٣٦] فالمدينة والمجتمع والبادية والمصر والحضر والدولة والفرد، والعائلة والقبيل والقوم والأمة كل أولئك ذوات لها طبائع تخصها من حيث البنية والوظيفة، ومن حيث ما يطرأ عليها من تغير، أما الاجتماع والتعاون والمحاكاة وسياسة الملك، ومعاناة الأحكام، والسكنى والتنافس والتغلب والانفراد بالمجد، والاستظهار على القوم، والكسب والتعلم فكلها أفعال ذات طبائع تخصها في كيفية حدوثها، وأسباب ذلك وعلله، وكيفية تغيرها، وأسباب ذلك وعلله. وهكذا نجد أن ابن خلدون كان سباقاً في صياغة نظريتين هامتين، تعدان في العصر الحاضر من مبتدعات الفكر المعاصر، ألا وهما نظرية البنية والوظيفة في علم الإنسان، ونظرية بنية الفعل الاجتماعي في علم الاجتماع. وما هداه إلى هاتين النظريتين إلا معرفته العميقة بطبائع العمران. ويمكن أن نتدبر ذلك في مثال موجز نورده من دفاعه عن إدريس بن إدريس الذي ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب، والذي طعن في نسبه إذ يقول: أما يعلمون أن إدريس الأكبر كان أصهاره في البربر، وأنه منذ دخل المغرب إلى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو، وأن حال البادية في مثل ذلك غير خافية، إذ لا مكان لهم يتأتى فيها الريب، وأحوال حرمهم أجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من جيرانهم، لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدما الفواصل بين المساكن [المقدمة ص٢٣]. وهذه نظرية أخرى، تعد الآن محدثة، برهن بها ابن خلدون على انعدام بعض الجرائم بين الجماعات الأولية.

ثالثاً ـ التشكك:

لولا الشك ما كان اليقين، ولولا شك ابن خلدون في الأخبار والروايات، ما كانت مقدمته الخالدة، وهو يعلن ذلك صراحة بقوله: ولا تثقن بما يلقى إليك من ذلك، وتأمل

الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة، يقع لك تمحيصها [المقدمة ص١٣ و١٤]. ذلك لأن الكذب متطرق للأخبار بطبيعته لأسباب عشرة يفصلها ابن خلدون على النحو التالي:

١- التأسي بالقوم.
٢- ولوع النفس بالغرائب.
٣- سهولة التجاوز على اللسان.
٤- القياس والمحاكاة.
٥- التشيعات للآراء والمذاهب.
٦- الثقة بالناقلين.
٧- الذهول عن المقاصد.
٨- الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع.
٩- تقرب الناس لأصحاب التجلة والمراتب.
١٠- الجهل بطبائع الأحوال في العمران [المقدمة ص١١ و٢٠ و٢٩ و٣٥].

رابعاً- الموضوعية:

تبين فيما سبق أن من بين أسباب الكذب في الأخبار التي فصلها ابن خلدون، التشيعات للآراء والمذاهب، ولذلك نبه إليها، وحذر من الوقوع فيها. وقد التزم هو نفسه الحياد التام في ألوان التحليل الاجتماعي المختلفة التي أجراها في مقدمته، فهو في أثناء ذلك يضرب الأمثال الواقعية غير متحيز لرأي، ولا متشيع لعقيدة، على الرغم من إسلامه، وشدة إيمانه. وهناك زعم باطل واتهام لا يقوم على أساس سليم، بأن ابن خلدون كان متحيزاً ضد العرب، ودليل المنادين بهذا الرأي، أنه كتب أربعة فصول قصيرة تحت العناوين الآتية على التوالي: في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط [المقدمة ص١٤٩]، وفي أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب [المقدمة ص١٤٩]، وفي أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة [المقدمة ص١٥١]، وفي أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك [المقدمة ص١٥١].

ولست بحاجة إلى دفع هذا الاتهام الباطل عن ابن خلدون، ويكفي ما كتبه في ذلك الأستاذ ساطع الحصري في كتابه تحت عنوان: كلمة العرب في مقدمة ابن خلدون[1] فقد بين مقصده من اصطلاح عرب وهو: القبائل البدوية وحدها[2].

---

١ - دراسات عن مقدمة ابن خلدون (ص١٥١).

والذي أريد أن أوضحه في هذا الصدد، كمتخصص في علم الاجتماع أن ابن خلدون عني بظاهرة الصيرورة الاجتماعية، أو التغير الاجتماعي، عناية فائقة، لأن ذلك، كما بينا في بداية بحثنا، كان حجر الزاوية في تحقيقاته التاريخية، فبين تبدل الأحوال في الأمم والأجيال، وأوضح لكل جيل أحواله وعوائده، وخصص الباب الثاني من المقدمة للعمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال. ولقد أشار في وضوح إلى: أن جيل العرب في الخلقة طبيعي، ووصف حياتهم الاجتماعية المتقشفة، وخصائصها، وسمات الناس فيها، ثم بين أن البدو أقدم من الحضر، وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران، والأمصار مدد لها [المقدمة ص١٢٠ و١٢١] وقارن بين سمات العرب في بداوتهم، أي: في معيشتهم في البادية، وما يتسم به الناس في هذا الشكل الأولي المبسط من الحياة. ويشبه العرب في بداوتهم البربر في ظعونهم، وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق، إلا أن العرب أبعد نجعة، وأشد بداوة، لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها، وعلى الشياه والبقر معها [المقدمة ص١٢١ و١٢٢]. وهؤلاء الأقوام البادئة أقرب إلى الخير، ذوو عصبية، وأقدر على التغلب، وأسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق، وغايتهم الملك، ويتنافسون في الرئاسة، وبهم أنفة، وفيهم بعد الهمة، وعندهم الصريح من النسب، وهم يتصفون كذلك بالخشونة، والغلظة، ورزقهم في ظلال رماحهم، ولا يتغلبون إلا على البسائط، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، كما أنهم أبعد عن سياسة الملك، الذي لا يحصل لهم إلا بصبغة دينية، تقلب طباعهم وتبدلها [المقدمة ص١٢٠]. هذا اللون من التحليل اجتماعي بحت، نجده في كتابات كثير من علماء الاجتماع المحدثين عندما يوضحون ألوان الحياة الاجتماعية، وتسلسها من جمع الطعام، إلى الصيد والقنص، إلى المرعى، ثم إلى الزراعة، فالصناعة وهم إذ يفعلون ذلك، يبينون سمة الناس في كل نمط من أنماط المجتمعات البشرية. وما فعله ابن خلدون قبلهم بقرن ونصف قرن من الزمان، كان محاولة ناجحة لتنميط المجتمعات البشرية، والحياة الاجتماعية في كل منها، تنميطاً قائماً على خصائص بنيتها ووظائفها، والسمات البارزة لأقوامها وشعوبها. وهو يفعل ذلك مستنداً إلى الوقائع، بصرف النظر عن الاعتبارات الدينية أو القومية، فهو يقرر أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية، تظهره وتدافع عنه من يدفعه.... وعصبية الفاطميين، بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق، ووجد أمم

---

٢ - دراسات عن مقدمة ابن خلدون (ص١٥٦).

آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة [المقدمة ص٣٢٧].

ويقول عمن يموهون الذهب والفضة: وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس ... ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع، ومساكن الأغمار، يأوون إلى مساجد البادية، ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة [المقدمة ص٥٢٦]. هكذا تتجلى موضوعية ابن خلدون، العالم النزيه، والفقيه الذي لم يتشيع لقومه، ولم يتجن على العرب، كما زعم بعض من غابت عنهم مفاهيم علم الاجتماع الأساسية.

خامساً ـ الحيطة عند التعميم:

اعتمد ابن خلدون اعتماداً أساسياً على الاستقراء في تقرير مبادئه التي توصل إليها في العمران البشري. ولما كان الباحث لا يستقرىء جميع الحالات، فإنه لا بد من التحفظ عند التعميم، لأن نتائج الاستقراء الناقص ليست يقينية، وإن كانت قريبة من اليقين. وقد أدرك ابن خلدون ذلك، وكان يحتاط عند صياغة قوانينه، لأنه يعلم تماماً أنها قوانين احتمالية، أو ترجيحية، ولذلك استخدم في كثير من قوانينه كلمات: من الغالب وفي الغالب وغالباً فيقول: فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره [المقدمة ص١٢٥]. واشتراط الأربعة في الأحساب إنما هو في الغالب، وإلا فقد يدثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم [المقدمة ص١٣٧]. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار [المقدمة: ص١٧٥] وأن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق، وأن هذا الخلق من أسباب السعادة [المقدمة ص٣٩٠].

قواعد المنهج الخاصة في مقدمة ابن خلدون:

إن القواعد الخاصة التي سنفصلها هي الوسائل العلمية التي يستخدمها الباحث في تحليل الوقائع، أو الحقائق التي يحصل عليها، وتفسيرها، وتحقيقها، بغية الوصول إلى قوانين أو مبادىء أو نظريات، ونعود فنؤكد ما سبق أن ذكرناه بخصوص قواعد المنهج العامة، وهو أن ابن خلدون قد أشار إلى بعض هذه القواعد الخاصة إما صراحة، أو ضمناً في مواضع كثيرة في المقدمة، وإن وظيفتنا إبراز ذلك، والتنقيب عن أمثلة تحقق هذا الغرض، وصياغة ذلك كله في إطار منسق متكامل.

أولاً ـ التأمل والاستقراء:

لقد تأمل ابن خلدون كثيراً في أحوال المجتمعات وتحول الحياة الاجتماعية على مر الزمن، ومكنه ذلك من استقراء قوانين كثيرة، بعضها على جانب كبير من الأهمية. وهو

يقرر أن الباحث المؤرخ محتاج إلى حسن نظر[المقدمة ص٩] وينصح بتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار [المقدمة ص٩]، ويضيف إلى ذلك قوله: فلا تثقن بما يلقى إليك من ذلك، وتأمل الأخبار [المقدمة ص١٣].

ومن أهم استقراءات ابن خلدون: أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها، فهو ابن عوائده لا ابن نسبه[المقدمة ص٣٨٤]، وأن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب [المقدمة ص٣٩٣]. وأن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة [المقدمة ص٤٣٤]. ولقد بلغ ابن خلدون الذروة في التأمل والاستقراء، عندما بين أن لا فرق في الذكاء بين البدوي والحضري، وإنما الفرق في التحصيل. فهو يقول: ألا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو، كيف نجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس، حتى إن البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله؟ وليس كذلك، وما ذاك إلا لإجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية، مما لا يعرفه البدوي. فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها، وحسن تعليمها، ظن كل من قصر عن تلك الممتلكات أنها لكمال في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته، وليس كذلك، فإنا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته. إنما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم [المقدمة: ص٤٣٣ و٤٣٤].

ثانياً ـ التحقيق العقلي:

يتجلى التحقيق العقلي في مقدمة ابن خلدون في مواضع كثيرة، ولعل أبرزها ما جاء في المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها [ص٩]. وقد استغرق ذلك أربعاً وعشرين صفحة اشتملت على أربعة تحقيقات على جانب كبير من الأهمية، لما فيها من الأصالة في التفكير، والبراعة في التدليل.. وهناك تحقيقات أخرى عقلية تزخر بها المقدمة، ولكنا سنحصر الحديث في هذه التحقيقات الأربعة. **أما أول** هذه التحقيقات فتحقيق ديمجرافي لما نقله المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل، بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ست مئة ألف أو يزيدون [ص١٠]. ويقول في نهاية تحقيقه: ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد.... ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه، اللهم إلى المئتين والآلاف، فربما يكون، وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد [ص١١].

وثاني هذه التحقيقات تحقيق حربي لجيوش موسى، إذ يقول ابن خلدون: ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها، وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد [ص١٠]. وتحقيق حربي آخر لغزوات تُبّع الآخر وبنيه الثلاثة، يقول فيه عن الطريق ما بين جزيرة العرب وبلاد المغرب: والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما. ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله، هذا ممتنع في العادة وأيضاً فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة، والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة، فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى انتهاب الزرع والنعم، وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه، ولا يكفي ذلك للأزودة وللعلوفة عادة، وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم، فلا تفي لهم الرواحل بنقله فلا بد وأن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها، لتكون الميرة منها. وإن قلنا: إن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميزة بالمسالمة، فذلك أبعد وأشد امتناعاً [المقدمة ص١٢ و١٣].

والتحقيق الثالث جغرافي عن وادي الرمل الذي يعجز السالك، فلم يسمع قط ذكره في المغرب على كثرة سالكيه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة [المقدمة ص١٣]، وعن إرم ذات العماد، فيجعلون لفظة إرم اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين... وهذه المدينة لم يسمع لها خبر... في شيء من بقاع الأرض وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن، وما زال عمرانه متعاقباً، والأدلاء تقص طرقه من كل وجه، و لم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الإخباريين ولا من الأمم [المقدمة ص١٤].

والتحقيق الرابع تاريخي فيما ينقله المؤرخون: كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه [المقدمة ص١٥]، وفيما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق [المقدمة ص٢١].

وهناك تحقيقات أخرى كثيرة في الكتاب الأول من المقدمة، نخص بالذكر منها تحقيقه لما نقله المسعودي عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية [المقدمة ص٢٦]، وما نقله أيضاً: في تمثال الزرزور الذي برومة تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون [المقدمة ص٣٦]، وما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات

الأبواب [المقدمة ص٣٧]، وما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس [ص٣٧].
وقد كان قانونه في هذه التحقيقات وغيرها مما فصله بقوله: فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله، ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه. وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء، فلا يفرض حداً بين الواقعات، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء. فإنا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته، أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه [المقدمة ص١٨٢]. ليس عجيباً أن يقول ابن خلدون ذلك، وهو الذي فصل مراتب الفكر إلى فكر تصوري، وفكر تصديقي، وفكر ظني، وبين مراتب العقل إلى عقل تمييزي، وعقل تجريبي، وعقل نظري. وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة فتفيد علوماً أخر من جنسها في التصور أو التصديق، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوماً أخر كذلك، وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله وأسبابه وعلله، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلاً محضاً، ونفساً مدركة، وهو معنى الحقيقة الإنسانية، وهكذا يحق لابن خلدون أن يقول في ثقة: والناقد البصير نظره قسطاس بحثه، وميزان ملتمسه [المقدمة ص٢٣].

ثالثاً ـ التحقيق الحسي:

التحقيق الحسي الذي نقصده تحقيق بالمشاهدة. وقد اعتمد ابن خلدون عليها اعتماداً كبيراً في تحقيق كثير من الأخبار والروايات، فهو يرى أن من بين أسباب الخطأ فيها عدم قياس الغائب منها بالشاهد [المقدمة ص٩]. ويقول في تحقيقه الجغرافي: واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً [المقدمة ص ١١].
ومشاهدات ابن خلدون كثيرة، منها قوله: ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصالاً وأكثر ... ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على حليب شاة من المعز... واستدام على ذلك خمس عشرة سنة [المقدمة ص٩٠].

ويقول في موضع آخر: اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات... وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني وأولاً عالم العناصر المشاهدة [المقدمة ص٩٥]. ويقول أيضاً: وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعلم وإفاداته [المقدمة ص٥٣٣]. ويظهر ابن خلدون دهشته من أولئك الذين يقنعون بالاستماع إلى

الغريب من الأخبار، ولا يستريبون في تصديقها... فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه وقالوا: إنما سمعنا و لم نره. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل [المقدمة ص٥٢٦].

وينقد ابن خلدون زعم المسعودي أن الطبيعة التي هي جبلة للأجسام، لما برأ ا لله الخلق، كانت في تمام المرة ونهاية القوة والكمال، وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة... فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام، ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة إلى أن بلغ إلى هذه الحال التي هو عليها، ثم لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم [المقدمة ص١٧٨]. ويقول ابن خلدون في نقده لهذا الزعم: وهذا رأي لا وجه له إلا الحكم كما تراه، وليس له علة ولا سبب برهاني. ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن، كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر، بيوتاً صغاراً وأبوابها ضيقة [المقدمة ص١٧٨]. وهكذا يفيد التحقيق الحسي في تمحيص الأخبار والروايات، ويميز الحق من الباطل.

رابعاً ـ سؤال الخبراء:

الثقات من الخبراء في شتى الفنون والعلوم مصدر للحقائق لا غنى عنه، وعلى الرغم من اتساع معرفة ابن خلدون وتعمقه في العلم، فإنه يسأل المتخصصين في ميادين تخصصاتهم حتى يستطيع أن يضع يديه على الحقيقة التي ينشدها، ففي تحقيق رواية الرحالة ابن بطوطة عن مملكة الهند عند سفره وعودته، تلك الرواية التي يمعن الناس في تكذيبها هي وغيرها من الروايات المماثلة، يسأل ابن خلدون وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت، عند لقائه، ويفاوضه في هذا الشأن ليقف منه على الخبر اليقين [المقدمة ص١٨١].

كذلك يسأل ابن خلدون أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن... الملحمة وعن... الرجل الذي تنسب إليه من الصوفية. وهو الباجربقي، وكان عارفاً بطرائقهم...[المقدمة ص٣٤١ و٣٤٢]. فيجيبه الرجل بما يشفي غلته. ويسأل أيضاً بخصوص التآليف في الكيمياء، الشيخ أبا البركات البلفيقي كبير مشيخة الأندلس، ويعرض عليه بعض ما كتب فيها، فيدلي إليه ببعض المعلومات النافعة.

خامساً ـ المقارنة:

طريقة المقارنة في تحقيق الظواهر الاجتماعية من أهم الطرق التي يعتمد عليها في البحوث العلمية، وقد استخدمها ابن خلدون في كثير من التفاسير والتحاليل التي أجراها في مقدمته. وبلغ من شدة وثوقه بقيمة طريقة المقارنة، أنه عدها من بين القوانين التي يمكن بوساطتها تمحيص الأخبار والروايات، فهو يحض على أن يقاس الغائب من الظواهر الاجتماعية بالشاهد [المقدمة ص٥٢٥]، وأن يحاط بالحاضر من هذه الظواهر، ويماثل ما

بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف، ويعلل ما يتفق منها وما يختلف [المقدمة ص٩].

ولعل أهم ميدان استخدم فيه طريقة المقارنة، هو ميدان العمران البدوي، والعمران الحضري، فهو الميدان الذي ساعده على وصف الظواهر الاجتماعية، وتحليلها، سواء في شكلها المبسط في العمران البدوي، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال [المقدمة ص٢٨]، أو في شكلها المعقد في العمران الحضري، وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمداشر [المقدمة ص٤١].

سادساً ـ التجربة:

لقد خصص ابن خلدون في مقدمته فصلاً كتب فيه عن العقل التجريبي وكيفية حدوثه وميز فيه بين الحيوان والبشر في اجتماعهم الذي هو المدينة، ثم استطرد يقول: هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد، ولا يتعمق فيها الناظر، بل كلها تدرك بالتجربة، وبها تستفاد لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات، وصدقها وكذبها يظهر قريباً في الواقع، فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك. ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له فيها، مقتنصاً له بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه، حتى يتعين له ما يجبُ وينبغي فعلاً وتركاً، وتحصل في ملابسته الملكة في معاملة أبناء جنسه. [المقدمة ص٩٧٨ - ٩٧٩].

وليست التجربة هنا التجربة المعملية، وإنما هي الخبرة، والممارسة التي يقيم لها ابن خلدون وزناً أي وزن في تعلم الفنون والصنائع بالممارسة والمران [المقدمة ص٥٦٠ و٥٦١].

وفي تعلم الآداب في المعاملات، بالطبع من الواقعات على توالي الأيام، تحقيقاً للقول المشهور: من لم يؤدبه والده، أدبه الزمان [المقدمة ص٩٧٩].

ومن التجارب الطريفة التي قام بها ابن خلدون نفسه، ما ذكره بصدد الرؤيا الكاشفة التي يسمونها حالومة الطباع التام، التي تستجلب بترديد بعض أسماء أعجمية عند النوم، فيقول: وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضات ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف إليه ويسمونها الحالومية. ثم يقول: وليس ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها، وإنما هذه الحالومات تحدث استعداداً في النفس لوقوع الرؤيا، فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يستعد له. وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب، ولا يكون دليلاً على إيقاع المستعد له [المقدمة ص١٠٥]. ويستدرك

ابن خلدون الخبير بأحوال النفس فيقول: والقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء [المقدمة ص١٠٥].

سابعاً ـ النظر في الحوادث في إطارها الزماني:

يرى ابن خلدون أن النظر في الحوادث الماضية، والحكم عليها في ضوء الأوضاع الحاضرة، من أكبر الأخطاء التي يقع فيها الباحث، فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها، فيجريها لأول وهلة على ما عرف، ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيراً، فيقع في مهواة من الغلط. فقد نجد التعليم في عصر من العصور مهنة جد محترمة، بينما هو في زمان سالف من جملة الصنائع المعاشية البعيدة عن اعتزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم [المقدمة ص٢٩] وما يقال عن التعليم يصدق على القضاء، ولكن في معنى عكسي، فالقضاء في الماضي قبل عصر ابن خلدون كان لأهل العصبية من قبل الدولة ومواليها [ص٣١] أما في عهد ابن خلدون فقد أصبح غير ذلك، ويتضح من ذلك صواب هذه القاعدة التي وردت صراحة في المقدمة، ألا وهي النظر في الحوادث في إطارها الزماني، واليقظة إلى ما يحدثه التغير الاجتماعي من تبدل الأحوال والعوائد.

خاتمة:

وبعد فهذه محاولة تلخيصية للمنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون، الفيلسوف الاجتماعي العربي، والمؤرخ المدقق، الذي أنشأ بين العلوم علماً جديداً، هو علم العمران، الذي أبدى فيه لأحوال الدول والعمران عللاً وأسباباً، فاستوفى جل مسائله، وميز عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه [المقدمة ص٦ و٤٠]. وبذلك استحق أن يخلد اسمه بين الخالدين.

•

ابن خلدون

كمفكر اجتماعي عربي

للدكتور محمد عبد المنعم نور[1]

تقديم:

يرى بعض علماء الاجتماع المحدثين أن تاريخ الفكر الاجتماعي يعتبر بمثابة متحف كبير يلحق بعلم الاجتماع الحديث، كما يلحق تاريخ الطب بفن الطب بعد وثباته المتكررة وتقدمه العظيم في الفكرة والتطبيق، على أنه في كلتا الحالتين تستثنى بعض العبقريات الخالدة من مبدأ المتحفية لاعتبارات شتى، ومن أهم هذه الاعتبارات ما يتصف به انتاج هؤلاء العباقرة من رجاحة وتوفيق يجعل إنتاجهم جديداً وحديثاً في كل عصر وزمان، ويتفق معظم الجهابذة والفحول في ميدان العلم الاجتماعي في عصرنا الحاضر، سواء في الشرق أو الغرب، على شخصية عربية لماعة بلغت شأواً بعيداً في الذكاء وسعة الأفق، ويعترفون لها بالفضل والأسبقية في ميادين شتى من الدراسات العلمية الاجتماعية، وهذه الشخصية هي شخصية أستاذ الأساتذة الذين قادوا موكب المعرفة الصاعد، العلامة العربي عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المولود بمدينة تونس عام ٧٣٢هـ (مايو ١٣٣٢م).

يعد ابن خلدون من عمالقة الفكر الاجتماعي في العالم، وينافس بجدارة وأحقية في حمل لقب مؤسس علم الاجتماع نخبة من المفكرين أمثال فيكو الإيطالي وسبنسر الانجليزي وكيتيليه البلجيكي وكونت الفرنسي. وفي رأي كثير من المحايدين أنه أجدر المفكرين الاجتماعيين بحمل لقب منشيء ومؤسس علم الاجتماع، بل وميادين أخرى كثيرة من ميادين المعرفة المنظمة، ويبني المؤيدون لابن خلدون حكمهم هذا على أسانيد ووثائق عدة لا يمكن دحضها أو إنكارها بسهولة ويسر، وأول هذه الأسانيد أن مفكرنا العربي كان أسبق المنادين بقيام علم الاجتماع من حيث الترتيب الزمني، فقد نادى برأيه في جلاء تام في القرن الرابع عشر الميلادي، بينما كونت الذي ينسب إليه فضل إرساء هذا العلم، بشر برأيه في القرن التاسع عشر الميلادي.

ولا يعابُ على مفكرنا العربي أن آراءه العلمية عاشت فترة طويلة من الزمان تحت أستار النسيان، بالنسبة للغرب على الأقل، وخاصة إذا قيست بآراء بعض المفكرين العرب الآخرين أمثال ابن سينا وابن رشد، لأن ابن خلدون قد سجل أفكاره ومنهجه العلمي في

---

١ - أعمال مهرجان ابن خلدون سنة ١٩٦٢ (من ص٨٤ - ١١٨).

مقدمته التي جاهد في نشرها وإذاعتها، لقد أهداها إلى المكتبات العربية وإلى الأمراء والحكام، بل لقد بلغ به الحماس العلمي أن شرح بعض جوانبها لفاتح خطير كتيمورلنك أثناء حملته على المشرق العربي عام ٨٠٣ هجرية[١].

والأمر **الثاني** في إنصاف مفكرنا العربي وضوحه في سرد فكرته وثقته في ضرورة إنشاء علم للعمران لم تعهده الثقافة الإنسانية قبله، وقد سلك في هذا الطريق مسلكاً فريداً ما زال مأخوذاً به إلى الآن، إنه يرى أن الدراسة الاجتماعية العلمية يمكن أن تتخذ من المجتمع الكبير معملاً لتجاربها وأبحاثها وهو ما ننادي به الآن، حينما نقول في الرد على المعترضين على افتقاد علم الاجتماع للتجربة بمعناها المفهوم في العلوم الطبيعية، بأن المجتمع يعد أكبر معمل للتجارب البشرية، وقد رأى ابن خلدون قبلنا بحوالي ستة قرون أن التاريخ بأحداثه ووقائع عمرانه واجتماعه أصلح مادة خام لوضع أسس الاجتماع الإنساني، على شرط أن يسرد سرداً خالياً من الشوائب وأن يحلل بعد ذلك تحليلاً واقعياً يستخدم المنهج العلمي، الذي يربط الأسباب بمسبباتها، والذي ينظر إلى الوقائع العمرانية أو الاجتماعية كما هي لا كما نهوى أن تكون.

وهناك نقطة **ثالثة** تقال في وصف ابن خلدون كمنشىء لعلم الإجتماع الحديث وهي خاصة بقواعد تصنيف المعرفة الإنسانية وتقسيمها إلى علوم وفنون ودراسات وما شابه ذلك من أنواع التقسيمات، فإن أي ميدان من ميادين المعرفة يتحدد وضعه ويفصل في أمره ويعترف به كعلم أم لا عن طريق سرد مادته للكشف عن سبيل الوصول إليها، فإن كان المنهج الذي تبع في ذلك منهجاً علمياً يعتمد على الطريقة العلمية بما فيها من مشاهدة وملاحظة وجمع بيانات، وإن كان الهدف أثناء الدراسة والبحث هدفاً حقيقياً أي: ينشد الحقيقة وليس هدفاً معيارياً يتأثر بمعايير وقيم تباعد بينه وبين الحياد، فإن هذا الميدان يكتسب صفة العلم. وقد نحا ابن خلدون في بحوثه نحو هذه الغاية وأكثر ما يدلنا على إدراكه لها في أكثر من موضع من مقدمته الشهيرة **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**[٢].

---

١ - وما هو جدير بالذكر في هذه المناسبة إبراز شجاعة ابن خلدون واعتداده بعلمه وقوة شخصيته أن التعريف يحدثنا (ص٣٣٧ و٣٨٩) أن ابن خلدون مكث فترة من الزمن عند تيمورلنك كان خلالها يتردد عليه، وأن تيمورلنك كان لا يلقاه إلا واقفاً ولا يجلس حتى يفسح له عن يمينه، وقد ألف له كتاباً خلال هذه المدة وعندما أراد تيمورلنك مبارحة سوريا أذن له في العودة لمصر بعد أن تبادلا الهدايا.

٢ - لعل من المفيد في مجال الكلام عن مقدمة ابن خلدون أن نذكر أن ابن خلدون قد انتهى من كتابتها عام ٧٧٩هـ واستغرقت كتابتها خمسة أشهر وفي ذلك يقول ابن خلدون: فأقمت بها ـ قلعة ابن سلامة ـ أربعة أعوام

والمسألة **الرابعة** في إنصاف ابن خلدون فهمه لرسالة العلم، وأن غاية العلم هي التنبؤ، فقد كان في ذهنه أن موضوع التاريخ يصلح لدراسة الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من ثقافات، لذلك كان لزاماً أن نعرض محتوياته على مقياس العقل والبرهان ومقارنة الوقائع التاريخية بأشباهها ذلك أنه في نظره أن الظروف المتشابهة ينتج عنها وقائع متشابهة، الأمر الذي يجعلنا نستطيع بمعرفة الحاضر معرفة صحيحة وأن نعرف ما لم يتكامل لنا معرفته من الحوادث الماضية، بل نستطيع أن نتنبأ على ضوء الحاضر بما سيقع في المستقبل من أحداث.

والأمر **الخامس** في وصف ابن خلدون كعالم اجتماعي، أنه كان شديد الثقة في مبدأ جبرية الظواهر الاجتماعية، فقد كان في نظره أن الحوادث الاجتماعية ليست نتيجة الصدفة البحتة أو أنها خاضعة لهؤلاء الأفراد وإرادتهم ولكنها نتيجة قواعد وقوانين ثابتة وأن من الواجب على المهتمين بأمور المجتمع أن يكشفوا عن هذه القوانين. وهذا أساس من أسسٍ علم الاجتماع الحديث.

وأخيراً فإن صفات ابن خلدون ومسلكه أثناء بحثه خير دليل على نزعته العلمية التي من أهم جوانبها الحيدة والتواضع والثقة بالنفس، ويتضح ذلك من عدة أمور سيأتي ذكرها فيما بعد، أما عن تواضعه فيكفي لإثبات ذلك قوله في المقدمة: فإن كنت قد استوفيت مسائله، ميزت عن سائر الصنائع أمثاله وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية، وإن فاتني شيءٌ في إحصائه وأشبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق.

شخصية الأستاذ وعصره:

كثيراً ما توضع في أسئلة الامتحانات التي يتقدم إليها طلاب الدراسات الاجتماعية فقرة أو فقرات تتطلب إلقاء الضوء على شخصية المفكر الاجتماعي وإيضاح الصلة بين إنتاجه الفكري أو العلمي وبين العصر الذي نشأ فيه على اعتبار أن هذا الإنتاج منبثق بل **ومتأثر** إلى حد كبير بالوسط الذي يحيط به.

ولقد كان هذا الأمر واضحاً كل الوضوح مع ابن خلدون، فقد كان ذهنه المتوقد وتفكيره الناضج، واستعداده العلمي خير دافع له على التعمق في الظواهر الاجتماعية وعلى البحث السليم الذي يرمي إلى الكشف عن القوانين العامة التي تخضع لها هذه الظواهر ما جعلٍ مقدمته نبراساً يهتدي بهديه المتعطشون للمعرفة في أحلك عهود البشرية وفي أكثرها نوراً وضياءً على حد سواء.

متخلياً عن الشواغل كلها وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة.

وإذا كنا نعرف الشخصية من الزاوية الاجتماعية النفسية بأنها نتيجة تراكم تفاعلات الإنسان مع الوسط الذي يعيش فيه فقد كانت نشأة ابن خلدون ونشاطه وكفاحه سبيلاً إلى اتساع دائرة هذه التفاعلات وإلى تهيئة الظروف لنضوج شخصيته واتزانها، كان ابن خلدون عربي الأصل والنشأة، ويرجع في نسبه إلى عرب حضرموت الذين هاجروا إلى المغرب العربي وإلى الأندلس العربية، وقد أورد العلامة النسابة ابن حزم الأندلسي بمناسبة الكلام عن نسب بني خلدون الأشبيلين ما يأتي: وكان من أكابرهم كريب وأبو عثمان خالد، القائمان بأشبيلية بالأندلس وهما ابنا عثمان بن بكر بن خالد المعروف بخلدون الداخل من المشرق[1]. ولعل في ذكر هذه النقطة ما يكفينا مؤونة البحث أو الجدل في موضوع تعرض له بعض الكتاب عن نسب ابن خلدون وعروبته.

نشأ ابن خلدون في عصر اتصف بالانحلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ففي أيامه بدأ ظل الدولة العربية الإسلامية يتقلص عن الأندلس، وكانت الثورات والفتن تعم شمال أفريقيا نتيجة للتقسيمات الإقليمية وتفشي العصبيات النسبية. وفي المشرق كان تيمورلنك يجتاح الشام بجحافله وجيوشه ويهدد مرة أخرى العرب في وطنهم الكبير بالإضافة إلى ما تعرض له عرب المشرق من طغيان الأعاجم وارتقائهم إلى مناصب الملك والأمارة يسوسون بلاد العرب ما جعل العربي بحق غريباً في بلاده.

أما الثقافة العربية فقد تأثرت بفساد الحكم وأصابها من التدهور ما أصاب جوانب المجتمع العربي الكبير، ولذلك شغل ابن خلدون في مقدمته الخالدة بدراسات تفيد في إصلاح أحوال المجتمع وتمكن الحاكم من حسن تدبير الأمور، ولهذا السبب أيضاً رأى ابن خلدون أن يهدي إنتاجه وما وصل إليه إلى السلطان أبي العباس سلطان تونس، وقد فعل مثل ذلك فيما بعد ماكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) في كتابه الأمير الذي أهداه إلى الأمير لورنزو دي مديسي، وإن كان عمل ابن خلدون أوسع مدى وأكثر واقعية من خلفه الذي جاء بعده بقرنين من الزمان.

في مثل هذا العهد المليء بالأحداث المؤدي إلى إرهاف السمع والإحساسات الأخرى بدأ ابن خلدون حياته العملية في التاسعة عشرة من عمره وتقلد وظيفة في ديوان الكتابة ثم بدأ جولاته في المغرب وارتقى في مناصب السياسة وكانت هي أهم جوانب الحياة الاجتماعية، بل كانت الدولة هي المجتمع، يرقى المجتمع حين ترقى ويهبط إلى الدرك الأسفل حينما يعتورها الوهن أو الفساد، وقد تهيأ لابن خلدون عن طريق اتصالاته

---

١ - كتاب جمهرة أنساب العرب (ص٤٣٠).

ورحلاته أثناء توليه مناصبه السياسية في المغرب فرصة المشاهدة والملاحظة عن كثب لوقائع العمران المختلفة، لقد ازداد علماً أثناء حياته العملية التي وصل فيها إلى رئاسة ديوان الرسائل وديوان الحجابة، أي: رئاسة الوزارة كما أتيحت له الفرصة لزيارة الأندلس والقيام بسفارة من لدى سلطان غرناطة إلى ملك قشتالة فرأى العرب يأفل نجمهم هناك ورأى مجتمع الأسبان الصاعد وقتذاك ثم ذهب عنه كل ذلك وذاق مرارة السجون، وأخيراً لجأ إلى الراحة واعتزال الوظيفة ليسجل ملاحظاته ومشاهداته في المقدمة.

والقاهرة ملجأ الأحرار التي تسعى جاهدة لإعزاز العرب وحريتهم والتي أسهمت بقسط كبير في تحرير الجزائر، التي كانت مسرحاً لجانب كبير من نشاط ابن خلدون، كانت هذه القاهرة هي بعينها الملجأ الأخير لابن خلدون الذي لجأ إليه اتقاء عواصف السياسة، والرحاب الذي دخله ليوفر له البيئة العلمية الصحيحة التي طالما تمناها وسعى إليها. وفي جامعة الأزهر أخذ الأستاذ العلامة ابن خلدون يبشر بنظرياته ويزرع بذور علمه الواسع وتولى فيها أيضاً منصب قاضي القضاة، ومنها رحل إلى الشام والحجاز وكانت نهاية مطافة في القاهرة حيث مات ودفن بمقبرة الصوفية إلا أن قبره ما زال غير معروف لنا ولا شك أن العثور عليه يهيىء فرصة لتخليد ذكرى أعظم مفكر إجتماعي أنجبته الأمة العربية.

لقد كان ابن خلدون عربياً فذّاً في عروبته، تأثر في إخلاص نادر بأحوال العرب وانقسامهم سواءٌ في المشرق أو المغرب، وكان حزنه واضحاً على أفول نجم العرب في الأندلس، وفي كل ما كتب هذا العربي الخالد كانت العروبة نبراسه وقبلته، فمن أجل أمجاد العرب ناضل وكافح وسجل وكتب، إنه في تنقيبه عن تراث العرب وتاريخهم لم ينس هدفاً قد يعاب على منهجه العلمي، ولكن يلتمس له العذر أنه كعربي مخلص قد انحرف علمياً بسبب حماسه لوحدة العرب ورفعة شأنهم في عهد تكالبت عليهم المحن، لقد كان هذا الهدف هو إعادة ثقة العرب في أنفسهم لأنهم خيرُ أمةٍ أخرجت للناس.

ابن خلدون وغيره من المفكرين:

لم تنتشر مقدمة ابن خلدون بعد وفاته و لم تصادف من الذيوع ما هي أهلٌ له، وقد كان ابن خلدون في هذه المقدمة عملاقاً بكل مافي هذه الكلمة من معنى، وكان سابقاً عصره في تفكيره وأبحاثه ونظرته الكلية للأمور الاجتماعية، بل لقد كان سابقاً للعصور التي تلته وما زال إلى الآن يبهر أنظار المعجبين بواسع علمه، ولذلك لا نجد فيمن جاؤوا بعده من يدانيه في مدرسته الإجتماعية باعتبارها من المدارس التي لا تعزو الظواهر

الاجتماعية إلى سبب واحد فقط مهما كان هذا السبب وجيهاً بل نرده إلى تشابك الأسباب وتفاعلها.

ولكي نفهم دور ابن خلدون من هذه الناحية في الدراسات الاجتماعية نحتاج إلى أن نوضح مكانه وسعة أفقه وشمول نظرياته بالنسبة لبعض المفكرين الاجتماعيين الذين أتوا بعده، والذين تعرضوا للظواهر الاجتماعية يفسرونها غالباً من زاوية واحدة حتى لقد أطلق على معظمهم اسم: المدرسة الوحيدة في تفسير السلوك الإنساني. ولقد انتشرت هذه الأفكار الوحيدة في المدارس الاجتماعية المختلفة إلى وقت قريب فكانت هناك المدارس الجغرافية والنفسية والعضوية وغيرها، وفيما يلي عرض لأهم أسس المدارس الاجتماعية مع إشارة موجزة لبعض آراء مفكرنا العربي التي أوردها في المقدمة قبل قيام هذه المدارس بعدة قرون.

المدرسة التاريخية الاجتماعية (فلسفة التاريخ):

وقد اشتهرت بحوثها باسم فلسفة التاريخ ويرى أصحاب هذه المدرسة أن الظواهر الاجتماعية يمكن تفسيرها واستنباط نظرياتها من حقائق التاريخ وكان على رأسها جون بودان وفيكو (١٦٨٨ - ١٧٤٤) لبحوث الأخير صدى كبير في الدراسات الاجتماعية حتى لقد عد من بين مؤسسي علم الاجتماع. ثم جاء بعد ذلك مفكرون آخرون من نفس المدرسة مثال هردر وكانت وفولتير وكوندرسيه.

ويرقى ابن خلدون عن مصاف هؤلا جميعاً لاعتبارات عدة، منها: أن بحوثه تتناول جميع مظاهر الحياة الاجتماعية سواءٌ في ذلك جانب التطور التاريخي أو جانب المشاهدة للمجتمعات المعاصرة، في حين أن أصحاب المدرسة التاريخية الاجتماعية لا يحفلون إلا بناحية التطور، يضاف إلى ذلك أن ابن خلدون قد اعتمد إلى حد كبير على طريقة الملاحظة وتحليل الوقائع العمرانية بينما نجد أن فيكو ومن جاء بعده قد تأثروا بأفكارهم الفلسفية وجاهدوا في آرائهم لإخضاع سير الحوادث التاريخية لقواعد التطور التي وضعوها.

المدرسة الجغرافية:

يتساءل بعض علماء الاجتماع عن السبب الذي من أجله تخلفت الدراسات الاجتماعية بالرغم من ذيوع آراء كولدسيه وهردر وأمثالهما. ولعل ما حدث في أوربا بعد حروب نابليون كان له تأثيرٌ كبيرٌ في تعطيل الاتجاه نحو هذا الهدف، ولكن الأهم أن نكسته أصابت التفكير الاجتماعي ولم تمكنه من ملاحقة التقدم الذي وصل إليه ابن خلدون في مقدمته وكأن هذه النكسة في امتداد طريقة البحث والتفكير الجزئي في الظواهر

الاجتماعية، والاتجاه نحو ملاحظة جانب واحد فقط من الحقيقة، ومثل هذا التفكير الوحيد لم تختص به الدراسات الاجتماعية وحدها بل أصاب الدراسات العلمية كلها بوجه عام، ولكنه في حالة الدراسات الاجتماعية كان أكثر وضوحاً لتشابك المادة التي تتوفر العلوم الاجتماعية على دراستها، على أن الشيء المستغرب أن يكون ابن خلدون سبّاقاً ومتميزاً عن كل هؤلاء الفحول الذين أتوا بعده ولو كانوا قد اطلعوا على المقدمة لكان علم الاجتماع الآن قد وصل في تقدمه إلى مدى أبعد ما وصل إليه في هذا العصر.

وتعتبر المدرسة الجغرافية وعلى رأسها هنري توماس بكل (١٨٢١ - ١٨٦٢) في مقدمة المدارس الوحيدة التي جات بعد المدرسة التاريخية الاجتماعية والتي أخذت تنظر إلى الإنسان على أنه طفل البيئة الأرضية وعلى هذا الأساس فكل شي يفعله الإنسان وكل ظواهر اجتماعية يخضع لها يمكن أن تعزى إلى البيئة الطبيعية، ولا يمكن أن ننكر أثر البيئة الطبيعية وصلة الإنسان بها، ولكن المناداة بأن الظروف الطبيعية هي التي تشكل المجتمعات والعادات كما يقول بكل مثلاً، فأمرٌ لا يمكن قبوله لمجافاته للواقع ولما يمكن أن تسفر عنه المشاهدة للمجتمعات فضلاً عن أن تأثير البيئة الطبيعية قد أخذ يقل نتيجة لتفوق الإنسان وسيطرته على ما يحيط به.

وقد تعرض ابن خلدون للبحث في تأثير الأقاليم الطبيعية المختلفة على السلوك البشري وغالى في ذلك بعض المغالاة ذاكراً أمثالاً كثيرة مستخلصاً منها أن الأقاليم المعتدلة أحسن الأقاليم سكاناً، ولكنه لم يناد بأن هذا التفسير الجغرافي هو الزاوية الوحيدة التي يمكن عن طريقها أن ننظر إلى المجتمع، بل أدخل في حسابه أموراً أخرى كالأديان والأصول البشرية، والعوامل النفسية، والظروف الاقتصادية وغيرها. وفي رأي ابن خلدون أن المجتمع يتأثر بطبقتين من الظواهر.

الأولى: هي **الظواهر الطبيعية**، والمجتمع في نظر ابن خلدون يتفاعل معها وتتفاعل معه، فتؤثر فيه ويتأثر بها ويكيف نفسه تبعاً لها.

الثانية: هي **الظواهر الاجتماعية**، وهي التي تنبثق من الاجتماع ويخلقها المجتمع، وقد كان مفكرنا العربي سبّاقاً إلى ملاحظة تدل على الذكاء والألمعية، إذ فطن إلى أن هذه الظواهر متداخلة ومتشابكة، وهي لا تتأثر بالظواهر الطبيعية فحسب بل تتأثر وتتفاعل مع بعضها أيضاً مما يجعله سابقاً إلى هذه النظرة التفاعلية لمدرسة اميل دوركايم التي تدعي لنفسها فضل الالتفات لمثل هذا التفاعل بين الظواهر الاجتماعية المختلفة.

المدرسة الاقتصادية:

وتتصل بالمدرسة الجغرافية السابق الإشارة إليها اتصالاً وثيقاً، وتقوم هذه المدرسة الاقتصادية على التفسير المادي للتاريخ والشرح الاقتصادي للظواهر الاجتماعية، ويمكننا أن نطلق عليها أيضاً: المدرسة الحتمية الاقتصادية، إنها المدرسة التي تنسب المجتمع وظواهره كلها إلى العوامل الاقتصادية من إنتاج وتوزيع ومادة خام، ذلك أنه في رأي أصحاب هذه المدرسة وعلى رأسهم كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) أن وسائل الإنتاج وتوزيع الثروات وغيرها من الأمور الاقتصادية يتعدى أثرها إلى المجتمع وهي التي تشغل معاييره من سلوك جمعي وعرف وقانون ونظام وقيم بل وعقائد أيضاً.

ويعتبر ابن خلدون رائداً لأصحاب المدرسة الاقتصادية ويمتاز عنهم بأنه لم ينظر إلى الحقيقة الاجتماعية من هذه الزاوية وحدها، ويذهب ابن خلدون في الربط بين العوامل الاقتصادية مذاهب شتى تدل على إدراكه لأهميتها ولكنه لم يغال في هذه الأهمية كمغالاة أصحاب المدرسة الاقتصادية الوحيدة الذين جاؤوا بعده بعدة قرون. يقول ابن خلدون في تفسيره لبعض ظواهر المجتمع:

إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف غلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله.

ويقوم ابن خلدون بشرح هذه القضية والتدليل على صحتها في فصول عدة كما يتعرض لأهمية العوامل في تطور الدول وازدهار الحضارة ويقوم بكل ذلك بأسلوب واضح. ويهمنا في هذا المقام ونحن بصدد الإشارة إلى التفكير الجزئي في الأمور الاجتماعية من الزاوية الاقتصادية أن نقرر أن ابن خلدون لم يكن سابقاً لهذه المدرسة من هذه الناحية فقط بل كان سابقاً لزعيمها ماركس من ناحية أخرى، وهي الخاصة بالتطور الاجتماعي الحادث نتيجة لوجود طبقتين مختلفتين.

المدرسة النفسية:

يرى أصحاب هذه المدرسة أن علم النفس الفردي يصلح أن يكون أساساً لعلم الاجتماع وبمعنى آخر أن الاجتماع الإنساني وما يتصل به من فروق ثقافية واقتصادية واجتماعية يمكن أن يعزى إلى العوامل والاعتبارات النفسية التي عمادها تقليد يسري في خط سير معين يكون فيه المنقول عنه أو المقلد مرموقاً بينما يكون المقلدون في مستوى يشعرهم بجدوى تقليد من هم أكثر قوة وسمواً.

وقد سبق ابن خلدون العالم الفرنسي تارد (١٨٤٣ - ١٩٠٤) في النظر إلى الاعتبارات النفسية في أبحاثه وقوانينه عن الظواهر الاجتماعية، أوضح ابن خلدون دور

التقليد والمحاكاة في حياة الناس فيقول في المقدمة: أن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وخلقه وسائر أحواله وعوائده.

ثم يرتفع ابن خلدون إلى قمة عظمته فيرى في قانون الاقتداء أو المحاكاة ما يهيىء للباحث إمكانيات التنبؤ بالمستقبل على ضوء الحاضر، فما دام أن القانون ينصٍ على هوان المقلد بالنسبة لسمو من كان في محل القدوة يقلده الآخرون طواعية واختياراً، لذلك فإن قيام البقية الباقية من عرب الأندلس بتقليد الأسبان في شاراتهم ومركباتهم وأعيادهم ما يجعلنا نستشف ونتوقع غلبة الأسبان وسقوط الأندلس، وفي ذلك يقول ابن خلدون: إنك تجدهم ــ أي: أهل الأندلس ــ يتشبهون بالجلالقة ــ سكان إسبانيا ــ في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم في رسم التماثيل على الجدران، ولقد يستشعر الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء.

المدرسة الخلدونية:

يتضح لنا من الأمثلة السابقة لبعض المدارس التي جاءت بعد ابن خلدون كيف أنها عجزت عن الوصول في التفكير إلى المستوى الذي وصل إليه ابن خلدون من حيث الشمول واتساع النظرة، ولم تكن المدارس السابقة هي كالمدارس ذات الطابع الجزئي في شرح الظواهر الاجتماعية فقد كانت هناك المدارس العنصرية وعلى رأسها جبينو، والمثالية وعلى رأسها فشته، والفردية وعلى رأسها نيتشه وغيرها.

أما المدرسة الخلدونية فقد بذت هذه المدارس جميعاً كما يتضح من ميدان البحث الخلدوني وهو وقائع العمران كما يراها ابن خلدون، يعرض ابن خلدون في مقدمته أن علمه الجديد وهو الظواهر الاجتماعية وأطلق عليها: واقعات العمران البشري أوٍ أحوال الاجتماع الإنساني. وإن كان لم يتعرض لها بالشرح على النحو المألوف حديثاً إلا أنه أعطانا من الشرح ما يكفي لتأكيد معرفته الوافية بها وبخصائصها فيقول: إنه لما كانت طبيعة التاريخ ــ والتاريخ معمل تجارب العلم الجديد في نظر ابن خلدون ــ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر، بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومعاشهم من الكسب والمعاشٍ والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال، ثم يقول أيضاً: ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع.

والظواهر الاجتماعية في نظر علماء الاجتماع المحدثين كما في نظر ابن خلدون أيضاً، لها طابع الشمول فتكاد تشمل كل أنواع التصرفات الإنسانية ويبدو أن هذه الفكرة الواضحة كانت مكتملة عند ابن خلدون فأشار إليها في أكثر من موضع كما أنه أبدى إدراكه لاتساع نطاقها كأوضح نماذج من ظواهر الاجتماع الإنساني، وأشار إلى تداخلها وتشابكها وخاصة مع الظواهر الطبيعية، وكان في هذه الإشارة سباقاً إلى اكتشاف ما نسميه بعلم البنية الاجتماعية (المورفولوجيا الاجتماعية) وهو العلم الذي نسب بعد ذلك كما ذكرنا آنفاً إلى العلامة الفرنسي اميل دوركايم في مستهل القرن العشرين.

ويدل منهج ابن خلدون في دراسة الظواهر الاجتماعية على رسوخ قدمه في البحث العلمي في أحدث صورة فهو يستخدم طريقة الملاحظة الشخصية لهذه الظواهر بالإضافة التي تعقبها في بطون التاريخ، لأن واقعات العمران (أو الظواهر الاجتماعية) في نظره ثابتة وأن دراستها على هذا النحو الفريد يمكن الباحث من الكشف عما يحكمها من قوانين. وليس هناك أدنى شك في سلامة هذه الطرقة ومطابقتها لما يجري عليه البحث الآن في ميادين شتى من ميادين المعرفة المنظمة التي نطلق عليها اسم البحوث العلمية الاجتماعية.

وأنه لمن المؤسف حقاً أن منهج ابن خلدون الشامل في دراسة الظواهر الاجتماعية لم ينتشر بعد كما سبق أن أشرت إلى أن جاء مفكر آخر في القرن الثامن عشر الميلادي هو مونتسكيو الذي وسع فكره القانون الطبيعي بحيث يتضمن الوقائع الاجتماعية، ويعتبر ما قام به ابن خلدون ومونتسكيو من بعده بمثابة وضع وتدعيم لدعائم علم إجتماع واضح المعاني، فلما جاء أوجست كونت في القرن التاسع عشر أتم الصرح وأوضح بجلاء أن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين توازي في حتميتها وصحتها قوانين سقوط الحجر.

ابن خلدون والاتجاهات العلمية الحديثة

المقدمة والعلم الاجتماعي:

في هذا الجزء من البحث سنحاول أن نلمس في إيجاز بعض الاتجاهات العلمية الحديثة في مقدمة ابن خلدون مبتدئين بجانب هام في المقدمة وهو المتصل بإطارها العام وما تناولته من مواضيع متشعبة كانت مثار جدل واعتراضات، ثم بعد ذلك سنتعرض في إيجاز أيضاً لبعض جوانب نتائج دراسات ابن خلدون، توضح القمة العلمية التي ارتقى إليها.

يوجه إلى مقدمته اعتراضات عديدة من أهمها الخلط الموجود فيها، وتداخل ميدان دراستها مع ميادين أخرى وخاصة التاريخ. ويستند المعترضون إلى أسانيد شتى أهمها أن علم الاجتماع يعنى فقط باكتشاف الحقائق التي تتصل بالناس والعلاقات التي تنشأ بينهم، وأن علماء الاجتماع ليسوا، كما فعل ابن خلدون في مواضع كثيرة من المقدمة، دعاة

إصلاح أو رجال وعظ وإرشاد، وإنما هم أشخاص توفروا للكشف عن ناحية من نواحي المعرفة المنظمة ميدانها العلاقات الاجتماعية، وكل ما يعنيهم أن يجمعوا أكثر ما يمكن من الحقائق والمعلومات التي لها جدوى وقيمة عن هذه العلاقات.

حقيقة أن أي علم من العلوم ما هو إلا طريق إلى المعرفة يستند إلى الأدلة والشواهد والبراهين التي يمكن إثباتها بالطرق والإمكانيات البشرية، وحقيقة أن العالم الاجتماعي رجلٌ يبحث عن الحقيقة في نسيج العلاقات الاجتماعية، ولكن ما زلنا في أيامنا هذه نرى فريقاً من علماء الاجتماع ينادون بأن التوجيه والنصح والإرشاد إلى التغيرات والأحداث المرغوبة أمر يدخل ضمن نطاق علم الاجتماع. ويوضح العلامة بومان وجهة النظر هذه بقوله: إنه من الصعب أن نضع حداً فاصلاً بين العناية بالناحية العلمية في دراسة المجتمع وبين الاهتمام بأوجه الإصلاح الاجتماعي والرعاية الاجتماعية، ويرجع ذلك لأسبابٍ شتى أهمها الصلة الوثيقة بينهما.

وعلى هذا الأساس ليس من الأمور المستغربة أن نجد كثيراً من الكتاب والمفكرين أمثال ابن خلدون، يدخلون في ميدان الدراسة الاجتماعية مدفوعين بالإصلاح الديني أو الاجتماعي ثم يتأكد لهم بعد الانغماس في الدراسة، أن العواطف والرغبات وحدها لا تصل بهم إلى الهدف المنشود، وعليه فلا بد أن يتجهوا إلى الدراسة العلمية الواقعية لأنها كفيلة بدعم هذه النزعة بدعائم ملموسة وبحجج وبراهين من المعرفة.

ومن الاعتراضات الأخرى التي وجهت إلى ابن خلدون أنه مزج بين الاجتماع والعلوم الأخرى وخاصة التاريخ، بينما يشترط لقيام العلم أن يكون مستقلاً، والواقع أن هذه النقطة كسابقتها وكنقط أخرى كثيرة تغفل أموراً عدة منها الثقافة التي كانت سائدة أيام ابن خلدون والضغوط المختلفة التي كان هذا المفكر العربي معرضاً لها. على أنه إنصافاً لمفكرنا العربي من هذه الوجهة نذكر أنه قد قامت في السنوات الأخيرة فكرة إدماج علم الاجتماع وعلم الأجناس البشرية على اعتبار أنها كلها علوم تتصل بالعلاقات الإنسانية، وأنه من صالح الدراسة وتنسيق الجهود أن يحدث مثل هذا الضم، ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن بقاء ميادين المعرفة منفصلاً بعضها عن البعض الآخر سيقف عقبة في سبيل تقدم العلوم، فقد سار كل علمٍ بخطوات واسعة نحو التقدم بالرغم من الفصل والتخصص، وبالرغم من أن ميادينها وثيقة الصلة بعضها ببعض.

طريقة التحليل البنائي الوظيفي عند ابن خلدون:

تعد طريقة التحليل البنائي الوظيفي من الأمور المستحدثة في الدراسات الاجتماعية ومن روادها في القرن العشرين العلامة الانجليزي راد كليف براون وتحاول هذه الطريقة النظر

إلى الظاهرة الاجتماعية في ضوء ما تحدثه من وظائف في المجتمع وبواسطتها تدرس الظواهر المختلفة والقيم والمعايير والنظم الاجتماعية كالأسرة والدين والتربية السياسية وغيرها.

فيدرس الدين مثلاً من حيث وظائفه الاجتماعية التي من أهمها:

١- **الضبط الاجتماعي** أو الرقابة على سلوك الناس ويعرف كثيرٌ من علماء الاجتماع المعاصرون بأن الدين من هذه الوجهة يعتبر أكبر وازع لأنه يراقب الناس في السر والجهر ويمتد أثر رقابته عليهم إلى عالم الغيب بينما رقابة القانون الوضعي تنتهي في نظر هؤلاء الناس بانتهاء عالم الواقع.

٢- **التآلف الاجتماعي** (أو تآلف الكلمة كما يقول ابن خلدون) عن طريق توحيد وجهة نظر الجماعة وإيجاد قيم ومعايير وأهداف مشتركة بينهم.

وأنه لمن المدهش حقاً أن نجد أن ابن خلدون فطن إلى هذه الطريقة منذ أكثر من ستة قرون واستخدمها في وضوح في دراسة ظواهر عدة من بينها ظاهرة الدين فيقول في الفصل السابع والعشرين من المقدمة تحت عنوان: العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصفة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.

ويعلل ابن خلدون ذلك بقوله: لأن العرب وهم سكان البادية أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم فيسهل انقيادهم واجتماعهم.. فإذا كان فيهم النبي أو الولي يبعثهم على القيام بأمر الله ويؤلف كلمتهم... والعرب أسرع قبولاً للحق والهدي لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش... فإن كل مولود يولد على الفطرة.

ابن خلدون والأهمية الوظيفية للمركز الاجتماعي:

اهتمَّ كثيرٌ من المفكرين بالتصنيفات الموجودة في المجتمعات المختلفة وخاصةً من ناحية التدريج الاجتماعي للمراكز والوظائف، فإن هذه المراكز وتلك الوظائف في أي مجتمعٍ ليست على مستوى واحد من الأهمية في نظر الجماعة، وغالباً ما تتضمن هذه المراكز والوظائف قياساً قيمياً، بحيث يكون المركز تعبيراً عن التقدير الجمعي لشاغله، ولذلك نجد عادة أن المراكز التي لها احترام أكبر وجزاء أسمى هي التي تهم الجماعة لاعتبارات شتى من بينها صلة المركز بما يسديه شاغله من خدمات للمجتمع، أو لأن هذا المركز يتطلب مواهب معينة أو تدريباً أشق وأطول من جانب الشخص الذي يشغله.

وقد فطن ابن خلدون لهذا المبدأ الذي يعتبر حديثاً حتى في عصرنا الحاضر فذكر تحت عنوان: **القائمون بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة ونحو ذلك لا**

تعظم ثروتهم: أن الكسب قيمة الأعمال، وكلما كانت الأعمال ضرورية في العمران كانت قيمتها أعظم، والقائمون بأعمال التدريس وما شابهها في نظره لا تضطر إليهم العامة اضطراراً، وهم بشرف مركزهم أعزة على الخلق، الأمر الذي لا يجعل جزاءهم المادي كبيراً بالنسبة للمجهود الذي يقومون به.

وفي مكان آخر من المقدمة أشار ابن خلدون لمبدأ سديد في تفسير التفاوت في الجزاء والعوض بين الوظائف والمراكز الاجتماعية المباينة مدخلاً في حسابه الجاه والدعة، ويعتبرهما ابن خلدون من ضمن الجزاء الذي يناله شاغل المركز ومن الممكن ترجمتها إلى مقاييس يدخلها شاغل المركز في حسابه حينما يختاره. ونحن نلاحظ مثل هذا الأمر في مجتمعاتنا الحالية حيث يفضل المركز أحياناً لما له من نفوذ وما يضفيه على شاغله من جاه وراحة، ويعلل ابن خلدون هذا الأمر بطريقة فريدة فصاحب الجاه في نظره مخدوم يستعمل الناس بلاعوض في الأعمال الكثيرة في حين أن فاقد الجاه ولو كان صاحب مال فلا يسار له إلا بمقدار ماله.

ابن خلدون والضبط الاجتماعي:

يعرف الضبط الاجتماعي أو الرقابة الاجتماعية كما يطلق عليها أحياناً بأنها كافة الجهود والإجراءات التي يتخذها المجتمع أو جزء من هذا المجتمع (كالدولة أو الأسرة أو القيم الدينية) لحمل الأفراد على السير على المستوى العادي المألوف المصطلح عليه في الجماعة دون انحراف أو اعتداء، ولقد فطن ابن خلدون في المقدمة لأهمية الضبط الاجتماعي وأنه أساس لحياة الجماعة وأمنها واستمرارها، وقد أشار إلى ذلك في أكثر من موضوع في مقدمته الخالدة.

ويبدو من هذه العبارات إدراك ابن خلدون لأنواع الضبط المختلفة وفق التعيينات المستحدثة كالضبط **الخارجي** الذي يأتي عن طريق القانون، والضبط **الداخلي** الذي يأتي عن طريق الدين، والضبط **الاختياري** الذي عن طريق الضمير. وكذلك إدراكه للضبط **الوقائي** فإن إشارته إلى الأعمال والمهن في معرض الكلام عن التطرف كما نسميه الآن يدل على ما للعمل من أثر في الوقاية والعلاج من الانحراف عن مصطلحات الجماعة وأساليبها العادية.

وعلاوةً على ما تقدم فإنه حينما تكلم عن الاجتماع البشري قال بأن أساس هذا الاجتماع مستمد من ضعف الإنسان واستحالة معيشته منفرداً، غير أن اجتماع البشر يستلزم وجود سلطة هي عبارة عن وازع يزع اعتداء الناس بعضهم على بعض ويحول دون اعتداء المعتدين. وقد تعرض ابن خلدون للعوامل المختلفة التي تؤثر في حمل الأفراد

على الانسجام مع قواعد الجماعة دون انحراف بالإضافة إلى تأثير القوة القاهرة التي تمارسها السلطة، وكأني به يتحدث عن الرقابة الداخلية في صورة الدين وتأثيره على النفوس.

ويرى ابن خلدون أن تصرفات الناس وسلوكهم تتباين بتباين البيئة الجغرافية ولما للتفاعل بين ظواهر الكون المختلفة من طبيعية واجتماعية من أثر في تشكيل معاييرهم وعاداتهم ومن آرائه الطريفة في هذا الموضوع أن سكان الأقاليم المتوسطة أكثر اعتدالا وأنزع لاتخاذ الأسلوب البعيد عن التطرف في حياتهم وتفاعلهم بعضهم مع بعض، إذ أن عندهم العلوم والصناعات، والأمر والنهي، والنظام والملك، وفيهم ظهور الأنبياء وتأسست الدول والممالك، وسنت القوانين، ووضعت العلوم، وتشيدت الأمصار، وغرست المغارس، وحرثت المحارث، وتولدت الصناعات النفعية وترفهت المعيشة.

والاستقرار في نظر ابن خلدون عامل هام لتوفير الأمن والضبط، فإن الحياة الاجتماعية المستقرة تجلب معها تفاعلات من نوع يختلف كل الاختلاف عن حياة أهل البداوة الذين تضطرهم ظروف الحياة إلى التنقل من مكان إلى آخر، فالتوحش والنزوع إلى الغزو والسلب والاعتداء سمة من سمات المجتمعات غير المستقرة بينما سكان المدن لطبيعة الاستقرار في حياتهم يألفون الخضوع للقوانين والسير على معايير الجماعة بعيداً عن الخشونة والغلظة، ويقول ابن خلدون في ذلك: والحال أن أهل المدن ينغمسون في النعيم ويتركون لولاة المدن مهمة حماية أنفسهم ومواهم، فالمدن والحواضر تعيش في ظلال حامياتها وأسوارها، بينما سكان البوادي يأنفون من السكنى وراء الأسوار، وتحت خفارة الجنود، ويرون أنفسهم أكفاء للقيام بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم، وهم دائماً على ضرر شديد لا يعرفون النوم إلا غراراً، لأنهم يلقون السمع حتى إذا سمعوا أقل نبأة هبوا مستعدين لمقابلة الخطر الواقع.

التربية عند ابن خلدون:

التربية بمعناها الاجتماعي الواسع عبارة عن مجموع عمليات التعليم والتعلم التي يمارسها البشر، وفي نظر العلامة تالكوت بمارسنز تعرف التربية: بأنها عبارة عن كافة المحاولات التي تنفرج عن إدماج أدوار جديدة في شخصية الإنسان. وقد كانت التربية وما زالت جزءاً لا يتجزأ من حياة الشعوب، فقد طالما ربى الكبار الصغار وعلموهم مختلف أنواع المهارات والحرف، فرجال التربية والتعليم والحرف والصناعة وغيرهم طالما درسو وبذلوا جهوداً لنقل بعض معارفهم وخبراتهم إلى غيرهم، ويلعب الاتصال الشخصي دوراً كبيراً في نجاح عمليات التربية وفي التمكين لها.

ولقد فطن ابن خلدون لكل هذه الأمور وأوضح في جلاء حينما بحث في فوائد الرحلة في طلب العلم وإلقاء أهل المشيخة فذكر: أن البشر يأخذون معارفهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً والقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة. ومثل هذا الوصف للتربية يتفق مع التعاريف الحديثة السوسيولوجية التي تنظر إلى التربية كعملية وكنظام اجتماعي باعتبار أنها عمليات التعليم والتعلم التي يمارسها البشر منذ أن يولدوا إلى أن يموتوا، أو كما يقول العلامة بالكوت بارسون، أنها عبارة عن إدماج أدوار جديدة في الجهاز الشخصي للإنسان، ولا شك أن عملية الإدماج هذه لا تتم في يسر وسهولة وكفاءة إلا إذا كان هناك احتكاك شخصي لأن العلاقة الاجتماعية في مثل هذه الحالة يتوافر لها عناصر الانسياب الشخصي عن طريق الاستماع والنظر وما يتصل بهما من ضروب التأثير والانفعال المرتبط بالكلام والحركة والإلقاء وكافة أنواع التصرفات الشخصية، وفي هذا المجال يشير عالم الاجتماع دافيز إلى أن العلاقة الاجتماعية تتأثر بالقرب أو البعد التفاعلي وبظروف العلاقة وأهدافها ومدتها ولا شك أن القرب التفاعلي يكون متوفراً في صورة أوفى وأكمل في حال الاتصال الشخصي الذي يتم ـ كما يقول ابن خلدون ـ عن طريق الرحلة، وتعدد الشيوخ الذين يتلقى عليهم طالب العلم. وتأخذ بعض الجامعات في الشرق والغرب بهذا الرأي في صور شتى منها ضرورة قيام الطالب بحضور بعض البرنامج في جامعة غير التي درس فيها بعد البكالوريوس والليسانس حتى يسمح له بالتقدم لدرجة الدكتوراة.

ابن خلدون وتزايد السكان:

كثيراً ما ينسب الفضل الأول للاهتداء إلى الجانب العلمي في تزايد السكان إلى العلامة الانجليزي مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٤٣) على اعتبار أنه قد أشار إلى ظاهرة تزايد السكان في صراحة عام ١٨٠٣ حينما قال بأن السكان يزيدون كل خمس وعشرين سنة بنسبة متوالية هندسية إذا لم يعق تزايدهم أي عائق خارجي بينما تتزايد الموارد التي يعتمدون عليها في معاشهم بمتوالية عددية، وأن هناك وسائل طبيعية وأخرى صناعية للحد من هذا التزايد ومن هذه الوسائل الطبيعية النكبات والحروب والرهبنة وغير ذلك.

والواقع أن مقدمة ابن خلدون قد سبقت في الظهور كتاب مالتوس في تزايد السكان بأربعة قرون وأشارت في صراحة إلى قوانين تزايد السكان كما أشارت إلى العوامل التي تحد من هذه الزيادة والتي من أهمها الظروف والأحداث الطبيعية كالأوبئة والقحط وما ماثل ذلك ويمكن التدليل على صحة هذا الرأي بتحليل ابن خلدون للفقرة التالية من المقدمة نقل المسعودي وكثير من المؤرخين عن جيوش بني إسرائيل وأن موسى عليه السلام

أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ست مئة ألف أو يزيدون.

يقول ابن خلدون في تحليل الفقرة السابق الإشارة إليها بعد إبرازه لخطورة جهل المؤرخين بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية وخاصة جهلهم بالقوانين التي تتحكم في التزايد السكاني ما يجعلنا نشك في صحة كلام المسعودي ونحكم بعدم إمكان صحته فالذي بين موسى ابن عمران بن يصهر بن فاهث بفتح الهاء وكسرها، ابن لاوى بكسر الواو وفتحها، ابن يعقوب وهو إسرائيل الله، هكذا نسبه في التوراة، والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال: دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مئتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة، ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد بحسب القوانين التي يسير عليها التزايد في النوع الإنساني.

ابن خلدون والنموذج الأمثل:

يرى كثيرٌ من علماء الاجتماع المحدثين أن دراسة الظواهر الاجتماعية المتباينة يسهل تحليلها ودراستها عن طريق تكوين ما نسميه النموذج المثل للظاهرة الاجتماعية. ذلك أن تكوين مثل هذه النماذج أو الأنواع المثلى يساعد الباحث الاجتماعي على تصنيف الظواهر، ومن ثم يسهل عليه مهمة دراستها وإثبات خصائصها المميزة.

والواقع أن النموذج المثل أمر افتراضي، إذ لا يوجد عادة مثل هذه الأنواع الخالصة النقية مئة في المئة، وإنما يكون حكمنا مبنياً على الصفة الغالبة، على اعتبار أن النوع المثل يمثل أقصى طرف منطقي تتوافر فيه خصائص معينة، تجعل منه عنصراً ونوعاً قائماً بذاته كطرف أول في موازنة، يقابله من الناحية الأخرى الطرف الثاني الذي يمثل خصائص على نقيض خصائص الطرف الأول.

وقد عرف عن عدد كبير من المفكرين وعلماء الاجتماع تقسيمات واصطلاحات تعتبر أساساً لأجهزتهم الاجتماعية، فنجد مثلاً أن تقسيم الجماعات إلى جماعات عضوية وأخرى ميكانيكية من التقسيمات التي عرف بها اميل دوركايم، وقد اعتمد دوركايم في هذا التقسيم على نظام توزيع العمل والعوامل المؤدية إليه، وفي رأيه أن الأفراد في المجتمع البسيط يقومون بأعمال متماثلة ويتصفون بالتجانس مما يجعل تماسكهم من النوع الميكانيكي أو الآلي، بعكس الأفراد في المجتمعات المعقدة التي تمتاز بالتخصص وبشدة التباين والاختلاف، مما يجعل التعاون بينهم من الأمور الضرورية، لحاجة كل منهم للآخر، ومن ثم يكون تماسكهم من النوع العضوي، الذي يساهم فيه كل عضو بنصيب في بقاء

الجماعة واستمرارها، وكما عرف دوركايم بتقسيمه سالف الذكر، نجد أن هناك آخرين عرفوا بتصنيفاتهم مثل توني وسوروكن ومين وغيرهم فقسموا الجماعات إلى: جماعية وفردية، وإلى دينية ومدنية، وإلى محلية وتعاقدية على التوالي.

وكان لابن خلدون تقسيم عرف به، وقد شرحه شرحاً وافياً، وجعله أساساً لجهازه الاجتماعي، فقد صنف المجتمعات إلى بدوية متنقلة وحضرية مستقرة، وأعطى لكل نوع من الخصائص المميزة ما يكفينا مؤونة البحث أو التساؤل وخاصة حينما نغفل عن هذا الجانب العلمي في دراسته ونتهمه بإلصاق بعض الصفات غير المستحبة بالعرب. وفي رأي مقدم هذا البحث أن ابن خلدون لم يشأ أن يتخلى عن حيدته العلمية فيستثني الأعراب أو البدو الرحل من خصائص الجماعات المتنقلة لأن طبيعة الاجتماع غير المستقر تستلزم العصبية والتوحش وعدم الاحتفال بالعلم والحضارة.

إن المتصفح لمقدمة هذا المفكر العربي الخالد يستطيع أن يلمس جوانب كثيرة من صحة ما تقدم، فعند الكلام على البدو وكونهم أقدم من الحضر قال ابن خلدون بأن البدو مقتصرون على الضروري، والحضر معتنون بالترف، والضروري أقدم، لأنه أصل، فالبدو أصل للمدن والحضر، سابق عليهما، ولهذا نجد التمدن غاية البدوي، ومتى حصل على الرياش الذي به الترف، مال إلى الدعة، وإذا فتشنا أهل الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من البدو، وذلك يدلنا على أن أحوال الحضارة ناشئة عن البداوة، وأن البداوة هي الأصل، وكل من البدو والحضر متفاوت من جنسه، فحي أعظم من حي، ومدينة أكثر عمراناً من مدينة.

ومن الخصائص الهامة التي لاحظها ابن خلدون خاصية العصبية فهي في نظره روح الجماعة البدوية ومصدر شكيمتها وقوتها وقد فطن إلى أن العصبية أساسها النسب ولو أنه في نظره أمر وهمي تؤكده المعاشرة والمعايير الاجتماعية السائدة إلا أنه يخدم وظائف شتى في المجتمع، وكأني به يحاول أن يقسم المجتمعات إلى مجتمعات **نسبية** تقدر الناس وتقسم الوظائف والمراكز على أساس من القرابة أو ماشابه ذلك من أمور لا دخل للشخص فيها كاللون والجوار وغير ذلك، ومجتمعات **تحصيلية** تزن الناس بمقدار ما يؤدون من خدمات لمجتمعهم.

وفي رأي ابن خلدون أن العصبية أساس لديناميكية الجماعات وهي لا تتأتى إلا لساكن البادية وعن طريقها يحدث الغزو والاحتلال وتقوم الدول وتحل إحداها محل الأخرى لأن المجتمعات في نظره لها أطوار لا تعدو في الغالب أعمار ثلاثة أجيال من البشر، وعمر الجيل أربعون سنة.

وذلك لأن الجيل الأول مازال على خلق البداوة من شظف العيش والبسالة والاشتراك في المجد، فلا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم فجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون.

والجيل الثاني تحول حالهم ـ بالملك والترفه ـ من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد وكسل الباقين، فتنكسر سورة العصبية، ولكن يبقى لهم الكثير مما أدركوا من الاعتزاز والمدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك كلية.

وأما الجيل الثالث: فينسون عهد البداوة والخشونة، ويفقدون حلاوة العصبية بما فيهم من القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته، فيصيرون عيالاً على الدولة، وتسقط العصبية بالجملة، فيحتاج صاحب الدولة إلى الاستظهار بسواهم، ويستكثر بالموالي.

ابن خلدون والتقسيمات الحديثة لعلم الاجتماع:

ينظر ابن خلدون إلى الظواهر الاجتماعية من أفق واسع المدى، ويرى أنها تمس جميع ظاهرات الحياة الاجتماعية ولهذا السبب جعل من المجتمع الإنساني كله مادة لبحوثه ومشاهداته ولخص لنا الميادين التي تنبثق منها ظواهر الاجتماع الإنساني وهي تكاد لا تفترق كثيراً عن ميادين علم الاجتماع الحديث.

١- العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض. وهذه العبارة التي وردت على لسان ابن خلدون كعنوان للفصل الأول من المقدمة تعادل ما نسميه الآن في أحدث كتب الاجتماع بعلم الاجتماع العام أو الظواهر الاجتماعية العامة.

٢- العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية. وهذا الميدان الجديد الذي انفرد به ابن خلدون يعطيه بحق لقب مؤسس علم الاجتماع الريفي.

٣- الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية. وفي دراسات ابن خلدون السياسية في هذا الفصل من المقدمة تبدو عبقريته العلمية مرة أخرى، فإنه بالرغم من سابقة التعرض للمسائل السياسية بواسطة بعض المفكرين المسلمين السابقين لابن خلدون مثل إخوان الصفا والفارابي، فإنا نجد أن ابن خلدون في علاجه لهذه المسائل اتبع طريقة تختلف عمن سبقوه، فيما كانت الدراسات السياسية السابقة له تعالج الأمور بطريقة فلسفية محضة إذا بنا نجد منهجاً عملياً اجتماعياً يعرض بطريقة واقعية لهذه الظواهر السياسية باعتبارها جانباً هاماً من جوانب الاجتماع الإنساني ومثل هذا الاتجاه يتفق والنظرة الحديثة التي ترى أن علم الاجتماع لابد أن يتعرض لكافة الظواهر المتصلة بالعلاقات الاجتماعية ومن زاوية تأثيرها في هذه العلاقات وتأثرها بها وقد كان ابن خلدون في هذه الناحية سباقاً كعادته متميزاً بالابتكار والاستقلال.

٤- العمران الحضري والبلدان والأمصار: وكما تقسم ميادين علم الاجتماع الحديث إلى اجتماع ريفي واجتماع حضري فعل ابن خلدون ذلك ورأى أن المدن لها خصائصها وميزاتها التي تختلف عن خصائص الريف والبادية وأشار في صراحة تدعو إلى الإعجاب إلى أن المدن قبلة الطموحيين من أنظارنا لانفساح مجال التدريج الاجتماعي فيها وتعدد فرص العمل الأمر الذي لا يتوافر في إجتماع أهل الريف الذي يمتاز بالبساطة وعدم التعقيد في كل شيء.

٥- في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه: وفي هذا الجانب من المقدمة يقوم ابن خلدون بالبحث في ميدان من ميادين علم الاجتماع أشبه بميدان علم الاجتماع الصناعي.

٦- وأخيراً يدرس ابن خلدون في الفصل الثالث من المقدمة العلوم واكتسابها وتعليمها ويمكن أن نطلق على هذه الدراسة اسم علم الاجتماع التربوي.

وهكذا يبدو لنا من هذا التقسيم الإجمالي فكرة واضحة عما رأى ابن خلدون أنه مادة علمه الاجتماعي الذي أطلق عليه اسم العمران أو الاجتماع البشري وهو تقسيم يظهر فيه الدقة والنظرة الثاقبة التي جاءت وليدة البحث والاستقصاء والبراعة وخاصة إذا ما لاحظنا براعة التسلسل والربط والإحكام في العرض.

٧- الظواهر الكبرى والظواهر الصغرى: ومن النظريات التي انفرد ابن خلدون بالسبق فيها إشارته إلى نوعين من العمليات الاجتماعية التي تحدث في المجتمع نعني بهما: العمليات الكبرى والعمليات الصغرى أو بمعنى آخر العمليات أو الظواهر الاجتماعية الجماعية والعمليات أو الظواهر الاجتماعية الجزئية.

ومن أمثلة الظواهر أو العمليات الاجتماعية الكبرى التي أشار إليها العلاقة بين ازدهار المجتمع وأخلاق الناس لأنه كما يقول: إذا استفحل العز وتوفرت النعم لطفت الأخلاق ومن أمثلتها أيضاً تأثير حياة البداوة على الناس نتيجة لنكد العيش وسوء الموطن.

ومن أمثلة الظواهر والعمليات الاجتماعية الجزئية تعرضه لمبدأ الشدة على المتعلمين وما ينتج عنه من أضرار اجتماعية لأن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم، لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف، سطا به القهر، وضيق انبساط نفسه، وذهب بنشاطها، فدعا إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، والمكر والخديعة، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وصار ذلك عادة، وفسدت معاني الإنسانية فيه، من حيث الاجتماع والتمدن، والمدافعة عن النفس والمنزل، وكسلت النفس عن الفضائل، وانقبضت عن غاياتها.

الغرب والشرق يفطن لقيمة ابن خلدون كمفكر اجتماعي عظيم

رأينا فيما سبق صورة لمآثر مفكر عربي أسدى إلى الفكر الاجتماعي خدمات لا تقدر، ورأينا كيف أنه على قدمه يبدو أستاذاً لجميع الناطقين بالضاد بل وللعالم أجمع، فإن التراث الذي خلفه يتبوأ مقاماً عالياً بين تراث الفكر العالمي وتزداد قيمته على مر الأيام، ومن الأمور التي تستدعي الانتباه من هذه الوجهة أن المفكر العربي ابن خلدون يعتبر من أساتذة الفكر القلائل في العالم الذين يزداد بريقهم لمعاناً كلما ارتقى العقل البشري ليدرك عمق ما وصل إليه في عصور لم تكن مهيأة للانتفاع به وبآرائه.

وقد رأى مقدم هذا البحث بعد هذا السرد العابر لبعض نظريات ابن خلدون التي تبدو جديدة حتى في أيامنا هذه، أن يشير إلى نماذج من الآراء التي وردت على لسان عدد من العلماء في الغرب والشرق بخصوص مفكرنا العربي الكبير والمكانة التي يحتلها في محيط العلم والمعرفة.

آراء علماء الاجتماع الأوروبيين:

١- يقول عالم الاجتماع لودفيج جمبلوفتش (١٨٣٨ - ١٩٠٩): جاء عربي تقي قبل أوجيست كونت، بل قبل فيكو الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوربي، فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة جعلت ما كتبه عبارة عما نسميه اليوم بعلم الاجتماع.

٢- ويقول العالم المؤرخ المعاصر أرنولد توينبي: لقد توصل ابن خلدون إلى فلسفة التاريخ، ويعد عمله هذا أعظم عمل أو تأليف أبدعه فكر في أي زمان ومكان.

٣- ويقول جاستون بوتول: يوجد في مؤلف ابن خلدون عمل مرموق من علم الاجتماع الوضعي يحتوي على القواعد الأساسية لمجتمع أفريقيا الشمالية، حيث أن جانباً كبيراً من الأوصاف التي أوردها ينطبق حتى الآن على الحياة الاجتماعية لهذه المنطقة.

٤- ويقول روبرت فلينت المؤرخ الانجليزي: إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ قد نجد من يتفوق عليه حتى من كتاب العرب أنفسهم، أما إذا نظرنا إليه كواضع لنظريات في التاريخ، فإنه منقطع النظير في كل مكان وزمان.

٥- ويقول استفانوا كولوزيو الإيطالي: إن مبدأ الحتمية يعود الفخر في تقريره إلى ابن خلدون قبل رجال الفلسفة الإثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة.

إن المفكر العربي العظيم اكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيد ران وماركس وباكونين بخمسة قرون.

إذا كانت نظريات ابن خلدون في حياة المجتمع تضعه في طليعة فلاسفة التاريخ فإن ما يعزوه من شأن كبير إلى دور العمل والأجرة والملكية تجعله إماماً لاقتصاديي هذا العصر.

٦- ويقول سارتون في كتابه مدخل لتاريخ العالم بشأن ابن خلدون: إنه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل في تفكيره إلى اصطناع ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخي.

٧- ويقول البارون المستشرق كارادي فو صاحب كتاب مفكري الإسلام في الجزء الأول من تأليفه هذا: أنجبت أفريقيا الإسلامية اجتماعياً من الطبقة الأولى في شخص ابن خلدون الذي لم يعرف من قبله عالم أوتي تصوراً عن فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره، فإن أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القاضية بتغيرها، وكيفية تأسيس الدول، وما تدخل فيه من الأطوار وتنوع المدنيات وعوامل نموها أو تقلصها، كل ذلك كان من المباحث التي خاض فيها إلى أقصى ما يمكن الخوض فيه، وذلك في مقدمته المشهورة ولم نجد في أوربا إلا في القرن الثامن عشر للمسيح أناساً حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ بعد أن كانت أقفالاً مستحجبة تعذر فتحها، فكان ابن خلدون في العقل والإدراك من فصيلة مونتسكيو أو الأب مايلي وهو من دون شك الحد الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين مثل تارد وجوبينو.

آراء علماء الاجتماع الأمريكيين:

لمس مقدم هذا البحث مدى الاهتمام الذي تظهره أقسام الاجتماع بالجامعات الأميريكية المختلفة بابن خلدون وتراثه الفكري، ويبدو ذلك واضحاً من كتابات بعض فطاحل علم الإجتماع لديهم أمثال سوروكن وسميث وغيرهم.

١- يقول إسكندر روفتش بيتبريم سوروكن: يبحث ابن خلدون في كل الموضوعات التي تدخل في نطاق علم الاجتماع، والقسم الأكبر من بحوثه يعتبر حديثاً حتى في أيامنا هذه، ولهذا السبب فإن ابن خلدون جنباً إلى جنب مع أفلاطون وأرسطو وفيكو وكونت، يعتبر حقاً أحد مؤسسي علم الإجتماع.

٢- ويقول الأستاذ ناتانيل شميث في كتابه المنشور عام (١٩٣٠) بعنوان: ابن خلدون مؤرخ واجتماعي وفيلسوف ما يأتي: أربع مئة سنة كانت قد انقضت على موت ابن خلدون، عندما ظهرت ورأت النور عام ١٨٠٦ بعض نماذج من مقدمته، مترجمة إلى اللغة الفرنسية بمعرفة سلفستر دي ساسي، وخلال هذه القرون العديدة كان أعظم مؤرخي العرب يكاد يكون مجهولاً في أوربا. ثم يسترسل شميث فيقول: أنه مفكر مثل كونت وتوماس وسبنسر، وقد تقدم في علم الاجتماع إلى حدود لم يصل إليها كونت نفسه في

النصف الأول من القرن التاسع عشر. إن المفكرين الذين وضعوا أسس علم الإجتماع من جديد لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون في حينها فاستعانوا بالحقائق التي كان قد اكتشفها والطريق التي كان قد أوجدها ذلك العبقري العربي قبلهم بمدة طويلة لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة أعظم مما تقدموا به فعلاً.

٣- ويقول العلامة هاري المربارنز: بصفة عامة يمكننا أن نقول بأن الفضل في إنشاء وتأسيس فلسفة التاريخ يعود إلى ابن خلدون لا إلى فيكو.

٤- وجاء في المؤلف الاجتماعي الكبير تاريخ الفكر الاجتماعي للأستاذين هاوارد بيكر وهاري بارنز ما يأتي: إن أول مفكر جاء به الزمان بعد بوليبيوس، لم يكن أوربياً بل كان عربياً قام بتطبيق أفكار تتفق والآراء الحديثة في الاجتماع التاريخي. إن أفكار ابن خلدون تتقدم على كثيرين في الشرق والغرب، إنه أعظم من الإدريسي ومن فيكو وغيرهما، لقد أكد آراء تعتبر فريدة بالنسبة لعصره كالنظر إلى التاريخ باعتباره ظاهرة طبيعية، كما أكد الفكرة الخاصة بالتطور التاريخي، ويعتبر من هذه الوجهة متفوقاً على جميع معاصريه وخاصة لتعرضه لوجهة نظر جديدة تنظر إلى التاريخ كسلسلة من التغيرات الاجتماعية، كما أنه أكد في براعة تداخل الظواهر الطبيعية مع الظواهر الاجتماعية.

ابن خلدون في رأي الكتاب والعلماء العرب:

كان عام ١٩٣٢ فرصة طيبة لإبراز مكانة ابن خلدون لدى مواطنيه العرب، ففي تلك السنة أقيمت في بعض البلاد العربية، وخاصة القاهرة وتونس، عدة حفلات علمية احتفالاً بانقضاء ست مئة سنة على مولده، وقد لفت هذا الحادث الأنظار إلى مؤلفات هذا المفكر العربي الكبير ونشطت الكتب والمجلات في سرد آرائه وإذاعة مآثره.

وفي مستهل عام ١٩٦٢ وفي كنف حركة التحرير العربية بالقاهرة، يحتفل بهذا العبقري وتتاح الفرصة للتعريف به، ولا شك أن هذا الاحتفال سيسفر عن الكشف عن بعض جوانب من إنتاج ابن خلدون تضيف إلى أمجاد العرب مجداً جديداً، والأراء التالية لبعض كتاب العرب وعلمائهم تؤيد مكانة ابن خلدون العلمية وهي بعد شهادة الغرب لاتبدو مستغربة أو متحيزة.

١- يقول الكاتب والمؤرخ الحجة في ابن خلدون الأستاذ ساطع الحصري في كتابه المنشور عام ١٩٥٣ بعنوان: دراسات عن ابن خلدون ما يلي: بعد انتشار المقدمة صار علماء الاجتماع والتاريخ والاقتصاد يطلعون على آراء ابن خلدون ويلفتون الأنظار إلى ما يجدون بينها من النظريات القيمة، حول بعض المسائل التي لم يفرغوا من درسها وبحثها إلا في المدة الأخيرة.

فقد لاحظوا بدهشة كبيرة أن المعلومات التي كانت مقررة في تاريخ العلوم المذكورة تحتاج إلى تبديل وتحوير، على ضوء الحقائق التي وجدوها في مقدمة ابن خلدون:

كانوا يزعمون مثلاً، أن فيكو، هو أول من فكر في فلسفة التاريخ، ولكنهم علموا بعدئذٍ، أن ابن خلدون كان قد فعل ذلك - في مقدمته قبل فيكو بمدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن.

وكانوا يزعمون قبلاً، أن أوجيست كونت هو الذي أسس علم الاجتماع على أسس علمية مستقلة، ولكنهم علموا بعدئذٍ، أن ابن خلدون قد سبق كونت إلى ذلك، قبل مدة تزيد على أربعة قرون ونصف قرن.

وقد وجدوا أن كثيراً من الآراء والمبادىء التي قال بها علماء الاقتصاد ومفكرو الاجتماع - مثل جان باتسيت ساي - وكارل ماركس وباكونين - في أواسط القرن التاسع عشر، كانت مسطورة في المقدمة التي كتبها ابن خلدون في القرن الرابع عشر، تارة في حالة بذور وفسائل صغيرة، وطوراً في حالة أغراس نامية كاملة.

ولذلك نجد أن مطالعة مقدمة ابن خلدون، صارت تبهر أنظار العلماء المدققين، وتحملهم على إظهار إعجابهم في مقالات، أو رسائل أو كتب ينشرونها.

٢- ويقول الأستاذ أحمد أمين: لابن خلدون، ومثله قليل من العلماء، قريحة متوقدة، وله قدرة فائقة على الحكم على الأشياء، وله ابتكار نادر، إن أخذ من علم الأقدمين فليغذي ذهنه ويهضمه، وليخرجه شيئاً جديداً يمتاز عن علم من سبقه، لأن فيه شخصيته وابتكاره وآراءه. وإذا وجد حلقة مفقودة في سلسلة تفكيره ولم يجد لها أصلاً فيما كتبه سلفه استطاع أن يخلقها خلقاً وينشئها إنشاءً. فهو جديد فيما أخذه عمن قبله، وهو جديد فيما اخترعه.

٣- وتقتضي الأمانة العلمية أن نذكر أن ابن خلدون لم يكن محل إشادة فقط من جانب الكتاب والعلماء العرب، بل ومحل نقدٍ أيضاً وفقاً لإطار وجهة النظر الذي اتخذه الكاتب أو الباحث في إنتاج ابن خلدون. ومن بين فحول الكتاب الذين نقدوا ابن خلدون ومنهجه العلمي الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين الذي أنكر على ابن خلدون جدارته في حمل لقب عالم الاجتماع أو مؤسس علم الاجتماع على اعتبار أن ابن خلدون نشط لدراسة المجتمع لينقي به التاريخ من الشوائب والأغلاط ومثل هذا الهدف المعياري يتنافى مع المنهج العلمي السليم لأنه لكي يوصف الاجتماع بأنه علم يقتضي الأمر أن يكون مستقلاً تمام الاستقلال.

وقد انبرى للرد على أستاذنا الدكتور طه حسين عدد كبير من الكتاب في مقدمتهم الأستاذ ساطع الحصري الذي يقول في التعليق على الرأي السابق الإشارة إليه: في الواقع أن ابن خلدون فكر في علم العمران خلال أبحاثه التاريخية، ودون مسائل هذا العلم عندما تهيأ لكتابة التاريخ ... غير أن ذلك لا يبرر القول بأن: ابن خلدون جعل علم العمران تابعاً للتاريخ فكان كل ما ألفه وفعله في هذا المضمار، يعلمنا بسلسلة الأفكار والملاحظات التي دفعته إلى دراسة علم العمران، ولكنه يجعل علم العمران، تابعاً للتاريخ في حد ذاته لأن علم العمران مستقل بنفسه، كما أنه جمع مباحث هذا العلم في كتاب خاص، منفصل عن مباحث التاريخ الأصلية. إن كل من يدرس هذا الكتاب الذي عرف باسم المقدمة يضطر إلى التسليم بأنه لا يرتبط بالكتابين الثاني والثالث من التاريخ ارتباطاً فعلياً، وبأن فصل الكتاب الأول المذكور عن الكتابين الثاني والثالث، لا يغير شيئاً من وضعه أبداً.

ويضيف مقدم هذا البحث إلى ما ذكره الأستاذ ساطع الحصري عن التداخل بين علم الإجتماع والتاريخ في نظر ابن خلدون ما سبق ذكره في صدر هذا البحث من أنا في الوقت الحاضر نسلم بأن التاريخ ووقائعه والمجتمع وأحداثه تمد علم الاجتماع بمادة خام لا غنى عنها في الدراسات الاجتماعية.

٢- ويقول الأمير شكيب أرسلان في مقدمة كتاب تاريخ ابن خلدون[1] لا نعلم أحداً من العلماء والفلاسفة قبل ابن خلدون أفرد بالتأليف علم طبيعة العمران وما يسمى اليوم بعلم الاجتماع، برغم أن هذا العلم لم يكن من الأسرار الخفية ولا من المباحث التي لا تجول فيها أفكار الحكماء، وقد ثبت أن الفلاسفة قبل ابن خلدون خطوا هذا العلم وأشاروا عليه في تضاعيف مباحثهم، ولكنهم لم يبلغوا فيه شيئاً من الإحاطة التي بلغها ابن خلدون، ولا استقصوا فيه ذلك الاستقصاء الذي جعله في هذا الموضوع نسيج وحده، حتى ألقى إليه فيه بمقاليد الرئاسة. فهو واضع علم الاجتماع بالإجماع.

٣- ويقول الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه عن ابن خلدون: لم يتح لمقدمة ابن خلدون من بعده ما كانت تستحقه من الذيوع والانتشار، وما كان يعوزها من التنقيح والتكملة ومتابعة البحث، ويظهر أن ابن خلدون في بحوث مقدمته كان سابقاً لتفكير عصره بعدة مراحل، ولذلك لم يستطع معاصروه ولا من جاؤوا من بعده في مدى القرون الأربعة التالية له أن يتابعوه في تفكيره، فضلاً عن أن يحاولوا تكملة بحوثه وتنقيحها. بل إن

---

١ - المطبوع في المكتبة التجارية الكبرى بفاس، طباعة القاهرة (١٩٣٦).

المقدمة نفسها قد ظلت طوال هذه الحقبة مجهولة لدى كثيرٍ من الباحثين في الشرق والغرب.

ومن أجل هذا كله عادت الدراسات الاجتماعية من بعده سيرتها الأولى التي كانت عليها من قبل أن يظهر مقدمته، فلم تكن هذه الدراسات تتجاوز الأغراض الثلاثة التي كانت تدور حولها قبل ابن خلدون وهي وصف النظم وصفاً تاريخياً، والدعوة لها بقصد تثبيتها في النفحات، وبيان ما ينبغي أن تكون عليه بحسب المبادىء الفلسفية التي يدين بها الباحث وإنشاء حقائق فاضلة خيالية على هذا الأساس.

وظل الأمر على هذه الحالة حتى منتصف القرن الثامن عشر، وحينئذ ظهرت طوائف جديدة من البحوث الاجتماعية تجنح، إلى الاتجاهات التي اتجهت إليها مقدمة ابن خلدون، ولكن بدون أن تستطيع الوصول إلى ما وصلت إليه، ولا تحقيق ما حققته من أغراض.

٤- ويقول محمد عبد الله عنان في كتابه ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري ١٩٥٣: أن ابن خلدون على قدمه من حيث الزمن، يجب أن يكون أستاذاً لجميع الشباب الذي ينطق بالعربية، ويجب أن يقرأ الشباب مقدمة ابن خلدون، وأن يستعيدها مراراً وتكرارا، لا ليعجب فقط بما حوت من روائع التفكير والبحث، ولكن أيضاً ليستبقي منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الاجتماعية التي تجول بذهنه، وكثيراً ما يتعثر في التعبير عنها، ذلك أن مقدمة ابن خلدون إذا كانت ثروة لا تقدر في تراث التفكير العربي، فهي أيضاً ثروة لا تقدر في تراث البيان العربي.

رأي أخير:

بعد هذا الإلمام الخاطف بعبقرية ابن خلدون المفكر العربي الخالد، وبعد إدراك مدى أثره ومكانته في الشرق والغرب يحق للعرب أن يعتزوا بمفكرهم العظيم وأن يعملوا على تقديره وإذاعة مآثره، وأن يقوموا بإجراءات بناءة إيجابية للإفادة مما خلف من إنتاج يشحذ العزائم، ويقوي الهمم لنهضة علمية اجتماعية تساير ركب التقدم الصناعي، ورتبة العلوم الطبيعية، وقفزة الفنون بأنواعها في بلادنا العربية.

إن في بعث تراث هذا المفكر العربي الكبير في هذه الآونة بالذات، لما يتفق والشعور العربي العام بتمجيد كل من ألقى ويلقي بلبنات في صرح بناء مجد العرب ووحدتهم ورفعتهم وسيرهم نحو عالم عربي، مجمع القوى، موحد الهم، مكتمل العزائم.

مقدمة ابن خلدون

تأليف

العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد

ابن خلدون

(٧٣٢ - ٨٠٨ هـ)



۞ توطئة

- أهمية علم التاريخ.
- بيان أصناف المؤرخين:
  - أ - قدماء ومحدثون.
  - ب- ثقات وضعفاء.
  - جـ- تواريخ عامة وتواريخ خاصة.
- فضائل بعض التواريخ.
- أوجه الخطأ والنقص في كتب التاريخ:
  - أ- سرد الأحداث بدون النظر إلى أسبابها.
  - ب- حشد الأخبار المخالفة للقوانين الإجتماعية.
- الأسباب الداعية لهذا التأليف:
  - أ- الاستدراك على المؤرخين.
  - ب- بيان العلل والأسباب المقتضية للأحداث.
  - جـ- اكتشاف القوانين الحاكمة للمجتمعات.
- تقسيم وتبويب الكتاب:
  - أ- مقدمة في فضل علم التاريخ.
  - ب- والكتاب الأول في العمران البشري.
  - جـ- والكتاب الثاني في أخبار العرب.
  - د- والكتاب الثالث في أخبار البربر.
- تنقيح وتكملة الكتاب.
- تسمية الكتاب.
- الاعتذار عما يعرض من تقصير في عمله.
- إهداء الكتاب.

بسم ا لله الرحمن الرحيم

وصلى ا لله على سيدنا محمد وآله.

[مُقَدمة المؤلف]

قالَ الْعَبْدُ الْفَقِيْرُ إِلَى ا للهِ تَعَالَى الإمام العالم العلامة شيخ مشايخ الإسلام.. الإمام ولي الدين أبو زيدٍ عَبْدُ الْرَّحْمَن بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ خَلْدُوْنَ متع ا لله بعلومه آمين[(١)]:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَبَرُوْتُ، وَبِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوْتُ، وَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالنُّعُوْتُ، الْعَالِمُ فَلاَ يَعْزُبُ[(٢)] عَنْهُ مَا (يُدَبِّرُ النطقُ)[(٣)] أَوْ يُخْفِيْهِ الْسُّكُوْتُ، الْقَادِرُ فَلاَ يُعْجِزُهُ شَيءٌ فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ يَفُوْتُ، أَنْشَأَنَا منَ الأَرْض نَسَماً، وَاسْتَعْمَرَنَا فِيْهَا أَجْيَالاً وَأُمَماً، وَيَسَّرَ لَنَا مِنْهَا أَرْزَاقاً وَقِسماً، تَكْنُفُنَا[(٤)] الأَرْحَامُ وَالْبُيُوْتُ، وَيَكْفُلُنَا الْرِّزْقُ وَالْقُوْتُ، وَتُبْلِينَا الأَيَّامُ وَالْوُقُوتُ، وَتَعْتَورُنَا[(٥)] الآجَالُ الَّتِي خُطَّ عَلَينَا كِتَابُهَا الموقُوْتُ، وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالْثُّبُوْتُ، وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوْتُ.

وَالْصَّلاَةُ وَالْسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ الْنَّبيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكْتُوْبِ فِي الْتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ الْمَنْعُوْتِ، الَّذِي تَمَخَّضَ لِفِصَالِهِ[(٦)] الْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ الآحَادُ وَالْسُّبُوْتُ، وَيَتَبَايَنَ زُحَلُ وَالْيَهْمُوْتُ[(٧)]، وَشَهِدَ بِصِدْقه الحَمَامُ والعَنْكَبُوت، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ فِي محبتهِ[(٨)] وَاتِّبَاعِهِ الأَثَرُ الْبَعِيْدُ وَالْصِّيْتُ، وَالْشَّمْلُ الْجمِيْعُ فِي مُظَاهَرَتِهِ وَلِعَدُوِّهِم الْشَّمْلُ الْشَّتِيْتُ، صلى ا لله عليه وَعَلَيْهِمْ مَا اتَّصَلَ بِالإِسْلاَمِ جَدُّهُ الْمَبْخُوْتُ[(٩)]، وَانْقَطَعَ بِالْكُفرِ حَبْلُهُ الْمَبْتُوْتُ[(١٠)]، وَسَلَّمَ كَثِيْراً.

---

١ - في ن: يقول الْعَبْدُ الْفَقِيْرُ إِلَى ا للهِ تَعَالَى [في نسخة: رحمة ربه] الْغَنِي بِلُطْفِهِ عَبْدُ الْرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ خَلْدُوْنَ الْحَضْرَمِيُّ وَفَّقَهُ ا للهُ تعالى.

٢ - في ن: يغرب. ويعزب بضم الزاي وكسرها: يغيب ويذهب.

٣ - في ن: تُظْهِرُهُ الْنَّجْوَى.

٤ - الكَنَفُ: الحرز والستر والحفظ.

٥ - تعتورنا: تتداولنا وتأخذنا وتذهب بنا.

٦ - الفصال الفطام، وأراد هنا ولادته، أو بعثته صلى ا لله عليه وسلم. وفي ن: تمحض.

٧ - اليهموت: الحوت، ويسمى أيضاً لوتيا. كما في المزهر وروح البيان.

٨ - في ن: صُحْبَتِه.

٩ - المبخوت: المجدود. والبخت: الجَدُّ.

١٠ - البَتُّ: القطع. والمبتوت: المقطوع.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ فَنَّ التَّارِيْخِ مِنَ الْفُنُوْنِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهُ[١] الأُمَمُ وَالأَجْيَالُ، وتُشَدُّ إِلَيْهِ الرَّكَائِبُ وَالرِّحَالُ، وتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّوْقَةُ وَالأَغْفَالُ[٢]، وَتَتَنَافَسُ فِيْهِ الْمُلُوْكُ وَالأَقْيَالُ[٣]، ويَتَسَاوَى[٤] في فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَّالُ، إِذْ هُوَ في ظَاهِرِهِ لاَ يَزِيْدُ عَلَى أَخْبَارٍ عَنِ الأَيَّامِ وَالْدُّوَلِ، وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْقُرُوْنِ الأُوَلِ، تَنْمُو فِيْهَا الأَقْوَالُ، وَتُضْرَبُ فِيْهَا الأَمْثَالُ، وَتُطْرَفُ بِهَا الأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا الاحْتِفَالُ، وَتُؤَدِّي لَنَا[٥] شَأْنَ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا الأَحْوَالُ، وَاتَّسَعَ لِلدُّوَلِ النِّطَاقُ فِيْهَا وَالْمَجَالُ، وَعَمَّرُوا الأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمُ الارْتِحَالُ، وَحَانَ مِنْهُمُ الزَّوَالُ، وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ، وَتَعْلِيْلٌ لِلْكَائِنَاتِ ومَبَادِيهَا دَقِيقٌ، وَعِلْمٌ بِكَيفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ[٦] وَأَسْبَابِهَا عَمِيْقٌ، فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيْلٌ في الْحِكْمَةِ عَرِيْقٌ، وَجَدِيْرٌ بِأَنْ يُعَدَّ في عُلُوْمِهَا وَخَلِيْقٌ.

وَإِنَّ **فُحُوْلَ الْمُؤَرِّخِيْنَ** في الإِسْلاَمِ قَدِ اسْتَوْعَبُوا أَخْبَارَ الأَيَّامِ وَجَمَعُوْهَا، وسَطَّرُوْهَا في صَفَحَاتِ [ظ٢/ا] الدَّفَاتِرِ وَأَوْدَعُوْهَا، وَخَلطَهَا **الْمُتَطَفِّلُونَ** بِدَسَائِسَ مِنَ الْبَاطِلِ وَهِمُوا فِيْهَا أو[٧] ابْتَدَعُوْهَا[٨]، وَزُخْرُفٍ[٩] مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوْهَا وَوَضَعُوْهَا، وَاقْتَفَى تِلْكَ الآثَارَ الْكَثِيْرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَاتَّبَعُوْهَا، وَأَدَّوْهَا إِلَيْنَا كَمَا سَمِعُوْهَا، وَلَمْ يُلاَحِظُوا **أَسْبَابَ الْوَقَائِعِ وَالأَحْوَالِ** وَلَمْ يُرَاعُوهَا، وَلاَ رَفَضُوا تُرَّهَاتِ[١٠] الأَحَادِيثِ وَلاَ دَفَعُوهَا، فَالتَّحْقِيْقُ قَلِيْلٌ، وَطَرْفُ التَّنْقِيحِ في الْغَالِبِ كَلِيْلٌ[١١]، وَالْغَلَطُ وَالْوَهْمُ نَسِيْبٌ[١٢] لِلأَخْبَارِ وَخَلِيْلٌ، وَالتَّقْلِيْدُ عَرِيْقٌ في الآدَمِيِّيْنَ وَسَلِيْلٌ[١٣]، وَالتَّطَفُّلُ عَلَى الْفُنُوْنِ عَرِيْضٌ وطَوِيْلٌ، وَمَرْعَى

١ - في ن: تتداولها.
٢ - الغُفلُ: من لا يرجى خيره ولا يخشى شره.
٣ - القَيْلُ: العظيم.لقب ملوك حمير، أو هو بمنزلة الوزير.
٤ - في ن: تتساوى.
٥ - في ن: (إلينا).
٦ - جمع واقعة، وهي ما يصيب المجتمع من تغير وتبدل.
٧ - في ن: و.
٨ - أي أتى بشيء لم يسبق إليه كذباً وزوراً.
٩ - في ن: زَخارفَ.
١٠ - أي الأباطيل.
١١ - كليل: ضعيف، خائر القوى.
١٢ - نسيب: مناسب، أو هو ذو نسب فيهم.
١٣ - السليل: ما انسل من الشيء لا لولد.

الْجَهْلِ بَيْنَ الأَنَامِ وَخِيْمٌ وَبِيْلٌ[١]، وَالْحَقُّ لاَ يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ، وَالْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ النَّظَرِ شَيْطَانُهُ، وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ، وَالْبَصِيْرَةُ تَنْقُدُ الصَّحِيْحَ إِذَا تَمْقُلُ[٢]، وَالْعِلْمُ يَجْلُوْ لَهَا صَفَحَاتِ الْقُلُوْبِ وَيَصْقُلُ.

هَذَا وَقَدْ دَوَّنَ النَّاسُ فِي الأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا، وَجَمَعُوا تَوَارِيْخَ الأُمَمِ وَالدُّوَلِ فِي الْعَالَمِ وَسَطَّرُوا، وَالَّذِيْنَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهْرَةِ وَالإِمَامَةِ[٣] الْمُعْتَبَرَةِ، وَاسْتَفْرَغُوا دَوَاوِيْنَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمْ الْمُتَأَخِّرَةِ، هُمْ قَلِيْلُوْنَ لاَ يَكَادُوْنَ يُجَاوِزُوْنَ عَدَدَ الأَنَامِلِ، وَلاَ حَرَكَاتِ الْعَوَامِلِ[٤]، مِثْلُ **ابْنِ إِسْحَاقَ**[٥] **وَالطَّبَرِيِّ**[٦] **وَابْنِ الْكَلْبِيِّ**[٧] **وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ بْنِ عُمَرَ الأَسَدِيِّ** وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيْرِ، الْمُتَمَيِّزِيْنَ عَنِ الْجَمَاهِيْرِ، وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ **الْوَاقِدِيِّ وَالْمَسْعُوْدِيِّ**[٨] مِنَ الْمَطْعَنِ وَالْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوْفٌ عِنْدَ الأَثْبَاتِ، وَمَشْهُوْرٌ بَيْنَ الْحَفَظَةِ الثِّقَاتِ، إِلاَّ أَنَّ الْكَافَّةَ اخْتَصَّهُمْ بِقَبُوْلِ أَخْبَارِهِمْ، وَاقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي التَّصْنِيْفِ وَاتِّبَاعِ آثَارِهِمْ، **وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قِسْطَاسٌ**[٩] **نَفْسِهِ فِي تَزْيِيْفِهِمْ فِيْمَا يَنْقُلُوْنَ أَوْ اعْتِبَارِهِمْ**، فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تُرْجَعُ إِلَيْهَا الأَخْبَارُ، وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا الرِّوَايَاتُ وَالآثَارُ.

ثُمَّ إِنَّ **أَكْثَرَ التَّوَارِيْخِ** لِهَؤُلاءِ عَامَّةُ الْمَنَاهِجِ وَالْمَسَالِكِ، لِعُمُوْمِ **الدَّوْلَتَيْنِ صَدْرِ الإِسْلاَمِ**[١٠] فِي الآفَاقِ وَالْمَمَالِكِ، وَتَنَاوُلِهَا الْبَعِيْدَ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الْمَآخِذِ وَالْمَتَارِكِ، **وَمِنْ**

---

١ – الوبيل: المرعى الوخيم. وليس في ظ: وخيم.

٢ – مقله يمقله: نظر إليه وتأمله.

٣ – في ن: الأمانة.

٤ – أي: الحركات الإعرابية من فتح وضم وكسر وجزم... الناتجة عن الأدوات النحوية العاملة... وانظر عنها العوامل المئة للجرجاني.

٥ – هو محمد بن إسحاق توفي سنة ١٥١هـ.

٦ – هو محمد بن جرير توفي سنة ٣١٠هـ.

٧ – هو هشام بن محمد توفي سنة ٢٠٤هـ.

٨ – هو علي بن الحسين توفي بمصر سنة ٣٤٦هـ.

٩ – أي ميزان نفسه.

١٠ – أي لعموم الدولتين اللتين جاءتا في أول الإسلام.

هَؤُلاَءِ منْ أَوْعَبَ[1] ما قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنَ الْدُّوَلِ وَالأُمَمِ، وَالأَمْرِ الْعَمَمِ[2]، كَالْمَسْعُوْدِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ[3].

وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهَمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الإِطْلاَقِ إِلَى الْتَّقْيِيْدِ، ووَقَفَ في الْعُمُوْمِ وَالإِحَاطَةِ عَنْ الْشَّأْوِ[4] الْبَعِيْدِ، فَقَيَّدَ شَوَارِدَ[5] عَصْرِهِ، وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفْقِهِ[6] وَقُطْرِهِ، وَاقْتَصَرَ على تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ، كَمَا فَعَلَ **حَيَّانُ**[7] مُؤَرِّخُ الأَنْدَلُسِ وَالْدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ بِهَا، **وَالْرَّقِيْقُ**[8] مُؤَرِّخُ أَفْرِيْقِيَّةَ وَالْدَّوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ.

ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ **بَعْدِ هَؤُلاَءِ** إِلاَّ مُقَلِّدٌ، وَبَلِيْدُ الْطَّبْعِ وَالْعَقْلِ أو مُتَبَلِّدٌ، يَنْسِجُ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ، وَيَحْتَذِي[9] مِنْهُ بِالْمِثَالِ، وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ الأَيَّامُ مِنَ الأَحْوَالِ، وَاسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ[10] الأُمَمِ وَالأَجْيَالِ، فَيَجْلِبُوْنَ الأَخْبَارَ عَنِ الْدُّوَلِ، وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ في الْعُصُوْرِ الأُوَلِ، صُوَراً قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا، وَصِفَاحاً انْتُضِيَتْ[11] مِنْ أَغْمَادِهَا، وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلاَدِهَا[12]، إنما هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُوْلُهَا، وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا، وَلاَ تَحَقَّقَتْ فُصُوْلُهَا، يُكَرِّرُوْنَ في مَوْضُوعَاتِهَا[13] الأَخْبَارَ الْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا، اتِّبَاعاً لِمَنْ عُنِيَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِيْنَ بِشَأْنِهَا، وَيُغْفِلُوْنَ أَمْرَ الأَجْيَالِ الْنَّاشِئَةِ في دِيْوَانِهَا، بِمَا أَعْوَزَ

١ – في ن: اسْتَوْعَبَ.

٢ – العمم: التام العام من كل أمر.

٣ – أي: سار على طريقه.

٤ – أي الشأن.

٥ – أي: دون الأخبار المشتهرة بين الناس، من قولهم: قافية شرود: أي سائرة في البلاد.

٦ – أي البلد الخاص بما يحيط به..

٧ – في الأصل: أَبُوْ حيَّان. وهو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان، من كتبه المقتبس في تاريخ الأندلس. توفي سنة ٤٦٩هـ.

٨ – في المطبوعات: (ابن الرفيق). وهو خطأ. صوابهُ: (الرقيق) بالقاف وهو إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق. كان حيًّا ٣٨٨هـ. انظر ترجمته معجم الأدباء (٢١٦/١ – ٢٢٦) ومعجم المؤلفين (٧٦/١) وقد ذكره أيضاً في أحمد بن القاسم (٤٨/٢) وهو خطأ. وانظر مجلة دراسات تاريخية العدد السادس ص٣٢.

٩ – أي: اقتدى به.

١٠ – أي كوارث ومصائب الأمم.

١١ – أي: سيوفاً سلت.

١٢ – الطارف: الحديث بخلاف التالد والتليد.

١٣ – في ن: موضوعاتهم.

عَلَيْهِمْ مِنْ تُرْجُمَانِهَا، فَتَسْتَعْجِمُ[١] صُحُفُهُمْ [ظ٢/٢] عَنْ بَيَانِهَا، ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الْدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسْقاً، مُحَافِظِيْنَ عَلَى نَقْلِهَا وَهماً أَوْ صِدْقاً، لاَ يَتَعَرَّضُوْنَ لِبِدَايَتِهَا، وَلاَ يَذْكُرُونَ الْسَّبَبَ الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا، وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا، وَلاَ عِلَّةَ الْوُقُوْفِ عِنْدَ غَايَتِهَا، فَيَبْقَى الْنَّاظِرُ مُتَطَلِّعاً بَعْدُ إِلَى افْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِىءِ الْدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا، مُفَتِّشاً عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا، بَاحِثاً عَنِ الْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُبِهَا، حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ.

ثُمَّ جَاءَ آخَرُوْنَ بِإِفْرَاطِ **الاخْتِصَار**، وَذَهَبُوا إِلَى الاكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوْكِ وَالاقْتِصَارِ[٢]، مَقْطُوْعَةً عَنِ الأَنْسَابِ وَالأَخْبَارِ، مَوْضُوْعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوْفِ الْغُبَارِ، كَمَا فَعَلَهُ **ابْنُ رَشِيْق**[٣] **فِي مِيْزَانِ الْعَمَل**، وَمَنِ اقْتَفَى هَذَا الأَثَرَ مِنَ الْهَمَلِ[٤]، وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهَؤُلاءِ مَقَالٌ، وَلاَ يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلاَ انْتِقَالٌ، لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ الْفَوَائِدِ[٥]، وَأَخَلُّوا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوْفَةِ لِلْمُؤَرِّخِيْنَ وَالْعَوَائِدِ.

وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ، وَسَبَرْتُ[٦] غَوْرَ الأَمْسِ وَالْيَوْمِ، نَبَّهْتُ عَيْنَ الْقَرِيْحَةِ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ وَالنَّوْمِ، وَسِمْتُ[٧] الْتَّصْنِيْفَ مِنْ نَفْسِي - وَأَنَا الْمُفْلِسُ - أُحْسِنُ الْسَّوْمَ[٨]، فَأَنْشَأْتُ فِي الْتَّارِيْخِ كِتَاباً، **رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ الْنَّاشِئَةِ مِنَ الأَجْيَالِ حِجَاباً، وَفَصَّلْتُهُ فِي الأَخْبَارِ وَالاعْتِبَارِ بَاباً بَاباً، وَأَبْدَيْتُ فِيْهِ لأَوَّلِيَّةِ الْدُّوَلِ وَالْعِمْرَانِ عِلَلاً وَأَسْبَاباً**، وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ الجيلين[٩] الَّذِيْنَ عَمَّرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ الأَعْصَارِ، وَمَلَؤُوا أَكْنَافَ الْضَّوَاحِي[١٠] مِنْهُ وَالأَمْصَارِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْدُّوَلِ الْطِّوَالِ أَوِ الْقِصَارِ، وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الْمُلُوْكِ

---

١ - أي تكون غير مفهومة.

٢ - في ن: الأمصَار.

٣ - هو الحسن بن رشيق صاحب كتاب ميزان العمل في تاريخ الدول والعمدة في صناعة الشعر. توفي بصقلية سنة ٤٦٣هـ.

٤ - الهمل: المتروك.

٥ - في ظ: بالفوائد.

٦ - سبرت: تأملت وامتحنت.

٧ - سَمَتَ يَسمِتُ: هيَّأ وجه الكلام والرأي.

٨ - أي أحسن تقدير عملي والمطالبة بقيمته الحقيقية. وهو من المغالة في البيع.

٩ - في ن: الأُمَم.

١٠ - في ن: النواحي.

وَالأَنْصَار، وَهُمَا[١] **الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ**، إِذْ هُمَا الْجِيلاَن اللَّذَان عُرِفَ بِالْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا، وَطَالَ فِيْهِ عَلَى الأَحْقَابِ[٢] مَثْوَاهُمَا، حَتَّى لا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ (فِيْهِ مَا عَدَاهُمَا)[٣]، وَلاَ يُعْرَفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ الآدَمِيِّيْنَ سِوَاهُمَا، **فَهَذَّبْتُ مَنَاحِيَهُ تَهْذِيباً، وَقَرَّبْتُهُ لأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْخَاصَّةِ تَقْرِيباً، وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيْبِهِ وَتَبْوِيْبِهِ مَسْلَكاً غَرِيباً**، وَاخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ الْمَنَاحِي مَذْهباً عَجِيباً، وَطَرِيْقَةً مُبْتَدَعَةً وَأُسْلُوْباً، **وَشَرَحْتُ فِيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ وَالمدن وَالتَّمَدُّنِ وَمَا يَعْرِضُ فِي الاجْتِمَاعِ الإِنسَانِيِّ مِنَ الأعراض**[٤] **الْذَّاتِيَّةِ**[٥] مَا يُمَتِّعُكَ بِعِلَلِ

---

١ - في ن: هم.

٢ - الحُقبُ: ثمانون سنة أو أكثر والدهر، والسنة أو السنون. قاموس.

٣ - في ظ: عنه مثواهما.

٤ - في ن: الْعَوَارِض.

٥ - يقول الفارابي في كتاب الحروف ص٩٥: العرض الذاتي هو الذي يكون موضوعه ماهيته أو جزءاً من ماهيته، أو توجب ماهيته موضوعه أن يوجد له على النحو الذي توجب ماهية أمر ما أن يوجد له عرض ما. فإن ذلك العرض إذ حُدَّ أخذ ذلك الأمر في حدِّ العرض. فما كان من الأعراض هكذا فإنه يقال له **عرض ذاتي**. **وغير الذاتي** هو الذي لا يدخل موضوعه في شيء من ماهيته، وماهيته موضوعه لا توجب أن يوجد له ذلك العرض. هذا بالنسبة للمعنى الفلسفي للكلمة.

أما العوارض الذاتية للعلوم، فهو اصطلاح يستعمله المناطقة والأصوليون بكثره، فيشرحها الغزالي في مقاصد الفلاسفة (١٢٢ - ١٢٣)كما يلي: الأعراض الذاتية لعلم من العلوم، ونعني بها الخواص التي تقع في موضوع ذلك العلم ولا تقع خارجة عنه، كالمثلث والمربع لبعض المقادير، والانحناء والاستقامة لبعضها، وهي أعراض ذاتية لموضوع الهندسة وكالزوجية والفردية للعدد، وكالاتفاق والاختلاف للنغمات - أعني التناسب - وكالمرض والصحة والحيوان.

هذا وتتميز **الأعراض الذاتية عن الأعراض الغريبة** كا يلي: أما **الذاتي فهو** احتراز من الأعراض الغريبة، فإن العلوم لا ينظر فيها للأعراض الغريبة، فلا ينظر المهندس في أن الخط المستقيم أحسن لأن الحسن غريب عن موضوع علمه.

وإذن، فالأعراض الذاتية في لغة ابن خلدون وكذلك ما يشبهها من العبارات مثل: ما يعرض للعمران بطبيعته من الأحوال، ما يعرض له بمقتضى طبعه.. لا تعني القوانين كما فهم ذلك كثير منن الباحثين، بل إنه يقصد بها الخصائص الملازمة للشيء والتي يختص بها دون غيره. ومن هنا يمكن القول إنَّ العوارض الذاتية للعمران هي بتعبيرنا المعاصر: الظواهر الاجتماعية بأوسع معانيها.

و لم يحصر ابن خلدون هذه العوارض الذاتية للعمران بل يشير إلى أمثلة منها: مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات التي للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. انظر العصبية والدولة للجابري).

الْكَوائِنِ وَأَسْبَابِهَا، وَيُعَرِّفُكَ كَيْفَ دَخلَ أَهْلُ الدُّوَلِ مِنْ أَبْوابِهَا، حَتَّى تَنزِعَ مِنَ التَّقلِيْدِ يَدَكَ، وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا قَبْلَكَ مِنَ الأَيَّامِ وَالأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ.

وَرَتَّبْتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلاثَةِ كُتُبٍ:

الْمُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيْخِ وَتَحْقِيْقِ مَذَاهِبِهِ وَالإِلْمَاعِ[1] بِمَغَالِطِ الْمُؤَرِّخِيْنَ.

الْكِتَابُ الأَوَّلُ فِي الْعُمْرَانِ وَذِكْرِ مَا يَعْرِضُ فِيْهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَّةِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُوْمِ وَمَا لِذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ وَالأَسْبَابِ.

الْكِتَابُ الثَّانِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدُوَلِهِمْ مُنْذُ مَبْدَإِ الْخَلِيْقَةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ، وَفِيْهِ مِنَ[2] الإِلْمَاعِ[3] بِبَعْضِ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الأُمَمِ الْمَشَاهِيْرِ وَدُوَلِهِمْ مِثْلِ النَّبَطِ وَالسِّرْيَانِيِّيْنَ وَالْفُرْسِ وَبَنِي إِسْرَائِيْلَ وَالْقُبْطِ وَالْيُوْنَانِ وَالتُّرْكِ وَالرُّوْمِ وَالإِفْرَنْجَةِ.

الْكِتَابُ الثَّالِثُ فِي أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَمَوَالِيْهِمْ[4] مِنْ زَنَاتَةَ وَذِكْرِ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ[5] وَمَا كَانَ لَهم بِدِيَارِ الْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمُلْكِ وَالدُّوَلِ.

ثُمَّ كَانَتْ **الرِّحْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ** لاجْتِلاءِ[6] أَنْوَارِهِ، وَقَضَاءِ الْفَرْضِ وَالسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ، وَالْوُقُوْفِ عَلَى آثَارِهِ فِي دَوَاوِيْنِهِ وَأَسْفَارِهِ [ظ٣/١]، فَأَفَدْتُ[7] مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوْكِ الْعَجَمِ بِتِلْكَ الدِّيَارِ، وَدُوَلِ التُّرْكِ فِيْمَا مَلَكُوْهُ مِنَ الأَقْطَارِ، وَأَتْبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ الأَسْطَارِ، وَأَدْرَجْتُهَا فِي ذِكْرِ الْمُعَاصِرِيْنَ لِتِلْكَ الأَجْيَالِ مِنْ أُمَمِ النَّوَاحِي، وَمُلُوْكِ الأَمْصَارِ منهم وَالضَّوَاحِي، سَالِكاً سَبِيْلَ الاخْتِصَارِ وَالتَّلْخِيْصِ، مُفْتَدِياً بِالْمَرَامِ السَّهْلِ مِنَ الْعَوِيْصِ، دَاخِلاً مِنْ بَابِ الأَسْبَابِ عَلَى الْعُمُوْمِ إِلَى الإِخْبَارِ عَلَى الْخُصُوْصِ، **فَاسْتَوْعَبَ**

---

١ – أي الإشارة بذكر أخطاء المؤرخين.

٢ – (من) زيادة من نسخة ليست في ظ.

٣ – يقال: ألمع بالشيء إذا اختلسه. فهو كلمح البرق من غير تفصيل. أي الإشارة.

٤ – في ن: ومن إليهم من زناتة..

٥ – في ن: (أخيالهم) و(أحيالهم).

٦ – في ن: لاجتناء.

٧ – في ن: (فأخذت). وفي ن: (فزدت).

أَخْبَارَ الْخَلِيْقَةِ اسْتِيعاباً، وَأَذْلَلَ[١] مِنَ الْحِكَمِ النَّافِرَةِ صِعَاباً، وَأَعْطَى لِحَوَادِثِ الدُّوَلِ[٢] عِلَلاً وَأَسْبَاباً[٣]، **فَأَصْبَحَ[٤] لِلْحِكْمَةِ صُوَاناً[٥]، وَلِلتَّارِيْخ جِرَاباً.**

وَلَمَّا كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَى أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ، مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ[٦] وَالْوَبَرِ، وَالإِلْمَاعِ بِمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الْكُبَرِ، وَأَفْصَحَ بِالذِّكْرَى وَالْعِبَرِ، في مبادئ[٧] الأَحْوَالِ وما بَعْدَهَا مِنَ الْخَبَرِ، سَمَّيْتُهُ:

كِتَابَ الْعِبَرِ، وَدِيْوَانَ الْمُبْتَدَإِ وَالْخَبَرِ، فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَرْبَرِ
وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الأَكْبَرِ

وَلَمْ أَتْرُكْ شَيْئاً فِي أَوَّلِيَّةِ الأَجْيَالِ وَالدُّوَلِ، وَتَعَاصُرِ الأُمَمِ الأُوَلِ، وَأَسْبَابِ التَّصَرُّفِ وَالْحِوَلِ، فِي الْقُرُوْنِ الْخَالِيَةِ وَالْمِلَلِ، وَمَا يَعْرِضُ فِي [ث٢/٤٥] الْعُمْرَانِ مِنْ دَوْلَةٍ وَمِلَّةٍ، وَمَدِيْنَةٍ وَحَلَّةٍ[٨]، وَعِزَّةٍ وَذِلَّةٍ، وَكَثْرَةٍ وَقِلَّةٍ، وَعِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ، وَكَسْبٍ وَإِضَاعَةٍ، وَأَحْوَالٍ مُتَقَلِّبَةٍ مُشَاعَةٍ، وَبَدْوٍ وَحَضَرٍ، وَوَاقِعٍ وَمُنْتَظَرٍ، إِلاَّ وَاسْتَوْعَبْتُ جُمَلَهُ، وَأَوْضَحْتُ بَرَاهِيْنَهُ وَعِلَلَه.

فَجَاءَ هَذَا الْكِتَابُ فَذّاً[٩] بِمَا ضَمَّنْتُهُ مِنَ الْعُلُوْمِ الْغَرِيْبَةِ، وَالْحِكَمِ الْمَحْجُوْبَةِ الْقَرِيْبَةِ، وَأَنَا مِنْ بَعْدِهَا مُوقِنٌ بِالْقُصُوْرِ، بَيْنَ أَهْلِ الْعُصُوْرِ، مُعْتَرِفٌ بِالْعَجْزِ عَنِ الْمَضَاءِ، فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ، رَاغِبٌ مِنْ أَهْلِ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ، وَالْمَعَارِفِ الْمُتَّسِعَةِ الْفَضَاءِ **النَّظَرَ[١٠] بِعَيْنِ الانْتِقَادِ**

---

١ – في ن: ذَلَّل. وتحرفت في نسخ إلى: وذلك.

٢ –أي الحادثات من الدول، أي التي وجدت بعد عدم. أو ما يصيبها من كوارث ونكبات.

٣ –أي بين أسباب قيام الدول وما يؤدي إلى سقوطها.

٤ – في ن: وأصبح.

٥ – الصوان: مثلثة الصاد: ما يصان فيه، أي: يحفظ.

٦ – أهل المدر: أي: أهل المدن. لأنهم يبنون بيوتهم من المدر وهي قطعُ الطين اليابس، وأهل الوبر: أي أهل البادية لكثرة استخدامهم للوبر أي: صوف الإبل ونحوه.

٧ – في ن: مُبْتَدَإ.

٨ – الحلة: المحلة، أي: المنزل، وكأنه أراد الموضع الذي يتجمع فيه الناس فيما هو أقل من المدينة كالقرية. إذا تعلق الأمر بالبدو المستقرين فحلتهم قريتهم، وإذا كانوا ظاعنين فحلتهم أماكن خيامهم.

٩ – الفذّ: الفرد.

١٠ – في ن: في النظر.

لاَ بعَيْنِ الارْتِضَاء، وَالتَّغمُّد[1] لِمَا يَعْثُرُوْنَ عَلَيْهِ بالإِصْلاَحِ وَالإِغْضَاء، فَالْبضَاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ مُزْجَاةٌ[2]، وَالاعْتِرَافُ مِنَ اللَّوْمِ مَنْجَاةٌ، وَالْحُسْنَى مِنَ الإِخْوَانِ مُرْتَجَاةٌ.

وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً لِوَجْهِهِ الْكَرِيْمِ وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ[3].

وَبَعْدَ أَن اسْتَوْفَيْتُ عِلاَجَهُ، وَأَنَرْتُ مِشْكَاتَهُ[4] لِلْمُسْتَبْصِرِيْنَ، وَأَذْكَيْتُ[5] سِرَاجَهُ، وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ الْعُلُوْمِ طَرِيْقَهُ وَمِنْهَاجَهُ، وَأَوْسَعْتُ فِي فَضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ، وَأَدَرْتُ سِيَاجَهُ، [التمستُ لهُ الكفءَ الذي يلمحُ بعينِ الاستبصارِ[6] فنونَه، ويلحظُ بمداركِهِ الشريفةِ معياره الصحيحَ وقانونَه، ويميِّزُ رتبتَهُ في المعارفِ عمّا دونه. فسرحتُ فكري في فضاءِ الوجودِ، وأجلتُ نظري ليلَ التمامِ والهُجُودِ[7]، بينَ التهائِمِ[8] والنجودِ[9]، في العلماءِ الركَّعِ والسجودِ، والخلفاء أهلِ الكرم والجود، حتى وقفَ الاختيارُ بساحةِ الكمال، وطافتِ الأفكار بموقفِ الآمال، وظَفَرتْ أيدي المساعي والاعتمال، بمنتدى المعارفِ مشرفة فيه غررَ الجمال، وحدائق العلوم الوارفةِ الظلال، عن اليمينِ والشمال، فأنَخْتُ مَطيَّ الأفكار في عَرْصَتِها[10]، وجَلَوتُ[11] مَحاسِنَ الأنظار على مَنَصَّتِها، و] أَتحَفْتُ [ديوانها مقاصيرَ إيوانها، وأطلعته كوكباً وقاداً في أُفُقِ خزانتها وصوانها، ليكونَ آيةً للعقلاء يهتدونَ بمنارِهِ، ويعرفونَ فضلَ المداركِ الإنسانيةِ في آثارِهِ، وهيَ] خِزَانَةُ مَوْلاَنَا الْسُّلْطَانِ الإِمَامِ الْمُجَاهِدِ، الْفَاتِحِ الْمَاهِدِ، الْمُتَحَلِّي مُنْذُ خَلْعِ التَّمَائِمِ وَلَوْثِ الْعَمَائِمِ، بِحِلَى

---

١ – أي الستر بعد الرعاية..

٢ – البضاعة المزجاة: القليلة، أو التي لم يتم صلاحها.

٣ – إلى هنا انتهت مقدمة المؤلف في ظ. ولعل ذلك من فعل الناسخ الذي لم يجد في هذا الإهداء كبير فائدة. ثم بدأ بـ المقدمة في فضل علم التاريخ.

٤ – أي السراج (المصباح).

٥ – أذكيت: أوقدت.

٦ – الاستبصار: التأمل والنظر والاعتبار، قال الغزالي في الإحياء: العلوم التي تحصل بالاستدلال تسمى اعتباراً واستبصاراً.

٧ – الهجود: النوم.

٨ – جمع تهمة: الأرض المتصوبة إلى البحر.

٩ – جمع نجد، وهو ما أشرف من الأرض.

١٠ – العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

١١ – جلوت: عرضت.

الْقَانِتِ الزَّاهِدِ، الْمُتَوَشِّحِ بزكاء[1] الْمَنَاقِبِ وَالْمَحَامِدِ، وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ، بِأَجْمَلَ مِنَ الْقَلاَئِدِ، فِي نُحُوْرِ الْوَلاَئِدِ، الْمُتَنَاوَلِ بِالْعَزْمِ الْقَوِيِّ السَّاعِدِ، وَالْجِدِّ الْمُوَاتِي الْمُسَاعِدِ، وَالْمَجْدِ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ، ذَوَائِبَ مُلْكِهِمْ الرَّاسِي الْقَوَاعِدِ، الْكَرِيْمِ الْمَعَالِي وَالْمَصَاعِدِ، جَامِعِ أَشْتَاتِ الْعُلُوْمِ وَالْفَوَائِدِ، وَنَاظِمِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ وَالشَّوَارِدِ، وَمُظْهِرِ الآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، فِي فَضْلِ الْمَدَارِكِ الإِنْسَانِيَّةِ، بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ النَّاقِدِ، وَرَأْيِهِ الصَّحِيْحِ الْمَعَاقِدِ، النَّيِّرِ الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ، نُورِ اللهِ الْوَاضِحِ الْمَرَاشِدِ، وَنِعْمَتِهِ الْعَذْبَةِ الْمَوَارِدِ، وَلُطْفِهِ الْكَامِنِ بِالْمَرَاصِدِ لِلشَّدَائِدِ، وَرَحْمَتِهِ الْكَرِيْمَةِ الْمَقَالِدِ، الَّتِي وَسِعَتْ صَلاَحَ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ، وَاسْتِقَامَةَ الْمَائِدِ[2] مِنَ الأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ، وَذَهَبَتْ بِالْخُطُوْبِ الأَوَابِدِ، وَخَلَعَتْ عَلَى الزَّمَانِ رَوْنَقَ الشَّبَابِ الْعَائِدِ، وَحُجَّتِهِ الَّتِي لا يُبْطِلُهَا إِنْكَارُ الْجَاحِدِ وَلاَ شُبُهَاتُ الْمُعَانِدِ، أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ[3] **أَبِي فَارِسٍ عَبْدِ الْعَزِيْزِ** ابْنِ مَوْلاَنَا السُّلْطَانِ الْمُعَظَّمِ الشَّهِيْرِ الشهيد أَبِي سَالِمٍ إِبْرَاهِيْمَ ابْنِ مَوْلاَنَا السُّلْطَانِ الكبير المجاهد الْمُقَدَّسِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ، أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ السَّادَةِ الأَعْلاَمِ مِنْ مُلُوْكِ بَنِي[4] مَرِيْنَ، الَّذِيْنَ جَدَّدُوا الدِّيْنَ، وَنَهَجُوا السَّبِيْلَ لِلْمُهْتَدِيْنَ، وَمَحَوا آثَارَ الْبُغَاةِ الْمُفْسِدِيْنَ، أَفَاءَ اللهُ عَلَى الأُمَّةِ ظِلاَلَهُ، وَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الإِسْلاَمِ آمَالَهُ، وَبَعَثْتُهُ إِلَى خَزَائِنِهِمْ[5] الْمُوْقَفَةِ لِطَلَبَةِ الْعِلْمِ بِجَامِعِ الْقَرَوِيِّيْنَ مِنْ مَدِيْنَةِ فَاسٍ حَاضِرَةِ مُلْكِهِمْ وَكُرْسِيِّ سُلْطَانِهِمْ، حَيْثُ مَقَرُّ الْهُدَى، وَرِيَاضُ الْمَعَارِفِ خَضِلَةُ النَّدَى، وَفَضَاءُ الأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّةِ فَسِيْحُ الْمَدَى، وَالإِمَامَةُ الفَارِسِيَّةُ[6] الْكَرِيْمَةُ الْعَزِيْزَةُ إِنْ شَاءَ اللهُ بِنَظَرِهَا الشَّرِيْفِ،

---

١ - في ن: من زكاء.

٢ - المائد: الذي أصابه دوار البحر.

٣ - في ن: الخليفة أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، **أبو العباس أحمد** ، ابن مولانا الأمير الطاهر المقدس أبي عبد الله محمد، ابن مولانا الخليفة المقدس أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين. من أئمة الموحدين الذين جددوا الدين، ونهجوا السبل للمهتدين، ومحوا آثار البغاة المفسدين من المجسمة والمعتدين. سلالة أبي حفص الفاروق، والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق، والنور المتلالي من تلك الأشعة والبروق. فأوردته من مودعها إلى العلى بحيث مقر الهدى، ورياض المعارف، خضلة الندى ..إلى آخر ما ذكر هنا إلا أنه لم يقيد الإمامة بالفارسية، وهي نسخة مختصرة لعلها أول تأليفها قبل تعديلها وقبل رحلته إلى المشرق، إذ لم تذكر: ثم لما كانت الرحلة إلى المشرق...

٤ - في ن: من بني مرين.

٥ - في نسخة خزانتهم.

٦ - نسبة إلى الخليفة أبي فارس عبد العزيز..

وَفَضْلِهَا الْغَنِيِّ عَنِ التَّعْرِيْفِ، تَبْسُطُ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مِهاداً[١]، وَتَفْسَحُ لَهُ في جَانِبِ الْقَبُوْلِ آمَاداً[٢]، فَتُوْضِحُ بِهَا أَدِلَّةً عَلَى رُسُوْخِهِ وَأَشْهَاداً، فَفِي سُوْقِهَا تَنْفُقُ بَضَائِعُ الْكُتَّابِ، وَعَلَى حَضْرَتِهَا تُعْكَفُ رَكَائِبُ الْعُلُوْمِ وَالآدَابِ، وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الْمُنِيْرَةِ نَتَائِجُ الْقَرَائِحِ وَالأَلْبَابِ، وا للهُ يُوْزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا، وَيُوَفِّرُ لَنَا حُظُوْظَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا، وَيُعِيْننا على حُقُوْق خِدْمَتِهَا، ويجْعلنا مِنَ الْسَّابقِيْنَ في مِيْدانِهَا، الْمُجَلِّينَ في حَوْمَتِهَا، ويُضْفِي عَلى أَهْلِ إِيَالَتِهَا[٣]، وَمَا أَوَى مِنَ الإِسْلاَمِ إِلَى حَرَمِ عِمَالَتِهَا، لَبُوْسَ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَسْؤُوْلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً في وِجْهَتِهَا، بَرِيْئَةً مِنْ شَوَائِبِ[٤] الْغَفْلَةِ وَشُبْهَتِهَا، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ.

---

١ - أي سريراً.

٢ - الأمد: الزمن المحدود.

٣ - الإيالة: الوادي والولاية وأراد الدولة.

٤ - الشائبة: النقيصة والعيب.

(أ) المقدمة

- ❑ فضل علم التاريخ وفوائده.
- ❑ الحاجة إلى السنن والقوانين الناظمة للإجتماع.
- ❑ الأخطاء الناجمة عن إغفال المنهج، والجهل بالقوانين.
- ❑ نماذج من أغاليط المؤرخين.
- ❑ نماذج من أغاليط المفسرين.
- ❑ الأسباب الداعية للوقوع في الأخطاء.
- ❑ الحكم على الحوادث والقصص بالسقوط إذا خالفت:

  المعروف من طبيعة تزايد السكان في المجتمعات.

  أو النظم الحربية أو الإجتماعية.

  أو الجغرافية.

  أو التقاليد والأعراف.
- ❑ ضرورة الانتباه إلى التغيرات الإجتماعية وانقلاب المفاهيم في دراسة الحادثة التاريخية.
- ❑ التنبيه على أغراض المؤرخين القدماء.
- ❑ التعريف بمنهجية المسعودي والبكري في كتابيهما.
- ❑ تبدل الأحوال في القرن الثامن.
- ❑ الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ.
- ❑ اقتصاره على تاريخ المغرب [ينبه على تغير مقصده بعد رحلته إلى المشرق حيث عمَّ تاريخه المشرق والمغرب].
- ❑ المصطلحات التي ابتدعها للفظ الأعلام الأجنبية.

أ - الْمُقَدِّمَةُ

فِي فَضْلِ عِلْمِ الْتَّارِيْخِ وَتَحْقِيْقِ مَذَاهِبِهِ وَالإِلْمَاعِ بِمَا[١] يَعْرِضُ لِلْمُؤَرِّخِيْنَ مِنَ الْمَغَالِطِ وَذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا

اِعْلَمْ أَنَّ فَنَّ الْتَّارِيْخِ فَنٌّ عَزِيْزُ الْمَذْهَبِ، جَمُّ الْفَوائِدِ، شَرِيْفُ الْغَايَةِ، إِذْ هُوَ يُوْقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ الْمَاضِيْنَ مِنَ الأُمَمِ في أَخْلاَفِهِمْ[٢]، وَالأَنْبِيَاءِ في سِيَرِهِمْ، وَالْمُلُوْكِ في دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ. حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ الاقْتِدَاءِ في ذَلِكَ لِمَنْ يَرُوْمُهُ[٣] في أَحْوَالِ الْدِّيْنِ وَالْدُّنْيَا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ[٤] مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ، يُفْضِيَانِ[٥] بِصَاحِبِهِمَا إِلَى الْحَقِّ، وَيُنَكِّبَانِ[٦] بِهِ عَنِ الْمَزَلاَّتِ وَالْمَغَالِطِ، لأَنَّ الأَخْبَارَ إِذَا اعْتُمِدَ فِيْهَا عَلَى مُجَرَّدِ الْنَّقْلِ، ولَمْ تُحَكَّمْ أُصُوْلُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ الْسِّيَاسَةِ وَطَبِيْعَةُ الْعُمْرَانِ وَالأَحْوَالُ في الاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِي، وَلاَ قِيْسَ الْغَائِبُ مِنْهَا بِالْشَّاهِدِ وَالْحَاضِرُ بِالْذَّاهِبِ، فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيْهَا مِنَ الْعُثُوْرِ وَمَزَلَّةِ الْقَدَمِ وَالْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ الْصِّدْقِ.

وَكَثِيْراً مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِيْنَ [ظ٣/٢] وَالْمُفَسِّرِيْنَ وَأَئِمَّةِ الْنَّقْلِ مِنَ **الْمَغَالِطِ** في الْحِكَايَاتِ وَالْوَقَائِعِ لاعْتِمَادِهِمْ فِيْهَا عَلَى مُجَرَّدِ الْنَّقْلِ غَثّاً أَوْ سَمِيناً، وَلَمْ يَعْرِضُوْهَا عَلَى أُصُوْلِهَا، وَلاَ قَاسُوْهَا بِأَشْبَاهِهَا، وَلاَ سَبَرُوْهَا بِمِعْيَارِ الْحِكْمَةِ وَالْوُقُوْفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيْمِ الْنَّظَرِ وَالْبَصِيْرَةِ في الأَخْبَارِ، فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ، وَتَاهُوا في بَيْدَاءِ[٧] الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ، وَلاَ سِيَمَا في إِحْصَاءِ الأَعْدَادِ مِنَ الأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ في الْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ الْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ الْهَذَرِ[٨]، وَلاَ بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى الأُصُوْلِ، وَعَرْضِهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ، وَهَذَا كَمَا نَقَلَ **الْمَسْعُوْدِيُّ** وَكَثِيْرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِيْنَ في **جُيُوْشِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ** بِأَنَّ[٩] مُوْسَى عَلَيْهِ الْسَّلاَمُ أَحْصَاهُمْ في الْتِّيْهِ بَعدَ أَنْ أَجَازَ مَنْ يُطِيقُ حَمْلَ الْسِّلاَحِ خَاصَّةً مِنَ ابْنِ عِشْرِيْنَ فَمَا فَوْقَهَا

---

١ - في ن: لما.
٢ - جمع خِلْفَة: وهم القوم المختلفون.
٣ - أي يبغي متشوقاً..
٤ - أي مصادر وموارد.
٥ - أي يؤديان.
٦ - أي يبعدانه.
٧ - أي ضاعوا في صحراء الوهم..
٨ - الهذرُ: سقط الكلام.
٩ - في ن: وأن.

فَكَانُوا ستَّ مئة أَلْف أَوْ يَزِيْدُوْنَ، وَيَذْهَلُ في ذَلكَ عَنْ[١] تَقْدِيْر [ث٤٦/١] مصْرَ وَالْشَّام وَاتِّسَاعهمَا لمثْلِ هَذَا الْعَدَد منَ الْجُيُوْش، لكُلِّ مَمْلَكَة منَ الْمَمَالك حصَّةٌ منَ الْحَاميَة تَتَّسعُ لَهَا وَتَقُوْمُ بوَظَائفهَا، وَتَضيْقُ عَمَّا فَوْقَهَا، تَشْهَدُ بذَلكَ الْعَوَائدُ الْمَعْرُوْفَةُ وَالأَحْوَالُ الْمَأْلُوْفَةُ.

ثُمَّ إنَّ مثْلَ هَذه الْجُيُوْش الْبَالغَة إلَى مثْل هَذَا الْعَدَد يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحْفٌ أَوْ قتَالٌ لضيْق سَاحَة الأَرْض عَنْهَا وَبُعْدهَا إذَا اصْطَفَّتْ عَنْ مَدَى الْبَصَر مَرَّتَيْن أَوْ ثَلاثاً أَوْ أَزْيَد، فَكَيْفَ يَقْتَتلُ هَذَان الْفَرِيْقَان أَوْ تَكُوْنُ غَلَبَةُ أَحَد الْصَّفَّيْن وَشَيْءٌ منْ جَوَانبه لاَ يَشْعُرُ بالْجَانب الآخر، وَالْحَاضرُ يَشْهَدُ لذَلكَ، **فَالْمَاضي أَشْبَهُ بالآتي منَ الْمَاء بالْمَاء.**

وَلَقَدْ كَانَ مُلْكُ الْفُرْس وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ منْ مُلْك بَني إسْرَائيْلَ بكَثيْر، يَشْهَدُ لذَلكَ مَا كَانَ منْ غَلَب بُخْتَنَصَّرَ لَهُمْ وَالْتهَامه بلاَدَهُمْ وَاسْتيْلاَئه عَلَى أَمْرهمْ وَتَخْرِيْب بَيْت الْمَقْدس قَاعدَة ملَّتهمْ وَسُلْطَانهمْ، وَهوَ منْ بَعْض عُمَّال مَمْلَكَة فَارسَ يُقَالُ: إنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانُ الْمَغْرب منْ تُخُوْمهَا[٢] وَكَانَتْ مَمَالكُهُمْ بالْعرَاقَيْن وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ الْنَّهْر، وَالأَبْوَابُ أَوْسَعَ منْ مَمَالك بَني إسْرَائيْل بكَثيْر وَمَعَ ذَلكَ لَمْ تَبْلُغْ جُيُوْشُ الْفُرْس قَطُّ مثْلَ هَذَا الْعَدَد وَلاَ قَرِيباً منْهُ، وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُمُوْعُهُمْ بالْقَادسيَّة مئَة وَعشْرِيْنَ أَلْفاً، كُلُّهُمْ مَتْبُوْعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ **سَيْفٌ** قَالَ: وَكَانُوَا في أَتْبَاعهمْ أَكْثَرَ منْ مئتَي أَلْف. وَعَنْ عَائشَةَ وَالزُّهْرِيِّ: أَنَّ جُمُوْعَ رُسْتُم الَّذيْنَ زَحَفَ بهمْ لسَعْد بالْقَادسيَّة إنَّمَا كَانُوا ستِّيْنَ أَلْفاً كُلُّهُمْ مَتْبُوْعٌ.

وَأَيضاً: فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إسْرَائيْلَ مثْلَ هَذَا الْعَدَد لاتَّسَعَ نطَاقُ مُلْكهمْ، وَانْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتهمْ، فَإنَّ الْعَمَالاَت[٣] وَالْمَمَالكَ في الْدُّوَل عَلَى نسْبَة الْحَاميَة وَالْقَبيْل الْقَائميْنَ بهَا، في قلَّتهَا وَكَثْرَتهَا حَسْبَمَا نُبَيِّنُ في فَصْل الْمَمَالك منَ الْكتَاب الأَوَّل، وَالْقَوْمُ لَمْ تَتَّسعْ مَمَالكُهُمْ إلَى غَيْر الأُرْدُنِّ وَفلَسْطيْنَ منَ الْشَّام وَبلاَد يَثْربَ وَخَيْبَرَ منَ الْحجَاز عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوْفُ.

وَأَيضاً: فَالَّذي بَيْنَ مُوْسَى وَإسْرَائيْلَ إنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاء عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُوْنَ، فَإنَّهُ موسى بْنُ عمْرَانَ بْن يَصْهُر بْنَ قَاهتَ ـــ بفَتْح الْهَاء وَكَسْرهَا ـــ ابْن لاَوي ـــ بكَسْر الْوَاو وَفَتْحهَا ـــ ابْن يَعْقُوْبَ وَهُوَ إسْرَائيْلُ الله[٤]. هَكَذَا نَسَبُهُ في الْتَّوْرَاة.

---

١ – في ث: يذهل من ذلك في.

٢ – أي الحدود.

٣ – أي المدن..

٤ – يؤخذ على المؤلف ثقته بما يذكرونه من أنساب، ولو أنه الأولى التشكيك بصحتها لأسباب عدة منها كثرة الخلاف في تعداد تلك الأسماء. إضافة إلى أنه يجب عليه بداية التوقف عند النصوص الثابتة القطعية في صحة ما يوردونه. وهم حين يقولون: إن يعقوب هو إسرائيل لا يلتزمون هذا في كل كتابهم بل على العكس تجد من نصوصهم ما ينفي صحة ذلك.. علماً أن القرآن الكريم يجعل فاصلاً واضحا بين إسرائيل ويعقوب. ومن يتدبر سورة مريم يجد فارقاً كبيراً بين الاثنين. وكل هذا السعي الحثيث منهم لربط إسرائيل بيعقوب محاولة تأكيد

وَالْمُدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُوْدِيُّ قَالَ: دَخَلَ إِسْرَائِيْلُ مِصْرَ[١] مَعَ وَلَدِه الأَسْبَاط وَأَوْلَادهِمْ حِيْنَ أَتَوا إِلَى يُوْسُفَ سَبْعِيْنَ نَفْساً، وَكَانَ مَقَامُهُمْ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوْسَى عَلَيْه السَّلَامُ [ظ٤/١]

ارتباطهم بسلالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وإلا فإن النبوة بنص كتاب الله ﷻ حصرت في ذرية نوح وإبراهيم: ﴿وَجَعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾.. وهم ليسوا من ذريتهما لأنهم ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ ولو كانوا ذرية نوح لقيل: ذرية نوح. من غير هذا الفاصل.. وإلا اعتبرنا هذه الكلمات من الحشو الذي لا فائدة منه في كتاب الله ﷻ.

١ - إن الثقة بمقولات ما سمي بالتوراة يوقع في إشكالات كثيرة في ذهن الباحث المدقق، وقد كنت أرسلت رسالة إلى العلماء لا بأس بأن أوردها. **بسم الله الرحمن الرحيم**

السادة العلماء الأفاضل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: آمل من الله ﷻ أن يلهمنا الصواب، وأن يعيننا على كشف بعض القضايا المشكلة، التي تواجه الكثير من أبناء الأمة في شأن كتابها الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وخاصة فيما يتعلق في صناعة التاريخ الذي كتب وفق توجيهات أعداء المسلمين كفعل متعمد من الأعداء، وكمتابعة من غير تدقيق لمروياتهم التي تتنافى مع الكتاب الخاتم. وأحسب أن بداية المشكلة نشأت من المفهوم الذي اعتمد لحديث رسول الله ﷺ الصحيح: «**حَدِّثوا عَنْ بَني إِسْرَائِيْلَ وَلاَ حَرَجَ**».

ـــ فهل هو في معرض المدح أم الذم؟ وإن كان في المدح فلماذا نفي الإثم؟

وهنا تعترض القارئ لسيرة أنبياء الله ﷻ ومنهم نبي الله موسى ﷺ أسئلة توحي بتغيير الكثير من أماكن الحدث، ومواصفات الرجالات، كـــ:

ـــ أين هي مصر التي تحدث عنها؟ وهل هي المعروفة الآن؟ وإن لم تكن هي، فأين موقعها؟ وهل كانوا في مصر وهبطوا مصراً آخر كدلالة على وصف المكان الممصر؟ وهل توجد علاقة بين أسماء بعض المدن والقرى كبصرة، بُصر، بصير، ومصر؟ ولماذا قال فرعون: أليس لي مُلك مصر؟ ومن كان يشكك في سلطته عليها؟ وهل يشير ذلك إلى بعدها عن مركز ملكه؟ ـــ أين توجد الأنهار التي قال عنها فرعون: وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ وما علاقتها بأنهار العراق؟ وهل توجد أنهار متعددة في مصر؟ وما هي البلاد التي تكثر فيها الأنهار؟ ـــ أين توجد الجنات والعيون والزروع؟ ـــ لماذا لا نعرف المن والسلوى إلاّ في العراق؟ ـــ لم لا يعبد العجل إلاّ في الهند؟ وما علاقتهم بعبادة قوم موسى للعجل؟ ولم توجد في الهند ومحيطها مَنْزلة اجتماعية ودينية، هي الساموراي؟ وما صلتها بالسامري؟ ولم يحرقون موتاهم ويذرون رمادهم في نهر الغانج؟ وهل لذلك رابطة بتحريق موسى للعجل ونسفه في اليم؟ وهل يطلق اليم على النهر؟ وإن كان فهل يمكن أن يكون فعل موسى كان في الهند قرب نهر الغانج أو أن المخالفين فروا بذاك الوجه؟. ـــ هل قوله: (وأرسل في المدائن حاشرين) يراد به مطلق جمع مدينة أم هو علَم على ما يعرف بالمدائن على نهر دجلة وهي سبع مدن؟ وما سر ارتباطها بـــ (مدين)؟. ـــ أين تقع مدين؟ وهل لها حدود زمانية أو مكانية مع قوم لوط؟ وهل قوم لوط كانوا في منطقة البحر الميت؟ فكيف نوفق بين هذا وما ذكره الله تعالى عن قوم لوط وأن أهل مكة يمرون عليهم مصبحين وبالليل؟. ـــ هل للمدينة التي خرج منها خائفاً يترقب صلة بالمدينة المعروفة بهذا الاسم (المدينة) قرب البصرة على نهر الفرات؟. ـــ ما سر إطلاق كلمة شيعة في العراق؟ وهل كانت معروفة قديماً ككلمة متداولة بين أفراد المجتمع القديم في تلك البقعة؟ وهل لذلك علاقة بقوله تعالى: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ وقوله: ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾؟. ـــ وهل موسى عليه السلام من بني إسرائيل؟ ومن هم؟ وهل صحيح أن يعقوب هو إسرائيل؟ وما مستند ذلك؟ وما علاقتهم بذرية نوح؟ ولماذا قال تعالى: ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ ولم يقل: ذرية نوح؟ وما فائدة هذه الزيادة؟. ـــ أين هو الواد المقدس الذي كلم فيه موسى ﷺ؟ وما هو الرابط بينه وبين قول إبراهيم ﷺ: ﴿أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾؟. ـــ هل الطور غير طور سينيين؟ وهل يمكن المقارنة مع ما يعرف بجبال طوروس (علماً أن وس = التنوين)؟ وهل يمكن أن تكون غير سيناء المعروفة؟ وما مدى القبول لقول القائل: إن طور سينين موجودة في الكوفة؟. ـــ لماذا طلب فرعون من هامان أن يوقد على الطين ليبني صرحاً، ولم يشر إلى البناء بالحجارة؟ هل يشير ذلك إلى طبيعة البيئة الخالية من الحجارة؟ أم أن استخدام الفخار والآجر كان هو الغالب على صناعتهم البنائية؟ وفي أي حقبة زمنية كان استخدام الآجر؟. الأخوة العلماء حفظهم الله تعالى: بعد الذي ذكرته وهو غيض من فيض. أتمنى من الله تعالى أن يوفقكم لإفادتي بأجوبة شافية تكون عوناً لي وللمستفيدين في الوصول إلى

إِلَى التِّيه مئتَيْن وعشرِيْنَ سَنَةً تَتداوَلُهم مُلُوْكُ الْقِبط منَ الْفَرَاعِنَة. وَيَبْعُدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ النَّسْلُ في أَرْبَعَة أَجْيَالٍ إِلَى مثلِ هَذَا الْعَدَد.

وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تلْكَ الْجُيُوش إِنَّما كانَ في زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمَنْ بَعْدَهُ فَبَعيْدٌ أيضاً، إِذْ لَيْسَ بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيل إلاَّ أَحَدَ عَشَرَ أَباً؛ فَإِنَّهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ بن إِيشَا بْن عُوْفِيْذ ـــ ويُقَال: ابْن عُوْفذ ـــ ابْن بَاعز ـــ وَيُقَالُ: بُوعَز ـــ بْنِ سَلمُوْن بن نَحْشُوْن بْن عَمِّيْنُوذَب ـــ وَيُقَالُ: حَمِّيْنَاذَاب ـــ بْن رَمّ بْنِ حَصْرُوْن [ث٢/٤٦] ـــ ويُقَالُ: حَسْرُوْن[1] ـــ بن بَارِس، ويُقَالُ: بَيْرَس بْن يَهُوْذَا بْن يَعْقُوْب.

وَلاَ يَتَشَعَّبُ النَّسْلُ في أَحَدَ عَشَرَ منَ الْوُلْد إِلَى مثل هَذَا الْعَدَد الَّذِي زَعَمُوهُ؛ اللَّهُمَّ إِلَى الْمئَيْن وَالآلاَف فَرُبَّمَا يَكُوْنُ، وأَمَّا أن يتجاوز إِلَى مَا بَعْدَهُمَا منْ عُقُوْد الأَعْدَاد فَبَعيدٌ، وَاعْتَبِرْ ذَلكَ في الْحَاضرِ الْمُشَاهَدَ وَالْقَرِيْب الْمَعْرُوْف، تَجدْ زَعْمَهُمْ بَاطلاً وَنَقْلَهُمْ كَاذباً.

وَالَّذي ثَبَتَ فِي الإِسْرَائيليَّات أَنَّ **جُنُوْدَ سُلَيْمَانَ** كَانَت اثْنَي عَشَرَ أَلْفاً خَاصَّةً، وَأَنَّ مُقَرَّبَاته[2] كَانَتْ أَلْفاً وَأَرْبَعَ مئَة فَرَس مُرْتَبطَةً عَلَى أَبْوَابه. هَذَا هُوَ الصَّحيح منْ أَخْبَارهمْ، وَلاَ يُلْتَفَتُ إِلَى خُرَافَات الْعَامَّة منْهُمْ. وَفي أَيَّام سُلَيْمَانَ ـــ عَلَيْه السَّلاَمَ ـــ وَمُلْكه كَانَ عُنْفُوَانُ دَوْلَتهمْ وَاتِّسَاعُ مُلْكهمْ.

هَذَا وَقَدْ نَجدُ الْكَافَّةَ منْ أَهْلِ الْعَصْر إذا أَفَاضُوا في الْحَديْث عَنْ **عَسَاكر الدُّوَل** الَّتي لعَهْدهمْ أَوْ قَرِيباً منْهُ، وتَفَاوَضُوا في الأَخْبَار عَنْ جُيُوْش الْمُسْلميْنَ أَو النَّصَارَى، أَوْ أَخَذُوا في إِحْصَاء أَمْوَال الْجبَايَات وَخَرَاج السُّلْطَان وَنَفَقَات الْمُتْرَفيْنَ وَبَضَائع الأَغْنيَاء الْمُوْسرِيْنَ؛ تَوَغَّلُوا في الْعَدَد، وَتَجَاوَزُوا حُدُوْدَ الْعَوَائد، وَطَاوَعُوا وَسَاوسَ الإِغْرَاب، فَإذا اسْتُكْشفَ أَصْحَابُ الدَّوَاوِين عَنْ عَسَاكرهمْ، وَاسْتُنْبطَتْ أَحْوَالُ أَهْل الثَّرْوَة في بَضَائعهمْ وَفَوَائدهمْ، وَاسْتُجْلَبَتْ عَوَائدُ الْمُتْرَفيْنَ في نَفَقَاتهمْ، لَمْ تَجدْ معْشَارَ مَا يَعُدُّوْنَهُ، وَمَا ذَلكَ إلاَّ لوَلُوع النَّفْس بالْغَرَائب، وَسُهُوْلَة التَّجَاوز عَلَى اللِّسَان، وَالْغَفْلَة عَلَى الْمُتَعَقّب وَالْمُنْتَقد، حَتَّى لاَ يُحَاسبُ نَفْسَهُ عَلَى خَطَإٍ وَلاَ عَمْد، وَلاَ يُطَالبُهَا في الْخَبَر بتَوَسُّط وَلاَ عَدَالَة، وَلاَ يُرْجعُهَا إلَى بَحْث وَتَفْتيْش، فَيُرْسلُ عنَانَهُ، وَيَسيْمُ[3] في مَرَاتع الْكَذب لسَانَهُ، وَيَتَّخذُ آيَات الله هزُؤاً[4]، وَ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَديْث ليَضلَّ عَنْ سَبيْل الله﴾[لقمان: ٦]، وَحَسْبُكَ بهَا صَفْقَةً خَاسرَةً.

وَمنَ الأَخْبَار الْوَاهيَة للْمُؤَرِّخيْنَ مَا يَنْقُلُوْنَهُ كَافَّةً في **أَخْبَار التَّبَابعَة** مُلُوْك الْيَمَن وَجَزِيْرَة الْعَرَب، أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُوْنَ منْ قُرَاهُمْ بالْيَمَن إلَى أَفْرِيْقيَّةَ وَالْبَرْبَر منْ بلاَد الْمَغْرب، وَأَنَّ أَفْرِيْقش بْنَ قَيْس بْن صَيْفيٍّ منْ أَعَاظم مُلُوكهمْ الأُوَل، وَكَانَ ـــ لعَهْد مُوْسَى عَلَيْه السَّلاَمُ أَوْ قَبْلَهُ بقَليْلٍ ـــ غَزَا أَفْرِيْقيَّةَ وَأَثْخَنَ في الْبَرْبَر،

الحقيقة الشافية الكافية التي لا تدع لمرتاب شكاً، وتكون دحضاً للمفتريات التي غطت ريوهما الصحيح الذي لا لبس فيه ولا خطل. وجزاكم الله خيراً، ووفقكم لما فيه رضاه من القول والعمل.

١ – في ث: رام بن خضرون، ويقال: خسرون.

٢ – أي القريبة منه كالخيل.

٣ – يسيم: يرعى.

٤ – أخذه من قوله تعالى: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾[البقرة: ٢٣١].

وَأَنَّهُ الَّذي سَمَّاهُمْ بِهَذَا الاسْمِ حِيْنَ سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ وَقَالَ: مَا هَذِهِ الْبَرْبَرَة، فَأُخِذَ هَذَا الاسْمُ عَنْهُ وَدُعُوا بِهِ مِنْ حِيْنَئِذ.

وَأَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِب حَجَزَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فَأَقَامُوا بِهَا وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صِنْهَاجَةُ وَكُتَامَةُ. وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الْطَّبَرِيُّ وَالْجُرْجَانِيُّ[1] وَالْمَسْعُوْدِيُّ وَابْنُ الْكَلْبِيِّ وَالبَيَّاسِيُّ[2]، إِلَى أَنَّ صِنْهَاجَةَ وَكُتَامَةَ مِنْ حِمْيَرَ، وَتَأْبَاهُ نَسَابَةُ الْبَرْبَرِ وَهُوَ الْصَّحِيْحُ.

وَذَكَرَ الْمَسْعُوْدِيُّ أَيضاً: أَنَّ ذَا الإِذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ قَبْلَ أَفْرِيْقَش ــ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الْسَّلاَمُ ــ غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ؛

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرَ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِيَ الْرَّمْلِ فِي بِلاَدِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ فِيْهِ مَسْلَكاً لِكَثْرَةِ الْرَّمْلِ فَرَجَعَ؛

وَكَذَلِكَ يَقُوْلُوْنَ فِي تُبَّعِ الآخِرِ، وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرب ــ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَاسِفَ مِنْ مُلُوْكِ الْفُرْسِ الْكَيَانِيَّة ــ أَنَّهُ مَلَكَ الْمَوْصِلَ وَأَذَرْبِيْجَانَ وَلَقِيَ الْتُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَثْخَنَ ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ؛

وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَغْزَى ثَلاَثَةً مِنْ بَنِيْهِ بِلاَدَ فَارِسَ وَإِلَى بِلاَدِ الْصُّغْدِ مِنْ بِلاَدِ أُمَمِ الْتُّرْكِ وَرَاءَ الْنَّهْرِ، وَإِلَى بِلاَدِ الْرُّوْمِ، فَمَلَكَ الأَوَّلُ الْبِلاَدَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ، وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الْصِّيْنِ، فَوَجَدَ أَخَاهُ الْثَّانِي الَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا، فَأَثْخَنَا فِي **بِلاَدِ الْصِّيْنِ**، وَرَجَعَا جَمِيْعاً بِالْغَنَائِمِ، وَتَرَكُوا بِبِلاَدِ الْصِّيْنِ قَبَائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فَهُمْ بِهَا إِلَى هَذَا الْعَهْدِ؛ وَبَلَغَ الْثَّالِثُ إِلَى قُسْطَنْطِيْنِيَّةَ فَدَرَسَهَا[3] وَدَوَّخَ بِلاَدَ الْرُّوْمِ وَرَجَعَ.

وَهَذِهِ الأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيْدَةٌ عَنِ الْصِّحَّةِ عَرِيْقَةٌ فِي الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيْثِ الْقَصَصِ الْمَوْضُوْعَة.

وَذَلِكَ أَنَّ **مُلْكَ الْتَّبَابِعَة** إِنَّمَا كَانَ بِجَزِيْرَةِ الْعَرَبِ، وَقَرَارُهُمْ وَكُرْسِيُّهُمْ بِصَنْعَاءِ الْيَمَنِ. وَجَزِيْرَةُ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلاَثِ جِهَاتِهَا فَبَحْرُ الْهِنْدِ مِنَ الْجَنُوْبِ، وَبَحْرُ فَارِسَ الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَبَحْرُ الْسُّوَيْسِ الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى الْسُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ، كَمَا تَرَاهُ فِي **مُصَوَّرِ الْجُغْرَافِيَا**، فَلاَ يَجِدُ الْسَّالِكُوْنَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيْقاً مِنْ غَيْرِ الْسُّوَيْسِ، وَالْمَسْلَكُ ــ هُنَاكَ مَا بَيْنَ بَحْرِ الْسُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الْشَّامِيِّ ــ قَدْرُ مَرْحَلَتَيْنِ فَمَا دُوْنَهُمَا، وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا الْمَسْلَكِ مَلِكٌ عَظِيْمٌ فِي عَسَاكِرَ مَوْفُوْرَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَصِيْرَ[4] مِنْ أَعْمَالِهِ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي الْعَادَة. وَقَدْ كَانَ بِتِلْكَ

---

١ - لعله حمزة بن يوسف السهمي الجرجاني صاحب تاريخ جرجان، توفي سنة ٤٢٧هـ.

٢ - في المطبوع: البِيليُّ. خطأ. وهو منسوب إلى بياسة من كور جيان. اسمه يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري، من علماء الأندلس، ووفاته بتونس (٦٥٣هـ)، من كتبه الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام، وتاريخ ذيل به تاريخ ابن حيان. انظر الأعلام للزركلي (٢٤٩/٨).

٣ - يقال: درست الأرض، إذا انمحى أثرها. وهنا بمعنى: خربها.

٤ - في ن: يصير.

الأَعْمَال الْعَمَالقَةُ وَكَنْعَانُ بالْشَّام وَالْقبطُ بمصرَ، ثُمَّ مَلَكَ الْعَمَالقَةُ مصرَ، وَمَلَكَ بَنُو إسْرَائيْلَ الْشَّامَ، وَلَمْ يُنْقَلْ قطُّ أَنَّ التَّبَابعَةَ حَارَبُوا أَحَداً منْ هَؤُلاَءِ الأُمَمِ وَلاَ مَلَكُوا شَيْئاً منْ تلْكَ الأَعْمَال[١].

وَأيضاً: فَالْشُّقَّةُ منَ الْبَحْر إلَى الْمَغرب بَعيْدَةٌ، وَالأَزْوِدَةُ وَالْعُلُوْفَة للْعَسَاكر كَبيْرَةٌ، فإذَا سَارُوا في غَير أَعْمَالهمْ احْتَاجوا إلَى انْتهَاب الزَّرْع وَالنَّعَم وَانْتهَاب الْبلاَد فيْمَا يَمرُّوْنَ عَلَيْه وَلاَ يَكْفي ذَلكَ للأَزْودَة وَللعلُوْفَة عَادَةً، وَإنْ نَقَلُوا كفَايَتَهُمْ منْ ذَلكَ منْ أَعْمَالهمْ فَلاَ تَفي لَهُمْ الرَّوَاحلُ بنَقْله، فَلاَ بُدَّ وَأَنْ يَمرُّوا في طَريْقهمْ من كُلِّهَا بأعْمَال قَدْ مَلَكُوْهَا وَدَوَّخُوْهَا لتَكُوْنَ الْميْرَةُ[٢] منْهَا، وَإنْ قُلْنَا: إنَّ تلْكَ الْعَسَاكرَ تَمرُّ بهَؤُلاَء الأُمَم منْ غَيْر أَنْ تَهيْجَهُمْ فَتَحْصُلُ لَهُمْ الميْرَةُ بالْمُسَالَمَة، فَذَلكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتنَاعاً، **فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذه الأَخْبَارَ وَاهيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ**.

وَأَمَّا **وَادَي الرَّمْل** الَّذي يُعجزُ الْسَّالكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذكْرُهُ في الْمَغْرب عَلَى كَثْرَة سَالكه وَمَنْ يَقصُّ طُرُقَهُ منَ الرُّكَّاب وَأهل الْقُرَى في كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جهَةٍ، وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوْهُ منَ الْغَرَابَة تَتوَفَّرُ الْدَّوَاعي عَلَى نَقْله.

وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بلاَدَ الْشَّرْق وَأَرْضَ التُّرْك وَإنْ كَانَ طَريْقُهُ أَوْسَعَ منْ مَسَالك الْسُّوَيْس إلاَّ أَنَّ الْشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ، وَأُمَمَ فَارسَ وَالْرُّوْم مُعْتَرضُوْنَ فيْهَا دُوْنَ التُّرْك، وَلَمْ يُنقل قَطُّ أَنَّ التَبابعَةَ مَلَكُوا بلاَدَ فَارس وَلاَ بلاَدَ الرُّوْم، وَإنَّمَا كَانُوا يُحَاربُوْنَ أَهْلَ فَارسَ عَلَى حُدُوْد بلاَد العراق وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْن وَالْحيْرَة[٣] وَالْجزيْرَة بَيْنَ دجْلَةَ وَالْفرَات وَمَا بَيْنَهُمَا في الأَعْمَال، وَقَدْ وَقَعَ ذَلكَ بَيْنَ **ذي الإذْعَار** منْهُمْ **وَكَيْكَاوُسَ** منْ مُلُوْك الْكَيَانيَّة، وَبَين تُبَّع الأَصْغَر أَبي كَربَ وَيَسْتَاسفَ منْهُمْ أَيضاً، وَمَعَ مُلُوْك الْطَّوَائف بَعْدَ الْكيَانيَّة وَالْسَّاسَانيَّة منْ بَعْدهم بمُجَاوَزَة أَرْض فَارسَ بالْغَزْو إلَى بلاَد التُّرْك وَالْتُّبْت، وَهُوَ مُمْتَنعٌ عَادَةً منْ أَجْل الأُمَم الْمُعْتَرضَة منْهُمْ، وَالْحَاجَة إلَى الأَزْودَة وَالْعُلُوْفَات مَعَ بُعْد الْشُّقَّة كَمَا مَرَّ.

فَالأَخْبَارُ بذَلكَ وَاهيَةٌ مَدْخُوْلَةٌ، وَهيَ لَوْ كَانَتْ صَحيْحَةَ النَّقْلِ لَكَانَ ذَلكَ قَادحاً فيْهَا، فَكَيْفَ وَهيَ **لَمْ تُنْقَلْ منْ وَجْه صَحيْح**.

وَقَوْلُ ابن إسْحَاقَ في **خَبَر يَثْربَ وَالأَوْس وَالْخَزْرَج**: إنَّ تُبّعاً الآخرَ سَارَ إلَى الْمَشْرق، مَحْمُوْلاً عَلَى الْعرَاق وَبلاَد فَارسَ.

وَأَمَّا بلاَدُ التُّرْكَ وَالْتُّبْت فَلاَيَصحُّ غَزْوُهُمْ إلَيْهَا بوَجْه لمَا تَقَرَّرَ.

فَلاَ تَثقَنَّ بمَا يُلْقَى إلَيْكَ منْ ذَلكَ، وَتَأَمَّل الأَخْبَارَ، وَاعْرضْهَا عَلَى الْقَوَانيْن الْصَّحيْحَة، يَقَعْ لَكَ تَمْحيْصُهَا بأَحْسَن وَجْه. وَاللهُ الْهَادي إلَى الْصَّوَاب.

---

١ - أي البلاد.
٢ - أي غذاء الجند والدواب.
٣ - مدينة على ثلاثة أميال من الكوفة في موضع يقال له النجف.

١-١- فَصْلٌ
[في مداخل وهم أهل التفسير]

وَأَبعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرَقُ في الْوَهْمِ **مَا يَتناقَلُهُ المُفسِّرُوْنَ** في تَفْسِيْرِ سُوْرَةِ الْفَجْرِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَلَمْ ترَ كَيْفَ فَعلَ ربُّكَ **بعادٍ إرمَ** ذَاتِ الْعِمادِ﴾[الفجر: ٦ ــ ٧] فَيجْعلُوْنَ لَفْظَةَ إرَمَ اسْماً لِمَدِيْنَةٍ وُصِفتْ بأنَّها ذَاتُ عِمَادٍ أي: أَسَاطِيْنَ، وَيَنْقُلُوْنَ أَنَّهُ كَانَ لِعادِ بْنِ عُوْصِ بْنِ إرَمَ ابْنَانِ هُمَا: شَدِيْدٌ وَشَدَّادٌ، مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ، وَهَلَكَ شَدِيْدٌ، فَخَلُصَ الْمُلْكُ لِشَدَّادٍ، وَدَانَتْ لَهُ مُلوْكُهُمْ، وَسَمِعَ وَصْفَ الْجَنَّةِ فَقالَ: لأَبْنِيَنَّ مِثْلَها، فَبَنى مَدِيْنَةَ إرَمَ في صَحَارَى عَدَنَ في مُدَّةِ ثَلاثِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ عُمْرُهُ تسعَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَأَنَّها مَدِيْنَةٌ عَظِيْمَةٌ قُصُوْرُهَا مِنَ الذَّهَبِ، وَأَساطِيْنُها مِنَ الزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوْتِ، وَفِيْهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ وَالأَنْهارِ الْمُطَّرِدَةِ، وَلَمَّا تَمَّ بناؤُها، سَارَ إِلَيْها بأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، حَتَّى إذَا كَانَ مِنْها عَلَى مَسِيْرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعثَ اللهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ السَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ. ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبَرِيُّ[1] وَالثَّعالِبيُّ وَالزَّمَخْشَرِيُّ[2] وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفسِّرِيْنَ.

وَيَنْقُلُوْنَ[3] عَنْ **عَبْدِ اللهِ بْنِ قِلابَةَ** مِنَ الصَّحابَةِ[4] أَنَّهُ خَرجَ في طَلَبِ إبلٍ لَهُ، فَوقَعَ عَلَيْها، وَحملَ مِنْها ما قَدرَ عَلَيْهِ، وَبَلَغَ خَبَرُهُ مُعاوِيَةَ، فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ، (فَبَحَثَ عَنْ)[5] كَعْبِ الأَحْبارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَقالَ: هِيَ إرَمُ ذَاتُ الْعِمادِ، وَسَيَدْخُلُها رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ أَحْمَرُ أَشْقَرُ قَصِيْرٌ، عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ، وَعَلَى عُنُقِهِ[6] خَالٌ، يَخْرُجُ في طَلَبِ إبلٍ لَهُ، ثُمَّ الْتَفتَ فَأَبْصرَ ابْنَ قِلابَةَ فَقالَ: هَذَا -وَاللهِ- ذَلِكَ الرَّجُلُ.

وَهَذِهِ الْمَدِيْنَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَها خَبَرٌ مِنْ يَوْمِئِذٍ في شَيْءٍ مِنْ بقاعِ الأَرْضِ، وَصَحَارَى عَدَنَ - الَّتِي زَعمُوا أَنَّها بُنِيَتْ فِيْهَا- هِيَ في وَسَطِ الْيَمَنِ، وَمَا زَالَ عُمْرَانُهُ مُتعاقِباً، وَالأَدِلاَّءُ تَقُصُّ طُرُقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِيْنَةِ خَبَرٌ، وَلاَ ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ

---

١ - لم يذكر الإمام الطبري هذه الحادثة في تفسيره ولا في تاريخه!!؟

٢ - الكشاف: (٤/٢٥٠).

٣ - أي الزمخشري والثعالبي، إذ لم يذكرها الطبري.

٤ - لم أجد ابن قلابة في الكتب المصنفة عن الصحابة، ولا في تراجم من بعدهم!!؟ ولعلهم أرادوا عبد الله بن زيد أبا قِلابة الجرمي، وقد كان في أيام معاوية وروايته عنه مرسلة، وكان من الصالحين، توفي سنة ١٠٦ أو ١٠٧هـ. انظر تهذيب الكمال (١٤/٥٤٢- ٥٤٨).

٥ - في الكشاف (٤/٢٥٠): فبعث إلى.

٦ -في الكشاف: عقبه.

الإِخْبَارِيِّيْنَ وَلاَ مِنَ الأُمَمِ، وَلَوْ قَالُوا: إِنَّهَا دُرِسَتْ فِيْمَا دُرِسَ مِنَ الآثَارِ لَكَانَ أَشْبَهَ، إِلاَّ أَنَّ ظَاهِرَ كَلاَمِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُوْدَةٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُوْلُ: إِنَّهَا **دِمَشْقُ**[1]، بِنَاءً عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوْهَا، وَقَدْ يَنْتَهِي الْهَذَيَانُ بِبَعْضِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ، وَإِنَّمَا يَعْثُرُ عَلَيْهَا أَهْلُ الرِّيَاضَةِ وَالسِّحْرِ، **مَزَاعِمُ كُلُّهَا أَشْبَهُ بِالْخُرَافَاتِ**.

وَالَّذِي حَمَلَ الْمُفَسِّرِيْنَ عَلَى ذَلِكَ مَا اقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ الإِعْرَابِ فِي لَفْظَةِ: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أَنَّهَا صِفَةُ إِرَمَ، وَحَمَلُوا الْعِمَادَ عَلَى الأَسَاطِيْنِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُوْنَ بِنَاءً، وَرَشَّحَ لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاءَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ: **عَادِ إِرَمَ** عَلَى الإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِيْنٍ، ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالأَقَاصِيْصِ الْمَوْضُوْعَةِ، وَالَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْكَذِبِ، الْمَنْقُولَةِ فِي عِدَادِ الْمُضْحِكَاتِ.

وَإِلاَّ **فَالْعِمَادُ** هِيَ: عِمَادُ الأَخْبِيَةِ، بَلِ الْخِيَامِ، وَإِنْ أُرِيْدَ بِهَا الأَسَاطِيْنُ فَلاَ بِدْعَ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِيْنَ عَلَى الْعُمُوْمِ بِمَا اشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ لا أَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا.

وَإِنْ أُضِيْفَت كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَعَلَى إِضَافَةِ الْفَصِيْلَةِ إِلَى الْقَبِيْلَةِ، كَمَا تَقُوْلُ: قُرَيْشُ كِنَانَةَ، وَإِلْيَاسُ مُضَرَ، وَرَبِيْعَةُ نِزَارٍ. وَأَيُّ ضَرُوْرَةٍ إِلَى هَذَا الْمَحْمَلِ الْبَعِيْدِ الَّذِي تُمُحِّلَتْ[2] لِتَوْجِيْهِهِ لأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِيَةِ، الَّتِي يُنَزَّهُ كِتَابُ اللهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصِّحَّةِ.

وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُوْلَةِ لِلْمُؤَرِّخِيْنَ مَا يَنْقُلُوْنَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ **نَكْبَةِ الرَّشِيْدِ لِلْبَرَامِكَةِ** مِنْ قِصَّةِ **الْعَبَّاسَةِ** أُخْتِهِ مَعَ **جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ** مَوْلاَهُ، وَأَنَّهُ لِكَلَفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهُمَا الْخَمْرَ، أَذِنَ لَهُمَا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ دُوْنَ الْخَلْوَةِ، حِرْصاً عَلَى اجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ، وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي الْتِمَاسِ الْخَلْوَةِ بِهِ؛ لِمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا - زَعَمُوا فِي حَالَةِ السُّكْرِ - فَحَمَلَتْ، وَوُشِيَ بِذَلِكَ لِلرَّشِيْدِ فَاسْتَغْضَبَ.

وَهَيْهَاتَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِيْنِهَا وَأَبَوَيْهَا وَجَلاَلِهَا، وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلاَّ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ الدِّيْنِ وَعُظَمَاءُ الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ.

---

١ - انظر هذا القول في تفسير الطبري، وذكر أيضاً من يقول: إنها الإسكندرية. وللمحامي أحمد غسان سبانو دراسة مطولة يحاول فيها إثبات أنها دمشق من خلال بعض الحفريات.

٢ - أي احتيل لتوجيهه.

وَ**الْعَبَّاسَةُ** بِنْتُ مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُوْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّجَّادِ بْنِ عَلِيٍّ أَبِي الْخُلَفَاءِ بْنِ عَبْدِ اللهِ تُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ ابْنِ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ابْنَةُ خَلِيْفَةٍ، وأُخْتُ خَلِيْفَةٍ[ظ٤/٢]، مَحْفُوْفَةٌ بِالْمُلْكِ الْعَزِيْزِ وَالْخِلافَةِ النَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ الرَّسُوْلِ وَعُمُوْمَتِهِ وإِمَامَةِ[١] الْمِلَّةِ وَنُوْرِ الْوَحْيِ وَمَهْبَطِ الْمَلائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا، قَرِيْبَةُ عَهْدٍ بِبَدَاوَةِ الْعُرُوْبِيَّةِ وَسَذَاجَةِ[٢] الدِّيْنِ الْبَعِيْدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَمَرَاتِعِ الْفَوَاحِشِ، فَأَيْنَ يُطْلَبُ الصَّوْنُ وَالْعَفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا؟! أَوْ أَيْنَ تُوْجَدُ الطَّهَارَةُ وَالزَّكَاءُ[٣] إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا؟! أَوْ كَيْفَ تَلْحُمُ نَسَبَهَا بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى **وَتُدَنِّسُ شَرَفَهَا الْعَرَبِيَّ بِمَوْلًى مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ** بِمِلْكَةِ جَدِّهِ مِنَ الْفُرْسِ؟! أَوْ بِوَلاءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُوْمَةِ الرَّسُوْلِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟! وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتَهُمْ بِضَبْعِهِ وَضَبْعِ أَبِيْهِ[٤]، وَاسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الأَشْرَافِ، وَكَيْفَ يَسُوْغُ مِنَ الرَّشِيْدِ أَنْ يُصْهِرَ إِلَى مَوَالِي الأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ؟! وَلَوْ نَظَرَ الْمُتَأَمِّلُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ الْمُنْصِفِ، وَقَاسَ الْعَبَّاسَةَ بِابْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لاسْتَنْكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا، وَاسْتَنْكَرَهُ وَلَجَّ[٥] فِي تَكْذِيْبِهِ، وَأَيْنَ قَدْرُ الْعَبَّاسَةِ وَالرَّشِيْدِ مِنَ النَّاسِ!!

وَإِنَّمَا **نَكْبُ الْبَرَامِكَةِ** مَا كَانَ مِنِ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ وَاحْتِجَانِهِمْ[٦] أَمْوَالَ الْجِبَايَةِ، حَتَّى كَانَ الرَّشِيْدُ يَطْلُبُ الْيَسِيْرَ مِنَ الْمَالِ فَلاَ يَصِلُ إِلَيْهِ، فَغَلَبُوْهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَشَارَكُوْهُ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مُلْكِهِ، فَعَظُمَتْ آثَارُهُمْ، وَبَعُدَ صِيْتُهُمْ، وَعَمَّرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخِطَطَهَا[٧] بِالرُّؤَسَاءِ مِنْ وُلْدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ، وَاحْتَازُوْهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنْ وِزَارَةٍ وَكِتَابَةٍ وَقِيَادَةٍ وَحِجَابَةٍ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ.

يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ بِدَارِ الرَّشِيْدِ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُوْنَ رَئِيساً مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ، زَاحَمُوا فِيْهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَاكِبِ، وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا

---

١ - في ن: إقامة.
٢ - الساذج: الذي على لونٍ واحدٍ لم يخالطه غيره.
٣ - أي الطهارة والنقاء.
٤ - أي بقوتهم.
٥ - أي بالغ.
٦ - احتجانهم: أي اقتطاعها والتفرد بها، والضن بها. وفي ن: احتجافهم، أي: استخلاصهم وحوزهم لها.
٧ - أي ما فيه إمارة ولو كانت محدودة.

بالْرَّاحِ[١]؛ لِمكَان أَبيهمْ يَحْيَى مِنْ كَفالَةِ هَارُوْنَ وَلِيِّ عَهْدٍ وَخليْفةٍ، حَتَّى شَبَّ في حُجْرِه، وَدَرجَ مِنْ عُشِّهِ، وَغَلَبَ على أَمْرِهِ، وكَانَ يَدْعُوْهُ: يَا أَبتِ، فَتوَجَّهَ الإيْثَارُ مِنَ الْسُّلْطَان إِلَيْهمْ، وعَظُمت الدَّالَّة مِنْهُمْ، وَانبَسطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ، وَانصرَفتْ نَحْوَهُمُ الْوُجُوْهُ، وَخضَعَتْ لَهُمُ الرِّقَابُ، وَقصِرتْ عَلَيْهمُ الآمَالُ، وَتخطَّتْ إِلَيْهمْ مِنْ أَقْصَى الْتُّخُوْمِ هَدَايَا الْملُوْكِ وتُحَفُ الأُمَرَاء، وتَسرَّبَتْ[٢] إِلَى خزَائِنهِمْ في سَبيْلِ الْتزَلُّفِ وَالاسْتِمالَةِ أَمْوَالُ الْجبايَةِ، وأَفَاضُوا في رجَال الْشِّيعَةِ[٣] وَعُظَمَاء الْقَرابَةِ الْعطَاءَ، وَطوَّقُوْهُمْ الْمِننَ، وكسبُوا مِنْ بُيُوْتَاتِ الأَشْرَافِ الْمُعْدَمَ، وفكُّوا الْعَانِي[٤]، ومُدِحُوا بمَا لَمْ يُمْدَحْ بِهِ خَلِيْفَتُهُمْ، وَأَسْنُوا[٥] لِعُفَاتِهِمْ[٦] الجوَائِزَ وَالْصِّلاَتِ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الْضَّوَاحي وَالأَمْصَار في سَائِرِ الْممَالِكِ، حَتَّى أَسَفُّوا[٧] الْبطَانَةَ، وأَحْقَدُوا الْخاصَّةَ، وأَغصُّوا أَهْلَ الْوِلاَيَةِ، فَكُشِفَتْ لَهُمْ وُجُوْهُ الْمُنافسَةِ وَالْحَسَدِ، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقاربُ السِّعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوالُ جعفر من أعظم السَّاعين عليهم، لم تعطفهم ـ لما وقرَ في نفوسهم من الحسد ـ عَوَاطِفُ الْرَّحِمِ، ولاَ وَزَعَتْهُمْ أَواصِرُ الْقَرَابَةِ، **وَقَارَنَ ذَلِكَ** عِنْدَ مَخْدُوْمِهِمْ نَوَاشِىءَ الْغَيْرَةِ وَالاسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجْرِ وَالأَنفَةِ، وكَامِن[٨] الْحُقُودِ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ الْدَّالَّةِ، وَانْتَهَى [ظ٥/١] بهَا الإصْرَارُ عَلَى شَأْنهِمْ إِلَى كَبَائِرِ الْمُخالَفَةِ كَقِصَّتِهِمْ في يَحْيَى بْن عَبْدِ الله بْن حَسَن بْنِ الْحَسَنِ[٩] بْنِ عَلِيّ بْنِ أَبي طَالِبٍ أَخِي مُحمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الْملقَّبِ **بالنَّفس الزَّكِيَّةِ** الْخارِج عَلَى الْمَنْصُوْر، وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بلاَدِ الْدَّيْلَم عَلَى أَمَانِ الرَّشِيْدِ بخطِّهِ، وَبَذَلَ لَهُمْ فِيْهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْطَّبَرِيُّ، وَدَفَعَهُ الْرَّشِيْدُ إِلَى جَعْفَرٍ، وَجَعَلَ اعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ

---

١ – الراح: الأكفّ.

٢ – في ن: سيرت.

٣ – أي من يشايعهم وينصرهم.

٤ – الذي كبلته الديون أو غيرها.

٥ – أي أجزلوا.

٦ – أي من يقصدهم لحاجة.

٧ – أسف: تتبع مداق الأمور، وهرب من صاحبه. فكأنه بأفعاله قد ساعد على ابتعاد خاصته منه خوفاً من تتبع دقائق أمورهم.

٨ – في ن: كان من..

٩ – انظر جمهرة أنساب العرب ص: ٤٥.

وَإِلَى نَظَرِهِ، فَحَبَسَهُ مُدَّةً، ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ سَبِيْلِهِ، وَالاسْتِبْدَادِ[١] بِحَلِّ عِقَالِهِ، حَرْماً لِدِمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ، وَدَالَّةً عَلَى السُّلْطَانِ فِي حُكْمِهِ. وَسَأَلَهُ الرَّشِيْدُ عَنْهُ لَمَّا وُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ، فَفَطِنَ وَقَالَ: أَطْلَقْتُهُ، فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَ الاسْتِحْسَانِ، وَأَسَرَّهَا فِي نَفْسِهِ، فَأَوْجَدَ السَّبِيْلَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ، حَتَّى ثُلَّ عَرْشُهُمْ، وَأُلْقِيَتْ عَلَيْهِمْ سَمَاؤُهُمْ، وَخَسَفَتِ الأَرْضُ بِهِمْ وَبِدَارِهِمْ، وَذَهَبَتْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِيْنَ أَيَّامُهُمْ، وَمَنْ تَأَمَّلَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، وَاسْتَقْصَى سِيَرَ الدَّوْلَةِ وَسِيَرَهُمْ، وَجَدَ ذلِكَ: مُحَقَّقَ الأَثَرِ، مُمَهَّدَ الأَسْبَابِ.

وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ **ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ** فِي مُفَاوَضَةِ الرَّشِيْدِ عَمَّ جَدِّهِ إِسحاقَ[٢] بْنِ عَلِيٍّ فِي شَأْنِ نَكْبَتِهِمْ، وَمَا ذَكَرَهُ فِي بَابِ الشُّعَرَاءِ فِي **كِتَابِ الْعِقْدِ** فِي مُحَاوَرَةِ الأَصْمَعِيِّ لِلرَّشِيْدِ وَلِلْفَضْلِ ابْنِ يَحْيَى فِي سَمَرِهِمْ تَتَفَهَّمْ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلَتْهُمُ الْغَيْرَةُ وَالْمُنَافَسَةُ فِي الاسْتِبْدَادِ مِنَ الْخَلِيْفَةِ فَمَنْ دُوْنَهُ وَكَذَلِكَ مَا تَحَيَّلَ بِهِ أَعْدَاؤُهُمْ مِنَ الْبِطَانَةِ فِيمَا دَسُّوْهُ لِلْمُغَنِّيْنَ مِنَ الشِّعْرِ احْتِيَالاً عَلَى إِسْمَاعِهِ لِلْخَلِيْفَةِ وَتَحْرِيْكِ حَفَائِظِهِ لَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ[٣]:

لَيْتَ هِنداً أَنْجَزَتْنَا مَا تَعِدْ ... وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدْ

وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً ... إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لاَ يَسْتَبِدْ

وَإِنَّ الرَّشِيْدَ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ: إِيْ وَاللهِ إِنِّي عَاجِزٌ. حَتَّى بَعَثُوا بِأَمْثَالِ هَذِهِ كَامِنَ غَيْرَتِهِ، وَسَلَّطُوا عَلَيْهِمْ بَأْسَ انْتِقَامِهِ. نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ غَلَبَةِ الرِّجَالِ، وَسُوْءِ الْحَالِ.

وَأَمَّا مَا تُمَوَّهُ بِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ **مُعَاقَرَةِ الرَّشِيْدِ الْخَمْرَ** وَاقْتِرَانِ سُكْرِهِ بِسُكْرِ النَّدْمَانِ، فَحَاشَا للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ حَالِ الرَّشِيْدِ وَقِيَامِهِ بِمَا يَجِبُ لِمَنْصِبِ الْخِلاَفَةِ مِنَ الدِّيْنِ وَالْعَدَالَةِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صَحَابَةِ الْعُلَمَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ وَمُحَاوَرَاتِهِ لِلْفُضَيلِ ابْنِ عِيَاضٍ وَابْنِ السَّمَّاكِ[٤] وَالْعُمَرِيِّ[٥] وَمُكَاتَبَتِهِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَبُكَائِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ، وَدُعَائِهِ بِمَكَّةَ فِي طَوَافِهِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ وَشُهُوْدِ الصُّبْحِ لأَوَّلِ وَقْتِهَا.

---

١ – الاستقلال بالأمر.

٢ – في الأصول: (داود) وصوابه: إسحاق بن علي كما في العقد الفريد (٥/٢٩٦).

٣ – القائل: عمر بن أبي ربيعة. انظر ديوانه.

٤ – هو أبو العباس محمد بن صبيح بن السماك من العباد الزهاد.. مترجم في حلية الأولياء (٨/٢٠٣-٢١٧).

٥ – هو عبد الرحمن بن عبد الله، عينه الرشيد قاضياً لمصر عام ١٨٥هـ.

حَكَى الْطَّبري وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي في كُلِّ يَوْمٍ مِئَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةً، وَكَانَ يَغْزُو عَاماً وَيَحُجُّ عَاماً وَلَقَدْ زَجَرَ ابْنَ أَبي مَرْيَمَ مُضْحِكَهُ في سَمَرِهِ حِيْنَ تَعَرَّضَ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ في الْصَّلاَةِ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ: ﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾[يس:٢٢] وَقَالَ: وَا للهِ مَا أَدْري لِمَ؟ فَمَا تَمَالَكَ الْرَّشِيْدُ أَنْ ضَحِكَ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ مُغْضَباً. وَقَالَ: يَا ابْنَ أَبي مَرْيَمَ في الْصَّلاَةِ أيضاً!! إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَالْقُرْآنَ وَالْدِّيْنَ، وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا.

وَأيضاً فَقَدْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْسَّذَاجَةِ بِمَكَانٍ لِقُرْبِ عَهْدِهِ مِنْ سَلَفِهِ الْمُنْتَحِلِيْنَ لِذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ **أَبِي جَعْفَر** بَعِيْدُ زَمَنٍ، إِنَّمَا خَلَّفَهُ غُلاماً، وَقَدْ كَانَ أَبُوْ جَعْفَر بِمَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْدِّيْنِ قَبْلَ [ظ٥/٢] الْخِلاَفَةِ وَبَعْدَهَا، وَهُوَ الْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِيْنَ **أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيْفِ الْمُوَطَّإِ**: يَا أَبَا عَبْدِ ا للهِ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ، وَإِنِّي قَدْ شَغَلَتْنِي الْخِلاَفَةُ، فَضَعْ أَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَاباً يَنْتَفِعُوْنَ بِهِ، تَجَنَّبْ فِيْهِ رُخَصَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ابْنِ عُمَرَ، وَوَطِّئْهُ لِلْنَّاسِ تَوطِئَةً. قَالَ مَالِكٌ: فَوَا للهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي الْتَّصْنِيْفَ يَوْمَئِذٍ.

وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبُوْ الْرَّشِيْدِ هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسْوَةِ الْجَدِيْدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْماً وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُبَاشِرُ الْخَيَّاطِيْنَ في إِرْقَاعِ الْخُلْقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ، فاسْتَنْكَفَ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ، عَلَيَّ كُسْوَةُ هَذِهِ الْعِيَالِ عَامَنَا هَذَا مِنْ عَطَائِي، فَقَالَ لَهُ: لَكَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ، وَلاَ سَمَحَ بِالإِنْفَاقِ فِيْهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِيْنَ.

فَكَيْفَ يَلِيْقُ بِالْرَّشِيْدِ عَلَى قُرْبِ الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ وَأُبُوَّتِهِ، وَمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْسِّيَرِ في أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالْتَّخَلُّقِ بِهَا، أَنْ يُعَاقِرَ الْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا، وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ الأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ في اجْتِنَابِ الْخَمرِ مَعْلُوْمَةً وَلَمْ يَكُنْ الْكَرْمُ شَجَرَتُهُمْ، وَكَانَ شُرْبُهَا مَذَمَّةً عِنْدَ الْكَثِيْرِ مِنْهُمْ، وَالْرَّشِيْدُ وَآبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى ثَبَجٍ[1] مِن اجْتِنَابِ الْمَذْمُوْمَاتِ في دِيْنِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالْتَّخَلُّقِ بِالْمَحَامِدِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ وَنَزَعَاتِ الْعَرَبِ.

وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ **الْطَّبَرِيُّ**[2] **وَالْمَسْعُوْدِيُّ** في قِصَّةِ جِبْرِيْلَ بْنِ بَخْتَيشُوْعَ الْطَّبِيْبِ حِيْنَ أُحْضِرَ لَهُ الْسَّمَكُ في مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ الْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَفَطِنَ الْرَّشِيْدُ، وَارْتَابَ بِهِ، وَدَسَّ خَادِمَهُ حَتَّى عَايَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ، فَأَعَدَّ ابْنُ بَخْتَيْشُوعَ لِلاعْتِذَارِ ثَلاثَ

---

١ - الثَّبج: وسط الشيء ومعظمه.

٢ - لم يذكر الطبري هذه القصة في تاريخه!!

قِطَعٍ مِنَ الْسَّمَكِ فِي ثَلاَثَةِ أَقْدَاحٍ: خَلَطَ إِحْدَاهَا بِاللَّحْمِ الْمُعَالَجِ بِالْتَّوَابِلِ وَالْبُقُوْلِ وَالْبَوَارِدِ وَالْحَلْوَى، وَصَبَّ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءً مُثَلَّجاً، وَعَلَى الثَّالِثَةِ خَمْراً صِرْفاً وَقَالَ فِي الأَوَّلِ وَالثَّانِي: هذا طعام أمير المؤمنين إن خلط السَّمك بغيره أو لم يخلطه، وقال في الثالث: هَذَا طَعَامُ ابْنِ بَخْتَيشُوْعَ وَدفعهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ، حَتَّى إِذَا انْتَبَهَ الرَّشِيْدُ وَأَحْضَرَهُ لِلْتَّوْبِيْخِ أَحْضَرَ ثَلاَثَةَ الأَقْدَاحِ، فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ قَدِ اخْتَلَطَ وَأَتَاعَ[1] وَتَفتتَ، وَوَجَدَ الآخرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا، فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعْذِرَةٌ، وَتَبيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيْدِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوْفَةً عِنْدَ بِطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ.

وَلَقَدْ ثَبُتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهِدَ بِحَبْسِ **أَبِي نُوَاسٍ**[2] لِمَا بَلَغَهُ مِنْ انهِمَاكِهِ فِي الْمُعَاقَرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ.

وَإِنَّمَا كَانَ الْرَّشِيْدُ يَشْرَبُ نَبِيْذَ الْتَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَفَتَاوِيْهِمْ فِيهَا مَعْرُوْفَةٌ.

وَأَمَّا الْخَمْرُ الصِّرْفُ فَلاَ سَبِيْلَ إِلَى اتِّهَامِهِ بِهَا[3]، وَلاَ تَقْلِيْدِ الأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيْهَا، فَلَمْ يَكُنْ الرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ مَحَرَّماً مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ، وَلَقَدْ كَانَ أُوْلَئِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنِ ارْتِكَابِ الْسَّرَفِ وَالْتَّرَفِ فِي مَلاَبِسِهِمْ وَزِيْنَتِهِمْ وَسَائِرِ مُتَنَاوَلاَتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ الْبِدَاوَةِ وَسَذَاجَةِ الدِّيْنِ الَّتِي لَمْ يُفَارِقُوْهَا بَعْدُ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الإِبَاحَةِ إِلَى الْحَظْرِ، وَعَنِ الْحِلَّةِ[4] إِلَى الْحُرْمَةِ.

وَلَقَدِ اتَّفَقَ **الْمُؤَرِّخُوْنَ الْطَّبَرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ** عَلَى أَنَّ جَمِيْعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ إِنَّمَا كَانُوا يَرْكَبُوْنَ بِالْحِلْيَةِ الْخَفِيْفَةِ [ظ٦/١] مِنَ الْفِضَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالْسُّيُوْفِ وَاللُّجُمِ وَالْسُّرُوْجِ، وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيْفَةٍ أَحْدَثَ الْرُّكُوْبَ بِحِلْيَةِ الْذَّهَبِ هُوَ الْمُعْتَزُّ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ بَعْدَ الرَّشِيْدِ. وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيضاً فِي مَلاَبِسِهِمْ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ!! وَيَتَبَيَّنُ ذَلِكَ بِأَتَمَّ مِنْ هَذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيْعَةَ الْدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبَدَاوَةِ وَالْغَضَاضَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي مَسَائِلِ الْكِتَابِ الأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللهُ وَاللهُ الْهَادِي إِلَى الْصَّوَابِ.

---

١ - في ن: أماع. وتاع القيء والشيء: خرج وسال وذاب.

٢ - هو الشاعر المشهور الحسن بن هانئ، توفي سنة ١٩٨هـ.

٣ - في ن: به.

٤ -- في ن: الحلِّيَّة.

وُيُنَاسِبُ هَذَا ـ أَوْ قَرِيْبٌ مِنْهُ ـ مَا يَنْقلونَهُ كَافَّةً عَـنْ **يَحْيَى بْنِ أَكْثَـمَ قَـاضِي الْمَـأْمُوْن** وَصَاحِبِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يُعَاقِرُ الْخمْرَ، وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرْبِهِ، فَدُفِنَ فِي الْرِّيحَـانِ حَتَّـى أَفَـاقَ، وَيُنْشِدُوْنَ عَلَى لِسَانِهِ:

يَـا سَـيِّدِي وَأَمِـيرَ الْنَّـاسِ كُلِّهِـمِ ... قَدْ جَارَ فِي حُكْمِـهِ مَـنْ كَـانَ يَسْقِيْنِي

إِنِّـي غَفَلْـتُ عَـنْ الْسَّـاقِي فَصَـيَّرَنِي ... كَمَا تَرَانِـي سَلِيْبَ الْعَقْـلِ وَالْدِّيْـنِ

وَحَالُ ابْنِ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُوْن فِي ذَلِكَ مِنْ حَال الْرَّشِيْدِ، وَشَرَابُهُمْ إِنَّمَا كَانَ الْنَّبِيْذَ[1]، وَلَـمْ يَكُنْ مَحْظُوْراً عِنْدَهُمْ، وَأَمَّا الْسُّكْرُ فَلَيْس مِنْ شَأْنِهِمْ، وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُوْن إِنَّما كَـانَتْ خُلَّـةً فِي الْدِّيْن، وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، وَنُقِلَ فِي فَضَائِلِ الْمَأْمُوْن وَحُسْنِ عُشْـرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانَ فَقَامَ يَتَحسَّسُ وَيَلتَمِسُ الإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يُوْقِظَ يَحْيَى بْـنَ أَكْثَـمَ، وَثَبَتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الْصُّبْحَ جَمِيعاً[2]، فَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْمُعَاقَرَةِ؟!.

وَأَيضاً: فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَم كَانَ مِنْ عِلْيَةِ أَهْلِ الْحَدِيْثِ، وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ الإِمَـامُ أَحْمَـدُ ابْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيْلُ الْقَاضِي، وَخَرَّجَ عنه الْتِّرْمذِيُّ [فِي] كِتَابِهِ الْجَامِعِ[3]. وَذَكَرَ الْمِزِّيُّ[4] الْحَافِظُ: أَنَّ الْبُخَارِي رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ. فَالْقَدْحُ فِيْهِ قَدْحٌ فِي جَمِيْعِهِمْ.

وَكَذَلِكَ مَا يَنْبُزُهُ به الْمُجَّانُ[5] بِالْمَيْلِ إِلَى الْغِلْمَان بُهْتَاناً عَلَى ا للهِ، وَفِرْيَةً عَلَى الْعُلَمَـاءِ، وَيَسْتَنِدُوْنَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَّاصِ الْوَاهِيَةِ الَّتِـي لَعَلَّهـا مِـن افْـتِراءِ أَعْدَائِـهِ، فَإِنَّـهُ **كَـانَ مَحْسُوْداً فِي كَمَالِهِ وخِلَّتِهِ لِلْسُّلْطَان**، وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ والْدِّيْنِ مُنَزَّهاً عَنْ مِثْلِ ذَلِـكَ. وَقَدْ[6] ذُكِرَ لابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيْهِ بِـهِ الْنَّـاسُ فَقَـال: سُبْحَانَ ا للهِ سُبْحَانَ ا للهِ، وَمَـنْ يَقُـوْلُ

---

١ – الذي نقل عن يحيى بن أكثم يثبت أنه لم يكن ممن يبيح شرب النبيذ ما دام فيه الإسكار في قلته أو كثرتـه، وإذا شرب فإنما يشرب الماء الذي نبذ فيه التمر أو غيره حتى ظهرت فيـه الحـلاوة. نقـل المزي في تهذيـب الكمـال (٢١٧/١٣) عن علي بن خشرم قال: أخبرني يحيى بن أكثم أنـه صـار إلى حفـص بـن غيـاث فتعشـى عنـده، فـأتي حفص بعس [أي: قدح ضخم] فشرب منه ثم ناوله أبا بكر بن أبي شيبة فشرب منه، فناوله أبو بكر يحيى بن أكثـم فقال له: يا أبا بكر أيسكر كثيره؟ قال: إي وا لله، وقليله. فلم يشرب.

٢ – في ن: جماعة.

٣ – أي كتاب الجامع الصحيح المعروف بسنن محمد بن عيسى الترمذي.

٤ – في الأصول: المزني. خطأ. وهو الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي صاحب تهذيب الكمال، وقولـه هـذا في (٢٠٩/٣١).

٥ – في ن: يثبجه المجان.

٦ – في ن: لقد.

هَذَا؟! وَأَنْكر ذَلِكَ إِنْكَاراً شَدِيداً. وَأَثْنى عَلَيْهِ إِسْمَاعِيْلُ الْقَاضِي، فَقِيْلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيْهِ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ تَزُوْلَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ بِتَكْذِيْبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ. وَقَالَ أَيضاً: [كَانَ][1] يَحْيَى بْنُ أَكْثَم أَبْرَأَ إِلَى اللهِ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ شَيءٌ مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْغِلْمَانِ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيْدَ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيْهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خُلْقٍ فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ وذكره ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ[2] وَقَالَ: لاَ يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لأَنَّ أَكْثَرَهَا لاَ يَصِحُّ عَنْهُ.

وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعِقْدِ[3] مِنْ **حَدِيْثِ الزِّنْبِيْلِ[4] فِي سَبَبِ إِصْهَارِ الْمَأْمُوْنِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ** فِي بِنْتِهِ بُوْرَانَ[5] وَأَنَّهُ عَثَرَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطْوَافِهِ بِسِكَكِ بَغْدَادَ فِي زِنْبِيْلٍ مُدَلَّى مِنْ بَعْضِ السُّطُوْحِ بِمَعَالِقَ وَجُدُلٍ مُغَارَةِ الْفَتْلِ[6] مِنَ الْحَرِيْرِ، فَاعْتَقَدَهُ وَتَنَاوَلَ الْمَعَالِقَ، فَاهْتَزَّتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعُداً إِلَى مَجْلِسٍ شَأْنُهُ كَذَا، وَوَصَفَ مِنْ زِيْنَةِ فُرْشِهِ وَتَنْضِيْدِ أَبْنِيَتِهِ وَجَمَالِ رُؤْيَتِهِ مَا يَسْتَوْقِفُ الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ النَّفْسَ، وَأَنَّ امْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلَلِ السُّتُوْرِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَائِقَةَ الْجَمَالِ فَتَّانَةَ الْمَحَاسِنِ[ظ٦/٢] فَحَيَّتْه وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادَمَةِ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَاقِرُهَا الْخَمْرَ حَتَّى الصَّبَاحِ، وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِن انْتِظَارِهِ، وَقَدْ شَغَفَتْهُ حُبّاً بَعَثَهُ عَلَى الإِصْهَارِ إِلَى أَبِيْهَا. وَأَيْنَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْمَأْمُوْنِ الْمَعْرُوْفَةِ فِي دِيْنِهِ وَعِلْمِهِ وَاقْتِفَائِهِ سُنَنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ، وَأَخْذِهِ بِسِيَرِ الْخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ الْمِلَّةِ، وَمُنَاظَرَتِهِ الْعُلَمَاءَ، وَحِفْظِهِ لِحُدُوْدِ اللهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ، فَكَيْفَ تَصِحُّ عَنْهُ أَحْوَالُ الْفُسَّاقِ الْمُسْتَهْتَرِينَ[7] فِي التَّطْوَافِ بِاللَّيْلِ، وَطُرُوْقِ الْمَنَازِلِ، وَغَشَيَانِ السَّمَرِ، سَبِيْلَ عُشَّاقِ الأَعْرَابِ؟! وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ابْنَةِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا، وَمَا كَانَ بِدَارِ أَبِيْهَا مِنَ الصَّوْنِ وَالْعَفَافِ؟!

وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيْرَةٌ، وَفِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِيْنَ مَعْرُوْفَةٌ.

---

١ - ما بين: [ ] زيادة من تهذيب الكمال.

٢ - الثقات: (٩/٢٦٥ - ٢٦٦) وانظر تفصيل أخباره في تهذيب الكمال.

٣ - انظره في العقد الفريد (٨/١٤٢ - ١٤٨).

٤ - أي القفة الكبيرة.

٥ - اسمها: خديجة وعرفت ببوران. انظر العقد الفريد (١/٢١٨).

٦ - مغارة الفتل: من قوله: أغار، أي: شدّ الفتل.

٧ - المستهتَر: المولع بالشيء لايبالي بما فعل فيه، ومن كثرت أباطيله.

وَإِنَّمَا **يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا** وَالْحَدِيْث بهَا الإنْهِمَاكُ في اللَّذَّات الْمُحَرَّمَة، وَهَتْك قناعِ الْمُخدَّرَات[1]، وَيَتَعَلَّلُونَ بالتَّأَسِّي بالْقَوْم فِيْمَا يَأْتُوْنَهُ منْ طَاعَة لَذَّاتهمْ، فَلذلكَ تَراهُمْ كَثيْراً مَا يَنْهجُوْنَ[2] بأَشْبَاه هَذه الأَخْبَار، وَيُنَقِّرُوْنَ عَنْهَا عنْدَ تَصَفُّحهمْ لأَوْرَاق الْدَّوَاوِيْن، وَلَوْ ائتَسَوا بهمْ في غَيْر هَذَا منْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَات الْكَمَال اللائقَة بهِمْ الْمَشْهُوْرَة عَنْهُمْ لَكَان خَيْراً لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوْنَ.

وَلَقَدْ عَذَلْتُ[3] يَوْماً بَعْضَ الأُمَرَاء منْ أَبْنَاء الْمُلُوك في كَلَفه بتَعَلُّم الْغنَاء وَوَلُوْعه بالأَوْتَار. وَقُلْتُ لَهُ: لَيْسَ هَذَا منْ شَأْنكَ وَلاَ يَليْقُ بمَنْصبكَ، فَقَالَ لي: أَفَلاَ تَرَى إلَى إبْرَاهيْمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إمَامَ هَذه الْصِّنَاعَة وَرَئيسَ الْمُغَنِّيْنَ في زَمَانه؟! فَقُلْتُ لَهُ: يَا سُبْحَانَ الله، وَهَلاَّ تَأَسَّيْتَ بأَبِيْه و[4] أَخيْه!! أَومَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلكَ بإبْرَاهيْمَ عَنْ مَنَاصبهمْ؟! فَصَمَّ عَنْ عَذلي وَأَعْرَضَ، ﴿ واللهُ يَهْدي مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة: ٢١٣].

وَمنَ الأَخْبَار الْوَاهيَة مَا يَذْهَبُ إلَيْه الْكَثيْرُ منَ الْمُؤَرِّخينَ وَالأَثْبَات في **الْعُبَيْديِّينَ** خُلَفَاء الْشِّيْعَة بالْقَيرَوَان وَالْقَاهرَة منْ نَفْيهمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْت صَلَوَاتُ الله عَلَيْهمْ، وَالْطَّعْن في نَسَبهمْ إلَى إسْمَاعيْلَ الإمَام ابْنِ جَعْفَرٍ الْصَّادق، يَعْتَمدُوْنَ في ذَلكَ عَلَى أَحَاديْثَ لُفِّقَتْ لِلْمُسْتَضْعَفيْنَ منْ خُلَفَاء بَني الْعَبَّاس، تَزَلُّفاً إلَيْهمْ بالْقَدْح فيْمَنْ نَاصَبَهُمْ، وَتَفَنُّناً في الْشَّمَات بعَدُوِّهمْ، حَسْبَمَا نَذْكُرُ بَعْضَ هَذه الأَحَاديْث في أَخْبَارهمْ، وَيَغْفُلُوْنَ عَن الْتَّفَطُّن لشَوَاهد الْوَاقعَات، وَأَدلَّة الأَحْوَال الَّتي اقْتَضَتْ خلاَفَ ذَلكَ، منْ تَكْذيْب دَعْوَاهُمْ، وَالْرَّدِّ عَلَيْهمْ؛ فَإنَّهُمْ مُتَّفقونَ في حَديْثهمْ عَنْ مَبْدَإ دَوْلَة الْشِّيْعَة: أَنَّ أَبَا عَبْد الله الْمُحْتَسب لَمَّا دعَا بكُتَامَة للْرِّضَا منْ آل مُحَمَّد، وَاشْتَهَرَ خَبَرُهُ، وَعُلمَ تَحْويْمُهُ عَلَى عُبَيْد الله الْمَهْدي وَابْنه أَبي الْقَاسم، خَشيَا عَلَى أَنْفُسهمَا، فَهَرَبَا منَ الْمَشْرق مَحَلِّ الْخلاَفَة، وَاجْتَازَا بمصْرَ، وَأَنَّهمَا خرَجَا منَ الإسْكَنْدريَّة، في زي التجار ونميَ خبرهما إلى عيسى النَّوشري عامل مصر والإسكندرية فَسرَّجَ في طَلَبهمَا الْخَيَّالَةَ حَتَّى إذَا أُدْركَا خَفيَ حَالُهُمَا عَلَى تَابعهمَا بمَا لَبسُوا به منَ الْشَّارَة وَالْزِّيِّ، فَأَفْلَتُوا إلَى الْمَغْرب، وَأَنَّ الْمُعْتَضدَ أَوْعَزَ إلَى الأَغَالبَة

---

١ - الخدر: ستر يمد للجارية في ناحية البيت. فالمخدرة: اللازمة للخدر.

٢ - نهج: سلك.

٣ - العذل: الملامة.

٤ - في ن: أو.

أُمَرَاءِ أَفْرِيقِيَة بِالْقَيْرَوَان وَبَني مدْرَار أُمَرَاء سجلْمَاسَة[١] بِأَخْذ الآفَاق عَلَيْهِمَا، وَإِذْكَاء الْعُيُوْنِ فِي طَلَبِهِمَا، فَعَثَرَ أَلْيَسَعُ صَاحِبُ سِجِلْمَاسَةَ منْ آل مدْرَارٍ عَلَى خَفِيٍّ مَكَانهمَا بِبَلَده [ظ١/٧] وَاعْتَقَلَهُمَا مَرْضَاةً لِلْخَلِيْفَة. هَذَا قَبْلَ أن تَظْهَرَ الشِّيْعَةُ على الأَغَالِبَة بِالْقَيْرَوَان، ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلكَ مَا كَانَ منْ ظُهُور دَعْوَتهِمْ بِالْمَغْرِب وَأَفْرِيقِيَّة ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالإِسْكَنْدَرِيَّة ثُمَّ بِمصْرَ وَالشَّام وَالْحِجَاز، وَقَاسَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الإِسْلامِ شِقَّ الأُبْلُمَة[٢]، وَكَادُوا يَلجُوْنَ عَلَيْهِمْ مَوَاطِنَهُمْ، وَيُزَايلون منْ أَمْرِهِمْ.

وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتَهم بِبَغْدَادَ وَعِرَاقِهَا **الأَمِيْرُ الْبَسَاسِيْرِيُّ** منْ مَوَالي الدَّيْلَم الْمُتَغَلِّبِيْنَ عَلَى خُلَفَاء بَني الْعَبَّاسِ فِي مُغَاضَبَة جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمَرَاء الْعَجَم، وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلاً كَاملاً، وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاس يَغُضُّونَ بِمَكَانهمْ وَدَوْلَتهمْ، وَمُلُوْكُ بَني أُمَيَّة وَرَاءَ الْبَحْر يُنَادُوْنَ بِالْوَيْل وَالْحَرَب منْهُمْ، **وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ لِدَعِيٍّ فِي النَّسَب، يَكْذبُ فِي انْتحَالِ الأَمْرِ؟!**

وَاعْتَبِرْ **حَالَ الْقُرْمُطِيِّ** إِذْ كَانَ دَعِيّاً فِي انْتسَابه كَيْفَ تَلاشَتْ دَعْوَتُهُ، وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ، وَظَهَرَ سَرِيعاً عَلَى خُبْثهِمْ وَمَكْرِهِمْ، فَسَاءَتْ عَاقبَتُهُمْ، وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ!! وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعُبَيْدِيِّينَ كَذَلكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مُهْلَة.

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِىءٍ منْ خَلِيْقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ[٣]

فَقَد اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْواً منْ مِئَتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ سَنَةً، وَمَلَكُوا مَقَامَ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْه السَّلامُ وَمُصَلاَّهُ، وَمَوْطِنَ الرَّسُوْلِ صلى الله عليه وسلم وَمَدْفِنَهُ، وَمَوْقِفَ الْحَجِيْجِ وَمَهْبِطَ الملائكة.

ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ، وَشِيَعُهُمْ[٤] فِي ذَلكَ كُلِّه عَلَى أَتَمِّ مَا كَانُوا عَلَيْه منَ الطَّاعَة لَهُمْ وَالْحُبِّ فِيْهِمْ وَاعْتِقَادهِمْ بِنَسَب الإِمَام إِسْمَاعِيْلَ بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِق. وَلَقَدْ خَرَجُوا مِرَاراً بَعْدَ ذَهَاب الدَّوْلَة. وَدُرُوْسِ أَثَرِهَا، دَاعِينَ إِلَى بِدْعَتِهِمْ، هَاتِفِيْنَ بِأَسْمَاء صِبْيَان منْ أَعْقَابِهِمْ، يَزْعُمُوْنَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلافَة، وَيَذْهَبُوْنَ إِلَى تَعْيِيْنِهِمْ بِالْوَصِيَّة مِمَّنْ سَلَفَ قَبْلَهُمْ

---

١ – مدينة في جنوب المغرب، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، عند نهاية جبال درن.

٢ – يقال: المال بيننا شق الأبلمة أي: نصفين.

٣ – من قصيدة لزهير بن أبي سلمى.

٤ – في ن: شيعتهم.

مِنَ الأَئِمَّةِ، وَلَو ارْتَابُوا في نَسَبِهِمْ لَمَا رَكِبُوا أَعْنَاقَ الأَخْطَارِ في الانْتِصَارِ لَهُمْ، فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ لا يَلْبسُ في أَمْرِهِ، وَلاَ يُشَبِّهُ في بِدْعَتِهِ، وَلاَ يُكَذِّبُ نَفْسَهُ فِيْمَا يَنْتَحِلُهُ.

وَالْعَجَبُ مِنَ الْقَاضِي أَبي بَكْرٍ **الْبَاقِلاَّني**[1] شَيْخِ النُّظَّارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ، كَيْفَ يَجْنَحُ إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمَرْجُوْحَةِ، وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيْفَ!! فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الإِلْحَادِ في الدِّيْنِ، وَالتَّعَمُّقِ في الرَّافِضِيَّةِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ في صَدْرِ دَعْوَتِهِمْ، وَلَيْسَ إِثْبَاتُ مُنْتَسِبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً في كُفْرِهِمْ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ في شَأْنِ ابْنِهِ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[هود:٤٦]. وَقَالَ صلى الله عليه وسلم لِفَاطِمَةَ يَعِظُهَا: «**يَا فَاطِمَةُ اعْمَلِي فَلَنْ أُغْنِيَ عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً**»[2].

وَمَتَى عَرَفَ امْرُؤٌ قَضِيَّةً أَوِ اسْتَيْقَنَ أَمْراً وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْدَعَ[3] بِهِ ﴿وَاللهُ يَقُوْلُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيْلَ﴾[الأحزاب: ٤]. وَالْقَوْمُ كَانُوا في مَجَالٍ لِظُنُوْنِ الدُّوَلِ بِهِمْ، وَتَحْتَ رَقَبَةٍ مِنَ الطُّغَاةِ لِتَوَفُّرِ شِيْعَتِهِمْ، وَانْتِشَارِهِمْ في الْقَاصِيَةِ بِدَعْوَتِهِمْ، وَتَكَرُّرِ خُرُوْجِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، فَلاَذَتْ رِجَالاَتُهُمْ بِالاخْتِفَاءِ، وَلَمْ يَكَادُوا يُعْرَفُوْنَ كَمَا قِيْلَ[4]:

فَلَوْ تَسْأَلِ الأَيَّامَ مَا اسْمِيَ مَا دَرَتْ ... وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِيَا

حَتَّى لَقَدْ سُمِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيْلَ [ظ٢/٧] الإِمَامُ جَدُّ عُبَيْدِ اللهِ الْمَهْدِيِّ بِالْمَكْتُوْمِ، سَمَّتْهُ بِذَلِكَ شِيْعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ، حَذَراً مِنَ الْمُتَغَلِّبِيْنَ عَلَيْهِمْ، فَتَوَصَّلَ[5] شِيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُوْرِهِمْ إِلَى الطَّعْنِ في نَسَبِهِمْ، وَازْدَلَفُوا بِهَذَا الرَّأْيِ الْفَائِلِ[6] لِلْمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنْ خُلَفَائِهِمْ، وَأُعْجِبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأُمَرَاءُ دَوْلَتِهِمُ الْمُتَوَلُّوْنَ لِحُرُوْبِهِمْ مَعَ

---

١ – هو محمد بن الطيب، مات ٤٠٣هـ.

٢ – أخرجه البزار (٢٨) من حديث حذيفة بإسناد لا بأس به بلفظ: «يا فاطمة اعملي لله خيراً، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً يوم القيامة». انظره في مجمع الزوائد (٢٧/١) رقم (١٤٧). وأخرجه أحمد (٣٣٣/٢، ٣٦٠، ٥١٩) والبخاري في الأدب المفرد (٤٨) ومسلم (٢٠٤) والترمذي (٣١٨٥) والنسائي (٢٤٨/٦) من حديث أبي هريرة بلفظ: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك من الله شيئاً». وفي لفظ للبخاري في صحيحه (٤٧٧١): «يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت لا أغني».

٣ – أي يخبر به ويبلغه.

٤ – نسبه القالي في الأمالي (١٣٧/٣) لمالك بن الريب.

٥ – في ن: فتوسل.

٦ – فال رأيه: أخطأ وضعف.

الأَعْدَاء، يَدْفعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعَرَّةَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلَبَهُمْ عَلَى الْشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبَرْبَرِ الْكَتَّامِيِّنَ شِيْعَةِ الْعُبَيْدِيِّيْنَ وَأَهْلِ دَعْوَتِهِمْ، حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ الْقُضَاةُ بِبَغْدَادَ بِنَفْيِهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ، وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلاَمِ النَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمُ الْشَّرِيْفُ الرَّضِيُّ وَأَخُوْهُ الْمُرْتَضَى وَابْنُ الْبَطْحَاوِي. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ: أَبُوْ حَامِدٍ الإِسْفَرَايِينِيُّ وَالْقُدُوْرِيُّ وَالْصَّيْمَرِيُّ وَابْنُ الأَكْفَانِيِّ وَالأَبِيوَرْدِيُّ[١] وَأَبُوْ عَبْدِ ا للهِ بْنُ النُّعمَانِ فَقِيْهُ الْشِّيْعَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَعْلاَمِ الأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُوْدٍ، وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّيْنَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ فِي أَيَّامِ الْقَادِرِ، وَكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى الْسَّمَاعِ لِمَا اشْتُهِرَ وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بِبَغْدَادَ وَغَالِبُهَا شِيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ الطَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ، فَنَقَلَهُ الأَخْبَارِيُّوْنَ كَمَا سَمِعُوْهُ، وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا وَعَوْهُ، وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ.

وَفِي **كِتَابِ الْمُعْتَضِدِ** فِي شَأْنِ عُبَيْدِ ا للهِ إِلَى ابْنِ الأَغْلَبِ بِالْقَيْرَوَانِ وَابْنِ مِدْرَارٍ بِسِجِلْمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيْلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ، فَالْمُعْتَضِدُ أَقْعَدُ **بِنَسَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ** مِنْ كُلِّ أَحَدٍ.

والْدَّوْلَةُ وَالْسُّلْطَانُ سُوْقٌ لِلْعَالَمِ تُجْلَبُ إِلَيْهِ بَضَائِعُ الْعُلُوْمِ وَالْصَّنَائِعِ، وَتُلْتَمَسُ فِيْهِ ضَوَالُّ الْحِكَمِ، وَتُحْدَى إِلَيْهِ رَكَائِبُ الْرِّوَايَاتِ وَالأَخْبَارِ، وَمَا نَفَقَ فِيْهَا نَفَقَ عِنْدَ الْكَافَّةِ، فَإِنْ تَنَزَّهَتِ الْدَّوْلَةُ عَنِ الْتَّعَسُّفِ وَالْمَيْلِ وَالأَفَنِ[٢] وَالْسَّفْسَفَةِ، وَسَلَكَتْ النَّهْجَ الأَمَمَ[٣]، وَلَمْ تَجُزْ[٤] عَنْ قَصْدِ الْسَّبِيْلِ، نَفَقَ فِي سُوْقِهَا الإِبْرِيْزُ الْخَالِصُ وَاللُّجَيْنُ الْمُصَفَّى، وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الأَغْرَاضِ وَالْحُقُوْدِ، وَمَاجَتْ بِسَمَاسِرَةِ[٥] الْبَغْيِ وَالْبَاطِلِ، نَفَقَ الْبَهْرَجُ وَالْزَّائِفُ. وَالنَّاقِدُ الْبَصِيْرُ نَظَرُهُ قِسْطَاسُ بَحْثِهِ وَمِيْزَانُه وَمُلْتَمَسُه.

وَمِثْلُ هَذَا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيْراً مَا يَتَنَاجَى بِهِ الْطَّاعِنُوْنَ فِي **نَسَبِ إِدْرِيْسَ بْنِ إِدْرِيْسَ** بْنِ عَبْدِ ا للهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رُضْوَانُ ا للهِ عَلَيْهِمْ الإِمَامِ بَعْدَ أَبِيْهِ بِالْمَغْرِبِ الأَقْصَى، وَيُعَرِّضُوْنَ تَعْرِيضَ الْحَدِّ[٦] بِالْتَّظَنُّنِ فِي الْحَمْلِ الْمُخَلَّفِ عَنْ إِدْرِيْسَ

١ –نسبة إلى أبيوَرد ويقال لها: أباورد، وباورد، وهي بليـدة بخراسان. انظر ترجمة محمد بن أحمد بن محمد الأبيوردي، في وفيات الأعيان (١٤/٢).

٢ – أي الإفساد، من قولهم: أَفَنَ الناقة، أي حلبها في غير حينها فيفسدها ذلك.

٣ – الأَمم: المعتدل، الوسط.

٤ – أي لم تجاوز. وفي ن: تجر. أي تميل وتنحرف.

٥ – في ن: بسماسرة العرب البغي..

٦ – في ن: (الحسد). والحد المقصود به: حد القذف.

الأكْبَرِ إِنَّهُ لِرَاشِدَ مَوْلاَهُمْ، قَبَّحَهُمُ اللهُ وَأَبْعَدَهُمْ مَا أَجْهَلَهُمْ، أَمَا يَعْلَمُوْنَ أَنَّ إِدْرِيْسَ **الأكْبَرَ** كَانَ **إِصْهَارُهُ فِي الْبَرْبَرِ**، وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرِيْقٌ فِي الْبَدْوِ، وَأَنَّ حَالَ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ، إِذْ لاَ مَكَامِنَ لَهُمْ يَتَأَتَّى فِيْهَا الرِّيَبُ، وَأَحْوَالُ حُرَمِهِمْ أَجْمَعِيْنَ بِمَرْأَى مِنْ جَارَاتِهِنَّ، وَمَسْمَعٍ مِنْ جِيْرَانِهِنَّ، لِتَلاَصُقِ الْجُدْرَانِ، وَتَطَامُنِ الْبُنْيَانِ، وَعَدَمِ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ الْمَسَاكِنِ، وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَلَّى خِدْمَةَ الْحَرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلاَهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ وَشِيْعَتِهِمْ، وَمُرَاقَبَةٍ مِنْ كَافَّتِهِمْ، وَقَدِ اتَّفَقَ **بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الأَقْصَى** عَامَّةً عَلَى بَيْعَةِ إِدْرِيْسَ الأَصْغَرِ مِنْ بَعْدِ أَبِيْهِ، وَآتَوْهُ طَاعَتَهُمْ عَنْ رِضًى وَإِصْفَاقٍ[1]، وَبَايَعُوْهُ عَلَى الْمَوْتِ الأَحْمَرِ، وَخَاضُوا دُوْنَهُ بِحَارَ الْمَنَايَا فِي حُرُوْبِهِ وَغَزَوَاتِهِ[ظ٨/١]، وَلَوْ حَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الرِّيْبَةِ، أَوْ قُرِعَتْ أَسْمَاعُهُمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ. كَلاَّ وَاللهِ، إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَقْتَالِهِمْ، وَمِنْ بَنِي الأَغْلَبِ عُمَّالِهِمْ - كَانُوا بِأَفْرِيْقِيَّةَ - وَوُلاَتِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ إِدْرِيْسُ الأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَقْعَةِ بَلْخٍ أَوْعَزَ الْهَادِي إِلَى الأَغَالِبَةِ أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ، وَيُذْكُوا عَلَيْهِ الْعُيُوْنَ، فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ، وَخَلَصَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَتَمَّ أَمْرُهُ، وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ، وَظَهَرَ الرَّشِيْدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحٍ مَوْلاَهُمْ وَعَامِلِهِمْ عَلَى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ دَسِيْسَةِ التَّشَيُّعِ لِلْعَلَوِيَّةِ، وَإِدْهَانِهِ فِي نَجَاةِ إِدْرِيْسَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشَّمَّاخَ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَبِيْهِ لِلتَّحَيُّلِ عَلَى قَتْلِ إِدْرِيْسَ، فَأَظْهَرَ اللِّحَاقَ بِهِ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيْهِ، فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ إِدْرِيْسُ، وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ، وَنَاوَلَهُ الشَّمَّاخُ فِي بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سُمّاً اسْتَهْلَكَهُ[2] بِهِ، وَوَقَعَ خَبَرُ مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ لِمَا رَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعَلَوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ، وَاقْتِلاَعِ جُرْثُوْمَتِهَا.

وَلَمَّا تَأَدَّى إِلَيْهِمْ خَبَرُ الْحِمْلِ الْمُخَلَّفِ لإِدْرِيسَ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلاَّ كَلاَ وَلاَ، وَإِذَا بِالدَّعْوَةِ قَدْ عَادَتْ، وَالشِّيْعَةُ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ، وَدَوْلَتُهُمْ بِإِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ قَدْ تَجَدَّدَتْ، فَكَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقْعِ السِّهَامِ، وَكَانَ الْفَشَلُ وَالْهَرَمُ قَدْ نَزَلاَ بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ، فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيْدِ عَلَى إِدْرِيسَ الأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ قَاصِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاشْتِمَالِ الْبَرْبَرِ عَلَيْهِ إِلاَّ التَّحَيُّلَ فِي إِهْلاَكِهِ بِالسُّمُوْمِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ

١ - أصفق القدح: ملأه. وأصفقوا على كذا: أطبقوا وأجمعوا.

٢ - أي أهلكه، من قولهم: استهلك المال، إذا أنفقه وأنفده.

فزِعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الأَغَالِبَةِ بِأَفريقيَّةَ في سَدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاحِيَتِهِمْ، وَحَسْمِ الْدَّاء الْمتوقَّع بالْدَّوْلَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ، واقْتِلاع تِلْكَ الْعُرُوْق قَبْلَ أَنْ تَشج[1] مِنْهُمْ، يُخَاطِبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَأْمُوْنُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ خُلَفَائِهِمْ، فكَانَ **الأَغَالِبَةُ عَنْ بَرابِرَةِ الْمغْرب** الأَقْصَى أَعْجَز، وَلِمِثْلِهَا مِنَ الزَّبُوْن عَلَى مُلُوكِهِمْ أَحْوَجَ، لِمَا طَرَقَ الخِلاَفَةَ مِن انْتِزَاء مَمَالِكِ الْعَجَمِ عَلَى سُدَّتِهَا، وَامْتِطَائِهِمْ صَهْوَةَ التَّغَلُّبِ عَلَيْهَا، وَتَصْرِيْفِهِمْ أَحْكَامَهَا طَوْعَ أَغْرَاضِهِمْ في رِجَالِهَا وَجبَايَتِهَا وَأَهْلِ خِطَطِهَا، وَسَائِرِ نَقْضِهَا وَإِبْرَامِهَا، كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

خَلِيفَةٌ في قَفَصٍ ... بَيْنَ وَصِيْفٍ وَبُغَا

يَقُوْلُ مَا قَالاَ لَهُ ... كَمَا تَقُوْلُ الْبُبَّغَا

فَخَشِيَ هَؤُلاء الأُمَرَاء الأَغَالِبَةُ بَوادِرَ الْسِّعَايَاتِ، وَتَلَوا بِالْمَعَاذِيْر، فَطَوْراً بِاحْتِقَار الْمغْربِ وَأَهْلِهِ، وَطوْراً بالإرهَابِ بِشَأْن إِدْرِيسَ الْخَارِج بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ أَعْقَابِهِ، يُخَاطِبُوْنَهُم بِتجَاوُزِهِ حُدُوْدَ الْتخُوْمِ مِنْ عَمَلِهِ، وَيُنفِذُوْنَ سِكَّتَهُ في تُحَفِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمُرْتَفعِ جِبَايَاتِهِمْ، تَعْرِيضاً بِاسْتِفْحَالِهِ، وَتَهْوِيلاً بِاشْتِدَادِ شَوْكَتِهِ، وَتَعْظِيْماً لِمَا دُفِعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَمِرَاسِهِ، وَتَهْدِيْداً بِقَلْبِ الْدَّعْوَةِ إِنْ أُلْجِؤُوا إِلَيْهِ، وَطَوْراً يَطْعَنُوْنَ في نَسَبِ إِدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْطَّعْنِ الْكَاذِبِ، تَخْفِيضاً لِشَأْنِهِ، لاَ يُبَالُوْنَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ، لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ، وَأَفْن عُقُوْل[2] مَنْ خَلَّفَ مِنْ صِبْيَةِ بَنِي الْعَبَّاس، وَمَمَالِكِهِمْ الْعَجَمِ في الْقَبُوْلِ مِنْ كلِّ قَائِلٍ، وَالْسَّمْعِ [ظ٢/٨] لِكُلِّ نَاعِق، وَلَمْ يزَلْ هَذَا دَأْبهُمْ حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ الأَغَالِبَةِ، فَقَرعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْشَّنْعَاءُ أَسْمَاعَ الْغَوْغَاءِ، وَصَرَّ عَلَيْهَا بَعْضُ الْطَّاعِنِيْنَ أُذُنَهُ، وَاعْتَدَّهَا ذَرِيعَةً إِلَى الْنَّيْلِ مِنْ خَلَفِهِمْ عِنْدَ الْمُنَافَسَةِ، وَمَالَهُمْ ـ قَبَّحَهُمُ اللهُ ـ وَالْعُدُوْلَ عَنْ مَقَاصِدِ الْشَّرِيْعَةِ، فَلاَ تَعَارُضَ فِيْهَا بَيْنَ الْمَقْطُوْعِ وَالْمَظْنُوْن، وَإِدْرِيسُ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيْهِ، وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاش[3] عَلَى أَنَّ تَنْزِيْهَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هَذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الإِيمَان، فَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمُ الْرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً، فَفِرَاشُ إِدْرِيسَ طَاهِرٌ مِنَ الْدَّنس، وَمُنَزَّهٌ عَنِ الْرِّجْسِ بِحُكْمِ الْقُرآن، وَمَنِ اعْتَقَدَ خِلاَفَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ، وَوَلَجَ الْكُفْرَ مِنْ بَابِهِ.

---

١ - وَشَجَت بك قرابته تشجُ: أي اشتبكت. وفي منشورة الدكتور وافي: (تشبَح) أي تنمو وتمتد.

٢ - أي ضعفها واختلالها.

٣ - أخرجه البخاري (١٩٤٨ و٢١٠٥ و٢٢٨٩ و٢٣٩٦ و٦٣٦٩ و٦٤٣٢) ومسلم (١٤٥٧ و١٤٥٨) من حديث أبي هريرة: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

وَإِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِي هَذَا الرَّدِ سَدّاً لأَبْـوَابِ الرِّيَـبِ، وَدَفعـاً فِي صَـدْرِ الْحَاسِـدِ لِمَـا سَـمِعَتْهُ أُذُنَايَ مِنْ قَائِلِـهِ الْمُعْتَـدِي عَلَيْهِـمْ، الْقَـادِحِ فِي نَسَـبِهِمْ بِفِرْيَتِـهِ، وَيَنْقُلُـهُ بِزَعْمِـهِ عَـنْ بَعْـضِ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ مِمَّنْ انْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَارْتَابَ فِي الإِيْمَانِ بِسَلَفِهِمْ، وَإِلاَّ فَـالْمَحَلُّ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، مَعْصُوْمٌ مِنْـهُ، وَنَفـيُ الْعَيْـبِ ، ـ حَيْـثُ يَسْـتَحِيْلُ الْعَيْـبُ ـ عَيْـبٌ، **لَكِنِّي جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.**

وَلِتَعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّاعِنِيْنَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمُ الْحَسَدَةُ لأَعْقَابِ إِدْرِيْـسَ هَـذَا، مِـنْ مُنْتَـمٍ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ، أَوْ دَخِيْلٍ فِيْهِمْ؛ فَإِنَّ ادِّعَاءَ هَذَا النَّسَبِ الكَرِيْمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِيْضَةٌ عَلَـى الأُمَمِ وَالأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ الآفَاقِ فَتَعْرِضُ التُّهْمَةُ فِيْهِ، وَلَمَّا كَانَ نَسَـبُ بَنِي إِدْرِيْـسَ هَـؤُلاءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَارسَ[1] وَسَائِرِ دِيَارِ الْمَغْرِبِ قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّـهْرَةِ وَالْوُضُـوْحِ مَبْلَغـاً لا يَكَـادُ يُلْحَقُ، وَلاَ يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي دَرْكِهِ، إِذْ هُوَ نَقْلُ الأُمَّةِ وَالْجِيْلِ مِنَ الْخَلَفِ عَـنِ الأُمَّـةِ وَالْجِيْـلِ مِنَ السَّلَفِ وَبَيْتُ جَدِّهِمْ إِدْرِيْـسَ مُخْتَـطِّ فَـاسَ وَمُؤَسِّـسِهَا مِـنْ بُيُوْتِهِـمْ، وَمَسْـجِدُهُ لِصْـقُ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوْبِهِمْ، وَسَيْفُهُ مُنْتَضىً بِرَأْسِ الْمَأْذَنَةِ الْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِـمْ، وَغَيْرِ ذَلِـكَ مِـنْ آثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا حُدُوْدَ التَّوَاتُرِ مَرَّاتٍ، وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِالْعِيَانِ، فَإِذَا نَظَرَ غَـيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ أَمْثَالِهَا، وَمَا عَضَـدَ شَرَفَهُمْ النَّبَـوِيَّ مِـنْ جَـلاَلِ الْمُلْكِ الَّذِي كَانَ لِسَلَفِهِمْ بِالْمَغْرِبِ، وَاسْـتَيْقَنَ أَنَّـهُ بِمَعْـزِلٍ عَـنْ ذَلِـكَ، وَأَنَّـهُ لاَ يَبْلُـغُ مُـدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيْفَهُ، وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ الْمُنْتَمِيْنَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيْمِ مِمَّـنْ لَـمْ يَحْصُـلْ لَـهُ أَمْثَالُ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُمْ حَالَهُمْ؛ لأَنَّ **النَّاسَ مُصَدَّقُوْنَ فِي أَنْسَابِهِمْ**. وَبَوْنٌ مَا بَيْنَ الْعِلْـمِ وَالظَّنِّ، وَالْيَقِيْنِ وَالتَّسْلِيْمِ، فَإِذَا عَلِـمَ بِذَلِـكَ مِـنْ نَفْسِـهِ غَـصَّ بِرِيْقِـهِ، وَوَدَّ كَثِيْرٌ مِنْهُـمْ لَـوْ يَرُدُّوْنَهُم عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ سُوْقَةً وَوُضَعَاءَ، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، فَـيَرْجِعُوْنَ إِلَـى الْعِنَـادِ وَارْتِكَابِ اللَّجَاجِ وَالْبُهْتِ بِمِثْلِ هَذَا الطَّعْنِ الْفَائِلِ[2] وَالْقَوْلِ الْمَكْذُوْبِ، تَعَلُّلاً بِالْمُسَاوَاةِ فِي الظِّنَّةِ وَالْمُشَابَهَةِ فِي تَطَرُّقِ الاحْتِمَالِ، وَهَيْهَاتِ لَهُمْ ذَلِكَ، فَلَيْسَ فِي الْمَغْرِبِ فِيْمَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْكَرِيْمِ مَنْ يَبْلُغُ فِي صَرَاحَةِ نَسَبِهِ وَوُضُوْحِهِ مَبَالِغَ أَعْقَابِ إِدْرِيْسَ هَـذَا مِـنْ آلِ الْحَسَنِ، وَكُبَرَاؤُهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ بَنُوْ عِمْرَانَ بِفَاسَ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى الْجُوْطِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْـنِ يَحْيَى الْعَوَّامِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيْسَ بْنِ إِدْرِيْـسَ، وَهُـمْ نُقَبَـاءُ [ظ٩/١] أَهْـلِ الْبَيْتِ هُنَـاكَ،

---

١ – في ن: فاس.

٢ – فال رأيه: أخطأ وضعف.

وَالسَّاكِنُوْنَ بِبيتِ جَدِّهِمْ إِدْرِيْسَ، وَلَهُمُ السِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَافَّةً حَسْبَمَا نَذْكُرُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ **الأَدَارِسَة** إِنْ شَاءَ ا للهُ تعَالى.

وَيُلْحَقُ بِهَذِهِ الْمَقَالاَتِ الْفَاسِدَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْفَائِلَةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ ضَعَفَةُ الرَّأْيِ مِن فُقَهَاءِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَدْحِ فِي **الإِمَامِ الْمَهْدِيِّ صَاحِبُ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِيْنَ** وَنسْبَتِهِ إِلَى الشَّعْوَذَةِ وَالتَّلْبِيْسِ فِيْمَا أَتَاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّوْحِيْدِ الْحَقِّ وَالنَّعْيِ عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ قَبْلَهُ، وَتَكْذِيبِهِمْ لِجَمِيْعِ مُدَّعَيَاتِهِ فِي ذَلِكَ، حَتَّى فِيْمَا يَزْعَمُ الْمُوَحِّدُوْنَ اتِّبَاعَهُ مِنَ انْتِسَابِهِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ، وَإِنَّمَا حَمَلَ الْفُقَهَاءَ عَلَى تَكْذِيبِهِ مَا كَمَنَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُنَاهَضَتَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْفُتْيَا وَفِي الدِّين بِزَعْمِهِمْ، ثُمَّ امْتَازَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُ مَتبُوْعُ الرَّأْيِ مَسمُوْعُ الْقَوْلِ مُوَطَّأُ الْعَقِبِ نَفِسُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَغَضُّوا مِنْهُ بِالْقَدْحِ فِي مَذَاهِبِهِ، وَالتَّكْذِيبِ لِمُدَّعَيَاتِهِ.

وَأَيضاً فَكَانُوا يُؤْنِسُوْنَ مِنْ مُلُوْكِ لَمتُوْنَةَ أَعْدَائِهِ تَجِلَّةً وَكَرَامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ السَّذَاجَةِ وَانْتِحَالِ الدِّيَانَةِ، فَكَانَ لِحَمَلَةِ الْعِلْمِ بِدَوْلَتِهِمْ مَكَانٌ مِنَ الْوَجَاهَةِ وَالانْتِصَابِ لِلشُّوْرَى كُلٌّ فِي بَلَدِهِ وَعَلَى قَدرِهِ فِي قَوْمِهِ، فَأَصْبَحُوا بِذَلِكَ شِيْعَةً لَهُمْ وَحَرْباً لِعَدُوِّهِمْ، وَنَقمُوا عَلَى الْمَهْدِيِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلافِهِمْ، وَالتَّثْرِيبِ عَلَيْهِمْ، وَالْمُنَاصَبَةِ لَهُمْ، تَشَيُّعاً لِلَمتُوْنَةَ، وَتَعَصُّباً لِدَوْلَتِهِمْ. وَمَكَانُ الرَّجُلِ غَيْرُ مَكَانِهِمْ، وَحَالُهُمْ عَلَى غَيْرِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ، وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ عَلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ مَا نَقَمَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وَخَالَفَ اجْتِهَادَهُ فُقَهَاؤُهُمْ، فَنَادَى فِي قَوْمِهِ، وَدَعَا إِلَى جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ، فَاقْتَلَعَ الدَّوْلَةَ مِنْ أُصُوْلِهَا، وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةً، وَأَشَدَّ شَوْكَةً، وَأَعَزَّ أَنْصَاراً وَحَامِيَةً، وَتَسَاقَطَتْ فِي ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نُفُوْسٌ لاَ يُحْصِيهَا إِلاَّ خَالِقُهَا، قَدْ بَايَعُوْهُ عَلَى الْمَوْتِ، وَوَقَوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَتَقَرَّبُوا إِلَى ا للهِ تَعَالَى بِإِتْلاَفِ مُهَجِهِمْ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ، وَالتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمِ، وَدَالَتْ بِالْعُدْوَتَيْنِ مِنَ الدُّوَلِ، وَهُوَ بِحَالَةٍ مِنَ التَّقَشُّفِ وَالْحَصَرِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى قَبَضَهُ ا للهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَظِّ وَالْمَتَاعِ فِي دُنْيَاهُ حَتَّى الْوَلَدُ الَّذِي رُبَّمَا تَجْنَحُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ وَتُخَادِعُ عَنْ تَمَنِّيْهِ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي قَصَدَ بِذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ ا للهِ؟! وَهُوَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنَ الدُّنْيَا فِي عَاجِلِهِ، وَمَعَ هَذَا فَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَانْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ ﴿سُنَّةَ ا للهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾[غافر: ٨٥].

وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلاَ تَعْضُدُهُ حُجَّةٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ ادَّعَاهُ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلاَ دَلِيْلٌ يَقُوْمُ عَلَى بُطْلاَنِهِ؛ لأَنَّ **النَّاسَ مُصَدَّقُوْنَ فِي أَنْسَابِهِمْ.**

وَإِنْ قَالُوا: إِنَّ الرِّئَاسَةَ لاَ تَكُوْنُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا هُوَ الصَّحِيْحُ حَسْبَمَا يَأْتِي فِي الْفَصْلِ الأَوَّلِ مِنْ هَذَا الكِتَابِ، وَالرَّجلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ الْمَصَامِدَةِ وَدَانُوا بِاتِّبَاعِهِ وَالانْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِصَابَتِهِ مِنْ هَرْغَةَ حَتَّى تَمَّ أَمرُ اللهِ فِي دَعْوَتِهِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا النَّسَبَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الْمَهْدِيِّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ، وَلاَ اتَّبَعَهُ النَّاسُ بِسَبَبِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ [ظ٩/٢] اتِّبَاعُهُمْ لَهُ بِعَصَبِيَّةِ الْهَرْغِيَّةِ وَالْمَصْمُوْدِيَّةِ، وَمَكَانِهِ مِنْهَا، وَرُسُوْخِ شَجَرَتِهِ فِيْهَا، وَكَانَ ذَلِكَ النَّسَبُ الْفَاطِمِيُّ خَفِيّاً قَدْ دُرِسَ عِنْدَ النَّاسِ، وَبَقِيَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشِيْرَتِهِ، يَتَنَاقَلُوْنَهُ بَيْنَهُمْ، فَيَكُوْنُ النَّسَبُ الأَوَّلُ كَأَنَّهُ انْسَلَخَ مِنْهُ وَلَبِسَ جِلْدَةَ هَؤُلاءِ وَظَهَرَ فِيْهَا، فَلاَ يَضُرُّهُ الانْتِسَابُ الأَوَّلُ فِي عَصَبِيَّتِهِ، إِذْ هُوَ مَجْهُوْلٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِصَابَةِ، وَمِثْلُ هَذَا وَاقِعٌ كَثِيْراً إِذَا كَانَ النَّسَبُ الأَوَّلُ خَفِيّاً.

وَانْظُرْ قِصَّةَ **عَرْفَجَةَ وَجَرِيْرٍ** فِي رِئَاسَةِ بَجِيْلَةَ وَكَيْفَ كَانَ عَرْفَجَةُ مِنَ الأَزْدِ، وَلَبِسَ جِلْدَةَ بَجِيلَةَ حَتَّى تَنَازَعَ مَعَ جَرِيْرٍ رِئَاسَتَهُمْ عِندَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَمَا هُوَ مَذْكُوْرٌ، تَتَفَهَّمُ مِنهُ وَجْهَ الْحَقِّ، وَاللهُ الْهَادِي لِلصَّوَابِ.

وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ الْكِتَابِ بِالإِطْنَابِ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْمَغَالِطِ، فَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيْرٍ مِنَ الأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّخِيْنَ الْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ وَالآرَاءِ، وَعَلِقَتْ أَفْكَارُهُمْ، وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ الْكَافَّةُ مِنْ ضَعَفَةِ النَّظَرِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الْقِيَاسِ، وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيضاً كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلاَ رَوِيَّةٍ، وَانْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوْظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ **فَنُّ التَّارِيْخِ** وَاهِياً **مُخْتَلِطاً**، وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكاً، وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي الْعَامَّةِ فَلِذَا **يَحْتَاجُ صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ إِلَى الْعِلْمِ** بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ الْمَوْجُوْدَاتِ وَاخْتِلاَفِ الأُمَمِ وَالْبِقَاعِ وَالأَعْصَارِ فِي السِّيَرِ وَالأَخْلاَقِ وَالْعَوَائِدِ وَالنِّحَلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ الأَحْوَالِ وَالإِحَاطَةِ بِالْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَائِبِ مِنَ الْوِفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخِلاَفِ، وَتَعْلِيْلِ الْمُتَّفِقِ مِنهَا وَالْمُخْتَلِفِ، وَالْقِيَامِ عَلَى أُصُوْلِ الدُّوَلِ وَالْمِلَلِ، وَمَبَادِىءِ ظُهُورِهَا، وَأَسْبَابِ حُدُوْثِهَا، وَدَوَاعِي كَوْنِهَا، وَأَحْوَالِ الْقَائِمِيْنَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُوْنَ مُسْتَوْعِباً لأَسْبَابِ كُلِّ حَادِثٍ، وَاقِفاً على أُصولِ كلِّ خبَرٍ[1]؛ وَحِيْنَئِذٍ **يَعْرِضُ خَبَرَ الْمَنْقُوْلِ عَلَى مَا عِندَهُ مِنَ**

١ - في ن: مستوعباً لأسباب كل خبره.

الْقَوَاعِدِ وَالأُصُوْلِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيْحاً وَإِلاَّ زَيَّفَهُ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ.

مَا اسْتَكْبَرَ الْقُدَمَاءُ عِلْمَ التَّارِيْخِ إِلاَّ لِذَلِكَ حَتَّى انْتَحَلَهُ **الْطَّبَرِيُّ وَالْبُخَارِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ**، وَقَدْ ذَهَلَ الْكَثِيْرُ عَنْ هَذَا السِّرِّ فِيْهِ حَتَّى صَارَ انْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً، وَاسْتَخَفَّ الْعَوَامُّ وَمَنْ لاَ رُسُوْخَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَالْخَوْضَ فِيْهِ وَالتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ؛ فَاخْتَلَطَ الْمَرعِيُّ بِالْهَمَلِ، وَاللُّبَابُ بِالْقِشْرِ، وَالصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ ﴿وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[لقمان: ٢٢].

وَمِنَ **الْغَلَطِ الْخَفِيِّ فِي التَّارِيْخِ** الذُّهُوْلُ عَنْ تَبَدُّلِ الأَحْوَالِ فِي الأُمَمِ وَالأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ الأَعْصَارِ وَمُرُوْرِ الأَيَّامِ، وَهُوَ دَاءٌ دَوِي شَدِيْدُ الْخَفَاءِ، إِذْ لاَ يَقَعُ إِلاَّ بَعْدَ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ، فَلاَ يَكَادُ يَتَفَطَّنُ لَهُ إِلاَّ الآحَادُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيْقَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَالأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنِحَلَهُمْ لاَ تَدُوْمُ عَلَى وَتِيْرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَاجٍ مُسْتَقِرٍّ، إِنَّمَا هُوَ اخْتِلاَفٌ عَلَى الأَيَّامِ وَالأَزْمِنَةِ، وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

وَكَمَا يَكُوْنُ ذَلِكَ فِي الأَشْخَاصِ وَالأَوْقَاتِ وَالأَمْصَارِ، فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الآفَاقِ وَالأَقْطَارِ وَالأَزْمِنَةِ وَالدُّوَلِ ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾[غافر: ٨٥] وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ **أُمَمُ الْفُرْسِ** [ظ ١٠/١] **الأُوْلَى وَالسِّرْيَانِيُّوْنَ وَالنَّبَطُ وَالتَّبَابِعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيْلَ وَالْقِبْطُ،** وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُوَلِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَاصْطِلاَحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ، وَأَحْوَالُ اعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ؛ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ **الْفُرْسُ الثَّانِيَةُ وَالرُّوْمُ وَالْعَرَبُ،** فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الأَحْوَالُ، وَانْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا، وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا؛ ثُمَّ جَاءَ **الإِسْلاَمُ بِدَوْلَةِ مُضَرَ** فَانْقَلَبَتْ تِلْكَ الأَحْوَالُ أَجْمَعُ انْقِلاَبَةً أُخْرَى، وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارَفٌ لِهَذَا الْعَهْدِ، يَأْخُذُهُ الْخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ؛ ثُمَّ دُرِسَتْ **دَوْلَةُ الْعَرَبِ** وَأَيَّامُهُمْ، وَذَهَبَتِ الأَسْلاَفُ الَّذِيْنَ شَيَّدُوا عِزَّهُمْ، وَمَهَّدُوا مُلْكَهُمْ، وَصَارَ الأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلِ **الْتُّرْكِ** بِالْمَشْرِقِ **وَالْبَرْبَرِ** بِالْمَغْرِبِ **وَالْفِرَنْجَةِ** بِالشَّمَالِ، فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَمٌ، وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالٌ وَعَوَائِدُ نُسِيَ شَأْنُهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا.

وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيْلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ، كَمَا يُقَالُ فِي الأَمْثَالِ الْحِكَمِيَّةِ: النَّاسُ عَلَى دِيْنِ الْمَلِكِ. وَأَهْلُ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا

اسْتَوْلَوا عَلَى الْدَّوْلَةِ وَالأَمْرِ فَلاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُوْنَ الْكَثِيْرَ مِنْهَا، وَلاَ يُغْفِلُوْنَ عَوَائِدَ جِيْلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ، فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ الْدَّوْلَةِ بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجِيْلِ الأَوَّلِ، فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيضاً بَعْضَ الْشَّيءِ، وَكَانَتْ لِلأُوْلَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً ثُمَّ لا يَزَالُ الْتَّدْرِيْجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى الْمُبَايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ، فَمَا دَامَتِ الأُمَمُ وَالأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالْسُّلْطَانِ لاَ تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ وَالأَحْوَالِ وَاقِعَةً، **وَالقِيَاسُ وَالْمُحَاكَاةُ لِلإِنسَانِ طَبِيْعَةٌ مَعْرُوْفَةٌ** وَمِنَ الْغَلَطِ غَيْرُ مَأْمُوْنَةٍ، تُخْرِجُهُ مَعَ الْذُّهُوْلِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ قَصْدِهِ وَتَعْوَجُّ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ فَلَرُبَّمَا يَسْمَعُ الْسَّامِعُ كَثِيْراً مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِيْنَ وَلاَ يَتَفَطَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغَيُّرِ الأَحْوَالِ وَانْقِلاَبِهَا، فَيُجْرِيْهَا لأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ، وَيَقِيْسُهَا بِمَا شَهِدَ، وَقَدْ يَكُوْنُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيْراً فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْغَلَطِ.

فَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَنْقُلُهُ **الْمُؤَرِّخُوْنَ** مِنْ **أَحْوَالِ الْحَجَّاجِ** وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْمُعَلِّمِيْنَ، مَعَ أَنَّ **الْتَّعْلِيْمَ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الْصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَّةِ الْبَعِيْدَةِ مِنْ اعْتِزَازِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ** وَالْمُعَلِّمُ مُسْتَضْعَفٌ مِسْكِيْنٌ مُنْقَطِعُ الْجِذْمِ[1]، فَيَتَشَوَّفُ الْكَثِيْرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ أَهْلِ الْحِرَفِ وَالْصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَّةِ إِلَى نَيْلِ لِرُتَبٍ لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ، وَيَعُدُّوْنَهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوِسُ الْمَطَامِعِ، وَرُبَّمَا انْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيْهِمْ، فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ الْهَلَكَةِ وَالْتَّلَفِ، **وَلاَ يَعْلَمُوْنَ اسْتِحَالَتَهَا فِي حَقِّهِمْ**، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ حِرَفٍ وَصَنَائِعَ لِلْمَعَاشِ، وَأَنَّ **الْتَّعْلِيْمَ صَدْرَ الإِسْلاَمِ وَالْدَّوْلَتَيْنِ**، لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً، إِنَّمَا كَانَ نَقْلاً لِمَا سُمِعَ مَعَ[2] الْشَّارِعِ، وَتَعْلِيْماً لِمَا جُهِلَ مِنَ الْدِّيْنِ عَلَى جِهَةِ الْبَلاَغِ، فَكَانَ أَهْلُ الأَنْسَابِ وَالْعَصَبِيَّةِ الَّذِيْنَ قَامُوا بِالمِلَّةِ هُمُ الَّذِيْنَ يُعَلِّمُوْنَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صلى الله تعالى عليه [ظ ٢/١٠] وسلم عَلَى مَعْنَى الْتَّبْلِيْغِ الْخَبَرِيِّ، لاَ عَلَى وَجْهِ الْتَّعْلِيْمِ الْصِّنَاعِيِّ[3]، إِذْ هُوَ كِتَابُهُمُ الْمُنَزَّلُ عَلَى الْرَّسُوْلِ مِنْهُمْ، وَبِهِ هِدَايَاتُهُمْ، وَالإِسْلاَمُ دِيْنُهُمْ قَاتَلُوا عَلَيْهِ وَقُتِلُوا وَاخْتَصُّوا بِهِ مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ وَشَرُفُوا، فَيَحْرِصُوْنَ عَلَى تَبْلِيْغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيْمِهِ لِلأُمَّةِ لاَ تَصُدُّهُمْ عَنْهُ لاَئِمَةُ الْكِبْرِ، وَلاَ يَزَعُهُمْ عَاذِلُ الأَنَفَةِ، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ إِرْسَالُ الْنَّبِيِّ ﷺ كِبَارَ

---

١ - الجذم: الأصل.

٢ - في ن: من الشارع.

٣ - أي التعليم المتخذ حرفة لكسب العيش.

أَصْحَابِهِ مَعَ وُفُوْدِ الْعَرَبِ، يُعَلِّمُوْنَهُمْ حُدُوْدَ الإِسْلاَمِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الْدِّيْنِ، بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْعَشَرَةَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَمَا[1] اسْتَقَرَّ الإِسْلاَمُ، وَوَشَجَتْ عُرُوْقُ الْمِلَّةِ، حَتَّى تَنَاوَلَهَا الأُمَمُ الْبَعِيْدَةُ مِنَ أَيْدِي أَهْلِهَا، وَاسْتَحَالَتْ بِمُرُوْرِ الأَيَّامِ أَحْوالُهَا، وَكَثُرَ اسْتِنْبَاطُ الأَحْكَامِ الْشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوْصِ لِتَعَدُّدِ الْوَقَائِعِ وَتَلاَحُقِهَا، فَاحْتَاجَ ذَلِكَ لِقَانُوْنٍ يَحْفَظُهُ مِنَ الْخَطَإِ، وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً يَحْتَاجُ إِلَى التَّعَلُّمِ، فَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الْصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ، كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَصْلِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ.

وَاشْتَغَلَ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ بِالقِيَامِ بِالْمُلْكِ وَالْسُّلْطَانِ فَدُفِعَ لِلعِلْمِ مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ، وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ، وَشَمَخَتْ أُنُوفُ الْمُتْرَفِيْنَ وَأَهْلِ الْسُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدِّي لِلتَّعْلِيْمِ وَاخْتَصَّ انْتِحَالُهُ بِالْمُسْتَضْعَفِيْنَ وَصَارَ مُنْتَحِلُهُ مُحْتَقَراً عِنْدَ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْمُلْكِ.

وَالْحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ كَانَ أَبُوْهُ مِنْ سَادَاتِ ثَقِيْفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَمَكَانُهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاهَضَةِ قُرَيْشٍ فِي الْشَّرَفِ مَا عَلِمْتَ، وَلَمْ يَكُنْ تَعْلِيْمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ الأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ لِلْمَعَاشِ، وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ الأَمْرِ الأَوَّلِ فِي الإِسْلاَمِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيضاً مَا يَتَوَهَّمُهُ الْمُتَصَفِّحُوْنَ لِكُتُبِ التَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا **أَحْوَالَ الْقُضَاةِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْرِّئَاسَةِ** فِي الْحُرُوْبِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ فَتَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ الْهِمَمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الْرُّتَبِ، يَحْسَبُوْنَ أَنَّ الْشَّأْنَ فِي خِطَّةِ الْقَضَاءِ[2] لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَيَظُنُّوْنَ **بِابْنِ أَبِي عَامِرٍ** صَاحِبِ هِشَامِ الْمُسْتَبِدِّ عَلَيْهِ **وَابْنِ عَبَّادٍ** مِنْ مُلُوْكِ الطَّوَائِفِ بِإِشْبِيْلِيَّةَ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا قُضَاةً أَنَّهُمْ مِثْلُ الْقُضَاةِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَلاَ يَتَفَطَّنُوْنَ لِمَا وَقَعَ فِي رُتْبَةِ الْقَضَاءِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ، كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مِنَ الْكِتَابِ الأَوَّلِ.

وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنُ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَائِمِيْنَ بِالْدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ بِالأَنْدَلُسِ وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا، وَكَانَ مَكَانُهُمْ فِيْهَا مَعْلُوْماً، وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لِمَا نَالُوْهُ مِنَ الْرِّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ بِخِطَّةِ الْقَضَاءِ كَمَا هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ، بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَضَاءُ فِي الأَمْرِ الْقَدِيْمِ لأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ الْدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ **الْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِالْمَغْرِبِ** وَانْظُرْ خُرُوْجَهُمْ بِالْعَسَاكِرِ فِي

---

١ - في ن: فلما.

٢ - أي وظيفة القضاء، أو أمره. لأن الخطة في اللغة الأمر.

الْطَّوائفِ[١] وَتَقْلِيْدَهُمْ عَظَائِمَ الأُمُوْرِ الَّتي لاَ تُقَلَّدُ إلاَّ لِمَنْ لَهُ الْغِنَى فِيْهَـا بِالْعَصَبِيَّـةِ، فَيَغْلَـطُ الْسَّامِعُ في ذَلِكَ، وَيَحْمِلُ الأَحْوَالَ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ.

وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ في هَذَا الْغَلَطِ ضُعَفَاءُ الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ لِفُقْدَانِ الْعَصَبِيَّةِ في مَوَاطِنِهِمْ مُنْذُ أَعْصَارٍ بَعِيْدَةٍ بِفَنَاءِ[٢] الْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا، وَخُرُوْجِهِمْ عَنْ مَلَكَـةِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ[٣] مِنَ الْبَرْبَرِ فَبَقِيَتْ أَنْسَابُهُمْ [ظ١١/١] الْعَرَبِيَّـةُ مَحْفُوْظَـةً، وَالْذَّرِيْعَةُ إِلى الْعِزِّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَالْتَّنَاصُرِ مَفْقُوْدَةً، بَلْ صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ الْرَّعَايَا الْمُتَخَاذِلِيْنَ الَّذِيْـنَ تَعَبَّدَهُـمُ الْقَهْرُ، وَرَئِمُوا[٤] الْمَذَلَّةَ، يَحْسَبُوْنَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَطَةِ الْدَّوْلَةِ هِيَ الَّتِي يَكُوْنُ لَهُـمْ بِهَـا الْغَلَبُ وَالْتَّحَكُّمُ، فَتَجِدُ أَهْلَ الْحِرَفِ وَالْصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصَدِّيْنَ لِذَلِكَ سَاعِيْنَ في نَيْلِهِ، فَأَمَّـا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَدُوَلَهُم بِالْعُدْوَةِ الْغَرْبِيَّةِ وَكَيْفَ يَكُوْنُ الْتَّغَلُّبُ بَيْنَ الأُمَمِ وَالْعَشَائِرِ، فَقَلَّمَا يَغْلَطُوْنَ في ذَلِكَ وَيُخْطِؤُوْنَ في اعْتِبَارِهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيضاً: مَا يَسْلُكُهُ الْمُؤَرِّخُوْنَ عِنْدَ ذِكْرِ الْدُّوَلِ وَنَسَقِ مُلُوْكِهَا فَيَذْكُـرُوْنَ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ وَأَبَاهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَلَقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَاضِيَهُ وَحَاجِبَـهُ وَوَزِيـرَهُ كُـلُّ ذَلِـكَ تَقْلِيْـدٌ لِمُؤَرِّخِي الْدَّوْلَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَفَطُّنٍ لِمَقَاصِدِهِمْ.

وَالْمُؤَرِّخُوْنَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ كَانُوا يَضَعُوْنَ تَوَارِيْخَهُمْ لأَهْلِ الْدَّوْلَةِ، وَأَبْنَاؤُهَا مُتَشَوِّفُوْنَ إِلَى سِيَرِ أَسْلاَفِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ، لِيَقْتَفُوا آثَارَهُمْ، وَيَنْسِجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ حَتَّـى في اصْطِنَـاعِ الْرِّجَالِ مِنْ خَلَفِ دَوْلَتِهِمْ، وَتَقْلِيْدِ الْخِطَطِ[٥] وَالْمَرَاتِبِ لأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ وَذَوِيْهِمْ، وَالْقُضَـاةُ أَيضاً كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ الْدَّوْلَةِ وَفي عِدَادِ الْوُزَرَاءِ - كَمَا ذَكَرْنَاهُ لَكَ - فَيَحْتَـاجُوْنَ إِلَـى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ.

---

١ - لعلها محرفة عن الصوائف أي: الغزوات التي تتم في الصيف.

٢ - في ن: لفناء.

٣ - قال الأستاذ أبو الوفا: العصبية بفتحتين: التعصب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويجد في نصره. منسوبة إلى العصبية محركة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم الذابون عن حريمم من هو منتهاهم وهي بهذا المعنى ممدوحة. وأما العصبية المذمومة في الحديث في الجامع الصغير: ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبيته. فهي تعصب رجال القبيلة على رجال القبيلة الأخرى لغير ديانة نسبة إلى العصبة بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير أقاربه ظالماً كان أو مظلوماً.

وفي الفتاوى الخيرية: من موانع قبول الشهادة: العصبية وهي أن يبغض الرجل الرجل لأنه من بني فلان أو من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث "ليس منا من دعا إلى عصبية". وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه. هامش طبعة الهوريني

٤ - رئم المذلة: أحبها وألف.

٥ - أي المناصب والوظائف.

وَأَمَّا حِيْنَ تَبَايَنَتْ الْدُّوَلُ، وَتَباعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصُوْرِ، وَوَقَفَ الْغَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوْكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً، وَنسبِ الْدُّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فِي قُوَّتِهَا وَغَلَبَتِهَا، وَمَنْ كَانَ يُنَاهِضُهَا مِنَ الأُمَمِ، أَوْ يُقَصِّرُ عَنْهَا، فَمَا الْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي هَذَا الْعَهْدِ فِي ذِكْرِ الأَبْنَاءِ وَالْنِّسَاءِ وَنَقْشِ الْخَاتِمِ وَاللَّقَبِ وَالْقَاضِي وَالْوَزِيْرِ وَالْحَاجبِ مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيْمَةٍ لاَ يَعْرِفُ فِيْهَا أُصُوْلَهُمْ وَلاَ أَنْسَابَهُمْ وَلاَ مَقَامَاتِهِمْ؟! إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْتَّقْلِيْدُ وَالْغَفْلَةُ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِيْنَ الأَقْدَمِيْنَ، وَالْذُّهُوْلُ عَنْ تَحَرِّي الأَغْرَاضِ مِنَ الْتَّارِيْخِ. اللَّهُمَّ إِلاَّ ذِكْرَ الْوُزَرَاءِ الَّذِيْنَ عَظُمَتْ آثَارُهُمْ، وَعَفَتْ عَنِ الْمُلُوكِ أَخْبَارُهُمْ **كَالْحَجَّاجِ وَبَنِي الْمُهَلَّبِ وَالْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوْبَخْتَ وَكَافُوْرِ الأَخْشِيْدِيِّ وَابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ**، فَغَيْرُ نَكِيْرٍ الإِلْمَاعُ بِآبَائِهِمْ، وَالإِشَارَةُ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لاِنْتِظَامِهِمْ فِي عِدَادِ الْمُلُوْكِ.

وَلْنَذْكُرْ **هُنَا فَائِدَةً** نَخْتِمُ كَلاَمَنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ بِهَا، وَهِيَ أَنَّ **الْتَّارِيْخَ** إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بِعَصْرٍ أَوْ جِيْلٍ، فَأَمَّا ذِكْرُ الأَحْوَالِ الْعَامَّةِ لِلآفَاقِ وَالأَجْيَالِ وَالأَعْصَارِ فَهُوَ **أُسٌّ لِلْمُؤَرِّخِ**، تَنْبَنِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ، وَتَتَبَيَّنُ بِهِ أَخْبَارُهُ، وَقَدْ كَانَ الْنَّاسُ يُفْرِدُوْنَهُ بِالتَّأْلِيْفِ كَمَا فَعَلَهُ **الْمَسْعُوْدِيُّ فِي كِتَابِ مُرُوْجِ الْذَّهَبِ** شَرَحَ فِيْهِ أَحْوَالَ الأُمَمِ وَالآفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ الْثَّلاَثِيْنَ وَالثَّلاثِ مِئَةٍ غَرْباً وَشَرْقاً، وَذَكَرَ نِحَلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ، وَوَصَفَ الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ وَالْبِحَارَ وَالْمَمَالِكَ وَالْدُّوَلَ وَفِرَقَ شُعُوْبِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَصَارَ إِمَاماً لِلْمُؤَرِّخِيْنَ يَرْجِعُوْنَ إِلَيْهِ، وَأَصْلاً يُعَوِّلُوْنَ فِي تَحْقِيْقِ الْكَثِيْرِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَاءَ **الْبَكْرِيُّ** مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي **الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ** خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الأَحْوَالِ لأَنَّ الأُمَمَ وَالأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ يَقَعْ فِيْهَا [ظ١١/٢] كَبِيْرُ[1] انْتِقَالٍ، وَلاَ عَظِيْمُ تَغَيُّرٍ.

وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ **آخِرُ الْمِئَةِ الثَّامِنَةِ** فَقَدِ انْقَلَبَتْ أَحْوَالُ الْمَغْرِبِ ـ الَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوْهُ ـ وَتَبَدَّلَتْ بِالْجُمْلَةِ، وَاعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ الْبَرْبَرِ أَهْلُهُ عَلَى الْقِدَمِ بِمَا طَرَأَ فِيْهِ مِنْ **لَدُنِّ الْمِئَةِ الْخَامِسَةِ** مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوْهُم وَغَلَبوْهُمْ، وَانْتَزَعُوا مِنْهُمْ عَامَّةَ الأَوْطَانِ، وَشَارَكُوْهُمْ فِيْمَا بَقِيَ مِنَ الْبُلْدَانِ لِمِلْكِهِمْ هَذَا، إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمْرَانِ شَرْقاً وَغَرْباً فِي مُنْتَصَفِ هَذِهِ **الْمِئَةِ الثَّامِنَةِ** مِنَ الطَّاعُوْنِ الْجَارِفِ الَّذِي تَحَيَّفَ الأُمَمَ، وَذَهَبَ بِأَهْلِ الْجِيْلِ، وَطَوَى كَثِيْراً مِنْ مَحَاسِنِ الْعُمْرَانِ وَمَحَاهَا، وَجَاءَ لِلْدُّوَلِ عَلَى حِيْنِ هَرَمِهَا وَبُلُوْغِ الْغَايَةِ مِنْ مَدَاهَا، فَقَلَّصَ مِنْ ظِلاَلِهَا، وَفَلَّ مِنْ حَدِّهَا، وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا، وَتَدَاعَتْ إِلَى

---

١ – في ن: كثير.

التَّلَاشِي وَالاضمحْلَال أَمْوَالُهَا، وَانْتَقَضَ عُمْرَانُ الأَرْضِ بِانْتقَاضِ الْبَشَر، فَخَربَت الأَمْصَارُ وَالْمَصَانعُ، وَدُرِسَت السُّبُلُ وَالْمَعَالمُ، وَخلَت الدِّيَارُ وَالْمَنَازلُ، وَضَعُفَت الدُّوَلُ وَالْقَبَائلُ، وَتَبدَّلَ السَّاكنُ، **وَكَأَنِّي بِالْمَشْرق قَدْ نَزَلَ بِه مثْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرب**، لَكنْ عَلَى نسْبَته وَمقْدَار عُمْرَانه، وَكَأَنَّمَا نَادَى لسَانُ الْكَوْن في الْعَالَم بِالْخُمُوْل وَالانْقبَاض فَبَادَرَ بِالإِجَابَة، وَاللهُ وَارثُ الأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَإِذَا تَبَدَّلت الأَحْوَالُ جُمْلَةً، فَكَأَنَّمَا تَبدَّلَ الْخَلْقُ منْ أَصْله، وَتَحوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْره، وَكَأَنَّهُ خَلْقٌ جَديْدٌ، وَنَشْأَةٌ مُسْتَأنَفَةٌ، وَعَالَمٌ مُحْدَثٌ، فَاحْتَاج لهَذَا الْعَهْد مَنْ يُدَوِّنُ أَحْوَالَ الْخليْقَة وَالآفَاق وَأَجْيالها، والْعَوائد وَالنِّحَل الَّتي تبدلتْ لأَهْلهَا، **وَيَقْفُو مَسْلَكَ الْمَسْعُوْديِّ لعَصْره** ليَكُوْنَ أَصْلاً يَقْتَدي به مَنْ يَأْتي منَ الْمُؤَرِّخيْنَ منْ بَعْده.

وَأَنَا ذَاكرٌ في كتَابي هَذَا مَا أَمْكَنَني منْهُ في هَذَا الْقُطْر الْمَغْربيّ إمَّا صَريحاً أَوْ مُنْدرجاً في أَخْبَاره، وَتَلْويحاً لاخْتصَاص قَصْدي في التَّأْليْف بِالْمغْرب وَأَحْوَال أَجْيَاله وَأُمَمه، وَذكْر مَمَالكه وَدُوَله، دُوْنَ مَا سوَاهُ منَ الأَقْطَار لعَدَم اطِّلاَعي عَلَى أَحْوَال الْمَشْرق وَأُمَمه، وَأَنَّ الأَخْبَار الْمُتَنَاقَلَةَ لا تَفي كُنْهَ مَا أُريْدُهُ منْهُ. **وَالْمَسْعُوْديُّ** إنَّمَا اسْتَوْفَى ذَلكَ لبُعْد رحْلَته وَتَقَلُّبه في الْبلاَد كَمَا ذَكَرَ في كتَابه، مَعَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْربَ قَصَّرَ في اسْتيْفَاء أَحْوَاله ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذي علْمٍ عَليْمٌ﴾[يوسف: ٧٦] وَمَرَدُّ الْعلْم كُلّه إلَى الله، وَالْبَشَرُ عَاجزٌ قَاصرٌ، وَالاعْترَافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجبٌ، وَمَنْ كَانَ اللهُ في عَوْنه تَيَسَّرَتْ عَلَيْه الْمَذَاهبُ وَأُنْجحَتْ لَهُ الْمَسَاعي وَالْمَطَالبُ، وَنَحْنُ آخذُوْنَ بعَوْن الله فيْمَا رُمْنَاهُ منْ أَغْرَاض التَّأْليْف، وَاللهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعيْنُ، وَعَلَيْه التُّكْلاَنُ.

وَقَدْ بَقيَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً في **كَيْفيَّة وَضْع الْحُرُوْف الَّتي لَيْسَتْ منْ لُغَات الْعَرَب** إذَا عَرَضَتْ في كتَابنَا هَذَا.

اعْلَمْ أَنَّ الْحُرُوْفَ في النُّطق ــ كَمَا يَأْتي شَرْحُهُ بَعْدُ ــ هيَ كَيْفيَّاتُ الأَصْوَات الْخَارجَة منَ الْحَنْجرَة، تَعرضُ منْ تَقْطيْع الصَّوْت بقَرْع اللَّهَاة وَأَطْرَاف اللِّسَان مَعَ الْحَنَك وَالْحلْق وَالأَضْرَاس أَوْ بقَرْع الشَّفَتَيْن أَيضاً، فَتَتَغَايَرُ كَيْفيَّاتُ الأَصْوَات بتَغاير ذَلكَ الْقَرْع، وَتَجيءُ الْحُرُوْفُ مُتَمايزَةً في السَّمْع، وَتَتركَّبُ منْهَا الْكلمَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى مَافي الضَّمَائر، وَلَيْستْ الأُمَمُ كُلُّهَا مُتَسَاويَةً في النُّطق [ظ٢/١٢] بتلْكَ الْحُرُوْف، فَقَدْ يَكُوْنُ لأُمَّة منَ الْحُرُوْف مَا لَيْس لأُمَّة أُخْرَى.

وَالْحُرُوْفُ الَّتي نَطَقَتْ بهَا الْعَرَبُ هيَ ثَمَانيَةٌ وَعشْرُوْنَ حَرْفاً كَمَا عَرَفْتَ؛ وَنَجدُ **للْعبْرَانيِّيْنَ حُرُوْفاً** لَيْسَتْ في لُغَتنَا، وَفي لُغَتنَا أَيضاً حُرُوْفٌ لَيْستْ في لُغَتهمْ، وَكَذَلكَ **الإفْرَنْجُ وَالتُّرْكُ وَالْبَرْبَرُ** وَغَيْرُ هَؤُلاءِ منَ الْعَجَم.

ثُمَّ إنَّ **أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ** اصْطَلَحُوا فِي الدِّلاَلَةِ عَلَى حُرُوْفِهِمْ الْمَسْمُوْعَةِ بِأَوْضَاعِ حُرُوْفٍ مَكْتُوْبَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا كَوَضْعِ أَلِفٍ وَبَاءٍ وَجِيْمٍ وَرَاءٍ وَطَاءٍ إِلَى آخِرِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِيْنَ، وَإِذَا عَرَضَ لَهُمُ الْحَرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوْفِ لُغَتِهِمْ بَقِيَ مُهْمَلاً عَنِ الدِّلاَلَةِ الْكِتَابِيَّةِ، مُغْفَلاً عَنِ الْبَيَانِ، وَرُبَّمَا يَرْسُمُهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ بِشَكْلِ الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَنِفُهُ مِنْ لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ وَلَيْسَ بِكَافٍ فِي الدِّلاَلَةِ، بَلْ هُوَ تَغْيِيرٌ لِلْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ[1].

وَلَمَّا كَانَ كِتَابُنَا مُشْتَمِلاً عَلَى **أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَبَعْضِ الْعَجَمِ** وَكَانَتْ تَعْرِضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوْفٌ لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ كِتَابَتِنَا وَلاَ اصْطِلاَحِ[2] أَوْضَاعِنَا، اضْطُرِرْنَا إِلَى بَيَانِهِ، وَلَمْ نَكْتَفِ بِرَسْمِ الْحَرْفِ الَّذِي يَلِيْهِ كَمَا قُلْنَاهُ، لأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِالدِّلاَلَةِ عَلَيْهِ، **فَاصْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا عَلَى** أَنْ أَضَعَ ذَلِكَ الْحَرْفَ الْعَجَمِيَّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتَنِفَانِهِ، لِيَتَوَسَّطَ الْقَارِىءُ بِالنُّطْقِ بِهِ بَيْنَ مَخْرَجَي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ، فَتَحْصُلُ تَأْدِيَتُهُ، وَإِنَّمَا **اقْتَبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ** رَسْمِ أَهْلِ الْمُصْحَفِ حُرُوْفَ الإِشْمَامِ كَـ﴿ـالصِّرَاطِ﴾ فِي قِرَاءَةِ خَلَفٍ، فَإِنَّ النُّطْقَ بِصَادِهِ فِيْهَا مُعْجَمٌ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الصَّادِ وَالزَّايِ، فَوَضَعُوا الصَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّايِ، وَدَلَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ، فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوْفِنَا كَالْكَافِ **الْمُتَوَسِّطَةِ عِنْدَ** الْبَرْبَرِ بَيْنَ الْكَافِ الصَّرِيْحَةِ عِنْدَنَا وَالْجِيْمِ أَوِ الْقَافِ مِثْلَ اسْمِ بُلُكِّيْنَ فَأَضَعُهَا كَافاً وَأُنَقِّطُهَا بِنُقْطَةِ الْجِيْمِ وَاحِدَةً مِنْ أَسْفَلَ أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقُ، أَوِ اثْنَتَيْنِ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْكَافِ وَالْجِيْمِ أَوِ الْقَافِ، وَهَذَا الْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ الْبَرْبَرِ، وَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِهِ فَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ.

أَضَعُ الْحَرْفَ الْمُتَوَسِّطَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُغَتِنَا بِالْحَرْفَيْنِ مَعاً لِيَعْلَمَ الْقَارِىءُ أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطِقُ بِهِ كَذَلِكَ، فَنَكُوْنُ قَدْ دَلَلْنَا عَلَيْهِ، وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرَسْمِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ عَنْ جَانِبَيْهِ[3] لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ مَخْرَجِهِ إِلَى مَخْرَجِ الْحَرْفِ الَّذِي مِنْ لُغَتِنَا، وَغَيَّرْنَا لُغَةَ الْقَوْمِ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ. وَاللهُ الْمُوَفِّقُ [ظ١٢/١] لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

---

١ - الذي يذهب إليه المؤلف هو العناية بالنطق المطلوب في بيئة معينة.. وإلا فإن طبيعة البيان الذي يشمل النطق باللسان والسنان يرجع في أصله إلى منبع واحد يكتنف ألسنة الخلق جميعا، وتتبدل نتيجته الحركات تبعا للبيئة التي انطلق منها واعتمدها، وهي لا تخلو من مرجع واحد نطق به الناس في أصقاع العالم.. فعندما يلفظ الصينيون حرف الضاد يصبح دالا، وحين يلفظه اليابانيون يصبح تاء حيث يعود ذلك للبيئة وقدرة اللسان على التعامل مع ذاك الحرف، وأضرب مثلا: لكلمة (عنب) في العربية انتقلت إلى الصين واليابان ككلمة أخرى إلا أنها تحمل نفس المضمون، وإن تبدلت طبيعة المقول، فهم يصفون العنب، فيقولون: (بيوت) و(بيود) تحريفا لكلمة (بيوض).. لعدم قدرة اللسان على نطق الضاد.. ولكنهم أخذوا وصف العنب من القاموس العربي، لأنه يشبه البيوض الصغيرة...

٢ - الاصطلاح: التواضع والاتفاق المتعارف عليه بين مجموعة من الناس.

٣ - في ن: جانبه.

ب – الكتاب الأول
طبيعة العمران

- ❑حقيقة التاريخ
- ❑أسباب الكذب في الأخبار:
  - الجهل بطبائع العمران.
  - التشيع للآراء والمذاهب.
  - الثقة بالناقلين.
  - الذهول عن مقاصد الأخبار.
  - توهم الصدق.
  - الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع.
  - التقرب لأصحاب التجلة والمراتب.
- ❑قبول الأخبار المستحيلة؛ وكيفية ردها وتمحيصها.
- ❑ متى يستخدم علم الجرح والتعديل؟
- ❑ قانون تمييز الأخبار.
- ❑ الغرض من تأليف الكتاب.
- ❑ اكتشاف المؤلف أنه علم جديد لم يسبق إليه.
- ❑ اختلاف علم طبائع العمران عن علم الخطابة وعلم السياسة المدنية.
- ❑ ما وصلنا من علوم الأمم، والعناية بترجمة علوم اليونان.
- ❑ وجود مسائل من هذا العلم ضمن مسائل العلوم المتنوعة.
- ❑ التعريف بكتاب السياسة لأرسطو، وسراج الملوك للطرطوشي. واختلاف المضمون عن هذا الكتاب.
- ❑ حثه على إصلاح مايقع فيه من نقص أو خلل.
- ❑ أغراض الكتاب.

- ❑ الفوارق بين الإنسان والحيوان:
  - العلوم والصنائع.
  - الحاجة إلى السلطان.
  - السعي في تحصيل المعاش.
  - العمران.
- ❑ انقسام العمران إلى: البدو والحضر.
- ❑ بيان فصول الكتاب الرئيسة:
  - ١- العمران البشري.
  - ٢- العمران البدوي.
  - ٣- الدول والخلافة.
  - ٤- العمران الحضري.
  - ٥- الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.
  - ٦- العلوم وتعلمها.
- ❑ تقدم العمران البدوي على الحضري.
- ❑ تقدم الملك على البلدان.
- ❑ تقدم المعاش على العلم، لتقدم الطبيعي على الكمالي.
- ❑ ارتباط الكسب بالصنائع والعمران.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

(ب) ١ـ الْكِتَابُ الأَوَّلُ

فِي طَبِيْعَةِ الْعُمْرَانِ فِي الْخَلِيْقَةِ

وَمَا يَعْرِضُ فِيْهَا فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ وَالتَّغَلُّبِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالْصَّنَائِعِ وَالْعُلُوْمِ وَنَحْوِهَا

وَمَا لِذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ وَالأَسْبَابِ

اِعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ **حقيقةُ التَّاريخ** أنه خبرٌ عن الاجتماعِ الإنساني الَّذي هو عُمرانُ العالَمِ، وما يعرضُ لطبيعة ذلك العمرانِ من الأَحوالِ مثلِ التَّوحُّشِ والتَّأنُّسِ والعصبيَّاتِ وأصناف التَّغلُّباتِ لِلْبَشَرِ بعضهم على بعضٍ، وما ينشأُ عن ذلك من الْمُلْكِ والدُّول ومراتبها، وما ينتحلهُ البَشَرُ بأعمالهم ومَسَاعيهم من الكَسبِ والمعاشِ والعُلومِ والصَّنائعِ وسائرِ ما يحدُثُ من ذلكَ الْعُمْرانِ بطبيعته من الأحوال.

ولمَا كانَ **الكَذِبُ** متطرِّقاً للخبَرِ بطبيعته، **وله أسبابٌ تقتضيه** :

فمنها: التَّشيُّعَاتُ للآراء والمَذَاهِبِ، فإنَّ النَّفس إذا كانت على حالِ الاعتدَالِ في قَبُولِ الخَبَرِ أعطَتْهُ حقَّه من التَّمْحيصِ والنَّظرِ حتَّى تَتَبَيَّنَ صِدْقَهُ من كذبه؛ وإذا خامَرَها تَشَيُّعٌ لرأيٍ أو نِحلَةٍ قبلت ما يُوافقها من الأخبار لأَوّل وهلةٍ، وكَان ذلك الميل والتَّشيُّعُ غِطاءً على عَينِ بصيرتها عن الانتقادِ والتَّمْحِيص، فتقعُ في قبول الكذب ونقلِهِ.

ومن الأَسباب المقتَضِيَةِ للكذِبِ في الأَخبار أيضاً: الثِّقَةُ بالنَّاقلينَ، وتمحيصُ ذلك يرجعُ إلى **التعديلِ والتَّجْريح**.

ومنها: الذُّهولُ عن المقاصد، فكثرٌ من النَّاقلين لا يعرفُ القصد بما عاينَ أو سمعَ، وينقُلُ الخبرَ على مافي ظنِّه وتخمينِهِ، فيقعُ في الكذب.

ومنها: توهُّمُ الْصِّدْقِ، وهو كثيرٌ، وإنَّما يَجيءُ في الأكثر من جهةِ الثِّقة بالنَّاقلين.

ومنها: الجهل بتطبيقِ الأحوال علي الوقائع؛ لأجلِ ما يُداخلها من التَّلبيس والتَّصنُّع، فينقلها المخبرُ كما رآها، وهي بالتَّصنع على غير الحق في نفسه.

ومنها: تقرُّب الناسِ في الأكثر لأصحاب التجلَّةِ والمراتب بالثَّناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذِّكر بذلك، فيستفيض الإخبارُ بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعةٌ

بحبِّ الثناء، والنَّاس متطلِّعون إلى الدنيا وأسبابها من جاهٍ أو ثروةٍ، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائلِ، ولا متنافسين في أهلها.

ومن الأسباب المقتضية له أيضاً - وهي سابقةٌ على جمعِ ما تقدَّم -: الجهل بطبائع الأحوال في العُمران، فإنَّ كل حادثٍ من الحوادثِ - ذاتاً كانَ أو فعلاً[١] - لا بدَّ له من طبيعةٍ [ظ١٣/١] تخصُّهُ في ذاته وفيما يعرضُ له من أحوالهِ، فإذا كان السَّامع عارفاً بطبائع الحوادثِ والأحوالِ في الوجود ومقتضياتها أعانهُ ذلك في تمحيص الخبر، على تمييز الصِّدق من الكذب؛ وهذا أبلغ في التمحيصِ من كلِّ وجهٍ يعرضُ.

وكثيراً ما يعرضُ للسَّامعين **قبولُ الأخبارِ المستحيلةِ** وينقلونها وتؤثر عنهم، كما نقلهُ المسعودِيُّ عن الإسكندر لمّا صدَّته دوابُّ البحر عن بناء الإسكندرية، وكيفَ اتَّخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر، حتَّى صوَّر تلك الدّوابَّ الشَّيطانيَّة التي رآها، وعمل تماثيلها من أجسادٍ معدنيَّةٍ ونصبها حِذاء البُنيان ففرَّت تلك الدَّوابُّ حين خرجت وعاينتها وتمَّ له بناؤُهَا. في حكايةٍ طويلةٍ من أحاديث خُرَافَةٍ مُستحيلةٍ **من قبل** اتِّخاذه التابوتَ الزجاجيَّ[٢]، ومُصادمة البحر وأمواجه بجرمِه. **ومن قبلِ** أنَّ الملوك لا تحملُ أنفسها على مثلِ هذا الغرور[٣]، ومن اعتمد منهم فقد عَرَّضَ نفسهُ للهَلَكةِ وانتقاضِ العُقدةِ واجتماعِ الناس إلى غيره، وفي ذلك إتلافهُ، ولا ينتظرون به رجوعه من غرورهِ ذلك طرفةَ عين. **ومن قبلِ أن الجن** لا يُعْرف لها صور ولا تماثيل تختصُّ بها، إنما هي قادرةٌ على التَّشكُّلِ، وما يذكر من كثرةِ الرؤوس لها فإنما المُرادُ به البشاعة والتَّهويلُ لا أنه حقيقةٌ. وهذه كلها قادحةٌ في تلك الحكاية. والقادح المحيلُ لها من طريق الوجودِ أبينُ من هذا كلِّه، وهو أن المنغمِسَ في الماء - ولو كانَ في الصُّندوق - يضيقُ عليه الهواء للتَّنفُّسِ الطَّبيعي، وتسخُنُ روُحهُ بسُرعةٍ لِقلَّته، فيفقدُ صاحبهُ الهواءَ الباردَ المُعَدِّل لمزاجِ الرِّئة والرُّوح القلبيّ ويهلك مكانه، وهذا هو السَّبَبُ في هلاكِ أهل الحمَّاماتِ إذا أُطبقت عليهم

١ - **الحادث**: كل موجود سبقه العدم. **الذات**: أي الحادث الآتي من عالم الذوات، وهي المخلوقات وتتضمن الروح والجسد. **الفعل**: أي الحادث الآتي من عالم الأفعال، وهي أفعال المخلوقات.

٢ - لمَ لا نعتبر ذلك من محاولة الإنسان قديماً الغوص تحت الماء بوسائل تساعده على البقاء أكثر، أو أنه من أحلام الإنسان في محاولة التغلب على القوى الطبيعية؟! ولماذا لا نعتبر ما يعرضه الإنسان في الأحاديث الخرافية، هو بمثابة الخيال العلمي، ينفث فيه عن رغباته الجامحة وما يطمح أن يصل إليه؟ ولعل ذلك مما يحتاج إلى دراسة مستفيضة تكشف عن كثير من ذلك.

٣ - في ن: الغرر.

عن الهواء البارد، والمتدلين في الآبار والمطامير العميقةِ المهوى إذا سخَنَ هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرِّيَاحُ فتخلخلها، فإنَّ المتدلِّي فيها يهلكُ لحينهِ، وبهذا السَّبَبِ يكونُ موتُ الحوتِ إذا فارقَ البحرَ، فإنَّ الهواءَ لا يكفيه في تعديل رئته إذ هو حارٌّ بإفراطٍ والماءُ الذي يُعدّ له باردٌ والهواء الذي خرجَ إليه حارٌّ فيستولي الحارُّ على روحه الحيوانيّ يَهلِكُ دفعةً منه هلاكَ المصعُوقينَ وأمثالُ ذلك.

ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعوديُّ أيضاً في تمثال الزرزُور الَّذي **برومةَ** تجتمعُ إليه الزرازيرُ في يومٍ معلومٍ من السَّنة حاملةً **للزَّيتونِ**، ومنه يتخذونَ زَيتهم، وانظر ما أبعد ذلك عن المَجرى الطَّبيعي في اتِّخاذ الزَّيتِ.

ومنها: ما نقلهُ البكريُّ في بناء المدينة المُسمَّاة: **ذَاتَ الأَبواب**، تُحيطُ بأكثرَ من ثلاثين مرحلةً، وتشتملُ على عَشْرَةِ آلافِ بابٍ، والمدنُ إنما اتخذت للتَّحَصُّنِ والاعتصامِ كما يأتي. وهذه خَرَجَت عن أن يُحاط بها، فلا يكون فيها حِصنٌ ولا معتصَمٌ.

وكما نقله المسعودِيُّ أيضاً في حديثِ **مدينةِ النّحَاسِ**، وأنها مدينةٌ كلُّ بنائها نحاسٌ بصحرَاء سِجلْمَاسَةَ ظَفَرَ بها موسى بن نُصَير في غزوته إلى المغرب، وأنها مغلقة الأبواب، وأنَّ الصَّاعِدَ إليها من أسوارها إذا أشرفَ [ظ١٣/٢] على الحائطِ صفَّقَ ورمى بنفسهِ فلا يرجع آخر الدَّهر، في حديثٍ مستحيلٍ عادةً من خرافاتِ القصاص. وصحراء سِجلْمَاسَةَ قد نفضها الرُّكَّابُ والأَدلاَّءُ ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر، ثم إنَّ هذه الأحوالَ الَّتي ذكروا عنها كلها مستحيلٌ عادةً منافٍ للأمور الطَّبيعية في بناء المدن واختطاطِهَا، وأنَّ المَعَادِنَ غايةُ الموجودِ منها أن يصرفَ في الآنيةِ والخُرْثَى[1]. وأما تشييد مدينةٍ منها فكما تراهُ من الاستحالةِ والبعد. وأمثالُ ذلكَ كثيرةٌ **وتمحيصُهُ** إنَّما هو بمعرفة طبَائعِ العمران، وهوَ أحسنُ الوجوهِ وأوثقها في تمحيص الأخبار، وتمييز صِدْقها من كذبها، وهو سابقٌ على التمحيص **بتعديل الرُّواةِ**، ولا يُرْجَعُ إلى تعديلِ الرُّواةِ حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكنٌ أو ممتنعٌ، وأمَّا إذا كان مُستحيلاً فلا فائدةَ للنظرِ في التَّعديلِ والتَّجريحِ، ولقد عدَّ أهلُ النَّظرِ من المَطَاعِنِ في الخَبَرِ استحالةَ مَدْلول اللَّفظ وتأويلِهِ بما لا يقبلهُ العقلُ، وإنَّما كان التَّعديل والتَّجريح هو المعتبر في صحَّةِ الأخبارِ الْشَّرعِيَّةِ، لأنَّ مُعظمها تكاليفُ إنشائيَّةٌ

١- الخرثى: بالضم أثاث البيت.

أوجبَ الشّارعُ العملَ بها حتى حصلَ الظّنُّ بصِدقها، وسبيل صحّة الظّنِّ الثّقةُ بالرُّواةِ بالعدالةِ والضّبط.

وأمّا الأخبارُ عن الْوَاقعات فلا بُدَّ في صدقها وَصِحّتها من **اعتبارِ الْمُطابقةِ**، فَلِذَلِكَ وجبَ أن يُنظرَ في إمكان وُقوعهِ، وصار فيها ذلك أهمَّ من التّعديل، ومُقدّماً عليه، إذ فائدةُ الإنشاءِ مقتبسةٌ منهُ فقط، وفائدةُ الخبر منه ومن الخارجِ بالمُطابقةِ، وإذا كان ذلك **فالقانونُ في تمييز الحقِّ من الباطلِ في الأخبارِ** بالإمكان والاسْتحالة أن ننظُر في الاجتماعِ البشَريّ الّذي هو العمرانُ، ونُميّزَ ما يلحقه من الأحوالِ لِذَاتِهِ وَبِمُقْتَضَى طبعهِ، وما يكون عارضاً لا يُعتدُّ به، وما لا يُمكن أن يعرض له، وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحقِّ من الباطلِ في الأخبارِ، والْصِّدْق مِنَ الكَذب بوجهٍ برهانيٍّ لا مدخل للشّكِّ فيه، وحينئذٍ فإذا سمعنا عن شيءٍ من الأحوالِ الواقعةِ في العمرانِ علمنا ما نحكم بقبولهِ ممّا نحكمُ بتزييفه، وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرّى به المؤرخونَ طريقَ الْصِّدق والصَّوابِ فيما ينقلونه، **وهذا هو غرضُ هذا الكتابِ الأوّل من تأليفنا.**

وكأنَّ هذا علمٌ مستقلٌّ بنفسه فإنّه ذو موضوعٍ، وهو العُمران البشريُّ والاجتماعُ الإنساني، **وذو** مَسائلَ وهي بيانُ ما يلحقه من العوارضِ والأحوال لِذاته واحدةً بعد أخرى، وهذا شأنُ كل علمٍ من العلومِ وضعياً كان أو عقليّاً.

واعلَمْ أنَّ الْكَلاَمَ فِي هَذَا الْغَرَضِ **مستحدثُ الْصَّنعةِ، غريبُ الْنّزعة، عزيزٌ**[1] **الْفائدةِ، أعثرَ عليه البحثُ، وأدَّى إليهِ الغوصُ**، وليسَ من **علم الخطابةِ**، الذي هو أحد العلوم المنطقية؛ فإنّ **موضوع الخطابة** إنّما هو الأقوالُ المُقنعةُ النّافعةُ في استمالةِ الجمهورِ إلى رأي أو صدهم عنه، ولا هوَ أيضاً من **علمِ الْسِّياسةِ المَدنيةِ** إذ السِّياسةُ المدنيَّةُ هي تدبيرُ المنزل أو المدينة بما يجبُ بمقتضى الأخلاقِ والحكمةِ لِيُحْمَلَ الجمهورُ على منهاجٍ [ظ١٤/١] يكونُ فيه حفظُ النّوْعِ وبقاؤه. فقدْ خالَفَ موضوعهُ موضوعَ هذين الفنّينِ اللّذين ربّما يشبهانِهِ. **وكأنّهُ علمٌ مستنبطُ الْنّشأةِ.**

ولعمري لم أقف على الكلامِ في منحاهُ لأحدٍ من الخليقَةِ، مَا أدري: ألغفلَتِهم عن ذلك - وليس الظّنُّ بهم؟ أو لعلّهم كتبوا في هذا الغَرَضِ واستوفوهُ ولم يصل إلينا؟ فالعلومُ كثيرةٌ والحكمَاءُ في أمم النّوعِ الإنساني متعددون، وما لم يصل إلينا من العلومِ أكثرُ ممّا وصلَ،

---
١ - في ن: غزير.

فأينَ علومُ الفُرسِ الَّتِي أمر عُمَرُ رضي ا لله عنهُ بمحوها عند الفَتح؟ وأينَ علومُ **الْكِلْدانيينَ وَالْسِّرْيانيين وأهل بابل** وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها؟ وأينَ علوم **القُبط** ومن قبلهم؟ وإنما وصَلَ إلينا علوم أمَّةٍ واحدةٍ وهم **يونانٌ** خاصَّةً لِكَلَفِ المأمونِ بإخراجها من لغتهم، واقتداره على ذلك بكثرةِ المترجمين وبَذل الأموالِ فيها. و لم نَقِفْ على شيءٍ من عُلومِ غيرهم.

وإذا كانت كلُّ حقيقة متعلِّقَةٍ طبيعيّةٍ يصلحُ أن يبحث عمّا يعرضُ لها من العوارضِ لذاتها، وجبَ أن يكون باعتبار كل مَفهومٍ وحقيقةٍ علمٌ من العلومِ يخُصُّهُ، لكنّ الحكماءَ لعلَّهم إنما لاحظوا في ذلك العِناية بالثَّمراتِ. وهذا إنَّما ثَمرتُهُ في الأخبارِ فقط كما رأيت، وإن كانت مَسَائِلُهُ في ذاتها وفي اختِصَاصها شريفةً، لكنَّ ثمرتهُ تصحيحُ الأخبَارِ، وهي ضعيفةٌ، فلهذا هجروهُ. وا لله أعلم. ﴿وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيْلاً﴾ [الإسراء:٨٥].

وَهَذا الفَنُّ الَّذي لاحَ لنا النَّظرُ فيه **نجِدُ منهُ مسَائلَ تجْري بالعَرَضِ لأهل الْعُلُوْمِ** في براهينِ علومهم، وهي من جنسِ مَسَائلِه بالموضوعِ والطَّلَبِ، **مثل** ما يذكرهُ الحُكماءُ والْعُلماءُ في إثبات النُّبُوَّةِ من أنَّ الْبَشَرَ مُتعاونون في وجودهم، فيحتاجونَ فيه إلى الحاكِمِ والوازِعِ[1] -. **ومثلَ** ما يذكر في أصول الفقهِ في باب إثباتِ اللُّغاتِ أنَّ النَّاسَ محتاجونَ إلى الْعِبارَةِ عن المقاصدِ بطَبيعةِ التَّعاون والاجْتماعِ وتبيَانُ العِبَاراتِ أخفُّ. **ومثل** ما يذكره الْفقهَاءُ في تعليلِ الأحكامِ الْشَّرعية بالمقاصِدِ في أنَّ الزِّنا مُخلِطٌ للأنسَابِ مُفسِدٌ للنَّوْعِ، وأنَّ القتلَ أيضاً مفسدٌ للنَّوْعِ، وأن الظُّلمَ مؤذِنٌ بخرابِ العُمرانِ المُفضي لفسَادِ النَّوْعِ، وغير ذلك من سائر المَقَاصِد الْشَّرعيَّةِ في الأحكام؛ فإنها كلها مبنيَّةٌ على المحافظةِ على الْعُمرانِ، فكان لها النَّظرُ فيما يعرضُ له، وهو ظاهرٌ من كلامنا هذا في هذه المسائلِ الممثَّلَةِ.

وكذلك أيضاً يقعُ إلينا القليلُ من مسائلِهِ في كلماتٍ متفرقةٍ لحكماء الخليقةِ، لكنّهم لم يستوفوه، فمن كلام المُوْبذَانِ بهْرَامَ بن بهرام في **حكاية البُوْمِ** التي نَقلها المسعوديّ: «أيُّها المَلِكُ، إنَّ المُلكَ لا يتمُّ عزُّهُ إلا بالشريعةِ، والقيامِ لله بطاعتهِ، والتَّصرُّفِ تحتَ أَمْرِهِ ونهيهِ، ولا قوامَ للشَّريعةِ إلا بالمُلْكِ، ولا عزَّ للمُلك إلا بالرجال، ولا قوامَ للرِّجال إلا بالمال، ولا سبيل للمَال إلا بالعمارةِ، ولا سبيلَ للعمارَةِ إلا بالعَدلَ، والعدلُ: الميزانُ المَنْصُوْبُ بينَ الخليقةِ، نصَبهُ الرَّبُّ [ظ١٤ /٢] وجعلَ لهُ قَيِّماً وهو المُلكَ».

---

١ - أي السلطة الداخلية التي تكبح جماحه عن النوازع الفاسدة.

ومن كلامِ **أَنُوشِرْوَانَ** في هذا الْمَعنى بِعَيْنِهِ: «الْمُلكُ بالجُندِ، والجُنْدُ بالمالِ، والمالُ بالخراجِ، والخراجُ بالعمارَةِ، والعمَارةُ بالْعَدْلِ، والعدلُ بإصلاحِ العُمَّالِ، وإِصْلاَحُ العمَّالِ باسْتِقَامةِ الوزراء، ورَأسُ الكلِّ بافتقادِ[1] المَلِكِ حالَ رَعِيَّتِهِ بنفسهِ، واقتدارِهِ على تأديبها حتَّى يَملكَهَا ولا تَملكهُ».

وفي الكتاب المنسُوبِ **لأَرسْطُو**[2] في السِّياسةِ المُتداوَل بين النَّاسِ جزءٌ صالحٌ منهُ، إلاَّ أنَّهُ غيرُ مستوفٍ، ولا معطًى حقَّهُ من البراهين، ومختلطٌ بغيرِهِ، وقد أشارَ في ذلك الكتاب إلى هذه الكلماتِ الَّتي نقلناها عن المَوْبَذَان وَأَنُوْشِرْوَان وجعلها في الدَّائِرَةِ القريبةِ الَّتي أعظمُ القول فيها هو قولُهُ: «الْعَالَمُ بُسْتَانٌ سِيَاجهُ الدَّوْلَةُ، الدَّوْلَةُ سُلْطَانٌ تحيَا بهِ السُّنَّةُ، السُّنَّةُ سِيَاسَةٌ يسوسُهَا المَلِكُ، الملك نِظامٌ يعضُدُهُ الجندُ، الجندُ أعوانٌ يكفلهم المالُ، المالُ رزقٌ تجمعهُ الرَّعيَّةُ، الرَّعية عبيدٌ يكنفهم العدلُ، العدلُ مَألوفٌ وبهِ قوامُ العَالَمِ، الْعَالَمُ بُستَانٌ» ثمَّ ترجعُ إلى أوَّلِ الكلامِ [ظ١٥/١].

فَهَذِهِ ثمانُ كلماتٍ حِكميَّةٍ سِياسِيَّةٍ ارتَبَطَ بعضها ببعضٍ، وارتدَّتْ أعجازُهَا إلى صدورِهَا، واتَّصلَتْ في دائرةٍ لا يتعيَّنُ طرَفُهَا، فَخَرَ بعثورِهِ عليها، وعظَّم من فوائدها.

وأنت **إذا تأمَّلتَ** كلامنا في فصل الدُّوَلِ والمَلِكِ وأعطيته حقَّهُ من التَّصفُّحِ والتَّفهُّمِ، عثرت في أثنائهِ على تفسير هذه الكلمات، وتفصيل إجمالها مُستوفىً بيِّناً بأوعبِ بيانٍ وأوضح دليلٍ وبرهان، **أطلعنا الله عليهِ من غير تعليمِ أرسْطُو ولا إفادة مُوْبَذَان.**

وكذلك تجِدُ في كَلام **ابن الْمُقفَّع** وما يَستَطردُ في رسائله من ذكرِ السِّياساتِ، الكثير من مسائل كتابنا هذا غيرَ مبرهنةٍ كما برهنَّاهُ، إنَّما يُجليها في الذِّكر على مَنْحَى الخِطَابَةِ في أُسلُوْبِ الترسُّلِ وبلاغةِ الكلامِ.

---

١ - أي: بتفقد.

٢ - قال الدكتور عبد العزيز عزت: إن الكتاب الذي ينسبه ابن خلدون خطأً في هذه الصفحة لأرسطو، وهو كتاب السياسة، هو في الحقيقة كتاب الجمهورية لأفلاطون، فقد عرف بهذا الاسم السياسة عند العرب. (مهرجان ابن خلدون ص٤٤). علماً أن لأرسطو كتاباً في السياسة أو في تدبير المدن. (انظر ما قاله الدكتور عبد الرحمن بدوي في مؤلفات ابن خلدون ص٢٥٩ ومهرجان ابن خلدون ص١٥٢ - ١٦٢). وهو كتاب **السياسة في تدبير الرياسة** المعروف بـ سر الأسرار .

وكذلكَ حوَّمَ **القاضي أبو بكرٍ الطُّرْطُوْشِيُّ** في كتاب (**سِرَاجِ الْمُلُوْكِ**)[١] وبوَّبَهُ على أبواب تقربُ من أبوابِ كِتَابنا هَذَا وَمَسَائِلِهِ لكنَّهُ لم يُصَادف فيه الرَّمْيَةَ[٢]، ولا أصابَ الشَّاكلةَ[٣]، ولا استْوفى المَسَائلَ، ولا أوضحَ الأدِلَّةَ، إنَّما يُبوِّبُ الباب للمسألةِ ثم يستكثِرُ من الأحاديثِ والآثار، وينقُلُ كلماتٍ متفرِّقةً لحكماءِ الفُرْسِ مثلَ بَزْرَجَمْهَرَ وَالْمَوْبَذَان وحكماءِ الْهِنْدِ وَالْمَأْثُوْر عَنْ دَانِيَالَ وَهِرْمِسَ وَغَيْرِهم من أكابرِ الخليقةِ، ولا يكشفُ عن التَّحْقِيْقِ قِناعاً، ولا يَرفعُ بالبراهينِ الْطَّبِيْعَيةِ حِجاباً، إنَّما هو نقلٌ وتركيبٌ شَبيهٌ بالمواعظِ، وكأنَّهُ حوَّمَ على الْغَرَضِ ولم يُصَادفهُ، ولا تحقَّقَ قصدهُ، ولا استْوْفَى مَسَائلهُ.

ونحنُ أَلْهَمَنَا اللهُ إلى ذَلِكَ إلْهَاماً، وأَعثرنا على عِلْمٍ جعلنا سَنَّ بكرِهِ[٤] وجُهينَةَ خبره[٥]، فإن كُنْتُ قَدِ استَوْفَيتُ مَسَائِلَهُ، وميَّزتُ عن سَائِرِ الْصَّنائع أنظارهُ[٦] وأنحاءه[٧]، فتوفيقٌ من اللهِ وهدايةٌ، وإن فاتَني شيءٌ في إحصَائهِ واشْتَبَهتُ بغيرِهِ، فَلِلْنَّاظِرِ الْمُحَقِّقِ إصلاحهُ، **ولي الفضلُ لأنِّي نهجتُ لهُ الْسَّبيلَ وأوضحتُ له الطَّرِيقَ**، واللهُ يهدي بنورِهِ من يشاء.

ونحنُ الآنَ نُبيِّنُ في هذا الْكِتَابِ ما يعرضُ للبشرِ في اجتماعهم من أحوال الْعُمْرَان في الْمُلْكِ والكَسْبِ والعلومِ والصَّنائعِ بوجوهٍ بُرهانِيَّةٍ يتَّضِحُ بها التَّحقيقُ في معارفِ الخاصَّةِ والعامَّةِ، وتدفَعُ[٨] بها الأوْهَامُ وترفعُ الْشُّكوكُ.

وَنَقولُ: **لما كان الإنسان متميِّزاً عن سَائِرِ الحَيَوانَاتِ بخواصَّ اختُصَّ بها، فمنها:** العلومُ والصَّنائعُ الَّتي هي نتيجة الفكر الَّذي تميَّزَ به عن الحيوانَاتِ، وشرِّف بوصفهِ على المخلوقاتِ.

---

١ – الطرطوشي: نسبة إلى طُرْطُوشة (TORTOSA) مدينة في الأندلس على ساحل البحر، شرقي الأندلس. ولد (٤٥١) وتوفي (٥٢٠ هـ)، وكتابه مطبوع في بيروت، دار صادر ١٩٩٥. وقد استفاد منه المصنف كثيراً، ولكنه وظف مقبوساته وفق نظريته التي نظمت كتابه.

٢ – أي لم يصب الهدف.

٣ – أي الشكل والطريقة. وقد أراد عدم اقترابه من الصواب.

٤ – أي أول مطلع على خفاياه التي لم يسبقه إليها أحد.

٥ – في المثل: وعند جهينة الخبر اليقين.

٦ – جمع نظر. وهو المثل والشبيه.

٧ – الأنحاء: الجوانب والأبواب والفصول.

٨ – في ن: تندفع.

ومنها: الحاجةُ إلى الحكمِ الوازعِ، والسُّلطان القَاهِرِ، إذْ لاَ يُمكنُ وجودهُ دون ذلك من بين الحيوانَاتِ كُلِّها، إلا ما يُقَالُ عنِ النَّحْلِ والجَرَادِ، وهذه وإن كانَ لَها مثلُ ذلك فبطَريقٍ إلهاميّ لا بفكْرٍ ورويَّةٍ.

ومنها: السَّعيُ في المَعَاشِ والاعتمالُ في تحصيلهِ من وجوهه، واكتِسَابُ أسبابه لما جعلَ اللهُ فيهِ من الافْتقار إلى الغِذاءِ في حياتهِ وبقائِهِ، وهداهُ إلى التماسه وطلبهِ. قال تعالى: ﴿أَعطى كلَّ شَيءٍ خلقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه: ٥٠].

ومنها: العُمْرَانُ، وهو التَّساكن والتَّنازل في مصر[1] أو حِلَّةٍ للأُنْسِ [ظ١٥/٢] بالعشير، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التَّعاون على المعاشِ كما نُبيِّنُهُ.

ومن هذا العُمران ما يكون **بدويّاً** وهو الَّذي يكون في الضَّواحي وفي الجبالِ وفي الحَلَلِ الْمُنْتَجَعَةِ في الْقِفَار[2] وأطراف الرِّمال، ومنه ما يكونُ **حضَرِيّاً** وهو الَّذي بالأمصارِ والقُرى والمُدن والمَدَرِ للاعْتِصَامِ بها والتَّحصُّنِ بجُدْرَانها.

وله في كُلِّ هذه الأحوال أمورٌ تعرضُ من حيثُ الاجْتماعُ عُرُوضاً ذاتيّاً لهُ.

فلا جَرَمَ **انحصَرَ الكلامُ في هذا الكتابِ في ستَّةِ فُصُوْل**:

الأوَّل: في الْعُمْرَان الْبَشَرِيِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وقسطِهِ من الأَرْضِ.

وَالثَّانِي: في الْعُمرانَ البَدويّ وذِكْرِ القَبَائِلِ والأُمَمِ الوَحْشِيَّةِ.

وَالثَّالِثُ: في الدُّوَلِ والخِلافَةِ والْمُلْكِ وذكر المراتب السُّلْطَانية.

وَالرَّابِعُ: في الْعُمْرَانَ الحَضَرِيِّ والْبُلدن والأَمْصَار.

وَالْخَامِسُ: في الصَّنَائِعِ والْمَعَاشِ والكسب ووجوهه.

والسَّادِسُ: في الْعُلُومِ واكتسابها وتعلُّمها.

وقد **قدَّمتُ** العُمرانَ البدويَّ لأنه سابقٌ على جميعها كما نبيِّن لك بعدُ، وكذا تقديمُ الملكِ على البلدان والأمصار.

وأما تقديم المعاش؛ فلأن المعاش ضروريٌّ طبيعيٌّ، وتعلُّمُ العلمِ كماليٌّ أو حاجيٌّ، والطَّبيعيُّ أقدم من الكماليّ.

وجعلت الصَّنائعَ مع الكسبِ لأنَّها منه ببعض الوجوهِ، ومن حيثُ العمران كما نبيِّن لك بعدُ، والله الموفق للصواب والمعين عليه.

---

١ - المصر: كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير.

٢ - أي الخيام المتنقلة في الصحارى.

العمران البشري

١ــ ضرورة الاجتماع الإنساني، لــ:

تحصيل الغذاء.

الدفاع عن نفسه.

مقارنة بين عالم الحيوان والإنسان في حاجة كل منهما إلى ذلك، واختلاف منشأ ذلك (الفطرة - العقل).

الرد على الفلاسفة في قولهم بالوجوب العقلي للنبوات.

٢- المعمور من الأرض:

نسبته وتفصيل أحوال اليابسة.

المياه: البحار والأنهار.

عمران الربع الشمالي من الأرض أكثر من الربع الجنوبي.

تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم:

التعريف بها: الحدود - التضاريس - السكان.

مصادر المؤلف في هذه الجغرافية.

٣- تدرج الأقاليم في الحر والبرد، وأثر ذلك على ألوان البشر وأحوالهم.

الأقاليم المعتدلة: المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين والأندلس وتوابعها والروم واليونان..

سبب إدخال الحجاز واليمن في المعتدل من الأقاليم.

اقتران العلوم والصنائع والصفات الحسنة والنبوات بالأقاليم المعتدلة.

بعد الأقاليم غير المعتدلة عن الصفات السابقة.

الرد على زعم أن لون السواد اختص به ولد حام لدعوة عليه من أبيه.

السبب في سواد اللون وبياضه.

الرد زعم أن اختلاف الأمم من أجل الأنساب.

تصنيف الأمم تابع لـــ:

السلالات.

الجغرافيا.

العقائد. وغير ذلك.

٤- أثر الهواء في أخلاق البشر:

دراسة أسباب الفرح والطيش في بعض الأمم.

دراسة أسباب الحزن والفكر في العواقب في بعضها الآخر.

تبيين خطأ المسعودي في نسبة ذلك إلى صغر أدمغة الأولين.

٥- اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع، وأثر ذلك على الأبدان والأخلاق.

نسبية الخصب والجوع في الإقليم الواحد.

تفاوت الناس في تحصيل الغذاء من حيث: الجهد والنوعية.

أثر البيئة على الإنسان والحيوان.

تحذير أهل الرياضة من الانقطاع الكلي عن الغذاء ثم العودة، ووجوب التدرج في ذلك.

سبب الهلاك في المجاعات: وجود الشبع السابق.

الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية.

أثر الجوع في صفاء الأجسام والعقول.

أثر الجوع على المتعبدين وأن أهل الشبع منهم أقل ديناً.

أثر نوعية الغذاء في تنمية الأجساد، وطريقة القدماء في تسمين الدجاج.

٦- أصناف المدركين للغيب [لعله أراد من هذا البحث التنبيه على أثر البيئة في كيفية التعامل مع الغيب]:

طرق إدراك الغيب:

-الفطرة.

-الرياضة.

حقيقة النبوة، وعلامة صحتها، وخصائص حاملها.

علامة تميز بها بين المكي والمدني في القرآن اكتشفها المؤلف.

تعريف الوحي.

الفرق بين النبوة والولاية.

تناسق النظام الكوني: مشاهدة ترتيب العالم وإحكامه وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض.

الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر.

وقوع الخوارق من الكاذب.

المعجزة الخالدة: القرآن الكريم.

الفرق بين معجزات الأنبياء السابقين ونبينا ﷺ.

أصناف النفوس البشرية:

العلماء (الجسد)

العلماء الأولياء (الروح).

الأنبياء (الروح والجسد).

حقيقة الكهانة:

العلامة التي فطر عليها أصحاب الإدراك الغيبي.

الفرق بينها وبين النبوة.

الوسائل التي يستعينون بها على ذلك.

رد زعم انقطاع الكهانة زمن النبوة.

تنوع أصناف الكهان: الناظرون في المرايا وطساس الماء والحيوان، والطرق بالحصى والنوى.

تفصيل مايعرض لهؤلاء، وما يلقى على ألسنة المجانين.

اختلاف هؤلاء عن العرافين في مأخذ كل منهم.

وجود هذه الأصناف في كثير من الأمم.

حقيقة الرؤيا وأصنافها.

سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم.

الفرق بين الوحي والمنام.

وسائل الوصول إلى الرؤيا:

- بغير طلب.
- بطلب باستخدام بعض الأسماء.

تجربة المؤلف مع حالومة الطباع التام.

طرق أخرى لإدراك الغيب:

أ- مستندة إلى برهان أو تحقيق:

مفارقة اليقظة (المرحلة الأولى من النوم).

إماتة القوي في المبالغة بالتقشف (الموت الصناعي).

الرياضة السحرية (اليوجا).

التصوف وما يحصل فيه من كرامات وطريقة تعاملهم معها، وما حصل للصحابة من ذلك.

البهاليل وسبب إدراكهم للغيب.

ب - غير مستنندة إلى برهان أو تحقيق:

التنجيم - ضرب الرمل - الخط.

حساب النيم - حساب الجمل.

الزيرجة: تفصيل الحديث عنها وتبيين حقيقتها.

١-١- الْفَصْلُ الأَوَّلُ منَ الْكِتَابِ الأَوَّلِ في الْعُمْرَانِ الْبَشَرِيِّ على الْجُمْلَةِ

وفيْهِ مُقَدِّمَاتٌ:

١- ١-١-[المقدمة] الأولَى: في أن الاجتماع الإنسانيَّ ضروريٌّ.

ويعبّر الحكماءُ[1] عن هذا بقولِهِمْ: **الإنسان مدنيٌّ بالطَّبعِ**، أي: لا بُدَّ لهُ منَ الاجْتماعِ الَّذِي هو **المدنية** في اصطلاحهم، وهو معنى العُمْرَان.

وبيانُهُ: أنَّ الله سُبحانهُ خلقَ الإنسانَ وركَّبهُ على صورةٍ لا يصحُّ حَيَاتُها وبقاؤها إلاَّ بالغِذَاء، وهداهُ إلى الْتِماسِهِ بفطرتِهِ وبما رُكّب فيه من القُدرةِ على تحصيله، إلاَّ أنَّ قدرة الواحدِ من البَشَرِ قاصِرَةٌ عن تَحصيل حاجتِهِ من ذلك الغذاء، غيرُ موفيةٍ له بمادَّةِ حياته منه، ولو فرضنا منه أقلَّ ما يمكن فرضهُ وهو قوتُ يومٍ من الحنطةِ مثلاً فلا يحصلُ إلا بعلاجٍ كثيرٍ من الطَّحْنِ والعَجْنِ والطَّبْخِ، وكلٌّ واحدٍ من هذه الأعمالِ الثَّلاثَةِ يحتاجُ إلى مواعينَ وآلاتٍ لا تتمُّ إلا بصناعاتٍ متعددةٍ من حدَّادٍ ونجَّار وفاخوري. هَبْ أنَّهُ يأكلهُ حبّاً من غير علاجٍ فهو أيضاً يحتاجُ في تحصيله أيضاً حبّاً إلى أعمال أُخرى أكثر من هذه من الزراعة والحَصَادِ والدِرَاسِ الَّذي يُخرجُ الحَبَّ من غِلاَفِ الْسُّنْبُلِ، ويحتاجُ كلُّ واحدٍ من هذه آلاتٍ مُتعدِّدَةً وصَنَائعَ كثيرةً أكثر من الأولى بكثير، ويستحيلُ أن تفي بذلك كُلِّهِ أو ببعضهِ قُدْرَةُ الواحدِ، فلا بُدَّ من اجتماعِ القدرِ الكثير من أبناء جنسهِ ليحصُل القوتُ لهُ ولهُمْ، فيحصلُ بالتَّعاون قدرُ الكِفَاية من الحاجةِ لأكثرَ منهم بأضعافٍ.

وكذلك يحتاجُ كلُّ واحدٍ منهم أيضاً في الدفاعِ عن نفسه إلى الاسْتعانة بأبناء جنسهِ؛ لأنَّ الله سبحانهُ لَّما ركَّبَ الطِّباعَ في الحَيوانات كلِّهَا، وقَسَمَ القدرَ بينها جعل [ظ١/١٦] حُظوظ كثيرٍ من الحيواناتِ العجمِ من الْقُدرَةِ أكمل من حظِّ الإنسان، فقُدْرة الْفَرَسِ مثلاً أعظمُ بكَثِيْرٍ من قُدرةِ الإنسان، وكذا قدرةُ الحِمَارِ والثَّوْرِ وقدرة الأَسدِ والفيل أضعافٌ من قُدرته.

وَلَمَّا كَانَ الْعُدوانُ طَبيعيّاً في الحَيوان جعلَ لكُلِّ واحدٍ منها عُضواً يختصُّ بمدافعتهِ ما يصل إليه من عَادية غيرِهِ، وجعل للإنسان عِوَضاً من ذلك كلهِ الفِكْرَ واليدَ، فاليدُ مُهيئةٌ

---

١ - أي الفلاسفة.

للصَّنائع بخدمة الفكر، والصَّنائع تُحصِّل له الآلات الَّتي تنوبُ لـه عـن الجـوارِحِ الْمُعَدَّةِ في سائر الحَيَوانات للدِّفَاعِ مثل الرماحِ الَّتي تنوبُ عن الْقُرُوْن النَّاطحةِ، والسُّيوفِ النَّائِبَةِ عن الْمَخَالِبِ الْجَارِحَةِ، وَالتِّراسِ النَّائِبَةِ عن الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ[1]، إلى غَيْرِ ذَلِكَ، وغيرُهُ مِمَّا ذَكَرَهُ **جَالِيْنوس في كِتَابِ مَنَافِعِ الأَعْضَاءِ**، فَالْوَاحِدُ من الْبَشَرِ لا تُقَاوِمُ قُدرتُهُ قُدرة واحدٍ من الحيواناتِ العجم سِيَّما الْمُفترسة، فهو عاجزٌ عن مدافعتها وحدهُ بالجملةِ، ولا تفي قُدرتهُ أيضاً باستعمالِ الآلاتِ المُعَدَّةِ للمدافعة لكثرتها، وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها، فلا بُدَّ في ذلك كُلِّهِ مِنَ التَّعاون عليه بأبناء جنسِهِ، وما لم يكن هذا التَّعاون فلا يحصلُ له قوتٌ ولا غذاءٌ، ولا تتمُّ حياتُهُ لما رَكَّبَهُ الله تعالى عليه من الحاجةِ إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له أيضاً دِفاعٌ عن نفسه لفُقدانِ الْسِّلاحِ، فيكونُ فريسةً للحيوانات، ويُعَاجِلُهُ الهلاكُ عن مدى حياته، ويبطلُ نوعُ البَشَرِ.

وإذا كان التعاون حَصَّلَ له القوتَ للغذاء، والْسِّلاحَ للمُدافَعَةِ، وتَمَّت حكمةُ الله في بقائهِ وحفظِ نوعِهِ، فإذن هذا الاجتماع ضروريٌّ للنَّوعِ الإنسانِيِّ وإلاَّ لَمْ يكمُل وجودهم وما أرادهُ الله من اعتمار العالمِ بهم واستخلافهِ[2] إيَّاهم، **وهذا هو معنى الْعُمران الَّذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم**، وفي هذا الكلام نوعُ إثباتٍ للموضوع في فَنِّهِ الَّذي هو موضوعٌ له، وهذا وإن لم يكُن واجباً على صاحب الفنّ لَمَا تقرَّر في الْصِّناعةِ المنطقيَّةِ: **أنَّهُ ليسَ على صاحبِ علمٍ إثباتُ الموضوعِ في ذلك العلمِ**. فليسَ أيضاً من الممنوعاتِ عندهم فيكون إثباتهُ من التَّبرُّعاتِ. والله الْمُوَفِّقُ بفضلِهِ.

ثُمَّ إنَّ هذَا الإجتماع إذا حصل للبشر كما قرَّرناهُ، وتمَّ عُمْرَانُ العالَمِ بهم، فلا بُدَّ من وازعٍ يدفعُ بعضهم عن بعضٍ لما في طباعهم الحيوانيَّةِ من الْعُدوانِ والظُّلْمِ، وليستِ آلة الْسِّلاح الَّتي جعلت دافعةً لعدوان الحيواناتِ العُجْمِ عنهم كافيةً في دفع العدوان عنهم، لأنَّها موجودةٌ لجميعهم، فلا بُدَّ من شيءٍ آخر يدفعُ عدوانَ بعضهم عن بعضٍ، ولا يكون من غيرهم لقُصُوْرِ جميعِ الحيواناتِ عن مداركهم وإلهاماتهم[3]، فيكونُ ذلك الوازِعُ واحداً منهم، يكونُ له عليهم الغَلَبَةُ والْسُّلطانُ واليدُ القاهرةُ حتى لا يصلَ أحدٌ إلى غيرهِ بعدوانٍ،

---

١ - الجاسية والجاسئة: الصلبة أو اليابسة.

٢ - أي جعلهم خلفاء في الأرض.

٣ - جمع إلهام، وهو ما يلقى في النفس مما يبعث على الفعل أو الترك..

وهذا هو معنى المَلِك، وقد تبَيَّنَ لكَ بهذا أن للإنسان خاصَّةً طبيعيةً، ولا بُدَّ لهم منها، وقد يُوجدُ في بعض الحيوانات العُجمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ كمَا في النَّحْلِ والْجَرَادِ لِمَا استُقرِىءَ فيها من الحكم والانقياد والاتّبَاع لرئيسٍ من أشخاصها متميزٍ عنهم في خلقِهِ وجُثمانِهِ إلا أن ذلك موجودٌ لغير الإنسان بمقتضى الفِطرة والهداية لا بمقتضى [ظ١٦/٢] الفكرةِ والسِّيَاسة ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلقهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه: ٥٠].

وَتَزِيْدُ الْفَلاَسِفَةُ عَلَى هَذَا البرهانِ حيثُ يحاولون **إثبات النُّبوَّة** بالدليل العَقليّ، وأنَّها خاصَّةٌ طبيعيةٌ للإنسان، فيقرّرون هذَا الْبُرهان إلى غايته[١]، وأنه لا بُدَّ للبشرِ منَ الحُكْمِ الوازِعِ[٢]، ثُمَّ يقولون بعد ذَلِكَ: وذلك الحكمُ يكونُ بشرعٍ مفروضٍ من عند الله يأتي به واحدٌ من البَشَرِ، وأنَّهُ لا بُدَّ أن يكونَ متميّزاً عنهم بما يودعُ الله فيهِ من خواصٍّ هدايتهِ ليقَعَ التَّسْلِيْمُ له والقبولُ منه حتَّى يتمَّ الحُكمُ فيهم وعليهم من غيرِ إنكار ولا تزيُّفٍ.

وهذه القضيةُ للحُكَمَاء غيرُ بُرهَانِيَّةٍ كما تراهُ، إذِ الوجودُ وحياةُ البشرِ قد تتمُّ من دُوْنِ ذَلِكَ بِمَا يَفْرِضُهُ الْحَاكِمُ لنفسه أو بالعَصَبِيَّةِ الَّتي يقتدرُ بها على قهرهم وحملهم على جادَّته، فأهلُ الكتاب والمتَّبعون للأنبياء قليلون بالنسبةِ إلى المجوسِ الَّذِينَ ليسَ لهم كِتَابٌ، فإنهم أكثرُ أهل العالِمِ، ومع ذلك فقد كانت لهم الدُّولُ والآثارُ، فضلاً عن الحياةِ، وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفةِ في الشمالِ والجنوبِ بخلافِ حياة البشر فوضى دونَ وازِعٍ لهم ألبَتّة فإنَّهُ يمتنعُ.

وبهذا يتبيَّن لك غلطُهُم في وُجوبِ النُّبُوَّاتِ، وأنَّهُ ليسَ بعقلِيٍّ، وإنما مُدركهُ الشَّرْعُ كما هو مذهب السَّلف من الأمة. والله وَلِيُّ التوفيق والهداية.

١ - في ن: غاية.

٢ - أي الزاجر.

١ــ١ــ٢ــ الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ
فِي قِسْطِ الْعُمْرَانِ مِنَ الأَرْضِ وَالإِشَارَةُ إِلَى بَعْضِ مَا فِيْهِ مِنَ البِحَارِ وَالأَنْهَارِ وَالأَقَالِيْمِ

اعْلَمْ أَنَّهُ قد تَبَيَّنَ في كتب الحكماء النَّاظرينَ في أحوال العالمِ أن شكل الأرض كرويٌّ، وأنهَا محفوفةٌ بعنصر الماء كأنها عنَبَةٌ طافيةٌ عليه، فانحَسَرَ الماءُ عن بعضِ جوانبِها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعُمْرانها بالنَّوْعِ البَشري الذي له الخلافةُ على سائرهَا، وقد يتوهَّمُ من ذلك[1] أنَّ الماء تحت الأرض، وليس بصحيحٍ، وإنَّما التَّحتُ الطَّبيعيُّ قلبُ الأَرْضِ ووسطُ كُرَتِهَا الَّذِي هو مرْكَزُهَا، والكُلُّ يطلُبُهُ بما فيهِ من الثقل، وما عدا ذلك من جوانبها.

وَأَمَّا **الماء المحيطُ** بها فوق الأرض ــ وإن قيل في شيءٍ منها: إنه تحت الأرض ــ فبالإضافة إلى جهة أخرى منه.

وأما الذي انحَسَرَ عنه الماءُ من الأرضِ فهو النصفُ من سطح كرتها في شكل دائرة أحاطَ العنصرُ المائيُّ بها من جميع جهاتها بحراً يُسَمَّى البَحر المُحيطَ، ويُسَمَّى أيضاً **لبلايه** بتفخيمِ اللاَّمِ الثَّانية، ويُسَمّى أوقيَانُوسَ، أسماءٌ أعجميَّةٌ، ويُقَالُ له: **البحر الأخضرُ والأسودُ**.

ثُمَّ إن هذا المُنكَشفَ من الأرض للعمران فيه القفار والخلاء أكثرُ من عُمْرَانه، والخَالي من جهة الجنوب منه أكثرُ من جهةِ الشَّمالِ، وإنَّما المعمورُ منه أَمْيَلُ إلى الجَانِبِ الشَّمَالِيِّ على شكلٍ مُسَطَّحٍ كُرَوِيٍّ ينتهي من جهة الجنوب إلى خطِّ الاسْتِوَاءِ، ومن جهَةِ الشَّمالِ إلى خطٍّ كُرَوِيٍّ، ووراءَهُ الجبالُ الفَاصلَةُ بينهُ وبينَ المَاءِ العُنْصُرِيِّ الَّذي بَينَهُمَا **سَدُّ يَأْجُوْجَ وَمَأْجُوْجَ**، وَهذه الجبالُ مائلةٌ إلى جهةِ المشرق، وينتهي من المَشْرِقِ والمغرب إلى عنصر الماءِ أيضاً بقطعتين من الدائرة المحيطة.

وهذا المنكشف منَ الأرضِ قالوا: هو مقدارُ النِّصف من الكرةِ أو أقلُّ، **والمعمورُ منه:** مقدارُ رُبعه وهو المَنقسم بالأقاليمِ السَّبعة.

وَخَطُّ الاستواء يقسمُ الأرْضَ بِنصْفَيْنِ منَ المغربِ إلى المَشْرِقِ، وَهُوَ طُوْلُ الأَرْضِ، وَأَكْبَرُ خطٍّ في كُرَتِهَا.

---

١ – كأنه يرد بذلك كلام الإدريسي في نزهة المشتاق ١/٧.

كما أنَّ منطقةَ **فلكِ البروجِ** ودائرة مُعَدَّلِ [ظ١٧/١] النَّهارِ أكبر خطٍّ في الفلك، **ومنطقة البروجِ منقسمةٌ** بثلاث مئةٍ وستينَ درجَةً، **والدَّرجةُ** من مسافةِ الأرض: خمسةٌ وعشرون فرسخا، **والفرسخُ**: اثنا عشرَ ألفَ ذراعٍ، أي ثلاثة أميال، لأن **الميل**: أربعة آلاف ذراع، **والذِّراعُ**: أربعةٌ وعشرون إصبعاً، **والإِصْبَعُ**: سِتُّ حَبَّاتِ شعيرٍ مصفوفةٌ ملصقٌ بعضها إلى بعضٍ ظهراً لِبَطْنٍ.

وَبَيْنَ دائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهارِ الَّتِي تقسِمُ الفلك بنصفَينِ، وتسامتُ خطَّ الاستواء من الأرضِ، وبينَ كل واحدٍ من القُطْبَيْنِ تِسْعُونَ درجةً.

لكنَّ **العِمارةَ** في الجهة الشَّمالية من خط الاستواء أربعٌ وستُّونَ درجةً والبَاقِي منها خلاءٌ لا عمارةَ فيه لشدَّةِ البردِ والجُمُودِ، كما كانت الجهةُ الجنوبيَّةُ خلاءً كلُّها لشدَّةِ الحَرِّ كما نبين ذلك كله إن شاء الله تعالى.

ثُمَّ إنَّ المُخبرين عن هذا المعمور وحدوده، وعمَّا[1] فيه من الأمصارِ والمُدُنِ والجبَالِ والبحَار والأنهارِ والْقِفَارِ وَالرِّمال مثلَ **بَطْلِيمُوسَ** في كتابِ الجُغْرَافِيَا **وصاحبَ كتاب رُجَار**[2] من بعدِهِ، قسمُوا هذا المَعْمُورَ بسَبْعَةِ أَقْسامٍ ـ يُسَمُّوْنَهَا **الأَقَالِيْم الْسَّبْعَة** بحدودٍ وهميَّةٍ بين المشرق والمغرب ـ متساويةٍ في العرض، مختلفةٍ في الْطُّوْل، فَالإقليمُ الأوَّلُ أطول مِمَّا بعده، وهكذا الثَّاني إلى آخِرِها، فيكونُ الْسَّابعُ أقصرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وضعُ الدَّائرةِ الْنَّاشِئَةِ عن انحِسَارِ الْمَاءِ عن كُرَةِ الأَرْضِ، وكُلُّ واحدٍ من هَـذِه الأقاليمِ عندهم منقَسِمٌ بعشرةِ أجزاءٍ من المغربِ إلى المَشرق على التَّوالي، وفي كل جزءِ الخبرُ عن أحوالِهِ وأحوالِ عُمْرَانِهِ.

البِحار: وذكروا أنَّ هذا **الْبَحْرَ المُحيطَ** يخرجُ منه من جهة المغربِ في الإقليم الرَّابعِ **البحرُ الرُّوْمِيُّ**[3] المعروف، ويبدأ في خليجٍ متضايقٍ في عرض اثني عَشَرَ ميلاً أو نحوها ما بين طنجَةَ وطَرِيفَ ويُسَمَّى **الْزُّقَاقَ**، ثُمَّ يذهبُ مشرِّقاً وينفسحُ إلى عرض ستِّ مئةِ مِيْلٍ ونهايتهُ في آخرِ الجزءِ الرَّابعِ من الإقليمِ الْرَّابعِ على ألفِ فَرْسَخٍ ومئةٍ وَسِتِّيْنَ فَرْسخاً من مَبْدَئه وعليهِ هُنَالِكَ سَوَاحل الْشَّامِ، وعليهِ من جهَةِ الجنُوْبِ سَوَاحِلُ **الْمَغْرِبِ** أوَّلها **طنجة** عند الخليجِ ثُمَّ **أَفْرِيقية** ثم **بَرْقَةُ** إلى **الإسكندريَّةِ**، ومن جهةِ الْشَّمال سَواحلُ **الْقَسْطَنْطِيْنِيَّة**

---

١ - في ن: وما فيه.

٢ - أي الشريف الإدريسي.

٣ - أي البحر الأبيض المتوسط.

عنْدَ الْخليج ثُمَّ الْبَنادقَةُ ثم رومَةُ ثمَّ الإفرنجَةُ ثمَّ الأندَلُسُ إلَى طَرِيْفَ عندَ الزُّقَاق قُبالَةَ طنجَةَ وَيُسَمَّى هذا الْبَحْرُ الرُّوْمِيَّ والْشَّامِيَّ وفيهِ جُزرٌ كثيرةٌ عامرةٌ كبارٌ مثلَ إقْرِيطَش[1] وقُبرُصَ وصقلية وميورقةَ وسرْدَانيَة.

قالوا: ويخرجُ منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين:

أحدهما: مُسَامتٌ للْقَسْطَنْطِيْنِيَّة يبدأ من هذا البحرِ متضايقاً في عرضِ رمية الْسَّهم، ويمدُّ ثلاثة بحار، فيتَّصلُ بالقسطنطينية، ثمَّ ينفسخُ في عرضِ أربعةَ أميال ويمرُّ في جَريه ستين ميلاً ويُسَمَّى خَليج الَقسْطنطينية، ثم يخرجُ من فُوهة عرضها ستَّةَ أميالٍ فيُمدُّ **بحرَ بُنْطس**، وهو بحرٌ ينحرفُ من هَنالك في مذهبه إلى ناحية الْشَّرْق فيمُرُّ بأرضِ هرِيْقْلِيَةَ[2] وَيَنْتَهي إلى بلاَد الخزريَّة على ألف وَثَلاَث مِئَة مِيْلٍ من فوهته، وعليه منَ الجَانبَيْنِ أممٌ من الرومِ والتُّرْكَ وبرجانَ وَالْرُّوْس.

وَالْبَحْرُ الْثَّاني من خَليجي هذا الْبَحر الرُّوْمِيّ، وهو بحر الْبَنادقَة، يخرج من بلاد الروم على سمت الْشَّمال، فإذا انْتَهَى [ظ١٧/٢] إلى سمت الجبلِ انْحَرَفَ في سمت المغرب إلى بلاد الْبَنادقَة، وينتهي إلى بلاد **إنكلاَيَة** على ألف ومِئة ميلٍ من مبدئه وعلى حافتيه من البنادقة وَالْرُّوْم وغيرهم أممٌ، ويُسَمَّى **خليج الْبَنادقَة**.

قَالُوا: وَيَنْسَاحُ من هذا البحر المحيط أيضاً من الشَّرْق وعلى ثَلاَثَ عَشَرةَ دَرَجةً في الْشَّمال من خَطِّ الاسْتوَاء بحرٌ عظيمٌ مُتَّسِعٌ يمرُّ في الجَنُوْب قَليلاً حتَّى ينتهي إلى الإقليمِ الأوَّل، ثمَّ يمرُّ فيه مَغْرباً إلَى أن يَنتَهي في الجزءِ الخَامسِ منه إلى بلاَد الْحَبشَة وَالزِّنْج، وَإلى بلاَد بَاب الْمَنْدَب منهُ عَلَى أَرْبَعَة آلاَف فَرْسَخٍ منْ مَبْدَئه وَيُسَمَّى **الْبَحْر الْصِّيْنِيَّ وَالْهِنْدِيَّ وَالْحَبَشِيَّ**، وَعَلَيْه من جهة الجنوب بلاَدُ الزِّنج وبلادُ بَرْبَرَ الَّتي ذَكرَهَا امْرُؤُ الْقَيْس في شعره، وليسوا من الْبَرْبَر الَّذينَ هم قَبَائلُ الْمَغْرب، ثمَّ بلدُ مَقْدَشُو، ثُمَّ بَلَدُ سُفَالَة، وَأَرْضُ الْوَاقَ وَاق، وَأُمَمٌ أُخرُ ليسَ بعدهم إلاَ الْقفَارُ والخَلاء، وعليه من جهة الْشَّمال الْصِّيْنُ من عنْد مَبْدَئه ثم الْهندُ، ثم الْسِّنْدُ، ثمَّ سواحَل اليمنِ من الأحقَافِ وزبيد وغيرها، ثم بلاد الْزِّنْج عند نهايته، وبعدهم الحبشةُ.

قالوا: ويخرجُ من هذا البحر الحَبَشِيِّ بحرانِ آخران:

---

١ - في المطبوع: أفريطش. نزهة المشتاق:٥٨٨/٢.

٢ - و يقال لها: أركليس، وأرقلية، وهرقلية. نزهة المشتاق:٨٠١/٢.

أحدهما: يخرجُ من نهايته عند باب المَنْدَب، فيبدأُ متضايقاً، ثمَّ يمرُّ مستبْحراً إلى ناحية الشَّمال، ومغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى القَلْزُم في الجزءِ الخامسِ من الإقليمِ الثّاني على ألف وأرْبعِ مِئة مِيْلٍ من مَبْدئه ويُسَمَّى **بَحْرَ الْقُلْزُم**[١] **وبَحْرَ السُّويس**، وبينه وبين فسطاطَ مصرَ من هناكَ ثَلاثُ مراحل، وعليه من جهة الشَّرْق سواحل اليمنِ ثم الْحجازُ وجدَّةُ ثم مدْينُ وأيلةُ وفارانُ عند نهايته، ومن جهة الْغرْب سواحلُ الْصَّعيد وعيذابُ وسواكنُ وزالغُ[٢]، ثم بلادُ الحبشة عندَ مبدئه، وآخرهُ عندَ الْقُلْزُم يُسَامتُ البحرَ الرُّوْمِيَّ عند الْعَريشِ، وبينهما نحو ستَ مراحل، وما زالَ الْمُلُوْكُ في الإسلام وقبلهُ يرومون خرقَ ما بينهما و لم يتمَّ ذلك[٣].

والبحرُ الثّاني من هذا البحر الحبشي ويُسَمَّى **الخليجَ الأخضرَ**[٤]، يخرجُ ما بينَ بلاد السِّندِ والأحقافِ منَ اليمنِ[٥]، ويمرُّ إلى ناحية الْشَّمالِ مُغَرِّباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى

---

١ – أي البحر الأحمر.

٢ – في المطبوع: زيلع. نزهة المشتاق: ١/١٠.

٣ – يعني: توصيل البحرين الأحمر والأبيض في المنطقة التي تم فيها حفر قناة السويس فيما بعد.

٤ – أي الخليج العربي.

٥ – ليس من الضروري أن تكون الأحقاف في اليمن، ومن يدقق في معناها، وما وصف به قومها من بنائهم للصوامع للخلود لا يشك في أنه يتحدث عن الإهرامات...

يحسن بنا التوقف قليلاً عند المسار التاريخي الأسطوري المذكور حول الإهرامات في القديم والحديث، وإن كنت ممن يؤيد فكرة أن ما أطلق عليه: (الفراعنة) وارتباطهم بمصر الحالية لا يتفق والمعطيات الآثارية الموجودة في تلك الديار، وإن كان هناك الكثير من الحكام الذين يمكن أن نصفهم بالطغيان والظلم وغيره ممن مروا على (مصر الحالية)، ولكن لم يثبت أبداً وجود رُقُم تثبت هذا اللفظ الذي أطلقه القرآن الكريم على (فرعون): ﴿ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد﴾.

والذي يستدعي إعادة النظر في التسمية الحالية لمصر؟ ولماذا يصفها الأوربيون في حديثهم عنها بالقبط ولا يقولون مصر؟.

كما أن تلك الآثار العظام المعروفة بالأهرام لم نجد لها ذكراً صريحاً في كتاب الله عز وجل إلا أن تكون قد ذكرت بغير الاسم المعروف الآن؟!.

ومن ادعى أنها (الأوتاد) فكأنه يصف فرعون بباني تلك الأهرامات جميعاً، وليس ببان لهرم واحد يخصه..

وإن كان الأنسب أن يقال: إن الأوتاد هم وزراؤه ومن يعتمد عليهم في تثبيت ملكه... والموصوفون **بالطغيان** في البقاع التي وكلت إليهم لتسيير أمور حكمه، فعاثوا فساداً في الأرض...

ولا أستبعد أبداً أن تكون تلك الديار هي المعروفة بالأحقاف التي أنذرهم نبيهم هود من الطغيان والعدوان.. وخاصة إذا عرفنا أن الأحقاف ليست محددة المعالم عند الأقدمين، وإنما هي من باب الظن والتخمين.. **ونستدل** لذلك بالمعاني المقترحة للأحقاف، والتي يجمعها الوصف بالرمال وإحاطته، والذي يمكن أن ينطبق تماماً على أرض الكنانة...

الأُبُلَّة(١) من سَواحلِ البصرة في الجزء السَّادسِ من الإقليمِ الثَّاني على أربعِ مئة فرسخٍ وأربعين فرسخاً من مبدئه ويُسمَّى **بحر فارس**، وعليه من جهة الشَّرْق سواحل السِّند ومكرانَ وكُرْمَان وفارسٌ والأُبُلَّةُ، وعند نهايته من جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعُمان والْشحرِ والأحقافُ عند مبدئه وفيما بينَ بحرِ فَارسَ والْقُلْزُم جزيرةُ الْعَرَب كأَنَّها داخلةٌ من الْبَرِّ في البحر، يُحيطُ بها البَحرُ الحَبَشيُّ من الجنوب، وبحرُ الْقلْزُمِ من الغرب، وبحرُ فارسٍ منَ الْشَّرْق، وتُفْضي إلى الْعِرَاق بَيْنَ الْشَّام وَالْبَصرَة على ألف وَخَمْس مئة ميلٍ بينَهُمَا، وَهُنَالكَ الْكُوفَةُ وَالْقَادسيَّةُ وبغدادُ وإيْوَانُ كسْرى وَالحيْرَةُ، ووراءَ ذلك أممُ الأعاجم من التُّرْكَ والخزَرِ وغيرهم، وفي جزيرة العرب بلادُ الحجازِ في جهة الغرب منها، وبلادُ الْيَمامة والبحرينِ وعُمَانَ في جهة [ظ١٨/١] الْشَّرْقِ منها، وبلادُ الْيَمَنِ في جهةِ الجَنُوْب منها وَسَواحلهُ على الْبَحْرِ الْحَبَشي.

قَالُوا: وفي هذا الْمَعْمُوْرِ بحرٌ آخرُ منقطعٌ من سائر البحارِ في ناحية الشَّمالِ بأرض الدَّيلم يُسمَّى بحر جُرْجَانَ وطَبَرْستَانَ طُوْلُهُ ألف ميلٍ في عرض ستِّ مئة ميلٍ، في غربيّه أَذَرْبيْجَان والْدَّيلمُ، وفي شرقيّه أرضُ التُّركِ وخوارَزْمَ، وفي جنوبه طَبَرَسْتَانُ، وفي شماليه أرضُ الخَزَرِ وَاللاَّن.

هَذه جملة البحارِ المشهورة التي ذكرها أهلِ الجغرافيا.

قالَوا: وفي هذا الجزء المَعمورِ أنهارٌ كثيرةٌ أعظمها أرْبَعَةُ أنهارٍ وهي: **النيلُ والفراتُ ودجلةُ** ونهرُ بَلْخَ الْمُسَمَّى **جيحون**.

الأنهار: فأمَّا **النيل**: فمبدؤهُ من جبلٍ عظيمٍ وراءَ خطِّ الاسْتواء بستِّ عشرة درجةً على سمت الجزء الْرَّابعِ من الإقليمِ الأوَّل، ويُسَمَّى جبلَ القمرِ، ولا يُعْلَمُ في الأرضِ جبلٌ أعلى منه تخرجُ منه عيونٌ كثيرةٌ فيصُبُّ بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى، ثم تخرجُ أنهارٌ من الْبُحيْرَتَيْنِ فتصُبُّ كلُّهَا في بُحيْرَة وَاحدَة عنْدَ خَطِّ الاستواء على عشر مراحلَ من الجبل، ويخرجُ من هذه الْبُحيْرَة نهرانِ يَذْهَبُ أحدُهما إلى ناحية الْشَّمال على سمته، ويمرُّ ببلادِ النَّوْبَة ثم بلاد مِصْرَ، فإذا جاوزَهَا تَشعَّبَ في شُعَبٍ مُتَقَاربَةٍ يُسَمَّى كلُّ واحد منها

=إضافة إلى الصفات التي كان يتمتع بها قوم عاد، الطامحين في الخلود، والباحثين عنه... وهو مانجده في قوله تعالى: ﴿وتبنون مصانع لعلكم تخلدون﴾، فلماذا لا تكون المصانع ما يعرف الآن بالأهرام؟.

١ - قال ابن خلكان في وفيات الأعيان بعد ضبطها (٤٢٥/١): وهي بلدة قديمة على أربعة فراسخ من البصرة، وهي اليوم من البصرة، وهي من جنان الدنيا، وإحدى المنتزهات الأربع.

خليجاً، وتصب كلها في البحر الرومي عند الإسكندرية ويسمى نيلَ مصْرَ، وعليه الْصَّعِيْدُ من شَرْقِيِّه، والْوَاحَاتُ من غَرْبِيه، ويذهب الآخرُ مُنْعَطفاً إلى المغرب، ثُمَّ يمرُّ على سمته إلى أن يَصُبَّ في البحرِ المحيط، وهو نَهَرُ السُّوْدَان وأممهم كلّهم على ضفّتيه.

وأَمَّا **الْفُرَاتُ**: فَمَبْدَؤُهُ من بلادِ أرمينية في الْجُزْءِ السَّادسِ من الإقليم الخامس، ويمرُّ جنوباً في أرض الرُّوْمِ ومَلطيَةَ إلى منبجَ، ثمَّ يمرُّ بصفّيْنَ، ثم بالرِّقة، ثمَّ بالكوفة، إلى أن ينتهي إلى البطحاء الَّتي بينَ البصرةِ وواسطَ، ومن هناك يصبُّ في البحرِ الحبشي، وتنجلب إليه في طريقه أنهار كثيرة، ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلَةَ.

وَأَمَّا **دجلة**: فمبدؤه عينٌ ببلاد خلاط من أرمينيَّة أيضاً، وتمرُّ على سمت الجنوب بالموصلِ وأَذَرْبيجانَ وبغدادُ إلى واسطَ، فتتفَرَّقُ إلى خُلْجَان كُلُّها تصبُّ في بحيرةَ البَصْرَة، وتُفضي إلى بحر فارسَ، وهو في الْشَّرْقِ على يمين الفرات، وينجلبُ إليه أنهارٌ كثيرةٌ عظيمةٌ من كل جانب وفيما بين الفرات ودجلة من أوّلِه جزيرةُ الموصلِ قُبالة الْشَّامِ من عدوَتي الفرات، وقُبالةً أذَرْبيجان من عُدْوَة دجلة.

وأَمَّا نَهرُ **جيحون**: فمبدؤهُ من بَلْخَ في الجزء الثَّامنِ من الإقليمِ الثَّالث من عُيُوْن هُنَاكَ كثيرة، وَتَنْجلبُ إليه أنهارٌ عظامٌ، ويذهبُ من الجنوب إلى الْشِّمَال فيمرُّ ببلاد خُرَاسَانَ، ثم يخرجُ منها إلى بلاد خُوَارَزْمَ في الجزء الثامن من الإقليم الخامس، فيصبُّ في بحيرة الْجُرْجَانيَّة الَّتي بأَسْفَلِ مدينتها، وهي مَسِيْرَةُ شَهْرٍ في مثْله، وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهرُ فَرْغَانَةَ وَالْشَّاشِ الآتي من بلاد التُّرْك، وعلى غربيِّ نهر جَيْحُونَ بلاَدُ خُرَاسَانَ وَخَوارزْمَ، وَعَلى شَرقِيِّه بلاَدُ بُخَارَى وتُرْمُذَ وسَمَرْقَنْدَ، وَمِنْ هُنَالكَ إلى مَا وَرَاءَهُ بلادُ الْتُّرْكِ وَفَرْغَانَةَ [ظ٢/١٨] وَالْخزَلجيَّة[١] وَأُمَمِ الأَعَاجم.

وَقَدْ ذكر ذلك كلَّه **بَطْلَيْمُوْسُ** في كتابه **وَالْشَّرِيْفُ** في كتاب رُجَار[٢]، وَصَوَّرُوا في الجغرافيا جميعَ مافي المعمورِ من الجبالِ والبحارِ والأودية، واسْتَوْفُوا من ذلكَ ما لا حَاجَةَ لنا به لطُوْله، ولأنَّ عنايتنا في الأكثرِ إنَّمَا هي بالمغربِ الّذي هو وطنُ الْبَرْبَرِ، وبالأَوْطَانِ الَّتي لِلْعَرَبِ من المشرقِ. والله الموَفِّقُ.

---

١ – هم قوم من الترك يسمون الخاقانية والخزلجية. انظر نزهة المشتاق: ٢١٣/١.

٢ – يقصد كتاب محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي، في كتابه المسمى: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. وقد طبع في مكتبة عالم الكتب إلا أنه ينقصها الخرائط التي رسمها الشريف لملك صقلية رجار الثاني، ولذلك عرف الكتاب باسمه.

١-١-٢-١- تَكْمِلَةٌ لِهَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ الثَّانِيَةِ
في أَنَّ الْرَّبْعَ الْشَّمَالِيِّ مِنَ الأَرْضِ أَكْثَرُ عُمْرَاناً من الْرَّبْعِ الْجَنُوبِي وَذِكْرُ الْسَّبَبِ فِي ذَلِكَ

وَنَحْنُ نَرَى بالْمُشَاهَدَةِ وَالأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ **الأَوَّل والثَّاني** من الأقاليم المعمورةِ أقلُّ عمراناً مما بعدهما، وما وُجدَ من عمرانهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الخلاءُ والقِفَارُ والْرِّمالُ، والبحر الهنديُّ[1] الَّذي في الْشَّرْقِ منهما وأمم هذين الإقليمين وأناسيُّهُمَا ليست لهم الكثرةُ البالغةُ وأمصارُهُ ومدُنُهُ كذلك.

والثَّالثُ والرَّابعُ وما بعدهما بخلافِ ذلك فالقفارُ فيها قليلةٌ والرِّمالُ كذلك أو معدومةٌ وأممها وأناسِيُّهَا تجوزُ الحدَّ من الكثرةِ وأمصارها ومدنها تجاوزُ الحدَّ عدداً والعمرانُ فيها مندرجٌ ما بين **الثَّالثِ والْسَّادس والجنوبُ خلاءٌ كلُّهُ.**

وقد ذكر كثيرٌ من الحكماءِ أنَّ ذلكَ لإفْرَاطِ الحرِّ وقلَّةِ ميلِ الْشَّمْسِ فيها عن سَمتِ الرؤوس فلنوضِح ذلك ببرهانهِ ليتبيَّنَ منه سببُ كثرةِ الْعِمارةِ فيما بين الثَّالث والرابع من جانبِ الْشَّمالِ إلى الخامسِ وَالْسَّابعِ.

فنقولُ: إن قطبي الفلك الجنوبيَّ والْشَّمالِيَّ إذا كانا على الأُفُق فهنالك دائرةٌ عظيمةٌ تقسمُ الفلكَ بنصفين، هي أعظمُ الدوائرِ المارَّةِ منَ المَشْرقِ إلى المغربِ، وتسمَّى **دائرة مُعَدَّل النَّهَارِ.**

وقد تبيَّنَ في موضعه من الهيئةِ أنَّ الفلك الأعلى مُتَحَرِّكٌ من المَشْرِقِ إلى المغربِ حركةً يوميَّةً يحرِّك بها سائر الأفلاك في جوفه قهراً، وهذه الحركةُ محسوسةٌ.

وكذلك تبيَّن أن للكواكب في أفلاكها حركةً مخالفةً لهذه الحركةِ، وهي من المغرب إلى المشرق، وتختلفُ آمادها باختلاف حركة الكواكب في الْسُّرْعَةِ والْبُطْءِ.

وممرَّاتُ هذه الْكَوَاكبِ في أفلاكها توازيهَا كُلَّهَا دائرةٌ عظيمةٌ من الفلك الأعلى تقسمه بنصفين، وهي **دائرةُ فلك البروجِ** منقسمةً باثني عشر برجاً، وهي على ما تَبَيَّنَ في موضعهِ مقاطعةٌ لدائرةِ معدَّلِ النَّهارِ على نقطتين متقابلتين من البروجِ همَا أَوَّلُ الحَمَلِ، وأوَّلُ الميزانِ، فتقسمها دائرةُ معدَّلَ النَّهارِ بنصفين نصفٌ مائلٌ عن معدَّلِ النَّهارِ إلى الشَّمَالِ،

---

١ - يعني المحيط المعروف بهذا الاسم.

وهو من أوَّلِ الحمل إلى آخرِ الْسُّنبُلَةِ، ونصفٌ مائلٌ عنه إلى الجنوب، وهو من أوَّلِ المِيزانِ إلى آخرِ الحوتِ.

وإذا وَقَعَ القُطْبَان على الأُفُقِ في جميع نواحي الأَرْضِ كَانَ على سطْحِ الأَرْضِ خَطٌّ واحد يُسَامِتُ دَائِرَةَ مُعَدَّل النهار يمرُّ من المغربِ إلى المشرق ويُسَمَّى **خطَّ الاسْتِوَاء**.

ووقعُ هذا الخطّ بالرَّصْدِ على ما زعموا في مبدإِ الإِقْلِيْمِ الأَوَّلِ مِنَ الأَقَالِيْمِ الْسَّبْعَةِ. وَالْعُمْرَان كلُّه في الْجِهَةِ الْشَّمَالِيَّةِ عنه. والقطب الشمالي يرتفعُ عن آفاق هذا الْمَعْمُوْرِ بِالْتَّدْرِيْج إلى أن ينتهي ارْتِفَاعُهُ إلى أَرْبَعٍ وَسِتِّيْنَ دَرَجةً. وهنالِكَ ينقطعُ الْعُمْرَانُ، وهو آخرُ الإِقْلِيْمِ الْسَّابعِ [ظ١٩/١].

وَإِذَا ارتفعَ على الأُفُقِ تسعينَ درجةً، وهي التي بينَ الْقُطْبِ ودائرة معدَّل النَّهارِ، صار القطب على سمت الرؤوس، وصارت دائرة معدل النهار على الأُفقِ، وبقيتْ ستَّةٌ من البروجِ فوقَ الأُفُقِ، وهي الْشَّمَالِيَّةُ، وستَّةٌ تحت الأفق وهي الجنوبيَّة.

والعمارةُ فيما بينَ الأربعةِ وَالْسِّتين إلى الْتِّسْعِيْنَ ممتنعةٌ، لأن الحر والبرد حينئذٍ لا يحصلان ممتزجين لبعدِ الزَّمان بينهما، فلا يحصلُ التَّكوِيْنُ.

فإِذاَ الشَّمْسُ تُسَامِتُ الْرُّؤوسَ على خطِّ الاسْتِوَاءِ في رأس الحَمَلِ والميزان، ثمَّ تميلُ عن المسامَتَةِ إلى رأسِ الْسَّرَطَان ورأسُ الجَدي، ويكونُ نهايةُ مَيْلِهَا عن دائرةِ مُعَدَّلِ النَّهارِ أربعاً وعشرين درجةً.

ثمَّ إذا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ الْشَّمَالِيُّ عنِ الأُفُقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدَّلِ النَّهار عن سمتِ الرُّؤوس بمقدار ارْتِفَاعِهِ، وانخفض القطبُ الجنوبيُّ كذلك بمقدارٍ متساوٍ في الْثَّلاثَةِ، وهو المسمى عند أهل المواقيتِ **عرضَ البَلَدِ**.

وإِذَا مالَت دائِرَةُ معدَّل النَّهار عن سمتِ الرُّؤوس، علت عليها الْبُرُوجُ الْشَّمالِيَّةُ مُنْدَرِجَةً في مقْدارِ عُلُوِّهِا إلى رأس الْسَّرَطَان، وانْخَفَضَتِ الْبُرُوْجُ الْجَنُوْبِيَّةُ من الأفق كَذَلِكَ إلى رأسِ الْجَدْي؛ لانحِرَافِهَا إلى الْجَانِبَيْنِ في أُفُقِ الاستواء كما قلناها فلا يزالُ الأفق الشَّماليُّ يرتفع حتى يصيرَ أبعد الشَّمالية، وهو رأسُ السَّرطَان في سمت الرؤوس، وذلك حيث يكونُ عرضُ البلدِ أربعاً وعشرينَ في الحجاز وما يليه، وهذا هو المَيْلُ الَّذِي إذَا مَالَ رَأْسُ الْسَّرَطَانِ عن مُعَدَّلِ الْنَّهَارِ في أُفُقِ الاستِوَاءِ، ارْتَفَعَ بارتِفاعِ الْقُطْبِ الْشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامِتاً.

فَإِذَا ارْتَفعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْنَ، نَزَلَتِ الْشَّمْسُ عن الْمُسَامَتَةِ، ولا تـزالُ في انخفاضٍ إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستينَ، ويكون انخفاض الْشَّمْسِ عـن المسَامتةِ كذلكَ، وانخفَاضُ القُطْبِ الجنوبي عن الأفق مِثلَهَا فينقطعُ التَّكويـنُ لإفـراطِ البردِ والجمـدِ وطوْلِ زَمَانِهِ غَيْرُ مُمْتَزِجٍ بالْحَرِّ.

ثُمَّ إِنَّ الْشَّمْسَ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ وَمَا يُقارِبُهَا، تَبْعَثُ الأَشِعَّةَ على الأرض، على زوايا قَائِمَةٍ، وفيمَا دُوْنَ الْمُسَامَتَةِ على زَوَايا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ.

وَإِذَا كَانَتْ زَوَايَا الأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ الْضَّوْءُ وَانتَشَرَ، بخِلافِهِ في الْمُنْفَرِجَةِ وَالحَادَّةِ **فَلِهَذَا يَكُوْنُ الْحَرُّ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ** وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيْمَا بَعْدُ، لأَنَّ الْضَّوْءَ سَبَبُ الْحَرِّ وَالتَّسْخِيْنِ.

ثُمَّ إِنَّ الْمَسَامَتَةَ في خَطِّ الاسْتِوَاء تكونُ مرَّتين في السنة عندَ نُقْطَتَي الْحَمَلِ وَالْمِيْزَان، وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيْدٍ، وَلاَ يكاد الحرُّ يعتدلُ في آخر ميلها عند رأس الْسَّرَطان والجدي إلا إن صَعِدَت إلى الْمُسَامَتَةِ، فتبقى الأشعَّةُ القائمةُ الزَّوَايَا تُلِحُّ على ذلك الأُفُقِ، ويطُولُ مُكْثُهَا أَو يدومُ، فيَشْتَعِلُ الهواءُ حرارةً، ويُفْرِطُ في شِدَّتِهَا.

وكذا ما دامَتِ الشَّمسُ تُسَامِتُ مَرَّتين فيما بعد خَطِّ الاستواءِ إلى عرضِ أَرْبَعٍ وعشرينَ، فإنَّ الأشعَّةَ مُلِحَّةٌ على الأفق في ذلك بقريبٍ من إلحاحها في خط الاستواء. **وإفراطُ الحرِّ** يفعلُ في الهواءِ تجفيفاً ويَبساً يمنعُ من التَّكوينِ، لأنَّهُ إذا أفرطَ الحرُّ جفَّتْ الْمِيَاهُ والرُّطوباتُ، وفسدَ التَّكوينُ في المعدنِ [ظ١٩/٢] والنَّباتِ والحيوان، إذِ التَّكْوِيْنُ لا يكون إلاَّ بالرُّطوبةِ.

ثمَّ إذا مال رأسُ الْسَّرَطان عن سمتِ الْرُّؤوسِ في عرضِ خمسٍ وعشرينَ فما بعدهُ، نزلتِ الشَّمس عن المُسَامتةِ، فيصيرُ الحرُّ إلى الاعتدال، أو يميلُ عنه ميلاً قليلاً، فيكونُ التكوينُ، ويتزايدُ على التدريج، إلى أن يُفْرطَ البردُ في شَدَّتهِ، لِقلَّةِ الْضَّوءِ، وكونِ الأشعَّةِ منفرجةَ الزوايا ـ فينقُصُ التَّكوينُ، ويفسدُ.

بيدَ أنَّ **فَسَادَ الْتَّكوينِ** من جهةِ شِدَّةِ الحر أَعْظَمُ منه من جهة شدة البردِ، لأنَّ الحرَّ أسرعُ تأثيراً في التَّجفيف من تأثير البَرْدِ في الجَمَدِ. فلذلك كانَ الْعُمْرانُ في الإقليمِ الأوَّلِ والثَّاني قليلاً، وفي الثَّالِثِ والرَّابع والخامسِ مُتوسِّطاً، لاعْتِدَال الحرِّ بنقصان الضَّوء. وفي السَّادِسِ والسَّابعِ كثيراً لنُقصانِ الحرِّ، وأنَّ كيفيَّةَ البردِ لا تؤثِّرُ عند أوَّلها في فساد التَّكوينِ

كمَا يفعلُ الحرُّ، إذ لا تَجْفِيْفَ فيها إلاَّ عندَ الإفراط بما يعرضُ لها حينئـذٍ مـن اليَبْـسِ كمـا بعدَ السَّابع.

فَلِهَذَا كان **العمران في الرُّبْعِ الْشَّمَالِيِّ** أكثرَ وَأَوْفَرَ. وا للهُ أعلمُ.

ومـن هنَـا أخـذَ الحكمـاءُ خـلاءَ خـطِّ الاسـتواء ومـا وراءهُ، وأوردَ عليهـم أنَّـهُ معمـورٌ بالمُشَاهدةِ والأخبارِ المتواترةِ، فكيفَ يتمُّ البرهانُ على ذلك والظَّاهِرُ أنَّهم لم يريدوا امتنـاعَ العُمرانِ فيه بالكليـة، إنمـا أداهـم البرهـان إلى أن فسـاد التكويـن فيـه قـوي بـإفراط الحـرِّ، والعمرانَ فيه، إما ممتنعٌ أو ممكنٌ أَقَلِّيٌّ، وهو كذلك فإنَّ خطَّ الاسـتواءِ والَّـذِي وراءَهُ، وَإِنْ كان فيه عمرانٌ ـ كما نُقِلَ ـ فهو قليلٌ جدّاً.

وقد زعمَ **ابنُ رُشدٍ** أنَّ خطَّ الاستواء معتدلٌ، وأنَّ ما وراءهُ في الجنـوبِ بمَثَابَـةِ مـا وراءهُ في الشَّمالِ فيعمرُ منه مَا عَمَرَ من هَذَا، والَّذِي قالـهُ غـير ممتنـعٌ مـن جهـة فسـاد التَّكويـن، وإنَّما امتنَعَ فيما وراءَ خطِّ الاستواءِ في الجنوبِ، مـن جهـةِ أَنَّ الْعُنْصُـرَ الْمَـائِيَّ غَمَـرَ وَجْـهَ الأَرْضِ هُنَالِكَ إلىَ الحَدِّ الَّذي كانَ مقابلُهُ من الجهــة الشَّـماليَّةِ قَـابلاً لِلْتَّكويـنِ، ولَمَّـا امْتَنَـعَ الْمُعْتَدِلُ لغَلَبَةِ[1] المَاءِ، تَبِعَهُ ما سواهُ؛ لأنَّ العمرانَ متـدرِّجٌ. ويـأخذُ في الْتَّدرِيْـجِ مـن جهـةِ الوجودِ، لا من جهةِ الامتناعِ.

وأما الْقَوْلُ بامتناعه في خط الاستواء، فيرُدُّهُ النَّقلُ المتواترُ، وا للهُ أَعْلَمُ.

وَلْنرْسُمْ بعدَ هَذَا الكلامِ **صُوْرَةَ الْجُغرافِيَا** كما رسَمها صاحبُ كتابِ رجار، ثم نـأخذُ في تفصيل الكلامِ عليها إلى آخره[2]. [ظ٢٠/١].

---

١ – في ن: لغيبة.

٢ – في ظ: ويتلوها الكلام عليها مفصلاً تمت.

صورة الأرض من نـزهة المشتاق للشريف الإدريسي



١-١-٢-٢- تَفْصِيْلُ الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ[1] الْجُغْرَافِيَا

اِعْلَمْ: أنَّ الْحُكَماء قسموا هذا المعمورَ كما تقدَّم ذكرهُ على سبعةِ أقسامٍ من الشَّمالِ إلى الجنوبِ، يُسَمُّونَ كلَّ قسمٍ منها إقليماً، فانقَسَمَ المعمورُ منَ الأرضِ كُلُّهُ على هذه السَّبْعَةِ الأقَالِيْمِ، كلٌّ واحدٍ منها آخذٌ منَ الغَرْبِ إلى الشَّرقِ على طُوْلِهِ.

فَالأَوَّلُ منها مارٌّ من المغرب إلى المشرق مع خطِّ الاستواء، بحدّه من جهة الجنوبِ، وليسَ وراءهُ هنالك إلا القِفَارُ والرِّمالُ وبعضُ عِمارَةٍ، إن صحت فهي كلا عمارةَ، ويليه من جهة شمالية الإقليم **الثَّاني**، ثُمَّ **الثَّالِثُ** كذلك، ثُمَّ **الرَّابعُ والخامسُ والسَّادسُ والسَّابعُ**، وهو آخرُ العُمران من جهة الشمال.

وليسَ وراء السَّابعِ إلا الخَلاءُ والقِفَارُ، إلى أن ينتهي إلى البحر المحيطِ، كالحالِ فيما وراء الإقليم الأوَّل في جهة الجنوب.

إلا أنَّ **الخَلاءَ** في جهةِ الشَّمالِ أقلُّ بكثيرٍ من الخلاء الَّذي في جهة الجنوب.

ثُمَّ إنَّ أزمنةَ **اللَّيل والنَّهار** تتفاوَتُ في هذه الأقاليْمِ بسَبَبِ مَيْلِ الْشَّمْسِ عن دائِرَةِ معدَّلِ النَّهارِ، وارْتِفَاعِ القُطبِ الْشَّمالِي عن آفاقها، فيتفاوت قوسُ اللَّيْلِ والنَّهارِ لِذَلِكَ. وينتهي طولُ اللَّيْلِ والنَّهارِ في آخرِ الإقْلِيْمِ الأوَّل، وَذَلِكَ عندَ حُلول الْشَّمْسِ برأسِ الْجَدْي لِلَّيْلِ، وبرأسِ السَّرطان للنَّهار، كلٌّ واحدٍ منهما إلى ثلاث عشرةَ ساعةً. وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشَّمالَ، فينتهي طولُ النَّهارِ فيه عند حلولِ الشَّمسَ برأس الْسَّرطان. وهو منقلَبُهَا الصَّيْفِيُّ، إلى ثلاث عشرة ساعةً ونصفِ ساعةٍ، ومثلهُ أطولُ اللَّيْلِ عندَ منقلبها الشتوي برأس الجَدِي، ويبقى للأقصر منَ اللَّيْلِ وَالْنَّهارِ مايبقى بعدَ الْثَّلاث عشْرة ونصفٍ من جملة أربعٍ وعشرين السّاعاتِ الزّمانيةِ لمجموعِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وهي دورة الفَلَكِ الكاملةُ. **وكذلك** في آخر الإقليمِ الثَّالثِ مما يلي الشَّمالَ أيضاً ينتهيان إلى أربعَ عشرةَ ساعةً.

وفي آخرِ الرَّابعِ إلى أربعَ عشرةَ ساعةً ونصف ساعةٍ. وفي **آخر** الخامس إلى خمس عشرة ساعةً. وفي **آخر** السَّادِسِ إلى خمسَ عشرةَ ساعةً ونصف. وفي **آخِرِ** الْسَّابعِ إلى ستَّ عشرةَ سَاعةً، وهُنَالكَ ينقطعُ العُمرانُ، فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطولِ من ليلها ونهارها

١ – في ن: بدء.

بنصفِ ساعةٍ، لكل إقليم يتزايد من أوله في ناحيـة الجنـوبِ إلى آخـرِه في ناحيـة الشَّـمالِ، موزَّعةً على أجزاءِ هذا البُعْدِ.

وَأَمَّا عَرْضُ الْبُلْدَانِ في هذه الأقَالِيْمِ، فهو[١] عِبارَةٌ عـن بعـد مـا بـين سَـمْتِ رأْسْ البلـدِ ودائِرَةِ معدَّل النَّهار، الَّذِي هو سمـتُ رأسِ خـطِّ الاستواء وبمثله سـواءٌ ينخفـضُ القطـبُ الجنوبيُّ عن أفق ذلكَ البلد، ويرتفعُ القطبُ الْشَّماليُّ عنه وهو ثلاثةُ أبعادٍ متساويةٌ، تسمى عرض البلدِ كما مرَّ ذلك قبلُ.

وَالْمُتكَلِّمونَ على هذه الجغرافيا، قسموا كل واحدٍ من هذه الأقـاليمِ الْسَّبْعَةِ، في طُوْلِـهِ مِنَ المغربِ إلى المشرقِ بعشرةِ أجزاءِ متساويةٍ، ويذكرون ما اشتملَ عليه، كـلُّ جـزء منهـا من البلدان، والأمصارِ، والجبال، والأنهار، والمسافاتِ بينها في المسالكِ، ونحـن الآن نوجـزُ القولَ في ذلكَ باختصار [ظ ٢٠/٢]، ونذكرُ مشاهيرَ البُلْدَان والأنهارِ والبحارِ في كلِّ جزء منها، ونحاذِي بذَلِـكَ، مـا وقـعَ في كتـاب **نزهـة المشـتاق** الَّـذي ألَّفـه العَلَـويُّ الإدريسـيّ الحمُّوْدِيُّ لِمَلكِ صِقِلِّيَةَ من الإفرنج، وهو رُجَارُ بنُ رُجَار، عندما كَانَ نازلاً عليه بصِقليـة، بعد خروجِ صقلِّيَةَ من إمارة مَالِقَة، وكان تأليفهُ للكتابِ في منتصفِ المئةِ الْسَّادِسَةِ، وجمـعَ لهُ كتباً جمَّةً: للمسعوديّ وابنِ خَرْداذبهِ والْحوْقَلِيِّ وَالْعُذْرِيِّ[٢] وإسْـحَاق[٣] [بـن الحسـن] الْمُنَجِّم وَبطِلْيمُوْسَ وغيْرِهِمْ، وَنَبْدَأُ مِنْهَا بالإِقْلِيْمِ الأوّلِ إلى آخرِهَـا، وا لله سـبحانه وتعـالى يعْصِمُنا بمنِّهِ وفَضْلِهِ.

الإِقْلِيْمُ الأَوَّلُ: وَفِيْهِ من جهة غربيهِ الجزائرُ الخـالداتُ الـتي منهـا بـدأ بطليمـوسُ بـأخذ أطوالِ البلادِ، وليست في بسيطِ الإقليمِ، وإنما هي في البحر المحيـط جـزرٌ متكـثِّرةٌ، أكبرهـا وأشهرها ثلاثٌ، وَيُقالُ: إنها معمورةٌ.

وقد بلغنا أن سفائنَ من الإفرنج مَرّتْ بها في أوَاسِطِ هذه المئة، وقَاتلوهم فغنمـوا منهـم وَسَبوا، وباعوا بعض أسراهم[٤] بسواحلِ المَغربِ الأقصى، وصـاروا إلى خدمـة السُّـلطان، فلمَّا تعلموا اللِّسَان العربيَّ أخـبروا عـن حـلِ جزائرهـم، وأنَّهـم يحتفِـرون الأرض للزراعـةِ بالقُرُوْنِ، وَأنَّ الْحديدَ مفقـودٌ بـأرضهم، وعَيشـهم مـن الشـعير، وماشيتهم المعزُ وقتـالهم

---

١ – في ن: وهو.
٢ – في المطبوع: الْقَدْرِيِّ. خطأ.
٣ – في الأصل: ابْنِ إسْحَاق. خطأ صحح من نزهة المشتاق: ٦/١.
٤ – في ن: أساراهم.

بالحجارة، يرموها إلى خلفُ، وعبادهم السُّجود للشمس إذا طلعت، ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوةٌ.

ولا يوقفُ على مكان هذه الجزائرِ إلا بالعثور، لا بالقصد إليها، لأنّ سفر السُّفُنِ في البحر إنما هو بالرياح، ومعرفة جهات مهابِها، وإلى أين يُوصلُ إذا مرَّت على الاستقامةِ منَ البلادِ الَّتي في ممرّ ذلكَ المَهَبِّ وإذا اختلفَ المهبُّ، وعلمَ حيثُ يوصلُ على الاستقامة حُوْذَي به القلعُ محاذاةً يحملُ السَّفينة بها على قوانين في ذلك تُحصِّلُهُ عند النواتيةِ[1] والملاحين الذين هم رؤسَاءُ السُّفُنِ في البحرِ.

والبلادِ الَّتي في حافات البحرِ الرُّومي، وفي عدوتهِ مكتوبةً كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود، وفي وضعها في سواحلَ البحر على ترتيبها، ومهابُّ الرِّياحِ وممراهّا على اختلافها مرسومٌ معها في تلكَ الصَّحيفةِ، ويسمُّونها **الكِنْبَاص**[2]، وعليها يعتمدون في أسفارهم.

وهذا كُلُّهُ مفقودٌ في البحر المحيط، فلذلكَ لا تَلجُ فيه السُّفُنُ، لأَنَّها إن غابَتْ عن مَرْأَى السَّواحلِ، فقلَّ أن تهتديَ إلى الرُّجُوعِ إليها معَ ما ينعقدُ في جوّ هذا البحر، وعلى سطح مائه من الأبخرة المُمانعَة للسُّفُنِ في مسيرها، وهي لبُعدها لا تُدْرِكُها أَضواءُ الشَّمْسِ المُنْعَكِسَةِ من سطحِ الأَرضِ فتحلّلها، فلذلك عسُرَ الاهتداءُ إليها، وصعُب الوقوفُ على خبرها.

وأمَّا الجزءُ الأوَّلُ من هذا الإقليم ففيه مصبُّ النيلِ الآتي من مبدئه عند جبلِ القمر، كما ذكرناهُ، ويُسَمَّى نيل السُّودَانِ ويذهب إلى البحر المُحيطِ، فيُصبُّ فيه عندَ جزيرةِ أوليكَ.

وعلى هذا النِّيل مدينة سَلاَ وتَكْرُورُ[3] وغانةُ، وكلها لهذا العهد في مملكةِ **ملك مالي** من أمم السُّودان، وإلى بلادهم تسافر تُجَّارُ المغربِ الأقصى، وبالقرب منها من شماليها [ظ١/٢١] بلادُ لمتونةَ وسائرُ طوائفِ المُلَثَّمينَ، ومفاوزُ يجولونَ فيها.

---

١ - جمع نوتى وهو الملاح في البحر.

٢ - compass البوصلة. وأصلها من (قَبَس) إذ هي كالنار التي يسترشد بها، وقد زاد حرف الميم كركيزة للنطق.

٣ - تكرور: بلاد تنسب إلى قبائل من السودان في أقصى جنوب المغرب.

وفي جنوبيّ هذا النيل قومٌ من السُّودان، يُقَالُ لهم: لِمْلَمُ، وهم كُفَّارٌ، ويكتوونَ في وجوههم وأصداغهم، وأهلُ غانةَ والتَّكرورِ يُغيرون عليهم، ويسبونهم ويبيعونهم للتجَّارِ، فيجلبونهم إلى المغرب، وكلهم عامَّةً رقيقهم.

وليسَ وراءَهم في الجنوبِ عُمرانٌ يعتبرُ إلاَّ أناسِيُّ أقربُ إلى الحيوان العُجم من النَّاطِق، يَسْكُنُوْنَ الفيَافِي وَالْكُهُوْفَ، وَيَأْكُلُوْنَ الْعِشْبَ والحُبُوْبَ، غيرَ مُهيَّأَةٍ، وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بعضاً، وليسُوا في عِدَادِ الْبَشَرِ.

وَفَوَاكِهُ بِلاَدِ الْسُّوْدَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُوْرِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلِ توَاتٍ وَتَكْدرارِينَ وَوَرْكَلاَنَ.

فَكَانَ في غانَةَ ـ فِيْمَا يُقَالُ ـ مَلِكٌ ودولةٌ لقومٍ من العلويين يُعرفونَ ببني صالحٍ، وقال صاحبُ كتابِ رجَار: إِنَّهُ صالحُ بْنُ عبدِ اللهِ بن حسنِ بنِ الحَسَنِ[1]. ولاَ يُعْرَفُ صالحٌ هذا في ولد عبد الله بن حسنٍ، وقد ذَهَبَتْ هذه الْدَّوْلَةُ لهذا العهد وصَارَتْ غانَةُ لِسُلطانِ مَالِي.

وفي شَرْقِي هذا البَلَدِ، في الجزء الثالث من الإقْلِيْمِ، بَلَدُ: كوكو على نهرٍ يَنْبعُ من بعض الجبالِ هنالك ويمرُّ مُغَرِّباً فيغوصُ في رمالِ الجزء الثَّانِي، وكان مَلِكُ كوكو قائماً بنفسهِ، ثمَّ استولى عليها سلطانُ مالِي، وأصبحت في مملكته، وخربت لهذا العهد من أجل فتنةٍ وقعت هناك، **نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر.**

وفي جنوبيِّ بلد كوكو بلادُ كَانِمَ، من أمم السُّوْدَانِ، وبعدهم وَنَغَارَةُ على ضِفَّةِ النِّيْلِ من شماليه.

وفي شرقي بلاد ونغارَةَ وكانمَ، بلادُ زَغَاوَةَ[2] وتَاجَرةَ[3] المُتَّصِلَةُ بِأَرْضِ النَّوْبَةِ في الجزءِ الرَّابعِ من هذا الإقْلِيمِ، وفيه يمرُّ نيلُ مِصْرَ ذاهباً من مبدئهِ عند خط الاستواءِ إلى البحرِ الرُّوْمِي في الشَّمال.

ومخرجُ هذا النِّيْلِ من **جبل القَمَرِ** الَّذِي فوقَ خط الاستواء بِستَّ عَشْرَةَ درجةً.

---

١ - نزهة المشتاق: ١/٢٣.

٢ - زغاوة: قيل: جنس من السودان. وقيل: بلد في جنوب أفريقية بالمغرب. ويقال: كان لهم مملكة عظيمة من ممالك السودان، في جهة الشرق منها مملكة النوبة.

٣ - بلدة صغيرة بالمغرب من ناحية هنين من سواحل تلمسان.

واختلفوا في ضبطِ هذه اللَّفْظَةِ فضبطها بعضهم بفتح القافِ والميم، نسبةً إلى قمر السَّماء لِشِدَّةِ بياضه وكثرةِ ضوئه. وفي كتاب **المُشْتَرَكِ لِيَاقُوْتٍ** بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُوْنِ الْمِيْمِ، نِسْبَةً إلى قومٍ من أهل الْهِنْدِ، وَكَذَا ضَبَطَهُ **ابْنُ سَعِيْدٍ**.

فَيَخْرُجُ من هَذَا الْجَبَلِ عَشْرُ عُيُوْنٍ تجتمعُ كلُّ خمسةٍ منها في بحيرةٍ وبينهما ستَّةُ أميالٍ، ويخرجُ من كل واحدةٍ من البحيرتين ثلاثةُ أنهار، تجتمعُ كلُّها في بطيحةٍ واحدةٍ، في أسفلها جبلٌ مُعْتَرِضٌ يشُقُّ الْبَحِيْرَةَ من ناحيةِ الشَّمال، وَيَنْقَسِمُ ماؤُهَا بِقِسْمَيْنِ، فيمُرُّ الغربيُّ منه إلى بلادِ السُّودان مغرّباً حتى يصُبَّ في البحرِ المحيطِ، ويخرجُ الشَّرْقيُّ منه ذاهباً إلى الشمال على بلادِ الحبشةِ والنّوْبةِ، وفيما بينهما، وينقسمُ في أعلى أرضِ مِصْرَ فَيَصُبُّ ثلاثةٌ من جداولِهِ في البحرِ الرُّومي عند الإسكندرية، ورشيد ودِمياط، ويصبُّ واحدٌ في بحيرة مَلحة قبل أن يتصلَ بالبحر في وسط هذا الإقليمِ الأوَّل.

وعلى هذا النِّيل بلادُ النَّوبةِ والحَبَشَةِ وبعُض بلاد الواحَاتِ إلى أسوانَ، وحاضرةُ بلادِ النَّوبة مدينةُ دنقَلَةَ، وهي في غربي هذا النيل، وبعدها علوةُ وبَلاَقُ[1]، وبعدهما جبلُ [ظ٢/٢١] الجنادِلِ على ستَّةِ مراحِلَ من بَلاَقَ في الشَّمَال، وهو جَبَلٌ عالٍ من جهةِ مِصْرٍ ومنخفِضٌ من جهَةِ النَّوْبَةِ، فينفُذُ فيهِ النِّيْلُ وَصبُّ في مهوًى بعيدٍ صبّاً هَائِلاً، فلا يُمكِنُ أنْ تَسْلُكَهُ الْمَرَاكِبُ، بَلْ يحوَّلُ الوسقُ من مراكِبِ السُّودان، فيُحملُ على الظَّهْرِ إلى بلادِ[2] أَسْوَانَ قَاعِدَةِ الصَّعِيْدِ، وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فَوْقِ الْجَنَادِلِ.

وَبَيْنَ الْجَنَادِلِ وَأَسْوَانَ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرْحَلَةً، والواحاتُ في غربيها عدوةُ النِّيْلِ وهي الآنَ خرابٌ، وبها آثارُ العِمَارة القديمة.

وفي وسط هذا الإقليمِ في الجزء الخامس منه بلادُ الحبشةِ على وادٍ يأتي من وراء خطِّ الاستواء، ويمر قبالة مقديشو التي في جنوب البحر الهندي ذاهباً إلى أَرْضِ النَّوْبَةِ، فَيَصُبُّ هُنَاكَ في النيل الهَابطِ إلى مصرَ، وقد وهمَ فيه كثيرٌ من النَّاسِ، وزعموا أنَّهُ من نيل القمر، وَبَطليموسُ ذكرهُ في كتاب الجغرافيا. وذكر أنه لَيسَ من هذا النيل.

وإلى وَسَطِ هَذَا الإِقْلِيْمِ في الجزء الخامس ينتهي بحرُ الهندِ الَّذِي يدخُلُ من ناحيةِ الصِّيْنِ ويغمرُ عامَّةَ هذا الإقليمِ، إلى هَذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ فلا يبقى فيه عُمْرَانٌ إلاَّ ما كانَ في

---

١ - بلاق: بلد في آخر الصعيد، وأول النوبة، كالحد بينهما.

٢ - في ن: بلد.

الجزائرِ الَّتي في داخِلِه، وهي متعددةٌ يُقَالُ: تنتهي إلى ألفِ جزيرةٍ، أو فيما على سواحله الجنوبية، وهي آخر المعمور في الجنوب، أو فيما على سواحلهِ من جهة الشَّمَال، وليسَ منها في هذا الإقليمِ الأوَّلِ إلاَّ طَرفٌ مِنْ بلادِ الصِّيْنِ في جهةِ الْشَّرْقِ، وفي بلادِ اليَمَنِ.

وفي الجزء السَّادِسِ من هذا الإقليم، فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي، إلى جهة الشَّمالِ وهما بحرُ القُلْزُم[1]، وبحرُ فارسَ[2]، وفيما بينهما جزيرة العرب، وتشتمل على بلادِ اليمنِ، وبلاد الشِّحْرِ في شَرْقِيِّها على ساحل هذا البحر الهندي، وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما إليهما، كما نذكُرُهُ في الإقليم الثَّاني وما بعدهُ.

فأمَّا الَّذي على ساحِلِ هذا البحر من غربيهِ فَبَلَدُ: زَالِغ مِنْ أطرافِ بلادِ الْحَبَشَةِ، ومَجَالاَتِ الْبجَّةِ[3] في شمالي الْحَبَشَةِ ما بينَ جبلِ العَلاَّقي الذي في أعالِي الصَّعيدِ، وبينَ بحر الْقُلْزُمِ الهَابطِ من البحرِ الْهِنْدِيّ، وتحتَ بلادِ زَالِغَ من جهةِ الْشَّمَالِ في هذا الجزء خليجُ بابِ المندبِ يضيقُ البحرُ الهابطُ هنالك بمزاحمةِ جبلِ الْمَنْدَبِ المائلِ في وسط البحر الْهِنْدِيِّ، ممتدّاً مع ساحلِ اليمنِ من الجنوبِ إلى الشَّمال في طول اثني عشرَ ميلاً، فيضيقُ البحرُ بسببِ ذلك إلى أن يصيرَ في عرضِ ثَلاَثَةِ أميَالٍ أو نحوهَا، ويُسَمَّى بابَ الْمَنْدَبِ، وَعَلَيْهِ تَمُرُّ مَرَاكِبُ اليَمَنِ إلى ساحلِ الْسُّويس قريباً من مصر.

وتحت بابِ الْمَنْدَبِ جزيرةُ سواكِنَ ودَهْلَك[4]، وقبالتهُ من غربيهِ مجالاتُ الْبجَّةِ من أمم الْسُّوْدَانِ، كما ذكرناهُ، ومن شرقيه في هذا الجزء تهائمُ اليَمَنِ، ومنها على ساحلهِ بلدُ علي بن يعقوب.

وفي جهةِ الجُنُوْبِ من بَلَدِ زَالِغَ، وعلى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غربيهِ قُرَى بَرْبَرٍ يتلو بعضها بعضاً وَيَنْعَطِفُ من جنوبيِّه إلى آخر الجُزءِ الْسَّادِسِ.

وَيَلِيْهَا هُنَالِكَ مِنْ جِهَةِ شَرْقِيِّهَا بِلاَدُ الْزِّنْجِ، وبعدها مدينة **مقديشو**، وهي مدينة مستبحرة العمارة، بدوية الأحوال، كثيرة البحار، على ساحل البحر الهندي من جنوبه، ثُمَّ يليها شرقاً بِلاَدُ سُفَالَة[5] من ساحلِهِ الجنوبي في الجزء السابع من هذا [ظ٢٢/٢] الإقليم،

---

١ - هو البحر الأحمر.

٢ - وهو الخليج العربي.

٣ - ويقال أيضاً: البجاة وهي اسم لبعض القبائل.

٤ - ويقال أيضاً: دهيك. وكانت المرسى بين بلاد اليمن والحبشة.

٥ - مدينة وميناء أنشأه البرتغاليون بأفريقيا الشرقية في القرن السادس عشر الميلادي.

وفي شرقي بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلادُ الْوَاقْ وَاقِ، مُتَّصِلَةً إلى آخرِ الْجُزْءِ العاشِرِ من هذا الإقْلِيْمِ عندَ مدخَلِ هَذَا البَحْرِ من البحر المحيط.

وَأَمَّا جزائرُ هذا البحرِ فكثيرةٌ؛ من أعظمها جزيرةُ سَرَنْدِيبَ مدوَّرَة الشَّكل. وبها الجبل المشهورُ، يُقَالُ: لَيْسَ في الأرض أعلى منه، وهي قبالةُ سُفَالَةَ[1]. ثُمَّ **جَزِيْرَةُ الْقَمَرِ**، وهيَ جزيرةٌ مُسْتَطِيْلَةٌ، تبدأُ من قبالةِ أرضِ سُفَالَةَ وتذهبُ إلى الْشَّرْق منحرفةً بكثيرٍ إلى الشمال إلى أن تَقْرُبَ من سوَاحِلِ أَعَالِي الصِّيْنِ، وَيَحْتَفُّ بها في هذا البَحْرِ مِنْ جنوبيها جزائرُ الوَقْ وَاق، ومن شَرقيها جزائرُ السِّيلان إلى جزائرَ أخرَى في هذا البحر كثيرةِ العدد، وفيها أنواعُ الطِّيوبِ والأفاوهِ[2]، و- فيما يُقَالُ - مَعَادِنُ الذَّهبِ والزُّمُرُّدِ، وعامَّةُ أهلها على دِيْنِ المَجُوْسِيَّةِ، وفيهم مُلُوْكٌ متعددون، وبهذه الجزائرِ من أحوالِ العُمْرَانِ عجائبُ ذكرهَا أهلُ الجغرافيا.

وعلى الضِّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ من هذا البحرِ في الجزءِ السَّادِسِ من هذا الإقليمِ، بلادُ الْيَمَنِ كُلُّهَا، فمن جهةِ بحرِ الْقُلْزُم بلدُ زَبِيدَ، والمهجَمُ وتهامةُ الْيَمَنِ، وبعدهَا شرقاً بلدُ صَعْدَةَ مَقَرُّ الإِمَامَةِ الزَّيْدِيَّةِ، وهي بعيدةٌ عن البحرِ الْجَنُوبي وعن البحر الشَّرْقِيّ، وفيما بعد ذلك مدينةُ عدَنَ، وفي شماليها صَنْعَاءُ، وبعدهما إلى الْمَشْرِق أرضُ الأحْقَافِ وظُفَارٍ وبعدَهَا أرضُ حَضْرَمُوتَ، ثمَّ بلادُ الشِّحْرِ، ما بينَ البَحْرِ الجنوبيِّ وبحرِ فارسَ.

وهذه الْقِطْعَةُ من الجزءِ السَّادِسِ هي الَّتِي انْكَشَفَتْ عَنْهَا البحرُ من أجزاءِ هذا الإقليمِ، الوُسطى وينكَشِفُ بعدهَا قليلٌ من الجزءِ التَّاسِعِ، وأكثرُ منه من العاشرِ، فيه أعالِي بلادِ الصِّيْنِ، ومن مُدُنِه الشَّهيرةِ خَانِكُو، وقبالَتها من جهةِ الشَّرْق جزائرُ السِّيْلاَن[3]، وقدْ تقدَّمَ ذكرهَا، وهذا آخرُ الْكَلاَمِ في الإقليمِ الأوَّلِ. [واللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالَى وليُّ التَّوْفِيْقِ بمنّهِ وفضلهِ].

الإِقْلِيْمُ الثَّاني: وَهُوَ مُتَّصِلٌ بالأوَّلِ من جهَةِ الشَّمَالِ، وَقُبَالَةَ الْغربِ[4] مِنْهُ في البحرِ المحيطِ، جزيرتَانِ من الجزائرِ الخَالِدَاتِ التي مر ذكرها.

---

١ - كانت مشهورة بذهبها.

٢ - في ن: الطيب والأفاويه وفيها يقال.

٣ - في ظ: السيلا.

٤ - في ن: الْمَغْرِبِ.

وفي الجزء الأول والثاني منهُ في الجانبِ الأعلى منهما أرضُ قمنوريَةَ[١]، وبعدها في جهةِ الْشَّرْق أعالِي أرضِ غانةَ، ثم مجالاتُ زَغاوَةَ من السُّوْدَان، وفي الجانبِ الأَسْفَلِ منهما صَحراءُ[٢] نِسْتَرَ[٣] متَّصِلَةً من الغربِ إلى الْشَّرْق، ذاتُ مَفاوِزَ تسلُكُ فيها التُّجَّارُ، ما بينَ بلادِ المغربِ وبلادِ الْسُّوْدَان، وفيها مجالاتُ المُلَثَّمِيْنَ من صِنْهَاجَةَ، وهُمْ شُعُوْبٌ كَثِيْرَةٌ ما بينَ كزولةَ، ولَمْتُونَةَ ومَسَرَاتَةَ، ولِمْطَةَ ونَزيكَةَ[٤].

وعلى سَمْتِ هذه الْمَفَاوِز شَرَقاً أرضُ فِزَّانَ، ثم مجالاتُ أذكارَ[٥] من قبائلِ الْبَرْبَرِ، ذَاهِبَةً إلى أَعالِي الْجُزْءِ الْثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا في الْشَّرْق وَبَعْدَها من هذا الْجُزْءِ بلاد كوار من أمم السودان، ثم قطعة من أرض التاجوين. وفي أسافل هذا الجزء الْثَّالِثِ، وهي جهة الشمال منه بقيَّة أرض ودَّانَ وعلى سمتها شرقاً أرضُ سِنترِيَّة، وتُسَمَّى الواحاتِ الدَّاخِلَةَ.

وفي الجزء الرَّابعِ من أعلاهُ بقيَّةُ أرضِ [ظ٢٢/٢] التَاجوينَ[٦]، ثُمَّ يعترضُ في وسطِ هذا الجزء بلاد الصَّعيد، حافات النيل الذاهب من مبدئهِ في الإقليمِ الأوَّل إلَى مَصَبِّهِ في البَحْرِ، فيمرُّ في هذا الجزء بينَ الْجَبَلَيْنِ الْحَاجزَيْن، وهمَا: جَبَلُ الوَاحَاتِ مِنْ غَربيِّهِ، وجَبَلُ الْمُقَطَّمِ من شَرْقِيِّهِ، وعَلَيْهِ من أعلاهُ بلدُ أسنَا[٧]، وأَرْمَنْتَ وَتَتَّصِلُ كذلك حافَاتُهُ إلى أَسْيُوْطَ، وَقُوْصٍ، ثُمَّ إلى صوْلٍ، ويفترقُ النِّيْلُ هنَالِكَ على شِعْبَيْنِ يَنتهي الأيمنُ منهما في هذا الجزء عند اللاهون والأيسرُ عندَ دلاَصٍ، وفيما بينهما أعالِي دِيَارِ مِصْرَ.

وفي الشَّرْقِ من جبل الْمُقَطَّمِ صحارى عيذَابَ ذاهبةً في الجزء الخامس إلى أن تنتهي إلى بحر الْسُّوَيْسِ، وَهُوَ بَحْرُ الْقُلْزُمِ الْهَابطُ من البحر الهندي في الجنوبِ إلى جهةِ الْشَّمَال، وفي عُدْوَتِهِ الْشَّرْقية من هذا الجزء أرضُ الحجاز من جبلِ يَلَمْلَمَ، إلى بلادِ يَثْرِبَ، في وسطِ الحجازِ مكة شرَّفها الله، وفي ساحلها مدينةُ جدَّةَ، تُقَابلُ بلد عِيْذَابَ في العدوةِ الغَرْبِيَّةِ من هذا البحر.

---

١ – في الأصل: قنوريَة. صحح من نزهة المشتاق: ١/١٠٥.

٢ – الصحراء الإفريقية الكبرى.

٣ – في نزهة المشتاق: ١/١٠٧: نيسر ..بيسر.. تيسر.

٤ – في ن: وريكة.

٥ – في ن: أركارَ.

٦ – في المطبوعات: الباجويين. وهو مخالف للمخطوط ونزهة المشتاق: ١/١١٥. وهم مجوس.

٧ – في نزهة المشتاق١/ ١٢٥: أنصنا.

وفي الجزء السادس من غربيه بلادُ نجدٍ أعلاهَا في الجنوبِ، وتُبَالَةُ[1] وجرَشُ[2] إلى عُكاظَ من الْشَّمالِ وتحت نجدٍ من هذا الجزءِ بقيَّة أرض الحجاز، وعلى سمتها في الشَّرْق بلاد نجرانَ وخيبرَ، وتحتها أرضُ اليَمامَةِ، وعلى سَمْتِ نَجْرَانَ في الشَّرْقِ أَرْضُ سَبَأَ وَمَأْرِبَ ثم أرضُ الشِّحرِ.

وينتهي إلى بحر فارسَ[3]، وهو البحر الثاني الهابطُ من البحر الهندي إلى الشَّمال، كما مرَّ، ويذهبُ في هذا الجزءِ بانحرافٍ إلى الغربِ، فيمرُّ ما بينَ شَرْقِيِّهِ وجوفَيْهِ قِطْعَةٌ مُثَلَّثَةٌ عَلَيها من أعلاهُ مدينةُ قَلْهاتَ، وهي سَاحلُ الشِّحْرِ، ثمَّ تحتها على ساحِلِهِ بلادُ عُمانَ. ثُمَّ بلادُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجَرُ مِنْهَا في آخرِ الْجُزْءِ.

وَفِي الْجُزْءِ الْسَّابعِ في الأَعْلَى مِنْ غَرْبِيهِ قِطْعَةٌ من بَحْرِ فَارسَ تَتَّصِلُ بالْقِطْعَةِ الأُخْرَى في الْسَّادِسِ وَيَغْمُرُ بَحْرُ الْهِنْدِ جَانِبَهُ الأَعْلَى كُلَّهُ، وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ بلاَدُ السِّنْدِ إِلَى بِلادِ مُكْرَانَ، وَيُقَابِلُهَا بلاَدُ الْطَّوْبَرَانِ، وَهِيَ من الْسِّند أيضاً، فيتَّصِلُ الْسِّنْدُ كلُّهُ في الجانبِ الغَربي من هذا الجزءِ، وتحولُ المفاوزُ بَيْنَهُ وبينَ أرضِ الهندِ، ويمرُّ فيهِ نهره الآتي من ناحيةِ بلادِ الهندِ، ويَصُبُّ في البحر الْهِنْدِيِّ في الجنوبِ. وَأَوَّلُ بلادِ الْهِنْدِ على سَاحِلِ البَحْرِ الهِنديِّ، وفي سَمْتِهَا شَرْقاً بلادُ بَلَهْرَا، وَتَحْتَهُمَا المُلتان بلاد الصنم المعظم عندهم، ثم إلى أسفل من السند، ثم إلى أعالي بلاد سجستان.

وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند، وعلى سمتها شرقاً بلاد القندهار، ثم بلاد مَنيبارَ، وفي الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندي تحتها في الجَانبِ الأَسفَلِ أَرْضُ كابُلَ، وبعدهَا شَرقاً إلى البحرِ الْمُحيْطِ بِلاَدُ الْقُنُوْجِ، مَا بَيْنَ قَشْمِيْرَ الْدَّاخِلَةِ وَقَشميرَ الْخَارِجَةَ عندَ آخرِ الإقليم.

وفي الجزءِ الْتَّاسِعِ، ثُمَّ في الجانبِ الْغَرْبِيِّ منهُ بلاد الْهِنْدِ الأَقْصَى، ويتَّصِلُ فيه إلى الجانبِ الْشَّرْقِيِّ فيتَّصل من أعلاهُ إلى العاشرِ، وتبقى في أسفل ذلك الجانبِ قطعةٌ من بلادِ الصِّيْنِ فيها مدينة شِيْغُوْنَ[4]، ثُمَّ تتَّصِلُ بلادُ الصِّين [ظ٢٣/١] في الجزء العاشر كله إلى البحر المُحيطِ، وا لله ورسولهُ أعلمُ، وبهِ سُبحانهُ الْتَّوْفِيْقُ، وهو وليُّ الفضلِ والْكَرَمِ.

---

١ – بلد باليمن.

٢ – بلد بالأردن.

٣ – هو الخليج العربي.

٤ – لعلها تحرفت عن: (شذخو). انظر نزهة المشتاق: ١/٢١٠.

اَلإِقْلِيْمُ الْثَّالِثُ: وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْثَّانِي من جهَةِ الْشَّمَال ففي الْجزْءِ الأَوَّل منه وعلى نحوِ الْثُّلُثِ من أعلاهُ جَبَلُ دَرَنَ مُعْتَرِضٌ فيه من غَرَبِيِّهِ عند البَحر المحيطِ إِلى الْشَّرْق عند آخِرِهِ، وَيَسْكُنُ هذا الجبل من البربر أممٌ لا يُحصيهم إلا خالقهم حسبما يأتي ذكرهُ.

وفي القطعةِ التي بينَ هذا الجبلِ والإِقْلِيْمِ الْثَّاني، وعلى البحر المُحيطِ منهـا، ربَاطُ مَاسَةَ ويتَّصلُ به شرقاً بلاَدُ سُوْسٍ وَنُول، وَعَلى سَمْتِهَا شَرقاً بلادُ دَرْعَة، ثُمَّ بِلاَدُ سِجِلْمَاسَةَ، ثُمَّ قطعةٌ من صحراءِ نِسْتَرَ[1] الْمَفَازَةِ الَّتِي ذكرنَاهَا في الإِقْلِيْمِ الْثَّانِي.

وهذا الجَبَلُ مُطِلٌّ على هذه الْبلاَدِ كلها في هذا الجزء، وهو قليلُ الثَّنايَا والْمَسَالِكِ في هذهِ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ إلى أن يُسَامِتَ وَادِي مَلوِيَّةَ فتكثُرُ ثَنَايَاهُ وَمَسَالِكُهُ، إلى أن ينتهي.

وفي هذه النَّاحِيَةِ منه أممُ الْمَصَامِدَةِ[2] ثُمَّ هنتانة، ثُمَّ تِيْنملك، ثم كَدْمِيُوْهُ، ثُمَّ مَشْكُوْرَةَ وَهُمْ آخِرُ الْمَصَامِدَةِ فيه، ثم قبائلُ صِنْهَاكَةَ، وهم صنْهَاجَةُ، وفي آخِرِ هَذَا الجزءِ منه بعض قبائِلِ زَنَاتَةَ.

وَيَتَّصِلُ به هُنَالِكَ من جَوْفَيْهِ جَبَلُ أُوْرَاسَ، وهو جبلُ كُتَامَةَ، وبعدَ ذَلِكَ أممٌ أخرى من البرابرةِ نذكُرُهُمْ في أمَاكِنِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ جبلَ دَرَنَ هذا، من جهةِ غَربِيهِ مُطِلٌّ على بلادِ المغربِ الأقصى، وهي في جَوْفَيْهِ، ففي الْنَّاحِيَةِ الْجَّنُوْبِيَّةِ منها بلاَدُ مَرَاكِشَ وَأَغْمَاتٍ[3] وَتَادلاَّ[4]. وَعَلَى البحر المحيطِ منها رِبَاطُ أَسَفِى[5] ومدينةُ سَلاَ.

وفي الجَوْفِ عن بلادِ مَرَاكِشَ، بلاَدُ فَاس وَمِكْنَاسَةُ، وَتَازَا، وَقَصْرُ كُتَامَةَ، وَهَذِهِ هِي الَّتِي تُسَمَّى الْمَغْرِبَ الأَقْصَى في عُرْفِ أَهْلِهَا، وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيْطِ مِنْهَا بلدان: أَصِيلاً والعرايشِ. وفي سَمْتِ هَذِهِ البلادِ شَرقاً بلاَدُ المغربِ الأَوْسَطِ، وَقَاعِدَتهَا تَلْمُسَانُ، في سواحلهَا على البحرِ الْرُّوْمِيِّ بَلَدُ هَنِيْنَ وَوَهْرَانَ وَالْجزَائِرُ، لأَنَّ هَذَا البحر الرُّومِيَّ يَخْرجُ من البحرِ المُحِيْطِ من خليج طَنْجَة في النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ من الإقْلِيْمِ الْرَّابع وَيَذْهَبُ مُشَرِّقاً فَيَنْتَهِي إلى بِلاَدِ الْشَّامِ، فَإِذَا خَرَجَ من الْخَلِيْجِ الْمُتَضَايِقِ غَيْرَ بَعِيْدٍ انْفَسَحَ جنوباً وَشَمالاً،

١- في نزهة المشتاق: ١/١٠٧: نيسر ..بيسر.. تيسر.

٢ - وإليهم ينتسب الإمام يحيى المصمودي أحد رواة موطأ مالك.

٣ - أغمات: ناحية في بلاد المغرب قرب مراكش.

٤ - في معجم البلدان: تادِلة، من جبال البربر بالمغرب قرب تلمسان وفاس.

٥ - أسفى: بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصى المغرب.

فَدَخلَ في الإقليْمِ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ، فَلِهَذَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هَذَا الإِقْلِيْمِ الثَّـالث الكثيرُ من بلادِهِ، ثم يتَّصِل ببلادِ الجزائرِ من شرقيّها بلادُ بِجَايَةَ[1] في ساحل البحر ثُـمَّ قُسَنْطِيْنِيَّة في الْشَّرْق مِنْهَا.

وَفِي آخِرِ الجزء الأَوَّل، وعلى مَرْحَلَةٍ من هذا الْبَحْرِ في جنوبيّ هذه البـلادِ ومرتفعاً إلى جنوبِ المغربِ الأَوْسَطِ، بَلَدُ أَشِيرَ، ثم بلدُ الْمَسِيْلَةِ، ثُـمَّ الـزَّابُ، وَقَاعِدَتُـهُ بسْكَرَةُ تَحْتَ جَبَلِ أَوراسَ الْمُتَصِلِ بدَرَنَ، كما مرَّ، وذلكَ عندَ آخرِ هذا الجزء من جهةِ الْشَّرْق.

والجزءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الإقْلِيْم على هَيْئَةِ الْجُزْءِ الأَوَّل، ثُمَّ جَبَلُ دَرَنَ عَلَى نَحْوِ الثُّلُثِ من جَنُوْبِهِ ذاهباً فيهِ من غَرْبٍ إلى شَرْق، فَيَقْسِمُهُ بِقِطْعَتَيْن. وَيَغْمُرُ البحـر الرُّوْمِـيُّ مَسَـافَةً مـن شمالِه. فالْقطعَةُ [ظ٢٣/٢] الجَنُوْبِيَّةُ عن جبل دَرَنَ، غربيُّها كُلُّـهُ مفـاوزُ، وفي الشـرق منهـا بلدُ غُدَامِسَ، وفي سَمْتِهَا شَرْقاً أَرْضُ وَدَّانَ الَّتِي بَقِيَّتُهَا فِي الإِقْلِيْمِ الثَّانِي كَمَا مَـرَّ، وَالْقِطْعَـةُ الْجَوْفِيَّةُ عن جَبَلِ دَرَنَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْـرِ الرُّوْمِـيّ في الْغَـرْبِ منهـا جبَـلُ أَوْرَاسَ، وتبسَـةُ والأَرْبَسُ[2]، وعلى سَاحِلِ البحرِ، بَلَدُ بُوْنَة.

ثُمَّ في سمتِ هـذه الْبِـلاَدِ شَـرْقاً بـلادُ أفريقيـة، فعلـى سَاحِلِ البحـرِ مدينـةُ تونـسَ، ثـمَّ الْسُّوْسَةُ[3]، ثُمَّ الْمَهْدِيَّةُ، وفي جنوبِ هـذه الْبِـلاَدِ تحت جبـلِ دَرَنَ بـلاَدُ الْجَرِيْـدِ: تـوزرُ، وَقَفْصَةُ، ونفزاوَة، وفيما بينها وبين السواحلِ مدينةُ الْقَـيْرَوَان، وَجَبَـلُ وَسـلاتٍ وسَـبيطَلَة. وعلى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلاَدِ كُلِّهَا شرقاً بلدُ طَرَابُلسَ على الْبَحْرِ الرُّوْمِيِّ، وَبإزَائِهَـا في الجنوبِ جَبَلُ دُمَّرَ، وَنقْرَةُ[4] من قَبَائِلِ هَوَارَةَ مُتَّصلةً بجبل درَن وفي مُقَابَلةِ غُدَامِسَ الـتي مـر ذكرهـا في آخر القطعة الجنوبية.

وآخرُ هذا الجزء في الشَّـرْقِ سَوِيْقَةُ ابْـنُ مَثْكُـوْد[5] علـى البحـرِ، وفي جنوبهـا مجـالاَتُ العَرَبِ في أرضِ وَدَّانَ.

---

١ – بجاية: مدينة على ساحل البحر الأفريقي، اختطها النـاصر بـن علنـاس حـوالي ٤٥٧هـ، وتسمى الناصرية أيضاً.

٢ – في المطبوع: الأوبس. صحح من نزهة المشتاق:١/٢٧٦.

٣ – في ن: سوسة.

٤ – لعلها تحرفت عن: (تقربت). نزهة المشتاق:١/٢٥٠.

٥ – في الأصل: مَشْكُوْرَةَ. صحح من نزهة المشتاق: ١/٣٠٨.

وفي الجزء الثَّالِثِ من هذا الإقليم يمرُّ أيضاً فيه جبل دَرَنَ إلا أنه ينعطِفُ عند آخرِهِ إلى الشَّمَال، ويذهبُ على سمتهِ إلى أن يدخلَ في البحر الرومي، ويُسَمَّى هنالك طرَفَ أوثانَ.

والبحرُ الرُّوْمِيُّ من شَمَالِيِّهِ يَغْمُرُ طَائِفَةً منه إلى أن يُضَايِقَ مَا بَيْنَهُ وبين جبل دَرَنَ، فَالَّذِي وراء الجَبَلِ في الجنوبِ وفي الْغَرْبِ منه بَقِيَّة أرْض وَدَّانَ، ومجالاتُ العربِ فيها، ثُمَّ زَوِيلَة ابن خَطَّابٍ، ثُمَّ رِمَالٌ وَقِفَارٌ إلى آخرِ الْجُزْءِ في الشَّرْق، وَفِيْمَا بَيْنَ الْجَبَلِ والبحرِ في الغربِ منه بَلَدُ سَرَّتْ على البحرِ، ثُمَّ خلاءٌ وَقِفَارٌ، تَجُوْلُ فيها الْعَرَبُ، ثُمَّ أَجْدَابِيَة، ثُمَّ بَرْقَةُ عِنْدَ مُنْعَطِفِ الْجَبَلِ، ثُمَّ طَلْمَسَةُ على الْبَحْرِ هُنَالِكَ، ثُمَّ في شَرقِ الْمُنْعَطِفِ من الجبلِ مجالاتُ هَيبٍ ورواحةُ[1] إلى آخرِ الجزءِ.

وفي الجزء الرَّابِعُ من هذا الإقْلِيْم، وفي الأعلى من غَرْبِيِّهِ صَحَارَى بَرْقِيْق[2]، وَأَسْفَلُ مِنْهَا بلادُ هَيْبٍ وَرُوَاحَة، ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرُ الرُّوْمِيُّ في هَذَا الْجُزْءِ، فَيَغْمُرُ طَائِفَةً منهُ إلى الْجَنُوْبِ حَتَّى يُزَاحِمَ طَرَفَهُ الأَعْلَى، ويبقى بينه وبين آخر الجزءِ قِفَارٌ، تجولُ فيها الْعَرَبُ.

وعلى سَمْتِهَا شَرْقاً بلادُ الْفَيُّوْمِ، وهي عَلَى مَصَبٍّ أَحَدِ الشِّعْبَيْن مِنَ النِّيْلِ الَّذِي يَمُرُّ على اللاَّهُوْن من بلاَدِ الصَّعيد في الجزء الرابع من الإقليم الثَّانِي وَيَصُبُّ في بحيرةِ فَيُّومَ[3] وعلى سمته شَرْقاً أرضُ مِصْرَ ومدينتها الشَّهِيْرَةُ على الشِّعْبِ الثَّانِي الَّذِي يمر بِدِلاَصٍ من بلاَدِ الصَّعِيْدِ عندَ آخرِ الْجُزْءِ الثَّانِي.

وَيَفْتَرِقُ هذا الشِّعْبُ افتراقةً ثانيةً من تحتِ مِصْرَ على شِعْبَيْنِ آخرين، من شُطنُوْفٍ، وَزِفْتِيّ، وَيَنْقَسِمُ الأَيْمَنُ مِنْهُمَا من قُرْمُطٍ بشِعبَيْنِ آخرينِ وَيَصُبُّ جميعها في البحر الرُّومي، فَعَلَى مَصَبِّ الغربيِّ من هذا الشعب بلد الإسْكَنْدَرِيّةِ وعلى مَصَبِّ الوَسَطِ بَلَدُ رَشِيْدَ، وعلى مَصَبِّ الشَّرقي بلدُ دِمْيَاطَ، وبينَ مصر والقاهرةِ، وبينَ هذه السَّواحِل البحريَّةِ أسَافِلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كُلُّهَا محشوَّةٌ عمراناً وفلحاً[4].

وفي الجزءِ الْخَامِسِ من هذا الإقليم بلادُ الشَّامِ وأكثرها على ما أَصِفُ، وذلك لأنَّ بحرَ الْقُلْزُمِ[5] ينتهي من الجنوب [ظ١/٢٤]، وفي الغرب منه عند السُّويس، لأنَّهُ في ممره

---

١ - هما قبيلتان. (نزهة المشتاق: ١/٣١٦).

٢ - لعلها تحرفت عن برقة.

٣ - بحيرة قارون.

٤ - بمعنى: فلح الأرض وإعدادها للزراعة.

٥ - هو البحر الأحمر.

مُبْتَدِىءٌ من البحرِ الهنديِّ إلى الْشَّمَال، يَنْعَطِفُ آخذاً إلى جِهَةِ الْغَرْبِ فَتَكُوْنُ قِطْعَةٌ من انْعطَافه في هذا الجزء طَوِيْلَةٌ، فَيَنْتَهِي في الْطَّرَفِ الْغَرْبِيِّ منهُ إلى الْسُّوَيس.

وَعَلَى هَذه الْقطعة بعدَ الْسُّوَيْس فَارَانُ ثُمَّ جَبَلُ الْطُّوْر، ثُمَّ أَيْلَةُ[١] مدْيَنَ، ثُمَّ الحَوْرَاءُ[٢] في آخرهَا ومن هنالكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحله إلى الْجَنُوبِ في أرضِ الْحجَازِ كما مَرَّ في الإِقْلِيْمِ الْثَّاني في الجزءِ الْخَامس منْهُ.

وَفِي الْنَّاحِيَة الْشَّمَاليَّة من هذا الجُزْءِ قطْعَةٌ من البحرِ الرُّوْمي غَمَرَتْ كثيراً من غربيِّه عليها الْفَرْمَا وَالْعَرِيشُ، وَقَارَبَ طَرَفُهَا بَلَدَ الْقُلْزُم فَيُضَايقُ ما بينهما من هنَالكَ، وبقي شبْهُ الباب مُفْضياً إلى أرضِ الْشَّام، وفي غربي هذا الْبَاب فحصُ الْتِّيْه، أرضٌ جرْدَاءُ لا تُنْبتُ، كانت مَجَالاً لِبَني إسرائيل، بعدَ خُرُوْجهمْ من مصرَ[٣]، وقَبْلَ دُخُوْلهمْ إلى الْشَّام أَرْبَعيْنَ سَنَةً، كما قصَّه الْقُرْآنُ.

وفي هذه الْقطْعَةِ من البحر الرُّوميِّ، في هذا الجزء طائفةٌ من جزيرة قُبْرُص، وبَقيَّتُهَا في الإِقْلِيْمِ الْرَّابعِ كَمَا نَذْكُرُهُ، وَعلى سَاحلِ هذه القطعة عندَ الْطَّرَفِ الْمُتَضَايقِ لِبَحْرِ الْسُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيْشِ — وهو آخرُ الْدِّيَارِ الْمصْرِيَّة — وَعَسْقَلانُ وبينهما طرفُ هَذَا الْبَحْرِ.

ثُمَّ تَنْحَطُّ هَذه الْقطْعَةُ في انْعطَافهَا من هُنَالكَ إلى الإِقْلِيْمِ الْرَّابعِ عنْدَ طَرَابُلْس وَغَزَّةَ وَهُنَالكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ الْرُّوْميُّ في جهَةِ الْشَّرْق، وَعَلَى هَذه الْقَطْعَة أَكْثَرُ سَوَاحلِ الْشَّام، ففي شَرْقه غَزَّةُ ثُمَّ عَسْقَلان، وبانْحرَاف يسير عنهَا إلى الْشَّمال بلدُ قيْسَارِيَّةَ، ثم كذلك بلدُ عَكَّاءَ، ثم صور، ثم صَيداء، ثُمَّ ينعطفُ البحرُ إلى الْشَّمال في الإِقْلِيْمِ الْرَّابعِ.

وَيُقَابلُ هَذه الْبلادَ الْسَّاحليَّةَ من هذه القطْعَة في هذا الْجُزْء جَبَلٌ عَظيْمٌ يَخْرُجُ من ساحلِ أَيْلَةَ من بحرِ الْقُلْزُم[٤] وَيَذْهَبُ في نَاحيَة الْشَّمَال مُنْحَرفاً إلى الْشَّرْق إلى أن يُجاوزَ هذا الجزء، وَيُسَمَّى جبل اللِّكَام، وكأنه حاجزٌ بينَ أرضِ مصرَ وَالْشَّام، ففي طَرَفه عنْدَ أَيْلَةَ الْعَقَبَةُ الَّتي يَمُرُّ عليها الحُجَّاجُ من مصرَ إلى مكةَ، ثم بعدَهَا في ناحيَة الشَّمال مَدفنُ الخليلِ[٥] عليه الصَّلاةُ والسلامُ عند جَبَلِ الْسُّرَاة، يَتَّصلُ من عنْد جَبَلِ اللِّكَامِ الْمَذْكُوْرِ من شَمَالِ الْعَقَبَة ذَاهباً على سَمْتِ الْشَّرْقِ ثم ينعطف قليلاً.

---

١ – وهو ميناء إيلات المعروف الآن.

٢ – كورة من كور مصر القبلية في آخر حدودها من جهة الحجاز على شاطىء البحر الأحمر. وقيل: مرفأ سفن مصر إلى المدينة.

٣ – لا يوجد ما يثبت تحديد مكان تاهو فيه، وإنما نص القرآن على الأرض بجنسها، ﴿يتيهون في الأرض﴾ وبالتالي: فليس من داع لتحديد موقعٍ لهمٌ من غير بينة.

٤– أي: البحر الأحمر.

٥ – لا يوجد نصوص ثابتة تؤكد مدفن خليل الرحمن صلوات الله عليه.

وفي شرقهِ هنالِكَ بَلَدُ الْحِجْرِ وَدِيارُ ثَمُودَ وَتَيْماءُ[١] وَدُومَةُ الْجَنْدَلِ وهي أَسَافِلُ الحِجَازِ وفوقها جبلُ رَضْوَى، وحصُونُ خيبرَ في جهة الجنوبِ عنها.

وفيما بين جبلِ السُّرَاةِ وبحرِ الْقُلْزُمِ صحراءُ تَبُوْكَ وفي شمال جَبَلِ السُّـراةِ مدينـةُ الْقُدْسِ، عندَ جَبَلِ اللُّكَام، ثُمَّ الأُرْدُنُّ، ثم طبريَّةُ، وفي شَرْقِيِّها بلادُ الْغَوْرِ إلى أَذْرِعَاتٍ[٢]، وفي سمتها شَرْقاً دومةُ الجَنْدَلِ آخرُ هَذَا الجزء، وهي آخرُ الحِجَازِ.

وعندَ مُنْعَطِفِ جَبَلِ اللُّكَام إلى الْشَّمَالِ من آخرِ هذا الجـزء مدينـةُ دِمَشْـقَ مُقَابلَـةُ صَيْدَا وَبَيْرُوْتَ من الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ، وجَبَلُ اللُّكَامِ يَعْتَرِضُ بَيْنَها وَبَيْنَهَـا، وَعَلَـى سَـمْتِ دِمَشْـقَ في الْشَّرْقِ مدينةُ بَعْلَبَكَّ، ثُمَّ مدينةُ حمـص مـن الجهـة الشـمالية مـن الجـزء عنـد منقطـع جبـل اللكام، وفي الشرق عن بعلبك بَلَدُ تَدْمُرَ وَمَجَالاَتُ الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الجزء. [ظ٢/٢٤].

وفي الجزء الْسَّادِسِ من أعلاهُ مَجَالاَتُ الأَعْرَابِ تَحْتَ بلاَدِ نجدٍ، وَالْيَمَامَةُ ما بـينَ جبـلِ الْعُرْجِ، والْصَّمَّان إلى الْبَحْرَيْـنِ وهجـرُ علـى بحر فَـارِسَ[٣]، وفي أَسَـافِلِ هـذا الجـزء تحـتَ المَجالاتِ بَلَدُ الحِيْرَةِ، وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَغَايِضُ الْفُرَاتِ. وَفيمـا بعدهَـا شَـرْقاً مدينـةُ الْبَصْـرَةِ وفي هذا الجزء ينتهي بحر فَارِسَ عند عُبَّادَانَ وَالأُبُلَّةِ[٤]، من أَسَافِلِ الجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ، وَيَصُبُّ فيه عِنْدَ عُبَّادَانَ نهـرُ دِجْلَـةَ بعـدَ أن يَنْقَسِـمَ بجـدَاولَ كَثِيْرَةٍ، وتختلـطُ بـه جـداول أخـرى مـن الفُراتِ، ثم تجتمعُ كلها عند عُبَّادَانَ وتَصبُّ في بحر فارسَ.

وهذه القطعةُ من البحر مُتَّسِـعَةٌ في أعـلاهُ مُتَضَايِقَـةٌ في آخِـرِهِ، في شَـرْقِيِّهِ، وضَيِّقَـةٌ عنـدَ مُنْتَهاهُ، مُضَايقَةٌ للحدِّ الْشَّمَالِيِّ منـهُ، وَعَلَـى عُدْوَتِهَـا الْغَرْبِيَّـةِ منـه أسـافل البحريـن وهجـرُ الأَحْساءِ[٥]، وفي غربها أخطـبُ وَالْصَّمَّـانُ، وبقيَّـةُ أرض الْيَمامَـةِ، وَعَلَـى عُدوَتِـهِ الْشَّـرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ أَعْلاَهَا، وهو من عندِ آخرِ الجزءِ من الشَّرْقِ علـى طـرفٍ قـد امتـدَّ مـن هذا الْبَحْرِ مُشَرِّقاً، ووراءَهُ إلى الْجَنُوْبِ في هذا الجزءِ جبالُ القُفْص[٦] من كُرْمَانَ.

---

١ – تيماء: بلد صغير في أطراف الشام، يطل عليه حصن السموءل.

٢ –أذرعات: بلد بأطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان.

٣ – بحر فارس: الخليج العربي.

٤ – الأبلة: على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة. وهي أقدم من البصرة.

٥ – الأحساء:عاصمة هجر في أيام أبي طاهر الجناني القرمطي. جمع حِسْي، وهو ماء تنشفه الأرض من الرمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكته، فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه. ولما كانت هـذه الأرض كثيرة الأحسـاء سميـت بهذا الاسم، وصار علماً عليها لا تعرف إلا به. وفيات الأعيان (١٤٩/١).

٦ – وتسمى أيضاً: القفس، بالسين المهملة.

وتحت هُرمز على الساحل بلد سيراف ونجيرم على ساحل هذا البحر. وفي شرقيه إلى آخر هذا الجزء وتحتَ هرمزَ بلادُ فارسَ مثل سَابُوْرَ، وَدَار أَبْجَرْدَ، وَنَسَا، وَإِصْطَخْرَ[١]، وَالْشَّاهجَان، وَشيْرَاز، وهيَ قَاعدَتُهَا كُلُّهَا.

وتحتَ بلادَ فَارِسَ إلى الْشَّمَال عندَ طَرَف البحر، بلاَدُ خُوْزِسْتَانَ[٢] ومنهَا الأهوازُ[٣]، وتستُرُ، وَصَدَى، وَسَابُورُ، والسُّوسُ، ورامَ هَرْمزَ، وغَيرها، وأَرَّجَانُ[٤]، وهيَ حدُّ ما بينَ فَارسَ وَخُوْزِسْتَانَ، وهي شرق بلاد خوزستان، ومن جبال الأَكْرَاد[٥] مُتَّصِلَةٌ إلى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وبهَا مَسَاكنُهُمْ، وَمَجَالاَتُهُمْ وَرَاءَهَا في أَرضِ فَارِسَ، وَتُسَمَّى الْرُّسومَ.

وفي الجزء الْسَّابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال الْقفص، ويَليْهَا منَ الْجَنُوْب وَالْشَّمَال بلاَدُ كرْمَانَ، وَمكْرَانَ، ومن مُدُنهَا الْرُّودَنُ، والْشِّيْرجَانُ، وجيْرَفْتُ وَيَزْدَشيْرَ وَالْبَهْرَجُ. وَتَحْتَ أرْضِ كرْمَان إلى الْشَّمَالَ بَقيَّةُ بلاَد فَارسَ إلى حُدُوْد أَصْبَهَانَ، وَمَديْنَة أصبهان في طَرَف هذا الجزء ما بينَ غربه وَشَمَاله.

ثم في الْمَشْرِق عن بلاد كرمان وبلاد فارسَ أرضُ سجسْتَانَ، وكُوهَسْتَانُ في الجَنُوْب، وأرضُ كُوْهَسْتَانَ في الْشَّمَال غَرْباً وَيَتَوَسَّطُ بينَ كَرْمَان وفارس، وبينَ سجسْتَانَ وَكُوْهَسْتَانَ، وفي وَسَط هذا الجزء الْمَفَاوِزُ الْعُظْمَى الْقَلِيْلَةُ الْمَسَالك لصعوبتها ومن مدن سجسْتَانَ: بَسْتُ وَالْطَّاقُ. وأمَّا كُوْهَسْتَانُ فهيَ من بلاد خُرَاسَانَ ومن مشاهير بلادهَا: سَرَخْسُ، وَقُوْهستَانُ آخرَ الْجُزء.

وفي الجزء الثَّامن منَ غَرْبه وجنوبه مجالاتُ الْخُلجِ[٦]، من أمم الترك مُتَّصِلَةٌ بأَرْضِ سجسْتَانَ من غَرْبهَا وَبأَرْضِ كَابُلِ الْهنْد من جَنوبها.

وفي الشَّمالِ عن هذه المجالاَتِ جبالُ الغورِ وبلادها، وقاعدها غَزْنَةُ: فرضَةُ الهند.

---

١ – إصطخر: أعظم حصون فارس ومدنها.

٢ – أي بلاد الخوز؛ لأن استان فيها كياء النسبة في العربية.

٣ – الأهواز: كورة بين البصرة وفارس. أصلها بالعربية الأحواز. واسمها الفارسي القديم: خوزستان، وقيل: هوزمشير.

٤ – يسميها العجم: أرغان، مدينة كبيرة. بتشديد الجيم، وأكثر الناس يقولون:إنها بالراء المخففة، واستعملها المتنبي في شعره مخففة في قوله: [ديوان المتنبي بشرح العكبري ٣٣٩/١]

أرَجان أيتها الجياد فإنه ... عزمي الذي يذر الوشيج مكسَّرا

٥ – الأكراد نسبة إلى الْجَرْد، وهو المكان الذي يغلب عليه الخلو من النباتات، ويمتاز بالطبيعة الجبلية، وكل من سكن تلك الأماكن سمي كردياً، حيث انقلبت الجيم إلى كاف نتيجة البيئة.

٦ – في المطبوع: الجلح. نزهة المشتاق:٤٥٥/١. وهم صنف من الأتراك وصلوا قديماً إلى تخوم الهند.

وفي آخر الغَوْرِ من الشَّمال بلادُ أَسْتَرَابَاذَ[١]، ثمَّ في الشَّمالِ غَرْباً إلى آخرِ الجُزءِ بلادُ هَرَاةَ أَوْسَطُ خُرَاسَانُ، وبها أسفرايين[٢] وقاشان وبُوْشَنجُ ومروالروذ، والطالقان. وتنتهي خراسان هنالكَ إلى نهرِ جَيْحُوْنَ. وعَلَى هذا النهر من بلادِ خُرَاسَانَ من غَرْبِيِّهِ مدينة بَلْخ، وفي شَرْقِيِّهِ مدينةُ تُرْمُذَ، ومدينة بَلْخ كانت كُرْسِيَّ مملكةِ التُّرْكِ.

وهذا النهر نهر جَيْحُوْنَ مخرجُهُ من بلاد وُجَارَ[٣] في حدود بَذْخَشَانَ[٤]، مما يلي الهندَ.

ويخرجُ من جنوبِ هذا الجزءِ [ظ٢٥/١] وعند آخرِهِ من الشَّرْق، فينعطِفُ عن قربٍ مغرباً إلى وسط الجزءِ ويُسَمَّى هنالك نهر خَرْنَاب، ثُمَّ ينعطِفُ إلى الشَّمالِ حتى يمرَّ بخراسَانَ ويذهب على سمتهِ إلى أن يَصُبَّ في بحيرةِ خُوَارَزْمَ في الإقْلِيْمِ الْخَامِسِ كما نَذْكُرُهُ.

ويمده عندَ انْعِطَافِهِ في وسط الجزء من الجنوبِ إلى الْشَّمالِ خمسةُ أنهارٍ عظيمةٌ من بلادِ الخُتَّلِ[٥] وَالْوَخْشِ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَأَنْهَارٌ أُخْرَى من جبالِ الْبَتمِ من شرْقِيِّهِ أيضاً وجَوْفي الْجَبَلِ حَتَّى يَتَّسِعَ وَيَعْظُمَ بمَا لاَ كَفَاءَ لَهُ.

ومن هذه الأنهارُ الْخَمْسَةُ الْمُمِدَّةُ لَهُ نَهْرُ وَخَشَابَ يَخْرُجُ من بلادِ التَّبْتِ وهي بينَ الجنوبِ والشَّرْق من هذه الجزء، فيمرُّ مغرّباً بانحرافٍ إلى الشَّمال إلى أن يخرج إلى الجزءِ التَّاسعِ قريباً من شَمال هذا الجزء يعترضهُ في طريقهِ جبلٍ عظيمٌ يمرُّ من وسطِ الجَنُوْبِ في هذا الجزء، ويذهب مُشَرِّقاً بانحرافٍ إلى الشمال إلى أنْ يخرجَ إلى الجزءِ الْتَّاسِعِ قَرِيباً من شمالِ هذا الجزء فيجوزُ بلادَ الْتبتِ إلى الْقِطْعَةِ الْشَّرقِيَّةِ الْجَنُوْبِيَّةِ من هذا الجزء، ويحولُ بينَ التُّرْكِ وبينَ بلاَدِ الخُتَّل، ولَيسَ فيه إلا مَسْلَكٌ واحدٌ في وسط الْشَّرْقِ من هذا الجزءِ، جعل فيه الفَضْلُ بنُ يَحْيَى سُدّاً، وبنى فيه باباً كَسُدِّ يأجوجَ ومأجوجَ.

فإذا خرج نهرُ وخشَابَ من بلادِ التبْتِ واعْتَرَضَهُ هذا الجبلُ فيمُرُّ تحته في مدى بعيدٍ إلى أن يمُرَّ في بلادِ الْوَخْشِ، ويصُبَّ في نهرِ جَيحونَ عند حدودِ بَلْخٍ، ثُمَّ يَمُرُّ هابطاً إلى الْتِّرْمِذِ في الشَّمالِ إلى بلادِ الْجَوْزَجَان.

---

١ - من أعمال طبرستان، بين سارية وجرجان.

٢ - اسمها القديم مهرجان، وهي بلدة من نواحي نيسابور.

٣ - في نزهة المشتاق(٤٨١/١): وخان، رخار، وجان..

٤ - بلد في أعلى طخارستان، متاخمة لبلاد الترك، تبعد عن بلخ ثلاث عشرة مرحلة.

٥ـ كورة واسعة على تخوم السند.

وفي الْشَّرْق عن بلادِ الغور فيما بينها وبينَ نهرِ جيحون بلادُ النَّاسَان من خراسـانَ، وفي العدوَةِ الشَّرْقِيَّةِ هنالكَ من النَّهْر بلادُ الْخُتَّلِ وأكثرها جبـالٌ وبـلادُ الوَخْشِ، ويحدُّهَـا مـن جهةِ الشَّمال جبَالُ الْبَتْمِ، تخرجُ من طَرفِ خُرَاسَانَ غَرْبيَّ نهر جَيحونَ وتذهبُ مُشَرِّقَةً إلى أن يتَّصِلَ طَرَفُهَا بالجبلِ العظيمِ الَّذي خلفَهُ بلادُ التَّبْتِ، ويمـرُّ تحتـهُ نهـرُ وَخَشَـابَ ـ كمـا قلناه ـ فَيَتَّصِلُ عندَ بَابِ الْفَضْلِ بنِ يَحْيَى.

ويمرُّ نهرُ جَيْحُونَ **بين هذهِ** الجبَالِ وأنهارٍ أخرى، تصبُّ فيه، منهـا: نهـرُ بـلادِ الوَخـشِ يصبُّ فيه من الشَّرْق تحت الـتِّرمُذ إلى جهـةِ الشَّمالِ، ونهرُ بَلْخ يخـرجُ مـن جبـالِ البَتْـمِ مَبْدَؤه[1] عندَ الْجوْزَجَانِ ويَصُبُّ فيه من غربيه.

وعلى هذا النَّهْرِ من غربيه بلادُ آمِدَ مـن خراسـانَ وفي شـرقي النَّهْـرِ مـن هنـالكَ أرضُ الصُّغْدِ، وأَشْرُوْسَنَةَ من بلادِ التركِ، وفي شـرقها أرضُ فِرْغَانـةَ أيضـاً إلى آخـرِ الجـزءِ شـرْقاً وكل بلاد التُّرْكِ، تحوزُهَا جبالَ البَتْمِ إلى شِمَالِهَا.

وفي الجزءِ التَّاسعِ من غَرْبهِ[2] أرضُ التَّبْتِ إلى وَسَطِ الجزء، وفي جنوبيها بلادُ الهِنْدِ، وفي شَرقِيِّهَا بلادُ الصِّيْن، إلى آخرِ الْجُزْءِ، وفي أَسْفَلِ هذا الجـزءِ شَـمَالاً عـن بـلادِ الْتَّبْـتِ بـلادُ الخزْلَجيَّةِ من بلادِ الـتُّرْكِ إلى آخـرِ الْجُـزْءِ شَـرْقاً وَشَـمَالاً، وَيَتَّصِـلُ بهـا مـن غَربيِّهـا أرضُ فِرْغَانةَ أيضاً إلى آخرِ الجزءِ شَرْقاً، ومن شَرْقِيِّهَا أرضُ الْتَّغزْغُزِ من الْتُّرْكِ إِلَـى الْجُـزْءِ شَـرْقاً وَشَمَالاً.

وفي الجُزْءِ العاشِرِ في الجنوبِ منـه جميعـاً بقيَّـةُ الصِّـينِ وأسَـافلهُ وفي الشَّـمالِ بقيَّـةُ بـلادِ الْتَّغَزْغُزِ، ثُمَّ شرقاً عنهم بلادُ خِرْخِيْرَ، من التُّرْكِ أيضاً إلى آخرِ الجزء شَرقاً.

وفي الْشَّمالِ من أرضِ خِرْخِيرَ، بلادُ كُتمَـانَ[3] مـنَ الـتُّرْكِ، وَقُبالَتَهَـا في البحـرِ المُحِيْـطِ جزيرةُ الْيَاقوتِ في وسطِ جبلِ مُسْتَدِيْر لا منفذَ منه إليها ولا مَسْلَكَ، والصُّعـودُ إلى أعـلاهُ من خارجهِ صَعْبٌ في الغايةِ، وفي الجزيرةِ حيَّاتٌ قتَالَةٌ وحَصًى من اليَاقُوْتِ كَثِيرةٌ، فيحتـالُ أهلُ تلكَ النَّاحِيَةِ بما يلهمهم الله إليهِ.

---

١ – في ن: من مبدئه.

٢ – في ن: غربيه.

٣ – في ظ: كيماك.

وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسانَ، والجبال كلها مجالاتُ للتركِ: أممٌ لا تحصى وهم ظَوَاعِنُ رَحَّالَةٌ أهل إبلٍ وَشَاءٍ وبقرٍ وخيلٍ للنِّتَاجِ، والرُّكوبِ والأكلِ، وطوائفهم كثيرةٌ، لا يحصيهم إلا خالقُهُمْ، وفيهم مسلمون، مما يلي بلاد النهر نهرِ جَيْحُونَ، ويغزون الكفار منهم الدائنينَ بالمجوسيَّةِ، فيبيعونَ رقيقهم لمن يَليهم، ويخرجونَ إلى بلادِ خُرَاسَانَ، وَالْهِنْدِ، وَالْعِرَاق.

الإِقْلِيْمُ الْرَّابِعُ: يتَّصلُ بالثَّالِثِ من جهةِ الشَّمالِ. والجزءُ الأوَّلُ منه في غَرْبِيِّهِ قطعةٌ من البحرِ المحيطِ مستطيلةٌ، من أوَّلِهِ جنوباً إلى آخرهِ شَمالاً، وَعَلَيْهَا في الجنوبِ مدينةُ طَنجة، ومن هذه القِطْعَةِ تحت طنجةَ من البحرِ المحيطِ إلى البحر الرُّومي، في خليجٍ متضايقٍ بمقدار اثني عشر ميلاً، ما بينَ طريفٍ، والجزيرةِ الخضراءِ شَمَالاً، وقصْرِ المجازِ وَسَبْتَةَ جنوباً، ويذهبُ مُشَرِّقاً إلى أن ينتهي إلى وَسَطِ الجزء الخامس من هذا الإقليم، وينفسحُ في ذهابه بتدريجٍ إلى أن يغمر الأربعةَ الأجزاءِ، وأكثر الخامس، ويغمر عن جانبيه طرفاً من الإقليمِ الثَّالثِ والخامسِ كما سنذكرهُ.

ويسمَّى هذا البحرُ البحر الشَّاميَّ أيضاً، وفيه جزائر كثيرةٌ، أعظمها في جهةِ الغرب يابسةٌ ثُمَّ مايرقَةُ، ثمَّ مِنَرقَةُ[1]، ثمَّ سَرْدَانْيَةُ، ثمَّ صِقِلِّيَّةُ وهي أعظمها، ثم بَلَبُونَسُ[2]، ثم إقْريطِشُ[3]، ثم قبرصُ، كما نذكرُها كلها في أجزائها التي وقعت فيها.

ويخرجُ من هذا البحر الروميّ عند آخرِ الجزء الثَّالثِ منه، وفي الجزءِ الثَّالثِ من الإقْلِيْمِ الْخَامِسِ، خليجُ البَنَادِقَةِ يذهبُ إلى ناحيةِ الشَّمالِ ثمَّ ينعَطِفُ عندَ وَسَطِ الجزءِ من جَوْفِهِ، ويمرُّ مغرِّباً إلى أن ينتهي في الجزء الثَّاني من الخامِسِ.

ويخرجُ منه أيضاً في آخرِ الجزءِ الْرَّابعِ شَرْقاً من الإِقَالِيْمِ الخَامِسِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ، يمُرُّ في الْشَّمَالِ مُتَضَايقاً في عَرْضِ رَمِيَةِ الْسَّهْمِ إلى آخرِ الإقليمِ ثم يُفْضِي إلى الجزءِ الْرَّابعِ مِنَ الإِقْلِيْمِ الْسَّادِسِ، وَيَنْعَطِفُ إلى بَحْرِ بُنْطُس[4] ذَاهِباً إلى الْشَّرْقِ في الجزءِ الْخَامِسِ كُلِّهِ وَنِصْفِ الْسَّادِسِ منَ الإِقْلِيمِ الْسَّادِسِ، كَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ في أَمَاكِنِه.

---

١ - في نزهة المشتاق: ٥٨٢/٢: (ميورقة.. منورقة).

٢ - في المطبوع: بلونس. صحح من نزهة المشتاق: ٦٣٩/٢.

٣ - إقريطش: جزيرة في البحر تقابلها ليبيا من البر الأفريقي.

٤ - في ن: (بنطش) و(نيطش). والذي في معجم البلدان (١/ ٥٠٠) بُنْطُس. قال: بضم الطاء والسين مهملة. كذا وجدته بخط أبي الريحان البيروتي. ومعناه البحر الذي منه خليج القسطنطينية ثم يمتد حتى يتصل ببحر الشام.

وعندَمَا يخرجُ هذا البحـرُ الرُّوْمِيُّ مِنَ الْبَحْـرِ الْمُحِيْـطِ في خليـجِ طنجـةَ، وينفسحُ إلى الإقليمِ الثَّالثِ يبقى في الجنوبِ عن الخليجِ قطعةٌ صغيرةٌ من هذا الجزء، فيهـا مدينـة طنجـة على مجمعِ البحرين، وبعدها مدينة سَبْتَةَ على البحر الرُّوْمِيِّ، ثم تطاون[1]، ثم بادس[2]، ثمَّ يغمرُ هذا البحر بقيَّةَ هذا الجزء شرقاً، ويخرجُ إلى الثالثِ.

وأكثرُ العمارةِ في هذا الجزءِ في شمالهِ [وشمال] الخليجِ منـه، وهـي كلُّهـا بـلادُ الأندلسِ الغربيةُ، منها ما بينَ البحرِ المحيطِ، والبحرِ الرُّومِيِّ، أوَّلُهَا طريفُ عنـد مجمـعِ البحريـن، وفي الْشَّرْقِ منها على سَاحِلِ البحرِ الرُّوْمِي، الجزيرةُ الخضـراءُ، ثـمَّ مالقَـةُ، ثـمَّ المنكـبُ[3]، ثـمَّ المِرْيَةُ.

وتحتَ هذه من لَدُن البَحْرِ الْمُحِيْطِ غرباً [ظ٢٦/١]، وعلى مَقْرُبَةٍ منهُ شَرِيْشُ، ثمَّ لَبْلَةُ، وقُبَالَتَهَا فيه جزيرةُ قَادِسَ، وفي الشَّـرْق عَـنْ شَـرِيْشَ وَلَبْلَـةَ، إشْبِيْلِيَّةَ، ثـمَّ أستجَةُ وقُرْطُبَـةُ وَمربلَةُ[4]، ثم غرنَاطَةُ، وَجَيَّانُ، وأُبَّدَةُ، ثمَّ وادِي آشُ، وبَسْطَةَ.

وتحت هذه شَنَتَمرِيَّةُ وَشِلْبُ على الْبَحْرِ الُمحيطُ غَرْباً، وفي الشَّـرْقِ عنهمـا بَطَلْيُـوسَ[5]، وماردَةُ، ويَابُرةُ[6]، ثُمَّ غَافِقُ[7]، وتَرْجَالَةُ[8]، ثم قَلْعَةُ رِيَاحَ.

وتحتَ هذهِ أَشْبُونَةُ على البحرِ المحيطِ غَرْباً وعلى نهرِ بَاجة، وفي الشَّرْقِ عنها شَـنْتَرِيْنُ، وَقورِيَّةُ[9] على النَّهْرِ المَذْكُوْرِ، ثم قنطرَةَ السَّيْفِ.

وَيُسَامِتُ أَشْبُوْنَةَ من جهةِ الْشَّرْقِ، جَبَلُ الْشَّـارَاتِ، يبـدَأُ مـن المغـربِ هُنَـالِكَ وَيَذْهَـبُ مُشَرِّقاً مَعَ آخرِ الجُزْءِ منْ شَمَالِيِّهِ، فَيَنْتَهي إلى مَدِيْنَةِ سَالِم، فِيمَا بَعْـدَ الْنِّصْـفِ مِنْـهُ، وتحتَ هذا الجَبَلِ طَلْبيْرَةُ في الْشَّرْقِ من قُوْرِيـةَ[10]، ثُـمَّ طُلَيْطُلَـة، ثـمَّ وادِي الْحِجَـارَةِ، ثـم مدينـة سالِمٍ.

---

١ – في المطبوع: قطاون. صحح من نزهة المشتاق:٢/٥٣١.

٢ – في المطبوع: باديس. صحح من نزهة المشتاق:١/٢٦٤.

٣ – – في ن: المنقب. والمثبت موافق لنزهة المشتاق:٢/٥٦٤.

٤ – في المطبوع:مديلة. صحح من نزهة المشتاق:٢/٥٣٧.

٥ – بطليوس: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة غربي قرطبة.

٦– في نزهة المشتاق:٢/٥٣٨: يابورة.

٧ – حصن بالأندلس من أعمال فحص البلوط.

٨ – في المطبوع: بزجالة. صحح من نزهة المشتاق:٢/٥٥٠.

٩ – في المطبوع: موزية. صحح من نزهة المشتاق:٢/٥٤٧.

وعند أَوَّل هَذا الجبلِ فيما بينهُ وبينَ أُشبُوْنَةَ، بَلَدُ قَلْمَريَّة، وَهَذِهِ غَرْبيّ الأَنْدَلُس.

وَأَمَّا شَرقِيُّ الأَنْدَلُسِ فَعَلى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّوْمِيّ منها بَعْدَ الْمَريَةِ قَرْطَاجَنَّة، ثُمَّ لَقَنْتُ ثُمَّ دَانِيَة ثم بَلَنْسِيَةَ إلى طُرْطُوْشَةَ آخرِ الْجُزْءِ في الْشَّرْق، وَتَحْتهَا شَمالاً لِيُورْقَةُ[1] وَشَقُّوْرَةُ تُتَاخِمَان بَسْطَةَ، وَقَلْعَةَ رِيَاحَ مِنْ غَرْبِ الأَندَلُس، ثُمَّ مَرْسِيَةَ شَرْقاً، ثُمَّ شَاطِبَةُ تحت بَلَنْسِيَةَ شَمَالاً، ثُمَّ شَقرُ[2]، ثُمَّ طُرْطُوْشَة، ثُمَّ طَرْكُوْنَةُ آخرِ الْجُزْء.

ثُمَّ تَحْتَ هَذِهِ شَمَالاً أرض مِنجالة وريدة متاخمان لشَقُّورَةَ وطليطلة من الغرب، ثم أفراغه شرقاً تحت طُرطُوشة، وشمالاً عَنْهَا، ثُمَّ في الْشَّرْقِ عن مدينةِ سَالِمٍ قَلْعَةُ أَيُّوْبَ، ثُمَّ سِرِقَسْطَةُ، ثُمَّ لارِدَةُ آخرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً.

وَالْجُزْءُ الثَّانِي من هَذَا الإِقْليْمِ غَمَرَ الْمَاءُ جَمِيْعَهُ، إلاَّ قِطْعَةً من غَرِبِيِّهِ في الْشَّمَال، فيهَا بَقِيَّةُ جبلِ الْبُرْتَاتِ[3]، وَمَعْنَاهُ جَبَلُ الْثَّنَايَا، وَالْسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ من آخِرِ الْجُزْءِ الأَوَّل مِنَ الإِقْليْمِ الْخَامِسِ، يَبْدَأُ مِنَ الْطَّرَفِ الْمُنْتَهِي مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عِنْدَ آخرِ ذلك الْجُزْءِ جَنُوبَاً وَشَرْقاً، وَيَمُرُّ في الْجَنُوْبِ بانْحِرَافٍ إلى الْشَّرْق، فيخرجُ في هذا الإقليم الرَّابع منحرفاً عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثَّانِي فيقعُ فيه قِطْعَةٌ منه تُفْضِي ثناياهَا إلى الْبَرِّ الْمُتَّصِل، وَتُسَمَّى أرضَ غَشْكُوْنِيَّة، وَفِيْهِ مَدِيْنَةُ جَرَنْدَةَ[4]، وَقَرْقَشُوْنَةَ، وَعَلى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّوْمِيِّ من هذه الْقِطْعَةِ مدينة بَرْسَلُوْنَةَ ثُمَّ أَرْبُوْنَةُ وفي هذا البحرِ الَّذِي غمرَ الجزءَ جزائرُ كثيرةٌ والكثيرُ منها غيرُ مسكون لِصِغَرِهَا، ففي غربيه جزيرة سِرْدَانِيَةَ، وفي شَرْقِيِّهِ جزيرةُ صِقِلِّيَةَ مُتَّسِعة الأَقْطَارِ، يُقَالُ: إنَّ دورهَا سَبْعُ مِئَةِ مِيلٍ، وبهَا مُدُنٌ كثيرةٌ من مشاهيرها: سَرَقُوْسَةَ وَبَلَرْم[5] وَطَرابغَةُ[6] وَمَازرُ وَمَسِيني، وَهَذِهِ الْجَزِيْرَةُ تُقَابلُ أَرضَ أَفْرِيقِيَّة، وَفِيْمَا بَيْنَهُمَا جزيرةُ أَغْدُوشَ[7] وَمَالِطَةُ.

---

١٠ – في المطبوع: فورنة. صحح من نزهة المشتاق:٢/٥٤٧.
١ – في نزهة المشتاق:٢/٥٣٨: لورقة.
٢ – جزيرة في شرق الأندلس.
٣ – في المطبوع: البرنات. صحح من نزهة المشتاق:٢/٥٣٨.
٤ – في المطبوع: خريدة. صحح من نزهة المشتاق:٢/٥٨٣.
٥ – بلرم: أعظم مدينة في جزيرة صقلية.
٦ – في نزهة المشتاق١/٦٠١: طرابنش.
٧ – لعلها تحرفت عن: (غودش) أو (إقريطش). انظر نزهة المشتاق:٢/٥٨٨.

وَالْجُزْءُ الثَّالِثُ من هَذَا الإقْلِيْم مغمورٌ أيضاً بالبحر، إلا ثلاثَ قِطَعٍ من ناحيةِ الشَّمال، الْغرْبِيَّةِ منها أرضُ قَلُورِيَّةَ وَالْوُسْطَى من أَرْضِ أَنْكبُرْدَةَ[١]، وَالشَّرْقِيَّةُ من بلاد الْبَنادِقَةِ.

والجزءُ الرَّابِعُ من هَذَا الإقْلِيْمِ مغمورٌ أيضاً بالبحرِ، كما مرَّ، وجزائرهُ كثيرةٌ وأكثرها غيرُ مسكُون [ظ٢/٢٦] كما في الثَّالِثِ، والمعمورُ منها جزيرةُ بَلبونُس[٢] في النَّاحِيَةِ الْغرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ، وجزيرةُ إقْرِيطِشَ مُسْتَطِيْلَةٌ من وَسَطِ الجزْءِ إلى ما بينَ الجنوبِ والشَّرْقِ منه.

والجزءُ الخامسُ من هذا الإقْلِيْمِ، غَمَرَ الْبَحْرُ منهُ مُثَلَّثَةً كبيرةً بينَ الجنوبِ والغربِ وينتهي الضِّلْعُ الغربيُّ منها إلى آخرِ الْجُزْءِ في الشَّمال، وينتهي الضِّلْعُ الجنوبيُّ منها إلى نحو الثَّلاثين من الجزء، ويبقى في الجانبِ الشَّرْقِيِّ من الجُزءِ قِطْعَةٌ نحو الثُلثِ يمرُّ الشَّمَالي منها إلى الْغَرْبِ منعطفاً إلى الغرب منعطفاً مع البحر كما قلناه.

وفي النِّصف الجنوبي منها أسَافِلُ الشَّام، وَيَمُرُّ في وَسَطِهَا جَبَلُ اللِّكَامِ إلى أن ينتهي إلى آخرِ الشَّامِ في الشَّمَال، فَيَنْعَطِفُ من هُنَالِكَ ذَاهِباً إلى الْقُطْرِ الشَّرْقِيِّ الشَّمالي، ويسمَّى بعد انْعِطَافِهِ جَبَلَ السِّلْسِلَةِ، ومن هُنَالِكَ يخرجُ إلى الإقْلِيْمِ الْخَامِسِ، ويجوزُ من عندِ مُنْعَطَفِهِ قِطْعَةً من بلادِ الْجَزِيْرَةِ إلى جهَةِ الشَّرْق.

وَيَقُوْمُ من عِنْدِ مُنْعَطَفِهِ من جهَةِ المغربِ جبالٌ متَّصلةٌ بعضها ببعضٍ إلى أن ينتهي إلى طَرَفٍ خارجٍ من البحرِ الرُّوميّ متأخّرٍ إلى آخرِ الجزءِ من الشَّمَال وبينَ هَذِهِ الجبالِ ثَنَايَا، تُسَمَّى الدُّرُوْبُ، وهي التي تفْضِي إلى بلادِ الأرمن، وفي هذا الجزءِ قطعةٌ منها بين هذه الجبال، وبينَ جبلِ السِّلْسِلَةِ.

فأما الجهةُ الجنوبيةُ الَّتي قدَّمنا أنَّ فيها أسَافِلَ الشَّام، وأن جبل اللِّكام مُعْتَرِضٌ فيها بين البحر الرُّوْمِيّ، وآخرِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوْبِ إلى الشَّمَال، فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَلَدُ أَنْطَرْطُوْس[٣] في أَوَّل الْجُزءِ مِنَ الجنوبِ، مُتَاخِمَةٌ لِغَظَّةَ وَطرَابُلُسَ على سَاحِلِهِ مِنَ الإقْلِيْمِ الثَّالِثِ، وفي شَمَالِ أَنطَرطُوْسَ جَبْلَةُ ثُمَّ اللاَّذِقِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَنْدَرُوْنَة، ثُمَّ سَلُوْقِيَّةُ وَبَعْدَهَا شَمَالاً بِلادُ الرُّومِ.

---

١ – في ن: أبكيردة. وأنكبردة: بلاد واسعة في شمال البحر المتوسط، بين القسطنطينية والأندلس. وانظر نزهة المشتاق:٢/٧٣٩، ٧٤٢.

٢ – في ظ: بليونس. وفي المطبوع: بكونس. صحح من نزهة المشتاق:٢/٦٣٩.

٣ – أنطرطوس: بلد من سواحل بحر الشام تعرف الآن بطرطوس.

وَأَمَّا جَبَلُ اللِّكَام الْمُعْتَرِضُ بَيْنَ الْبَحْرِ وَآخِرِ الْجُزْءِ بحَافَاتِهِ، فَيُصَاقِبُهُ من بلادِ الْشَّامِ من أعلى الجزء جنوباً من غربيهِ حُصْنُ الحواني وهو لِلْحَشِيْشَةِ الإِسْمَاعِلِيَّةِ، وَيُعْرَفُوْنَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْفِدَاوِيَّةِ، وَيُسَمَّى مِصْيَاتِ[1] وهو قُبَالَةَ أَنْطَرْطُوْسَ.

وَقُبَالَةَ هذا الْحُصْنِ في شَرْقِ الْجَبَلِ بَلَدُ سَلَمْيَةَ في الْشَّمالِ عن حمص، وفي الشَّمال وفي مصيَاتٍ بينَ الجبلِ والبحرِ، بلدُ أنطَاكِيَّةَ، ويُقابلها في شَرْقِ الجَبَلِ المعرَّة، وفي شرقِهَا المراغَةُ، وفي شَمال أنطَاكِيَّةَ المصيصَة، ثمَّ أَذَنَة، ثمَّ طَرَسُوْسُ آخِرُ الْشَّام، ويُحاذيها من غرب الجَبَلِ قِنَّسْرِيْنُ، ثمَّ عينُ زُرْبَةَ، وقُبَالَةَ قِنَّسْرِيْنُ في شَرْقِ الجبلِ حلبُ ويُقَابلُ عينَ زُرْبَة منبج آخرَ الشَّام.

وَأَمَّا الْدُّرُوْبُ فَعَنْ يمينها ما بينها وبين البحر الرُّوميّ بلادُ الرُّوْمِ التي هي لهذا العهد لِلْتُرْكُمَان وسُلْطَانُهَا ابْنُ عثمانَ، وفي سَاحِلِ البحرِ منها بلدُ أنطَاكِيَّةَ والْعَلاَيَا.

وأَمَّا بِلَادُ الأَرْمَنِ الَّتِي بينَ جَبَلِ الْدُّرُوْبِ وجبلِ الْسِّلسِلَةِ ففيها بلدُ مَرْعَشَ، وَمَلَطيَةُ، والمَعَرَّةُ إلى آخر الجزء الشَّمالي، ويخرجُ من الجزء الخامس في بلاد الأرمَنِ، نهرُ جيحان، ونهرُ سيحَانَ في شَرْقِيِّه فَيَمُرُّ بها جيحانُ جنوباً حتى يتجاوز الدُّرُوْبَ، ثم يَمُرُّ بطَرْسُوْسَ، ثم بالمَصِيْصَةِ، ثم ينعَطِفُ هابطاً إلى الْشَّمَالِ، وَمُغَرِّباً [ظ٢٧/١] حتى يصُبَّ في البحر الرُّوْمِي جنوبَ سَلُوْقِيَّةَ.

ويمرُّ نهرُ سِيْحَانَ موازياً لِنَهْرِ جيْحانَ فَيُحَاذِي المَعَرَّة وَمَرْعَشَ ويتجاوزُ جبالَ الدُّرُوْبِ إلى أَرْضِ الْشَّامِ ثُمَّ يَمُرُّ بعَينِ زُرْبَةَ، ويجوزُ عن نهرِ جَيْحَانَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إلى الْشَّمَالِ مُغَرِّباً فَيَخْتَلِطُ بنهر جيحانَ عندَ الْمَصِيْصَةِ، ومن غرْبها.

وأما بلادُ الجزيرةِ التي يُحيطُ بها منعطف جبلِ اللِّكام إلى جبل السِّلسِلَةِ ففي جنوبها بَلَدُ الْرَّافضة والرَّقَّة، ثم حرَّانُ[2]، ثمَّ سَرُوجُ والرَّها، ثُمَّ نصَيْبِيْنُ، ثُمَ سُمَيْسَاطُ[3] وآمِدُ تحتَ جَبَلِ الْسِّلْسِلَةِ، وَآخِرُ الجزءِ من شَمالِهِ وهو أيضاً آخرُ الجَزءِ من شرقِيِّهِ، ويمرُّ في وسطِ هذه القطعة نهرُ الفراتُ ونهرُ دجلةَ يخرجان من الإقْلِيْم الخَامِسِ، ويُمرَّان في بلادِ الأَرْمَنِ جنوباً إلى أن يتجاوزَا جبل الْسِّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نهرُ الْفُرَاتِ من غَرْبِيِّ سُمَيْسَاطَ وَسَرُوْجَ،

---

١ – المعروفة الآن: بمصياف.

٢ – مدينة عظيمة على طريق الشام والروم كانت عاصمة ديار مضر.

٣ – مدينة على شاطئ الفرات.

وينحرفُ إلى الْشَّرق فيمرُّ بقربِ الرَّافضةِ والْرَّقَّةِ، ويخرجُ إلى الجزءِ الْسَّادِسِ، ويمرُّ دجلة في شرق آمِدَ وينعطِفُ قريباً إلى الْشَّرْق فيخرجُ قريباً إلى الجزءِ الْسَّادِسِ.

وفي الجزءِ السَّادِسِ من هَذَا الإقْلِيْمِ من غربيِّهِ بلادُ الْجَزيْرَةِ. وفي الْشَّرْقِ مِنْهَا بلادُ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بهَا، تنتهي في الْشَّرْق إلى قُرْبِ آخِرِ الْجُزءِ، ويعترِضُ من آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَالِكَ جبلَ أَصْبَهَانَ هَابطاً من جَنُوْبِ الْجُزْءِ مُنْحَرِفاً إلى الْغَرْبِ، فَإِذَا انْتَهَى إلى وَسَطِ الْجُزْءِ من آخِرِهِ في الْشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغَرِّباً إلى أن يخرجَ مِنَ الجزءِ الْسَّادِسِ، ويتَّصِلُ على سَمْتِهِ بجَبَلِ الْسِّلْسِلَةِ في الجزءِ الْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هذا الْجزءُ الْسَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ، ففي الْغَرْبِيَّةِ من جنوبِيها مخرجُ الفُرَاتِ مِنَ الخَامِسِ، وفي شَمَالِيهَا مخرجُ دِجْلَةُ منهُ، **أَمَّا الفراتُ** فأَوَّلُ ما يخرجُ إلى الْسَّادِسِ يَمُرُّ بقَرْقِيْسِيَا، ويخرجُ من هُنَالكَ جَدْوَلٌ إلى الْشَّمَالِ يَنْسَابُ في أرضِ الجزيرةِ ويغوصُ في نواحيهَا، ويمرُّ من قَرْقِيْسيَا غَيْرَ بعْيدٍ، ثمَّ ينعَطفُ إلى الجنوبِ فيمرُّ بقُرْبِ الخَابُوْرِ إلى غَرْبِ الْرَّحْبَةِ، ويَخْرُجُ منهُ جَداوِلُ من هُنَالِكَ يَمُرُّ جنوباً، ويبقى صَفِّيْنِ في غَرْبِيهِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقَسِمُ بشُعُوْبٍ، فَيَمُرُّ بعضها بالكوفَةِ وبعضها بقَصْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ وبالجَامِعَيْنِ، وتَخْرُجُ جميعاً في جَنُوْبِ الْجُزْءِ إلى الإقليمِ الْثَّالثِ فَيَغُوْصُ هُنَالِكَ في شَرْقِ الْحِيْرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ، ويَخْرُجُ الْفُرَاتُ من الْرَّحْبَةِ مُشَرِّقاً عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هِيْتَ شَمَالِهَا، ويمر إلى الزاب والأنبار من جنوبهما، ثم يصب في دجلة عند بغداد. **وأما نهر دجلة**: فإذا دخل من الجزء الخامس إلى هذا الجزء يمرُّ مشرِّقاً عن سمته، ومحاذياً لجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على سمته، فيمر بجزيرة ابن عمر[1] على شمالها. ثُمَّ بالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتكريْتَ وَيَنْتَهِي إلى الْحَدِيثَةِ، فَيَنْعَطِفُ جنوباً وَتبقى الحَدِيثَةُ في شَرْقِهِ وَالْزَّابُ الْكَبِيْرُ وَالْصَّغِيْرُ كَذَلِكَ، ويَمُرُّ على سَمْتِهِ جنوباً وفي غربِ الْقَادِسِيَّةِ إلى أن ينتهي إلى بغدادَ، وَيَخْتَلِطَ بالْفُرَاتِ، ثُمَّ يمُرُّ جَنُوْباً عَلَى غَرْبِ جَرْجَرَايَا[2] إِلَى أَنْ يَخْرُجَ من الجزءِ [ظ٢/٢٧] إلى الإقليمِ الثَّالثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوْبُهُ وَجَدَاوِلُهُ، ثم يجتمعُ ويصبُّ هُنَالِكَ في بحرِ فارسَ[3] عندَ عَبَّادَانَ.

وفيما بينَ نهرِ الْدِّجْلَةِ والْفُرَاتِ قبلَ مجمعهما ببَغدادَ، هي بلادُ الجزيرةِ.

---

١ – بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي.
٢ – من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.
٣ – أي: الخليج العربي.

ويختلطُ بنهرِ دجلة بعدَ مُفارقتهِ ببغدادِ نهرٌ آخر يأتي من الجهةِ الْشَّرْقِيَّةِ الْشَّمَالِيَّةِ منهُ، وينتهي إلى بلادِ النَّهْرَوَان قُبَالَة بغدادَ شَرْقاً، ثُمَّ يَنْعطِفُ جَنُوباً ويختلطُ بدجلة قَبْلَ خُرُوْجِهِ إلى الإقْلِيْمِ الثَّالِثِ وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبيْنَ جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالأَعَاجِمِ بَلَدُ جَلُولاءَ[1]، وَفي شرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بَلَدُ حُلْوَانَ وَصَيْمَرَةُ.

وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغَرْبِيَّةُ من الْجُزْءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدأُ من جَبَلِ الأَعَاجِمِ مُشَرِّقاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ، وَيُسَمَّى جَبَلَ شَهْرَزُوْرَ، وَيَقْسِمُهَا بِقُطعَتَيْنِ في الجنوبِ من هذه القِطْعَةِ الصُّغْرَى بَلَدُ خُونْجَانَ منَ الْغَرْبِ وَالْشَّمَال عن أَصْبَهَانَ، وَتُسَمَّى هذهِ القِطْعَةُ بَلَدَ الْهُلُوس، وَفي وَسَطِهَا بَلَدُ نَهَاوَنْدَ، وفي شَمَالِهَا بَلَدُ شَهْرَزُوْرَ غرْباً، عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَبَلَيْنِ، وَالْدَّيْنُورُ شَرْقاً عندَ آخِرِ الْجُزْءِ.

وفي الْقِطْعَةِ الْصُّغْرَى الْثَّانيةِ طرفٌ من بلادِ أرْمِينيَّةَ، قاعدتها الْمَرَاغَةُ، والَّذي يُقابلها من جبل العِرَاقِ، يُسَمَّى بارِيَا[2]، وهو مَسَاكن للأكرادِ، والزَّابُ الكَبِيْرُ وَالْصَّغير الَّذي على دجلة من ورائه.

وفي آخِرِ هذه القِطْعَةِ من جهة الشَّرْق بلادُ أَذَرْبِيجَانَ ومنها تَبْرِيْزُ، والْبِيْلَقَانُ[3]، وفي الزَّاوِيَةِ الْشَّرْقِيَّةِ الْشَّمَالِيَّةِ من هذا الجزءِ قِطعةٌ من بحر بنطُس وهو بحر الخزَر.

وفي الجزء السَّابعِ من هذا الإقليمِ من غَربهِ وجنوبهِ مُعظَمُ بلادُ الْهُلُوسِ وفيها هَمَذَانُ وَقَزوينُ وبقيتها في الإقليم الثَّالِثِ، وفيها هُنَالِكَ أَصْبَهانُ، ويُحيطُ بها من الجنوبِ جَبَلٌ يخرجُ من غَرْبها ويُمرُّ بالإقْلِيْمِ الْثَّالِثِ ثُمَّ ينعَطِفُ من الجزء السَّادِسِ إلى الإقليمِ الرَّابعِ، ويتَّصلُ بجَبَلِ العِرَاقِ في شَرْقِيِّهِ الَّذي مرَّ ذكرهُ هنالك، وإنه محيطٌ ببلادِ الْهُلُوْسِ في القطعةِ الشَّرْقِيَّةِ.

ويهبُطُ هذا الجبلُ الُمحيطُ بأصبهانَ من الإقليمِ الْثَّالثِ إلى جهة الْشَّمال، ويخرجُ إلى هذا الجزء الْسَّابعِ، فيُحيطُ ببلادِ الْهُلُوْسِ من شَرْقِهَا وتحتهُ هُنَالِكَ **قَاشَانُ** ثمَّ **قُمْ**، وينعطف في قُرْبِ النِّصْفِ من طريقهِ مُغرِّباً بعضَ الشَّيء، ثمَّ يرجعُ مستديراً فيذهَبُ مُشَرِّقاً ومنحرفاً إلى الشَّمَالِ حتى يخرُجَ إلى الإقليمِ الخامس ويشتمل على مُنْعَطِفِهِ واسْتِدارتِهِ على بلدِ الْرّيِّ في شرقيه، ويبدأ من منعطِفِهِ جبلٌ آخرُ يمرُّ غَرْباً إلى آخِرِ هذا الجزء، ومن جنوبهِ من

---

١ - فيها كانت الوقعة المشهورة بها للمسلمين على الفرس سنة ١٩هـ.
٢ - باري: قرية في نواحي بغداد كانت ذات بساتين يقصدها أهل البطالة.
٣ - في المطبوع: البيدقان. صحح من نزهة المشتاق:٨٢٢/٢.

هنالك قزوين، ومن جانبه الشَّمالي وجانب جَبَلِ الريّ الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذاهباً إلى الْشَّرْق والشَّمالِ إلى وَسَطِ الْجُزْءِ، ثُمَّ إلى الإقليم الخامسِ بِلاَدُ طَبَرْسَتَانَ فيما بين هذه الجبالِ وبينَ قطعةٍ من بحرِ طَبَرْسَتَانَ ويدخلُ من الإقْلِيْمِ الْخَامِسِ في هذا الجزء في نحو النصف من غربه إلى شرقه ويعترض عند جبل الرّي. وعند انعطافه إلى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقاً وبانحراف قليل إلى الجنوب حتى يدخل في هذا الْجُزْءِ الثَّامِنِ من غَرْبِهِ ويبقى بين جبَلِ الرَّيِّ وهذا الجبلِ من عند مَبْدئِهما بلادُ جُرْجَانَ [ظ١/٢٨] فيما بينَ الْجَبَلَيْنِ، ومنها بِسْطَامُ[١].

وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ قِطْعَةٌ من هذا الجزء، فِيْهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارسَ وَخُرَاسَانَ وهي في شَرْقِيّ فَاشَانَ وفي آخرِهَا عندَ هَذَا الْجَبَلِ بَلَدُ أَسْتَرَابَاذَ، وَحَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ من شَرْقِيِّهِ إلى آخرِ الْجُزْءِ بِلاَدُ نِيْسَابُوْرَ مِنْ خُرَاسَانَ ففي جَنُوْبِ الْجَبَلِ وَشَرْق الْمَفَازَةِ بَلَدُ نِيْسَابُوْرَ، ثُمَّ مَرُوْ الْشَّاهِجَان آخِرُ الْجُزء، وفي شَمَالِهِ وَشَرْقِيِّ جُرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ، وَخَازَرُوْنَ، وَطُوْسِ آخرَ الْجُزْءِ شَرْقاً؛وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ.

وفي الْشَّمالِ عنها بِلاَدُ نَسَا، وَيحيطُ بها عند زاوية الجزأين الشَّمال والشَّرْق[٢] مفاوزُ مُعَطَّلَةٌ.

وفي الجزء الثَّامِنِ من هذا الإقلِيْم، وفي غَرْبِيِّهِ نهرُ جيحون ذاهباً مِنَ الْجَنُوبِ إلى الشَّمال، ففي عُدْوَتِهِ الْغَرْبِيَّةِ رَمُّ وآمُلُ[٣] من بلادِ خُرَاسَان، والظَّاهِرِيَّةُ والْجُرْجَانِيَّةُ، من بلادِ خوارزْمَ، ويحيطُ بالزاويةِ الغربيةِ الجنوبيةِ منه جبَل أَسْتَرَابَاذَ الْمُعْتَرِضُ في الْجُزْءِ السَّابِعِ قَبْلَهُ، ويخرجُ في هذا الجزءِ من غَرْبِيِّهِ، وَيُحيْطُ بهذهِ الزَّاوِيَةِ وفيها بَقِيَّة بلاد هَرَاة، ويمر الجبل في الإقليم الثالث بين هَرَاة والجَوْزَجَان حتى يَتَّصِلَ بجبلِ الْبُتّم، كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَالِكَ.

وفي شَرْقِي نهر جَيْحُونَ من هذا الجزءِ وفي الجنوبِ منه بلادُ بُخارى، ثم بلادُ الصُّغْدِ، وقاعدتها سمرقَنْدُ، ثمَّ بلاد أَشْرُوْسنَةَ[٤]. ومنها خَجَنْدَةُ آخر الجزء شرقاً. وفي الشَّمال عن سمرقند وأشْرُوسَنة أَرْضُ إِيْلاَقَ[٥]، ثم في الشمال عن إيلاقَ أرضُ الْشَّاشِ إلى آخرِ الْجُزْءِ

---

١ -بسطام: بلدة كبيرة في الطريق إلى نيسابور بعد دامغان.

٢ - في ن: الشمالي والشرقي.

٣ -آمُل: أكبر مدينة بطبرستان في السهل.

٤ - في الأصل: (أسروشنة) وهي بلد كبير في ما وراء النهر.

٥ - في المشترك: إقليم إيلاق متصل بإقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون الياء بعدها.

شرقاً، ويأخذ قطعةً من الجزء التّاسع، في جنُوْبِ تلك القِطْعةِ بقية أرْضِ فرغانَةَ ويخرجُ من تلك القطعة التي في الجزء التَّاسِع، نهرُ الشَّاشِ يمرُّ معترضاً في الجزء الثَّامنِ إلى أن ينصبَّ في نهر جيحون عند مخرجهِ من هذا الجزء الثامن في شمالهِ إلى الإقليم الخامسِ، ويختلطُ معه في أرضِ إيلاق نهرٌ يأتي من الجزءِ التَّاسعِ من الإقليمِ الثَّالثِ من تُخُوْمِ بلادِ التبتِ ويختلطُ معه قبل مخرجهِ من الجزء التَّاسعِ نهرُ فرْغَانَةَ.

وعلى سَمْتِ نهر الشَّاشِ جبلُ جبراغون، يبدأ من الإقليم الخامسِ، وينعطِفُ شرقاً ومنحرفاً إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش، ثم ينعطف في الجزء التّاسعِ فيحيطُ بالشَّاش، وفرْغَانَةُ هُنَاكَ إلى جَنُوْبِهِ فيَدْخُلُ في الإقليمِ الثَّالثِ.

وبينَ نَهْرِ الشَّاشِ وطرَفَ هذا الجَبَلِ في وَسَطِ الْجُزْءِ بلادُ فَارَابَ، وبينهُ وبينَ أرْضِ بُخارى وخوارزمَ مفاوزُ مُعَطَّلةٌ، وفي زَاويةِ هذا الجزء من الشَّمالِ والشَّرْقِ أرضُ خجندة، وفيها بلدُ إسبيجَابَ[1] وَطِرَازُ.

وفي الجزءِ التَّاسعِ من هَذا الإقليمِ في غربيه بعد أرضِ فرغَانَةَ والشَّاش، أرضُ الخَزْلَجيَّةِ في الجَنُوْبِ، وَأَرْضُ الخَلِيجَةِ في الشَّمال، وفي شَرق الجزء كُلِّهِ أرضُ الكَيْمَاكِيَّةِ، وَيَتَّصِلُ في الجُزْءِ العَاشِرِ كُلِّهِ إلى جَبَلِ قُوْقِيَا، آخِرِ الجُزء شَرْقاً، وعلى قِطْعَةٍ من البَحْرِ المُحِيْطِ هُنَالِكَ وهُوَ جبلُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهذه الأمم كلُّها من شعوبِ التُّرْكِ. انتهى.

الإقْلِيْمُ الخَامِسُ: الجُزْءُ الأوَّل منه أكثرهُ مغمورٌ بالماء إلاَّ قليلاً [ظ٢٨/٢] من جَنُوْبِهِ وَشَرْقِهِ، لأنَّ البحرَ المُحيطَ بهذهِ الجهَةِ الغَرْبيَّةِ، دَخلَ في الإقْلِيْمِ الخَامِسِ والسَّادِسِ والسَّابع من الدائرة المحيطة بالإقليم، فأمَّا المنكشفُ من جنوبهِ فقطعةٌ على شَكْلِ مثلَّثٍ متَّصلة من هنالكَ بالأندلس، وعليها بقيَّتها، ويحيط بها البحر من جهتين كأنَّهما ضِلعان محيطان بزاوية المثلث، ففيها من بقية غرب الأندلس سَعْيُوْرُ على البحر، عند أوَّل الجزءِ من الجنوبِ والغربِ،وسَلَمَنْكَةُ شرقاً عنها، وفي جوفها سَمُّورةُ، وفي الشرق عن سَلَمَنكة أَيلَةُ[2] آخر الجنوب، وأرضُ قَسْتَالِيَةَ شرقاً عنها، وفيهَا مدينةُ شَقُّوبيَّة[3]، وفي شمالها أرضُ لِيُونَ وَبَرْغَشْتُ، ثمَّ وراءَها في الشَّمالِ أرضُ جلِيقيَّةِ إلى زاوية القِطعة.

---

١ - في ن: بلد السنجاب.

٢ - وهي مدينة في الشمال الغربي لمقاطعة مدريد.

٣ - في المطبوع: شقونية. صحح من نزهة المشتاق:٢/٧٢٥.

وفيها على البحر المحيطِ في آخرِ الضِّلعِ الغربي بَلَدُ سَنْتَيَاقُو، ومعناه: يَعْقُوْبُ.

وفيها من شرقِ بلادِ الأندلس مدينةُ شِطِّلِّيَةَ عند آخر الجزءِ في الجنوب، وشرقاً عن قَسْتَالية، وفي شمالها وشرقها وَشَقَةُ وَبَنْبَلُوْنَةُ على سَمْتِهَا شَرقاً وَشمالاً، وفي غربِ بَنبَلُونة قَسْطَالَةُ، ثُمَّ ناجزةُ فيما بينها وبينَ بَرْغَشْتَ.

ويعترضُ وسطَ هذه القطعةِ جبلٌ عظيمٌ محاذٍ للبحرِ، وللضِّلعِ الْشَّماليِّ الشَّرْقِيّ منه، وعلى قربٍ، ويتَّصِلُ به وبطَرَفِ البحرِ عندَ بَنْبَلُونَةَ[1] في جهةِ الشَّرْق الَّذي ذكرنا من قبلِ أن يتَّصِلَ في الجنوب بالبحر الرُّوميِّ، في الإقليمِ الرَّابعِ، ويصيرُ حَجْراً على بلاد الأندلس من جهة الشرق، وثناياهُ لها أبوابٌ تفضي إلى بلادِ غَشْكُوْنِيَّةَ من أمم الْفَرَنج، فمنهَا من الإقليم الرَّابعِ: بَرْشَلُوْنَةُ، وَأَرْبُوْنَةُ[2] على سَاحِلِ البحرِ الرُّوْمِيِّ، وجَرَنْدَةُ[3] وَقَرْقَشُوْنَةُ وَرَاءَهُمَا في الْشَّمَال، ومنها من الإقليم الخامسِ طَلُوشَةُ شَمالاً عن جَرَنْدَةَ.

وأمَّا المنكشفُ في هذا الجزءِ من جهةِ الشَّرْق فقطعةٌ على شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيْلٍ، زَاوِيَتُهُ الحَادَّةُ وراءَ الْبُرْتَاتِ[4] شَرقاً وفيها على البحرِ المحيطِ على رأسِ القِطْعَةِ الَّتي يتَّصِلُ بها جبلُ الْبُرْتَاتِ بَلَدُ نِيُونَةَ، وفي آخرِ هذه القِطْعَةِ في الناحيةِ الشَّرْقية الْشَّماليَّةِ من الجزءِ أرضُ بِيْطُو[5] مِنَ الْفِرَنْجِ إلى آخرِ الجزءِ.

وفي الجزءِ الثَّاني من النَّاحيةِ الغربيَّةِ منه أرضُ غَشْكُوْنِيَّةَ، وفي شمالها أرضُ بِيْطُو وبرغشت، وقد ذكرناهما، وفي شرق بلادِ غَشْكونيَّةَ في شمالها قطعةُ أرضٍ من البحرِ الرُّومي دخلت في هذا الجزءِ كالضِّرْسِ مائلةً إلى الشرقِ قليلاً وصارت بلادُ غَشكونيَّةَ في غربها داخلةً في جونٍ من البحر.

وعلى رأس هذه القطعةِ شَمالاً بلادُ جَنْوَةَ، وعلى سَمْتِهَا في الشمَّالِ جبلُ مِنتَ[6] جُونَ، وفي شَمَالِهِ وعلى سمته أرضُ بَرْغُونَةَ.

---

١ - في ن: ينبلونة بالياء.

٢ - في طرف الثغر من أرض الأندلس، بينها وبين قرطبة نحو ألف ميل.

٣ - في المطبوع: خريدة. صحح من نزهة المشتاق:٢/٥٨٣.

٤ - في ن: البرنات. وفي المطبوع: البرناب. صحح من نزهة المشتاق:١/١١، ٣٠.

٥ - في المطبوع: بنطو. صحح من نزهة المشتاق:٢/٧٢٥.

٦ - في المطبوع:نيت. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٧٤.

وفي الشَّرْق عن طرف جنوةَ الخارجِ منَ البحر الرُّوْمِيِّ طرف، آخرُ خارِجٌ منه، يبقى بينهما جونَ داخل من البرِّ في البحر، في غربيِّه نيشُ، وفي شرقيِّه مدينةُ رومةَ العُظمى كُرْسي ملك الإفرنجة، ومسكنِ البابا بطركهم الأعظم، وفيها من المَباني الضَّخمة والهَياكلِ الهائلَة والكنائسِ العادِيَّة ما هو معروف الأخبار، ومن عجائبها النَّهْرُ الجاري في وسطها من المَشرق إلى المغربَ [ظ٢٩/١] مفروش قاعةُ ببلاط النُّحَاسِ، وفيها كنيسةُ بُطْرُس وَبُوْلُسَ من الحواريين، وهما مدفونان بها.

وفي الشَّمالِ عن بلاد رُومةَ بلادُ أَفْرَنْصيْصَةَ[1] إلى آخرِ الجزء، وعلى هذا الطرَّف من البحرِ الذي في جنوبه رُومةُ بلادُ نَابلَ في الجانبِ الشَّرْقيّ منه متصلةً ببلد قَلُوريَّةَ من بلاد الْفَرَنْج، وفي شمالها طَرفٌ من خليجِ الْبَنادقَة دخلَ في هذا الجزء من الجزء الثالث، مُغرِّباً ومحاذياً للشَّمالِ من هذا الجزء، وانتهى إلى نحو الثُّلْث منهُ، وعليه كثيرٌ من بلاد البَنادقة دخل في هذا الجزءِ من جنوبهِ فيما بينه وبين البحر المُحيطِ، ومن شمالهِ بلادُ إنكلاَيَةَ في الإقليم الْسَّادسِ.

وفي الجزء الثَّالث من هذا الإقليم في غربيِّه بلادُ قَلُوريَّةَ بين خليجِ الْبَنادقَة والبحرِ الرُّوميِّ، يُحيطُ بها من شَرْقيِّه، يصلُ من برِّها في الإقليم الرابعِ، في البحرِ الرُّوْميِّ في جُون بينَ طَرَفَيْن خرَجا من البحرِ على سَمْت الْشَّمال إلى هذا الجزءِ في شرقي بلادِ قَلورِيَّةَ، بلادُ أَنْكَبَردَةَ[2] في جن بينَ خليج البنادقة والبَحر الرُّوْميّ.

ويدخلُ طَرَفٌ من هذا الجزء في الجُون في الإقليم الرَّابع، وفي البحرِ الرّوميِّ ويحيط به من شرْقيِّه خليجُ البَنادقَة من البحر الرُّوْميِّ ذَاهباً إلى سمت الْشَّمال، ثُمَّ ينعطفُ إلى الغرب محاذياً لآخرِ الجُزء الْشَّمَاليِّ، ويخرجُ على سمته من الإقليمِ الرَّابعِ جبلٌ عظيمٌ يُوازيه ويذهبُ معهُ إلى[3] الشَّمالَ، ثمَّ يُغَرِّبُ معه في الإقليمِ الْسَّادسِ إلى أن ينتهي قُبَالَةَ خليجٍ في شماليه في بلاَدِ إنْكلاَيَةَ من أُمَمِ اللَّمانيينَ. كما نذكرُ، وعلى هذا الخليجِ، وبينَهُ وبين هذا الجبلِ، مَا دَامَا ذَاهبينَ إلى الْشَّمالَ، بلاَدُ الْبَنادِقَة، فَإذَا ذهبا إلى المغربِ فبينهما بلادُ حَروَايَا، ثُمَّ بلادُ الأَلْمَانيينَ عند طرفِ الخليج.

---

١ - فرنسا.

٢ - في المطبوع: أنكيردة. صحح من نزهة المشتاق: ٤/١.

٣ - في ن: في.

وفي الجزءِ الرَّابعِ من هذا الإقليمِ قطعةٌ من البحرِ الرُّوْمِيِّ خرجت إليه من الإقليمِ الرَّابعِ مُضَرَّسَةً كلُّهَا بقطعٍ من البحرِ ويخرجُ منها إلى الشَّمال، وبينَ كلِّ ضرسَيْنِ منها طرفٌ من البحرِ في الجُوْن بينهمَا، وفي آخرِ الجزءِ شرقاً قطعٌ من البَحْرِ، ويخرجُ منها إلى الشَّمال خليجُ القُسْطَنْطينيةِ يخرجُ من هذا الطرف الجنوبي، ويذهبُ على سَمْتِ الشَّمالِ إلى أن يدخل في الإقليمِ السَّادِسِ، وينعطف من هنَالِكَ عن قربٍ مُشرِّقاً إلى بحر بُنْطُسَ(١) في الجزءِ الخامسِ وبعضِ الرَّابعِ قبلهُ والسَّادِسِ بعدهُ منَ الإقليمِ السَّادِسِ كما نذكر، وبلدُ القُسْطَنْطِيْنِيَّةِ في شَرْقِيِّ هذا الخليجِ عندَ آخرِ الجزءِ من الشَّمالِ وهي المدينةُ العظيمةُ التي كانت كُرْسِيَّ القَيَاصِرَةِ، وبها من آثارِ البناءِ والضَّخامةِ ما كَثُرَتْ عنه الأحاديثُ، والقِطْعَةُ التي ما بينَ البحرِ الرُّوْمِيِّ وخليجِ القُسْطَنْطِينيةِ من هذا الجزءِ، وفيها بلادُ مَقْدُونِيَّةَ التي كانت لليُوْنَانِيِّينَ ومنها ابتداءُ مُلْكِهِمْ، وفي شرقيِّ هذا الخليجِ إلى آخرِ الجزءِ قطعةٌ من أرضِ بَاطُوْسَ(٢)، **وأظنُّهَا لهذا العهدِ مَجَالات لِلتُّرْكُمَان**، وبها ملكُ ابنِ عُثمانَ وقاعدتُهُ بها بَرْصَةُ(٣)، وكانت من قبلهم لِلرُّوم وغَلَبَهُم عليها الأُمَم إلى أن صَارت لِلتُّرْكُمَان.

وفي الجزءِ الخامس من هذا الإقليم، من غربيِّهِ وجنوبيِّهِ أرضُ بَاطُوْسَ، وفي الشَّمالِ عنها إلى آخرِ الجزءِ بلادُ عَمُّوْرِيَّةَ، وفي شَرْقِيِّ عَمُّوْرِيَّةَ نهرُ قَبَاقِبَ الَّذي يمدُّ [ظ٢٩/٢] الفراتَ يخرجُ من جبلٍ هنَالِكَ ويذهبُ في الجنوبِ حتى يُخالطَ الفُرَاتَ قبل وصولِهِ من هذا الجزءِ الثاني إلى مَمَرِّهِ في الإقليمِ الرَّابعِ، وهُنَالِكَ في غربيه آخرَ الجزءِ في مَبْدَإِ نهرِ سِيْحَانَ، ثُمَّ نهْرِ جيْحَانَ غربيَّهُ الذَّاهِبَينِ على سَمْتِهِ، وقد مَرَّ ذكرهما، وفي شَرْقِهِ هنالكَ مبدأُ نهرِ دجلةَ الذاهبِ على سمتهِ، وفي مؤازرَتِهِ حتَّى يُخالطهُ عندَ بَغْدَادَ.

وفي الزاوية الَّتي بين الجنوبِ والشَّرْقِ من هذا الجزءِ وراءَ الجَبَلِ الَّذي يبدأُ منه نهرُ دِجْلَةَ بلدُ مَيَّافَارِقِيْنَ.

ونهرُ قَبَاقِبَ الَّذي ذكرناهُ يقسمُ هذا الجزءَ بِقِطْعَتَيْنِ: **إحداهما**: غربِيَّةٌ جنوبيَّةٌ، وفيها أرضُ بَاطُوْسَ كما قلناهُ، وأسَافِلهَا إلى آخرِ الجزءِ شمالاً، ووراءَ الجبلِ الَّذي يبدأ منه نهرُ قَبَاقِبَ أرضُ عَمُّوْرِيَّةَ كما قلناهُ. والقِطْعَةُ **الثَّانِيَةُ**: شرْقِيَّةٌ شَمَالِيَّةٌ على الثُّلُثِ، في الجنوبِ

---

١ - في ن: بنطش. والذي في معجم البلدان (١/٥٠٠) بنطس قال: بضم الطاء والسين مهملة. كذا وجدته بخط أبي الريحان البيروني.

٢ - في المطبوع: بلونس. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٠٣، ٨٠٨: باطوس.. ناطوس.. باطلوس.. ناطلوس.

٣ - في ن: بورصة.

منها مبدأُ دِجلَةَ والفُرَاتِ، وفي الْشَّمَال بلادُ الْبِيْلَقَان مُتَّصِلَةٌ بأَرض عَمُّوْرِيَّةَ من وراء جبل قَبَاقِبَ، وهي عَرِيضَةٌ، وفي آخرها عند مبدإ الفراتِ بلدُ خَرْشَنَةَ، وفي الْزَّاوِيَةِ الْشَّرْقِيَّةِ الْشَّمالِيَّةِ قِطعةٌ من بحرِ بنطسَ الَّذِي يُمدُّهُ خليجُ الْقُسْطَنطينيةِ.

وفي الجزء السَّادِسِ من هذا الإقليم في جَنُوبه وغربهِ بلادُ أرْمِينِيَّةَ متَّصِلَةٌ إلى أن يتجاوزَ وسط الجزءِ إلى جانبِ الشَّرق، وفيها بلدانُ[1] أُرْدُنَّ في الجنوبِ والغربِ وفي شمالها تَفْلِيسُ وَدُبَيْلُ، وفي شرق أُرْدُنَّ مَدِيْنَةُ خِلاَطَ، ثُمَّ بردعَةُ في جنوبها بانحرافٍ إلى الْشَّرْق مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةَ، ومن هُنَالِكَ مَخْرَجُ بلاَدِ أرمينيةَ إلى الإقليمِ الرَّابع، وفيها هنالك بَلَدُ المَرَاغَةِ في شرقيّ جبلِ الأَكرَادِ، الْمُسَمَّى بِأُرْمَى، وقد مَرَّ ذكرهُ في الجزءِ السَّادس منه.

ويُتاخِمُ بلادَ أرمينيَّة في هذا الجزءِ، وفي الإقليمِ الْرَّابِعِ قَبْلَهُ من جهةِ الشَّرْق فيها بلادُ أَذَرْبِيْجَانَ، وآخرها في هذا الجزءِ شَرْقاً بلادُ أَرْدَبِيْلَ على قطعةٍ من بحر طَبَرْستَانَ دَخلت في النَّاحية الشَّرْقِيَّةِ من الجزء السَّابع، ويسمى بحر طَبَرْستَانَ، وعليه من شمالهِ في هذا الجزءِ قطعةٌ من بلادِ الخزَرِ وَهُمُ التُّرْكُمَانُ، ويبدأ من عندِ آخرِ هذه القُطْعَةِ البحريَّةِ في الشَّمال جبالٌ يتَّصِلُ بعضها ببعضٍ على سمتِ الغربِ إلى الجزءِ الْخَامس. فَتَمُرُّ فيه مُنعطفةً ومحيطةً ببلدِ مَيَّافَارْقِيْنَ، ويخرجُ إلىَ الإقليمِ الْرَّابعِ، عند آمِدَ[2] ويتَّصِلُ بجبلِ الْسِّلْسِلَةِ في أسافلِ الْشَّامِ، ومن هنالك يتَّصِلُ بجبلِ اللُّكَام كَمَا مرَّ.

وبين هذه الجبالِ الشَّماليةِ في هذا الجزءِ ثَنَايَا كَالأبوَابِ، تُفضِي من الجَانِبَيْن، ففي جنوبيِّهَا بلادُ الأبوابِ متصلةٌ في الشرق إلى بحرِ طَبَرْستَانَ، وعليه من هذه البلادِ مدينةُ بابِ الأَبوَابِ، وتتَّصِلُ بلادُ الأبوابِ في الغرب من ناحيةِ جنوبيّهَا ببلدِ أرمينيَّة، وبينهما في الشَّرْقِ وبين بلادِ أَذَرْبيجَانَ الجُنُوْبِيَّةِ بلادُ أران[3] متصلةٌ إلى بحر طَبَرستَانَ وفي شمال هذه الجبَال قطعةٌ من هذا الجزءِ في غربها مملكةُ السَّرِير [ظ ١/٣٠] في الْزَّاوِيةِ الغربيَّة الْشَّمالِيَّةِ منها.

وفي زاوية الجزء كلِّهِ قطعةٌ أيضاً من بحرِ بنطُسَ الَّذي يمدُّهُ خليجُ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّةِ، وقد مرَّ ذكرهُ، ويَحفُّ بهذه القطعة من بنطس بلادُ الْسَّرِيْرِ، وعليها منها بلدُ أَطْرَابَزَنْدة[4].

---

١ – في ن: بلد.

٢ – أعظم مدن ديار بكر افتتحها المسلمون سنة عشرين من الهجرة، على يد عياض بن غنم.

٣ – في المطبوع: الزاب. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٢٠.

٤ – في المطبوع: أطرابزيدة. صحح من نزهة المشتاق:١/١٢، ٢/٨١٦.

وَتَّصِلُ بلادُ الْسَّرير بينَ جبلِ الأبوابِ والجهةِ الْشَّماليَّةِ من الجزءِ إلى أن ينتهي شرقاً إلى جبلِ حَاجزٍ، بينها وبين أرضِ الخَزَر، وعندَ آخرِهَا مدينةَ صُوْل، ووراءَ هذا الجبلِ الحاجز قطعةٌ من أرضِ الخَزرِ، تنتهي إلى الزَّاويةِ الْشَّرْقيَّةِ الشَّماليَّةِ من هٰذا الجزءِ من بحر طَبرستَانَ وآخرِ الجزء شَمَالاً.

والجزءُ السَّابعُ من هذا الإقليمِ غربيِّهُ كلهُ مغمورٌ ببحرِ طَبَرْستَانَ وخرجَ من جنوبه في الإقليمِ الْرَّابعِ القطعةُ التي ذكرنا هُنالكَ أنَّ عليها بلاد طَبَرْستَانَ وجبالَ الْدَّيلَمِ إلى قَزْوِينَ، وفي غَرْبيِّ تلكَ الْقِطْعَةِ مُتَّصلةٌ بها القطعةُ الَّتي في الجزء الْسَّادسِ من الإقليم الرَّابعِ، ويتَّصِلُ بها من شَمالِهَا القطعةُ الَّتي في الجزء السَّادسِ من شرقِهِ أيضاً.

وينكشفُ من هذا الجزءِ قطعةٌ عندَ زاويتِهِ الْشَّماليَّة الغربية يصُبُّ فيها نهرُ أَثَلٍ[1] في هذا البحر، ويبقى من هذا الجزءِ في ناحيةِ الْشَّرْق قطعةٌ منكشفةٌ من البحرِ، هي مجَالاَتٌ للغُزِّ من أمَمِ التُّرْكِ يُحيطُ بها جبلٌ من جهةِ الجَنوبِ داخلٌ في الجزءِ الْثَّامنِ، ويذهبُ في الغربِ إلى ما دونَ وسطِهِ فينعطفُ إلى الْشَّمال إلى أن يُلاقي بحرَ طَبَرْستَانَ، فيحتَفُّ به ذاهباً معه إلى بقيتهِ في الإقليمِ السَّادسِ، ثم ينعطفُ مع طرفهِ ويفارقهُ ويسَمَّى هنالكَ جَبَلَ سِيَاهَ، ويذهبُ مغرِّباً إلى الجزءِ الْسَّادسِ من الإقليمِ السَّادسِ، ثمَّ يرجعُ جنوباً إلى الجزءِ السَّادسِ من الإقليمِ الخامس، وهذا الطَّرَفُ منهُ، وهو الذي اعترضَ في هذا الجزء بينَ أرضِ السَّريرِ وأرضِ الخَزَرِ، واتَّصَلَتْ بأَرْضِ الخزر في الجزءِ السَّادسِ والسَّابع حافَاتُ هذا الجبلِ المُسَمَّى جبلَ سِيَاهَ كما سَيأتي.

والجزء الثَّامنُ من هذا الإقليمِ الخامسِ، كلُّهُ مجالاتٌ للغُزِّ من أمم الْتُّرْكِ، وفي الجهةِ الجنوبيةِ الغربيَّةِ منهُ بُحيرةُ خَوَارَزْمَ الَّتي يَصُبُّ فيها نهرُ جَيْحُونَ دورها ثَلاثُ مِئَةَ ميلٍ، ويَصُبُّ فيها أنهارٌ كثيرةٌ من أرضِ هذه المجالاتِ.

وفي الجهةِ الشَّماليَّةِ الْشَّرْقيَّةِ منهُ بُحيرةُ غَرْغُونَ[2] دَوْرُهَا أَرْبَعُ مِئَةِ ميلٍ وَمَاؤُهَا حُلْوٌ، وفي النَّاحيةِ الْشَّماليَّةِ من هذا الجزء جَبَلُ مِرْغَارَ ومعناهُ: جبلُ الْثَّلْجِ؛ لأنَّهُ لا يذُوْبُ فيهِ، وهو مُتَّصِلٌ بآخرِ الجُزءِ، وفي الجنوبِ عن بُحَيْرَةِ غرْغُونَ جبلٌ من الحَجَرِ الصَّلْدِ لا يُنبتُ

١ - نهر الأورال.
٢ - في المطبوع: عرعون. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٤٠.

شيئاً يُسَمَّى غرْغُونَ، وبه سُمِّيت البَحيرةُ، وَيَنْجَلِبُ منه ومن جبلِ مِرْغَارَ شَمالِيَّ البحـيرةِ أنهارٌ لا تنحصرُ عِدَّتُهَا فتصُبُّ فيها من الجَانِبَين.

وفي الجزءِ التَّاسِعِ من هذا الإقليمِ بـلادُ أَذْكَـشَ[1] مـن أُمـمِ التُّرْكِ في غـربِ بـلادِ الغُـزِّ وَشَرق بلادِ الْكِيْمَاكِيَّةِ، ويُحُفُّ به من جهةِ الشَّرْقِ [ظ٢/٣٠] آخِـرِ الجُزءِ جبلُ قُوْقِيَـا[2] المُحيطُ بِيَأْجُوجَ ومـأْجُوجَ يعـترضُ هنـالِكَ مـنَ الجنـوبِ إلى الشَّـمالِ، حتـى ينعَطِـفَ أوَّلَ دُخولِهِ من الجزءِ العاشِرِ، وقد كان دخلَ إليهِ من آخرِ الجزءِ العاشِرِ من الإقليمِ الرَّابعِ قبلـهُ، واحتَفَّ هنالكَ بالبحرِ المحيطِ إلى آخرِ الجزءِ في الشَّمالِ، ثم انعطفَ مُغَرِّباً في الجزءِ العاشـرِ منَ الإقليمِ الرَّابعِ، إلى ما دُونَ نِصْفِهِ وأحاطَ من أوَّلِهِ إلى هنا ببـلادِ الْكِيْمَاكِيَّـةِ، ثـم خـرجَ إلى الجزءِ العاشرِ من الإقليمِ الخامسِ، فذهبَ فيهِ مغرباً إلى آخـرهِ، وبقيـت في جنوبيـه مـن هذا الجزءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إلى الغربِ قبلَ آخرِ بلادِ الْكِيْمَاكِيَّةِ، ثم خرجَ إلى الجـزءِ التَّاسِـعِ في شَرْقِيِّهِ، وفي الأعلى منهُ، وانْعَطَفَ قريبـاً إلى الْشَّمَالِ، وَذَهَـبَ علـى سَمْتِهِ إلى الجزءِ التَّاسِعِ منِ الإقليمِ الْسَّادِسِ، وفيهِ الْسَّدّ هُنَالِكَ كما نذكرُهُ، وبقيتْ منهُ القِطْعَةُ الَّـتي أحـاطَ بها جبلُ قُوقِيَا عندَ الْزَّاوِيَةِ الْشَّرْقِيَّةِ الْشَّمالِيَّةِ من هذا الجزءِ مُسْتَطِيلَةً إلى الجنوبِ، وهي مـن بلادِ يأجوجَ ومأجوْجَ.

وفي الجزءِ الْعَاشِرِ من هذا الإقليمِ أرضُ يَـأْجُوْجَ مُتَّصِلَـةً فيـه كُلِّـهِ إلا قطعـةً مـن البحـرِ غمرَتْ طرفاً في شرقيّه من جنوبِهِ إلى شَمالِهِ إلا القطعـةَ الَّـتي يَفْصِلُهَـا إلى جهـةِ الجَنُـوبِ، والْغَرْبِ جبلُ قُوْقِيَا حينَ مَرَّ فيهِ، ومما سِوَى ذلك فأرضُ يَأْجوجَ ومـأجوجَ. وا للهُ سُبْحَانَهُ وتعالى أَعْلَمُ.

الإقليْمُ الْسَّادس: فَالْجُزءُ الأَوَّلُ منهُ غَمَرَ البحـرُ أكـثرَ مـن نِصْفِـهِ واسْتَدَارَ شَرْقاً مـع النَّاحِيَةِ الْشَّمَالِيَّةِ، ثم ذهبَ مع النَّاحِيَـةِ الْشَّرْقِيَّةِ إلى الجنـوبِ، وانتهـى قريبـاً مـن النَّاحيـةِ الجَنُوبِيَّةِ فانكشفت قطعةٌ من هذهِ الأرضِ في هذا الجزءِ دَاخِلَـةٌ بـين الْطَّرَفَيْـنِ، وفي الزَّاوِيَـةِ الجَنُوْبِيَّةِ الْشَّرْقِيَّةِ من البحرِ المحيطِ كالجُوْنِ فيه، وينفسخُ طُـولاً وعرضـاً، وهـي كُلُّهَـا أرضُ

---

١ - في المطبوع: أركس. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٤٣.

٢ - في ظ: قوقا.

بَرِيْطَانِيةَ وفي بَابها بينَ الْطَّرَفَيْن، وفي الزَّاوِيَةِ الجَنُوبِيَّةِ الْشَّرْقِيَّةِ من هذا الجزء بلادُ صَـايِس[١] مُتَّصِلَةً ببلادِ بِيْطُو[٢] الَّتِي مَرَّ ذِكرُهَا في الجزء الأوَّل والثَّاني من الإقليمِ الخَامس.

والجزءُ الثَّانِي من هذا الإقليم دَخَلَ البحرَ المُحيطَ من غربـهِ وشَمَالِهِ، فَمـنْ غربـهِ قطعةٌ مُستطيلةٌ أكبرُ من نِصْفِهِ الْشَّمَالِيِّ من شَرْق أَرْضِ بَرِيْطَانِيَةَ في الجـزءِ الأوَّل، واتَّصَلَتْ بهـا الْقِطْعَةُ الأُخرى في الشمال من غربهِ إلى شَرْقِهِ، وانفَسَحَتْ في النِّصْـفِ الْغَرْبـيّ منـه بعـض الشيء.

وفيه هنالكَ قطعةٌ من جزيرةِ أَنْكِلْترا، وهيَ جزيـرةٌ عَظِيْمـةٌ مشتملةٌ علـى مُـدُن، وبهـا مُلْكٌ ضَخْمٌ، وبقيَّتها في الإقليمِ الْسَّـابع، وفي جنـوب هـذه القطعـة وجزيرتهـا في النِّصْـفِ الغربي من هذا الْجُزْءِ بلادُ أَرْمَنْدِيَة[٣]، وَبلادُ إِفْلانْدَرش[٤] مُتَّصلين بها، ثـم بـلادُ إِفْرَنْسِـيَة جنوباً وغرباً من هذا الجـزء، وبـلادُ بَرَغُونِيَـة شَرقاً عنهـا، وكلُّهـا لأمـمِ الإفرنجَةِ، وبـلادُ اللِّمانيِّينَ في النِّصفِ الْشَّرْقِيِّ من الجزء، فجنوبهُ بلادُ أَنْكلايَةَ، ثُمَّ بلادُ برغونِيَةَ شَـمَالاً، ثُـمَّ أرض لَهْرنكَةَ[٥] وَشَصُونية[٦]، وعلى قطعةِ البحرِ المُحيْطِ في الزَّاويةِ الْشَّمَالِيَّةِ الْشَّرْقِيَّة أرضُ أَفْرِيْرَةَ وكلُّهَا لأُمَمِ اللِّمَانِيِّينَ.

وفي الجزءِ الثَّالِثِ مـن هـذا الإقليـمِ في النَّاحيـةِ [ظ١/٣١] الْغَرْبِيَّـةِ بـلادُ مَرَانِيّـةَ[٧] في الجنوبِ وبلادُ شَصُونِيَّةَ في الشَّـمال وفي النَّاحيـةِ الْشَّرْقِيَّةِ بـلادُ أَنْكَوِيَّـةَ في الجنوبِ وبـلادُ بَلُونِيَّـةَ في الشَّمَال يعـترضُ بينهمـا جبـلُ بَلواك[٨] دَاخـلاً مـن الجـزءِ الرَّابـعِ وَيَمُـرُّ مغرِّبـاً بانْحِرَافٍ إلى الشَّمَال، إلى أن يقفَ في بلادِ شَصُوْنِيَّةَ آخر النِّصْفِ الغربيّ، وفي الجزء الرَّابعِ في ناحيةِ الجَنُوْبِ أرضُ جَثُوْلِيَّة(؟)، وتحتها في الْشَّمال بلادُ الرُّوْسِيَّةِ، ويفصلُ بينهمـا جبلُ بَلْوَاكَ من أوَّل الجزء غرباً إلى أن يقفَ في النِّصْـفِ الْشَّرْقِيّ، وفي شـرق أرض جَثُوْلِيَّـة (؟) بلادُ جِرْمَانِيَة، وفي الزَّاوِيَةِ الجَنوبِيَّةِ الْشَّرْقِيَّةِ أرضُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ومدينتها عنـدَ آخِرِ الخَلِيْـجِ

---

١ – في المطبوع: صاقس. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٥٥. وفيه أيضاً: صايص

٢ – في المطبوع: بنطو. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٥٥.

٣ – يعني إقليم: نورماندنيا المعروف.

٤ – في المطبوع: أفلادش. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٦١.

٥ – في المطبوع: لهويكة. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٦٧..

٦ – في المطبوع: شطونية. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٦١.

٧ – في ظ: يوانيه.

٨ – في المطبوع: بلواط. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٨٤.

الخَارجِ من البحرِ الرُّوْمِيّ، وعندَ مِدْفَعِهِ في بحر بنطس، فيقعُ قُطيعَةٌ من بحر بنْطس في أعالي النَّاحية الْشَّرقية، من هذا الجزء، ويمدُّها الخليجُ، وبينهُما في الزَّاويةِ بلدُ مَسْنَاةَ[١].

وفي الجزء الخامس من الإقليمِ الْسَّادِسِ ثُمَّ في النَّاحيةِ الجَنُوبِيَّةِ عند بحرِ بُنْطُسَ يتَّصِلُ من الخليجِ في آخر الجزء الرَّابعِ، ويخرجُ من سَمتِهِ مُشَرِّقاً فيمُرُّ في هذا الجزءِ كُلِّهِ، وفي بعض السَّادسِ على طُولِ ألفٍ وثَلاث مئةِ ميلٍ من مَبْدَئِهِ في عرضِ سِتِّ مئةِ ميلٍ، ويبقى وراءَ هذا البحر في النَّاحيَةِ الجَنُوْبِيَّةِ من هذا الجزءِ في غَرْبِهِا إلى شَرْقِهَا برٌّ مُسْتَطِيْلٌ، في غربِهِ هِرَقْلِيَّةُ على سَاحِلِ بحرِ بنطس مُتَّصِلَةً بأرضِ الْبَيْلَقَانِ من الإقليمِ الخامسِ، وفي شَرقِهِ بلادُ اللاَّنِيَّةِ[٢] وَقَاعدتُهَا سَنوْبَلَي[٣] على بحرِ بنطس.

وفي شمال بحرِ بنطس في هذا الجزءِ غرباً أرضُ ترخَانَ وَشرْقاً بلادُ الْرُّوْسِيَّةِ، وكلُّهَا على سَاحلِ هذا البحرِ، وبلادُ الْرُّوسيَّة محيطَةٌ ببلادِ تَرْخَانَ من شرقها في هذا الجزءِ من شمالها في الجزءِ الخامسِ من الإقليمِ الْسَّابعِ، ومن غربها في الجزءِ الرَّابعِ من هذا الإقليم.

وفي الجزء الْسَّادِسِ في غربِيِّهِ بقيَّةُ بحرِ بنطس وينحرفُ قليلاً إلى الشَّمال.

ويبقى بينه هُنالِكَ وبينَ آخرِ الجزءِ شَمالاً بلادُ قَمَانِيَّةَ، وفي جنوبه منفسِحاً إلى الشمال بما انحرفَ، هو كذلك بقيَّةُ بلادِ اللاَّنِيَّةِ الّتي كانت آخرَ جنوبِهِ في الجزء الخامس.

وفي النَّاحيةِ الْشَّرْقِيَّةِ من هذا الجزءِ متَّصَلُ أرضِ الخَزَرِ، وفي شرقها أرضُ بَرْطَاسَ، وفي الزَّاويةِ الْشَّرْقِيَّةِ الْشَّماليَّةِ أرضُ بَلْغَارَ.

وفي الزَّاويةِ الشَّرْقِيَّة الجَنُوْبِيَّةِ أرضُ بَلَنجَرَ[٤] يجوزها هناك قطعةٌ من جبلِ سِيَاه كُوْه[٥] المنعطفِ مع بحرِ الخَزَرِ في الجزءِ السَّابع بعدهُ، ويذهبُ بعدَ مُفارقتهِ مُغَرِّباً فيجوز في هذه القِطعة ويدخلُ إلى الجزءِ الْسَّادِسِ من الإقليمِ الخامسِ فيتَّصِلُ هنالكَ بجبلِ الأبوابِ، وعليهِ من هنالِكَ ناحِيَةُ بلادِ الخَزَرِ.

وفي الجزءِ السَّابعِ من هذا الإقليمِ في النَّاحيةِ الجَنُوْبِيَّةِ ما جازَهُ جبلُ سِيَاهَ، بعدَ مُفَارقَتِهِ بحر طَبَرْستَانَ، وهو قطعةٌ من أرضِ الخزرِ إلى آخرِ الجزءِ غرباً، وفي شرقها القطعةَ من بحر

١ – في المطبوع: مسيناه. صحح من نزهة المشتاق:٢/٨٠٤.
٢ – اللان: قبيلة من الروم النسطورية. نزهة المشتاق:٢/٩٠٧.
٣ – في المطبوع: سوتلى. صحح من نزهة المشتاق:٢/٩٠٧.
٤ – في المطبوع: بلجر. صحح من نزهة المشتاق:٢/٩١٨.
٥ – سياه كوه: كلمة فارسية معناها جبل.

طَبَرستَانَ الَّتي يجوزها هذا الجبلُ من شرقها وشَمَالِهَا، ووراء جبلِ سِيَاهَ في النَّاحيةِ الغربيّةِ الشَّماليَّةِ أرضُ بَرْطَاسَ[١] [ظ١٣/٢]، وفي النَّاحيةِ الشَّرْقِيَّةِ من الجزءِ أرضُ بَسْجَرت وبِجَنَاكَ[٢]، وهم أممُ التُّرْكِ.

وفي الجزءِ الثَّامنِ والنَّاحيَّةِ الجَنُوبيَّة منه كلِّهَا أرضُ الجولَخِ من التُّرْكِ في النَّاحيةِ الْشَّمَاليَّةِ غرباً، والأرضُ المنتنة، وشرقُ الأرض التي يُقَالُ إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ خربَاهَا قبلَ بناءِ السَّدِّ، وفي هذه الأرض المنتنةِ مبدأُ نهرِ الأثَلِ[٣] من أعظمِ أنهار العالمِ، وممرُّهُ في بلادِ التُّرْكِ ومصبُّهُ في بحر طَبَرسْتَانَ في الإقليمِ الخامسِ في الجزءِ الْسّابعِ منه، وهو كثيرُ الانعطافِ يخرُجُ من جبلٍ من الأرضِ المنتنة من ثلاثة ينابيعَ، تجتمعُ في نهرٍ واحدٍ، ويمُرَّ على سَمْتِ الغربِ إلى آخرِ السَّابعِ من هذا الإقليم، فينعطفُ شَمالاً إلى الجزءِ التَّابعِ من الإقليمِ السَّابعِ، فيمُرُّ في طَرَفِهِ بينَ الجنوبِ والمغربِ، فيخرجُ في الجزءِ السَّادسِ من السَّابعِ، ويذهبُ مغرِّباً غير بَعيدٍ، ثم ينعطفُ ثانيةً إلى الجنوبِ، ويرجعُ إلى الجزءِ السَّادسِ من الإقليمِ السّادسِ، ويخرجُ منهُ جَدولٌ يذهبُ مغرّباً ويصُبّ في بحرِ بنطس في ذلك الجزءِ، ويمُرُّ هو في قطعة بينَ الشَّمالِ والشَّرْقِ في بلاد بلغَارَ، فيخرجُ في الجزءِ السَّابعِ من الإقليمِ الْسَّادسِ، ثم ينعطف ثالثةً إلى الجنوبِ، وينفذُ في جبلِ سِيَاه، ويمرُّ في بلادِ الخَزَرِ، ويخرجُ إلى الإقليم الخامسِ في الجزء السَّابع منه فَيَصُبُّ هنالكَ في بحر طَبَرْستَانَ في القطعةِ الَّتي انكشفت من الجزءِ عندَ الزَّاويةِ الغربيَّة الجنوبيَّة.

وفي الجزءِ التَّاسعِ من هذا الإقليمِ في الجانبِ الغربيّ منه بلادُ خَفْشَاخَ من التُّرْكِ وهم قفجَاق، وبلادُ السَّرْكَسِ منهم أيضاً.

وفي الشَّرق منه بلادُ يَأْجُوجَ يفصلُ بينهما جبلُ قُوقيَا المُحيطُ، وقد مر ذِكْرُهُ. يبدأُ منَ البحر المحيطِ في شرق الإقليمِ الْرَّابعِ، ويذهبُ معهُ إلى آخرِ الإقليمِ في الْشَّمال، ويُفارِقُهُ مغرِّباً وبانحرافٍ إلى الشَّمالِ حتى يدخُلَ في الجزءِ التَّاسعِ من الإقليمِ الخامسِ، فيرجعُ إلى سمتهِ الأوَّلِ حتى يدخُلَ في هذا الجزءِ التَّاسعِ من الإقليمِ من جنوبه إلى شمالهِ بانحرافٍ إلى المغربِ.

---

١ - في ظ: بنطاس.
٢ - في المطبوع: شحرب ويخناك. صحح من نزهة المشتاق:٩٢٣/٢.
٣ - يقال: إنه نهر الأورال.

وفي وسطِهِ ههُنَا الْسَّدُّ الَّذِي بناهُ الإسْكَنْدَرُ، ثم يخرجُ على سمته إلى الإقليمِ الْسَّابع، وفي الجزءِ التَّاسِعِ منه فيمرُّ فيه إلى الجنوبِ إلى أن يلقى البحر المُحيط في شمالِهِ، ثم ينعطفُ معهُ من هُنَالِك مغرِّباً إلى الإقليمِ الْسَّابعِ إلى الجزءِ الخامس منهُ فيتَّصِلُ هنالكَ بقطعةٍ من البحرِ المحيطِ في غربيِّهِ، وفي وسطِ هذا الجزء التَّاسِعِ هو السَّدُّ الذي بناهُ الإسكندرُ، كما قلناهُ، والْصَّحيحُ من خبرِهِ في الْقُرْآن[1] وقد ذكر عبدُ اللهِ بن خَرْدَاذبَةَ في كتابِهِ في الْجغْرافيَا: أنَّ الواثقَ رأى في منامه كأنَّ السَّدَّ انفتحَ فانتبهَ فزعاً، وبعَثَ سَلاَّماً التَّرْجُمَانَ فوقفَ عليه وجاء بخبرِهِ ووصفِهِ في حكاية طَوْيلة[2] لَيْسَتْ من مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هذا.

وفي الجزء العاشرِ من هذا الإقليم بلادُ مأجوجَ مُتَّصلةً فيه إلى آخرِهِ على قطعة[3] هنَالِكَ من البحر المحيطِ [ظ٣٢/١] أحاطت به من شَرْقِهِ وَشَمالِهِ مُسْتَطيلةً في الشَّمالِ، وعريضةً بعضَ الْشَّيء في الشَّرْق.

الإقْلِيْمُ الْسَّابعُ: والبَحرُ المحيطُ قد غمرَ عامَّتَهُ من جهةِ الشَّمالِ إلى وسط الجزءِ الخامسِ حيثُ يَتَّصِلُ بجبلِ قوقيَا المحيط بيَأجوجَ ومأجوجَ.

فالجزءُ الأَوَّلُ والثَّاني مَغموران بالماء إلاَّ ما انكشفَ من جزيرة أنْكِلِترَا التي مُعْظَمُهَا في الثَّاني، وفي الأوّل منها طرفٌ انعطفَ بانحرافٍ إلى الشَّمال، وبقيَّتها مع قطعةٍ من البحر مستديرةٍ عليه في الجزء الثَّاني من الإقليمِ الْسَّادِسِ، وهيَ مَذكورةٌ هناكَ والمجازُ منها إلى البرِّ في هذه القطعة سَعَةُ اثني عَشَر مِيلاً، ووراءَ هذه الجزيرة في شَمَالِ الجزء الثَّاني جزيرةٌ رَسْلاَنِدَة مُستطيلةً من الغربِ إلى الْشَّرْق.

والجزءُ الثَّالِثُ من هذا الإقليمِ مغمورٌ أكثرهُ بالبحرِ إلا قطعةً مُسْتطيلةً في جنوبهِ، وتتسعُ في شرقها، وفيها هنالك متّصل أرضِ بُلُونِيَّة[4] الَّتي مرَّ ذِكْرُهَا في الثَّالِثِ من الإقليمِ السَّادِسِ، وأنَّهَا في شمالِهِ، وفي القطعةِ من البحرِ الَّتي تغمُرُ هذا الجزء، ثم في الجانب الغربيِّ منها مستديرةٌ فسيحةٌ وتتَّصلُ بالبرِّ من بابٍ في جنوبها يُفْضِي إلى بلادِ بُلُونِيَّة، وفي شمالها جزيرةُ نرْفَاغَة[5] مُستطيلة مع الْشَّمالِ من المغربِ إلى المشرقِ.

---

١ - سورة الكهف: ٩٣ - ٩٩.

٢ - نقلها الإدريسي في نزهة المشتاق:٢/٩٣٤-.

٣ - في المطبوع: قطعة من هنالك.

٤ - في المطبوع: فلونية. صحح من نزهة المشتاق:٢/٩٤٩.

٥ - في النسخ: بوقاعة..برقاعة.. برعاقبة. صحح من نزهة المشتاق:٢/٩٤٩.

والجزءُ الْرَّابعُ من هذا الإقليمِ شَمَالُهُ كُلُّهُ مغمورٌ بالبحرِ المحيطِ من المغـربِ إلى المشـرق، وجنوبُهُ منكشفٌ، وفي غربه أرضُ قيمازَكَ مـن الْـتُّرْكِ، وفي شـرقها بـلادُ طَبَسْـتَ[١]، ثـم أرضُ أَسْتلانْدة[٢] إلى آخرِ الجزء شرقاً وهي دائمة الثُّلوجِ، وعمرانها قليـلٌ، ويتَّصِلُ ببـلادِ الْرُّوْسِيَّةِ في الإقليمِ الْسَّادِسِ وفي الجزء الْرَّابعِ والخامس منه.

وفي الجزءِ الْخَامس من هذا الإقليـمِ في النَّاحيـة الغربيـة منـه بـلادُ الْرُّوْسِيَّةِ. وينتهـي في الشَّمالِ إلى قطعةٍ من البحر المحيطِ الَّتي يتَّصِلُ بهَا جبلُ قُوقِيَا، كمَـا ذكرنـاهُ مـن قبـل، وفي النَّاحيَةِ الْشَّرْقِيَّةِ منهُ مُتَّصل أَرضِ الْقَمَانِيَةِ الَّتي على قطعةِ بحرِ بُنْطسَ من الجزءِ الْسَّادِسِ مـنَ الإقليمِ الْسَّادِسِ، وينتهي إلى بحيرةِ طَرْمَى من هذا الجزء وهـي عَذْبَـةٌ، تنجَلِـبُ إليهـا أَنهـارٌ كثيرةٌ من الجبالِ عن الجنوبِ والشَّمالِ، وفي شمـالِ النَّاحيَـةِ الْشّرْقِيَّةِ مـن هـذا الجـزءِ أرْضُ الْتَّتارِيَّةِ[٣] من الْتُّرْكِ[٤] إلى آخره.

وفي الجزءِ السَّادسِ من النَّاحيةِ الغربيَّةِ الجنوبيَّةِ متَّصلُ بلادِ الْقَمَانِيَّـةِ، وفي وَسَطِ الْنَّاحِيَـةِ بُحَيْرَةُ غَنون[٥] عَذْبَةٌ تَنْجلِبُ إليها الأنهارُ مـن الجبـالِ في النَّواحـي الشَّـرْقِيَّةِ وهـي جـامدةٌ دائماً لشدَّةِ البردِ إلا قليلاً في زمنِ الْصَّيْفِ، وفي شرقِ بلادِ الْقَمَانِيَّةِ بلادُ الْرُّوسيَّةِ التي كـان مبدؤها في الإقليمِ الْسَّادسِ في النَّاحيةِ الشَّرقية الْشَّماليةِ من الجزءِ الخامسِ منه، وفي الزَّاويـةِ الجنوبيَّةِ الْشَّرْقِيَّةِ من هذا الجزء بقيةُ أرضِ بُلْغرَ الَّتي كان مبدؤُهَـا في الإقليـمِ الْسَّادسِ، وفي النَّاحيَةِ الْشَّرْقِيَّةِ الْشَّمالية من الجزءِ الْسَّادسِ منـه، وفي وسـطِ هـذه القطعـة مـن أرضِ بُلغرَ منعطفُ نهر أَتُلَ القطعةُ الأولى إلى الجنوبِ كما مرَّ، وفي آخرِ هذا الجزءِ الْسَّادِسِ من شمالِهِ جبل قُوْقِيَا مُتَّصِلٌ من غربِهِ إلى شرقه.

وفي الجزءِ الْسَّابعِ من هـذا الإقليـمِ في غربـه بقيَّـةُ أرضِ [ظ٢/٣٢] بَجنَـاك[٦] مـن أمـمِ الْتُّرْكِ، وكانَ مَبْدَأُهَا من النَّاحيةِ الْشَّماليَّةِ الْشَّرْقِيَّةِ مـن الجـزءِ السَّـادسِ قبلَـهُ، وفي النَّاحيـة الجنوبية الغربيَّةِ من هذا الجزء، ويخرجُ إلى الإقليمِ الْسَّادِسِ من فوقِـهِ، وفي النَّاحيـةِ الْشَّـرْقِيَّةِ

---

١ – في المطبوع:طست. صحح من نزهة المشتاق:٢/٩٥٣.

٢ – في ن: سَلاندة.وفي ن:رسلان. صحح من نزهة المشتاق:٢/٩٥٣.

٣ – في ن: البتارية.

٤ – في ن: التركمان.

٥ – في المطبوع: عثور. صحح من نزهة المشتاق:٢/٩٥٨.

٦ – في المطبوع:بختاك. صحح من نزهة المشتاق:٢/٩٦٠.

بقيَّةُ أرضِ سُحْرَب، ثم بقيَّةُ الأرضِ المنتنة إلى آخر الجزء شَرقاً، وفي آخرِ الجـزءِ من جهةِ الْشَّمالِ جبلُ قُوْقِيَا الْمُحيْطُ مُتَّصلاً من غَرْبهِ إلى شرقهِ، وفي الجزءِ الثَّامنِ من هذا الإقليمِ في الجنوبيَّةِ الغربيَّةِ منه متصل الأرضِ الْمُنْتِنَةِ.

وفي شرقها **الأرضُ المحفورةُ** وهي من العجائبِ خَرْقٌ عظيمٌ في الأرضِ بعيدُ الْمَهْوَى، فَسِيْحُ الأقْطَارِ، مُمْتَنِعُ الْوُصُوْلِ إلى قعرِهِ، يُسْتَدَلُّ على عُمْرَانِهِ بالْدُّخَانِ في الْنَّهارِ وَالْنِّيْرَانِ في اللَّيْلِ، تُضِيءُ وتخفى، وَرُبَّمَا رُئِي فيهَا نهرٌ يَشُقُّهَا منَ الْجَنُوْبِ إلى الْشَّمالِ.

وفي الْنَّاحِيَةِ الْشرْقِيَّةِ من هذا الْجُزْءِ الْبلادُ الخَرَابُ الْمُتَاخِمَةُ لِلْسَّدِّ، وفي آخرِ الشَّمالِ منه جبلُ قُوْقِيَا مُتَّصِلاً من الْشَّرْقِ إلى الْغَرْبِ.

وفي الجزءِ الْتَّاسعِ من هَذَا الإقليمِ في الْجَانِبِ الْغَرْبِيّ منهُ بلادُ خَفْشَاخَ، وَهُمْ قَفْجَقُ، يَجُوْزُهَا جبلَ قُوْقِيَا حين ينعطفُ من شمالهِ عند البحرِ الْمُحيطِ، ويذهبُ في وسطهِ إلى الجنوبِ بانحرافٍ إلى الْشَّرْقِ فيخرُجُ في الجزءِ الْتَّاسعِ من الإقْلِيْمِ الْسَّادِسِ، ويمُرُّ مُعْتَرِضاً فيه، وفي وسطهِ هنَالِكَ سَدُّ يَأْجُوجَ ومأجوجَ، وقد ذكرناهُ، وفي النَّاحِيَةِ الْشَّرْقِيَّةِ من هذا الجُزءِ أرضُ يَأْجُوجَ، وراءَ جَبَلِ قُوْقِيَا على البحرِ، قليلةَ الْعَرْضِ مُسْتَطِيْلَةً أحاطت به من شَرْقِهِ وَشَمالِهِ.

والجزءُ الْعاشِرُ غمرَ البحرَ جميعهُ.

هذا آخرُ الكلامِ على الْجُغْرَافِيَا وأقَالِيْمِهَا الْسَّبْعَةِ. وَفي خَلْقِ الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالْنَّهَارِ لآياتٌ لِلْعَالِمِيْنَ[1].

---

١ - قال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[البقرة: ١٦٤]. وقال أيضاً: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾[آل عمران: ١٩٠].

١-١-٣- الْمُقَدِّمَةُ الثَّالِثَةُ
فِي الْمُعْتَدِلِ مِنَ الأَقَالِيْمِ وَالْمُنْحَرِفِ، وَتَأْثِيْرُ الْهَوَاءِ فِي أَلْوَانِ الْبَشَرِ وَالْكَثِيْرِ مِنْ أَحْوَالِهِم

قَدْ بَيَّنا أَنَّ الْمَغمورَ من هذا الْمُنْكَشِفِ مِنَ الأَرْضِ، إِنَّمَا هو وَسَطُهُ لإِفْرَاطِ الْحَرِّ في[1] الجنوبِ منهُ والْبَرْدِ في الْشَّمال، ولَمَّا كَانَ الجَانِبَان مِنَ الْشَّمَال وَالْجَنُوْبِ مُتَضَادَّيْنِ من[2] الحَرِّ وَالْبَرْدِ، وجبَ أن تتدرَّجَ الكيفِيَّةُ من كِلَيْهِمَا إلى الْوَسَطِ فيكونُ مُعْتَدِلاً.

فَالإِقْلِيْمُ الْرَّابِعُ أَعْدَلُ الْعُمْرَان، وَالَّذِي حافاتُهُ من الثَّالِثِ والخامس أقربُ إلى الاعتِدَال، والَّذِي يَلِيْهِمَا والثَّاني وَالْسَّادِسِ بَعِيْدَان من الاعتدال، والأوَّلُ والسَّابعُ أبعدُ بكثيرٍ، فلهذا كانتِ العلومُ والصَّنائعُ والمباني والمَلاَبس، والأقواتُ والفَواكِهُ بل والحيوانَاتُ، وجميعُ ما يتكوَّنُ في هذه الأَقاليم الْثَّلاثَةِ المتوسطةِ، مخصوصةً بالاعتدَال، وسُكَّانها من الْبَشَرِ أَعْدَلُ أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتَّى النُّبُوَّاتُ، فإنما توجدُ في الأكثر فيهَا، ولَمْ نقفْ على خبرِ بعثةٍ في الأقاليمِ الجنوبيَّةِ ولاَ الْشَّماليَّةِ، وذلك أن الأنبياءَ والرُّسُل إنما يختصُّ بهم أكمل النَّوْعِ في خلقهم وأخلاقهم، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلْنَّاسِ﴾[سورة آل عمران: ١١٠][3]، وذلكَ ليتمَّ الْقَبُوْلُ بما يأتيهم به الأنبياءُ من عند الله.

وأهلُ هذه الأَقَاليمِ أكملُ لوجودِ الاعْتِدَالِ لَهُمْ، فتجدهم على غايةٍ من التَّوَسُّطِ في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصَنَائعهم، يتَّخذون البيوت المنجدة بالحجارةِ المنمَّقةِ بالصِّنَاعةِ، ويتناغونَ في استجادة الآلاتِ والمواعين، ويذهبونَ في ذلك إلى الغايةِ، وتوجدُ لديهم المعادنُ الطَّبيعيةُ من الذهب والفضَّةِ [ظ٣٣/١] والحديدِ والنُّحاسِ والرّصاصِ والْقَصْدِيْر، ويتصرفون في معاملاتهم بالنَّقْدَيْنِ العزيزين، ويبعدُونَ عن الانحِرَافِ في عامَّةِ أحوالهم، وهؤلاءِ أهل المغربِ والْشَّامِ والحجازِ، واليمنِ والعراقين والهندِ والْسِّنْدِ والْصِّيْنِ وكذلك الأندلُسُ، ومن قرُبَ منها من الفرنجةِ والجلالقةِ وَالْرُّومِ وَالْيُوْنَانِيِّين، ومن كان مع

---

١ - في ن: الحر في الجزء من.

٢ - في ن: في.

٣ - قال الدكتور وافي: ولا يخفى أن الآية لا تصلح أن تكون دليلاً لما يريد الاستدلال عليه لأنها ليست موجهة إلى جميع الأمم التي أرسل فيها الأنبياء، يعني أن الآية خاصة بالأمة العربية المسلمة.

قال عبد الله: إن ما ذهب إليه المؤلف من الفهم الثاقب لمعاني الآيات، إذ أن الآية تشير إلى خير أمة، وهم كل من سار على نهج الأنبياء واتبع هداهم، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام خير الأمة، وفهمه تابعٌ لقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ فالأنبياء أصحاب دعوة الإسلام، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿حنيفاً مسلماً﴾.....

هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليمِ المُعْتَدِلَةِ، ولهذا كان العراق أعدلَ هذه كُلِّهَا، لأنَّها وسَطٌ من جميعِ الْجِهَاتِ.

وأما الأَقاليمُ الْبَعِيْدَةُ من الاعتدال، مثل الأول والثَّاني والسَّادس والسَّابع، فأهلُهَا أبعدُ من الاعتدالِ في جميعِ أحوالهم، فبناؤهم بالطِّيْنِ والقَصَبِ، وأقواتهم من الذُّرَةِ والعُشْبِ، وملابسهم من أوراق الشَّجَرِ، يخصِفُونَهَا عليهم أو الجُلُوْدِ، وأكثرهم عَرَايَا من اللِّبَاسِ، وَفوَاكِهُ بلاَدِهِمْ وأُدُمهَا غَرْيبَةُ التَّكوينِ، مائلةٌ إلى الانحرافِ، ومعاملاتهم بغير الحجرينِ الشَّرِيْفَيْنِ[1]، من نُحَاسٍ أَوْ حَدِيْدٍ أو جُلودٍ يُقَدِّرُونها للمعاملاتِ، وأخلاقُهُمْ مع ذلك قَرِيبةٌ من خُلُقِ الْحَيَوانَاتِ العُجْمِ، حتى لينتقلَ عن الكثيرِ من السُّوْدَانِ أهلِ الإقليمِ الأوَّلِ، أنَّهم يسكنونَ الكهوفَ والغياضَ ويأكلونَ العُشْبَ، وأنهم متوحشونَ غيرُ مُسْتأنِسِيْنَ يأكلُ بعضهم بعضاً، وكذا الصَّقَالِبَةُ.

والسَّبَبُ في ذلك أنهم لِبُعدهم عن الاعتدال، يقربُ عرضُ أمزجتهم وأخلاقهم من عرضِ الحيواناتِ العُجمِ، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الدِّيانةِ أيضاً، فلا يعرفونَ نبؤةً، ولا يدينونَ بشريعةٍ إلا مَنْ قَرُبَ منهم من جوانبِ الاعتدالِ، وهو في الأقلِّ النَّادِرِ، مثل الحبشةِ المجاورِيْنَ لليمنِ الدَّائنينَ بالنَّصرانِيَّةِ فيما قبلَ الإسلامِ، وما بعدهُ لهذا العهدِ، ومثل أهل مَالِي وكُوكُو وَالتَّكْرُورِ المُجَاورين لأرضِ المغربِ الدَّائِنِينَ بالإِسْلاَمِ، لهذا العهدِ، يُقَالُ: إنَّهم دانوا بهِ في المئةِ السَّابعَةِ، ومثل من دانَ بالنَّصْرَانِيَّةِ من أمم الصَّقَالِبَةِ والإفرنجةِ والتُّرْكِ منَ الشَّمال.

ومن سوى هؤلاء من أهلِ تلكَ الأقَالِيْمِ الْمُنْحَرِفَةِ جنوباً وَشمالاً، **فَالدينُ مجهولٌ** عندهم، والعلمُ مفقودٌ بينهم، وجميعُ أحوالهم بعيدةٌ من أحوالِ الأناسِيِّ، قريبةٌ من أحوالِ الْبَهائِمِ، ﴿ويخلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ﴾[النحل: ٨].

وَلاَ يُعْتَرَضُ على هذا القولِ بوجودِ الْيَمَنِ، وحضرموتَ والأَحْقَافِ وبلادِ الحجازِ واليمامةِ ومَا يليها من جزيرة العربِ في الإقليم الأوَّل والثَّاني، فإنَّ جزيرةَ العربِ كُلَّها أحاطَتْ بها البحارُ منَ الجهَاتِ الثَّلاَثِ، كَمَا ذكَرْنَا، فكَانَ لرُطُوْبَتِهَا أثرٌ في رُطُوْبَةِ هَوَائِهَا، فنقصَ ذَلِكَ منَ الْيبْسِ والانْحِرَافِ الَّذي يَقْتَضِيْهِ الْحَرُّ، وَصارَ فيها بعضُ الاعتدالِ بسبَبِ رُطُوبَةِ الْبَحْرِ.

---

١ - أي: الذهب والفضة.

وَقد **توهَّمَ بعضُ النَّسَّابِيْنَ** مِمَّنْ لا علمَ لَدَيْهِ بطَبَائِعِ الكَائِنَاتِ، أنَّ السُّوْدَانَ هم وُلْدُ حَامِ ابنِ نُوحٍ، اختصُّوا بلَوْنِ السَّوَادِ لِدَعوةٍ كانت عليه من أبيهِ، ظهرَ أثرها في لونِهِ، وفيما جعلَ اللهُ من الرِّقِّ في عَقبهِ، وينقُلُوْنَ في ذلكَ حكايةً من خرافاتِ القُصَّاصِ. وَدُعَاءُ نوحٍ على ابْنِهِ حَامٍ قد وقعَ في التَّوراةِ[١] وليسَ فيه ذكرُ السَّوادِ، وإنَّما دَعَا عليه بأن يكونَ ولدُهُ عبيداً لوُلْدِ إخوتهِ لا غَيْرُ.

وفي القَولِ بنِسبَةِ السَّوادِ [ظ٢/٣٣] إلى حام غَفْلَةٌ عن طبيعةِ الحرِّ والبرْدِ، وأثرهما في الهواءِ، وفيمَا يتكوَّنُ فيهِ من الحيواناتِ، وذلكَ أن هذا اللَّوْنَ شَمَلَ أهلَ الإقْلِيْمِ الأوَّلِ وَالثَّانِي من مِزَاجِ هَوَائِهِم لِلْحَرَارَةِ الْمُتَضَاعِفَةِ بِالجَنُوْبِ، فَإنَّ الشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوْسَهُمْ مَرَّتَيْنِ في كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَةٍ إحداهما من الأخرى فتطولُ المُسَامَتَةُ[٢] عامَّةَ الْفُصُوْلِ، فيكثرُ الضَّوْءُ لأجْلِهَا، ويُلِحُّ الْقَيْظُ الشَّدِيدُ عَلَيهم[٣]، **وَتَسْوَدُّ جُلُوْدُهم لإفراطِ الحَرِّ**.

ونظيرُ هذينِ الإقْلِيْمَيْنِ مِمَّا يُقَابلهما منَ الشَّمال، الإقْلِيْمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانَهُمَا أيضاً الْبَيَاضُ مِنْ مِزاجِ هوائهم، للبَرْدِ المُفرطِ بالشَّمال، إذ الشَّمسُ لا تزالُ بأفقهم في دائرةِ مَرْأَى العينِ، أو ما قربَ منها، ولا ترتفعُ إلى المسامتةِ، ولا ما قرُبَ منها، فيضعُفَ الحرُّ فيها، **ويشتدَّ البردُ** عامَّةَ الفصول، **فَتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أهلها** وتنتهي إلى الزُّعورَةِ[٤]، ويتبعُ ذلك ما يقتضيه مزاجُ الْبَرْدِ الْمُفْرطِ، من زُرْقَةِ العيون، وَبرَشِ[٥] الْجُلُوْدِ، وَصُهوبَةِ[٦] الْشُّعُوْرِ، وَتَوَسَّطت بينهما الأقاليمُ الثَّلاثة الخامسُ وَالرَّابِعُ والثَّالِث، فكان لها في الاعتدالِ الذي هو مزاجُ المتوسِّطِ، حظٌّ وافرٌ، والرَّابعُ أبلغها في الاعتدالِ غايةً لنهايته في التَّوسُّطِ، كما قدَّمناهُ، فكان لأهله من الاعتدالِ في خُلُقِهم وَخَلْقِهِمْ، ما اقتضاهُ

---

١ – في سفر التكوين (٩/١٨ – ٢٧): وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك سامًا وحامًا ويافث. وحام هو: أبو كنعان. وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً وشرب خمراً فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجههما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره وعلم ما فعل به ابنه الصغير فقال: ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لأخوته.

٢ – المسامتة: أن يكون ضوء الشمس أفقياً على رؤوس السكان.

٣ – أي: على السكان.

٤ – لعله أراد انتهاؤها إلى الحمرة.

٥ – أي: اختلاط اللون الأحمر بغيره في الجلد.

٦ – أي: ميلها إلى الإحمرار والشقرة.

مزاج أهويتِهِمْ، وتبعهُ من جَانِبيْهِ الْثَّالِثُ والخامسُ وإن لم يبلُغَا غَايَةَ التَّوسطِ لميلِ هذا قليلاً إلى الجنوبِ الْحَارِّ، وهذا قليلاً إلى الْشَّمال الْبَارِدِ، إلا أَنَّهُمَا لم ينتهيَا إلى الانحرافِ، وكانَتِ الأقَالِيْمُ الأربعةُ مُنْحَرِفَةً وأهلُها كذلك في خَلْقهم وخُلُقِهِمْ فالأوَّل والثَّاني لِلحرِّ والسَّوادِ، والسَّابعُ والسَّادسُ لِلْبَرْدِ وَالْبَيَاض.

وَيُسَمَّى سُكَّانُ الجنوبِ منَ الأَقْلِيْمَيْنِ الأَوَّل وَالثَّانِي باسْمِ الْحَبَشَةِ وَالْزِّنجِ وَالْسُّودان أسماءً مترادفةً على الأممِ المتغيِّرَةِ بالسَّوادِ، وإن كان اسمُ الحَبَشَةِ مُختصّاً منهم بمن تجاه مكَّةَ وَالْيمَنِ، وَالْزِّنجِ بمن تجاه بحرِ الْهِنْدِ، وليستْ هذه الأسماءَ لهم من أجلِ انتسَابهم إلى آدمِيّ أسودَ لا حَامٍ ولا غيره.

وقد نَجدُ منَ السُّودَان أهلِ الجنوبِ من يَسْكُنُ الْرُّبعَ المعتدلَ أوِ الْسَّابعَ المنْحَرِفَ إلى الْبَيَاضِ، فَتَبْيَضُّ ألوانُ أعقَابِهِمْ على الْتَّدْرِيْجِ مع الأيَّامِ، وبالعكسِ فيمن يسكُنُ من أهلِ الشَّمالِ أو الْرَّابعِ بالجنوبِ فتسودُّ ألوانُ أعقابهم، وفي ذلك دليلٌ على أن **اللَّوْنَ تابعٌ لمزاجِ الهواء**.

قال ابنُ سِينا في أرجوزته في الطِّبِّ:

بِالْزِّنْجِ حَرٌّ غَيَّرَ الأَجْسَادَا ... حَتَّى كَسَا جُلُوْدَهَا سَوَادَا

وَالْصِّقْلِبُ اكْتَسَبَتِ الْبَيَاضَا ... حَتَّى غَدَتْ جُلُوْدُهَا بضَاضَا

وَأَمَّا أهلُ الْشَّمالِ فلم يسمُّوا باعتبارِ ألوانهم لأنَّ البياضَ كان لوناً لأهلِ تلك اللغةِ الواضعةِ للأسماء، فلم يكن فيه غرابةٌ تحملُ على اعتبارِهِ في التَّسْمِيَةِ لموافقته واعتِيَادِهِ، ووجدنا سُكَّانَهُ من التُّرْكِ والْصَّقالِبَةِ والْطُّغُرغُر، وَالْخَزَر، وَاللاَّن، والكثيرِ من الإفرنجَةِ وَيَأْجُوْجَ ومَأْجُوْجَ أسماءً مُتفرِّقَةً، وأجيالاً مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بأَسماءٍ مُتَنَوِّعَة.

وأمَّا أهل **الأَقَالِيْمِ الْثَّلاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ** [ظ٣٤/١]، أهلُ **الاعتدال في خُلُقِهِم وَخَلْقِهِم وَسَيْرِهِم وكافَّةِ الأحوال الطَّبِيعيَّةِ** للاعتمار لديهم منَ المَعَاش، وَالمسَاكِن، والْصَّنَائِع، والعلُوْم، وَالْرِّئَاسَاتِ، وَالْمُلْكِ فكانت فيهم الْنُّبوَّاتُ، وَالْمُلْكُ والدُّولُ والشَّرَائِعُ والعلومُ، والبُلدانُ والأمصارُ وَالْمبَانِي، والفراسةُ وَالْصَّنَائِعُ الْفَائِقةُ، وسائِرُ الأحوَال المُعْتَدِلَةِ، وأهلُ هذه الأقَالِيْمِ الَّتِي وَقَفْنَا على أخبارِهم، مثل العَرَبِ والْرُّوْمِ وَفَارِسَ، وبني إِسْرَائِيْلَ وَالْيُونَان، وأهلِ الْسِّنْدِ وَالْهِندِ وَالْصِّيْنِ.

ولَمَّا رأى النَّسَّابونَ اختلافَ هذه الأممِ بسمَاتها وشِعَارهَا حَسِبُوا ذلك لأَجْلِ الأنسَابِ، **فجعلوا** أهل الجنوبِ كلَّهُمُ السُّوْدَانَ، **من وُلدِ حامٍ**، وارتَابُوا في ألوانهم، فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ[1]، وَجَعلوا أهل الشَّمال كلَّهم أو أكثرهم، من ولد يَافِثَ، وأكثر الأمم المعتَدلَةِ وأهل الوَسَطَ المنتحِلِينَ للعلومِ وَالصَّنائعِ والْمِلَلِ والشَّرائعِ وَالسِّيَاسَةِ والْمُلْكِ، **من ولد سَامٍ**.

وهذا الزَّعمُ وإن صادفَ الحقَّ في انتسابِ هؤلاءِ فليسَ ذلك بقياسٍ مُطَّرِدٍ، إنما هو إخبارٌ عن الواقعِ، لا أن تَسميةَ أهل الجنوبِ بالسُّودَانِ والحُبْشَانِ من أجلِ انْتِسَابهم إلى حامِ الأسودِ، وما أدَّاهم إلى هذا الغَلَطِ إلا اعْتِقَادهم أنَّ التَّمييْزَ بينَ الأمم، إنما يقعُ بالأنسابِ فقط، وليسَ كذلكَ فإنَّ **التَّمييزَ للجيلِ، أو الأُمَّةِ، يكونُ** بالنَّسَبِ في بعضهم كما للعربِ وبني إسرائيلَ والفُرْسِ، ويكونُ بالجهةِ والسِّمة، كما لِلزِّنْجِ والحَبَشَةِ وَالْصَّقَالِبَةِ وَالْسُّوْدَانِ، **ويكونُ** بالعوائدِ والشِّعَارِ والنَّسَبِ كما للعربِ، **ويكونُ** بغيرِ ذلكَ من أحوالِ الأمم وخواصِّهم ومميزاتهم، فتعميم القول في أهل جهةٍ معيَّنةٍ من جنوبٍ أو شمالٍ، بأنهم من ولدِ فلانِ المعروفِ لِمَا شملهم من نحلةٍ أو لون أو سمةٍ وُجدتْ لذلك الأب، إنَّمَا هو من الأغاليطِ التيَّ أوقعَ فيها الغفلة عن طبائع الأكوانِ والجِهَاتِ، وإن هذه كُلَّها تتبدَّلُ في الأعقابِ ولا يجبُ اسْتِمْرَارُهَا، سُنَّةَ اللهِ في عبادِهِ، ﴿وَلَنْ تجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[الأحزاب: ٦٢ والفتح: ٢٣]، واللهُ ورسولهُ أعلمُ بغيبهِ وأحكمُ، وهو المولى المُنعمُ الرَّؤوفُ الرَّحيمُ.

---

١ – حكاية: أن سواد لون ولد حام كان بسبب دعوة نوح عليه السلام عليهم. مر ذكرها قبل صفحات.

١-١-٤- الْمُقَدِّمَةُ الرَّابعَةُ
في أَثَرِ الْهَواءِ في أخْلاَقِ الْبَشَرِ

قَدْ رَأَينا من خُلُقِ السُّوْدَان - على الْعُمُوْمِ - **الْخفَّةَ وَالْطَّيْشَ وكثرةَ الطَّرَبِ**، فتجدهم مُولَعِينَ بالرَّقصِ على كُلِّ توقيعٍ، موصُوفينَ بالحُمْقِ في كل قُطْرٍ، وَ**السَّببُ** الصَّحيح في ذلك أنه تقرَّرَ في موضعهِ من الحكمةِ أنَّ طبيعةَ الفرحِ والسُّرُوْرِ، هي انتشارُ الرُّوْحِ الْحَيَوَانِيِّ وتَفَشِّيْهِ. وطبيعةَ الحُزنِ بالْعَكْسِ، وهو انقباضهُ وتكاثُفهُ. وتَقَرَّرَ أنَّ الحرارةَ مُفشيةٌ للهواءِ، والْبُخَارِ، مُخَلخلَةٌ له، زائدةٌ في كَمِيَّتِهِ، ولهذا يَجدُ الْمُنْتَشِي من الفرحِ والسُّرُوْرِ مَالا يُعَبّرُ عنه، وذلك بما يُداخلُ بُخارَ الرُّوحِ في القلبِ من الحرارةِ الغريزية الَّتي تبعثها سُورة الخمرِ في الرُّوحِ من مزاجهِ فيتفشَّى الرُّوحُ، وتجيءُ طبيعةُ الفَرَحِ، وكذلك نَجدُ المُتَنَعِّمِيْنَ بالحَمَّامَاتِ إذا تَنَفَّسُوا في هوائها، واتَّصَلَت حرارةُ الهواءِ في أرْوَاحِهِم فَتَسَخَّنَت لذلك حدثَ لهم فرحٌ [ظ٤٣/٢]، وربما انبعثَ الكثيرُ منهم بالغناءِ النَّاشيءِ عَنِ السُّرورِ.

ولَمَّا كان **الْسُّوْدَانُ** سَاكِنِيْنَ في الإقليمِ الحَارِّ، واستولى الحرُّ على أمزجتهم، وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارةِ على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياسِ إلى أرواح أهلِ الإقليمِ الرّابعِ أشدَّ حرّاً، فتكونُ أكثرَ تَفَشِّياً، فتكونُ أسرعَ فرحاً وسُروراً، وأكثرَ انبسَاطاً، ويجيءُ الْطَيْشُ على أثرِ هذه، وكذلك يلحقُ بهم قليلاً أهلُ الْبلاَدِ الْبَحْرِيَّةِ، لَمَّا كَانَ هواؤهَا مُتَضَاعِفَ الحرارةِ بما ينعكسُ عليه من أضواء بسيطِ البحرِ وأَشِعَّتِهِ، كانت حِصَّتهم من توابعِ الحَرَارَةِ في الفرحِ والخِفَّةِ موجودةٌ أكثر من بلادِ التُّلُوْلِ والجبالِ الْبَارِدَةِ، وقد نجدُ يسيراً من ذلك في أهل البلادِ الجزيريَّة من الإقليم الثَّالِثِ لتوفُّر الحرارةِ فيها، وفي هوائها؛ لأَنَّها عريقةٌ في الجنوبِ عن الأريافِ والتُّلُوْلِ، واعتبرْ ذلك أيضاً بأَهْلِ مِصْرَ فإنها مثل عرض البلادِ الجزيريَّةِ أو قريباً منها، كيفَ غلبَ الفرحُ عليهم والخفَّةُ والغَفْلَةُ عن العواقبِ حَتَّى أنهم لا يدَّخرون أقواتَ سَنَتِهم وَلاَ شَهْرِهم، وعامَّةُ مَأكَلِهِمْ من أسواقهم.

ولَمَّا كانت **فَاس** من بلادِ المغربِ بالْعَكْسِ منها في التَّوَغُّلِ في التُّلُوْلِ الْبَارِدَةِ. كيفَ ترى أهلها مطْرِقِيْنَ إطراقَ **الْحُزْن**، وكيفَ أفرطوا في نظر العواقبِ، حتى إنَّ الرجل منهم ليدَّخر قوت سنتين من حبوبِ الحِنطَةِ، ويباكرُ الأسواقَ لشراء قوتهِ ليومهِ مخافةَ أن يرزأ

شيئاً من مدَّخَرِهِ، وتتبَّع ذلك في الأَقَالِيْمِ والْبُلْدَانِ تجدْ في الأخلاقِ أثراً من كيفيَّاتِ الهـواءِ. وا للهُ الخلاَّقُ الْعَلِيْمُ.

وقد تعرَّضَ المسعوديُّ للبحثِ عن **الْسَّبَبِ في خِفَّةِ الْسُّودان وطَيشهم وكثرةِ الطَّـرَبِ فيهم**، وحاولَ تعليلهُ فلم يأتِ بشيءٍ أكثرَ من أنَّهُ نقل عن جَالِينُوسَ ويعقوبَ بـنِ إسـحاق الكندي، أنَّ ذلكَ لِضَعفِ أدمغتهم، ومـا نَشَأ عنـه مـن ضَعْـفِ عُقوْلِهـمْ، وهـذا كـلامٌ لا مُحَصَّلَ لهُ، ولا بُرْهَانَ فيهِ، ﴿وا للهُ يهدي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾[البقرة: ٢١٣].

١-١-٥- المُقَدِّمَةُ الخامِسَةُ
في اخْتِلاَفِ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ، في الْخصْبِ وَالْجُوْعِ، ومَا يَنْشَأُ عن ذلكَ مِنَ الآثَارِ في أَبْدَانِ الْبَشَرِ وَأَخْلاَقِهم

اِعْلَمْ: أَنَّ هذه الأقاليمَ المعتدلةَ ليس كُلُّهَا يوجدُ بها الخَصبُ، ولا كُلُّ سُكَّانِهَا في رَغَـدٍ منَ الْعَيْشِ، بَلْ فِيْهَا ما يوجدُ لأهْلِهِ خِصْبُ الْعَيشِ من الحُبوبِ والأُدْمِ والحنطَـةِ والفواكِهِ لِزَكَاءِ الْمَنابتِ، واعتدَالِ الطِّيْنَةِ ووفُورِ الْعُمْرَانِ. **وفيها** الأرضُ الحرَّةُ الـتي لا تنبتُ زرعـاً، ولا عَشباً بالجملةِ؛ فسُكَّانها في شَظفٍ من العيشِ مثل أهلِ **الحجاز وجنوبِ اليَمَن**؛ ومثـلُ **المَلَثَّمِيْنَ مـن صُنْهَاجَـةَ** الْسَّـاكِنِينَ بصَحـراءِ الْمَغـربِ، وأطـرافِ الْرِّمَـالِ فيمـا بيـنَ **الْبربر والْسُّودان**؛ فإنَّ هـؤلاء يفقـدون الحبـوبَ والأُدْمَ جملـةً، وإنمـا أغذيتهـم وأقواتهـم الألبـانُ واللُّحومُ. ومثل **العربِ** أيضاً الجَائلينَ في القِفَار، فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبـوبَ والأُدْمَ من التُّلُوْلِ إلا أنَّ ذلك في الأحايِيْنِ وتحت رِبْقَةٍ[١] من حَامِيتها وعلى الإقـلاَلِ [ظ٣٥/١] لِقِلَّةِ وُجدِهِمْ[٢]، فلا يتوصَّلونَ منه إلى سَدِّ الخَلَّـةِ أو دونهـا فَضـلاً عـن الْرَّغْـدِ والخِصْـبِ. وتجدهم يقتصرونَ في غالبِ أحوالهم على الألبان، وتعوِّضُهُمْ مـن الحنطـةِ أحسـنَ مَعَاضٍ، وتجدُ معَ ذلك هؤلاءِ الفاقدينَ للحبوبِ والأُدْمِ مَن أَهْلِ الْقِفَارِ أحسـنَ حَـالاً في جُسُومِهِمْ وأخلاقهم من أهلِ التُّلُول الْمُنْغَمِسِين في العَيْشِ، فَأَلْوَانُهُمْ أصفى وأبدَانهم أنْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ، وأخلاَقُهُمْ أَبعَدُ منَ الانْحِرَافِ، وأَذْهَانُهُمْ أَثْقَبُ في الْمَعَـارِفِ وَالإِدْرَاكَـاتِ، هَذَا أمرٌ تَشْهَدُ لهُ التَّجْرِبَةُ في كلِّ جيْلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيْرٌ ما بينَ **العـربِ والـبربر** فيمـا وَصَفْنَـاهُ، وبينَ **الْمُلَثَّمِيْنَ وَأَهْلِ التُّلُول**، يَعْرِفُ ذَلِكَ من خبَرَهُ.

وَالْسَّبَبُ في ذلك - وا الله أعلمَ -: أَنَّ كَثْرَةَ الأَغْذيَـةِ، وكـثرةَ الأَخْـلاَطِ الْفَاسِـدةِ الْعَفِنَـةِ ورطوبتها تُوَلِّدُ في الجسمِ فَضلاتٍ رَدِيئةً تَنْشَأُ عنها بُعْدُ أَقْطَارِهَا في غير نِسْـبَةٍ وَيَتْبَـعُ ذَلِـكَ انْكِسَافُ الأَلْوَان، وَقُبحُ الأَشْكَال من كَثْرَةِ اللَّحْمِ، كَمَا قُلْنَاهُ.

وَتُغطِّي الْرُّطُوْبَاتُ على الأَذْهَانَ وَالأَفْكَار بمَا يَصْعَـدُ إلى الْدِّمَـاغِ مـنْ أَبْخِرتِهَـا الْرَّدِيَّـةِ، فَتجِيءُ الْبَلاَدَةُ والغفلةُ والانحرافُ عن الاعتدَالِ بالجُمْلَةِ.

١ - في ن: تحت رقبة. ومعناها: المراقبة والحراسة حتى لا يفاجئهم مغيرٌ.
٢ - أي: قلة ما يجدون.

واعتبرْ ذلك في حيوان الْقَفْر، وموطنِ الجَدْبِ من الْغَزَالِ والنَّعَام، والمَهَا، وَالْزَّرَافَةِ، وَالْحُمُرِ الْوَحْشِيَّةِ، وَالْبَقَر، مع أمثالها من حيوان التُّلُوْل والأرْيَاف، والمراعِي الْخِصْبَةِ كيف تَجدُ بينها بَوْناً بَعِيْداً في صَفَاءِ أدِيمِها وحُسْنِ رَوْنَقِها وَأَشْكَالِهَا وتَنَاسُبِ أَعْضَائِهَا وحدَّةِ مدارِكها.

فَالغزَالُ أخو المَعْزِ، والزَّرافةُ أخو البَعِيْر، والحمارُ والبقرُ أخو الحمار والبقر، والبونُ بينها ما رأيتَ، وما ذاكَ إلاَّ لأجلِ أن الخِصْبَ في التُّلول فعلَ في أبدان هذه منَ الفضلاتِ الْرَّدِيَّةِ والأخلاطِ الْفَاسِدَةِ ما ظهرَ عليها أثَرُهُ. والجوعُ لِحَيَوَانِ الْقَفْرِ حَسَّنَ في خلقها وأشْكَالِهَا مَا شاءَ.

واعْتبرْ ذلكَ في الآدميينَ أيضاً: فَإنَّا نجدُ أهل الأقَالِيْمِ الْمُخْصِبَةِ الْعَيْشِ، الكَثِيْرةِ الْزَّرْعِ والْضَّرْعِ وَالأُدْمِ، والفواكِهِ، يَتَّصِفُ أهلها غالباً بالبلادَةِ في أذهانهم، والخُشُونَةِ في أجسَامهم، وهذا شأنُ **البربرِ** المنغَمِسِيْنَ في الأُدْمِ وَالحنطَةِ مع المتقشِّفِيْنَ في عيشهم المقتصرينَ على الشَّعِيرِ أو الذُّرَةِ مثلَ **الْمَصَامدَةِ** منهم وأهل **غِمَارَةَ والسُّوس** فتجدُ هؤلاءَ أحسنَ حالاً في عقولهم وجُسُومهم. وكذا أهلُ **بلادِ المغربِ** على الجُملةِ الْمُنْغَمِسِيْنَ في الأُدْمِ والْبُرِّ، مع أهل **الأندلسِ** المَفْقُوْدِ بأَرضهم الْسَّمْنُ جُملَةً وغالبُ عيشهم الذُّرَةُ، فتجد لأهل الأندلسِ من ذكاء العقول وخِفَّةِ الأجْسَام وَقبُوْلِ التَّعليم مالا يوجدُ لِغَيْرِهم، وكذا أهلُ الْضَّواحي من **المغربِ** بالجملةِ مع أهلِ الحضرِ والأمْصَار، فإنَّ الأمْصَارَ وإن كانوا مُكْثِرِين مِثْلَهُم من الأُدْمِ ومخصِبينَ في العيش، إلا أنَّ استعمالهم إيَّاها بعد الْعِلاَجِ بالطَّبْخِ والتَّلْطِيْفِ بما يخلطونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِذَلِكَ غِلَظُهَا وَيَرِقُّ قوامها. وعامَّةُ مأكلهمْ [ظ٣٥/٢] لحمانُ[1] الْضَّأَنِ وَالْدَّجَاجِ، ولا يَغْبطُوْنَ الْسَّمْنَ من بَيْنِ الأُدْمِ لِتَفاهَتِهِ فَتَقِلُّ الْرُّطُوْبَاتُ لِذَلِكَ في أغذِيَتِهِمْ وَيَخِفُّ مَا تؤدِّيهِ إلى أجسامهم من الْفَضَلاَتِ الْرَّدِيَّةِ، فَلِذَلِكَ تجدُ جُسُومَ أهلِ الأمْصَارِ ألطَفَ من جُسُوْمِ الْبَادِيَةِ الْمُخَشَّنِينَ في الْعَيْشِ، وَكَذَلِكَ تجدُ المعوَّدِينَ بالجوعِ من أهل الباديَةِ لا فَضَلاتَ في جُسُومهم غَلِيْظَةً ولا لَطِيفَةً.

وَاعْلَمْ: أَنَّ أثر هَذَا الخِصْبِ في الْبَدَنِ وأحوالِهِ يظهرُ حتى في **حال الْدِّين والْعِبَادَةِ**. فنجدُ المتقشِّفِينَ من أهل البادية أو الحاضِرَةِ ممن يأخذ نفسهُ بالجوعِ والتَّجافي عن الْمَلاَذِّ أحسنَ ديناً وَإقبالاً على الْعِبَادَةِ من أهلِ الْتَّرفِ وَالْخِصْبِ، بَلْ نَجدُ **أهل الْدِّيْنِ قَلِيْلِيْنَ في**

---

١ - في المطبوع: لحوم.

الْمُدُن وَالأَمْصَار لما يَعُمُّهَا من الْقَسَاوَةِ وَالْغَفْلَةِ الْمُتَّصِلَةِ بالإِكْثَار من اللُّحمَان والأُدمِ وَلُبَابِ الْبُرِّ، وَيَخْتَصُّ وجودُ الْعُبَّادِ والزُّهَّادِ لذلك بالْمُتَقَشِّفِيْنَ في غذائهم من أهل البَوادي.

وكذلك نجد حال **أهل المدينة الواحدة** في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف والخصب.

وكذلك نجد هؤلاء **الْمُخْصَبين في العيش**، المنغمسينَ في طَيِّباتِه من أهل الْبَادِيَةِ ومن أهل الحواضِرِ والأَمْصَار، إذَا نَزَلَتْ بهم السُّنونُ وأَخَذَتْهُمُ المجاعاتُ **يُسْرِعُ إليهم الهَلاَكُ** أكثرَ من غيرهم، مثل **برابرةِ الْمَغْرِبِ** وأهلِ مدينةِ **فَاس ومصر** فيما يبلغنا؛ لا مثل العَرَبِ أهلِ القَفْرِ والْصَّحْرَاءِ، ولا مثلَ أهلِ بلادِ النَّخْلِ الَّذِينَ غالبُ عيشهم التَّمْرُ، ولا مثلَ أهل إفريقية لهذا العهد الَّذينَ غالبُ عيشهم الشَّعِيْرُ وَالْزَّيتُ، وأهل الأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غالبُ عَيشهم الْذُّرَةُ والزَّيتِ، فإن هؤلاء وإن أخذتهم السُّنون والمجاعاتُ فَلاَ تنالَ منهم ما تنالُ من أولئكَ وَلاَ يَكثُرُ فيهم الهلاكُ بالجوع، بَلَ وَلاَ يَنْدُرُ.

وَالْسَّبَبُ في ذلك ـ والله أعلمُ ـ: أنَّ المنغمسينَ في الخَصْبِ المتعوِّدينَ لِلأُدْمِ وَالْسَّمْنِ خُصُوصاً تكتسبُ من ذلك أمعاؤهم رُطوبةً فوقَ رُطُوبتهم الأصلِيَّةِ المزاجيَّةِ حتى تُجاوزَ حدَّهَا، فإذا خولفَ بها العادةُ بقلَّةِ الأقْوَاتِ، وَفُقْدَانِ الأُدْمِ واسْتِعمال الخشنِ غير الْمَأْلُوْفِ من الغذاء أسرعَ إلى المِعَى[1] الْيُبْسُ والانْكِمَاشُ وهو عضو ضعِيْفٌ في الْغَايَةِ، فَيُسْرِعُ إليه المرضُ ويهلكُ صَاحِبُهُ دَفعةً، لأَنَّهُ من المَقَاتِلِ.

فَالْهَالِكونَ في المَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الْشِّبَعُ الْمُعْتَادُ الْسَّابِقُ لاَ الْجُوْعُ الحَادِثُ اللاَّحِقُ.

وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدونَ لِقِلَّةِ[2] الأُدْمِ والْسَّمْنِ فلا تزال رُطُوْبَتُهُمْ الأَصلِيَّةُ واقفةً عند حَدِّها من غير زِيَادَةٍ وهي قابلةٌ لجميعِ الأغذيةِ الطَّبيعيَّةِ، فلا يقعُ في مِعاهم بتَبَدُّلِ الأَغْذِيَةِ يَبَسٌ ولا انحرافٌ، فَيَسْلَمونَ في الغالبِ من الهلاكِ الَّذي يَعْرِضُ لِغَيْرِهم بِالْخَصْبِ وَكَثْرَةِ الأُدْمِ في الْمَآكِلِ.

وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الأَغْذِيَةَ وَائتلافَهَا أو تركها إِنَّمَا هو بالعادةِ. فمن عوَّدَ نفسهُ غِذَاءً ولاءَمَهُ تناوُلهُ، كانَ لهُ مألوفاً وَصارَ الخروجُ عنه والتَّبدُّلُ به داءً ما لم يخرج عن

---

١ - أي: الأمعاء.

٢ - في ن: المتعودون للعَيْمة [أي شهوة اللبن]وترك الأدم.

غَرَضِ الغِذَاءِ بالجملةِ كالسُّموم وَالْيَتُّوع[1][ظ٣٦/١]، وَمَـا أَفْرَطَ في الإنحرافِ. فَأَمَّا ما وجدَ فيه التَّغذِّي والملاءمة فيصيرُ غذاءً مألوفاً بالعادةِ، فإذا أخذَ الإنسانُ نفسهُ باستعمالِ اللَّبَنِ والبقلِ عوضاً عن الحنطةِ حتَّى صار له ديدناً، فقد حصلَ له ذلك غِذَاءً، واستغنى به عن الحنطةِ والحُبوبِ من غير شكٍّ، وكذا من عوَّدَ نفسهُ الْصَّبْرَ على الجوعِ والاستغناء عن الطَّعامِ، كما يُنقَلُ عن أهـل الْرِّيَاضَاتِ، فَإِنَّا نسمعُ عنهم في ذلك أخباراً غريبةً يَكَادُ يُنكرها من لا يَعْرِفُهَا.

والْسَّبَبُ في ذَلك: العادَةُ، فإنَّ النَّفْسَ إذا أَلِفَت شَيَئاً صارَ من جبلَّتها وطبيعتها لأنَّها كثيرةُ التَّلوُّن، فإذا حصل لها اعتيادُ الجُوْعِ بـالْتَّدريجِ وَالْرِّيَاضَةِ، فقد حَصَلَ ذلك عادةً طبيعيَّةً لها، وما يتوهمه الأطبَّاءُ من أنَّ الجوعَ مُهلكٌ فليسَ على ما يتوهَّمونهُ، إلا إذا حُمِلَتِ النَّفسُ عليه دَفعةً، وقُطِعَ عنها الْغِذَاءُ بالْكُلِّيَّةِ فإنّه حينئذٍ ينحَسِمُ المِعَى، وينالُهُ المرضُ الَّذي يُخشى معه الهلاكُ.

وأمَّا إذا كان ذلك القدرُ تدريجاً ورياضةً **بإقْلاَلِ الغذاء شَيئاً فَشَيئاً** كما يفعلهُ الْمُتَصوِّفَةُ، فهو بمَعْزِلٍ عن الهلاَكِ.

وهذا **التدريجُ ضَرُورِيٌّ** حتى في الرُّجوعِ عن هذه الرِّيَاضَةِ. فإنه إذا رجعَ به إلى الغذاءِ الأوَّلِ دفعةً خيفَ عليهِ الْهَلاَكُ، وإنَّما يرجعُ به كما بَدَأَ في الرِّيَاضَةِ بالْتَّدْرِيْجِ، ولقد شَاهدنا من يَصبِرُ على الْجُوْعِ أربعينَ يوماً وِصَالاً وأكثر. وحضرَ أشياخنا بمجلسِ الْسُّلطان أبي الحَسَنِ، وَقَدْ رُفِعَ إليه **امْرَأتَـان** من أهلِ الجَزِيرَةِ الخَضْرَاءِ، وَرَنْدَةَ، حَبَسَتَا أنفُسَهُمَا عن الأكلِ جُمْلَةً منذُ سِنِينَ، وشاعَ أمرُهُمَا ووقعَ اختبارهما، فصحَّ شأنهما، واتَّصَلَ على ذلك حالهما إلى أن مَاتَتَا. ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصِرُ على حَلَيبِ شَاةٍ من المعزِ يلتقِمُ ثديها في بعضِ النَّهار أو عِندَ الإفْطَارِ، ويكونُ ذَلِكَ غذاءَهُ واسْتَدَامَ على ذلك خَمسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وغيرهم كَثِيْرٌ، ولا يُسْتَنْكَرُ ذَلِكَ.

واعْلَمْ: أَنَّ **الْجُوْعَ أصْلَحُ لِلْبَدَنِ** من إكثارِ الأغْذِيَةِ بكُلِّ وجهٍ لمن قَدَرَ عليهِ، أو على الإقلالِ منها، وإنَّ لهُ أثراً في الأجسامِ **والعُقُوْلِ في صفَائِهَا وَصَلاَحِهَا** كما قُلْنَاهُ.

---

١ - قال في القاموس المحيط: اليتوع كصبور أو تنور نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه سبعة: الشبرم واللاعية، والعرطنيشا والماهودانة والمازريون والفلجلشت والعشر. وكل الْيَتُّوعَاتِ إذا استعملت في غير وجهها أهلكت.

واعْتَبِرْ ذَلكَ بآثَار الأغْذِيَةِ الَّتي تَحْصُلُ عنها في الْجُسُوْمِ، فقد رَأَينَا الْمُتَغَذِّين بلُحُوْمِ الْحَيَوَانَاتِ الْفَاخِرَةِ الْعَظِيْمَةِ الْجُثْمَان، تَنْشَأُ أَجْيَالُهُمْ كَذَلِكَ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ في أهلِ الْبَادِيَةِ مع أهلِ الْحَاضِرَةِ، وكَذَا الْمُتَغَذُّوْنَ بأَلْبَانِ الإبلِ ولُحومِهَا أيضاً، معَ مَا يُؤَثِّرُ في أخلاقِهِمْ منَ الْصَّبْرِ وَالاحْتِمَال وَالْقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ الأَثْقَال، الموجُوْدِ ذَلِكَ لِلإبلِ، وَتَنْشَأُ أمعَاؤُهم أيضاً على نِسْبَةِ أمْعَاءِ الإبلِ في الْصِّحَّةِ وَالْغِلَظِ فَلاَ يَطْرُقُهَا الْوَهْنُ وَلاَ يَنالُهَا مِنْ مَضَارِّ[1] الأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ، فَيَشْرَبُوْنَ الْيَتُوعاتِ لاسْتِطْلاَق بُطُوْنِهمْ غَيْرَ مَحْجُوبَة كَالْحَنْظَلِ قَبْلَ طَبْخِهِ، وَالْدِّرْيَاسِ وَالْقَرْبِيُون، ولا ينال أمْعَاءَهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وهيَ لو تناولَهَا أهلُ الحَضَرِ الْرَّقِيْقَةُ أمْعَاؤُهم بما نَشَأَتْ عليهِ من لَطِيْفِ الأَغْذِيَةِ لَكَانَ الهَلاَكُ أَسْرَعَ إليهم من طَرْفَةِ الْعَينِ، لما فيها من الْسُّمِّيَّةِ [ظ٣٦/٢].

ومن تأثيرِ الأغذيةِ في الأبدانِ ما ذكرهُ أهلُ الفلاَحَةِ، وَشَاهدهُ أهلُ التَّجربةِ: أنَّ الدَّجَاجَ إذا غُذِّيت بالحبوبِ المطبوخةِ في بعر الإبلِ، واتَّخذَا بيضُها، ثُمَّ حَضَنَتْ عليه، جاء **الدَّجاجُ** منها أعظم ما يكون. وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخِ الحبوبِ بطَرْحِ ذلك البعرِ مع البيضِ المحضَّنِ، فَيَجيءُ دَجَاجُهَا في غايةِ الْعِظَمِ. وأمْثَالُ ذلك كثيرةٌ.

فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان، فلا شكَّ أنَّ لِلْجُوْعِ أيضاً آثاراً في الأبدان؛ لأنَّ الْضِّدَّيْنِ على نسبةٍ واحدةٍ في التَّأثِيْرِ وعدمِهِ، فيكونُ تأثيرُ الجوعِ في نقاءِ الأبدان مِنَ الزِّيَاداتِ الفَاسِدَةِ وَالرُّطُوبَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُخلَّةِ بالجسمِ والعقلِ، كما كان الغذاء مؤثِّراً في وجودِ ذلك الجِسْمِ. والله محيطٌ بِعِلْمِهِ.

---

١ – في ن: مدار.

١-١-٦- الْمُقَدِّمَةُ السَّادِسَةُ

في أَصْنَافِ الْمُدْرِكينَ لِلْغَيْبِ منَ الْبَشَرِ بالْفِطْرَةِ أَوِ الرِّيَاضَةِ وَيَتَقَدَّمهُ الكلامُ في الوحيِ وَالرُّؤيَا

اِعْلَمْ: أَنَّ ا للهَ سُبْحَانَهُ اصطفى من البشر أشخاصاً فَضَّلهم بخِطابه، وفَطَرَهُمْ على مَعْرِفَتِهِ، وجعلهم وَسَائِلَ بَيْنَهُ وبينَ عِبادِهِ، يُعَرِّفونهم بمصالحهم، ويحرِّضونهم على هدايتهم، ويأخذون بحجزاتِهِمْ عن النَّارِ[1]، وَيَدُلُّونهم على طريقِ النَّجاةِ، وكان فيما يُلقيه إليهم من المعارفِ ويظهرُهُ على ألسنتهم من الخوَارِقِ وَالإخبَارِ بالكائناتِ المغيبةِ عن البشرِ التي لا سبيلَ إلى معرفتها إلا من ا للهِ بوساطتِهم، ولا يعلمونها إلا بتعليم ا للهِ إيَّاهم. قَالَ صلى ا للهُ عليه وسلم: «**أَلاَ وَإِنِّي لاَ أعلَمُ إلا مَا عَلَّمنيَ ا للهُ**»[2].

واعْلَمْ: أَنَّ خبرهم في ذلك من خاصيَّتِهِ وضرورته الصِّدْقُ. لَما يَتَبَيَّنُ لك عند بيانِ **حقيقةِ النبوة.**

وعلامةُ هذا الصِّنفِ من البشرِ: أن توجدَ لهم في حال الوحي غيبةٌ عن الحاضرينَ معهم مع غَطِيطٍ، كأَنَّها غَشْيٌ أو إغماءٌ في رأي العَيْنِ، وليست منها في شيء، وإنما هي في الحَقِيقَةِ اسْتِغْرَاقٌ في لقاءِ المَلَكِ الرُّوحَانِيّ بإدراكهم المُنَاسِبَ لَهُم، الخارجِ عن مداركِ البشرِ بالكُلِّيَّةِ ثم يتنزَّلُ إلى المداركِ البشريَّةِ، إمَّا بسَمَاعِ دويٍّ من الكلامِ فيتفقَّهُهُ، أو يتمَثَّلُ لهُ صُوْرَةَ شَخصٍ يُخَاطبُهُ بما جاء به من عند ا للهِ، ثم تنجلي عنه تلك الحالُ، وقد وَعَى ما أُلقيَ إليه، قالَ صلى ا للهُ عليه وسلم وَقَدْ سُئِلَ عن الْوَحْيِ: «**أَحْيَانَاً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وهوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي**[3]**، وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**»[4]. وَيُدرِكُهُ أثناءَ ذلك من الشِّدَّةِ والغطِّ مالاَ يُعبِّرُ

---

١ – أي: يصرفونهم عنها.

٢ – ليس هذا من قول النبي صلى ا لله عليه وسلم. وإنما من قول معاوية بن حيدة القشيري رضي ا لله عنه عندما أتى النبي صلى ا لله عليه وسلم يسأله عن الإسلام فقال: وإني قد كنت امرأً لا أعقل شيئاً إلا ما علمني ا لله عز وجل ورسوله. أخرجه أحمد (٢٠٠٦٣) (٤/٥ – ٥) والنسائي (٤/٥، ٨٢).

٣ – أي: يفارقني.

٤ – أخرجه البخاري (٢ و٣٢١٥) ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة رضي ا لله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى ا لله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟...

عنهُ. ففي الحديثِ: «**كَانَ يُعَالِجُ منَ الْتَّنْزِيْلِ شِدَّةً**»[١]. وَقَالَتْ عائشةُ: «**كَانَ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الْشَّدِيْدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِيْنَهُ لَيَتفَصَّدُ عَرَقاً**»[٢]. وَقَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[المزمل: ٥].

وَلأَجْلِ هذه الغايةِ في تَنَزُّل الوحي كانَ الْمُشْرِكونَ يرمونَ الأنبياءَ بالجنون، ويقولون: له رئيٌّ أو تابعٌ منَ الجنِّ، وإنما لُبِّسَ عَلَيهم بِمَا شَاهَدُوهُ من ظاهرِ تلكَ الأَحوالِ. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ ا للهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الرعد:٣٣، الزمر: ٣٦].

ومن عَلَامَاتهم أيضاً: أَنَّهُ يوجدُ لهم [ظ٣٧/١] قبلَ الوحي خُلُقُ الخير والزَّكَاء، ومجانبة المذموماتِ والْرِّجسِ أجمعَ، وهذا هو معنى العِصْمَةِ، وكأَنَّهُ مفطورٌ على التَّنَزُّهِ عن المذموماتِ والمنافرةِ لها. وَكَأَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِجبلَّتِهِ.

وفي الْصَّحِيْحِ[٣]: أَنَّهُ حملَ الحِجَارَةَ وهوَ غلامٌ معَ عَمِّه العَبَّاسِ لِبنَاءِ الْكَعْبَةِ، فجعلها في إزارِهِ فانكَشَفَ فَسَقَطَ مَغشيّاً عليه حتى استَتَرَ بإزارِهِ، ودُعِيَ إلى مجتمع وليمة فيها عُرْسٌ ولعبٌ، فأصابهُ غَشْيُ النَّوْمِ إلى أن طَلَعَتِ الْشَّمْسُ، ولم يحضر شيئاً من شأنهم[٤] بل نزَّهَهُ ا للهُ عن ذلك كُلِّهِ، حتَّى إنَّه بجبلَّتِهِ يتنزَّه عنِ المطعوماتِ الْمُسْتَكرَهَةِ، فقد كان صلى ا لله عليه وسلم لا يَقْرُبُ البَصَلَ وَالْثّومَ، فقيلَ لهُ في ذلك فقال: «**إِنِّي أُنَاجِي من لاتُنَاجُوْنَ**»[٥].

وانظر لما أخبر النَّبيُّ صلى ا لله عليه وسلم خَدِيجَةَ رضي ا لله عنها بحالِ الوَحي أوَّلَ ما فَجأَتْهُ. وَأَرَادَتِ اختِبَارَهُ، فقالتِ: اجعَلني بينكَ وبينَ ثوْبكَ، فَلَمَّا فعل ذَلك ذهبَ عنه، فقالت: إنه ملَكٌ وليسَ بِشَيْطان[٦]. ومعناه أنه لا يقربُ النِّسَاء. **وكذلك** سألتهُ عن أحبِّ

---

١ - أخرجه البخاري (٥) و(٤٦٤٣) و(٤٦٤٤) و(٤٦٤٥) و(٤٧٥٧) و(٧٠٧٦) ومسلم (٤٤٩)(١٤٨) من حديث ابن عباس رضي ا لله عنه.

٢ - أخرجه البخاري رقم (٢) بلفظ: «ولقد رأيته ينزل...».

٣ - أخرجه أحمد (٢٩٥/٣، ٣٨٠) والبخاري (٣٥٧ و١٥٠٥ و٣٦١٧) ومسلم (٣٤٠) من حديث جابر... وانظر الخصائص (٨٨/١).

٤ - انظره في المستدرك (٢٤٥/٤) والدلائل للبيهقي (٥٨/١) ومجمع الزوائد (٤١٤/٨) والخصائص الكبرى للسيوطي (٨٨/١).

٥ - أخرجه البخاري (٨١٦) و(٨١٧) و(٥١٣٧) و(٦٩٢٦) ومسلم (٥٦٤) من حديث جابر بن عبد ا لله رضي ا لله عنه.

٦ - أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢٧٦/١). والبيهقي في الدلائل واالطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل، انظر الخصائص الكبرى (٩٥/١).

الثِّيابِ إليه أن يأتيه فيها، فقالَ: البيَاضُ والخُضرة، فقالت: إنـه المَلَكُ[١]؛ يعـني أنَّ البيَـاضَ والخُضرة من ألوان الخَيْرِ والملائكةِ؛ والسَّوادَ من ألوانِ الشَّرِّ وَالشَّياطِينَ، وأمثالِ ذلك.

ومن علامَاتهم أيضاً: دُعَاؤُهُم إلى الدِّيْنِ والعِبَادَةِ من الصَّلاَةِ والصَّدَقَـةِ والعَفَـافِ، وقـد استدلَّت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذَلك. وكذلك أبو بكر. ولم يحتاجا في أمْرِهِ إلى دليل خارجٍ عن حالهِ وخلْقِهِ؛ وفي الصَّحيح[٢]: أنَّ هِرقْلَ حين جاءَه كتابُ النَّبـيِّ صلى الله عليه وسلم يَدْعوْهُ إلى الإسلامِ أحضـرَ مـن وَجَدَ بِبلَدِهِ مـن قُرَيْشٍ وَفِيْهـم أبـو سُفْيَانُ لِيسْأَلَهم عن حَالِهِ.

فكَانَ فِيمَا سَأَلَ أنْ قَالَ: بمَ يَأْمُرُكم؟ فَقَـالَ أبـو سُفيانَ: بـالصَّلاَةِ والزَّكَـاةِ[٣] والصِّلَـةِ والْعَفَافِ إلى آخرِ مَا سألَ، فأجابهُ فقال: إن يكن ما تقولُ حقّاً فهو نبيٌّ، وَسَيَمْلِك مـا تحتَ قَدَميَّ هَاتَيْنِ. والعفَافُ الَّذِي أشارَ إليهِ هِرَقْلُ[٤] هوَ الْعِصْمَةُ. فَانْظرْ كَيْـفَ أخَـذَ مـنَ الْعِصْمَةِ وَالْدُّعَاءِ إلى الْدِّيْنِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلاً على صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ، وَلَـمْ يَحْتَـجْ إلى معجـزةٍ، فَـدَلَّ على أنَّ ذَلِكَ من عَلاَمَاتِ الْنُبُوَّةِ.

ومن علامَاتِهِمْ أيضاً: أن يكونُوا ذَوي حَسَبٍ في قومهم، وفي الْصَّحِيْحِ: «**مَا بَعَثَ الله نَبِيّاً إلا في مَنَعَةٍ من قَوْمِهِ**»[٥]. وفي روايـة أخرى: «**في ثَـرْوَةٍ مـن قَوْمِـهِ**»[٦]. اسْتَدركَهُ الحَاكمُ على الْصَّحِيْحَيْنِ.

وفي مَسْأَلَةِ هِرَقلَ لأبي سُفيانَ كما هو في الْصَّحِيْحِ قَـالَ: كَيْـفَ هُـوَ فِيْكُـمْ؟ فَقَـالَ أَبُـو سُفيانَ: هوَ فِينا ذُو حَسَبٍ[٧]. فَقَالَ هِرَقلُ: وَالْرُّسُلُ تُبْعَثُ في أَحْسَابِ قَوْمِهَـا. وَمَعْنَـاهُ أَنْ

---

١ – أخرجه أبو نعيم في الدلائل، عن عبد الله بن شداد قال: قال ورقة لخديجة: هل رأى زوجك صاحبه في خضر؟ قالت: نعم. قال: فإن زوجك نبي وسيصيبه من أمته بلاء. وانظر الخصائص للسيوطي (١/٩٥ – ٩٦).

٢ – أخرجه أحمد (١/٢٦٢، ٢٦٣) والبخاري في صحيحه رقم (٧) و(٥١) و(٢٦٨١) و(٢٨٠٤ و٢٩٤١ و٢٩٧٨ و٣١٧٤ و٤٥٥٣ و٥٩٨٠ و٦٢٦٠ و٧١٩٦ و٧٥٤١) ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له. وأبو داود (٥١٣٦) والترمذي (٢٧١٧). من حديث ابن عباس، عن أبي سفيان بن حرب.

٣ – في البخاري: (الصدق). بدل: (الزكاة). واللفظ لمسلم.

٤ – قوله: الذي أشار إليه هرقل. الظاهر أبو سفيان.

٥ – أخرجه أحمد (٢/٣٣٢، ٣٤٦، ٣٨٤، ٣٨٩، ٤١٦، ٥٣٣) والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥) و(٨٩٦) والترمذي (٣١١٦) بلفظ: منعة وذروة. من حديث أبي هريرة. وليس في الصحيح لا البخاري ولا مسلم. فلعله أراد بالصحيح المعنى الإصطلاحي لا الكتاب.

٦ – أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٦١) من حديث أبي هريرة.

٧ – في البخاري (٧): نسب.

تَكُونَ لهُ عَصَبَةٌ وَشَوْكَةٌ تمنعُهُ عن أَذَى الْكُفَّارِ، حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَيُتِمَّ مُرَادَ ا للهِ من إِكْمَالِ دِيْنِهِ وَمِلَّتِهِ.

وَمِنْ عَلامَاتِهِم أيضاً: وُقُوْعُ الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةً بِصدقهم. وهي أفعالٌ يعجزُ البشرُ [ظ٢/٣٧] عن مِثلها، فَسُمِّيت بذَلك **معجزة**، وليست من جنسِ مَقْدُورِ العباد، وإنما تقعُ في غير محلِّ قدرتهم، **وللنَّاسِ في كيفية وقوعها ودلالتها على تَصْدِيقِ الأنبياء خلافٌ:**

فَالمتكلمون: بناءً على القولِ بالفاعلِ المختارِ قائلونَ بأنَّها واقعةٌ بقدرة ا للهِ لا بفعل النَّبِيِّ. وإن كانت أفعال العباد عند **المعتزلة** صَادِرَةً عنهم، إلا أن المعجزة لا تكون من جنسِ أفعالهم، وليسَ للنَّبيِّ فيها عند سائرِ المتكلمين إلا التحدي بها بإذن ا لله، وهو أن يستدلَّ بها النبي صلى ا لله عليه وسلم قبلَ وُقُوعها على صِدْقِهِ في مُدَّعاهُ فإذا وقعت تنزَّلت منزلةَ الْقَوْلِ الْصَّرِيْحِ من ا للهِ بأنَّهُ صَادقٌ، وتكونُ دلالتها حينئذٍ على الْصِّدْقِ قطعيَّةً. فالمعجزةُ دَالَّةٌ بمجموعِ الْخَارِقِ وَالْتَّحَدِّي. وَلِذَلِكَ كانَ الْتَّحَدِّي جزءاً منها، وعبارة الْمُتَكَلِّمِينَ: صفة نَفْسِهَا، وهو واحدٌ، لأَنَّهُ معنى الذَّاتي عندهم. **والْتَّحَدِّي**: هو الفارقُ بينها وبينَ الكرامَةِ والْسِّحْرِ. إذْ لاَ حَاجَةَ فيهما إلى التصديق، فلا وجودَ للتَّحدِّي إلا إن وجد اتِّفَاقاً، وإن وقعَ التَّحدي في الكرامةِ عند من يُجيزها، وكانت لها دلالةٌ فإنما هي على الولايةِ وهيَ غيرُ النُّبوةِ، ومن هنا منعَ الأُسْتَاذُ أبو إسحاق[1] وغيرهُ وقوعَ الخَوارِق كَرامةً فراراً من الالتِبَاسِ بالنبوَّةِ عندَ التَّحدِّي بالولايةِ، وقد أَرَيناكَ الْمُغايرةَ بينهما، وإنَّهُ يتحدَّى بغير ما يتحدَّى به النَّبيّ فلا لبسَ.

على أنَّ النَّقْلَ عن الأُسْتَاذِ في ذلك لَيْسَ صَرِيحاً وَرُبَّمَا حُمِلَ على إنكارٍ لأن تقعَ خَوَارِقُ الأنبياء لهم بناءً على اختصاص كُلٍّ منَ الْفَرِيْقَيْنِ بخوارقِهِ.

وَأَمَّا **المعتزلةُ**: فالمَانعُ من وقوعِ الكَرامةِ عندهم أَنَّ الخَوارقَ لَيسَتْ من أفعالِ الْعبادِ، وأفعَالُهم مُعْتَادَةٌ، فلا فرقَ. وأمَّا وقوعها على يَدِ الْكَاذِبِ تَلْبِيساً فهوَ مُحَالٌ.

أَمَّا عِنْدَ **الأَشْعَرِيَّةِ**: فلأنَّ صِفَةَ نَفْسِ الْمعجزةِ التَّصديقُ والهدَايةُ، فلو وَقَعت بخلافِ ذلك انقلبَ الدَّليلُ شُبهةً، والهدايةُ ضلالةً، والتَّصديقُ كذباً، واستحالت الحقائقُ، وانقلَبت صِفَاتُ النَّفسِ، وما يلزمُ من فَرْضِ وُقُوعِهِ الْمُحالَ لا يكونُ مُمْكِناً.

وَأَمَّا عند **المعتزلةِ**: فلأنَّ وقوع الدَّليل شبهةً والهدايةَ ضَلالةً قبيحٌ فلاَ يقعُ منَ ا للهِ.

---

١ – الأسفراييني الفقيه الشَّافعي.

وأمَّا **الْحُكماءُ**: فالخارقُ عندهم من فعل النَّبيّ، ولو كان في غير محلِّ القُدْرَةِ بناءً على مذهبهم في الإيجابِ الذَّاتي. ووقوعُ الحوادثِ ـ بعضها عن بعضٍ ـ متوقِّفٌ على الأسباب. والشُّروطُ الحادثةُ مُسْتندةٌ أخيراً إلى الواجبِ الفاعلِ بالذَّاتِ لا بالاختيار. وإن النَّفس النَّبويَّة عِندَهُمْ لها خواصٌّ ذاتِيَّةٌ، منها صُدُورُ هذه الخوارقِ بقُدرَتِهِ، وطاعةِ العناصرِ له في التكوين. والنَّبيُّ عندهم مجبولٌ على التَّصريفِ في الأكوان، مهما توجَّه إليها واستجمعَ لها بما جعل الله له من ذلك. **والخارقُ** عندهم يقعُ للنَّبيِّ سواءٌ كان للتَّحدِّي، أم لم يكن، وهو شاهدٌ بصدقه من حيثُ دلالَتِهِ على تصرُّفِ النَّبيِّ في الأكوان الَّذي هو من خواصِّ النَّفسِ النَّبويَّةِ، لا بأنه يتنزَّلُ منزلةَ القَولِ الصَّرِيْحِ بالتَّصْدِيق، فلذلكَ لا تكونُ دلالتها عندهم قِطعيَّةً، كما هي عند **المتكلمينَ**، ولَا يكونُ التَّحدي جزأً [ظ١/٣٨] من المعجزةِ، ولم يَصِحَّ فارقاً لها عن السِّحْرِ والْكرَامَةِ. **وفَارِقُهَا** عندهم عن السِّحرِ: أنَّ النَّبي مجبولٌ على أفعالِ الخير، مَصْرُوْفٌ عن أفعالِ الشَّرِّ، فلا يُلِمُّ الشَّرُّ بخوارقِهِ.

والسَّاحِرُ على الضِّدِّ، فأفعالهُ كلها شرٌّ وفي مقاصد الشَّرِّ. **وفارقها عن الكرامةِ**: أن خوارقَ النَّبيِّ مخصوصةٌ كالصُّعودِ إلى السَّماءِ، والنُّفوذِ في الأجسامِ الْكثِيفَةِ، وإحياء الموتى، وتَكلِيْم الملائكةِ، والطَّيَرانِ في الهواء.

وخوارِقُ **الْوَلِيِّ** دون ذلك كتَكْثِيْرِ الْقَلِيْلِ، والحديثِ عن بعضِ الْمُسْتَقبلِ وأَمْثَالِهِ ممَّا هو قاصِرٌ عن تَصْرِيْفِ الأنبياء، ويأتي النَّبيُّ بجميعِ خوارقِهِ ولا يَقْدِرُ هو على مثلِ خَوارِقِ الأنْبِيَاء، وقد قرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصوِّفَةُ فيمَا كَتَبُوْهُ في طَرِيْقَتِهِمْ، ولقنوهُ عمَّنْ أَخْبَرَهُمْ.

وَإذَا تقرَّرَ ذلك فاعْلَمْ أَنَّ **أعْظَمَ المعجزاتِ** وأشرفها، وأوضحها دلالةً: **الْقُرْآنُ الْكرِيمُ**، المنزَّلُ على نبيِّنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. فَإنَّ الخوارقَ في الغالبِ تقعُ مُغَايرةً للوحي الَّذي يتلقَّاهُ النَّبيُّ، ويأتي بالمعجزةِ شَاهدةً بصدقه.

والقُرآنُ هو بنفسهِ الوحيُ الْمُدَّعى. وهو الخارقُ المعجزُ، فَشَاهِدُهُ في عَينهِ، ولا يفتقرُ إلى دليلٍ مُغَايرٍ لَهُ كَسَائِرِ المعجزاتِ معَ الوحي. فهو أوضحُ دلالةً لاتِّحادِ الدَّلِيْلِ والْمَدْلُوْلِ فيه. وهذا معنى قولهِ صلى الله عليه وسلم: «**مَا مِنْ نبيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إلاَّ وَأُوْتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمنَ عَلَيْهِ الْبَشَر، وَإنَّما كان الَّذي أوتيتهُ وحياً أُوحِيَ إليَّ، فأنا أرجو أن**

أكونَ أكثرهم تَابعاً يومَ الْقِيَامَةِ»[١]. يُشِيرُ إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المَثابة في الوضوحِ وَقُوَّة الدَّلالةِ، وهو كونها نفس الوحي، كان الْصَّدْقُ لها أكثرَ لوضوحها، فكَثُرَ المُصَدِّقُ المؤمن، وهو التَّابعُ والأمةُ.

وَلْنذكر الآنَ **تفسير حقيقة الْنُّبُوَّةِ** على ما شرحهُ كثيرٌ من المحققين، ثم نذكر **حقيقة الْكَهَانَةِ، ثُمَّ الرُّؤيَا ثم شأن العرَّافِينَ وغير ذلك من مداركِ الغيبِ** فنقولُ:

اِعْلَمْ: أَرْشَدنا الله وَإِيَّاكَ أَنَّا نُشَاهدُ هذا العالَم بما فيه من المخلوقات كلِّهَا على هيئة من التَّرْتِيبِ والإحكام، وربط الأسبابِ بالمُسَبَّبَاتِ، واتِّصَالِ الأكوان بالأكوَانِ، وَاسْتِحَالَةِ بَعْضِ الموجودَاتِ إلى بعض، لا تنقَضِي عجائبُهُ في ذلِكَ ولا تنتهي غَايَاتُهُ.

وَأَبْدَأُ من ذلك بالعالَم المَحسُوسِ الجسمَانِيِّ.

وَأَوَّلاً: عالمُ العَنَاصِرِ الْمُشَاهَدَةِ كيفَ تدرَّجَ صَاعداً من الأرض إلى الماء، ثمَّ إلى الهواء، ثمَّ إلى النَّار مُتَّصلاً بعضها ببعضٍ، وكلٌّ واحدٍ منها مستعدٌّ إلى أن يستحيل إلى ما يَليه صَاعداً وهَابطاً، ويستحيلُ بعضَ الأوقات.

والصَّاعدُ منها ألطفُ ممَّا قبلهُ إلى أن ينتهي إلى عالمِ الأفلاكِ، وهو ألطَفُ منَ الكُلِّ على طبقاتٍ اتَّصلَ بعضها ببعضٍ على هيئةٍ لا يدركُ الحسّ منها إلا الحركَاتِ فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذَّواتِ الَّتِي لها هذه الآثار فيها.

ثُمَّ انظُر إلى **عالمِ التَّكوين** كيفَ ابتدأَ من المعادِنِ، ثُمَّ النَّبَاتِ، ثم الحيوان على هيئة بديعة من التَّدريجِ. **وآخرُ أُفقِ المَعَادن مُتَّصل بأوَّل أفق النَّباتِ**[٢] مثلَ الحَشَائِشِ، ومَا لا بَذْرَ لهُ، وآخرُ أُفقِ [ظ٢/٣٨] النَّبَاتِ مثلَ النَّخلِ وَالْكَرْمِ مُتَّصِلٌ بأوَّلِ أُفُقِ الحَيَوانِ، مثل الحَلَزُونِ والْصَّدَفِ، ولم يوجد لهما إلاَّ قوَّةُ اللَّمْسِ فَقَطُ.

---

١ - رواه البخاري (٤٩٨١ و٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢) عن أبي هريرة. وانظره في تفسير ابن كثير سورة البقرة الآية ٢٤. (١/٦٥).

٢ - في رسائل إخوان الصفا (١٤٣/٢): واعلم يا أخي بأن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان كما أن أول المرتبة النباتية متصل بآخر المرتبة المعدنية وأول المرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء.

ومعنى الاتِّصال في هذه المُكَوَّنات، أنَّ آخرَ أفق منها مُسْتَعدٌّ بالاستعداد الْقَريب[1] **لأن** يَصيْرَ أوَّل أُفق الَّذي بعدَهُ، واتَّسعَ عالمُ الحَيَوَان وَتَعَدَّدت أنواعَهُ وَانتهى في تدريجِ التَّكوين إلى الإنسان صَاحب الفكر والرَّويَّة، ترتَفعُ إليهِ من **عالمِ القُدْرَة**[2] الَّذي اجتمع فيه الحسُّ والإدراكُ ولم ينتهِ إلى الرَّوِيَّةِ والفكَرِ بالفعل، وكان ذلك أوَّلَ أُفقِ الإنسانِ بعدهُ **وهذا** غايةُ شُهودنا.

ثمَّ إنَّا نجدُ في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة. ففي **عالمِ الحسِّ** آثارٌ من حَرَكَات الأفلاكِ والعَنَاصر. وفي عالم التَّكوين آثارٌ من حركة النُّمُوِّ والإدراك، تشهدُ كُلُّها بأنْ لها مؤثِّراً مبايناً للأجسامِ فهو روحانيٌّ، ويتصل بالمكونات لوجود اتِّصَال هذا العالمِ في وجودها، ولذلك هو النَّفسُ المدركة والمحركة، ولا بد فوقها من وجود آخرَ يعطيها قوى الإدراك والحركة، ويتَّصلُ بها أيضاً، ويكونُ ذاتُهُ إدراكاً صرْفاً وتَعَقُّلاً، وهو مَحضاً، وهو **عالمُ الملائكة**، فوجبَ من ذلك أن يكون للنَّفْسِ اسْتعْدَادٌ للإنسلاخ من الْبشَرِيَّة إلى الْمَلَكيَّة ليَصيْرَ بالفعل من جنْسِ الملائكة وَقتاً من الأوقات، في لمحة من اللَّمحات، وذلك بعدَ أَنَ تكمَلَ ذاتها الرُّوْحَانيَّةُ بالفعلِ كما نذكرُهُ بعدُ، ويكونُ لها اتِّصالٌ بالأُفقِ الَّذي بعدها شأن الموجودات المرتَّبَة كما قدَّمناهُ، فلها في الاتِّصَال جهتَا العُلُوِّ والسُّفْل، وهي مُتَّصلةٌ بالبدن من أسفلَ منها، وتكتسبُ به المَدارِكَ الحسِّيَّةَ التي تستعدُّ بها للْحُصُول على التَّعقُّلِ بالْفعْل، وَمُتَّصلة من جهة الأعلى منها بالأفق المَلائكة، ومكتسبةٌ به المَدارِكُ العلْميَّة وَالْغَيْبيَّة؛ فَإنَّ **عالمَ الحَوادث** موجودٌ في تعقلاتهم من غير زمانٍ، **وهذا** على ما قدَّمناه من التَّرتيبِ المُحكم في الوجودِ باتِّصَالِ ذواته وقواهُ بعضها ببعضٍ.

---

١ - في ن: الغريب.خطأ. قال الجابري (ص٤٣٧): الاستعداد القريب والاستعداد البعيد: معناه، كون الشيء يحتمل التحول إلى شيئين، ولكن هناك عامل يرجع تحوله إلى أحدهما دون الآخر، وحينئذ يكون ذلك الشيء، مستعداً بالاستعداد القريب ليصير هذا ولا يكون ذاك فالماء مثلاً فيه استعداد لأن يصير بخاراً أو ثلجاً، ولكن وجود الحرارة يجعله مستعداً بالاستعداد القريب لأن يصير بخاراً، وبالاستعداد البعيد ليتحول ثلجاً، الغزالي مقاصد الفلاسفة (ص٣٢٩). وأحياناً يستعمل ابن خلدون الاستعداد الطبيعي بمعنى الاستعداد القريب.

يستعمل ابن خلدون هذا المصطلح خاصة عند حديثه عن مراتب الوجود واتصال الأكوان بعضها بعض: ومعنى الاتصال في هذه المكونات الموجودات الحادثة، إن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذي يليه.

٢ - هكذا في جميع النسخ، وفي نسخة الدكتور وافي: (القردة) وينطلق منها إلى مناقشة قيمة لنظرية النشوء والارتقاء عند مفكري المسلمين وغيرهم.

ثُمَّ إنَّ هذه النَّفس الإنسانية غائبةٌ عن العيَان، وآثَارهَا ظاهرةٌ في البدنِ، فكأنَّهُ وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقةً آلاتٌ للنَّفْسِ ولقوَاهَا.

أمَّا **الفَاعلِيَّةُ** فالبطشُ باليدِ، والمَشْيُ بالرِّجلِ، والكلامُ باللِّسَانِ، والحركةُ الكُلِّيَّةُ بالبدنِ مُتَدَافعاً.

وأمَّا **المدركةُ**، وإن كانت قُوى الإدْرَاك مُرَتَّبَةً وَمُرْتَقِيَةً إلى الْقُوَّة الْعُلْيَا منها وهي **المُفكِّرَةُ** الَّتي يُعَبَّرُ عنها بالنَّاطقَة فقوى الحسِّ الظَّاهر بآلاته من السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائرهَا يرتقي إلى الباطنِ، وَأَوَّلُهُ **الحَسُّ المشترك**، وهو قوَّةٌ تُدرِكُ المحسوسَات مُبْصَرَةً وَمَسْمُوْعَةً وَمَلْمُوْسَةً وَغَيْرَهَا في حالة وَاحِدَة، وبذلك فارقت قوةَ الحسِّ الظَّاهرِ؛ لأنَّ المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد، ثُمَّ يُؤَدِّيه الْحسُّ الْمُشْتَرِكُ إلى **الخَيَال**، وهي قُوَّةٌ تُمَثِّلُ الْشَّيءَ المحسوسَ في النَّفْسِ، كمَا هو مُجَرَّدٌ عن المَوَاد الْخَارِجَة فَقَطُ.

وَآلَةُ هَاتَيْنِ القُوَّتَين في تَصْرِيْفهمَا: الْبَطْنُ الأَوَّلُ منَ الْدِّمَاغ [ظ٣٩/١] مُقَدَّمُهُ للأولى ومؤخَّرُهُ للثَّانية، ثُمَّ يرتقي الخيالُ إلى **الواهمة والحافظة**. **فالواهمةُ** لإدْرَاك المعاني المُتعَلِّقة بالشَّخصيات، كعداوة زيد وَصَدَاقة عمرو ورَحْمَة الأَب وافْتِرَاسِ الْذِّئب. **وَالْحَافظَةُ** لإِيْدَاعِ المُدْرَكَات كُلِّهَا مُتَخَيِّلَةً، وهي لها كالخزانة تحفظها لوقت الحاجة إليها، وآلةُ هَاتَين القوَّتين في تصريفهما: البطنُ المُؤخَّرُ من الدِّمَاغِ؛ أَوَّلُهُ **للأولى**، ومؤخَّرُهُ للأُخرى. ثمَّ تَرْتقي جميعها إلى قوة الفكر، وآلته البطن الأوسط منَ الْدِّمَاغِ، وهي القوة الَّتي يقعُ بها حركة الْرُّؤْيَة والْتَوَجُّه نحوَ الْتَّعَقُّلِ فَتُحَرَّكُ النَّفسُ بها دائماً لما رُكِّبَ فيها منَ النُّزوعِ للتَّخلُّصِ من دَرَكِ القوة والاستعداد الَّذي للبشريَّة، وتخرجُ إلى الفعل في تعقلها متشبهة بالملإ الأعلى الرُّوحاني، وتصيرُ في أوَّلِ مراتبِ الرُّوحَانيَّات في إدراكها بغير الآلات الجسْمَانيَّة، فهي متحرِّكةٌ دائماً ومتوجِّهَةٌ نحوَ ذلكَ. وقد تنسلخُ بالكُلِّيَّة من البشرية وروحانيتها إلى الملكيَّة من الأُفُقِ الأعلى من غير اكتسابٍ بَلْ بما جعل الله فيها من الْجِبِلَّةِ والفطرةِ الأولى في ذلك.

وَالْنُّفُوْسُ الْبَشَرِيَّةُ على ثَلاثَة أَصْنَاف:

صِنْفٌ عاجزٌ بالطَّبعِ عن الْوُصُول إِلى الإدراك الروحاني، فينقطعُ بالحركة إلى الجهة الْسُّفْلَى نحوَ المَدَارِك الْحِسِّيَّة والخيَاليَّة، وتركيب المَعَاني من الحَافِظَة وَالْوَاهِمَة، على قوانين محصورةٍ وترتيبٍ خاصٍّ، يستفيدونَ به العلومَ الْتَّصَوُّرِيَّةَ وَالْتَّصْدِيْقِيَّةَ التي لِلْفِكْرِ في البدنِ،

وكلها خيالِيٌّ منحصرٌ نطاقهُ إذ هو من جهةِ مبدئهِ ينتهي إلى الأَوَّلِيّاتِ ولا يَتجاوَزُهَا، وإن فسد فسدَ مَا بعدها، وهذا هو في الأغلبِ نطاقُ الإدْراكِ الْبَشَرِيِّ الْجسْمَانِيِّ، وإليه تَنتهـي مَدارِكُ الْعُلَمَاء، وفيه ترسَخُ أَقْدَامُهُمْ.

وَصِنْفٌ مُتَوَجِّهٌ بتلك الحركة الفِكريَّةِ نحوَ العقلِ الرُّوحاني، والإدراكِ الَّذي لا يفتقر إلى الآلاتِ البَدَنيَّةِ، بما جعل فيه من الاستعداد لذلك. فيتَّسع نطاقُ إدراكه عن الأوَّليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشريِّ، ويسرحُ في فضاء المُشَاهداتِ البَاطِنِيَّةِ، وهـي وجـدانٌ كُلُّهَا، لا نطاقَ لها من مبدئها ولا من مُنْتَهَاها، وهذه مدارِكُ الْعُلَمَـاءِ الأولِيَـاءِ أهـلِ الْعُلـوْمِ الدِّيْنِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرَّبَّانيَّةِ، وهي الحَاصِلَةُ بعد الموتِ لأهْلِ السَّعادةِ في الْبرزَخِ.

وَصِنْفٌ مفطورٌ على الانْسِلاخِ من البشريَّة جُملة جسـمانِيَّتِها وروحانِيَّتِهَـا إلى الملائكـةِ من الأفْقِ الأعلى ليصيرَ في لمحةٍ من اللَّمحاتِ ملكاً بالفعلِ، ويحصلُ له شـهودُ الملإِ الأعلـى في أفقهم وسَماعُ الكلامِ النَّفْسَانِيِّ والخطابِ الإلهيِّ في تلكَ اللَّمحةِ.

وهؤلاء **الأنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ ا للهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ**، جَعَلَ ا للهُ لَهُمْ الانْسِلاَخَ من الْبَشَرِيَّةِ في تِلْكَ اللَّمْحَةِ، وهيَ حالةُ الْوَحِي فِطْرَةٌ فطرهمُ ا للهُ عليها وجبلَّةٌ صَوَّرهمُ فيها، ونزَّههم عن موانِعِ البَدَنِ وعوائقهِ ما داموا ملابسينَ لها بالبشرية بمـا رُكِّبَ في غرائزهـم مـنَ الْقَصْـدِ[1] والاستقامةِ الَّتي [ظ٢/٣٩] يحاذون بها تلك الوجهةَ، وركَّزَ في طبـائعهم رغبـةً في العبـادةِ تُكْشَف بتلك الوجهةِ وَتَشِيْعُ[2] نحوهَا، فهم يتوجهون إلى ذلــك الأُفــق بذلـك النَّـوعِ مـن الانْسِلاخِ متى شـاؤوا بتلـك الفطـرة الـتي فطـروا عليهـا، لا باكتسـابٍ ولا صناعـةٍ. فـإذا توجهوا وانسلخوا عن بشريَّتهم وتلقَّوا في ذلك المَلأ الأعلـى مـا يتلقونـهُ، عـاجوا بـه علـى المَدارِكِ البَشَرِيَّة مُنَزّلاً في قواها لحكمة التَّبليغِ للعبادِ، فتارةً يسمعُ أحدهم دويّـاً كأنَّـهُ رمزٌ من الكَلام يأخذُ منه المعنى الذي أُلقي إليه فلا ينقضي الدَّويُّ إلا وقدْ وعاهُ وفهمه. وتـارةً يتمثَّلُ لهُ المَلَكُ الذي يُلقِي إليه رجلاً، فيكَلِّمُهُ ويعي ما يقولهُ. والتَّلَقِّي من المَلَكِ والرُّجـوعِ إلى المَدارِكِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَهْمُهُ ما أُلقِيَ عليه كُلُّهُ كأنَّـهُ في لحظـةٍ واحـدةٍ، بـل أقـربُ مـن لمح

---

١ – أي: الاعتدل والتوسط.

٢ – في جميع النسخ: (تسيغ) وما أثبتناه من منشورة وافي، وهـو أقـرب إلى الصواب وإلى سياق أسلوب ابـن خلدون في هذه الفقرة.

البصر لأنه ليس في زمان، بل كلها تقعُ جميعاً فيظهرُ كأنَّها سريعةٌ ولذلك سُمِّيَتْ **وَحياً** لأنَّ الوَحيَ لُغةً الإسْرَاعُ.

واعْلَمْ أَنَّ **الأوْلَى** وهي **حالةُ الْدَّويِّ** هيَ رُتْبَةُ **الأَنْبِيَاء غير الْمُرْسَلِيْنَ** على مَا حَقَّقُوهُ. **وَالثَّانِيَةُ** وهيَ حَالَةٌ تمثُّلُ الْمَلكَ رجلاً يُخاطبُ، هي رُتْبَةُ **الأنبياء الْمُرْسَلِيْنَ**، وَلِذَلك كانت أكمل من الأُولى. وهذا معنى الحديثِ الذي فَسَّرَ فيه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الْوَحيَ، لَمَّا سأله الحَارثُ بن هِشَام وَقَالَ: كَيْفَ يَأْتيكَ الْوَحْيُ؟ فقَالَ: «**أحْيَانَاً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وهوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي**[1]**، وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**»[2]. وإنما كانت الأولى أشدَّ، لأنها مبدأ الخروجِ في ذلك الاتِّصَال من القوَّةِ إلى الفعل، فيعسرُ بعضَ العُسْر، ولذلك لما عَاجَ[3] فيها على الْمَدَاركِ البشريَّةِ اختصَّت بالسَّمعِ وَصَعُبَ مَا سِواهُ، وعندَما يتكرَّرُ الوحيُ ويكثرُ التَّلقي يسهلُ ذلكَ الاتصال، فعندما يعرجُ إلى المدارك البشريَّةِ يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضحُ منها، وهو إدراكُ البَصَرِ، وفي العبارةِ عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي، وفي الثَّانيةِ بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي: أن الكلام جاء مجيء التَّمثيل لحالتي الوحي، فمثَّلَ الحالةَ الأولى بالدَّويّ الَّذي هو في الْمُتَعَارَفِ غيرُ كلامٍ، وأخبرَ أنَّ الفهم والوَعيَ يَتْبَعُهُ غِبَّ[4] انْقِضَائِهِ، فناسبَ عند تصوير انْقِضائه وانفصالهِ العبارةَ عن الوعي بالماضي المطابقَ للانقضاءِ والانقطَاعِ، ومثَّلَ الملكَ في الحالةِ الثَّانيةِ برجُلٍ يُخاطبُ ويتكلَّمُ، والكلامُ يُسَاوقهُ[5] الْوَعيُ فَنَاسَبَ الْعِبَارَةَ بالْمُضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّجدُّدِ.

واعْلَمْ أَنَّ في حالةِ الْوَحيِ كُلِّهَا صُعُوْبَةً على الْجُمْلَةِ وَشِدَّةً. قَدْ أَشَارَ إليها الْقُرْآنُ، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيْلاً﴾[المزمل: ٥]. وقالت عائشة: «**كان مما يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً**»[6]، وقَالَت: «**كانَ ينزَّلُ عليه الوَحيُ في اليومِ الشَّدِيْد الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ**[7]

---

١ - أي: يفارقني.

٢ - مر.

٣ - أي: اعتمد عليها.

٤ - أي: بعد انقضائه.

٥ - أي: يُسَايره ويكون معه.

٦ - مر.

٧ - أي: يُفارقه.

عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينهُ لَيَتَفَصَّدُ عرَقـاً»[١]. ولذلـك كـان يحدث عنـه في تلـك الحالـةِ مـن الغيبـةِ والغطيط، ما هـو معروفٌ. **وسببُ ذلـك**: أنَّ **الوحـيَ** كمـا قررنـاه مفارقـة [ظ٤٠/١] البشريَّةِ إلى المداركِ الملكيَّةِ، وتَلَقي كلام النَّفسِ فيحدُثُ عنه شِدَّة من مُفَارَقَةِ الذَّاتِ ذَاتَهـا وانْسِلاَخَهَا عنها من أُفقها إلى ذلك الأفق الآخر، وهذا هو معنـى **الغَـطّ** الَّـذي عَبَّر بـه في مبدإ الْوَحي في قوله: «**فَغطَّنِي حتَّى بلغَ منِّي الجَهدَ، ثم أرسلني فقال: اقْرَأْ، فقلتُ: ما أنا بقَارِىء، وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً**»[٢]. كما في الحديث.

وقد يُفضي الاعتيادُ بالتَّدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعـض الْسُّـهولةِ بالقيـاسِ إلى مـا قبلـهُ، ولذلك كان تنزُّلُ نُجُومِ[٣] الْقُرْآنِ وسورهِ وآيهِ حينَ كان بمكَّة أقصر منهـا وهـو بالمدينـةِ. وانظرْ إلى ما نقلَ في نزول سورة براءَة في غزوةِ تبوكَ، وأنها نزلت كلَّهـا أو أكثرهـا عليـه وهو يسير على ناقته، بعد أن كان بمكَّةَ يـنزَّلُ عليـه بعـضُ السُّـورةِ مـن قِصَـارِ المفصَّـلِ في وقتٍ، ويُنزَّلُ الْبَاقِي في حينٍ آخرَ. وكذلك كان آخرُ ما نَـزَلَ بالمدينـةِ آيَـةَ الْدَّيْـنِ [سـورة البقرة: ٢٨٢]، وهـي مـا هـيَ في الطُّـوْلِ بعـد أن كـانت الآيـةُ تُـنزَّلُ بمكـة، مثـل آيـات: ﴿الرحمنِ﴾ و﴿الذَّارِيَاتِ﴾ و﴿الْمُدَّثِّـرِ﴾ و﴿الْضُّحـى﴾ و﴿الْفَلَـقِ﴾ وأمثالهـا. واعتـبر مـن ذلك **علامة تميِّزُ بها بين المَكِّي والمدنِيِّ من الْسُّوَرِ والآيـاتِ**، واللهُ المرشـدُ إلى الصـواب.

هذا مُحَصَّلُ **أمر الْنُّبُوَّةِ**.

وَأَمَّا الْكِهَانَةُ: فهي أيضاً من خواصّ الْنَّفْسِ الإنْسَانِيَّةِ، وذلك أنَّهُ قد تقـدَّمَ لنـا في جميـعِ ما مرَّ، أن للنَّفسِ الإنسانية استعداداً للانسلاخِ من البشرية إلى الْرُّوحانية التي فوقهـا، وأنـه يحصُلُ من ذلك لمحَةٌ للبشرِ في صنفِ الأنبياء بما فُطِرُوا عليه من ذلك، وتقرّر أنه يحصلُ لهـم من غير اكتسابٍ ولا استعانةٍ بشيءٍ من المداركِ ولا من التَّصَوُّراتِ ولا من الأفعال البدنيـة كلاماً أو حركةً ولا بأمرٍ من الأمورِ. إنما هو انسلاخٌ مـن البشـريَّةِ إلى المَلَكِيَّـةِ بـالفطرَةِ في لَحظَةٍ أقربَ من لمحِ الْبَصَرِ.

وَإِذَا كانَ كَذَلِكَ وكان ذلك الاستعدادُ موجوداً في الطبيعة البشـرية، **فيُعطي التَّقسيم العقليُّ**، أَنَّ هُنَا صِنفاً آخرَ منَ الْبَشَرِ ناقصاً عن رتبةِ الصِّنْفِ الأَوَّلِ نُقْصَانَ الضدِّ عن ضـدهِ

---

١ - مر.

٢ - رواه البخاري (٣ و٣٣٩٢ و٤٩٥٣ و٤٩٥٥ و٤٩٥٦ و٤٩٥٧ و٦٩٨٢) عن عائشة أم المؤمنين.

٣ - أي: متفرقاتٍ.

الكاملِ؛ لأنَّ عدمَ الاستعَانَة في ذلك الإدرَاك ضدُّ الاسْتعَانة فيه وشتَّانَ ما بينهما، فإذا أُعطيَ تقسيمُ الوجودِ إلى هَنا صنفاً آخرَ منَ البشرِ مفطوراً على أن تتحرَّكَ قوَّتُهُ العقلية حركتها الفكريَّة بالإرادة عندما يبعثها النُّزوع لذلك، وهيَ ناقصةٌ عنه بالجبلة، فيكون لها بالجبلَّة عندما يعوقُها العجَزُ عن ذلك تشبُّثٌ بأمورِ جزئية محسوسة أو متخيَّلة، كالأجسامِ الشَّفَّافَة، وعظَام الحيوانات، وسجعِ الكلامِ، وما سَنَح من طير أو حيوان، فيستديمُ ذلكَ الإحساس أو التَّخيل مستعيناً به في ذلكَ الانْسلاخِ الذي يَقصُدُهُ، ويكونُ كَالْمُشَيِّعِ لهُ، وهذه القُوَّةُ التي فيهم مبدأٌ لذلكَ الإدْرَاك، هي الكهانَةُ.

ولكون هذه النُّفُوسِ مفطورةً على النَّقْصِ والقُصورِ عنِ الكمَال، كانَ إدراكها في الجزئيات أكثرَ منَ الكُلِّيَّات، وتكون متشبثة بها [ظ٤٠/٢] غافلة عن الكليات؛ ولذلك تكونُ المَخيَّلةُ فيهم في غايةِ القُوَّة، لأنَّها آلةُ الْجُزْئيَّات فتنفذُ فيْهَا نُفُوذاً تامّاً في نوم أو يقظة، وتكونُ عندها حاضرةً عتيدةً تحضرها المُخيِّلةُ، وتكونُ لهَا كالمرآة تنظرُ فيها دائماً، ولا يَقوى الكاهنُ على الكمَال في إدراك المعقولات، لأنَّ وَحيهُ من وحي الشَّيطان، وأرفعُ أحوالِ هذا الصِّنْف أن يستعينَ بالكلامِ الَّذي فيه السَّجْعُ وَالْمُوازَنَةُ، ليشتغلَ به عن الحواسِّ ويقوى بعضَ الشيءِ على ذلك الاتِّصَالَ النَّاقص، فيهجسُ في قلبه عن تلك الحركة، والَّذي يُشيِّعُهَا من ذلك الأجنبيِّ ما يقذفُهُ على لسَانه فرُبَّمَا صَدَقَ ووافقَ الحقَّ، ورُبَّمَا كَذَبَ لأنَّهُ يتمِّمُ نقصهُ بأمرٍ أجنبيٍّ عن ذاته المدركَة، ومباينٍ لها غير ملائم، فيعرضُ له الصِّدْقُ والكذبُ جميعاً، ولا يكونُ موثوقاً به، ورُبَّما يفزعَ إلى الْظُّنُوْنِ والتَّخمينَاتِ حرْصاً على الْظَّفرِ بالإدْرَاك بزَعْمه، وتَمْويهاً عَلَى الْسَّائلِيْنَ.

وأَصْحَابُ هَذَا السَّجعِ هَمُ الْمَخصُوْصُوْنَ باسْمِ الْكُهَّان لأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائرِ أَصْنَافهِمْ، وقد قَالَ صلى الله عليه وسلم في مثْله: «**هَذَا مِنْ سَجْعِ الْكُهَّانِ**»[1]. فجعلَ السَّجعُ مختصّاً بهم بمقتضى الإضافَة، وقد قال لابْنِ صَيَّاد حيْنَ سَأَلَهُ كَاشفاً عن حاله بالإخبَار: «**كَيْفَ يَأْتيْكَ هَذَا الأَمْرُ؟**» قَالَ: يَأْتيْني صَادقاً وَكَاذباً. فَقَالَ: «**خُلطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ**»[2]. يعني: **أنَّ**

---

١ - أخرجه البخاري (٥٤٢٦ و٥٤٢٧ و٦٣٥٩ و٦٥٠٨ و٦٥١١ و٦٥١٢) ومسلم (١٦٨١) عن أبي هريرة بلفظ: إنما هذا من إخوان الكهان. من أجل سجعه الذي سجع.

وأخرجه البخاري (٦٥٠٩) و(٦٥٠١ و٦٨٨٧) ومسلم (١٦٨٢) من حديث المغيرة بن شعبة بلفظ: أسجع كسجع الأعراب.

٢ - أخرجه مسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر عن عمر.

النُّبوة خاصَّتُها الصِّدقُ فلا يَعتريها الكذبُ بحال، لأنها اتِّصال من ذات النَّبيِّ بالمَلإِ الأَعْلَى من غير مُشيِّعٍ ولا استِعَانَةٍ بأَجْنَبيٍّ، وَالْكَهَانَةُ لماَّ احْتَاجَ صَاحِبُهَا بسَبَبِ عجزهِ إلى الاسْتِعَانَةِ بالتَّصوُّرَاتِ الأَجْنَبيَّة، كانت داخلةً في إدراكه، والتبست بالإدراكِ الَّذِي توجَّهَ إليه فصَارَ مختلطاً بها وطرقهُ الكذبُ من هذه الجهةِ فامتنعَ أن تكون نُبُوَّةً، وإنما قُلنا إنَّ أرفعَ مراتبِ الكهانةِ حالةُ السَّجعِ، لأنَّ معنى السَّجْعِ أخفُّ من سَائرِ المُغيَّباتِ من الْمَرْئِيَّاتِ وَالْمَسْموعاتِ. وَتَدلُّ خِفَّة المعنى على قربِ ذلك الاتِّصَالِ وَالإدراكِ، والبعدِ فيه عن العجز بعضَ الشَّيء.

وقد زَعَمَ بعض النَّاسِ أنَّ هذهِ الكَهَانَةَ قدِ انْقَطَعت منذ زمنِ النُّبوَّةِ بما وقعَ من شأن رجمِ الشَّيَاطِيْنِ بالْشّهُبِ بينَ يدي الْبعثَةِ، وأنَّ ذلك كان لمنعهم من خبرِ السَّماء كما وقعَ في القرآنِ [سورة الجنِّ: ٩]. والْكُهَّانُ: إنما يتعرفون أخبار السَّماء من الشَّياطين فبطلت الكهانة من يومئذٍ. ولا يقومُ من ذلك دليلٌ؛ لأن علوم الكهَّانِ كما تكونُ من الشَّيَاطينِ تكونُ من نُفُوسهم أيضاً، كما قَرَّرْنَاهُ.

وأيضاً: فالآيةُ إنما دلَّت على منعِ الشَّيَاطينِ من نوعٍ واحدٍ من أخبارِ الْسَّماءِ، وهو ما يتعلَّقُ بخبرِ البعثَةِ، و لم يمنعوا ممَّا سوى ذلك.

وأيضاً: فإنما كان ذلك الانقطاعُ بينَ يَدَي النُّبوَّةِ فقط، ولعلَّهَا عادَتْ بعدَ ذلك إلى ما كَانت عليهِ، وهذا هو الظَّاهِرُ؛ لأنَّ هذه الْمَدَارِكَ كُلَّهَا تخمدُ في زمنِ النُّبوَّةِ، كما تَخْمَدُ الْكَوَاكِبُ وَالسُّرُجُ عندَ وجودِ الْشَّمْسِ، لأنَّ النُّبوَّةَ هي [ظ١/٤١] النُّورُ الأعظَمُ الَّذي يَخْفَى معه كلُّ نور ويذهبُ.

وقد **زعمَ** بعضُ الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة، ثم تنقطعُ. وهكذا كل نبوةٍ وقعت، لأن وجود النُّبوةِ لا بدَّ له من وضعٍ فلكيٍّ يقتضيه، وفي تمام ذلك الوضعِ تمامُ تلكَ النُّبوة التي دلَّ عليها، ونقصُ ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجودَ طبيعةٍ من ذلك النوع الَّذي يقتضيه ناقصةً، وهو معنى **الكاهن** على ما قررناه. فقبلَ أن يتمَّ ذلك الوضعُ الكاملُ يقعُ الوضعُ النَّاقِصُ ويقتضي وجودَ الكَاهِنِ؛ إما واحداً، أو متعدداً، فإذا تمَّ ذلك الوضعُ تمَّ وجودُ النَّبيِّ بكمالهِ، وانقضت الأوضاعُ الدَّالَّةُ على مثل تلك الطبيعةِ، فلا يوجدُ منها شيءٌ بعد، وهذا بناءً على أنَّ بعض الوضعِ الفَلَكيِّ يقتضي بعض أثره وهو غيرُ مُسَلَّمٍ، فلعَلَّ

الْوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذلك الأثرَ بهيئَتِهِ الْخَالِصَةِ، ولو نَقَصَ بعضُ أجزائها فلا يقتضي شَيئاً لا إنَّهُ يقتضي ذلك الأثرَ نَاقِصاً كما قَالُوهُ.

ثُمَّ إنَّ هؤلاء الكُهَّان إذا عاصروا زمنَ النُّبوةِ فإنهم عارفونَ بصِدْق النَّبيِّ ودلالةِ معجزته، لأنَّ لهم بعضَ الوِجْدَان من أمْرِ النُّبوةِ، كما لِكُلِّ إنسانٍ من أمرِ النَّوْمِ[1]؛ وَمَعْقُولِيَّةُ[2] تلك النِّسْبَةِ موجودةٌ للكاهن بأشدّ مما للنَّائِم، وَلاَ يَصُدُّهُمْ عن ذَلِكَ وَيُوْقِعهم في التَّكْذِيْبِ إلا قُوَّةُ المَطَامِعِ في أَنَّهَا نُبوَّةٌ لهم، فيقعون في العِنَادِ كما وقعَ **لأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ** فإنَّهُ كانَ يطمعُ أن يَتَنَبَّأَ، وكذا وقعَ **لابنِ صَيَّاد وَلِمُسَيْلِمَةَ** وَغَيْرِهم، فإذا غلبَ الإيمانُ وانقطَعت تلك الأَمَاني آمنوا أحسنَ إِيْمَان، كما وقع **لِطُلَيْحَةَ الأَسَدِيّ وَسَوَادِ بنِ قَارِبٍ**، وكان لهما في الفتوحاتِ الإسلاميةِ من الآثَارِ الشَّاهِدَةِ بحُسْنِ الإيْمَان.

وَأَمَّا **الرُّؤيا**: فحقيقتها مطالعةُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ في ذاتها الرُّوْحَانِيَّةِ، لمحةً من صُورِ الْوَاقِعَاتِ، فَإنَّهَا عندما تكونُ رُوحانيَّةً، تكون صُورُ الوَاقِعَاتِ فيها موجودةً بالفعل، كما هو شأنُ الْذَّواتِ الرُّوحانيَّةِ كلِّهَا، وتصير روحانيةً بأن تتجرَّدَ عن المَوَادِّ الجِسْمَانِيَّةِ، والمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ. وقد يَقعُ لها ذلك لمحةً بسببِ النَّوْمِ كما نذكُرُ فتقتبسُ بها علم ما تتشوَّفُ إليه منَ الأمورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وتعودُ به إلى مدارِكها، فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جليٍّ بالمحاكاةِ والمثال في الخيال لتلخُّصهِ[3]، فيحتاجُ من أجل هذه المحاكاة إلى التَّعبير، وقد يكون الاقتباسُ قويّاً يُسْتغنى فيه عن المحاكاةِ، فلا يحتاجُ إلى تعبيرٍ لخُلُوصِهِ من المثالِ والخيَال.

والسَّببُ في وقوعِ هذه اللَّمْحَةِ لِلنَّفْسِ: أَنَّها ذاتٌ رُوحانِيَّةٌ بالقُوَّةِ، مستكملةٌ بالبدن ومدارِكهِ، [ولا بد من تخلصها من البدن ومداركه] حتَّى تَصِيرَ ذاتُهَا تعَقُّلاً محضاً، ويَكملُ وجودها بالفعل، فتكون حينئذٍ ذَاتاً روحانيةً مدركةً بغير شيءٍ من الآلاتِ البدنيَّةِ إلا أنَّ نوعها في الرَّوحانيات دون نوعِ الملائكةِ أهلِ الأفقِ الأَعْلَى على الَّذِينَ لم يستكملوا ذواتهم بشيءٍ من مداركِ البدن ولا غيرِهِ، فهذا الاستعداد حاصلٌ لها [ظ٤١/٢] ما دامت في البدن، ومنه خاصٌّ كالّذِي للأولياءِ. ومنه عامٌّ للبَشَرِ على العموم وهو أمرُ الرُّؤيا، وأَمَّا

---

١ - في أكثر النسخ: اليوم. وما أثبتناه من منشورة الدكتور وافي.

٢ - في ن: معقوبية.

٣ - في ن: لتخلطه.

الَّذي للأنبياء فهو استعدادٌ بالانسلاخ من البشرية إلى المَلَكيَّةِ المحضَةِ التي هي أعلى الرَّوحانيَّاتِ، ويخرجُ هذا الاستعدادُ فيهم مُتكرِّراً في حالاتِ الوحي. وهو عندما يُعرجُ على المداركِ البدنيَّةِ، ويقعُ فيها ما يقعُ من الإدراكِ، يكونُ شبيهاً بحالِ النَّومِ شبهاً بيِّناً؛ وإن كان حال النَّومِ أدنى[1] منهُ بكثيرٍ؛ فلأجلِ هذا الشَّبَهِ عبَّرَ الشَّارعِ عن الرُّؤيَا بأنها: «**جُزْءٌ من سِتَّةٍ وَأربعينَ جُزءاً من النُّبُوةِ**»[2]. وفي رواية: «**ثلاثةٍ وَأَرْبَعِيْنَ**»[3]. وفي رواية: «**سبعين**»[4]. وليسَ العدد في جميعها مقصوداً بالذَّاتِ، وإنما المرادُ الكثرة في تفاوت هذه المراتب، بدليل ذكر السَّبعين في بعضِ طرقهِ وهو للتكثير عند العرب.

وما ذهبَ إليه بعضهم في رواية **ستَّة وأربعين** من أنَّ الوحيَ كان في مبدئهِ بالرُّؤيا ستَّة أشهُرٍ وهي نصفُ سنة، ومدَّة النبوة كلُّها بمكَّة والمدينة ثلاثٌ وعشرونَ سنَةَ، فنصفُ السَّنَةِ منها جزءٌ من سِتَّة وأربعين، فكلامٌ بعيد من التَّحقيق. لأنه إنما وقعَ ذلك للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم. ومن أين لنا أنَّ هذه المُدَّةِ وَقَعتْ لغيره من الأنبياء، مع أنَّ ذلكَ إنَّما يُعطي نِسبة زمنِ الرُّؤيا من زمنِ النُّبُوةِ، ولا يُعطي حقيقتها من حقيقةِ النُّبُوةِ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هَذَا مِمَّا ذكرناه أوَّلاً علمتَ أنَّ **معنى هذا الجزء** نسبةُ الاستعداد الأَوَّلِ الْشَّامِلِ للبَشَرِ إلى الاستعداد القريبِ الخَاصِّ بصِنْفِ الأنبياء الْفِطْرِيِّ لهُم، صلوَاتُ اللهِ علَيْهِم، إذ هُوَ الاستعدادُ البَعِيْدُ، وَإِنْ كَانَ عامّاً في الْبَشَرِ وَمَعَهُ عوائقُ وموانِعُ كَثِيْرَةٌ من حُصُوْلِهِ بالْفِعْلِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوانِعِ: الْحَوَاسُّ الْظَّاهِرَةُ فَفطَرَ اللهُ البَشَرَ على ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْحواسِّ بالنَّومِ الَّذِي هو جبليٌّ لهم، فتتعرَّضُ النَّفسُ عند ارْتِفاعِهِ إلى معرفةِ ما تَتَشَوَّفُ إليه في عالمِ الحَقِّ، فَتُدركُ في بعضِ الأحيَان منه لَمْحَة يكونُ فيها الْظَّفَرُ بالْمَطْلُوْبِ، ولذلكَ جعلها الْشَّارعُ منَ الْمُبَشِّراتِ، فقال: «**لَمْ يَبْقَ من النُّبُوةِ إلاَّ الْمُبَشِّراتُ، قَالُوا: وما الْمُبَشِّراتُ يا رَسُول اللهِ؟ قالَ: الْرُّؤْيَا الْصَّالِحَةُ يَرَاها الرَّجلُ الْصَّالِحُ، أو تُرى لهُ**»[5].

---

١ – في ن: (أدون).

٢ – رواه البخاري (٦٩٨٨) ومسلم (٢٢٦٣ و٢٢٦٤) عن أبي هريرة. ورواه البخاري (٦٩٨٧) ومسلم (٢٢٦٤) عن عبادة بن الصامت.

٣ – لم أجد هذه الرواية، وإن وجدت روايات أخرى تذكر (٤٠ و٤٥ و٥٠ و٦٠) وانظر شرح مشكل الآثار (٤١٣/٥ – ٤٢٢) وصحيح ابن حبان (٤٠٤/١٣ – ٤١٥).

٤ – رواه مسلم (٢٢٦٥) عن ابن عمر.

٥ – أخرجه البخاري (٦٩٩٠) عن أبي هريرة. ومسلم (٤٧٩) بنحوه عن ابن عباس.

وَأَمَّا **سَبَبُ ارتِفَاعِ حجابِ الحَوَاسِّ بالنَّوْمِ** فعلى مَا أَصِفُهُ لك؛ وذلك أن النَّفس النَّاطقة إنَّما إدراكها وأفعالها بالرُّوحِ الحيوانيِّ الجِسْمَاني، وهو بُخارٌ لطيفٌ مركزهُ بالتَّجويفِ الأيْسَرِ من الْقلْبِ على مافي كُتُبِ التَّشْرِيْحِ لِجَالِيْنوسَ وغيرِه، ويَنْبَعِثُ مع الدَّمِ في الْشَّرْيانَاتِ والْعُرُوْق، فيعطي الحِسَّ والحركة وَسَائِرَ الأفعال الْبَدَنِيَّةِ. وَيرْتَفِعُ لطيفهُ إلى الدِّماغِ، فيُعَدِّلُ من بردِهِ، وتتمُّ أفعالُ القُوى الَّتي في بُطُونِهِ. فالنَّفسُ النَّاطقةُ إنَّما تُدرك وتعقلُ بهذا الرُّوحِ الْبُخاريِّ، وهي متعلِّقةٌ بهِ لِمَا اقتضَتهُ حِكمةُ التَّكْوِيْنِ في أنَّ اللَّطِيْفَ لا يؤثِّرُ في الكثيفِ، ولَمَّا لطفَ هذا الرُّوحُ الحَيَوانيُّ من بينَ المَوادِّ الْبَدَنِيَّةِ [ظ٤٢/١] صَارَ مَحَلاًّ لآثَارِ الذَّاتِ المُباينةِ له في جسْمَانِيَّتِهِ وهي النَّفسُ النَّاطقةُ، وصارت آثارها حاصلةً في البدن بواسطته. وقد كنا قدَّمنا أنَّ **إدراكها على نوعين:**

إدراكٌ بالظَّاهر وهو الحواسُّ الخمسُ.

وإدراكٌ بالباطنِ، وهو القُوى الدِّماغيَّةُ.

وأنَّ هذا الإدراكَ كله صارفٌ لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الرُّوحانية التي هي مستَعِدَّةٌ له بالفطرةِ. ولَمَّا كانتِ الحواسُّ الظَّاهرةُ جسْمَانيَّةً، كانت مُعرَّضَةً للوسَنِ والفشلِ بما يُدركها من التَّعبِ والكلالِ وتغشي الرُّوح بكثرةِ التَّصرُّفِ، فخلقَ الله لها طَلَبَ الاسْتِجْمَامِ لتجرُّدِ الإدْرَاكِ على الصُّوْرَةِ الكاملةِ، وإنما يكونُ ذلك بانْخِنَاسِ[1] الرُّوْحِ الْحَيَوانِيِّ من الحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا، ورجوعه إلى الحِسِّ البَاطِنِ، ويُعينُ على ذلك ما يغشَى البَدَنَ من البردِ باللَّيلِ، فتطلُبُ الحرارةُ الغَرِيزيَّةُ أعماقَ البَدَنِ وتذهبُ من ظاهرهِ إلى باطِنِهِ فتكونُ مُشيَّعةً مركبها وهو الرّوحُ الحيوانيُّ إلى الباطنِ؛ ولذلك كان النومُ للبشرِ في الغالبِ إنما هو باللَّيْلِ. فإذا انْخَنَسَ الرُّوحُ عن الْحَواسِّ الظَّاهِرَة ورجَعَ إلى القُوى الباطنة، وخفَّت عن النَّفْسِ شَوَاغِلُ الْحِسِّ وَمَوَانِعُهُ، وَرَجَعَتْ إلى الصُّوْرَةِ الَّتي في الْحَافِظَةِ تمثَّلَ منها بالتَّرْكِيْبِ والتَّحْلِيْلِ صُوْرَةٌ خيالِيَّةٌ، وَأَكثرُ ما تكونُ مُعْتَادةً لأنَّها منتزعةٌ من الْمُدْرَكَاتِ المُتعاهَدَةِ قَرِيباً، ثُمَّ يُنزِّلُها الحسُ المُشْتَرَكُ الَّذي هو جامعُ الْحَوَاسِّ الْظَّاهِرَةِ فَيُدركها على أنحاءِ الحَوَاسِّ الخَمْسِ الْظَّاهِرَةِ.

وَرُبَّما التفتتِ النَّفسُ لفتةً إلى ذَاتِها الرُّوحَانيَّةِ مع منازعتها القُوى الْبَاطِنِيَّةَ، فَتُدْرِكُ بإدْرَاكِهَا الرُّوْحَانِيّ، لأنَّها مَفْطُورةٌ عليه. وتقتبسُ من صُوَرِ الأشياءِ التي صارت مُتعلِّقةً في

---

١ – أي تأخرها وتخلفها.

ذاتها حينئذٍ، ثم يأخذُ الخيالُ تلكَ الصُّورَ المُدركَةَ فيُمَثِّلها بالحقيقةِ أو المُحاكاةِ في القَوالِبِ المَعْهُوْدَةِ.

والمُحَاكَاةُ من هذه، هي المحتاجةُ للتَّعبيْرِ.

وتَصرُّفُها بالتَّرْكِيبِ وَالتَّحْلِيْلِ في صورِ الحافظةِ قبلَ أن تُدْرِكَ من اللَّمحةِ ما تدركُهُ، هي **أضْغاثُ أحْلامٍ**.

وفي الصَّحيحِ، أَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**الرُّؤْيَا ثَلاَثٌ: رُؤْيَا مِن اللهِ، وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلَكِ، وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ**»[١]. وهذا التَّفْصِيْلُ مُطابقٌ لما ذكرناهُ، **فالجَلِيُّ** من اللهِ، **والمحاكاةُ** الدَّاعِيَةُ إلى التَّعبيْرِ من المَلَكِ **وَأضْغَاثُ** الأَحْلاَمِ من الشَّيْطَانِ. لأنَّها كُلَّها بَاطلٌ، وَالشَّيْطَانُ يَنْبُوْعُ البَاطِلِ.

هَذِهِ **حَقيقةُ الرُّؤْيَا** ما يُسَبِّبُهَا وَيُشَيِّعُهَا مِنَ النَّوْمِ، وهي خواصٌّ لِلنَّفْسِ الإِنْسَانِيّةِ موجودَةٌ في البَشَرِ عَلَى العُمُوْمِ، لا يخْلُو عنها أحدٌ مِنْهُمْ. بَلْ كُلُّ وَاحدٍ مِنَ الأَنَاسِي رأى في نومِهِ ما صَدَرَ له في يَقظَتِهِ مراراً غيرَ واحدةٍ، وحصل له على القَطْعِ أنّ النَّفسَ مدركةٌ للغَيْبِ في النَّوْمِ [ولا القَطعِ أنَّ النَّفس مدركةٌ للغيب في النَّومِ] ولا بُدَّ. وإذا جازَ ذلك في عالم النَّومِ فلا يمتنعُ في غيرِهِ من الأحوالِ، لأنَّ الذات المُدركة واحدةٌ، وخواصُّهَا عامَّةٌ في كل حالٍ. والله الهادي إلى الحقِّ بمنِّه وفضلِهِ.

١-١-٦-١- فَصْلٌ

وَوُقُوْعُ مَا يَقَعُ من ذلك [ظ٢/٤٢] للبَشَرِ غالباً[٢]، إنَّما هو من غير قصد ولا قدرةٍ عليه. وإنَّما تكون النَّفْسُ مُتَشَوِّقةً لذلك الشيءِ، فيقعُ لها بتلك اللَّمحةِ في النومِ، لأنّها تقصدُ إلى ذلك فتراهُ.

وقد وقع في كتاب **الغَايَةِ**[٣] وغيرِهِ من كتب أهل الرِّياضيَّاتِ[٤] ذكر أسماء تُذكرُ عند النَّوْمِ، فتكون عنها الرُّؤيا فيما يتشوف إليه، ويسمونها **الحالُوميَّةَ**، وذكر منها **مَسْلَمةُ**[٥]

---

١ – لم أجده بهذا اللفظ، وإنما في مسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة: «الرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يُحدّث المرء نفسه». وفي ابن ماجة (٣٩٠٧) وابن حبان من حديث عوف بن مالك: «الرؤيا ثلاثة: منها تهويلٌ من الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يهمُّ به الرجل في يقظته، فرآه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

٢ – في المطبوع: ما يقع للبشر من ذلك غالباً.

٣ – غاية الحكيم – طبع ريتر ١٩٢٧. والقاهرة مكتبة الجمهورية العربية ١٩٥٥.

٤ – في ن: الرياضات.

في كتاب **الغَايَةِ** حالومةً سمَّاها **حالُوْمَةَ الطَّبَّاعِ التَّامِّ**، وهو أن يُقال عند النَّومِ بعد فراغِ السِّرِّ، وصحَّةِ التَّوجُّهِ، هذه الكلمات الأعجمية وهي: **تماغس بعدان يسواد وغداس نوفنا غادس**، ويَذْكُرُ حاجتهُ، فإنه يرى الكشفَ عمَّا يَسْأَلُ عنه في النَّوْمِ.

وحكي أنَّ رجلاً فعل ذلك بعد رياضةِ ليَالٍ في مأكله وذكره، فتمثَّلَ له شخص يقول لهُ: أنا طَبَّاعُكَ التَّامُّ فَسَألهُ وخبرهُ عمَّا كانَ يتشوَّفُ إليه.

وقد وقع لي أنا بهذه الأسماء مراء عجيبةٌ، واطَّلعتُ بها على أمور كنتُ أتشوَّفُ عليها من أحوالي. وليسَ ذلك بدليلٍ على أنَّ القصدَ للرُّؤيَا يُحدثها، وإنما هذه الحالُومَاتُ تحدث استعداداً في النَّفسِ لوقُوْعِ الرُّؤْيَا، فإذا قَوِيَ الاستعدادُ كان أقربَ إلى حُصُوْلِ مَا يُسْتَعَدُّ لهُ. وللشَّخصِ أن يفعل من الاستعداد ما أحبَّ، ولا يكونُ دليلاً على إيقاعِ المُستَعَدِّ لهُ. فالقدرَةُ على الاستعدادِ غيرُ القدرةِ على الشَّيءِ، فاعلم ذلك وتدبَّرْهُ فيما تجدُ من أمثالهِ، والله الحكيم الخبير.

١-١-٦-٢- فَصْلٌ

ثُمَّ إِنَّا نجدُ في النَّوعِ الإنسانيِّ **أشخاصاً يُخبرون بالكائناتِ**[1] **قبل وقُوعها بطبيعة فيهم**، يتميَّزُ بها صنفهُم عن سائرِ النَّاسِ، ولا يرجعونَ في ذلك إلى صناعةٍ، ولا يستدلون عليه بأثرٍ من النُّجومِ، ولا من غيرها. إنما نجدُ مداركهم في ذلك بمقتضى فِطْرَتهم الَّتي فُطِرُوا عليها، وذلك مثل **العرَّافينَ، والنَّاظرينَ في الأجسامِ الشَّفافةِ كالمرايا وَطِسَاسِ المَاءِ، والنَّاظرين في قلوبِ الحيواناتِ وأكبادِهَا وعِظَامِها، وأهلِ الزَّجرِ في الطَّيرِ والسِّبَاعِ، وأهلِ الطَّرْقِ بالحَصَى والحُبُوبِ، من الحنطَةِ والنَّوى**، وهذه كلُّها موجودةٌ في عالمِ الإنسان لا يَسَعُ أحداً جحدها، ولا إنكارها. وكذلك **المجانينُ** يُلقى على ألسنتهم كلماتٌ من الغيبِ فيُخبرون بها، وكذلك **النَّائم والميِّت**، لأوَّلِ موتهِ أو نومهِ يتكلَّمُ

---

٥ – هو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي الأندلسي (ت ٣٩٨هـ تقريباً) إمام الرياضيين في وقته بالأندلس، له عناية بالنجوم، وعني بزيج البتاني وزيج محمد بن موسى الخوارزمي. وقال المقري في نفح الطيب: سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول: إنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح. ومن كتبه: رتبة الحكيم في الكيمياء وغاية الحكيم في السحر والطلسمات. وقد ألفهما في مبدإ شبابه. قال في غاية الحكيم: وكان تأليفي لهذا الكتاب مبدأ عام ٣٤٣ عند فراغي من تنقيح كتاب رتبة الحكيم وأتممته في آخر عام ٣٤٨. انظر مقدمة جميل صليبا لكتاب المجريطي الرسالة الجامعة طبع مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٤٩.

١ – أي: ما يكون ويحدث مستقبلاً.

بالغيبِ، وكذلك أهلُ الرِّيَاضَاتِ من **الْمُتَصَوِّفَةِ**، لَهُمْ مدَارِكُ في الغيب على سبيلِ الْكَرَامَةِ معروفة.

ونحنُ الآنَ نتكلمُ عن[1] هذه الإدراكاتِ كُلِّهَا، ونبتدىء منها بالكهانة، ثُمَّ نأتي عليها واحدةً واحدةً إلى آخرها.

ونُقَدِّمُ على ذلك مُقَدِّمَةً، في أَنَّ **الْنَّفسَ الإنسانية كيفَ تستعدُّ لإدْرَاكِ الغيبِ** في جميعِ الأصنافِ التي ذكرناها. وذلك أنَّها ذَاتُ رُوْحَانِيَّة موجودة بالقُوَّةِ من بينِ سَائِرِ الرُّوْحَانِيَّاتِ كما ذكرناهُ من قبل، وإنَّمَا تخرجُ من القوَّةِ إلى الفعْلِ بالبدن وأحوالهِ، وهذا أمرٌ مُدركٌ لكل أحد. وكلُّ ما بالقوة فلهُ مادَّةٌ وصورةٌ وصُورةُ هذه الْنَّفْسِ التي بها يتمُّ وجودها هو عينُ الإدْرَاكِ والْتَّعقُّلِ، فهي تُوْجَدُ أوّلاً بالقوَّةِ [ظ٤٣/١] مُستعِدّة للإدْرَاكِ وقبولِ الْصُّوَرِ الكُلِّيَّةِ والجزئية، ثم يتمُّ نُشُؤها ووجودها بالفعل بمصَاحبة البدن، وما يُعَوِّدها بورود مدركاتها المحسوسة عليها، وما تنتزعُ من تلك الإدراكات من المعاني الكُلِّيَّةِ فتتعقَّلُ الصُّورَ مرة بعد أخرى حتى يحصلَ لها الإدْرَاكُ والْتَّعقُّلُ بالفعلِ.

فَتَتِمُّ ذاتُهَا وتَبْقَى النَّفْسُ كالهُيُولى والْصُّوَرُ مُتَعَاقِبَةٌ عليها بالإدرَاكِ واحدةً بعدَ واحدةٍ.

ولِذَلكَ نجدُ **الصَّبيَّ** في أوَّلِ نشأته لا يقدرُ على الإدرَاكِ الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما، وذلك لأن[2] صورتها التي هي عين ذاتها ـ وهو[3] الإدراك والتَّعقّل ـ لم تتم[4] بعد، بل لم يتم لها انتزاعُ الكُلِّيَّاتِ. ثم إذا تمَّت ذاتها بالفعل حصلَ لها ـ ما دامت مع البدنِ ـ نوعانِ من الإدراك: إدراكٌ بآلاتِ الجسمِ تؤدِّيه إليها المداركُ البدنيَّة، وإدراكٌ بذاتها من غير واسطةٍ، وهي محجوبةٌ عنه بالانغماسِ في البدنِ والحواسِّ وبشواغلها؛ لأنَّ الحواسَّ أبداً جاذبةٌ بها إلى الظَّاهر بما فُطِرَتْ عليه أوّلاً من الإدراكِ الجسْمانيّ. وربما تنغمسُ من الظَّاهر إلى الباطنِ فيرتفعُ حجابُ البدن لحظةً، إما بالخاصيَّة التي هي للإنسان على الإطلاقِ، مثل النوم أو بالخاصِّيَّةِ الموجودَة لبعضِ البشر، مثل الكهانةِ والطَّرْق، أو بالرِّيَاضةِ مثل أهل الكَشفِ من الصُّوْفِيّة، فتلتَفِتُ حينئذٍ إلى الذَّواتِ التي فوقها من المَلأ، لما بين أفقها وأفقهم من الاتِّصَالِ في الوجود، كما قررنا قبل. وتلكَ

---

١ - في ن: على.
٢ - في ن: أن.
٣ - في ن: هي.
٤ - في ن:ر يتم.

الذَّواتُ روحانيَّةٌ، وهي إدرَاكٌ محضٌ وعقولٌ بالفعلِ، وفيها صُوَرُ الموجوداتِ وحقائقها كما مرَّ فيتجلَّى فيها شيءٌ من تلك الصُّوَرِ، وتَقتَبِسُ منها عُلوماً، ورُبَّما دُفعت تلك الصُّورُ المُدركةُ إلى الخَيَالِ، فيصرفُها[1] في القوالبِ المعتادةِ ثُمَّ يُرَاجِعُ الحِسُّ بما أدركت، إمَّا مجرّداً أو في قوالِبهِ فتخبرُ به. هذا هو شرحُ استعدادِ النَّفْسِ لهذا الإدْرَاكِ الْغَيْبِيّ. ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه.

فأمَّا **النَّاظِرُوْنَ فِي الأَجسامِ الْشَّفَّافةِ**: من المرايَا وَطِسَاسِ المياهِ وقلوبِ الحيوان وأكبادها وعِظَامها، وأهلِ الطَّرْق بالحصَى والنَّوى، فكلُهم من قبيلِ الكُهَّانِ إلا أنهم أضعفُ رُتبةً فيه في أصْلِ خلقِهم، لأنَّ الكاهنَ لا يحتاجُ في رفع حجابِ الحِسّ إلى كثيرِ معاناةٍ. وهؤلاء يُعَانونه بانحصارِ المَدَارِكِ الحِسِّيَّةِ كُلِّهَا في نوع واحدٍ منها، وأشرفها البصرُ فيعكف على المرئي البسيطِ حتى يَبْدُو لهُ مدركهُ الذي يُخبرُ به عنه. ورُبّما يظُنُّ أن مشاهدةَ هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآةِ وليسَ كذلك، بلْ لا يزالون ينظرون في سطح المرآةِ إلى أن يغيبَ عن البصرِ، ويبدو فيما بينهم وبينَ سَطحِ المرآةِ حجابٌ كأنَّهُ غمامٌ يتمَثَّلُ فيه صورٌ، هي مدَارِكهم فيشيرون إليهم بالمقصودِ لما يتوجّهونَ إلى معرفتهِ من نفيٍ أو إثباتٍ، فيُخبرون بذلك على نحو ما أدركوه.

وأمَّا **المِرآةُ** وما يُدركُ [ظ٢/٤٣] فيها من الصُّوَرِ فلا يُدْرِكونَهُ في تلكِ الحالِ. وإنَّما ينشأ لهم بها هذا النوعِ الآخرُ من الإدْرَاكِ، وهو نَفْسَانِيٌّ ليسَ من إدراكِ البَصَرِ، بل يَتَشَكَّلُ به المُدْركُ النَّفْسَانِيُّ للحِسِّ كما هوَ مَعرُوْفٌ.

ومثلُ ذلك: ما يعرضُ للنَّاظِرِيْن في قُلُوْبِ الحيوَانَاتِ وأكبادها، وللنّاظرين في الماء والطِّساسِ وأمثال ذلك. وقد **شاهدنا من هؤلاء** من يُشغِلُ الحِسَّ بالبخورِ فقط، ثمَّ بالعزائم للاستعداد، ثم يخبرُ كما أدركَ، ويزعمون أنهم يرونَ الصُّوَرَ مُتشَخصةً في الهواء تحكي لهم أحوالَ ما يتوجَّهونَ إلى إدْرَاكِهِ بالمِثَالِ والإشارَةِ، وغيبةُ هؤلاء عن الحِس أخفُّ من الأوَّلينَ، والعالمُ أبو الْغَرَائبِ.

وأمَّا **الزَّجْرُ**: وهو ما يحدثُ من بعض النَّاسِ من التَّكلُّمِ بالغيبِ عند سُنُوحِ طائر أو حيوان، والفكر فيه بعدَ مَغيبه، وهيَ قُوَّةٌ في النَّفسِ تبعثُ على الحرصِ والفِكرِ فيما زُجِرَ فيهِ من مرئيٍّ أو مسموعٍ، وتكون قُوَّتُهُ المُخيَّلةُ كما قدَّمناهُ قويَّةً، فيبعثُهَا في البحثِ

---

١ - في ن: فيصرفه.

مُسْتَعيناً بما رآهُ أو سمعهُ فيؤدِّيه ذلك إلى إدراكٍ ما؛ كما تفعلهُ القُوَّةُ المُتخيِّلَةُ في النَّومِ، وعند رُكُودِ الحَوَاسِّ تتوَسَّطُ بينَ المَحْسُوْسِ المرئيِّ في يقظتهِ وتجمعُهُ مع مَا عَقَلَتْهُ فيكونُ عنها الرُّؤْيا.

وأمَّا **المجانِيْنُ**: فنفوْسُهُم النَّاطِقَةُ ضعِيْفَةُ التَّعلُّق بالبدن لِفَسَادِ أمزجتِهِمْ غالباً وضَعْفِ الرُّوحِ الحيوانيِّ فيها فتكونُ نفسُهُ غيرَ مُسْتَغرقَة في الحواسِّ، ولا مُنْغَمِسَة فيها، بما شَغَلَهَا في نفسها من أَلَمِ النَّقْصِ ومرضِهِ. ورُبَّمَا زاحمَهَا على التَّعلُّق بهِ رُوحَانِيَّةٌ أخرى شَيْطَانِيَّةٌ، تَتَشَبَّثُ به وَتضْعُفُ هذه عن مُمَانعتِهَا فيكونُ عنهُ التَّخبُّطُ، فَإذا أصَابهُ ذلك التَّخبّطُ إما لِفَسَادِ مزاجهِ من فسَاد في ذاتها، أو لمزاحمَةٍ من النُّفوسِ الشَّيْطَانِيَّةِ في تعلّقهِ غابَ عن حسِّهِ جُمْلَةً، فأدركَ لمحةً من عَالمِ نَفْسِهِ وانْطَبَعَ فيها بَعْضُ الصُّوَرِ وَصَرْفَهَا الْخيَالُ، وَرُبَّمَا نَطَقَ عَلى[1] لِسَانِهِ في تلكِ الحَالِ مِنْ غَيْرِ إرادَةِ النُّطْق.

وَإدْرَاكُ هَؤُلاءِ كُلّهِمْ مَشَوْبٌ فيه الْحَقُّ بالْبَاطِلِ؛ لأَنَّهُ لا يحصُلُ لهم الاتِّصَالُ، وَإنْ فَقدُوا الْحِسَّ إلاَّ بَعْدَ الاستِعانَةِ بالتَّصوُّرَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ. ومن ذلك يجيءُ الكذبُ في هذه المَدارِكِ.

وأمَّا **العَرَّافُونَ**: فهم المُتَعلِّقُونَ بهذا الإدراكِ، وليسَ لَهُمْ ذَلِكَ الاتِّصَالُ، فَيُسلِّطُونَ الْفِكْرَ على الأمر الَّذِي يتوجَّهُونَ إليهِ، ويأخذونَ فيهِ بالظَّنِّ والتَّخْمِيْنِ، بناءً على مَا يَتَوَهَّمُوْنَهُ من مَبَادِىءِ ذَلِكَ الاتِّصَال وَالإِدْرَاكِ، وَيَدَّعونَ بذلكَ معرفةَ الْغَيْبِ وليسَ منهُ على الْحَقِيْقَةِ.

هذا تَحْصِيلُ هَذِه الأُمُورِ[2].

وقد تكلَّمَ عليها **المَسْعُوْدِيّ** في مروج الذَّهبِ فَمَا صَادَفَ تحقيقاً ولا إصَابةً، ويظهرُ من كلامِ الرَّجلِ أنهُ **كانَ بعيداً عنِ الرُّسوخِ في المعارفِ فنقَلَ ما سَمِعَ من أهلهِ ومن غيرِ أهْلِهِ**.

وهذه **الإدراكَات** الَّتي ذكرنَاهَا **موجودةٌ كلُّهَا في نوعِ الْبَشَرِ**. فقد كان **العربُ** يفزعونَ إلى الكُهَّانِ في تعرُّفِ الْحَوَادِثِ ويتنافرُونَ إليهم في الخُصُومَاتِ، لِيُعرِّفُوهُم **بالحَقِّ فيها** من إدْرَاكِ غَيْبِهم. وفي **كُتُبِ أَهْلِ الأَدَبِ** [ظ٤٤/١] كَثِيْرٌ من ذَلِك، واشتهر منهم في

---

١ - في ن: عن.

٢ - يعني أمور الكهان والعرافين ومدعي النظر في الغيب ممن سبقَ حديثه عنهم.

الجاهلية: **شِقٌّ** بن أنمار بن نزار، **وَسَطِيحُ** بنُ مَازِنِ بنِ غَسَّانَ، وكان يُدْرَجُ كما يدرجُ الثوب، ولا عظمَ فيه إلا الجُمْجُمَةُ.

ومن مشهور الحكاياتِ عنهما: **تأويل رؤيا ربيعةَ بن نَصْر**[١] وما أخبراهُ به من مُلْكِ الحَبَشَةِ لليمنِ، ومُلكِ مُضرَ من بعدهم، وظهورِ النُّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ في قُرَيش، ورؤيَا الموبذَان التي أوَّلَها سَطِيحٌ، لَمَّا بعث إليه بها كسرى عبدَ المسيح، فأخبرهُ بشأنِ النُّبوءَةِ وخراب ملكِ فارسَ، وهذه كلها مشهورة.

وكذلك **العَرَّافونَ**: كان في العرب منهم كثيرٌ وذكروهم في أشعارهم. قال[٢]:

فَقُلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ: دَاوِني ... فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لَطَبِيبُ

وقال الآخر[٣]:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ ... وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفَيَانِي

فَقَالاَ: شَفَاكَ اللهُ واللهِ مَالَنَا ... بِمَا حَمَلَتْ منكَ الْضُّلوعُ يَدَانِ

وعرَّاف اليمامة: هو رباحُ بنُ عِجْلَةَ. وعرَّافُ نَجد: الأبلقُ الأَسَديُّ.

ومن هذه المدارك الغيبية، ما يصدرُ لبعض الناس عند **مفارقةِ اليقظة**، والتباسه بالنوم من الكلامِ على الشيءِ الَّذي يتشوَّفُ إليه بما يُعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد. ولا يقعُ ذلك إلا في مبادىء النوم عند مفارقة اليقظةِ وذَهابِ الاختبارِ في الكلام، فيتكلم كأنه مجبورٌ[٤] على النُّطْق، وغايتهُ أن يسمعه ويفهمه. وكذلك يصدرُ عنِ **المَقْتُولِين** عند مفارقةِ رؤوسهم وأوساط أبدانهم كلامٌ بمثل ذلك. ولقد **بلغنا** عن بعض الجبابرة الظالمين: أنهم قتلوا من سجونِهِمْ أشخاصاً، ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع.

وذكر **مسلمة** في كتاب **الْغَايَةِ** له في مثلِ ذلك: أنَّ **آدمياً إذا جعل في دَنٍّ** مملوءٍ بدهن السمسم، ومكث فيه أربعين يوماً، يغذَّى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه

---

١ – في النسخ: مضر. خطأ، صحح من السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٧-٥٢).

٢ – نسبه الزَّبيدي في تاج العروس (١٢/٣٧٧ مادة عرف) لعروة بن حزام العذري بلفظ: فإنك إن أبرأتني لطبيب.وهو كذلك في ديوانه ص٢٩. وكما أورده المصنف في الشعر والشعراء ص٦٢٤. والأغاني (٢٤/١٥٥).

٣ – هو عروة بن حزام، وفي ألفاظها بعض الخلاف، انظر ديوانه ص١٦، والشعر والشعراء ص٦٢٤، والأغاني (٢٤/١٤٣،١٥٧،١٦٢)، ولسان العرب مادة سلا.

٤ – في ن: مجبول.

إلا العُرُوقُ وشؤون رأسه، فيخرجُ من ذلك الدّهنِ فحينَ يجفُّ عليه الهواء يُجيبُ عن كل شيءٍ يُسْأَلُ عنه من عواقبِ الأمور الخاصَّةِ والعامَّةِ. وهذا فعل من مناكير أفعالِ السَّحَرَةِ، لكن يُفهم منه عجائبُ العَالَمِ الإنسانيِّ.

ومن الناس من يحاول حُصُوْلَ هذا المدركِ الغيبيِّ **بالرِّيَاضَة**. فيحاولون بالمجاهدةِ **موتاً صناعيّاً** بإماتةِ جميعِ القوى البدنيَّةِ، ثم محو آثارها التي تلوَّنت بها النفس، ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها، ويحصلُ ذلك بجمعِ الفكر وكثرةِ الجوعِ. ومن المعلومِ على القطعِ أَنَّهُ إذا نزلَ الموتُ بالبدنِ، ذهب الحسُّ وحجابُهُ، واطَّلَعت النَّفسُ على ذاتها وعالمها، فيحاولون ذلك بالاكتسابِ، ليقع لهم قبلَ الموت ما يقعُ لهم بعدهُ، وتطَّلِعُ النفسُ على المغيَّباتِ.

ومن هؤلاءِ أهل **الرِّيَاضة السِّحْرِيَّة**: يرتاضونَ بذلك ليحصل لهم الاطِّلاعُ على المغيَّباتِ والتَّصرُّفاتِ في العوالمِ. وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفةِ جنوباً وشمالاً خُصُوصاً بلادُ الهندِ، ويسمون هنالك **الحوكيَّةَ**[1]، ولهم كتبٌ في كيفيَّةِ هذه الرياضة كثيرةٌ والأخبارُ عنهم في ذلك غريبةٌ.

وأمَّا **المتصوفة** [ظ٤٤/٢]: فرياضتهم دِيْنِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ[2] عن هذه المقاصد المذمومة. وإنما يَقْصِدونَ جمعَ الهمَّةِ والإقْبَال على اللهِ بالْكُلِّيَّةِ، ليحصل لهم أذواقُ أهل العرفانِ والتوحيد، ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوعِ، التغذيةَ بالذكر، فبها تتمُّ وجهتهم في هذه الرياضة؛ لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقربَ إلى العرفان با الله.

وإذا عريت عن الذكر كانت **شَيْطَانِيَّةً**. وحصول ما يحصلُ من معرفة الغيب والتَّصرُّفِ لهؤلاءِ المتصوِّفةِ إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً من أوَّل الأمر؛ لأنَّهُ إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله، وإنما هي لقصدِ التَّصرُّفِ والاطِّلاعِ على الغيبِ، وأخْسِرْ بها صَفْقَةً؛ فإنها في الحقيقةِ شِرْكٌ. قال بعضهم: مَنْ آثَرَ الْعِرْفَانَ للعِرْفَان، فقد قال بالثَّاني.

فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا لشيءٍ سواه. وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصلُ فبالعرضِ وغيرُ مقصودٍ لهم، وكثيرٌ منهم يفرُّ منه إذا عرضَ له، ولا يحفلُ به، وإنما يريدُ الله لذاته لا لغيره. وحصول ذلك لهم معروفٌ ويسمونَ ما يقعُ لهم من الغيبِ والحديثِ على

---

١ - ذهب الدكتور وافي إلى أن صواب هذه الكلمة هو: اليوجية. نسبة إلى الرياضة المعروفة: اليوجا.

٢ - أي: خالية منها.

الخواطرِ فراسةً وكشفاً، وما يقعُ لهم من التَّصَرُّفِ **كرامةً**، وليس شيءٌ من ذلك بنكيرٍ في حقهم.

وقد ذهب إلى **إنكارهِ**، الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين، فراراً من التِباسِ الْمُعْجزَةِ بغيرها. والمعوَّلُ عليه عند **المتكلمين** حُصُول التَّفرقة بالتحدي فهو كاف. وقد ثبت في الصحيح أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«إنَّ فيكم مُحدَّثينَ وإنَّ منهم عمرَ»**[1].

وقد وقعَ **للصحابة** من ذلك وقائعُ معروفة تشهد بذلك، في مثل قول **عمر** رضي الله عنه: **يَا سَارِيَةُ الجَبَلَ**[2]. وهو سارية بن زَنيم كان قائداً على بعض جيوشِ المسلمين بالعراق أيَّام الفتوحات، وتورط معَ المشركين في معترك وهمَّ بالانهزامِ، وكان بقربه جبلٌ يتحيَّزُ[3] إليه، فرفعَ لعمرَ ذلك وهو يخطبُ على المنبرِ بالمدينةِ فناداهُ: يَا سَارِيةُ [هنالك] الجبلَ وَسَمِعَهُ سَارِيَةُ وهو بمكانه، ورأى شخصهُ والقصة معروفةٌ.

ووقع مثله أيضاً **لأبي بكر** في وصيتهِ عائشة ابنتهُ رضي الله عنهما في شأن ما نحلها[4] من أوسقِ التَّمْر من حديقته، ثمَّ نبَّهها على جُذَاذِهِ[5] لتحوزهُ عن الورثةِ، فقال في سياق كلامه: وإنما هما أخواكِ وأختاك، فقالت: إنما هي أسماء فمنِ الأخرى، فقال: إنَّ ذا بطنِ بنتَ خارجة أراها جاريةً[6]. فكانت جاريةً. وقع في الموطإِ في باب مالا يجوز من النِّحلِ[7].

ومثلُ هذه الوقائعِ كثيرةٌ لهم، ولمِن بعدهم من **الصَّالحين**، وأهل الاقتداء. إلا أن أهل التصوف يقولون: إنه يقلُّ في زمن النُّبوَّةِ، إذْ لاَ يَبْقَى للمريدِ حالةٌ بحضرةِ النَّبيِّ، حتَّى إنهم

---

١ - بمعناه أخرجه البخاري (٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة. ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة. وقال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون. وانظر الاعتقاد للبيهقي (٤٣٩).

٢ - أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/٣٧٠) والاعتقاد (٤٣٥).

٣ - في ن: يتحجز.

٤ - أي: أعطاها.

٥ - أي: قطعه.

٦ - زوجة أبي بكر. وقد تنبأ بأن ما تحمله سيكون جارية، أي فتاة.

٧ - الموطأ، كتاب الأقضية باب مالا يجوز من النحل ص٧٥٢ . ذو بطن. أي: صاحب بطنها، يريد الحمل الذي فيه.

يقولون: إنَّ المريدَ إذا جاء للمدينة النَّبويَّةِ يُسلبُ حالهُ ما دامَ فيها حتَّى يُفارقها، واللهُ يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحقّ.

ومن هؤلاء المريدينَ من المتصوِّفة: قومٌ **بهاليل معتوهون** أشبه بالمجانين[١] من الْعُقَلاء؛ وهم مع ذلك [ظ٤٥/١] قد صَحَّت لهم مقامات الولاية وأحوال الْصِّدِّيقين، وعَلِمَ ذلكَ من أحوالهم من يَفهم عنهم من أهل الذَّوقِ، مع أهم غيرُ مُكَلَّفينَ، ويقعُ لهم من الإخبارِ عن المغيَّباتِ عجائبُ، لأنَّهم لا يتقيَّدون بشيءٍ، فيطلقون كلامهم في ذلك، ويأتون منه بالعجائب. وربما ينكر **الفقهاء** أهم على شيءٍ من المَقامات، لما يرون من سقوط التَّكليفِ عنهم، **والولاية** لا تحصلُ إلا بالعبَادَة وهو غلطٌ[٢]، فإن فضل الله يؤتيه من يشاء، **ولاَ يتوقَّفُ حُصُولُ الولاية على العبادة ولا غيرها.**

وإذا كانت النَّفسُ الإنسانيَّةُ ثَابتَةَ الوجود، فالله تعالى يخصُّها بما شاء من مواهبه، وهؤلاء القوم لم تَعْدَم نفوسُهم النَّاطقة، ولا فَسدت كحالِ المجانين. وإنما فقد لهم العقلُ الَّذي يُناطُ به التَّكليفُ، وهي صفةٌ خاصَّةٌ للنَّفْسِ، وهي علوم ضروريَّةٌ للإنسان يشُدُّ بها نظرهُ، ويعرفُ أحوالَ معاشهِ واسْتِقَامَةَ منزلهِ. وكأنَّهُ إذا ميَّزَ أحوالَ معاشهِ واستقامة منزلهِ،

---

١ – قال ابن خلدون في شفاء السائل وتهذيب المسائل (ص١٦٤ – ١٦٥): ما زال يختلج في نظري أن المجذوب فاقد لعقل التكليف، وهو أدون مراتب النوع الإنساني، فيكون خارجاً عن زمرة المؤمنين بما سقط عنه من التكليف وسيما العبادات. فكيف يُلحق بمراتب أولياء الله، ويعدُّ منهم؟ كما هو معلوم قديماً وحديثاً وغير نكير حتى ألهم الله إلى كشف الغطاء عن ذلك بمنه وهدايته:

وذلك أن العقل الذي ناط به الشرع التكليف هو عقل تدبير المعاش، وهو قيام الإنسان على معاشه وتدبير منزله، فإن فقد هذا العقل لنقص في ذاته، وفي لطيفته الروحانية، كسائر الحمقى والمجانين نزل عن رتبة النوع الإنساني، ولم يكن من الإيمان في شيء فضلاً عن الولاية، وإن فقد هذا العقل لفرق في بحر الأنوار الإلهية، وقلة تعريج على المحسوسات بما حملت، فلا يضره ذلك، ولا ينزل به عن رتبة النوع، بل تعلو لديه رتبة الإيمان، وتصح له الولاية بما عنده من مشاهدة أنوار المعرفة، وله في حفظ مقامه ـــ مع سقوط التكاليف، وبتر أسباب وصوله الحاصل لديه ـــ حكم شرعي غريب اتفق عليه أهل الطريقة المفوض علم ذلك إليهم، فقد قدمنا أن الأحكام الشرعية إنما تتعلق بمداركهم بعد وجدانها وذوقها، وليست تخفى الأحكام الشرعية في حقهم لالتباسها ولا لخفائها، وإنما هو لأجل خفاء ما تتعلق به من مداركهم الذوقية، وإذا حصل لهم الإدراك الذوقي بحال، أو وارد، أو إلقاء، أو غير ذلك علموا كيف يتعلق حكم الله به، وربما يستغرب في حقهم حكم ما، وإنما هو لغرابة متعلقة من تلك المدارك الذوقية، فلا يستنكر ذلك منهم، فهو أعلم بمداركهم، والسعادة أصلها التخصيص.

٢ – لعله يساير في ذلك الرد على المتكلمين الذي يظنون أن النبوة تكون بالرياضة. فأراد أن يؤكد أن الولاية هي فرع من اختصاص الله لبعض عباده ولا يطلب فيها بداية العبادة، وإن كان وجودها بعد ذلك أساساً لتأكيد معنى صحة ولاية العبد. ولذلك أكد بعد قليل ضرورة عدم خلو البهلول عن ذكر وعبادة.

لم يبقَ له عذرٌ في قبول التَّكاليفِ لإصلاحِ معادِهِ، وليسَ من فَقَدَ هذه الْصِّفة بفـاقدٍ لنفسـهِ ولا ذاهلٍ عن حقيقتهِ، فيكونَ موجودَ الحقيقـةِ معدومَ العقـلِ التَّكْلِيْفِـيِّ الَّـذي هـو معرفـةُ المعاشِ، ولا استحالةَ في ذلـك، ولا يتوقَّـفُ اصطفـاءُ ا للهِ عبـادَهُ للمعرفـةِ علـى شـيءٍ مـن التَّكاليفِ.

وإذا صحَّ ذلك فاعلم أنَّهُ رُبَّما يلتبسُ حالُ هؤلاء بالمجانين الذين تفسُدُ نفوسهم النَّاطقة، ويلتَحِقُونَ بالبهائِم. **ولكَ في تمييزهم علاماتٌ** منها: **أنَّ هؤلاء الْبَهاليلَ تجدُ لهم وجهةً ما، لا يخلونَ عنها أصلاً من ذكر وعبادة**، ولكن على غير الشُّروطِ الْشَّرْعِيَّةِ لما قلناهُ من عـدم التَّكْلِيفِ؛ والمجانين لا تجـدُ لهـم وجهـةً أصـلاً. **ومنهـا**: أنهـم يخلقـون علـى الْبَلَـهِ مـن أوَّلِ نشأتهم[1]، والمجانين يعرضُ لهم الجنونُ بعدَ مـدَّةٍ مـن العمر لعوارض بدنيَّـةٍ طبيعيَّـةٍ، فـإذا عرضَ لهم ذلك وفسدت نفوسُهم النَّاطِقَةُ ذهبوا بالخَيبةِ. **ومنها**: كـثرةُ تصرُّفهـم في النـاسِ بالخيرِ والْشَّرِّ لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدمِ التَّكْلِيْفِ في حَقِّهم، والمجانين لا تصرُّف لهم. وهذا فصل انتهى بنا الكلامُ إليه وا لله المرشد للصواب.

١-١-٦-٣- فَصْلٌ

وقد **يزعم** بعض النَّاسِ أنَّ هنا مداركُ للغيبِ من دونِ غيبة عن الحِسِّ.

فمنهم **المُنَجِّمونَ**: القائلون بالدِّلالاَتِ النُّجومِيَّةِ ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصرِ، وما يحصلُ من الامتزاجِ بينَ طِباعها بالتَّناظرِ، ويتأدَّى من ذلك المـزَاجِ إلى الهـواء. وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء؛ إنما هي ظنونٌ حدسيةٌ، وتخميناتٌ مبنيَّةٌ على التَّأثيرِ النُّجومية وحصولُ المزاجِ منه للهواء، مع مزيدِ حدسٍ يقفُ به النَّاظرُ على تفصيله في الْشَّخصياتِ [ظ٤٥/٢] في العالَمِ، كما قاله بَطليموسُ. ونحن **نُبَيِّنُ بُطلانَ ذلك** في محله إن شاء ا للهُ. وهو لو ثَبُتَ فغايته حدسٌ وتخمينٌ، وليس مما ذكرناه في شيء.

ومن هؤلاء قـومٌ مـن العامَّـةِ: استنبَطوا لاسـتخراجَ الغيـبِ وتعـرُّفِ الكائنـاتِ صناعـةً سَمَّوها: **خطَّ الرَّملِ**، نسبةً إلى المادَّةِ الَّتي يضعونَ فيها عملهم. ومحصولُ هذه الصِّناعة أنهم صَيَّروا من النُّقَطِ أشكالاً ذات أربعِ مراتبَ تختلفُ باختلافِ مراتِبها في الْزَّوجيَّـةِ والفَرْدِيَّـةِ واستوائها فيهما، فكانت ستَّةَ عشرَ شكلاً، لأنَّها إن كانت أزواجاً [كلها] أو أفراداً كلهـا

---

١ - لم لا يقال: إن هؤلاء قد شاهدوا شيئاً من عوالم الغيب جذبهم إليه فأصبح نظرهم متطلعاً إليه، ملتفتاً إليـه، مما جعلهم يغيبون عن عالم المعاش أي: أنهم يكونون على حالٍ عادي قبل تعرضهم لحالةِ الجذب، تلك.

فشكلان. وإن كان الفردُ فيهما في مرتبةٍ واحدة فقط فأربعةُ أشكال. وإن كانَ الفردُ في مَرْتبَتَينِ فَسِتَّةُ أشكال. وإن كان في ثلاثِ مراتبَ فأربعةُ أشكالٍ جاءَت ستَّةَ عشرَ شكلاً ميَّزُوها كلَّها بأسمائها ونوّعُوها[1] إلى سُعُودٍ ونحوسٍ شأن الكواكبِ، وجعلوا لها ستَّةَ عشرَ بيتاً طبيعيَّةً بزعمهم، وكأنَّها البروجُ الاثنا عشرَ الَّتِي للفلكِ والأوتادِ الأربعةِ. وجعلوا لكلِّ شكلٍ منها بيتاً وخُطوطاً ودلالةً على صِنْفٍ من موجودات عالم العناصرِ يختصُّ به، واستنبطوا من ذلك فَنّاً حاذوا به فنَّ النِّجامة[2] ونوعَ فضائه، إلا أنَّ أحكَامَ النِّجامةِ مستندةٌ إلى أوضاعٍ طبيعيَّةٍ، كما زعم[3] بطليموس.

وهذه إنما مُستندها **أوضاعٌ تحكميَّةٌ وأهواء اتِّفَاقِيَّةٌ**، ولا دليلَ يقومُ على شيءٍ منها.

(وهذه إنما دلالتها وضعية، وذلك أن **بطليموس** إنما تكلم في المواليد والقرانات التي هي عنده من آثار الكواكب والأوضاع الفلكية في عالم العناصر.

وتكلم **المنجمون** من بعده في المسائل باستخراج الضمائر وتقسيمها على بيوت الفلك، والحكم عليها بأحكام ذلك النجومية التي ذكر بطليموس.

واعلم أن الضمائر أمورٌ نفسية ليست من عالم العناصر، فليست من الكواكب ولا الأوضاع الفلكية، ولا دلالة لهما عليها.

نعم، إن صار لفن المسائل مدخل في صناعة النجامة من حيث الاستدلال بالكواكب والأوضاع، إلا أنه في غير مدلوله الطبيعي.

فلما جاء أهل الخط عدلوا عنه ـ الكواكب والأوضاع ـ استصعاباً بالمعاناة، الارتفاع بالآلات وتعديل الكواكب بالحسبان، واستخرجوا هذه الأشكال الخطية وفرضوها عند ضربين من بيوت الفلك وأوتاره، ونوعوها إلى سعدٍ ونحسٍ وممتزج مثال الكواكب السيارة، واقتصروا علي السديس من المتناظر، ونزلوا الأحكام النجومية عليها كما في المسائل؛ لأنَّ دلالة كلٍّ منها غير طبيعية كما قدمناه.

وانتحل هذه الصناعة كثيرٌ من البطالين للمعاش في المدن، وصنفوا فيها التصانيف المماثلة لقواعدها وأصولها كما فعله **الزناتي** منهم وغيره.

---

١ – في ن: أنواعها.

٢ – أي ادعاء معرفة الغيب بمقتضى النظر في النجوم.

٣ – في ن: يزعم.

وقد يكون من أهل هذه الصناعة من يعرض في إدراك الغيب باشتغال الحس بالنظر في أشكال تلك الخطوط، فتعتريه حالة الاستعداد كما يعتري المفطورين على ذلك كما نذكره بعد.

وهؤلاء أشراف أهل هذه الصناعة، وهم على الجملة)[1] **يزعمونَ** أنَّ أصلَ ذلك من النُّبوَّاتِ القديمةِ في العالمِ. ورُبَّما نسبوها إلى **دَانيَالَ** أو إلى[2] **إدريس** صَلواتُ اللهِ عليهما شأن الصَّنائع كلِّهَا.

وربما **يدَّعونَ** مشروعيتها ويحتجُّونَ بقولهِ صلى الله عليه وسلم: «**كَانَ نَبيٌّ يَخُطُّ فَمَنْ وافقَ خَطَّهُ فَذَاكَ**»[3]. وليسَ في الحديث دليلٌ على مشروعية خطِّ الرَّمل كما يزعمه بعضُ من لا تحصيل لَديه، لأنَّ معنى الحديث: كان نبيٌّ يخطُّ فيأتيه الوحيُ عند ذلك الخطِّ، ولا استحالةَ في أن يكون ذلك عادةً لبعضِ الأنبياء، (فإنهم متفاوتون في إدراك الوحي قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾[البقرة:٢٥٣] **فمنهم** من يأتيه الوحي، ويكلمه الملك ابتداءً من غير طلب ولا وجهة لذلك، **ومنهم** من يتوجه فيما يعرض له من أمور البشر إلى أمته على شكلها، أو تكليف، أو نحو ذلك، فيتوجه وجهة **ربانية** يتعرض بها لكشف ما يريد من ذلك من الله. ويعطي التقسيم هنا قسماً آخر إن وجد؛ لأن الوحي قد يكون وهو لا يستعد له بشيء من الأحوال كالذي ذكرناهُ، وقد يكون وهو مستعدٌّ لبعض الأحوال كما نقل في **الإسرائيليات** أن بعض الأنبياء، وكان

---

١ – في ظ: كذا وجد في نسخة مكتوبة بخط القطرسي مقابلة على نسخة الأصل.

٢ – في ظ: دانيال وإدريس.

٣ – أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي. ويأتي في حديث الجارية مزيد تخريجه. وقال النووي في شرحه (٦٧٤/٢): قوله: ومنا رجال يخطون، قال: كان نبي من الأنبياء عليهم السلام يخطُّ، فمن وافق خطه فذاك. اختلف العلماء في معناه، فالصحيح: أن معناه: من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح. والمقصود: أنه حرامٌ، لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها، وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: فمن وافق خطه فذاك. ولم يقل: هو حرام ـ بغيرتعليق على الموافقة ـ لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط، فحافظ النبي صلى الله عليه وسلم على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا، فالمعنى: أن ذلك النبي لا منع في حقه، وكذا لو علمتم موافقته، ولكن لا علم لكم بها. وقال الخطابي: هذا الحديث يحتمل النهي عن هذا الخط إذ كان علماً لنبوة ذاك النبي، وقد انقطعت، فنهينا عن تعاطي ذلك. وقال القاضي عياض: المختار أن معناه: أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته فيما يقول، لا أنه أباح ذلك لفاعله. قال: ويحتمل أن هذا نسخ في شرعنا. فحصل من مجموع كلام العلماء فيه: الاتفاق على النهي عنه الآن.

يستعد لنزول الوحي بسماع الأصوات الطيبة الملحنة. وهذا النقل، وإن لم يك ممكناً في الصحة إلا أنه غيرُ بعيد، فا لله تعالى يختص أنبياءه ورسله بما يشاء. وإذا تقرر ذلك، وقد كنا قدمنا أن في أصحاب [ظ٤٦/١] خط الرمل من يتعرض للكشف باشتغال الحس بالنظر في الخطوط والأشكال، فيعتريه حينئذٍ الإدراك الغيبي الوجداني بالفزع عن الحس جملة، ويفارق المدارك إلى المدارك الروحانية. وقد مر تفسيرهما.

وهذا من **الكهانة** من نوع النظر في العظام والمياه والمرايا بخلاف من يقتصر في ذلك منها على الأمر الصناعي الذي يحصل به على الغيب بالحدس والتخمين، وهي لم تفارق المدارك الجسمانية بعد، جائلاً في مرامي الظنون. فقد يكون شأن بعض الأنبياء الاستعداد بالخط في مقامه النبوي لخطاب الملك، كما يستعد به من ليس بنبي للإدراك الروحاني ومفارقة المدارك البشرية، إلا أن إدراكه روحاني فقط، وإدراك النبي ممكن بالوحي من عند ا لله.

وأما مقامات أهل صناعة الخط في مدارك الحس والتخمين فحاشا للأنبياء منها، فإنهم لا يشرعون التكلم بالغيب ولا الخوض فيه لأحدٍ من البشر.

وقوله في الحديث): «**فمن وافق خطُّهُ ذلك النَّبِيَّ فهو ذاك**». أي: فهو صحيحٌ من بين الخطِّ بما عضدَهُ من الوحي لذلك النَّبِيّ الَّذِي كانت عادتهُ أن يأتيه الوحي عند الخطِّ.

(أو تكون الإشارة بذلك إلى تعظيمه وعلو شأنه في اتخاذ خطوط الرمل، لا نسبة بينه وبينها، إذا كان على ذلك الوجه الذي كان النبي يستعد به للوحي فيأتي على وفاقه).

وَأَمَّا إذا أُخذَ[1] ذلك من الخَطِّ مجرَّداً من غيرِ موافقةِ وحيٍ فلاَ، وهذا معنى الحديث. وا للهُ أعلمُ.

(وليس فيه دلالة على مشروعية خط الرمل، ولا جواز انتحاله لتعرفَ تغيب[2] كما هو شأن أهله في المدن، وإن مال إلى ذلك بعضهم بناءً على أن فعل النبي شرعة متبعة، فيكون مشروعاً على مذهب من يرى أن شرع من قبلنا شرع لنا. وليس هذا بمطابق لذلك؛ فإن الشرع إنما هو للرسل المشرِّعين للأمم، والحديث لم يدل على ذلك، وإنما دل

---

١ - في ن: حدَثَ.

٢ - أي غائب.

على أن هذه الحالة قد تحصل لبعض الأنبياء. ويحتمل أن يكون غير مشرِّع[1] فلا يكون ذلك شرعاً لا خاصاً بأمته، ولا عاماً لهم ولغيرهم، وإنما يدل على أنها حالة تقع لبعض الأنبياء خاصة فلا تتعداه للبشر.

وهذا آخر ما أردنا **تحقيقه هنا**، وا لله الملهم للصواب).

فإذا أرادوا **استخراجَ مغيَّبٍ** بزعمهم عمدوا إلى قرطاسٍ أو رملٍ أو دقيقٍ فوضعوا النُّقطَ سُطوراً على عدد المراتبِ الأربع ثُمَّ كرَّروا ذلك أربعَ مرَّاتٍ، فتجيءُ سِتَّةَ عشرَ سطراً، ثمَّ يطرحونَ النُّقطَ أزواجاً، ويضعون ما بقيَ من كُلِّ سَطرٍ زوجاً كان أو فرداً في مرتبته على التَّرتيبِ، فتجيءُ أربعةُ أشكالٍ، يضعونها في سُطورٍ متَتاليَةً ثُمَّ سُطُور يُوَلِّدُونَ منها أربعةَ أشكالٍ أخرى من جانبِ العرضِ باعتبارِ كلِّ مرتبةٍ وما قابلها من الشَّكلِ الذي بإزائه، وما يجتمعُ منهما من زوجٍ أو فردٍ فتكونُ ثمانيَة أشكالٍ موضوعة في سطرٍ، ثم يُولِّدونَ من كل شَكلين شكلاً باعتبار ما يجتمع في كلِّ مرتبةٍ من مراتبِ الشَّكلَين أيضاً، من زوجٍ أو فردٍ فتكونُ أربعةً أخرى تحتها، ثمَّ يولِّدونَ من الأربعةِ شَكلين كذلك تحتها منَ الشَّكلين [ظ٤٦/٢] شكلاً كذلك، تحتهما. ثم من هذا الشكل الخامسَ عَشَرَ مع الشَّكلِ الأوَّل شَكلاً يكونُ آخرَ السِّتَّةَ عشرَ، ثم يحكمونَ على الخطِّ كُلِّهِ بما اقتضتهُ أشكالُهُ من السُّعُودَةِ وَالنُّحُوْسَةِ بالذَّاتِ، والنَّظَرِ والحُلولِ والامتزاجِ، والدِّلالةِ على أصنافِ الموجوداتِ وسائرِ ذلك تحكُّماً غريباً.

وكثُرت هذه الصِّناعة في العُمران، ووضعت فيها التَّآليفُ، واشتهرَ فيها الأعلامُ من المتقدمين والمتأخرين، وهي كما رأيتَ تحكُّمٌ وهوىً.

والتَّحقيقُ الَّذي ينبغي أن يكونَ نُصبَ فكركَ أن **الغيوبَ لا تُدركُ بصِنَاعةٍ أَلْبَتَّةَ**. ولا سَبِيْلَ إلى تَعَرُّفِهَا إلا للخواصِّ من الْبَشَرِ الْمَفْطُوْرِينَ على الرُّجوعِ من[2] عالمِ الْحِسِّ إلى عالمِ الرُّوحِ.

ولذلكَ يُسَمِّي الْمُنَجِّمونَ هذا الصِّنفَ كُلَّهم **بالزُّهَرِيِّيْنَ** نِسْبَةً إلى ما تَقْتَضِيْهِ دِلالةُ الزُّهرَةِ، بزعمهم في أصل مواليدهم على إدراكِ الغيبِ. فالخَطُّ وغيرهُ من هذه إن كان النَّاظِرُ فيه من أهلِ هذه الخَاصِيَّةِ، وقصدَ ـ بهذه الأمورِ الَّتي ينظرُ فيها من النُّقطِ أو الْعِظَامِ

---

١ – أي النبي.

٢ – في ن: عن.

أو غيرها - إشغالَ الحِسِّ لترجعَ النَّفْسُ إلى عالم الرُّوحَانِيَّاتِ لحظةً ما، فهوَ من بابِ الْطَّرْقِ بالحَصَى، والنَّظرِ في قُلُوْبِ الحيواناتِ، والمرايَا الْشَّفَّافَةِ، كما ذكرناهُ. وإن لم يكُن كذلك، وإنما قصدَ معرفةَ الْغَيْبِ بهذه الصِّناعةِ وأنها تُفيدُهُ ذلك فهذرٌ من الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، ﴿وا لله يهدي من يشاء﴾ [النور:٤٦].

والعَلَامَةُ لهذه الْفِطْرَةِ الَّتي فطرَ عليها أهلُ هذا الإدراكِ الْغَيْبيّ: أنَّهم عند تَوَجُّههم إلى تَعرُّفِ الكَائِنَاتِ يَعْتَريهم خُرُوْجٌ عن حَالَتِهِمْ الْطَّبيعيَّة، كَالْتَّثَاؤُبِ وَالْتَّمَطُّطِ وَمَبَادِيءِ الْغَيْبَةِ عَنِ الْحِسِّ، ويَختلِفُ ذلكَ بالقُوَّةِ وَالْضَّعْفِ عَلَى اخْتِلافِ وُجُوْدِهَا فيهم، **فمن لم تُوجد لهُ هذه الْعَلَامَةُ** فليسَ من إدرَاكِ الغيبِ في شيء، وإنَّما هو ساعٍ في تَنْفِيق[1] كَذِبِهِ.

ومنهم طَوَائِفُ: يَضَعونَ قوانينَ لاسْتخراجِ الغيبِ لَيسَت من الْطَّوْرِ الأوَّل الَّذي هو من مَدَارِكِ النَّفسِ الْرُّوحَانِيَّةِ، ولا من الحَدْسِ المَبْنِيِّ على تأثيراتِ النُّجوم، كما زَعَمَهُ بَطليموس، ولا من الظَّنِّ والتخمين الَّذي يُحاول عليه العرَّافونَ. وإنَّما هي **مغالطُ يجعلونها كالمصائدِ لأهلِ العقولِ الْمُسْتَضْعَفَةِ**. وَلَسْتُ أذكرُ من ذلك إلاَّ ما ذكره الْمُصَنِّفُون وولعَ بهِ الخَوَاصُّ.

فمن تِلْكَ الْقَوانين: الحِسَابُ الَّذي يُسَمُّوْنَهُ **حِسَابَ الْنِّيم**، وهو مذكورٌ في آخر كِتَابِ **الْسِّيَاسَةِ** الْمَنْسُوْبِ **لأرسْطُو**[2]، يُعْرَفُ به الغالبُ من الْمَغْلُوْبِ في الْمُتحَارِبِيْنَ من الْمُلُوْكِ، وهو أَنْ تُحْسَبَ الحُرُوْفَ الَّتي في اسم أحدهما بحسابِ الجُمَّلِ المُصْطَلَحِ عليهِ في حروفِ أبجدَ منَ الوَاحِدِ إلى الأَلْفِ آحاداً وَعَشَرات وَمِئِيْنَ وأُلوفاً. فإذا حَسَبْتَ الاسمَ وَتَحَصَّلَ لكَ منهُ عَدَدٌ، فاحسبِ اسمَ الآخرِ كَذَلِكَ، ثُمَّ اطْرحْ من كُلِّ واحدٍ منهُمَا تسعةً، تسعةً، واحفظ بقيَّةَ هذا وبقية هذا، ثم انظُرْ بينَ الْعَدَدينِ الباقيين من حِسَابِ الاسمين، فإن كَانَ العددان مختلفين في الكمِّيَّةِ وكانا معاً زوجين [ظ٤٧/١]، أو فردين معاً، فصاحبُ الأقلِّ منهما هو الغالبُ، وإن كان أحدهما زوجاً والآخرُ فرداً فصاحبُ الأكثرِ هو الغالبُ، وإن كانا مُتَسَاوِيَين في الكمِّيَّةِ وهما معا زوجان فالمطلوبُ هو الغالبُ، وإن كانا معاً فردينِ فالطَّالِبُ هو الغالبُ. ويُقالُ هُنالكَ بيتان في هذا العمل اشتهرا بينَ النَّاسِ وهما:

أرى الْزَّوْجَ والأفرادَ يَسْمُو أقلُّهَا   وَأَكْثَرُها عندَ التَّخالُفِ غالِبُ

---

١ - أي: نشره وترويجه.

٢ - السياسة في تدبير الرياسة : ١٥٢-١٥٥.

وَيُغْلَبُ مطلوبٌ إذا الْزَّوجُ يَسْتَوِي وعندَ اسْتِوَاءِ الفَرْدِ يغلبُ طَالِبُ

ثُمَّ وَضَعوا لمعرفةِ ما بقيَ من الحُرُوْفِ بعدَ طَرْحِهَا بِتِسْعَة قانوناً معروفاً عندهم في طرح تسعة، وذلك أنهم جمعوا الحروف الدَّالة على الواحد في المراتب الأربعِ، وهيَ: (أ) الدَّالة على الواحدِ، و(**ي**) الدَّالةِ على العشرةِ، وهي واحدٌ في مرتبة العشراتِ، و(**ق**) الدَّالة على المئة، لأنها واحدٌ في مرتبةِ المئين، و(**ش**) الدَّالةُ على الألف، لأنها واحدٌ في مرتبةِ الآلافِ، وليسَ بعد الألفِ عددٌ يدلُّ عليه بالحروفِ، لأنَّ الشِّينَ هي آخرُ حروفِ أبجد.

ثم رتبوا هذه الأحرف الأربعة على نسقِ المراتبِ، فكان منها كلمةٌ رُبَاعِيَّةٌ وهي: **أيقش**.

ثُمَّ فعلوا ذلك بالحروفِ الدالة على اثنين في المراتبِ الثَّلاثِ، وأسقطوا مرتبة الآلافِ منها، لأنها كانت آخر حروف أبجد، فكان مجموع حروفِ الاثنين في المراتبِ الثلاثِ ثلاثةَ حروف، وهيَ: (**ب**) الدَّالة على اثنين في الآحادِ، و(**ك**) الدَّالة على اثنين في العشرات وهي عشرون، و(ر) الدَّالةُ على اثنين في المئين وهي مئتان، وصَيَّروها كلمة واحدة ثلاثية على نسقِ المراتب وهيَ: **بكر**.

ثم فعلوا ذلك بالحروفِ الدَّالةِ على ثلاثٍ فَنَشَأت عنها كلمةُ: **جلسَ**، وكذلك إلى آخرِ حروف أبجد، وصارت تسع كلماتٍ نهاية عدد الآحاد وهي: **أيقش، بكر، جلس، دمَت، هنثَ، وصخ، زعد، حفظ، طضغ**. مرتبة على توالي الأعدادِ، ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته، فالواحد لكلمة أيقش، والاثنان لكلمة بكر، والثلاثة لكلمة جلس، وكذلك إلى التَّاسعة التي هي طضغ، فتكون لها التسعة.

فإذا أرادوا طرحَ الاسمِ بتسعة نظروا كلَّ حرف منه في أيِّ كلمةٍ هو من هذه الكلماتِ. وأخذوا عددها مكانهُ ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلاً من حروفِ الاسم، فإن كانت زائدة على التِّسعة أخذوا ما فضل عنها، وإلاَّ أخذوه كما هو، ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخرِ، وينظرون بينَ الخارجين بما قدمنا، **والسر في هذا** بينٌ، وذلك أنَّ الباقي من كلِّ عقد من عقود الأعداد بطرحِ تسعةٍ، إنما هو واحد، فكأنه يجمعُ عددَ العُقُودِ خاصَّةً من كلِّ مرتبة فصارت أعدادُ العُقُودِ كأنها آحادٌ، فلا فرقَ بينَ الاثنين والعشرين والمئتين والألفين، وكلُّها اثنان، وكذلك الثَّلاثَةِ والثلاثون والثَّلاث مئة والثَّلاثَةِ الآلافِ، كلها ثَلاثَةً ثلاثةً، فُوضعت الأعداد على الْتَّوالِي دالَّةً على أعداد العقود لا غيرُ،

وجعلتِ الحروف الدَّالَّة [ظ٤٧/٢] على أصنافِ العُقُودِ في كل كلمةٍ من الآحاد والعشراتِ والمئينَ والألوفِ[1]، وصار عدد الكلمة ـ الموضوع عليها ـ نائباً عن كُلِّ حرفٍ فيها، سواءٌ دلَّ على الآحادِ أو العشراتِ أو المئينَ، فيؤخذ عدد كلِّ كلمةٍ عوضاً من[2] الحروفِ التي فيها، وتجمعُ كلُّها إلى آخرها كما قلناه؛ هذا هو العملُ المتداولُ بينَ النَّاسِ منذُ الأمرِ القديمِ، **وكان بعض من لقيناه من شُيُوخنا يرى أنَّ الْصَّحيح فيها كلمات** أخرى تسعةً مكان هذه، ومتوالية كتواليها، ويفعلونَ بها في الطَّرْحِ بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواءٌ وهي هذه: **أرب، يسقك، جزلط، مدوص، هف، تحذن، عش، خع، ثضظ.** تسع كلماتٍ على توالي العددِ، ولكلِّ كلمةٍ منها عددها الذي في مرتبته فيها الثَّلاثي والرُّباعي والثنائي، وليست جاريةً على أصل مُطَّرد كما تراه. لكن كانَ شيوخنا ينقلونها عن شيخِ المغربِ في هذه المعارفِ من الْسِّيمياء، وأسرار الحروفِ والنِّجامة، وهو أبو العبَّاسِ بن الْبَنَّاء، ويقولون عنه: إنَّ العمل بهذه الكَلمات في طرحِ حِسَابِ الْنِّيمِ أصحُّ من العمل بكلماتِ: أيقش. وا لله يعلم[3] كيف ذلك.

وهذه كلها **مداركُ للغيبِ غير مُستندة إلى برهان ولا تحقيق**، والكتاب الذي وجد فيه حسابُ النِّيمِ غير معزوٍّ إلى أرسطو عند المحققين[4] لما فيه من الآراء البعيدةِ عن التحقيق والبرهان. يشهد لك بذلك تصفُّحهُ إن كنت من أهلِ الرُّسوخِ. انتهى.

ومن هذه القوانين الْصِّناعيَّة لاستخراج الغُيُوبِ فيما يزعمون، **الزَّايرجةُ الْمسَمَّاة: بزَايرجَةِ العالمِ** المعزُوَّةِ إلى أبي العبَّاسِ: **سَيِّدِي أحمد الْسَّبْتِيِّ** من أعلامِ الْمُتَصوِّفَةِ بالمغربِ، كان في آخرِ المئةِ الْسَّادِسَةِ بمُرَّاكِشَ، ولعهد أبي يعقوبَ المنصورِ من مُلوكِ الموحِّدين. وهي غريبةُ العملِ صناعةً، وكثيرٌ من الخواصِّ يولعونَ بإفادةِ الغيبِ منها بعملها المعروفِ المَلْغُوْزِ[5]، فيحرِّضونَ بذلك على حلِّ رمزِه، وكشفِ غامضِهِ، وصورتها التي يقعَ العملُ

١ – في هامش الأصل: «قوله: (والألوف) فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد عن الألف كما سبق في كلامه». وهذا من المشاكلة في اللفظ كما ذهب الدكتور وافي.

٢ – في ن: عن.

٣ – في ن: أعلم.

٤ – انظر الفهرست لابن النديم: ٣٣-٣٦.

٥ – المبني على الألغاز.

عندهم فيها دائرةٌ عظيمةٌ، داخلها دوائرُ متوازيةٌ للأفلاكِ والعناصرِ، والمكوناتِ والرُّوحانيَّات، وغير ذلك من أصنافِ الكائناتِ والعلوم.

وكلُّ دائرة مقسومةٌ بأقسامِ فلكها إمَّا البروجُ، وإمَّا العناصرُ أو غيرهما، وخطوطُ كلِّ قسمٍ مارَّةٌ إلى المركزِ، ويُسَمُّونها الأوتارَ، وعلى كُلِّ وترٍ حروفٌ مُتَتابعةٌ موضوعةٌ، فمنها **بِرُشُومِ**[1] **الزِّمَامِ** الَّتِي هي أشكالُ الأعدادِ عندَ أهلِ الدَّواوينِ والحُسَّابِ بالمغربِ لهذا العهد.

ومنها **برشومِ الْغُبَارِ** المُتَعارفَةِ في داخلِ الزَّايرجَةِ. وبين الدَّوائرِ أسماءُ العلومِ ومواضعُ الأكوان، وعلى ظاهرِ الدَّوائرِ جدولٌ متكثِّرُ البيوتِ المُتَقَاطعةِ طولاً وعرضاً، يشتملُ على خمسةٍ وخمسينَ بيتاً في العرضِ، ومئةً وواحد وثلاثين في الطُّوْلِ، جوانب منه معمورةُ البيوت تارةً بالعدد وأخرى بالحروفِ، وجوانبُ خاليةُ البيوتِ. ولا تعلمُ نسبة تلك الأعدادِ في أوضاعها، ولا القسمةُ التي عَيَّنَتِ البيوتَ العامرةَ منَ الخالية، وحافَّاتُ[2] الْزَّايرجَةِ أبياتٌ [ظ٤٨/١] من عروضِ الْطَّويلِ[3] على رَوِيِّ اللاَّمِ المَنصوبةِ، تتضمَّنُ صورة العمل في استخراجِ المطلوبِ من تلك الزَّايرجةِ، إلا أنَّها من قبيلِ الإلغازِ في عدم الوضوح والجلاء.

وفي بعض جوانبِ الزَّايرجة بيتٌ من الشِّعرِ منسوبٌ لبعضِ أكابر أهلِ الحدَثَان بالمغربِ، وهو **مالكُ بن وهيبٍ** من علماء أشبيليَّة كان في الدَّوْلَةِ اللَّمتُونيَّةِ، ونصُّ الْبَيْتِ:

سُؤَالُ عَظِيمِ الخَلْقِ حُزْتَ فَصُن إذَنْ ... غَرَائِبَ شَكٍّ ضَبْطُهُ الجِدّ مَثَّلا

وهو البيتُ المتداولُ عندهم في العملِ لاسْتِخراجِ الجوابِ منَ الْسُّؤالِ في هذه الزَّايرجَةِ وغيرها.

فإذا أرادوا استخراج الجوابِ عمَّا يُسْأَلُ عنهُ من المَسَائلِ كتَبُوا ذلك الْسُّؤَالَ وقَطَّعوهُ حُرُوفاً، ثم أخذوا الطَّالِعَ لذلك الوقتِ من بروجِ الفَلَكِ ودرجها، وعمدوا إلى الْزَّايرجَةِ، ثم إلى الوترِ المكتنفِ فيها بالبُرجِ الْطَّالع من أوَّلِهِ ماراًّ إلى المركزِ، ثم إلى محيط الدَّائرةِ قبالة الطَّالِعِ، فيأخذون جميع الحروفِ المكتوبةِ عليهِ من أوَّلِهِ إلى آخرهِ والأعدادَ المرسومة بينهما،

---

١ - قوله: برشوم: أي: موضوعة بضم الراء جمع برشم بالشين المعجمة.

٢ - في ظ: حفا في.

٣ - أي: على وزن البحر الطويل وهو من أوزان الشعر.

ويصيِّرونها حروفاً بحسَابِ الجُمَّلِ. وقد ينقلونَ آحادها إلى العَشَرَاتِ، وعشراتها إلى المئين، وبالعكسِ فيهما، كما يقتضيه قانونَ العملِ عندهم، ويضعونها مع حروفِ السُّؤالِ، ويضيفُونَ إلى ذلك جميعَ ما على الوترِ المكتنفِ بالبرجِ الثَّالِثِ من الطَّالعِ من الحروفِ والأعدادِ من أوَّلهِ إلى المركز فقط، لا يتجاوزونه إلى المحيطِ، ويفعلونَ بالأعدادِ ما فعلوهُ بالأوَّلِ، ويضيفونها إلى الحروفِ الأخرى، ثمَّ يُقَطِّعونَ حروفَ البيتِ الَّذي هو أصلُ العملِ وقانونهُ عندهم، وهو بيتُ مالكِ بن وَهيبٍ المتقدِّم، ويضعونها ناحيةً، ثم يضربونَ عدد دَرَجِ الطَّالعِ في أُسِّ البُرجِ. وأُسُّهُ عندهم هو بُعْدُ البرجِ عن آخرِ المراتبِ، عكسُ ما عليه الأسُّ عند أهل صِناعةِ الحِسَابِ، فإنَّهُ عندهم البُعدُ عن أوَّل المَرَاتِبِ، ثُمَّ يَضْرِبُونهُ في عددٍ آخرَ يُسَمُّونَهُ الأُسَّ الأكبرَ، والدَّوْرَ الأَصْلِيَّ، ويدخلونَ بمَا تجمَّعَ لهم من ذَلِكَ في بُيُوتِ الجَدْوَلِ عَلَى قَوَانين معروفة، وأعمالٍ مذكورةٍ، وأدوارٍ معدودةٍ، ويستخرجونَ منها حروفاً ويُسقطونَ أخرى، ويُقابلونَ بما معهم في حروفِ البيتِ، وينقلونَ منه ما ينقلون إلى حروفِ السُّؤالِ، وما معها، ثُمَّ يَطْرَحونَ تلكَ الحروفَ، بأعدادٍ مَعْلُومَةٍ يُسَمُّونها **الأدوارَ**، ويخرجونَ في كُلِّ دورِ الحرفَ الَّذِي ينتهي عندهُ الدَّوْرُ، ويُعاودونَ ذلك بعددِ الأدوارِ المُعَيَّنَةِ عندهم لذلك فيخرجُ آخرها حروفٌ مُتَقَطِّعَةٌ، وتؤلَّفُ على التَّوَالِي فَتَصِيْرُ كلماتٍ منظومة في بيتٍ واحدٍ على وزنِ البيتِ ـ الَّذي يُقابلُ به العمل ـ ورويِّهِ، وهو بيت مالكٍ ابن وهيبٍ المتقدِّم، حَسْبَما نذكُر ذلك كُلَّهُ في فصلِ العلوم عند كيفيَّةِ [ظ٤٨/٢] العملِ بهذه الزَّايرجَةِ.

وقد **رأينا كثيراً** من الخواصِّ يَتَهافتونَ على استخراجِ الغيبِ منها بتلكَ الأعمالِ. ويحسبونَ أنَّ ما وقعَ من مطابقةِ الجوابِ للسُّؤال في توافقِ الخِطَابِ دليلٌ على مطابقةِ الواقعِ، وليس ذلك بصحيحٍ. لأنَّهُ قد مرَّ لك أن **الغيبَ لا يُدرَكُ بأمرٍ صناعيٍّ ألبتة**، وإنَّما المُطابقةُ الَّتي فيها بين الجوابِ والسُّؤالِ، من حيثُ الإفهام والتَّوافقُ في الخطابِ، حتَّى يكونَ الجوابُ مُستقيماً أو موافقاً لِلسُّؤالِ.

ووقوعُ ذلك في هذه الصِّناعةِ في تكسير الحروف المُجتمعةِ من السُّؤالِ والأوتارِ، والدُّخول في الجدولِ بالأعدادِ المُجتمعةِ من ضرب الأعدادِ المفروضةِ، واستخراجِ الحروفِ من الجَدْوَلِ بذلك، وطرحِ أخرى ومعاودَةُ ذلك في الأدوار المعدودةِ، ومقابلةِ ذلك كُلِّهِ بحروفِ البيتِ على التَّوالي غير مستنكرٍ، وقد يقعُ الاطِّلاعُ من بعض الأذكياء على تناسب

بين هذه الأشياء فيقعُ له معرفة المجهول، **فالتناسب بين الأشياء هو سببُ الحُصُول على المجهول من المعلومِ الحاصِل للنفسِ وطَريقٌ لحصولِه**، سِيَّما من أهل الرِّيَاضَةِ، فإنَّها تُفيدُ العقلَ قوَّةً على القِيَاسِ، وزيادةً في الفكر، وقد مرَّ تعليلُ ذلك غير مَرَّةٍ.

ومن أجل هذا المعنى ينسبونَ هذه الزَّايرجَةَ في الغالبِ لأهلِ الرِّياضةِ، فهي منسوبةٌ **للسَّبتي**، ولقد وقفتُ على أخرى منسوبة **لسهل بن عبد الله**.

ولعمري إنَّها من الأعمالِ الغريبةِ والمعاناةِ العجيبةِ. **والجوابُ** الَّذِي يخرجُ منها، **فالسِّرُّ في خروجِهِ** منظوماً يظهر لي، إنَّما هو المقابلةُ بحروفِ ذلك البيت، ولهذا يكونُ النَّظمُ على وزنه ورويِّهِ. ويدُلُّ عليه أنَّا وجدنا أعمالاً أخرى لهم في مثلِ ذلك أسقطوا فيها المُقَابَلَةَ بالبيتِ، فلم يخرُج الجوابُ منظوماً كما تراه عند الكلامِ على ذلك في موضعه.

وكثيرٌ من النَّاسِ **تَضِيْقُ مداركُهُمْ عن التَّصْدِيْق** بهذا العملِ ونفوذِهِ إلى المَطْلُوْبِ، فينكرُ صِحَّتَهَا ويحسبُ أنَّها من التَّخيُّلاتِ والإيهامَاتِ، وأنَّ صاحبَ العملِ بها يُثْبتُ حُرُوْفَ الْبَيْتِ الَّذِي يَنْظِمُهُ، كما يُرِيْدُ بينَ أثناء حُرُوْفِ السُّؤَال والأوتار، ويفعلُ تلك الصِّناعاتِ على غير نِسْبَة، ولا قانون، ثم يجيىءُ بالبيتِ ويوهم أنَّ العملَ جاء على طريقةٍ منضبطة، وهذا الحِسْبَانُ توهُّمٌ فاسِدٌ حملَ عليه القصورُ عن فهمِ التَّنَاسُبِ بينَ الموجوداتِ والمعدوماتِ، والتَّفَاوُتِ بينَ المَدارِكِ والعقول. ولكن من شأن كُلِّ مدركٍ إنكارُ ما ليسَ في طوقِهِ إدْرَاكُهُ، ويكفينا في رَدِّ ذلك مُشَاهدةُ العملِ بهذه الصِّناعة، والحدسُ القَطْعِيُّ فإنَّها جاءت بعملٍ مُطَّرِدٍ، وقانون صَحيحٍ لا مِرْيَةَ فيه عندَ من يباشرُ ذلك مِمَّنْ له ذكاءٌ وحدْسٌ.

وإذا كانَ كثيرٌ منَ الْمعايَاةِ[1] في العدد الَّذي هو أوضح الواضحاتِ يَعْسُرُ على الفهم إدْرَاكُهُ، لِبُعد النِّسْبَةِ فيه وخَفَائها؛ فَمَا ظَنُّكَ بمِثْلِ هذا مع خفَاء [ظ٤٩/١] النِّسْبَةِ فِيْهِ وَغرَابتها!! فَلنَذْكُر **مَسْأَلَةً من الْمُعَايَاةِ** يَتَّضِحُ لكَ بهَا شيءٌ مما ذكرناهُ مِثَالُهُ:

لو قيلَ لك خُذْ عدداً من الدَّرَاهِم، واجْعَلْ بإزَاء كل درهم ثَلاثَة من الْفُلُوس، ثُمَّ اجْمَع الْفُلُوْسَ الَّتِي أُخِذَتْ واشْتَر بهَا طائراً، ثُمَّ اشْتَر بالدَّراهِم كُلِّهَا طُيُوْراً بسِعْرِ ذَلِكَ الطَّائِر، فكم الْطُّيُورُ الْمُشْتَرَاةُ بالدَّراهِمِ والفلوس؟ فجوابُهُ أن تقولَ: هي تسعةٌ. لأنَّك تعلمُ أن فلوسَ الدَّراهم أربعةٌ وعشرونَ، وأنَّ الثَّلاثَةَ ثَمَنُهَا، وأنَّ عدَّةَ أثمان الواحد ثمانيةٌ، فإذا جمعتَ الثَّمنَ من الدَّراهمِ إلى الثَّمَنِ الآخرِ فكانَ كلهُ ثَمَن طائرٍ، فهي ثمانيةُ طُيُوْرٍ، عدَّةُ

---

[1] - أي: التعقيد الذي لا يكاد يفهم أو يوجد له حل.

أثمانِ الواحدِ، وتزيدُ على الثَّمانيةِ طائراً آخرَ وهو المُشترى بـالفُلُوْسِ المأخوذةِ أوّلاً، وعلى سِعْرِه اشتريتَ بالدَّراهمِ، فتكونُ تِسْعَةً. فأنتَ ترى كَيْفَ خرجَ لكَ الجَوَابُ المُضْمـرُ بسِرِّ التَّناسُبِ الَّذي بينَ أعدادِ المَسْأَلَةِ، والوهمُ - أوَّلُ ما يُلْقى إليك هذه وأمثالها - إنّما يجعلُهُ من قبيلِ الغيبِ الّذِي لايُمكنُ معرفتهُ، وظهرَ أنَّ التَّناسبَ بينَ الأمورِ هو الذي يُخرج مجهولها من معلومها، وهذا إنما هو في الواقعات الحاصِلَةِ في الوجود أو العلمِ.

وأمَّا **الكائناتُ المستقبلة** إذا لم تُعلم أسبابُ وُقُوعها، ولا يثبتُ لا خبرٌ صَادِقٌ عنها فهو غيبٌ لا يُمكنُ معرفتُهُ.

وإذا تبيَّنَ لك ذلك فالأعمالُ الواقعةُ في الزَّايرجَةِ كُلِّها، إنَّما هي في **استخراجِ الجوابِ من ألفاظِ السُّؤال**؛ لأنَّها كما رأيت استنباطُ حروف على ترتيب من تلك الحروفِ بعينها على ترتيبٍ آخرَ. وسرُّ ذلك إنما هو من تناسبٍ بينهما يطَّلعُ عليه بعضٌ دون بعضٍ، فمن عرف ذلك التَّناسبَ تَيَسَّرَ عليه استخراجُ ذلك الجوابِ بتلكَ القوانين، والجوابُ يدُلُّ في مقامٍ آخرَ من حيثُ موضوعُ ألفاظهِ وتراكيبهِ على وُقُوعِ أحدِ طَرَفَي السُّؤَالِ من نفي أو إثباتٍ، وليس هذا من المقام الأوَّلِ بل إنَّما يرجعُ لمطابقةِ الكلامِ لما في الخارجِ، ولا سبيلَ إلى معرفةِ ذلك من هذه الأعمال، بل البَشَرُ محجوبون عنه، وقدِ اسْتأثرَ الله بعلمهِ ﴿والله يعلمُ وأنتُم لا تعلمون﴾[البقرة: ٢٣٢، آل عمران: ٦٦]. [ظ٤٩/٢].

العمران البدوي

١- أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها.

الضروري من المعاش سابق على الكمالي.

الزراعة والرعي من أجل الضروري، وتلزمهما المعيشة في البادية.

البحث عن الكمالي يؤدي إلى نشأة المجتمع الحضري.

نشاطات المجتمع الحضري...

٢- جيل العرب [أي الذين تعربوا فسكنوا البادية] في الخلقة طبيعي.

أقسامهم: الزراع..

الرعاة: الشاوية (رعاة الشاء والبقر).

رعاة الإبل.

بعض صفات كل قسم.

٣- البدو أقدم من الحضر وسابق عليه.

البادية أصل العمران، والأمصار مدد لها.

تفاوت البدو في تعاملهم مع الحضارة.

٤- أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر.

الفطرة..

تفصيل معنى النهي عن التعرب بعد الهجرة (مذمة البدو).

٥- أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر.

الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه.

اعتمادهم على أنفسهم في الدفاع والحماية بخلاف أهل الحضر.

٦- معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة بالمنفعة منهم.

ضرورة الحكام وأثرهم على صفات الخير.

العقاب مذهب للبأس.

الفرق بين العقاب والتأديب والتعليم، وأثر ذلك على الخلق.

الوازع الداخلي أبقى للملكات في النفس.

تحول الشرع - بنقص الدين في الناس- إلى علم وصناعة.

آداب المؤدبين.

الفرق بين الوحي والتعليم.

٧- سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية.

الشر أقرب الخلال إلى النفس إذا لم يهذبه الاقتداء بالدين.

دفع العدوان في المدن بالحكام، وفي البدو الكبراء فيما شجر بينهم، وفتيان الحي في العدوان الخارجي.

لايتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبة له.

صفات المتفردين في أنسابهم:

لا تصيب منهم النعرة على صاحبه.

التخاذل في الحرب، والهرب في الظلام.

لايسكنون القفر.

الاستعصاء في طباع البشر يستوجب القتال لحمل الناس على النبوة أو الملك أو الدعوة.

٨- تكون العصبية من الالتحام بالنسب أو الولاء والحلف.

كلما قرب النسب اشتد التناصر، وبالعكس.

متى يكون النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر؟

٩- يوجد الصريح من النسب للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم.

١٠- كيفية وقوع الاختلاط في الأنساب؟

١١- بقاء الرئاسة في نصاب مخصوص من أهل العصبية.

١٢- لا تكون الرئاسة على أهل العصبية في غير نسبهم.

أمثلة عن بعض مدعي النسب.

١٣- الحقيقة والمجاز في البيت والشرف:

أهل العصبية أصلاء في ذلك.

غير أهل العصبية بالتبعية لغيره.

الشرف والحسب بالخلال.

معنى البيت.

ثمرة الأنساب.
الحسب في أهل الأمصار مجازي:
معناه.
عدم انتباههم لسر العصبية.
أمثلة من بيوتات العرب وبني إسرائيل.
الرد على ما فهمه من ابن رشد في كتاب الخطابة من معنى الحسب.
١٤- شرف الموالي والمصطنعين بمواليهم لا بأنساهم.
البرامكة وغيرهم في الدولة العباسية.
١٥- نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء:
١- الباني: المجتهد.
٢- ابن الباني: سمع منه وأخذ عنه (المتابع).
٣- حفيده: (مقلد).
٤- الرابع: (المفرط) الذي اعتبر الأمر حقاً بالانتساب لا بشيء آخر، فيثير حفيظة من يعتمد عليه من عشيرته.
البرهان على حدوث الحسب وشبهه بالعناصر.
سبق العدم على كل الحوادث ومنها الحسب.
اشتراط الأربعة غالبي.
الدلالة على ذلك من الحديث الشريف، والتوراة، وأخبار العرب.
١٦- الأمم الوحشية أقدر على التغلب من سواها.
١٧- الغاية التي تجري إليها العصبية الملك.
الفرق بين الرئاسة والملك.
١٨- عوائق الملك: حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم.
على قدر الترف يكون الفناء.
١٩- عوائق الملك: حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم.
المغارم والضرائب.
الحراثة والزراعة.

أمثلة: بنو إسرائيل. وضرورة التيه لتخليص الجيل من التبعية والذل.
قبيلة زناتة ونفي الشاوية عنهم.
ملك الباب وحواره مع عبد الرحمن بن ربيعة.
٢٠- علامات الملك: التنافس في الخلال الحميدة.
الملك خاصة إنسانية.
الشر من القوى الحيوانية التي في الإنسان.
المجد: أصله وجذره: العصبية والعشير.
فرعه ومتممه: الخلال.
خلال الكمال: إكرام العلماء والصالحين.
إكرام الأشراف وأهل الأحساب.
إكرام أصناف التجار والغرباء.
إنزال الناس منازلهم.
علامات سلب الملك: ارتكاب المذمومات.
انتحال الرذائل.
سلوك طرقها.
أول شيء يدل على ذهاب الملك: عدم إكرام الأصناف التي ذكرت في خلال الكمال.
٢١- الأمة الوحشية ملكها أوسع.
٢٢- ذهاب الملك عن بعض الشعوب من أمة ينتقل إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية..
٢٣- المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في سائر أحواله.
سبب ذلك: ظنهم أن قوته من شاراته وعوائده وليس من العصبية.
التشبه بعوائد قوم من علائم الاستيلاء.
العامة على دين الملك.
٢٤- علامة فناء الأمة: غلبة العدو لها ودخولها في ملك غيرها.

أسباب ذلك: التكاسل والتراخي بملك غيرها لها.
قصر الأمل.
ضعف القوى الحيوانية.
ضعف التناسل.
فقد الحوافز على النمو والتزايد.
ملاحظة ذلك في : الحيوانات المفترسة.
أمة الفرس.
سبب قبول بعض الأقوام للرق: نقص الإنسانية.
الأمل في حصول عز لاحق.
٢٥- العرب: لايتغلبون إلا على البسائط.
سبب ذلك.
٢٦- العرب: سرعة الخراب إلى الأوطان التي تغلبوا عليها.
أسباب ذلك.
٢٧- العرب: لايحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية.
سبب ذلك.
سبب سرعة قبولهم للدين.
٢٨- العرب: أبعد الأمم عن سياسة الملك.
كيفية و ضوابط وعيهم لسياسة الملك.
٢٩- تابعية أهل البوادي لأهل الأمصار.
حاجتهم للضروريات: المصنوعة.
للنقود في البيع والشراء.
جزئية هذه التابعية.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

١-٢- الفصل الثَّاني من الكتاب الأول في الْعُمرانِ البَدَوي، والأمم الوحشية والقَبائلِ وما يَعرضُ في ذلك منَ الأحوالِ.

وفيه فصولٌ وتمهيداتٌ:

١-٢-١- الْفَصْلُ الأوَّلُ في أنَّ أجيالَ البَدْوِ والحَضَرِ طَبيعيَّة

اِعْلَمْ: أَنّ اختلافَ الأجيالِ في أحوالهم، إنَّما هو باختلافِ نحلتهم[١] منَ المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتَّعاونِ على تحصيلهِ والابتداءِ بما هو ضروريٌّ منهُ وبَسِيْطٌ[٢] قبل الحاجيِّ[٣] وَالْكَمَالِيّ.

فمنهم مَنْ يَسْتَعْمِلُ الْفَلْحَ[٤] من الغراسَةِ والْزِّراعةِ؛ ومنهم من ينتحلُ القِيَام على الحيوانِ منَ الغَنَمِ والبَقَرِ والمعزِ والنَّحْلِ وَالْدُّوْدِ لِنِتَاجِهَا، واستخراج فَضَلاتها. وهؤلاءِ القائمون على الفَلْحِ والحيوان، تدعوهم الْضَّرُوْرَةُ ـ ولَا بُدَّ ـ إلى البَدْوِ[٥] لأَنَّهُ مُتَّسِعٌ لما لاَ يَتّسِعُ لهُ الحواضِرُ من المزارِعِ وَالْفُدُن[٦] وَالْمَسَارِحِ للحَيَوانِ وغير ذلك، فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضروريّاً لهم؛ وكان حينئذٍ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعُمرانهم من الْقُوْتِ وَالكِنِّ[٧] وَالْدِّفءِ إنَّما هو بالمقدارِ الذي يحفظ الحياة، ويُحصِّلُ بُلْغَةَ العيشِ من غير مزيدٍ عليهِ للعجزِ عمَّا وراء ذلك.

---

١ – النحلة: العطية والهبة، والمذهب..

٢ – في ن: نشيط.

٣ – أي: غير الأساسي والضروري.

٤ – أي: فلاحة الأرض.

٥ – أي سكنى البادية ، والإقامة فيها.

٦ – جمع فدان. والمرادُ به هنا: آلة الحرث.

٧ – الكن: وقاء كل شيء وستره.

ثُمّ إذا اتَّسَعت أحوالُ هؤلاءِ المُنْتَحِلِينَ للمَعَاشِ، وَحَصَلَ لهم ما فوق الحاجةِ مِنَ الغِنَى وَالرَّفهِ، دعاهُمْ ذلك إلى السُّكونِ والدَّعَةِ، وتعاونوا في الزَّائِدِ على الضَّرُوْرَةِ، واسْتكثَروا منَ الأقْوَاتِ والمَلابس وَالتَّأنُّق فيها، وتوسعةِ البيوتِ واختِطَاطِ المُدُن والأمْصَار للتَّحَضُّر.

ثُمَّ تَزيدُ أحوالُ الرَّفهِ والدَّعَةِ فتجيءُ عوائدُ التَّرَفِ البَالِغَةُ مبالغَها في التَّأنُّق في علاجِ القُوْتِ واستِجادَةِ المَطَابخ، وانتقاء الملابسِ الفاخرةِ في أنواعها مِنَ الحريرِ والدِّيباجِ وغير ذلك، ومُعَالاَةِ الْبُيُوتِ وَالْصُّرُوحِ، وَإحْكَامِ وَضْعِهَا في تنجيدها[1]، والانتهاء في الصَّنائِع[2] - في الخُرُوجِ من الْقُوَّةِ إلى الفعلِ - إلى غايتِهَا، فيتخذون القُصُورَ والمنازلَ ويجرُّونَ فيها المياهَ، ويُعَالُونَ في صرحهَا، وَيُبَالغونَ في تنجيدها، ويختلِقُونَ[3] في اسْتِجَادَّةِ ما يَتَّخذونه لمعاشِهِمْ من مَلْبُوسٍ أو فراشٍ أو آنيةٍ أو ماعُون، وهؤلاء هم الحضرُ ومعناه: الحاضرون أهل الأمْصَارِ، والبُلْدَان.

ومن هؤلاء مَن يَنْتَحِلُ [ظ٥٠/١] في معاشه الصَّنائع. ومنهم من ينتحلُ التِّجَارة، وتكون مكاسِبُهم أَنْمَى[4] وَأَرْفَهُ من أهلِ البدوِ[5]، لأنَّ أحوالهم زائدةٌ على الضَّروريّ، ومعاشهم على نِسْبَةِ وُجدِهم[6].

فقد تَبَيَّنَ أنَّ أجيالَ البَدْوِ والحَضَرِ طَبِيْعِيَّةٌ لاَ بُدَّ منها[7] كما قُلْنَاهُ.

---

١ - أي تزينها وفرشها.

٢ - جمع صناعة، وهي الحرف والمهن.

٣ - أي: يبتكرون. وفي ن: يختلفون. ولكل وجه.

٤ - أي: أوفر وأكثر.

٥ - أي سكان البادية.

٦ - الوجد: اليسار والسعة.

٧ - قال الدكتور اليافي في تمهيد في علم الاجتماع (ص١٠٥ - ١٠٦): أن ابن خلدون يرى شكلين للمجتمع البشري يمر بهما في تطوره، وهما البدو والحضر ويجدهما طبيعيين ولكنهما مختلفان في أوصاف أجيالهما النفسية، والبدو بصورة عامة أقرب إلى الشجاعة والتضامن والعصبية والخلال الحميدة وأسرع إلى التغلب، والحضر أقرب إلى الرفاهية والتأنق وأبعد عن تلك الخلائق المحمودة. ولا يخفى أن أحد ممثلي المدرسة الاجتماعية الشكلية الألمانية وهو تونيز ... يذهب هذا النحو في استخلاص شكلين للمجتمع وهما على حد تعبيره العشير والمجتمع. وتختلف العلائق الاجتماعية فيهما إذ يستند الشكل الأول إلى التضامن العفوي والتعاطف وإلى القربى والأسرة والقبيلة وأمثال ذلك. ويستند الشكل الثاني الذي يأتي بعده في التطور إلى الإرادة الواعية الطليقة والتعاقد الحر والمصالح الشخصية وهكذا. ولا يخفى ما بين المؤلفين من شبه في نزعة البحث.

١ـ٢ـ٢ـ الْفَصْلُ الثَّاني
في أنَّ جيلَ العَرَب[١] في الخلقة طَبِيعيٌّ[٢]

قد قَدَّمنا في الفصل قبلهُ أنَّ أهلَ البَدْوِ، همُ الْمُنتَحِلُونَ للمَعَاشِ الْطَّبِيْعِيِّ من الْفَلْحِ وَالْقِيَامِ على الأنعام، وأنَّهم مقتصرون على الْضَّرُوْرِيِّ مِنَ الأقوات والملابسِ والمَسَاكِنِ وَسَائرِ الأحوالِ والعوائدِ، ومُقَصِّرونَ عمَّا فوقَ ذلك من حَاجِيٍّ أو كَمَاليٍّ، يتَّخِذُونَ

---

١ - لم تستطع معاجم اللغة الجزم بمعنًى محدد لهذه الكلمة، ومن يعود إلى الآرامية يجدها تعبر عن الماء . والذي يجب الرجوع إليه هو محاولة اكتشاف حقيقة هذه الكلمة والانتباه إلى معانيها القرآنية.. علماً أنها لم ترد كنسبة إلى قوم، ومن نسب إلى قوم سمي أعرابياً.. والـذي في القـرآن الكـريم: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[يوسف: ٢] و ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ﴾[النحل: ١٠٣] و﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾[الرعد: ٣٧]. وإذا عرفنا أن السماء السابعة تسمّى عروباء ونساء أهل الجنة يُسَمَّيْنَ عُرُباً، ويوم الجمعة يوم العروبة.. وبإعادة الكلمة إلى جذرها الثنائي نجد أن هذه الكلمة تشير إلى الارتباط بالرب ﷻ، كما أن كلمة عجم منسوبة إلى (الجـم) وهـو الكثرة ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف: ١٠٣]. فالعربي: من كان منسوباً إلى الرب الواحد ﷻ ولو كان في إفريقيا، ولذلك قيل: (صمغ عربي) لعدم تدخل البشر في صنعه، وحصان عربي... ومن لم يكن مع الله سبحانه اعتُبِرَ أعجمياً ولو كان قرشياً.. ولذلك نسبت الجزيرة إلى العربية لما فيها مـن عباد الله وبيوت الله ﷻ.

يصعب على الباحث في معاجم البيان العربي إعطاء تحديد دقيق لكلمة عرب، ذلك أنهم يتحدثون عن تمظهر الكلمة عبر مجموعة من الاستعمالات، بعيداً عن جوهر الكلمة ولبها، الذي أعطاها ذاك الرونق، وصبغ بها المنتسبين إليها. ولذلك تجد:

ـــ التخبط في أولية الانتساب، وربما يكون بعضه مختلقاً.

ـــ الانحراف في تفسير بعض الكلمات المرتبطة بهذا الجذر.

ـــ تجاوز بعض المعاجم الحديثة المعاني الحسنة، وإبراز نقيضها.

لاحظ بعض العلماء أن العروبة كلمة ذات دلالة قديمة سبقت أسماع من أطلق عليهم لفظ العرب، **حتى** ظُنّ أن الكلمة من غير لسانهم. قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث: وفي حديث **الجمعة**: (كانت تُسَمَّى عَرُوبة). هو **اسمٌ قديمٌ** لها، وكأنه ليس بعَرَبي. يقال: يَوْمٌ عَرُوبةٌ، ويومُ العَرُوبة. والأفصَحُ أن **لا** يَدْخُلَها الألفُ واللامُ. **وعَرُوباء**: اسم السَّماء السَّابعة. وما إطلاق هذا الاسم على السماء السابعة من قبيل إلقاء الكلام على عواهنه، وإنما هي إشارة إلى الحَقيقة المرتبطة بالسماء.ومنها كان وصف نساء الجنة بالعُرُب.

٢ - أي أن نمط الحياة الخاص بالعرب ومن في معناهم، مرحلة طبيعية في سلم التطور البشري، لأنه أسلوب في العيش والحياة تفرضه عليهم الظروف الطبيعية والمعاشية لمناطق سكناهم. (العصبية والدولة:٤٤٢).

البيوتَ من الْشَّعرِ والوَبَرِ أو الْشَّجرِ، أو منَ الْطِّينِ والحجَارة غيرَ مُنَجَّدة، إنَّما هو قصدُ الاستظلال والكنِّ، لا مَا وراءَهُ، وقد يأوونَ إلى الْغيْرَان[١]، والْكُهوف.

وَأَمَّا أقوَاتُهُمْ فيتناولونَ بها يَسيْراً بعلاَجٍ أو بغيرِ علاجٍ ألْبَتَّةَ إلاَّ ما مَسَّته النَّارُ. فَمَنْ كانَ مَعَاشهُ منهم في الزِّراعة والقيام بالفَلْحِ، كانَ المقامُ به أولى من الْظَّعنِ، وهؤلاء سُكَّانُ المَدَرِ والْقُرى والجبَال، وهم عامَّةُ الْبَرْبَرِ والأعَاجم.

ومن كَانَ معاشهُ في الْسَّائمَةِ مثل الغَنَمِ والبَقَرِ فهم ظُعَّنٌ في الأغلبِ لارْتيَادِ المَسَارحِ والمياهِ لحيواناهم، فالتَّقَلُّبُ في الأَرَضِ أصلحُ بهم، ويُسَمَّونَ **شاوية**. ومعناه: القَائمونَ على الشَّاءِ والبقرِ، ولا يبعدُونَ في القفرِ لفُقدانِ المَسَارحِ الطَّيِّبَةِ، وهؤلاء مثلُ البَرْبَرِ والتُّرْك وإخوانهم من التُّرْكُمانِ والْصَّقَالبَة.

وأمَّا من **كان معاشهم في الإبلِ**، فهم أكثرُ ظعناً، وأبعدُ في القفرِ مجالاً، لأنَّ مَسَارحَ التُّلولِ ونَبَاها وَشَجرها لا يستَغني بها الإبلُ في قوامِ حَيَاتها عن مراعي الشَّجَرِ بالقفرِ وورُود ميَاهه الملحَة، والتَّقلُّب فصل الْشِّتَاء في نواحيه فراراً من أذى البَرْدِ إلى دفءِ هوائه، وطلباً لماخضِ[٢] النِّتَاجِ في رمَاله، إذ الإبلَ أصعب الحيوانِ فصَالاً ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدِّفءِ، فاضطُرُّوا إلى إبعَادِ النُّجْعَة[٣]، ورُبَّما ذادهُم الحاميَةُ عن التُّلوْلِ أيضاً، فأوغلوا في الْقِفَارِ نُفرة عن الْضعَة منهم، فكانوا لذلك أشدَّ النَّاسِ توحُّشاً. ويترلون من أهل الحواضرِ مترلةَ الوحشِ غيرَ المقَدورِ عليه والمفترسِ من الحيوانِ العُجم. **وهؤلاء همُ العربُ**، وفي معناهم ظُعُونُ البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتُّركُمَان والتُّرْك بالمَشرق. إلاَّ أنَّ العربَ أبعدُ نُجعةً[٤]، وأشدُّ بداوةً، لأنَّهم مختصُّونَ بالقيام على الإبل فقط. وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشِّياه والبقر معها، فقد تبين لك أنَّ جيل العربِ طبيعيٌّ، لا بُدَّ منه في العمرانِ. واللهُ الخلاقَ العليم[٥]. [ظ٥٠/٢].

---

١ – جمع غار.
٢ – يريد كثير الولادة والنسل وجيدها.
٣ – أي: الذهاب في طلب الكلأ والمرعى.
٤ – أي أكثر تنقلاً وتوغلاً في الصحراء. (العصبية والدولة:٤٤٥).
٥ – في المطبوع: والله سبحانه وتعالى أعلم. والمثبت من ظ.

١-٢-٣- الْفَصْلُ الثَّالِثُ

في أنَّ البداوَةُ أقدَمُ منَ الحَضَرِ وَسَابقٌ عليه، وأنَّ البَادِيَةَ أصلُ العُمْرَان، والأمصارَ مددٌ لها

قد ذكرنا أنَّ البدو هم المقتصرون على الْضَّرُوْرِيِّ[1] في أحوالهم، الْعَاجزُونَ عمَّا فَوْقَهُ، وَأَنَّ الحَضَرَ الْمُعْتَنُونَ بحَاجَاتِ الْتَّرَفِ والكمالِ في أحوالهم وَعَوَائدهم[2]، وَلاَ شَكَّ أَنَّ الْضَّرُوْرِيَّ أقدمُ منَ الحَاجيِّ[3] والْكَمَالِيِّ[4] وَسَابقٌ عليه، ولأنَّ الْضَّرُوْرِيَّ أصلٌ والكمَالِيَّ فرعٌ نَاشيءٌ عنهُ، فالبدو أصلٌ للمُدُن والحَضَرِ وَسَابقٌ عليهما؛ لأنَّ أولَ مَطَالِبِ الإنْسَانِ الْضَّرُوْرِيُّ، وَلاَ ينتهي إلى الكَمَالِ وَالْتَرَفِ، إلا إذا كان الْضَّرُوْرِيّ حاصِلاً. فَخُشُونَةُ الْبَدَاوةِ[5] قبلَ رِقَّةِ الْحَضَارَةِ. ولهذا نجدُ **التَّمدُّنَ غايةً للبَدَويِّ يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مُقْتَرَحِهِ منها**. ومتى حصلَ على الرِّيَاش الَّذي يحصلُ لَهُ به أحوالُ الْتَّرَفِ وعوائدهُ عاجَ إلى الْدَّعَةِ، وأمكن نفسه إلى قياد المدينة، وهكذا شأنُ القَبَائلِ المتبَدِّية كُلِّهم.

والحَضَرِيُّ لا يَتَشَوَّفُ إلى أحوال البَادِيَةِ، إلا لِضَرورةٍ تدعوهُ إليها، أو لتَقصِيْرٍ عن أحوال أهل مدينتهِ.

ومما يشهد لنا أن الْبَدْوَ أصلٌ للحَضَرِ ومُتَقَدِّمٌ عليه أنَّا إذَا فَتَّشْنَا أهل مصرٍ مِنَ الأمصَارِ وجدنَا أوَّلِيَّة أكثرهم من أهل البَدْوِ الَّذِينَ بناحيةِ ذلكَ المِصْرِ وفي قراه، وأنَّهم أيْسَرُوا فسكَّنوا المِصْرَ، وعدلوا إلى الدَّعَةِ والتَّرَفِ الَّذي في الحضرِ. وذلك يدلُّ على أنَّ أحوالَ الحَضَارةِ نَاشِئَةٌ عن أحوالَ البَدَاوَةِ، وأنها أصلٌ لها فتفهَّمْهُ.

ثُمَّ إنَّ كل واحدٍ من البدوِ والحضرِ متَفَاوتُ الأحوالِ من جنْسِهِ، فَرُبَّ حيٍّ أعظم من حَيٍّ، وقبيلة أعظمَ من قَبِيْلَة؛ ومِصْرٌ أوسَعَ من مِصْرٍ، ومَدينة أكثر عُمراناً من مدينة. فقد تَبيَّنَ أنَّ وجودَ البدوِ مُتَقَدِّمٌ على وجودِ المُدُن وَالأَمْصَارِ وَأَصْلٌ لها، كما[6] أنَّ وجودَ المُدُن والأمصارِ من عوائدِ التَّرَفِ والدَّعَةِ، التي هي متأخِّرةٌ عن عوائد الْضَّرورة المَعَاشية. والله أعلم.

---

١ - أي ما لابد منه لقوام حياتهم. (البساطة).

٢ - جمع عادة، وهي الأفعال التي ترسخ نتيجة لتكرارها.

٣ - الحاجي: ما يحتاجون إليه في شؤون معاشهم، مما يمكن الاستغناء عنه. (الوسط).

٤ - الكمالي: المكمل للحاجي، مما لايسبب فقده ضرراً. (الرفه).

٥ - أي الحياة المعاشة لأهل الصحراء، وما فيها ظروف حياتية خاصة، تطبع الإنسان بطابعها.

٦ - في الأصل: بما.

١-٢-٤- الْفَصْلُ الرَّابعُ

في أَنَّ أهلَ الْبَدْوِ أقربُ إلى الخيرِ من أهلِ الحضر

وَسَبَبُهُ: أنَّ النَّفس إذا كانت على الْفِطْرَةِ الأُوْلَى كانت مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عليها وينطبعُ فيها من خَيْرٍ أو شَرٍّ، قالَ صلى الله عليه وسلم: «**كُلُّ مولودٍ يُوْلَدُ عَلَى الْفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[١].

وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا من أحدِ الْخَلْقَيْنِ تَبْعُدُ عنِ الآخرِ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهَا اكتِسَابُهُ. فَصاحِبُ الخير إذا سبقت إلى نفسهِ عوائد الخير، وَحَصَلَت لها مَلَكَتُهُ بَعُدَ عنِ الْشَّرِّ، وَصَعُبَ عليهِ طَرِيْقُهُ. وَكَذَا صَاحِبُ الْشَّرِّ، إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ أيضاً عوائدُهُ.

وأهلُ الحضَرِ لكثرَةِ مَا يُعَانون من فُنُوْنَ الْمَلاَذِّ وعوائدِ التَّرَفِ والإِقْبَالِ عَلَى الْدُّنْيَا وَالْعُكُوْفِ على شَهَوَاتِهِمْ منها، قد تلوَّثت أنفسهم بكثيرٍ من مذموماتِ الخَلقِ وَالْشَّرِّ، وبعُدت عليهم طرُقُ الخيرِ ومَسَالِكُهُ بقَدْرِ [ظ١/٥١] مَا حَصَلَ لهم من[٢] ذلكَ حَتَّى لقد ذَهَبَتْ عنهم مذاهب الحِشْمَةِ في أحوالهم، فتجدُ الكَثيرَ منهم يَقْذِعُونَ في أقوال الْفَحْشَاءِ في مجالسهم، وبينَ كبرائهم وأهلِ محارمهم لاَ يَصُدُّهُمْ عنه وازِعُ الحِشْمَةِ لِمَا أخذتهم به عوائدُ الْسُّوءِ في الْتَّظَاهُرِ بالفواحِشِ قولاً وَعَملاً.

وأهلُ الْبَدْوِ وإن كانوا مُقْبِلِيْنَ عَلَى الْدُّنيَا مِثْلَهُم، إلاَّ أَنَّهُ في المقدارِ الْضَّرُوْرِيِّ لاَ في التَّرَفِ ولا في شَيءٍ من أسبابِ الْشَهَواتِ واللَّذَّاتِ ودواعيها.

فَعَوَائدهم في معاملاتهم على نِسْبَتِهَا؛ وما يحصُلُ فيهم من مَذَاهِبِ الْسُّوءِ ومذموماتِ الخُلُقِ بالْنِّسْبَةِ إلى أهلِ الحَضَرِ أقلُّ بكثير. فهم أقربُ إلى الفطرةِ الأوُلى، وأبعدُ عمَّا يَنْطَبِعُ في النَّفْسِ من سوءِ المَلَكَاتِ بكثرةِ العوائِدِ المَذْمومةِ وقُبْحِهَا فَيَسْهُلُ عِلاَجُهُمْ عن علاجِ الحَضَرِ وَهُو ظاهرٌ.

وقد يَتَّوضحُ فيما بعدُ أَنَّ **الحَضَارَةَ** هي نهايةُ العُمْرَانِ وخروجه إلى الْفَسَادِ، وَنِهَايَةُ الْشَّرِّ وَالْبُعْدِ عن الخَيْرِ.

---

١ - أخرجه البخاري (١٢٩٢) و(١٢٩٣) و(٤٤٩٧) و(٦٢٢٦) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة بنحوه.

٢ - ليس في ظ: من.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ البَدْوِ أقربُ إلى الخـيرِ مـن أهـل الحَضـرِ، و﴿ا للهُ يُحِـبُّ الْمُتَّقِـينَ﴾[آل عمران: ٧٦. والتوبة: ٤ و٧]. وَلاَ يُعْتَرَضُ على ذلك بما وردَ في صحيح البُخـاري[١] مـن قَوْلِ الحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بنِ الأَكْوَعِ، وقد بلغهُ أَنَّهُ خرجَ إلى سُكنى البَادِيَةِ، فقال له: ارتَـدَدَتَ على عَقِبَيْـكَ؟ تَعَرَّبـتَ!! فقـال: لا، ولكـنَّ رسـول ا للهِ صلـى ا لله عليـه وسـلم أَذِنَ لي في الْبَدْوِ.

فاعلم أنَّ **الهجرةَ** افترضت أوَّل الإسلام، على أهل مكـة ليكونـوا مـع النَّبِـيِّ صلـى ا لله عليه وسلم حيثُ حلَّ من المواطنِ ينصرونـه ويُظَاهرونـه علـى أمـرهِ ويحرسـونهُ، ولم تكـن واجبةً على الأعرابِ أهل الْبَادِيَةِ؛ لأنَّ أهل مكَّة يَمَسُّهُم من عَصَبيَّةِ النَّبِـيِّ صلـى ا لله عليـه وسلم في الْمُظَاهَرَةِ[٢] وَالْحِرَاسَةِ مَالا يَمَسُّ غيرهم من بَادِيَةِ الأَعْرَابِ.

وقد كانَ الْمُهاجرونَ يَسْتَعِيْذُونَ با للهِ منَ **التَّعَرُّبِ** وهو سُـكنى الباديـةِ، حيثُ لا تجبُ الهجرةُ. وقال صلى ا لله عليه وسلم في حديـث سعدِ بـن أبـي وقَّـاصٍ عنـد مرضـهِ بمكَّـة: «**اللَّهُمَّ أَمْضِ لأَصْحَابي هِجْرَتَهُم، وَلاَ تَرُدَّهُـم عَلَـى أَعْقَـابِهِمْ**»[٣]. ومعنـاهُ: أن يوفقهـم لملازَمَةِ الْمَدينةِ وعدمِ التَّحوُّل عنها، فلا يرجعوا عن هجرتهم الـتي ابتـدَؤوا بهـا، وهـو مـن بابِ الرُّجوعِ على العَقِبِ في السَّعْي إلى وجهِ من الوجوه.

وقيلَ: إنَّ ذَلِكَ كان خاصّاً بما قبل الفتح حينَ كـانت الحاجـةُ داعيـةً إلى الهجـرة لقلَّـةِ الْمُسلمين. وأمَّا بعد الفتحِ وحينَ كَـثُرَ الْمُسْـلِمونَ واعـتزوا وتكفَّـل ا لله لنبيِّـه بالعصمـة مـنَ النَّاس، فَإِنَّ الهجرة ساقطةٌ حينئذٍ لقولهِ صلى ا لله عليه وسلم: «**لا هجرةَ بعدَ الْفَتْحِ**»[٤].

وقيلَ: سقطَ إنشاؤها عمَّن يُسْلِمُ بعد الفتح.

وقيلَ: سقطَ وجوبها عمَّنْ أسلَمَ وهاجرَ قبلَ الفتح.

والكُلُّ مجمعونَ على أنَّها بعدَ الوفاةِ[٥] سَاقطةٌ؛ لأنَّ الصَّحابةَ افترقوا من يومئذٍ في الآفاقِ [ظ٥١/٢]، وانتشروا، ولم يبقَ إلا فضل الْسُّكنى بالمدينة، وهو هجرة.

---

١ – أخرجه البخاري (٨٠٨٧) وهو أيضاً في أحمد (٤٧/٤ و٥٤) ومسلم (٢٧/٦) والنسائي (١٥١/٧).

٢ – أي الولاء المنتج للنفوذ المشترك.

٣ – أخرجه البخاري (١٢٣٣) و(٤١٤٧) و(٦٠١٢) ومسلم (١٦٢٨).

٤ – أخرجه البخاري (١٥١٠) و(١٧٣٧) و(٢٦٣١) و(٢٦٧٠) و(٢٩١٢) و(٣٠١٧) ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس.

٥ – أي: بعد وفاة النبي صلى ا لله عليه وسلم.

فقول الحجاجِ لِسَلَمَةَ حينَ سَكَنَ الْبَادِيَةَ: ارتددت على عَقِبَيْكَ!! تَعَرَّبتَ!! نعي عليهِ في تركِ الْسُّكنى بالمدينةِ، بالإشارة إلى الدُّعاءِ المأثورِ الذي قدَّمناهُ وهو قوله: «**لا تَرُدَّهم على أعقابهم**».

وقوله: تعرَّبت؟ إشارةٌ إلى أنَّهُ صارَ من الأعرابِ الذين لا يهاجرون، **وأجاب** سَلَمةُ بإنكارِ ما ألزمه منَ الأمرين، وأنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أذن له في البدو، ويكون ذلك خاصّاً به كشهادة خزيمة[1]، وعناق أبي بُردة[2]. ويكون الحجَّاجُ إنَّما نعى عليه تركَ الْسُّكنى بالمدينة فقط. لعلمهِ بسُقُوْطِ الْهِجْرَةِ بعد الوَفاةِ، وأجابهُ سلمةُ بأنَّ اغتنامه لإذنِ الْنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أوْلَى وأفضلُ؛ فما آثرهُ به واختصَّهُ إلا لِمَعنَى علمه فيه.

وعلى كل تقديرٍ فليسَ دليلاً على **مَذَمَّةِ البدو** الَّذِي عَبَّر عنه بالتَّعرُّبِ؛ لأنَّ مَشْرُوْعِيَّةَ الْهِجْرَةِ إنَّمَا كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ الْنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَحِرَاسَتِهِ لاَ لِمَذَمَّةِ الْبَدْوِ؛ فَلَيْسَ في النَّعي على[3] ترك هذا الواجبِ[4] دليلٌ على مذمة التَّعرُّبِ، والله سُبْحَانَهُ أعلمُ، وبه التوفيق.

---

١ – هو خزيمة بن ثابت المعروف بذي الشهادتين لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاز شهادته بشهادة رجلين. انظر ذلك في سنن أبي داود (٣٦٠٧).

٢ – أخرج البخاري (٩٨٣) عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بعد الصلاة فقال: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومن نسك قبل الصلاة فتلك شاة لحم». فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، والله لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، فتعجلتُ وأكلت وأطعمت أهلي وجيراني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تلك شاة لحم». قال: فإن عندي عناق جذعةٍ هي خيرٌ من شاتي لحمٍ فهل تجزي عني؟ قال: «نعم، ولن تجزي عن أحدٍ بعدك».

٣ – في ن: عليه.

٤ – في ن: الواجب بالتعرب.

١-٢-٥- الْفَصْلُ الخَامِسُ
في أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْشَّجَاعَةِ من أَهْلِ الْحَضَرِ

وَالْسَّبَبُ في ذلك: أَنَّ **أَهلَ الحضرِ** ألقوا جُنوبهم على مهاد الرَّاحةِ والدَّعَـةِ، وانغمسوا في النَّعيمِ والتَّرَفِ، ووكلوا أمرهم في المُدافعةِ عن أموالهِم وأنفُسِهم إلى وَاليهم، والحاكم الَّذِي يسوسهم، والحامية التي تولَّت حِراستهم، واستَنامُوا إلى الأَسْوَارِ التي تحوطُهُم، والحِرزِ الَّذِي يحولُ دونهم فلا تَهيْجُهُم هَيْعَةٌ[1]، وَلاَ يَنْفِرُ لهم صَيْدٌ، فهم غارُّون آمنون، قد ألقوا السِّلاح، وتوالتِ على ذلك منهم الأجيالُ، وتنزَّلوا منزلةَ النِّسَاءِ والْوِلْدَانِ الَّذِينَ هم عيالٌ على أبي مَثْوَاهم حتَّى صَارَ ذلك خُلُقاً يتنزَّلُ منزلة الطَّبِيْعَةِ.

وأهلُ البدو: لِتَفرُّدهم عن المجتمعِ، وَتَوَحُّشِهم[2] في الْضَّوَاحِي، وبُعدهم عن الحامِيَةِ، وَانتِبَاذِهِم[3] عنِ الأَسْوارِ والأبوابِ، قائمونَ بالمُدافعةِ عن أنفُسِهم لا يَكِلُونَهَا إلى سِواهم، وَلاَ يَثِقُونَ فيها بغيرهم. فهم دائماً يحمِلُونَ الْسِّلاحَ وَيَتَلَفَّتُون عن كُلِّ جانبٍ في الْطُّرُق، ويَتجافَوْنَ عن الهُجُوعِ إلاَّ غِرَاراً في المجالس، وعلى الرِّحَال، وفوقَ الأَقْتَابِ، وَيَتوَجَّسُونَ لِلْنَّبَآتِ[4] وَالْهَيْعَاتِ، ويتفرَّدُونَ في الْقَفْرِ وَالْبَيْدَاءِ مُدِلِّيْنَ ببأسِهم، وَاثِقِيْنَ بأَنْفُسِهم، قَدْ صَارَ لَهُمْ الْبَأْسُ خُلُقاً وَالْشَّجاعةُ سَجِيَّةً يرجعونَ إليها متى دَعَاهُم دَاعٍ أو اسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ.

وَأَهْلُ الحَضَر مهما خَالَطُوهُم في الْبَادِيَةِ أو صَاحَبُوهُم في الْسَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِم، لا يَملِكُونَ مَعَهُم شَيَئاً مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهم، وَذَلِكَ مُشَاهَدٌ بِالْعِيَان، حَتَّى في معرفةِ النَّواحي والجهاتِ وموارِدِ الْمِيَاهِ وَمَشَارِعِ الْسُّبُلِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ.

وَأَصْلُهُ: أَنَّ الإِنْسَانَ ابن عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ، لا ابن طَبِيْعَتِهِ وَمِزاجِه، فَالَّذِي أَلِفَهُ [ظ٥٢/١] من[5] الأَحْوَال حَتَّى صَارَ خُلُقاً وملكةً وعادةً، تنزَّلَ منزلةَ الْطَّبِيعةِ وَالْجِبلَّةِ. واعتبر ذلك في الآدَمِيِّينَ تجدُهُ كثيراً صَحِيحاً. و﴿الله يخلق ما يشاء﴾[آل عمران: ٤٧].

١- هو الصوت المفزع ونداء الاستغاثة من شر.

٢ - توحش: ذهب عنه الناس ، فكأنه أصبح طرفاً معزولاً، لذلك قالوا في تفسير الوحشي : الجانب الأيمن أو الأيسر، ومقابل ذلك الإنسي: وهو ما أقبل عليك. وليس فيما ذكره المصنف ما يوحي بالنقص أو الضعة. وإن كان سيذكر من صفاتهم الجانب الحسن والجانب السيئ.

٣ - أي: بعدهم عنها وتحررهم منها.

٤ - جمع نبأة وهي: ما تفزع له الطيور من صوت أو حركة.

٥ - في المطبوع: في.

١-٢-٦- الْفَصْلُ السَّادِسُ
فِي أَنَّ مُعَانَاةَ أهل الحَضَرِ للأحكامِ مُفْسِدَةٌ لِلْبَأْسِ فِيْهِم، ذَاهِبَةٌ بالمنفعةِ مِنْهُم

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أحد مَالِكَ أمْرِ نَفْسِهِ، إذ الرُّؤَسَاءُ والأُمَرَاءُ الْمَالِكُونَ لأَمْرِ النَّاس قَلِيْلٌ بالنِّسبةِ إلى غيرهم، فمن الغالبِ أن يكونَ الإنسانُ في مَلَكَةِ غيرِه[1] ولا بُدَّ، فإنَّ كانت المَلَكة رفيقةً وعادلةً لا يُعاني منها حكمٌ، ولاَ منعٌ وَصَدٌّ، كان النَّاسُ من تحتِ يَدِها مُدِلِّينَ بما في أنفسهم من شجاعةٍ أو جُبْنٍ، واثِقِيْنَ بعدَمِ الوازِعِ حتى صار لهم الإِدْلاَلُ جبلَّةً، لا يعرفون سِوَاها.

وَأَمَّا إذا كانتِ المَلَكَةُ وأحكامها بالقهرِ والسَّطْوَةِ والإخافَةِ فتكسرُ حينئذٍ من سورةِ بأسهم، وتذهبُ المَنَعَةُ عنهم لما يكونُ مِنَ التَّكاسلِ في النُّفُوسِ المُضطهدةِ كما نُبَيِّنُهُ. وقد نهى عمرُ سعداً رضي الله عنهما عن مثلها لَمَّا أخذَ زُهرةُ بنُ حَوِيَّةَ[2] سَلَبَ[3] الجَالنوسَ، وكانت قيمته خمسةً وسبعينَ ألفاً من الذَّهبِ، وكان اتَّبَعَ الجَالِنُوسَ يومَ الْقَادِسِيَّةِ فَقَتَلَهُ، وأخذ سَلَبَهُ فانتزعه منه سعدٌ، وقال له: «**هَلاَّ انْتَظَرْتَ في اتّباعِهِ إِذْني؟**». وكتبَ إلى عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ، فكتب إليه عمر: «**تَعمدُ إلى مِثْلِ زُهرَة، وَقَدْ صَلِيَ بما صلي به، وبَقِيَ عليكَ ما بقِيَ من حَرْبِكَ، وَتكْسِرُ فَوقَهُ[4] وتُفسدُ قلبه؟!**». وأمضى له عمرُ سَلَبَهُ.

وأَمَّا إذا كانتِ الأحكامُ بالعقابِ فمذهبةٌ للبأس بالكُلِّيَّة. لأنَّ وُقوعَ العقاب به ـ ولم يُدافعْ عن نفسه ـ يُكْسِبُهُ المَذَلَّةَ التي تكسِرُ من سَوْرَةِ بَأْسِهِ بلاَ شكٍّ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الأَحْكَامُ تأديبيَّةً وتعليميَّةً وأُخذت من عهد الصِّبَا، أثَّرت في ذلك بعضَ الْشَّيْءِ لِمَرْبَاهُ على المخافةِ وَالانقيادِ، فلا يكونُ مُدِلاًّ ببأسه؛ ولهذا نجدُ المُتَوَحِّشِيْنَ مِنَ الْعَرَبِ أَهْلِ الْبَدْوِ أَشَدَّ بأساً مِمَّنْ تأخُذُهُ الأحكامُ.

ونجدُ أيضاً الَّذِينَ يُعانونَ الأحكام وملكتها من لَدُن مرباهم في التّأديبِ والتَّعليمِ في الْصَّنَائِعِ[5] والعُلُوْمِ وَالْدِّيَانَاتِ ينقصُ ذلك من بأسهم كثيراً، ولا يكادونَ يدفعونَ عن

---

١ - أي تحت حكمه وتصرفه.

٢ - في النسخ: ابن حوبة. خطأ، وانظر ترجمته في توضيح المشتبه (٢/٥٠٩، ٤/٣١١).

٣ - ما يسلبه المحارب من عدوه حين يصرعه.

٤ - فُوْق السهم: موضع الوتر منه، والمراد هنا: تنشيط الهمة.

٥- جمع صناعة، وهي الحرفة.

أنفسهم عاديَّةً بوجهٍ منَ الوجوهِ. وهـذا شـأنُ طلبـةِ العلـم المُنتحلـينَ للقـراءةِ والأخـذِ عـنِ الْمَشايخِ والأئمَّةِ الْمُمَارِسِيْنَ لِلْتَّعْلِيْمِ والتَّأدِيبِ في مجالسِ الوقَارِ والهيبةِ؛ فيهم هذه الأحـوالُ، وذهابها بالمنعةِ والبأسِ.

ولا تستنكر ذلك بما وقع في الْصَّحابةِ من أخذهم بأحكامِ الدِّيـنِ والْشَّـريعةِ و لم يَنْقُـصْ ذلك من بأسهم، بل كـانوا أشـدَّ النَّـاسِ بأسـاً؛ لأنَّ الشَّـارع صلـوات الله عليـه لَّمـا أخـذَ المُسلمونَ عنه دينهم كانَ وازعُهُم فيه من أنفُسِهم لما تُلِي عليهم من الْتَّرْغيبِ والـتَّرْهِيب، و لم يكُن بتعليمٍ صناعِيٍّ ولا تأدِيبٍ تَعْلِيمي، إنما هـي أحكـام الدِّيـن وآدابُـهُ المُتَلَقَّـاةُ نقـلاً، يأخذونَ أنفُسَهم بها بما رَسَخَ فيهم[1] من عَقَائِدِ الإيمان [ظ٢/٥٢] والتَّصْدِيـقِ، فلـم تـزل سَوْرَةُ بأسهم مُسْتَحكَمَةً كما كانت، و لم تخدشها أظفارُ التَّأديبِ والحُكْمِ.

قال عمر رضي الله عنه: «**من لَمْ يُؤَدِّبهُ الْشَّرْعُ لا أدَّبهُ الله**». حرصاً علـى أن يكـون الوازع لكلِّ أحد من نفسه، ويقيناً بأنَّ الشَّارعَ أعلم بمصالحِ العبادِ.

ولَّما تَنَاقصَ الدِّيْنُ في الْنَّاسِ، وأخذوا بالأحكامِ الوازعةِ، ثُمَّ **صارَ الْشَّرعُ علماً وصِناعـةً** يؤخذُ بالتَّعليمِ وَالْتَّأدِيْبِ، ورجعَ النَّاسُ إلى الحَضَـارَةِ وَخُلُقِ الانقيـادِ إلى الأحكـامِ نَقَصتْ بذلك سَورة البأسِ فيهم.

فقد تبيَّن أنَّ **الأَحكام الْسُّلطانية والتَّعليمية مُفْسِدَةٌ للبـأسِ،** لأنَّ الـوازعَ فيهـا أجنبيٌّ، وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازعَ فيها ذاتيٌّ. ولهـذا كـانت هـذه الأحكـامُ الْسُّـلطَانِيَّةُ والتَّعليميَّةُ مَّما تُؤَثِّرُ في أهلِ الحَوَاضِرِ، في ضعفِ نفوسهم وَخَضْدِ[2] الْشَّوْكَةِ منهم بِمُعَانَاتِهم في وَلِيْدِهم وكهولهم.

والْبَدْوُ بمعزل من هذه المنزلة لبعدهم عن الْسُّلطان والتَّعليمِ والآدابِ. ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه في **أَحْكَامِ الْمُعَلِّمِيْنَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ**: إنَّهُ لا ينبغي للمؤدِّبِ أن يضربَ أحداً منَ الْصِّبيانِ في الْتَّعليمِ فوقَ ثَلاثَةِ أَسْوَاطٍ، نقلهُ عن شُرَيْحٍ الْقَـاضِي. واحـتجَّ لـهُ بعضـم بمـا وقعَ في حديثِ بدءِ الوحيِ[3] من شأن الغطِّ، وأنَّهُ كان ثـلاث مـرَّاتٍ وهـو ضعيـفٌ، ولا يصلحُ شَأنُ الْغطِّ، أن يكونَ دليلاً على ذلـك لبعـدِهِ عـن التَّعليـمِ المُتَعَـارفِ. والله الحكيـمُ الخبيرُ.

---

١ - في ظ: فيه.
٢ - أي: كسرها. وهو كناية عن الخضوع والانقياد.
٣ - أخرجه البخاري (٣) من حديث عائشة وقد مر.

١-٢-٧- الْفَصْلُ السَّابِعُ
في أَنَّ سُكْنَى الْبَدْوِ لا تكونُ إلاَّ للقبائل أهْلِ الْعَصَبِيَّة

اعْلَمْ: أَنَّ ا للهَ سبحانهُ ركَّبَ في طبائعِ البَشَرِ الخيرَ والشَّرَّ، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد: ١٠]. وقالَ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[الشمس: ٨]. والشَّرُّ أقربُ الخلالِ إليه إذا أُهملَ في مرعى عوائدِهِ، ولم يُهَذِّبه الاقتداءُ بالدِّينِ، وعلى ذلك الجمُّ الغَفِيْرُ، إلاَّ من وفقه ا للهُ.

ومن أخلاق البَشَرِ فيهم الظُّلمُ والعدوانُ[1] بعض على بعضٍ، فمنِ امتدَّتْ عَيْنهُ إلى متاعِ أخيهِ فقد امتدَّتْ يدهُ إلى أخذِهِ، إلاَّ أنَّ يَصُدَّهُ وازعٌ كما قالَ[2] [الشاعر]:

وَالظُّلْمُ من شِيَمِ النُّفُوسِ فَإن تجد ... ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّة لا يظلِم

فأمَّا **المُدُنُ والأمصارُ** فعدوان بعضهم على بعضٍ تدفعهُ الحكَّامُ والدَّولةُ بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافَّةِ أن يمتدَّ بعضهم على بعضٍ، أو يعدو عليهِ، فهم مكبوحون بحَكَمَةِ[3] القهرِ والسُّلْطَانِ عن التَّظَالُمِ إلاَّ إذا كان من الحاكم بنفسه. وأمَّا العدوانُ الَّذي من خارج المدينةِ فيدفعه سياجُ الأسوارِ عندَ الغفلةِ أو الْغِرَّةِ ليلاً أو العجزِ عن المُقاومةِ نهاراً، أو يدفعهُ ذِيادُ الحاميةِ من أعوانِ الدَّولةِ عندَ الاستِعدادِ والمُقَاوَمَةِ.

وَأَمَّا **أَحياءُ البدو** فيزعُ بعضهم عن بعضٍ مشايخهم وكبراؤهم بما وَقَرَ في نفوس الكافَّةِ لهم منَ الوقارِ والتَّجلَّةِ. وأمَّا حِلَلهُم فإنما يذودُ عنها من خارج حامية الحيِّ من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم، ولا يصدقُ دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل [ظ١/٥٣] نَسَبٍ واحدٍ، لأنهم بذلك تشتدُّ شوكتهم ويخشى جانبهم، إذ نُعرةُ كل أحد على نسبهِ وعصبيته أهمُّ. وما جعلَ ا للهُ في قلوب عباده من الشَّفقةِ والنُّعرَةِ[4] على ذَوِي أرحامهم وقرباهم موجودةٌ في الْطَّبَائعِ البَشَرِيَّةِ، وبها[5] يكونُ التَّعاضُدُ والتَّناصُرُ، وتعظمُ رهبةُ العدو لهم.

---

١ – لعل الصواب: عدوان بعضهم على بعض.

٢ – هو المتنبي، ديوانه (٢/٣٦٠).

٣ – الحَكَمة وزان قصبة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه.

٤ – النعرة والنعارة ـ بالضم فيهما ـ والنعير: الصراخ والصياح في حرب أو شر كما في القاموس. وتطلق على الكبر والخيلاء والعصبية، يقال: نعر العرق إذا فار دمه وصوت عند خروجه.

٥ – أي النعرة.

واعتبر ذلك فيما حكاه القرآنُ عن إخوةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ الْسَّلامُ حينَ قالوا لأبيه: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الْذِّئبُ ونحنُ عُصْبَةٌ إنَّا إذاً لخَاسِرون﴾[يوسف: ١٤].

والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحدٍ مع وجود العُصبة له؛ وأمَّا المَتَفَرِّدون في أنسابهم فقلَّ أن تصيب أحداً منهم نُعرةٌ على صاحبه، فإذا أظلمَ الجوُّ بالشَّرِّ يومَ الحربِ تَسَلَّلَ كلُّ واحدٍ منهم يبغي النَّجاةَ لنفسِهِ خيفةً واستيحاشاً منَ الْتَّخاذُل، فلا يَقْدِرونَ من أجلِ ذلك على سُكنى القفرِ لما أنهم حينئذٍ طُعمةٌ لمن يلتَهِمُهُم منَ الأممِ سِوَاهم.

وَإذَا تَبَيَّنَ ذلكَ في السُّكنى الَّتي تحتاجُ للمدافعةِ والحمايةِ فَبِمِثْلِهِ يتبيَّنُ لك في كل أمرٍ يُحملُ النَّاسُ عليه من **نُبوَّةٍ أو إقامة ملكٍ أو دعوةٍ**، إذ بلوغُ الغرضِ من ذلك كُلِّهِ إنَّمَا بالقِتَال عليهِ لما في طبائعِ البشرِ منَ الاسْتِعْصَاء؛ ولا بُدَّ في القِتَالِ من العَصَبِيَّةِ كما ذكرناهُ آنفاً، فَاتَّخِذْهُ إِمَاماً تقتدي به فيما نوردهُ عليكَ بعدُ. واللهُ الموفق للصَّواب.

١-٢-٨- الفصلُ الثّامِن

في أنَّ الْعَصَبِيَّة إنّما تكونُ منَ الالْتِحَام بالنَّسَبِ أو مافي معناه

وَذَلكَ أنَّ **صِلَةَ الرَّحِمِ** طَبِيْعِيٌّ في البشرِ، إلاَّ في الأقلِّ، ومن صلتها النُّعْرَةُ على ذوي الْقُرْبى وأهلِ الأرحَامِ أن ينالهم ضَيمٌ أو تُصيبهم هَلَكَةٌ، فإنَّ القريبَ يجدُ في نفسه غَضاضَةً[١] من ظُلمِ قَريْبِهِ أوِ الْعِداءِ عَلَيْهِ، ويودُّ لو يحولُ بينهُ وبينَ ما يَصِلهُ منَ المَعاطبِ والمهالكِ نزعةٌ[٢] طبيعيةٌ في البشرِ، مُذ كانوا.

فإذا كان **النَّسَبُ** المُتواصلُ بينَ المتناصِرينَ قريباً جدّاً بحيثُ حصلَ به الاتِّحادُ والالتحامُ، كانت الوَصلةُ ظاهرةً فاستدعت ذلك بمُجَرَّدها ووضوحها؛ وإذا بعدَ النَّسَبُ بعضَ الْشَّيءِ فرُبَّما تُنوسِيَ بَعْضُهَا، ويبقى منها شُهرةٌ فتحملُ على النُّصْرَةِ لِذَوِي نَسَبِهِ بالأمرِ المَشْهُوْرِ منه فِراراً منَ الْغَضَاضَةِ الَّتِي يتوهَّمُهَا في نفسهِ من ظِلْمِ من هو منسوبٌ إليه بوجهٍ.

ومن هذا البابِ **الولاءُ**[٣] **والحِلْفُ**. إذ نُعرةُ كلِّ أحدٍ على أهلِ وَلائِهِ وحلفِهِ، للأُلفةِ التي تَلحقُ النَّفْسَ من اهتضام جارها أو قريبها أو نَسِيبها بوجهٍ من وجوه النَّسبِ، وذلك لأجلِ اللُّحْمَةِ الحَاصِلَةِ منَ الْوَلاءِ مثلَ لُحمةِ النَّسَبِ أو قريباً منها. ومن هنا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «**تَعَلَّموا من أَنْسَابكم مَا تَصِلونَ بهِ أَرْحَامكم**»[٤]. بمعنى أنَّ النَّسبَ إنما فائدتهُ هذا الالتحامُ الَّذي يوجبُ صِلَةَ الأرحامِ، حتى تقعَ المُناصَرَةُ والنُّعْرَةُ، وما فوقَ ذلك مُسْتَغنى عنه. إذِ الْنَّسبُ أمرٌ وهميٌّ [ظ٥٣/٢] لا حقيقةَ لهُ، ونفعهُ إنَّما هو في هذه الوصلةِ والالتحام. فَإذَا كانَ ظاهراً وَاضحاً حملَ النُّفُوسَ على طبيعتها من النُّعْرَةِ كما قُلناه؛ وإذا كان إنما يُسْتَفَادُ من الخبر البعيدِ ضَعُفَ فيهِ الوهمُ، وذهبت فائدته، وصارَ الشُّغْلُ به مجاناً، ومن أعمالِ اللَّهو المَنْهيِّ عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم: «**الْنَّسبُ عِلْمٌ لاَ يَنْفعُ، وَجَهالَةٌ لاَ تَضرُّ**». بمعنى أنَّ النَّسَبَ إذا خرجَ عن الوضوحِ، وَصارَ من قَبِيْلِ العُلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدة الوَهْمِ فيه عن النَّفْسِ، وانتفَتِ النُّعْرَةُ الَّتي تَحمِلُ عليها الْعَصَبِيَّةُ، فَلا مَنْفَعَةَ فيهِ حِينئذٍ. والله - سُبحانه وتعالى - أعلم.

---

١ - أي ذلاً ومهانة.

٢ - أي ميل.

٣ - الانتساب إلى القوم بسببٍ من قرابة أو غيرها.

٤ - أخرجه أحمد (٣٧٤/٢) والترمذي (١٩٨٠) من حديث أبي هريرة. وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٨/١٨) من حديث العلاء بن خارجة. وهو حديث صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (٢٧٦).

١-٢-٩- الْفَصْلُ التَّاسِعُ
في أنَّ الْصَّرِيْحَ منَ النَّسَبِ إنَّما يوجد لِلْمُتَوَحِّشِيْنَ في القفرِ منَ العربِ ومن في معناهم

وذلك لما اختُصُّوا به من نكدِ الْعَيْشِ، وَشَظَفِ الأحوالِ، وسوءِ الْمَوَاطنِ، حملتهم عليها الْضَّرُوْرَةُ الَّتي عَيَّنَتْ لهم تلكَ الْقِسْمَةَ. وهي لما كان معاشهم منَ الْقِيَامِ على الإبلِ ونتاجها ورعَايتها، والإبلُ تدعوهم إلى الْتَّوَحُّشِ في القفرِ لرَعيها من شجرةِ، ونتاجها في رمالهِ كما تقدم، والقفرُ مكانُ الشَّظَفِ والْسَّغبِ، فَصَارَ لهم إلفاً وعادةً وربيت فيه أجيالهم، حتى تمكَّنت خُلُقاً وجبلَّةً، فلا ينزعُ إليهم أحد من الأمم أن يُسَاهمهم في حالهم، ولا يأنَسُ بهم أحدٌ منَ الأجيالِ، بل لو وجد واحدٌ منهم السَّبيلَ إلى الفِرَارِ من حالهِ، وأمكنَهُ ذلك لما تركهُ، فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختِلاطِ أنْسَابهم وَفَسَادِهَا، ولا تزالُ بينهم محفوظةً صَرِيْحةً.

واعتبر ذلك في مُضَرَ من قريشٍ، وكنانةَ، وثَقيفٍ، وبني أسدٍ، وَهُذَيلٍ، ومن جَاورَهُم من خُزاعة، لَّما كانوا أهلَ شَظَفٍ ومواطنَ غيرِ ذاتِ زرْعٍ ولا ضَرْعٍ، وَبَعُدوا من أريافِ الْشَّامِ والْعِرَاقِ ومعَادِنِ الأُدْمِ وَالْحُبُوْبِ، كَيْفَ كَانَتْ أنسابُهُم صَرِيْحَةً محفوظةً لم يدخلها اختلاطٌ، ولا عرفَ فِيْها[1] شَوْبٌ[2].

وَأَمَّا **العربُ** الذين كانوا بالتُّلول وفي معادِنِ الخِصْبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ من حِمْيَر وكَهْلَانَ: مثلَ لخمٍ وجُذَامَ وَغَسَّانَ وطَيِّءٍ وقُضَاعَةَ وَإِيَادٍ، فاختلطَتْ أنْسَابُهمْ، وتداخلت شُعُوبُهم، ففي كلِ واحدٍ من بيوتهم منَ الخلافِ عندَ النَّاسِ ما تَعرِفُ، وإنَّما جاءهم ذلك من قبلِ العَجمِ ومخالطتهم، وهم لا يعتبرون المحافظة على النَّسَبِ في بيوتهم وشعوبهم، وإنّما هذا للعربِ فقط. قال عمر رضي الله تعالى عنه: «**تعلَّموا النَّسَبَ ولا تكونوا كَنَبَطِ الْسَّوادِ، إذَا سُئِلَ أحدُهُم عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْيَةِ كَذَا**». هذا - إلى ما لحقَ هؤلاءِ العربَ أهلَ الأريافِ - من الازدحام مع النَّاسِ على البلد الطَّيِّبِ والمراعي الخَصِيبَةِ، فكَثُرَ الاختلاطُ وتداخلت الأنسابُ.

---

١ - في ن: فيهم.

٢ - بياض شوب: تكدر صفوه، ونسب شوب: مختلط.

وقد كان وقع في صدرِ الإسلام **الانتماء إلى المواطنِ**، فيقالُ: جندُ قِنَّسْرِينَ، جند دِمشقَ، جند العَواصِمِ، وانتقلَ ذلك إلى الأندلس [ظ٤٥/١]، ولم يكن ذلك لاطِّراحِ العربِ أمر النَّسَبِ، وإنما كان لاختصَاصهم بالمواطنِ بعد الفتح حتّى عُرفوا بها، وصارت لهم علامةً زائدةً على النسَبِ يتميَّزون بها عند أمرائهم، ثم وقعَ الاخْتِلاَطُ في الحواضر مع العجم وغيرهم، وفسدت الأنسابُ بالجُملةِ وفُقدت ثمرتها منَ الْعَصَبيَّة، فاطُّرِحَتْ، ثُمَّ تلاَشَتْ الْقَبَائِلُ وَدَثَرت، فَدَثَرَتِ[1] الْعَصَبيَّةُ بِدُثُوْرِهَا، وَبَقِيَ ذَلِكَ في الْبَدْوِ كما كانَ، واللهُ وارثُ الأرضِ ومن عَلَيْهَا.

---

١ - أي: انمحت.

١-٢-١٠- الْفَصْلُ الْعَاشِرُ
فِي اخْتِلَاطِ الأنسابِ كيفَ يقعُ؟

اعْلَمْ: أَنَّهُ منَ الْبَيِّنِ أنَّ بعضاً من أهلِ الأَنْسَابِ يَسْقُطُ إلى أهلِ نَسَبٍ آخرَ بقرابةٍ إليهم أو حِلْفٍ أوِ ولاء، أو لِفِرَارٍ من قومِهِ بجنايةٍ أصابها، فيدَّعي بنسبِ هؤلاء ويعدُّ منهم في ثمراته منَ النُّعْرَةِ والقَوْدِ[1] وحملِ الدِّيَاتِ وسَائِرِ الأحوال؛ وإذا وُجدت ثَمَرَاتُ النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وُجدَ لأَنَّهُ لا معنى لكونه من هَؤلاءِ ومن هؤلاءِ إلاَّ جَرَيَانُ أحكامهم وأحوالهم عَلَيْهِ، وكأنَّه التحم بهم.

ثُمَّ إنَّه قد يتناسى النَّسَبُ الأوَّلُ بطولِ الزَّمانِ، ويذهَبُ أهلُ العلمِ به، فيخفى على الأكثر.

وما زالتِ الأنسابُ تسقُطُ من شعب إلى شعبٍ، ويلتحمُ قومٌ بآخرينَ في الجاهليَّةِ والإسلامِ والعرب والعَجَمِ. وانظر خلافَ النَّاسِ في نسبِ **آل الْمُنْذِرِ** وغيرهم يتبيَّنُ لك شيءٌ من ذلك. ومنه شأن بجيلَةَ في **عَرْفَجَةَ بن هَرْثَمَةَ**، لَمَّا وَلَّاهُ عمرُ عليهم فسألوه الإعفاء منه، وقالوا: هو فينا لزيقٌ، أي: دخيلٌ ولصيقٌ، وطلبوا أن يُولِّيَ عليهم جريراً، فسأله عمر عن ذلك، فقال عَرْفَجَةُ: صدقوا يا أمير المؤمنين، أنا رجلٌ من الأزدِ أصَبت دماً في قومي، ولحقت بهم. وانظر منه كيفَ اختلطَ عرفَجَةُ ببَجِيْلَةَ ولَبسَ جلدتهم، ودُعي بنسبهم حتَّى تَرَشَّح للرِّيَاسَةِ عليهم، لولاَ عِلْمُ بعضهم بوشائِجِهِ. ولو غَفِلُوا عن ذلك، وامتدَّ الزَّمَنُ، لتُنوسِيَ بالجُمْلَةِ وعُدَّ منهم بكلِّ وجهٍ ومذهبٍ، فافهمه، واعتبر سرَّ الله في خليقته.

ومثل هذا كثيرٌ لهذا العهدِ ولما قبله من العهود، والله الموفق للصواب بمنّه وفضلهِ وكرمه.

---

١ - أي: القصاص.

١-٢-١١- الْفَصْلُ الْحَادِي عَشَرَ[١]

في أَنَّ الْرِّئَاسَةَ لا تزالُ في نِصَابها المَخْصُوص من أهل الْعَصَبِيَّةِ

اِعْلَمْ: أنَّ كلَّ حيٍّ، أو بطنٍ من القبائلِ وإن كانوا عِصَابةً واحدةً لِنَسَبِهِم العامِّ، ففيهم أيضاً منَ النَّسَبِ العامِّ لهم، ففيهم أيضاً عصبيَّاتٌ أخرى لأنسابٍ خاصَّةٍ، هي أشدُّ التحاماً من النَّسبِ العامِّ لهم، مثل عَشِيْرٍ واحدٍ، أو أهلِ بيتٍ واحدٍ، أو إخوةِ بني أبٍ واحدٍ، لا مثلَ بني العمِّ الأقربينَ أو الأبعدينَ، فهؤلاء أقعدُ بنسبهم المخصُوْصِ، ويُشَاركونَ من سواهم منَ الْعَصَائِبِ في النَّسَبِ العَامِّ، والنُّعْرَةُ تقعُ من أهلِ نَسَبِهم المخصوص، ويشاركون من سواهم من العصائب في النَّسَبِ العامِّ، والنُّعْرَةِ تقع من أهلِ نَسَبِهم المخصوص، ومن أهل النَّسَبِ العامِّ، إلا أنَّها في النَّسَبِ الخاصِّ أشدُّ لِقُرْبِ اللُّحْمَةِ، والرِّئاسةِ فيهم، إنما تكون في نصاب واحدٍ منهم ولا تكون في الكُلِّ.

ولَمَّا كانت **الرِّئاسةُ** إنما تكونُ بالغَلبِ، وجبَ أن تكون عَصَبِيَّةَ ذلك النِّصَابِ أقوى من سائرِ الْعَصَائِبِ، لِيقَعَ الغلبُ منها، وتتمَّ الْرِّئاسةُ لأهْلِهَا. فإذا وجب ذلك تعيَّنَ أنَّ الرئاسة عليهم لا تزالُ في ذلك النِّصَابِ المخصوص بأهل الغَلَبِ عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلبِ، لما تمَّتْ لهم الْرِّئَاسةُ، فلا تزالُ في ذلك النِّصَابِ مُتَنَاقَلَةً من فرعٍ إلى فرعٍ، ولا تنتقل إلا إلى **الأقوى من فُروْعِهِ** لَما قُلْنَاهُ من سرِّ الغلبِ.

لأنَّ الاجتماعَ والعَصَبِيَّةَ بمَثابَةِ المِزَاجِ لِلمُتَكَوِّن. والمزاجُ في المتكونِ لا يصلحُ إذا تكافأت العناصرُ، فلا بُدَّ من غَلَبَةِ أحدها، وَإلاَّ لم يتمَّ التَّكوينُ.

فهذا هو سرُّ اشْتِرَاطِ الغَلَبِ في العَصَبِيَّةِ. ومنه تعيَّنَ استمرارُ الْرِّئَاسَةِ في النِّصَابِ الْمَخْصُوْصِ بها كَمَا قَرَّرْنَاهُ.

---

١ – هذا الفصل ساقط من بعض النسخ مثبت في نسخ أخرى وإثباته أولى ليطابق ما يذكره المؤلف في أول الفصل التالي. قاله نصر الهوريني.

١-٢-١٢- الْفَصْلُ الثَّانِي عَشَرَ
في أَنَّ الْرِّئَاسَةَ على أهلِ الْعَصَبيَّةِ لا تكونُ في غير نَسَبِهم

وذَلكَ أنَّ الرِّئَاسَةَ لا تكونُ إلاَّ بالْغَلَبِ، والغَلَبُ إنَّما يكونُ بالعَصَبيَّةِ كما قدَّمناهُ، فلا بُدَّ في الرِّئَاسَةِ عَلَى القَوْمِ، أن تَكُونَ من عَصَبيَّةٍ غالبَةٍ لِعَصَبيَّاتِهِمْ واحِدَةً واحدةً؛ لأنَّ كُلَّ عَصَبيَّةٍ منهم إذا أحسَّتْ بغلبِ عَصَبيَّةِ الرَّئيس لَهُم، أقروا بالإذعانِ والاتِّباعِ، والسَّاقطُ في نسبهم بالجُمْلَةِ لاتكون له عصبيةٌ فيهم بالنَّسَبِ، إنَّما هو مُلْصَقٌ لزيقٌ، وغايةُ التَّعَصُّبِ له بالولاءِ والحلفِ، وذلك لا يوجدُ له غالباً عليهم ألبَتَّةَ.

وإذا فَرَضْنا أنَّهُ قد التَحَمَ بهم واختلطَ وتَنوسِيَ عهدُهُ الأوَّلُ منَ الالْتِصَاقِ، ولَبِسَ جلدتهم ودُعِيَ بِنَسَبِهم، فكيفَ لهُ الرِّئاسةُ [ظ٥٤/٢] قبلَ هذا الالْتِحَامِ أو لأحدٍ من سَلَفِهِ، والرِّئاسةُ على القومِ إنما تكون متناقلةً في مَنْبَتٍ واحدٍ، تُعَيِّنُ له الغَلَبَ بالْعَصَبيَّةِ، فالأوَّلِيَّةُ التي كانت لهذا المُلْصَقِ قد عُرِفَ فيها التِصَاقُهُ من غير شَكٍّ، ومنعهُ ذلك الالْتِصَاقُ من الرِّئَاسَةِ حينَئذٍ، فكيفَ تنوقلت عنه وهو على حالِ الإلصَاقِ؟ والرِّئاسةُ لا بُدَّ وأن تكونَ موروثةً عن مستحقِّها لما قلناه منَ التَّغَلُّبِ بالعَصَبيَّةِ، وقد يَتَشَوَّفُ كثيرٌ منَ الرُّؤَسَاءِ على الْقَبائِلِ، والعَصَائبِ إلى أنسابٍ يلهَجونَ بها، إمَّا لخُصُوصيَّةِ فَضيلةٍ كانت في أهلِ ذلكَ النَّسَبِ من شجاعةٍ أو كرمٍ أو ذكرٍ كيفَ اتَّفقَ، فينزعونَ إلى ذلكَ النَّسَبِ، ويتورطونَ بالدَّعوى في شُعوبهِ، ولا يعلمونَ ما يوقعون فيه أنفسهم من القدحِ في رئاستهم والطَّعنِ في شرفهم، وهذا كثيرٌ في النَّاسِ لهذا العهدِ.

فمن ذَلكَ ما يَدَّعِيهِ **زناتَةُ** جملةً أنَّهم من العربِ.

ومنهُ ادِّعاءُ أولادِ **رباب** المَعْروفينَ بالحجازيِّين من بني عامرٍ، أحد شُعُوبِ **زُغْبَةَ** أنَّهم من بني سُلَيمٍ، ثُمَّ منَ الشَّريد منهم لحقَ جدُّهم ببني عامرٍ، نجَّاراً يصنعُ الحرِجَانَ[1]، واختلطَ بهم والتَحَمَ بنسبهم حتَّى رأسَ عليهم ويُسَمُّونه الحجازيّ.

ومن ذلك ادِّعَاءُ بني **عبد الْقَويِّ بن الْعَبَّاس** ابنِ تُوجِيْنَ، أنهم من وُلْدِ الْعَبَّاسِ بن عبد المُطَّلِبِ، رغبةً في هذا النَّسَبِ الشَّريْفِ، وغلطاً باسمِ الْعَبَّاس بن عَطِيَّةَ أبي عبدِ الْقَويِّ، ولم يُعْلَمْ دُخُولُ أحد من العَبَّاسيين إلى المغرب، لأنَّهُ كانَ منذُ أوَّلِ دولتهم على دعوة الْعَلَويِّين أعدائهم منَ الأدارِسَةِ والْعُبَيْدِيِّينَ، فكيفَ يكونُ من سِبْطِ العَبَّاسِ أحد من شِيْعَةِ الْعَلَوِيِّينَ!.

---

١ - الحرجان: بكسر الحاء جمع حرج، وبفتحتين، نعش الموتى.

وكذلك ما يَدَّعِيْهِ أبناءُ زَيَّانَ، ملوك تِلْمِسَانَ من بني عبد الواحد، أنَّهم من ولد القَاسِمِ ابنِ إدريسَ ذهاباً إلى ما اشتهر في نسبهم أنَّهم من وُلْدِ القَاسِمِ، فيقولون بلسانهم الزَّناتي: أنتَ القاسمُ، أي: بنو القاسم، ثم يدَّعون أنَّ القاسم هذا هو القاسمُ بن إدريسَ، أو القَاسِمُ بن محمّد بن إدْرِيْسَ، ولو كان ذلك صَحيحاً فغايةُ القاسِمِ هذا أنَّهُ فرَّ من مكانِ سلطانه مُسْتَجيراً بهم، فكيفَ تتمُّ لهُ الرِّئاسَةُ عليهم في باديتهم، وإنَّما هو غلطٌ من قبل اسمِ القَاسمِ، فإنه كثيرُ الوجود في الأدارسةِ، فتوهَّموا أن قاسمهم من ذلك النَّسَبِ، وهم غيرُ محتاجينَ لذلك، فإنَّ مناهم لِلمُلكِ والعِزَّةِ، إنما كان بعصبيَّتهم، ولم يكن بادِّعاء عَلَوِيَّةٍ ولا عَبَّاسِيَّةٍ ولا شيء من الأنساب، وإنَّما يُحملُ على هذا المُتَقَرِّبونَ إلى الملوكِ بمنازعتهم ومذاهبهم. ويشتهر حتى يبعُدَ عن الرَّدِّ، ولقد بلغني عن يَغْمُرَاسِنَ بن زَيَّان مُؤثِّل سُلْطَانِهم، أنه لمَّا قيلَ له ذلك أنكرهُ، وقال بلُغتهِ الزَّنَاتِيَّةِ، مَا مَعْنَاهُ: أمَا الدُّنيا والمُلْكُ فنِلْنَاهُم بسُيُوفنا، لا بهَذَا النَّسَبِ، وأمَّا نَفْعُهُما في الآخرةِ فمردودُ إلى اللهِ. وأعرض [ظ٥٥/١] عنِ التَّقرُّبِ إليه[1] بذلك.

ومن هَذَا البابِ ما يَدَّعِيْهِ **بَنُو سَعْدٍ** شُيُوخ بني يَزيدَ من **زُغْبَةَ**، أنهم من ولد أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، **وبنو** سَلامَةَ شُيُوخُ بَني يَدْلتنَ من توجين أنَّهم من سليم، وَالْزَّوَاودَةُ شُيُوخ رِيَاحٍ، أنَّهُم مِنْ أعْقَابِ الْبَرامِكَةِ، **وكذا** بنو مُهَنَّى أُمَرَاءُ طَيءٍ بالمَشرق، يدَّعونَ فيما بلغنا أنَّهم من أعْقَابهم، وأمثالُ ذلك كثيرٌ ورئاستهم في قومهم مانعةٌ من ادِّعاء هذه الأنسابِ، كما ذكرناه، بل تعيَّنُ أن يكونوا من صريح ذلك النَّسَبِ وأقوى عَصَبيَّاتهِ، فاعتبرهُ، واجتنب المغالطَ فيه.

ولا تجعل من هذا البابِ إلحاقَ **مهدي الموحدين** بنسبِ العَلَويَّةِ، فَإنَّ المهديَّ لم يكن من منبتِ الرِّئاسَةِ في هرثمةِ قومه، وإنَّما رأس عليهم بعدَ اشْتِهارهِ بالعلمِ والدِّينِ ودُخول قبائلِ المَصَامدةِ في دعوته، وكان مع ذلك من أهل المنابتِ المُتَوسِّطةِ فيهم. والله عالمُ الغيبِ والشَّهادة.

---

١ – في ن: إليهما.

١-٢-١٣- الْفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَر
فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالْشَّرفَ بالأَصَالَةِ والحَقيقة لأهلِ الْعَصَبِيَّةِ
ويكونُ لِغَيْرِهم بالمَجَازِ والشبه
وَذَلكَ أنَّ الْشَرفَ والحَسَب إنّما هوَ بالْخِلاَل

ومعنى البيتِ: أن يَعُدَّ الرَّجلُ في آبائهِ أشرافاً مذكورينَ يكونُ له بولادتهم إيَّاهُ والانْتِسَابِ إليهم تجلّةٌ في أهل جلدته، لما وقرَ[1] في نفوسهم من تجلّةِ سلفهِ وشرفهم بخلالهم، والنَّاسُ في نشأتهم وتناسلهم معادنٌ. قال صلى الله عليه وسلم: «**النَّاسُ مَعَادِن خِيَارُهم في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإسْلاَمِ إذَا فَقِهُوا**»[2]. فمعنى الحسب راجع إلى الأنساب.

وقد بَيَّنا أنَّ **ثمرةَ الأنسابِ** وفائدتها إنَّما هي العَصَبِيَّةُ للنُّعرةِ والتَّناصرِ. فحيثُ تكونُ العصبيةُ مرهوبةً، والمنبتُ فيها زَكِيٌّ محميّ، تكون فائدة النَّسَبِ أوضحَ، وثمرتها أقوى. وتعديدُ الأشرافِ منَ الآباءِ زائدٌ في فائدتها، فيكونُ الحَسَبُ والْشَّرفُ أصْلِيَّين في أهل العَصَبِيَّةِ لوجود ثمرةِ النَّسَبِ. وتفاوتُ البيوتِ في هذا الْشَّرفِ بتفاوتِ الْعَصَبِيَّةِ، لأنَّهُ سِرُّها.

ولا يكون للمنفردين من أهل الأمصارِ بيتٌ إلاَّ بالمجازِ، وَإنْ توهَّموهُ فزُخرُفٌ منَ الدَّعاوى.

وإذا اعْتَبَرْتَ **الحَسَبَ في أهل الأمْصَار** وَجَدْتَ معناه: أنَّ الرَّجُلَ منهم يعدُّ سَلَفاً في خلالِ الخَيْرِ، ومُخَالطةِ أهله مع الرُّكون إلى العافيةِ ما استطاع.

وهذا مغايرٌ لِسرِّ الْعَصَبِيَّةِ التي هي ثمرة النَّسَبِ وتعديدِ الآباءِ، لكنَّهُ يُطْلَقُ عليهِ حَسَبٌ وبيتٌ بالمجاز، لعلاقةِ ما فيه من تعديد الآباء المُتَعَاقِبينَ على طَرِيْقَةٍ واحدةٍ من الخيرِ وَمَسَالكِهِ، وَلَيْسَ حَسباً بالحقيقةِ، وعلى الإطلاق؛ وإن ثبتَ أنَّه حقيقةٌ فيهما بالوضع اللُّغويّ، فيكونُ من الْمُشَكَّكِ الَّذِي هو في بعضِ مواضِعِهِ أولى.

---

١ - أي ثبت واستقر.

٢ - أخرجه البخاري (٣٣٠٤ و٣٣٠٥ و٥٧١١ و٦٧٥٧) ومسلم (٢٥٢٦) و(٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

وقد يكونُ للبيت شرَفٌ أوّلُ بالعَصَبيَّة والخِلاَل، ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ منهُ لذَهابِهم بالحَضَارَة كما تَقَدَّمَ، ويختلطونَ [ظ٢/٥٥] بالغُمَارِ ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحَسَب، يعدُّون به أنفسهم من أشرافِ البيوتاتِ أهلِ الْعَصَائِبِ، وليسوا منها في شيءٍ لذهابِ العَصَبيَّة جُمْلَةً.

وكَثيرٌ من أهل الأمصارِ النَّاشئينَ في بيوتِ العَرَبِ أوِ الْعَجَمِ لأوَّلِ عَهْدِهم موسوسُونَ بذلك.

وأكثر ما رسخَ الوسواسُ في ذلك لبني إسرائيل، فإنه كانَ لهم بيتٌ من أعظم بيوت العَالمِ بالمنبت، أوّلاً لما تعدَّدَ في سلفهم[١] منَ الأنبياءِ والرُّسلِ من لَدُنْ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ إلى مُوْسَى صَاحِبِ ملَّتهم وَشَرِيْعَتهم، ثُمَّ بالعصبية.

ثانياً: وما آتاهم اللهُ بها من الملك الذي وعدهم به، ثُمَّ انْسَلَخوا من ذلك أجمعَ ﴿وضُرِبت عليهم الذِّلَّةُ وَالْمَسكَنَةُ﴾[البقرة: ٦١]، وَكُتِبَ عليهم الجلاءُ في الأرضِ وانفردوا بالاستعبادِ للكُفْرِ آلافاً من السِّنِيْنَ، وما زالَ هذا الوسواس مُصَاحباً لهم، فتجدهم يقولونَ: هذا هارُونِي، هذا من نَسْلِ يُوْشَعَ، هذا من عَقِب كَالبَ، هذَا من سِبْطِ يَهُوْذَا، مع ذَهَابِ الْعَصَبيَّة وَرُسُوْخِ الذُّلِّ فيهم منذُ أحقاب مُتَطَاوِلَة.

وكَثيرٌ من أهلِ الأمصارِ وغيرهم المُنْقَطِعِيْنَ في أنسابهم عن العَصَبيَّة يذهبُ إلى هذا الهَذَيان.

وقد غلطَ أبو الوليد ابن رُشْد في هذا لما ذكر الحسبَ في كتاب الخَطابة من تلخيص كتاب المُعَلِّمِ الأَوَّلِ[٢]: وَالْحَسَبُ هوَ أَنْ يَكونَ من قَوْمٍ قَدِيْمٌ نزلهم بالمدينة[٣]؛

١ - هذا إذا أثبتنا أن يعقوب هو إسرائيل، وإلا فإن بني إسرائيل لم يكن لهم نبوة مستقلة وإنما هم تبع لأبناء إبراهيم عليه السلام، وباعتبار ارتباطهم بالذرية الإبراهيمية من خلال المصاهرة ولذلك سموا الأسباط نسبة إلى ارتباطهم ببناهم.

٢ - لقب يعرف به أرسطو. كما يعرف الفارابي باسم المعلم الثاني.

٣ - قال الدكتور عبد الرحمن بدوي: وهذا الموضع في تلخيص الخطابة يقول: فأما الحسب فهو أن يكون القوم الذين هو منهم هم أول من نزل المدينة، أو يكونوا قدماء النزول فيها، ويكونون مع هذا حكاماً أو رؤساء ذوي ذكر جميل وكثرة عدد، وأن يكونوا مع هذا أحراراً لم يجز عليهم سباء، أو يكونوا ممن نال الأمور الجميلة المقبولة عند الناس وإن لم يكونوا حكاماً ولا رؤساء. (ص٤١ من نشرة الدكتور بدوي. القاهرة سنة ١٩٦٠). ونحن هنا بإزاء شاهد فذ على كيفية ابن خلدون لابن رشد، ولعله أن يكون شاهداً أماً على طريقته في الفهم عامة. فهو يتصور أن كلام ابن رشد في هذا التلخيص هو من عنده وليس من عند أرسطو، ولهذا يحاول أن يفسر=

و لم يتعرض[١] لما ذكرناه.

وليتَ شعْرِي ما الَّذي ينفعه قدَمُ نُزُلهم بالمدينة إن لم يكن له عصَابةٌ، يرهبُ بها جانبهُ، وتحملُ غيرهم على القبولِ منهُ، فكأنَّهُ أطلقَ الحَسَبَ على تَعديلِ[٢] الآباءِ فَقَط، مع أنَّ الخطابة إنَّما هي استمَالَةُ من تؤثِّر استمَالتهُ، وهم أهلُ الحَلِّ والْعَقْد، وأمَّا من لا قُدْرَةَ له أَلْبَتَّةَ فلا يلتفتُ إليه ولا يقدرُ على استمالة أحد، ولا يُسْتمالُ هو.

وأهل الأمصارِ من الحضرِ بهذه المَثابة. إلاَّ أنَّ **ابنَ رُشْد** رُبِّيَ في جيلٍ وَبَلَد، و لم يُمارسوا الْعَصَبيَّةَ، ولا أنسوا أحوالها، فبقيَ في أمر البيت والحَسَب على الأمرِ المَشْهُوْر من تعْديْد الآباءِ على الإطْلاَق، و لم يُرَاجعْ فيه حَقيْقَةَ الْعَصَبِيَّة وَسرَّهَا في الْخَليْقَة. ﴿واللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيْمٌ﴾[البقرة: ٢٨٢].

=رأيه هذا التفسير الغريب أن ابن رشد يقول بهذا الرأي لأنه: ربي في جيل وبلد لم يمارسوا العصبية ولا آنسوا أحوالها، مع أن كلام ابن رشد هنا هو بعينه نص كلام أرسطو في الفصل الخامس من المقالة الأولى من كتاب الخطابة (ص١٣٦٠ب) و لم يأت بشيء من عنده حتى يؤول موقفه هذا التأويل.

ويلاحظ **ثانياً** أنه تعجل فهم كلام ابن رشد فلم يفهمه على وجهه، إذ ابن رشد لم يطلق الحسب على تعديد الآباء، بل اشترط أو بالأحرى اشترط أرسطو أن يكون هؤلاء الآباء حكاماً أو رؤساء ذوي ذكر جميل وكثرة عدد وأن يكونوا مع هذا أحراراً لم يجز عليهم سباء، أو يكونوا ممن نال الأمور الجميلة المقبولة عند الناس وإن لم يكونوا حكاماً ورؤساء. ولو أمعن ابن خلدون النظر في نص كلام ابن رشد لما أطلق حكمه على هذا النحو الجزافي المتعجل الخاطىء. ولا محل للاعتذار عن ابن خلدون هنا بأنه كان يكتب المقدمة من غير كتب يرجع إليها، بدليل أنه ينقل بعض نص كلام ابن رشد، ولا يمكن أن يكون هذا من مجرد ما تبقى في ذاكرته! (مهرجان ابن خلدون ص: ١٥٨-١٥٩).

١ - أي ابن رشد.

٢ - في ن: (تعديد).

١ـ٢ـ١٤ـ الْفَصْلُ الرَّابعَ عَشَرَ
في أنَّ الْبَيْتَ وَالْشَّرَفَ للموالي وأهل الاصْطِنَاعِ، إنَّمَا هو بمواليهم لا بأنسَابهم

وَذَلِكَ أَنَّا قَدَّمنا: أنَّ الْشَّرَفَ بالأَصَالَة والحقيقة، إنَّما هو لأهلِ الْعَصَبِيَّة، فإذا اصْطَنَعَ أهلُ الْعَصَبِيَّة قوماً من غير نَسَبِهم، أو استرقُّوا العُبْدَانَ والموالي والتحموا به كما قلناه، ضربَ معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية، ولبسوا جلدها كأنها عصبيتهم، وحصلَ لهم منَ الانْتِظَام في العَصَبِيَّة مُسَاهمةٌ [ظ٥٦/١] في نسبها، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «مَوْلَى الْقَوْمِ منهم»[١]. وسواءٌ كان مولى رِقٍّ، أو مولى اصْطِنَاعٍ وحِلْفٍ. وليسَ نَسبُ ولادته بنافعٍ لهُ في تلك العصبية إذ هي مباينة لذلك النسب.

وَعَصَبِيَّةُ ذلك النَّسَبِ مَفْقُوْدَةٌ لذَهَاب سرِّها عندَ التحَامه بهذا النَّسَب الآخر. وَفُقْدانه أهل عَصَبِيَّتها فيصير من هؤلاء ويندرجُ فيهم، فإذا تعدَّدت لَهُ الآباءُ في هذه الْعَصَبِيَّة، كانَ له بينهم شرفٌ وبيتٌ على نِسْبَتِه في ولائهم واصْطِنَاعهم لا يتجاوزهُ إلى شَرَفهم، بل يكون أدونَ منهم على كل حَال.

وهذا شأن الموالي في الدُّول، والخَدَمة كُلِّهم، فإنَّهم إنما يَشرفونَ بالرُّسُوْخِ في ولاءِ الدَّوْلَة وخدمتها، وتعدُّد الآباءِ في ولايتها، ألا ترى إلى موالي الأتراك في دولة بني الْعَبَّاس، وإلى **بني بَرْمَكَ** من قَبلهم، وبني نُوبَخْتَ كيفَ أدْرَكوا البيتَ والْشَّرفَ وبنوا المجدَ والأصَالَةَ بالرُّسوخِ في ولاءِ الدَّوْلَة، فكان جعفرُ بن يحيى بن خالد من أعظمِ النَّاسِ بيتاً وشَرَفاً بالانتسَاب إلى ولاءِ الرَّشيد وقومه، لا بالانتساب في الْفُرس.

وكذا **موالي كَلِّ دولة وخدمها**، إنمَا يكونُ لهم البيَتُ والحسبُ بالرسوخِ في ولائها والأصَالَةِ في اصطناعها، ويضمحلُّ نسبهُ الأقدمُ من غير نسبها، ويبقى مُلغىً لا عبرةَ به في أصالته ومجده، وإنما المعتبرُ نسبةُ ولائه واصطناعه. إذ فيه سرُّ الْعَصَبِيَّة التي بها البيت والْشَّرفُ فكان شرفهُ مُشتقاً من شَرَف مواليه، وبناؤه من بنائهم، فلم ينفعه نسبُ ولادته، وإنَّما بنى مجدهُ نسبُ الولاءِ في الدَّوْلَةِ وَلَحمَةُ الاصْطِنَاعِ فيها والْتَّرْبيَة.

---

١ - أخرجه البزار (٢١٩) عن أبي هريرة. وأخرجه البخاري (٦٧٦١) عن أنس بلفظ: «مولى القوم من أنفسهم».

وقد يكون **نَسَبُهُ الأوَّل** في لُحمةِ عَصَبيَّته ودولته، **فإذا ذهبت وصار** ولاؤه واصطناعه في أخرى، لم تنفعه الأولى لذهابِ عَصَبيَّتها، وانتفعَ بالثَّانيةِ لوجودها. وهذا حالُ **بني بَرْمَكَ**، إذ المنقولُ أنهم كانوا أهل بيت في الفرسِ من سَدَنَةِ بيوت النَّارِ عندهم، ولمَّا صَاروا إلى ولاءِ بني العبَّاسِ، **لم يكن بالأوَّل اعتبارٌ**، وإنَّما كان شرفهم من حيثُ ولايتهم في الدَّولةِ واصطناعهم وما سوى هذا فوهمٌ توسوس به النُّفوسُ الجَامحةُ ولا حقيقة لهُ، والوجود شاهدٌ بما قلناهُ، وَ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكم﴾[الحجرات: ١٣]. والله ورسوله أعلمُ.

١-٢-١٥- الْفَصْلُ الخَامِسَ عَشَرَ
في أنَّ نهايةَ الْحَسَبِ في العَقب الواحد أربعةُ آباء

اِعْلَمْ: أَنَّ العالَمَ الْعُنْصرِيَّ بما فيهِ **كائنٌ** فاسدٌ، لا من ذَوَاتِهِ، ولا من أَحوالِهِ. فالمُكوَّنَاتُ من الْمَعْدِنِ وَالْنَّبَاتِ وجميعِ الْحيوَانَاتِ الإنسَان وَغيرهِ كائنةٌ فاسدةٌ بالمُعَايَنَةِ، وكذلك ما يعرضُ لها من الأحوالِ، وَخُصُوصاً الإنسانِيَّةُ. **فالعلومُ** تنشأُ ثُمَّ تدْرَسُ، وَكَذَا **الْصَّنائعُ** وأمْثَالُهَا.

والحَسَبُ من الْعَوارِضِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلآدَمِيِّينَ، فهو **كائنٌ** فاسدٌ لا مَحَالَةَ.

وَلَيْسَ يوجدُ لأحدٍ من أهلِ الخليفةِ **شَرَفٌ متَّصلٌ** في آبائه من لَدُن آدمَ إِلَيْهِ، إلاَّ ما كانَ من ذلك **للنَّبيِّ** صلى الله عليه وسلم كَرَامةً به وحِيَاطَةً [ظ٢/٥٦] على الْسِّرِّ فيه. وأوَّلُ[1] كلِّ شَرفٍ خارجيَّةٌ كما قيلَ، وهي الخروجُ عنِ الْرِّئاسَةِ وَالْشَّرفِ إلى الْضِّعَةِ وَالابتِذَالِ، وَعَدَمِ الْحَسَبِ، وَمَعْنَاهُ **أنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ فعدمهُ سَابقٌ عليه**، شأنُ كُلِّ مُحْدَثٍ.

ثُمَّ إنَّ **نِهَايَتَهُ في أربعةِ آباء**، وذلكَ أنَّ **بانِيَ** المجدِ عالمٌ بما عاناهُ في بنائه، ومحافظٌ على الخلال الَّتِي هي أسبابُ كونهِ وَبَقَائِهِ، **وابنهُ** من بعدهِ مُبَاشِرٌ لأبيه، فقد سمعَ منه ذلك وأخذهُ عنهُ إلاَّ أنَّهُ مُقصِّرٌ في ذلك تقصير الْسَّامعِ بالشيء عن المُعَانِي[2] له، ثُمَّ إذا جاء **الثَّالثُ** كانَ حظُّهُ الاقتفاءُ والتَّقليدُ خاصَّة فَقصَّرَ عن الْثَّانِي تقصيرَ الْمُقلِّدِ عن المجتهد، ثُمَّ إذا جاء **الْرَّابعُ** قَصَّرَ عن طريقتهم جُملة وأضاعَ الخِلاَلَ الحافظَةَ لبناء مَجْدِهم واحْتَقَرَهَا، وَتَوَهَّمَ أنَّ ذلكَ الْبُنيانَ لم يكن بمُعَاناةٍ ولا تكَلُّفٍ، وإنَّما هو أمرٌ وجبَ لهم منذُ أوَّلِ الْنَّشْأَةِ بمُجرَّدِ انْتِسَابهم، وليسَ بعِصابةٍ ولا بخلال لما يرى منَ الْتَّجلَّةِ بينَ النَّاسِ، ولا يعلمُ كيفَ كانَ حدوثها ولا سببها، ويتوهم أنه النَّسبُ فقط فيربَأ بنفسه عن أهل عَصَبيَّتِهِ ويرى الفضلَ له عليهم، وثوقاً بما رُبِّيَ فيه من استتباعهم، وجهلاً بما أوجبَ ذلك الاستتباع من الخِلاَلِ التي منها التَّواضع لهم، والأخذُ بمجامعِ قلوبهم فيحتقرهم بذلك فيُنَغِّصونَ عليه، ويحتقرونه ويُدِيلونَ منه سِوَاهُ من أهل ذلكَ المنبتِ ومن فروعه في غير ذلك

---

١ - في ظ: الشرفية وأولى.

٢ - في ن: المعاين.

العقَبِ، للإذعان لعصَبيتهم كما قلناه بعد الوثُوق بما يَرضونهُ من خلالهِ، فتنمو فروعُ هذا، وتذوي فروعُ الأوَّلِ وينهدمُ بناءُ بيتهِ. **هذا في الملوكِ**.

وهكذا في بيوت القبائل والأمراء وأهل العَصَبيَّةِ أجمع، ثُمَّ في بُيُوتِ أهـل الأمصـار: **إذا** انحطَّتْ بُيُوتٌ نَشأَت بيوتٌ أخرى من ذلك النَّسَبِ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُم وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ على الله بِعَزِيزٍ﴾[فاطر: ١٦ - ١٧].

واشْتِرَاطُ الأربعةِ في الأحسابِ إنَّما هو في الْغَالِبِ. وَإلاَّ فَقَدْ يَدْثُر الْبَيْتُ من دُون الأربعةِ وَيَتلاَشَى وَيَنْهدِمُ، **وَقَد يَتَّصِلُ أمرُها إلى الْخَامِسِ وَالْسَّادِسِ**، إلا أنَّهُ في انحطاطٍ وَذَهابٍ.

واعتبارُ الأربعةِ من قِبَلِ الأجيالِ الأربعة: بانٍ، ومباشرٌ له، ومُقَلِّدٌ، وهادمٌ، وهو أقلُّ ما يمكنُ.

وقد اعتبرتِ الأربعةُ في نهايةِ الحَسَبِ في باب المدحِ والثَّناء. قال صلى الله عليه وسلم: «**إنَّما الكريمُ ابنُ الْكَرِيم ابنُ الْكَرِيْمِ ابْنُ الكَرِيمِ، يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بنُ إسحاقَ بن إبراهيم**»[١]. إشارةً إلى أنَّهُ بلغَ الغاية من المجدِ. وفي التوراة ما معناه: إنَّ الله رَبَّكَ طائقٌ[٢] غَيُورٌ مُطالب بذنوب الآباءِ للبنين على الثَّوالِثِ وَالرَّوابعِ. وهذا يَدُلُّ على أنَّ الأربعة الأعقابِ غايةٌ في الأنسابِ والحَسَبِ.

وفي كتاب الأغاني[٣]: في أخبار **عُوَيف القَوافِي**[٤] أنَّ كِسْرَى قالَ للنُّعمان: هل في العربِ قَبِيْلَةٌ تتشرَّفُ[٥] على قبيلةٍ؟ قال: نعمْ. قال: بأيِّ شيءٍ؟ قال: من كان له ثلاثةُ آباء متوالية رؤساء، ثمَّ اتَّصلَ ذلك بكمال الرَّابعِ، فالبيتُ من قبيلتهِ. وطلب ذلك فلم يجدهُ [ظ١/٥٧] إلا في آل حذيفة بن بدر الْفَزَارِيّ، وهم بيتُ قَيْسٍ، وآل ذِي الْجَدَّينِ بيت شَيْبَانَ، وآل الأشعثِ بن قيس من كندة، وآل حاجبِ بن زرارةَ، وآل قيسِ بن عاصم المنقريّ[٦] من بني تميم. فجمع هؤلاء الرَّهطُ، ومن تبعهم من عَشَائرهم، وأقعدَ لهم الحُكَّامَ

---

١ - أخرجه أحمد (٢/٩٦) والبخاري (٣٣٨٢ و٣٣٩٠ و٤٦٨٨) من حديث ابن عمر.

٢ - أي: قادر.

٣ - الأغاني: (١٩/١٢٣ - ١٢٥).

٤ - في الأصل: غريف الغوافي وعزيف الغواني وهو تحريف. وأخباره في الأغاني (١٩/١٢٣ - ١٤٠).

٥ - في الأغاني (١٩/٢٣): تشرُف.

٦ - لم يذكر: قيس بن عاصم. في بداية الخبر عند الأصبهاني، وإنما ذكر بعد فيمن خطب.

والعُذُوْلَ. فقام حُذيفة بنُ بدر، ثُمَّ الأشعثُ بن قيس لقرابته مِنَ النُّعمان، ثُمَّ بِسْطَامُ بنُ قَيْسِ بن شيبان، ثُمَّ حاجبُ بنُ زرارة، ثُمَّ قَيسُ بنُ عاصِم، وخَطَبُوا وَنَشَروا، فقال كِسْرَى: كُلُّهم[1] سَيِّدٌ يَصْلُح لموضعه. وكانت هذه الْبُيُوتَات هي الْمَذْكورة في العربِ بعد بني هاشمٍ، ومعهم بيتُ بني الْدَّيَّان[2]، من بني الحارثِ بنِ كعبٍ اليَمَنِيِّ.

وهذا كلهُّ يدلُّ على أنَّ الأربعةَ الآباءِ نهاية في الحسب. والله أعلمُ.

---

١ - في الأغاني: ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه.

٢ - في الأصل: الذبيان وصحح من الأغاني (١٢٣/١٩) وجمهرة أنساب العرب (٤١٦) والديان: يزيد ابن قطَن بن زياد بن الحارث بن مالك بن كعب بن الحارث بن كعب.

١-٢-١٦- الْفَصْلُ السَّادِسَ عَشَر
في أنَّ الأمم الْوَحْشِيَّةَ أقدرُ على الْتَّغلُّبِ مِمَّن سِوَاهَا

اِعْلَمْ: أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْبَدَاوَةُ سَبباً في الْشَّجاعةِ كما قلناه في الْمُقدِّمَـةِ الْثَّالِثَـةِ[1]، لا جَـرَمَ كانَ هذا الجيلُ الوحشيُّ أشدَّ شجاعةً منَ الجيلِ الآخرِ. فهم أقدرُ على الْتَّغلُّبِ وانتزاعِ مـا في أيدي سِواهم منَ الأممِ. بلِ الجيْلُ الْواحدُ تختلفُ أحوالهُ في ذلك باختلافِ الأعْصَارِ.

فَكُلَّما نزلوا الأرْيافَ وَتَفَنَّقُوا[2] النَّعِيْمَ، وَأَلِفُوا عَوائدَ الخِصْبِ في المعاشِ والنَّعيم، **نقَصَ من شجاعتهم** بمقدارِ ما نقصَ من توحُّشهم وبداوتهم.

واعتبر ذلك في **الحيواناتِ العجـم** بدواجـنِ الظِّبـاءِ والبقـرِ الوحشيَّةِ والحُمُـرِ، إذا زالَ توحُّشُهَا بمُخالطةِ الآدَميِّينَ، وأخصبَ عَيشُـها كيـفَ يختلـفُ حالهـا في الانتهـاضِ والْشِّـدَّةِ حتى في مشيتها وحُسْنِ أديمها، وكذلك الآدَمِيُّ الْمُتوَحِّشُ، إذا أنسَ وَأَلِفَ.

وَسَبَبُهُ: أنَّ تَكوُّنَ الْسَّجايَا والْطَّبائعُ، إنَّما هو عنِ الْمَأْلوفـاتِ والعوائـدِ. إذا كـانَ الغَلَـبُ للأمَمِ إنَّما يكونُ بالإقدامِ وَالْبَسَالَةِ. فمن كان من هذه الأجيـال أعـرَقَ في الْبَـدَاوةِ وأكـثرَ توحُّشاً كان أقربَ إلى الْتَّغلُّبِ على سواهُ، إذا تَقارَبَا في الْعَدَدِ وتَكَافَآ في القوة الْعَصَبِيَّةِ.

وانظُر في ذلك شأنَ **مُضَـرَ** مَـعَ مَـن قَبْلَهُـم مـن حِمْيَرَ وَكَهْـلاَنَ الْسَّـابِقِيْنَ إلى الْمُلْـكِ والنَّعيمِ، ومع رَبيعةَ الْمُتَوطِّنين أريَافَ الْعِرَاقِ ونعيمه، لمـا بقـيَ مُضر في بداوتهـم وتقدَّمهـم الآخرون إلى خصبِ العَيْشِ وغضـارَةِ النَّعيـمِ، كيـفَ أرْهفـتِ الْبـداوة حدَّهـم في الْتَّغلُّـبِ فغلبوهمِ على ما في أيديهم وانتزعوه منهم. وهذا حالُ بني طيءٍ وبني عـامرِ بـن صَعصَعـة، وبني سُلَيم بنِ منصور ومن بعدهم، لَمَّا تأخروا في باديتهم عن سَائِرِ قبائلِ مُضَرَ واليمـنِ، و لم يَتَلَبَّسُوا بشيءٍ مـن دُنيَـاهم كيـفَ أمسكت حـالُ الْبـداوة عليهم قُوَّةَ عَصَبِيَّتهـم و لم تَخلُفها مذاهبُ الْتَّرَفِ حتى صاروا أغلبَ على الأمر منهم.

وكذا كُلُّ حيٍ مـنَ العربِ يلي نعيمـاً وعيشـاً خَصِبـاً دونَ الْحَـيِّ الآخـرِ، فـإنَّ الحَـيَّ الْمُتبدِّي، يكونُ أغلبَ لهُ وأقدرَ عليه إذا تكَافـآ [ظ٢/٥٧] في الْقُـوَّةِ والعـددِ. سُنَّة الله في خلقه.

---

١ – صوابه: الفصل الخامس من هذا الباب.

٢ – تقلبوا فيه بعد البؤس.

١-٢-١٧- الْفصْلُ الْسَّابعَ عَشَرَ
في أنَّ الْغايَة التي تَجْري إليها الْعَصَبِيَّةُ هي الْمُلك

وذلك لأنَّا **قدَّمنا**: أنَّ الْعَصَبِيَّةَ بها تكون الحماية والمدافعةُ والمطالبةُ، وكلُّ أمرٍ يجتمع عليه. **وقدَّمنا** أنَّ الآدمِيِّين بالطَّبيعةِ الإنسانيةِ يحتاجونَ في كل اجتماعٍ إلى وازعٍ وحاكمٍ يزَعُ بعضهم عن بعضٍ. فلا بُدَّ أنْ يكونَ مُتَغَلِّباً عليهم بتلكَ العَصَبِيَّةِ وإلاَّ لم تتمَّ قُدرتهُ على ذلك. وهذا التَّغلُّبُ هو الملك. وهو أمرٌ زائدٌ على الرِّئَاسَةِ. **لأنَّ الرِّئاسةَ إنَّما هي سؤددٌ، وَصَاحبها متبوعٌ، وليس له عليهم قهرٌ في أحكامه؛ وأمَّا الملكُ فهو التَّغلُّبُ والحكمُ بالقهر.**

وصاحبُ الْعَصَبِيَّةِ إذا بلغَ إلى رُتْبَةٍ طلبَ ما فوقها. فإذا بلغَ رُتبة السُّؤدد والاتِّباع، ووجدَ الْسَّبِيلَ إلى التَّغلُّبِ والقهرِ لا يتركهُ لأنَّهُ مطلوبٌ للنَّفس. ولا يتمُّ اقتدارها عليه إلاَّ بالعصبية التي يكون بها متبوعاً، فالتَّغلب المَلَكِيُّ غايةٌ للعَصَبِيَّةِ، كما رأيت، ثُمَّ إن القبيل الواحدَ وإن كانتِ فيه بيوتَاتٌ مُتفرِّقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ متعدِّدةٌ، فلا بدَّ من عَصَبِيَّةٍ تكونُ أقوى من جميعها تغلبها وَتَستَتْبِعُهَا وَتَلْتَحِمُ جميعُ الْعَصَبِيَّات فيها وتَصيرُ كأنَّها عَصَبِيَّةٌ واحدةٌ كُبْرَى، وإلاَّ وقعَ الافتراقُ الْمُفضي إلى الاختلافِ وَالْتَّنَازُعِ: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ ا للهِ الْنَّاسَ بعضهم ببعضٍ لَفَسَدتِ الأَرْضُ﴾[البقرة: ٢٥١].

ثُمَّ إذا حَصَلَ الْتَّغَلُّبُ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ على قومها طَلَبَت بطَبْعِها الْتَّغَلُّبَ على أهل عَصَبِيَّةٍ أخرى بعيدةٍ عنها؛ فإنْ كَافأتها أو مانعتها كانوا أقْتَالاً[1] وَأنظاراً، ولكلٍّ واحدةٍ منهما التَّغلُّبُ على حوزتها وقومها شأنُ الْقَبَائِلِ والأممِ الْمُفْتَرقَةِ في الْعَالَمِ؛ وَإنْ غَلَبَتهَا، وَاسْتَتْبَعَتْهَا الْتحمَتْ بها أيضاً وزادت قُوَّةً في الْتَّغلُّبِ إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب وَالْتَّحكّمِ أعلى منَ الغايَةِ الأُولَى وَأَبْعَد، وهكذا دَائماً حتَّى تُكَافىءَ بقوَّتها قُوَّةَ الْدَّوْلَةِ في هَرَمِهَا، فإنْ أدْرَكتَ الْدَّولة في هرمها و لم يكُن لها مُمَانعٌ من أولياءِ الدَّوْلَةِ أهلِ الْعَصَبَاتِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْها، وانْتزعتِ الأمرَ من يدها، وَصَارَ الْمُلْكُ أجمعُ لها؛

وإن انتهت قوَّتها و لم يُقارن ذلك هرم الدَّولةِ، وإنَّما قارنَ حاجتها إلى الاسْتِظْهَار بأهلِ الْعَصَبِيَّاتِ انْتَظَمَتْهَا الدَّوْلَةُ في أوْلِيَائها تَسْتَظْهِرُ بِهَا على مَا يَعِنُّ من مَقَاصِدِهَا، وذلك مُلْكٌ

---

١ - القِتْل بكسر القاف وسكون التاء: العدو والمقاتل وجمعه أقتال. كما تطلق على الصديق. ضد. ومنها: النظير والمثل.

آخرُ دون الملكِ المُسْتَبدّ. وهو كما وقع للتُّرْكِ في دولة بني الْعَبَّـاسِ وَلِصَنْهَاجَـةَ وزَنَاتَـة مَـعْ كُتَامَةَ، وَلِبَنِي حَمْدانَ مع مُلوكِ الْشِّيْعَةِ من الْعَلَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ. فقد ظهرَ أنَّ المُلْـكَ هُـوَ غَايَـة الْعَصَبِيَّةِ، وأنَّها إذا بلغت إلى غَايتها حَصَلَ لِلْقَبيلة المُلْكُ إمَّا بالاسْتِبْدَادِ أو بالمُظَاهَرَةِ[1] علـى حَسَبِ مَا يَسَعهُ الوَقْتُ المُقَارنُ لذلك؛ وإن عاقهم عن بلوغِ الغايةِ عوائـقُ ـ كمـا نُبَيِّنُـهُ ـ وقفت في مقامها إلى أن يقضي الله بأمره.

١ - أي التعاون.

١-٢-١٨- الْفَصْلُ الثَّامنَ عَشَر

في أنَّ من عوائق[ظ٥٨/١] المُلك حُصُولَ التَّرَفِ وانْغِماسَ القَبِيْلِ في النَّعيم

وَسَبَبُ ذلك: أنَّ القبيلَ إذا غَلَبَتْ بعصبيَّتها بعضَ الْغَلَبِ، اسْتَوْلَتْ على النِّعمةِ بمقدارِهِ، وَشَارَكت أهل النِّعَم والخَصْبِ في نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم في ذلك بِسَهْمٍ وحِصَّةٍ بمقدارِ غَلَبها واستظهارِ الدَّولةِ بها. فإن كَانَتِ الدَّوْلَةُ من القُوَّةِ بحيثُ لا يطمعُ أحدٌ في انتزاعِ أمرها، ولا مشَاركتها فيه أذْعَنَ ذلك القبيلُ لولايتها، والقنوعُ بما يُسَوِّغُونَ من نعمتها ويشركون فيه من جبَايَتها، ولم تَسْمُ آمالُهُم إلى شيء من مَنَازعِ الملكِ وَلاَ أَسْبَابِهِ، إنَّما همَّتُهُمُ النَّعِيْمُ والكَسبُ وخِصْبُ الْعَيْشِ والسُّكونُ في ظِلِّ الدَّوْلَةِ إلى الدَّعَةِ والْرَّاحةِ، والأخذِ بمذاهبِ المُلكِ في المَبَانِي وَالْمَلاَبسِ وَالاسْتِكْثَارِ من ذلك وَالتَّأنُّق فيه بمقدارِ ما حَصَلَ من الْرِّيَاشِ وَالْتَّرَفِ، وما يدعو إليه من توابع ذلك فتذهبُ خُشُونةُ الْبَدَاوةِ وَتَضْعُفُ الْعَصَبِيَّة وَالْبَسَالةُ، وَيَتَنَعَّمونَ فيما آتاهمُ ا لله منَ الْبَسْطَةِ، وَتَنْشَأُ بنوهُم وأعْقَابهم في مثلِ ذلكَ منَ التَّرفُّعِ عن خدمةِ أنْفُسِهِم، وولايةِ حاجاتهم ويستنكفونَ عن سائرِ الأمورِ الْضَّرُوْرِيَّةِ في الْعَصَبِيَّةِ حتَّى يَصِيرَ ذلكَ خُلُقاً لَهُم وَسَجِيَّةً فتنقُصُ عَصَبِيَّتُهُم وَبَسَالَتُهُمْ في الأجْيَالِ بَعدَهم بتعَاقُبِهم[1] إلى أن تَنْقَرِضَ الْعَصَبيَّةُ فَيأْذَنُونَ بالانْقِرَاضِ.

وَعلى قَدْرِ ترفهم ونعمتهم يكونُ إشرافهم على الْفَنَاء فَضْلاً عنِ المُلْكِ، فإنَّ عَوَارِضَ الْتَّرَفِ والْغَرَقَ في النَّعيم، كاسرٌ من سَوْرَةِ الْعصبيَّةِ الَّتي بها الْتَّغلُّبُ، وإذا انْقَرَضَتِ الْعَصَبِيَّةُ قَصُرَ الْقَبِيْلُ عَنِ الْمُدَافعَةِ وَالْحِمَايَةِ فضلاً عن المُطَالبةِ، والتهمتهم الأُمم سِوَاهم. فقد تَبَيَّنَ أنَّ الْتَّرَفَ من عوائقِ الْمُلْكِ، ﴿وا لله يؤتي ملكه من يشاءُ﴾[البقرة: ٢٤٧].

---

١ - في ن: (يتعاقبها).

١-٢-١٩- الْفَصْلُ التَّاسِعَ عَشَر

فِي أنَّ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ حُصُولَ الْمَذَلَّةِ لِلْقَبِيْلِ وَالانقيادِ إلى سِوَاهم

وَسَبَبُ ذلك: أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالانْقِيَادَ كَاسِرَانِ لِسُوْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَشِدَّتِها فَإِنَّ انْقِيَادَهُم وَمَذَلَّتَهُم دَلِيْلٌ على فُقْدَانِهَا، فمَا رَئِموا[1] لِلْمَذَلَّةِ حَتَّى عَجَزوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ، ومن عجز عن المدافعة فأَوْلَى أنْ يَكُونَ عَاجزاً عَنِ الْمُقَاومةِ وَالْمُطَالَبَةِ.

واعْتَبِرْ ذلك في **بَنِي إِسْرَائِيلَ**، لَمَا دَعَاهُمْ مُوسى عَلَيْهِ الْسَّلاَمُ إلى مُلكِ الْشَّام، وأخبرهم بأنَّ الله قد كتبَ لهم ملكها كَيْفَ عَجزوا عن ذلك وَقَالُوا: ﴿إِنَّ فيها قَوْماً جَبَّارِيْنَ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾[المائدة: ٢٢]. أي: يُخرجهم الله تعالى منها بضَرْبٍ من قُدرته غير عَصَبيَّتِنَا، وتكونُ من مُعْجزَاتِكَ يَا موسى. ولَمَّا عَزَمَ عليهم لجّوا وارتكبوا الْعِصْيَانَ، وقالوا: ﴿فاذْهَبْ أنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾[المائدة: ٢٤]. وما ذلك إلا لما أنِسُوا من أنفسهم من العجز عن المقاومةِ والمُطالَبَةِ، كما تَقْتَضِيه الآية، وما يُؤثرُ في تفسيرها، وذلك بما حَصَلَ فيهم من خُلُق الانقياد، وما رَئِموا من الْذُّلِّ لِلْقِبْطِ أَحْقَاباً حتى ذَهَبَتِ الْعَصَبِيَّة [ظ٢/٥٨] مِنهُم جُملةً مع أنَّهم لم يؤمنوا حقَّ الإِيْمَان بما أخْبَرَهم به موسى من أنَّ الْشَّام لَهُم، وأنَّ الْعَمَالِقَةَ الَّذينَ كانوا بأَريحا فَريستُهُم بحُكْمٍ من اللهِ قدَّرَهُ لهم، فأقصَروا عن ذلك وعجزوا تعويلاً على ما في أنْفُسِهِم من العجزِ عن المُطالبةِ، لما حَصَلَ لهم من خُلُقِ الْمَذَلَّةِ، وطَعَنوا فيمَا أخبرهم به نَبِيُّهُم من ذلك، وما أمرهم به فعَاقبهم الله بالتِّيهِ، وهو أنَّهم تاهوا في قَفْرٍ من الأرضِ ما بينَ الْشَّام ومصرَ أربعينَ سَنَةً لم يأووا فيها لِعُمرانٍ، ولا نزلوا مِصْراً ولا خَالَطُوا بَشَراً كما قَصَّهُ الْقُرْآنُ لِغِلْظَةِ الْعَمَالِقَةِ بالشَّامِ، وَالْقِبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهم لِعَجْزِهم عن مُقَاوَمَتِهم كمَا زَعَمُوه.

وَيَظْهَرُ من مَسَاق الآيةِ ومفهومها أنَّ حِكْمَةَ ذلك الْتِّيهِ مَقْصُوْدَةٌ، وهيَ فَنَاءُ الجيْلِ الَّذِينَ خرجوا من قَبْضَةِ الْذُّلِّ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وتخَلَّقُوا به وأفسدوا من عَصَبيَّتهم حتى نَشَأَ في ذلك الْتِّيهِ جيْلٌ آخرُ عَزِيزٌ، لا يعرفُ الأحكامَ والقهرَ ولاَ يُسَامُ بالْمَذَلَّةِ، فَنَشَأت بذَلِكَ عَصَبِيَّةٌ أخرى اقتدروا بها على المُطالبة وَالتَّغَلُّبِ. **ويظهرُ لكَ من ذَلِكَ أنَّ الأربعينَ سَنَةً أقلُّ ما يأتي فيها فناءُ جِيْلٍ وَنَشأةُ جيلٍ آخرَ**، سُبْحَانَ الحكيمِ العليمِ.

---

١ - رَئِمَ الشيء: أَحَبَّه وَأَلِفَهُ.

وفي هذا أوضحُ دليلٍ على شأن **الْعَصَبِيَّةِ**، وأنَّها هي الَّتي تكونُ بها الْمُدافعةُ والمقاومةُ والحِمايةُ والُمطالبةُ، وأنَّ من فَقَدها عجزَ عن جميعِ ذلك كلِّه.

وَيَلحَقُ بهذا الْفَصْلِ فيما يُوجبُ المَذَلَّةَ للقَبيلِ شأنُ **المَغارمِ وَالْضَرَائِبِ**، فَإنَّ القبيلَ الغارمينَ ما أعطوا اليدَ من ذلك حتى رَضُوا بالمَذَلَّةِ فيه، لأنَّ في المغارمِ والْضَّرائبِ ضيماً ومذلَّةً لا تحتملها النُّفوسُ الأبيَّةُ إلا إذا استهونتهُ عنِ القتل والتَّلفِ، وأنَّ عصبيتهم[1] حينئذٍ ضَعيفةٌ عن المدافعةِ والحمايةِ، ومن كانت عَصَبِيَّتُهُ لا تدفع عنه الْضَّيمَ، فكيف له بالمقاومة والمُطالبةِ وقد حَصَلَ له الانقياد للذُّلِّ، والمَذَلَّةُ عائقةٌ كما قدَّمناهُ. **ومنه** قول صلى الله عليه وسلم في شأن الحارثِ لَمَّا رأى سِكَّةَ المحراثِ في بعض دُوْرِ الأنصار: «**ما دَخَلَتْ هذه دار قَوْمٍ إلاَّ دَخَلَهُم الْذُّلُّ**»[2]. فهو دليلٌ صريحٌ على أنَّ المَغْرَمَ موجبٌ لِلْذلَّةِ[3]. هذا إلى ما يَصْحَبُ ذُلَّ المَغارمِ من خُلُقِ المَكْرِ والخديعةِ بسَبَبِ مَلَكَةِ القَهْرِ، فإذا رأيتَ القبيلَ بالمغارمِ في ربقةٍ من الْذُّلِّ فلا تطمَعَنَّ لها بمُلْكٍ آخِرَ الدَّهْرِ.

ومن هنا يَتَبَيَّنُ لكَ **غَلَطُ** من يَزعمُ أنَّ **زَنَاتَةَ** بالمغربِ كانوا **شَاوِيَّةً** يُؤَدُّونَ المَغَارِمَ لمن كانَ على عَهدِهم من الْمُلوكِ، وهو غلطٌ فاحشٌ كما رأيت؛ إذ لو وَقَعَ ذلك لما استتبَّ لهم ملكٌ، ولا تَمَّتْ لهم دولةٌ. وانظر فيما قاله **شهربراز** ملك [ظ٥٩/١] الباب **لعبدِ الرحمن بن ربيعة** لما أطَلَّ عليه، وَسَأَلَ شهرَبرازُ أمانه على أن يكونَ لهُ، فقال: أنا اليومَ منكم، يدِي في أيديكم، وَصَعَرِي[4] معكم، فمرحباً بكم وباركَ الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النَّصْرُ لكم، والقِيَامُ بما تُحِبُّون، ولا تذلُّونا بالجزيةِ فَتُوْهِنُونا لِعَدُوِّكُم. فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كافٍ.

---

١ - في ن: عصبيتها.

٢ - أخرج البخاري (٢٣٢١) من حديث أبي أمامة الباهلي قال: ورأى سكة وشيئاً من آلة الحرثِ فقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل هذا بيت قومٍ إلا أدخله الله الذُّلَّ».

٣ - في ن: للمذلة.

٤ - أي: اتجاهي سيكون معكم. من الصَّعَر والتصعير: وهو ميل في الوجه.

١-٢-٢٠- الْفَصْلُ الْعُشْرُونَ
فِي أَنَّ من علامات الْمُلك الْتَنَافُس في الخلال الْحَمِيْدَة وبالعكس

لَمَّا كان المُلْكُ طبيعيّاً للإنسان، لما فيه منَ طبيعةِ الاجتماع كما قلناه، وكان الإنسان أقربَ إلى خلال الخير من خلال الْشَرِّ، بأصل فِطْرَتِهِ وقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ، لأنَّ **الْشَّرَّ** إنَّما جَاءَهُ مِنْ قبلِ الْقُوى الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتي فيه، وأمَّا من حيثُ هو إنسانٌ فهو إلى الخيرِ وخلالهِ أقْرَبُ، وَالْمُلْكُ وَالْسِّياسةُ إنما كانا لهُ من حيث هو إنسانٌ، لأنَّهما[1] للإنسان خاصَّةً لا للحيوان، فإذاً خلالُ الخيرِ فيهِ هيَ الَّتي تُناسبُ الْسِّيَاسة والمُلْكَ، إذ **الخيرُ هو المُنَاسبُ لِلْسِّيَاسةِ.**

وقد ذكرنا أنَّ المجدَ لهُ **أصلٌ** يبنى عليه، وَتَتَحقَّقُ به حقيقته، وهو الْعَصَبيَّةُ والعشيرُ، **وفرعٌ** يُتمِّمُ وجودهُ وَيُكْمِلُهُ وهو الْخِلاَلُ. وإذا كانَ الْمُلْكُ غايةً للعَصَبيَّةِ فهو غايةٌ لفروعها ومتمماتها، وهي الخِلاَلُ؛ لأنَّ وجوده دونَ متمِّماته كوجودِ شَخْصٍ مَقطوع الأعضاء، أو ظهورهِ عُرياناً بينَ النَّاسِ.

وإذا كان وجودُ الْعَصَبيَّةِ فقط من غيرِ انْتِحَال الخِلاَل الحَمِيدَة نقصاً في أهل الْبُيُوتِ والأحساب، فما ظَنُّكَ بأهلِ الْمُلْكِ الَّذي هو غايةٌ لكلِّ مجدٍ، ونهايةٌ لكلِّ حَسَبٍ!.

وأيضاً **فَالْسِّيَاسَةُ والمُلْكُ** هي كَفَالَةٌ للخَلْقِ وخلافةٌ للهِ في العبادِ لتنفيذِ أحكامه فيهم. وأحكام الله في خلقهِ وعبادهِ، إنما هي بالخَيْرِ ومراعاةِ المصالحِ كما تشهدُ به الْشَّرائعُ. وأحكام البَشَرِ إنما هيَ منَ الجهلِ والْشَّيْطان، بخلاف قدرَةِ اللهِ سُبْحانهُ وقدرهِ فإنه فاعلٌ للخير والشَّرِّ معاً ومُقَدِّرُهما، إذ لا فاعل سواهُ. فمن حَصَلَتْ لهُ الْعَصَبيَّةُ الكَفِيْلَةُ بالقدرةِ وأونستْ منه خلالُ الخيرِ المناسبةُ لتنفيذِ أحكامِ اللهِ في خلقهِ، فقد تَهَيَّأ للخلافةِ في العِبَادِ وكَفَالَةِ الخلق، ووجدت فيه الْصَّلاَحِيَّةُ لذلك، وهذا البُرْهان أوثقُ من الأوَّل، وأصَحُّ مبنًى.

فقد تَبَيَّنَ أَنَّ **خلالَ الخَيْرِ شَاهدةٌ بوجودِ الْمُلكِ** لِمَنْ وُجدت لهُ الْعَصَبيَّةُ، **فإذا نظرنا في** أهلِ الْعَصَبيَّةِ ومن حَصَلَ لَهُمْ منَ الْغَلَبِ على كثير منَ الْنَّواحِي والأُمَمِ، **فَوَجَدْنَاهُم** يَتَنَافَسُونَ في الخيرِ وخلالهِ منَ الْكَرمِ والعفو عنِ الْزَّلاَّتِ والاحْتِمَال من غير الْقَادر، والْقِرَى للضُّيُوفِ، وحملِ الْكَلِّ[2]، وَكَسْبِ الْمُعْدِمِ، وَالْصَّبْرِ على الْمَكَارهِ، والْوَفَاءِ

---

١ - في ن: لأنها.
٢ - الكَلُّ - بفتح الكف - اليتيم ومن لا يقدرُ على القيام بشؤون نفسه.

بالعَهْدِ، وبَذْلِ الأموالِ في صَوْنِ الأعْرَاضِ، وتَعْظِيْمِ الشَّرِيْعَةِ، وإجْلاَل [ظ٢/٥٩] العُلَماء الحاملين لها، والوقوفِ عند ما يُحَدِّدُوْنَهُ لَهُم من فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بهم، واعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّيْنِ وَالتَّبرُّكِ بِهِمْ، ورغبةِ الدُّعاءِ منهم، وَالْحَيَاءِ مِنَ الأَكابِرِ وَالْمَشَايخِ وَتَوْقِيْرِهِمْ وَإِجْلاَلِهِمْ وَالانْقِيَادِ إلى الحق مع الداعي إليه، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم، والتبذل في أحوالهم والانقياد للحَقِّ، وَالتَّواضُعِ لِلْمسكِيْنِ، واسْتِمَاعِ شَكْوَى الْمُسْتَغِيْثِيْنَ، وَالتَّدَيُّنِ بِالشَّرَائِعِ وَالعِبَادَاتِ وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وعلى أَسْبَابِها، وَالتَّجافِي عَنِ الْغَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيْعَةِ وَنَقْضِ الْعَهْدِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، **علمنا** أنَّ هذه خُلُقُ الْسِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لَدَيهم وَاسْتَحقُّوا بها أن يكونوا سَاسَةً لمن تَحْتَ أيديهم، أو على العُمُومِ، وأنَّهُ خيرٌ سَاقَهُ ا للهُ تعالى إليهم مناسبٌ لِعَصبيَّتِهِمْ وغلبهم، وليس ذلك سُدىً فيهم، ولا وجد عبثاً منهم، والملك أنسبُ المَرَاتِبِ والخيراتِ لِعَصَبيَّتهم، فَعَلِمنا بذلك أنَّ ا للهَ تأذَّنَ لهم بالمُلكِ وساقهُ إليهم.

وبالعكس من ذلك إذا تأذَّنَ ا للهُ بانْقِرَاضِ المُلْكِ من أُمّةٍ حَمَلَهُم على ارْتِكَابِ المَذْموماتِ وانْتِحَالِ الرَّذائِلِ وَسُلُوْكِ طُرُقِهَا فَتُفقدُ الْفَضَائِلُ الْسِّيَاسِيَّةُ منهم جُمْلَةً، ولا تَزَالُ في انْتِقَاصٍ إلى أن يَخْرُجَ المُلْكُ من أيْديهم، وَيَتَبدَّلَ بِهِ سِوَاهُم لِيَكُوْنَ نعياً عليهم في سَلْبِ ما كَانَ ا للهُ قد آتاهم من الْمُلْكِ، وجعلَ في أيديهم منَ الخير: ﴿وَإذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيْها فَفَسَقُوا فِيْهَا، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاها تَدْمِيْراً﴾[الإسراء: ١٦]. واستقرىء ذلك وَتَتَبَّعه في الأمم الْسَّابقة تجد كثيراً ممَّا قلناهُ ورسمناهُ ﴿وا للهُ يَخْلُقُ ما يشاء ويختارُ﴾[القصص: ٦٨].

واعْلَمْ: أنَّ من **خلال الكمال الَّتي يتنافسُ فيها** الْقبائلُ أولو الْعَصَبيَّةِ وتكونُ شَاهدةً لهم بالمُلْكِ: **إكْرَامُ العُلَماء والْصَّالِحِيْنَ، والأشْرَافِ وأهلِ الأَحْسَابِ، وَأَصْنَافِ الْتُّجَّار والْغُرَباء، وإنزالُ النَّاس مَنَازهم.** وذلك أنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وأهل الْعَصَبيَّاتِ وَالعَشَائِرِ لِمَنْ يُنَاهِضهم في الْشَّرَفِ ويُجَاذِبُهُمْ حَبْلَ الْعَشِير وَالعَصَبيَّةِ، وَيُشَاركهم في اتِّسَاعِ الجاهِ[1]، أمْرٌ طبيعيٌّ يحملُ عليه في الأكثر الرَّغْبةُ في الجاهِ، أو الْمَخَافَةُ من قَوْمِ الْمُكْرَمِ، أوِ الْتِمَاسُ مِثْلِهَا منهُ.

---

١ – أي القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة.

وأمَّا أمثالُ هؤلاء ممن ليس لهم عصبيَّةٌ تُتَّقى ولا جاهٌ يُرتَجى فيندفعُ الشَّكُّ في شأن كرامتهم، ويتمحَّضُ القَصْدُ فيهم أنَّهُ لِلْمُجدِ وانْتِحَال الْكَمَال في الخِلاَل والإقْبَال على الْسِّيَاسَةِ بالْكُلِّيَّةِ؛ لأنَّ إكرامَ أقْتَالِهِ[1] وأَمْثَالِهِ ضَرُوْرِيٌّ في الْسِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بينَ قَبِيْلِهِ ونظرائه، وإكرامُ الطَّارئينَ من أهل الفضائل والخُصُوْصِيَّاتِ كمالٌ في الْسِّيَاسَةِ العامَّةِ، والصَّالحونَ[2] للدِّين، والعُلماء للحاجةِ[3] إليهم في إقامة مراسمِ الْشَّرِيْعَةِ، والتُّجَّارُ لِلْتَّرْغِيْبِ حتى تَعُمَّ الْمَنْفَعَةُ بما في أيديهم، والغرباء من مكارم الأخلاق [ظ٦٠/١]، ومن الترغيب ببعض الوجوه، وإنزالُ النَّاسِ منازلهم من الإنْصَافِ وهوَ منَ الْعدْل. فَيُعْلَمُ بوجودِ ذَلِكَ من أهلِ عَصَبِيَّتِهِ انْتِماؤُهم للسِّياسة الْعَامَّةِ، وهي الْمُلْكُ، وأنَّ الله قد تأذَّنَ بوجودها فيهم لوجود عَلاَماتها.

ولهذا فإن[4] **أول ما يذهب من القبيل** ـ أهلِ الْمُلْكِ ـ إذا تأذَّنَ الله تعالى بسَلْبِ مُلكهم وَسُلطانهم إكرامُ هذا الْصِّنْفِ من الْخَلْق. فَإذَا رَأيتهُ قد ذَهَبَ من أمة من الأمم فاعلم أنَّ الْفَضَائل قد أخذت في الْذَّهابِ عنهم، وارْتَقِب زوالَ الْمُلْكِ منهم، ﴿وَإِذَا أرادَ الله بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لهُ﴾[الرعد: ١١][5].

---

١ – القِتل: العدو، والمقاتل.

٢ – في ن: فالصالحون.

٣ – في ن: للجْإ.يعني للالتجاء إليهم.

٤ – في ن: كان.

٥ – في نسخة زيادة: والله تعالى أعلم.

١-٢-٢١- الْفَصْلُ الحَادِي وَالْعِشْرُون
فِي أَنَّهُ إذا كَانت الأُمَّة وحشيَّة كانَ مُلكها أوسعُ

وذلك لأنهم أقدرُ على الّتَّغلُّبِ والاسْتِبْدَادِ، كما قلناهُ، واسْتِعْبَادِ الْطَّوَائِفِ لِقُدْرَتِهم على مُحَارَبَةِ الأُمم سِوَاهُم، ولأَنَّهم يتنزَّلون مِنَ الأَهْلِيْنَ منزلَةَ الْمُفْتَرِسِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ، وَهَؤُلاءِ مِثْلُ الْعَرَبِ، وَزَنَاتَةَ، ومن في معناهم منَ الأكْرَادِ والتُّركمانِ، وأهلِ اللِّثامِ من صَنْهَاجة.

وأيضاً: فهؤلاء الْمُتَوَحِّشُون ليسَ لهم وطنٌ يرتَافونَ[1] منه، ولا بلدٌ يَجْنَحُونَ إليه، فَنِسْبَةُ الأَقْطَارِ والمَواطنِ إلَيْهم على الْسَّواء، فلهذا لا يقتصِرُونَ على مَلَكَةِ قُطْرِهم، وما جَاوَرَهُمْ منَ الْبِلاَدِ، ولاَ يَقِفُونَ عندَ حُدُوْدِ أُفْقِهم، بل يَطْفِرُونَ[2] إلى الأَقَالِيْمِ البعيدةِ ويتغلبون على الأمم النَّائية.

وانظر ما يُحكى في ذلك عن **عمر** رضي الله عنه لَمَّا بويعَ وقامَ يُحَرِّضُ الناس على العراق، فقال: إنَّ الحجاز ليس لكم بدارٍ إلا على النُّجْعَةِ، ولا يقوى عَلَيْهِ أهله إلاَّ بذلك، أينَ الْقُرَّاءُ المُهاجرونَ عن مَوْعِدِ الله؟ سِيروا في الأرضِ الَّتي وعدكم الله في الكتابِ أن يُوْرِثَكُموها فقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ على الْدِّيْنِ كُلِّهِ ولو كَرِهَ الْمُشْرِكون﴾[التوبة: ٣٣. والصف: ٩].

واعتبر ذلك أيضاً بحالِ العرب الْسَّالفة من قبلُ، مثل التَّبابعة، وحميرَ، كيفَ كانوا يخطُونَ من اليمن إلى المغربِ مرَّةً، وإلى الْعراقِ والهندِ أُخرى، ولم يكن ذلك لغير العربِ منَ الأمم.

وكذا حالُ المُلَثَّمِيْنَ منَ الْمَغْرِبِ، لَمَّا نَزَعُوا إلى الملك طفروا من الإقليمِ الأَوَّلِ ومجالاتُهم منه في جوارِ السُّودان إلى الإقليم الْرَّابعِ والخامسِ في ممالكِ الأَنْدَلُسِ من غيرِ وَاسِطةٍ.

وهذا شَأْنُ هذه الأَممِ الوَحْشِيَّةِ فلذلك تكونُ دولتهم أوسعَ نطاقاً، وأبعد من مراكزها نهايةً، ﴿وَالله يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالْنَّهارَ﴾[المزمل: ٢٠]. ﴿وهو الواحدُ القَهَّارُ﴾[الرعد: ١٦] لا شريكَ له.

---

١ - أي: يتعيشون منه.

٢ - الطَّفر: الوثبُ في ارتفاعٍ.

١-٢-٢٢- الْفَصْلُ الثَّاني وَالعشرون
فِي أنَّ الملك إذا ذَهبَ عن بعضِ الشُّعوبِ من أمَّةٍ
فلا بدَّ من عودة إلى شعبٍ آخرَ منها ما دامت لهم الْعَصَبِيَّة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أنَّ المُلكَ إنما حصل لهم بعدَ سورة الغلبِ وَالإذعان لهم من سَائرِ الأمم سِوَاهم، فَيَتعيَّنُ منهم الْمبَاشرُون للأمرِ، الحاملونَ لسرير[1] الملك [ظ٦٠/٢]، ولا يكون ذلك لجميعهم، لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاقُ المزاحمة والغيرة التي تجدعُ[2] أُنوفَ كثيرٍ منَ الْمُتَطَاولينَ للرُّتبةِ، فَإذا تعيَّنَ -أولئكَ القائمون بالدَّوْلَةِ انْغَمَسُوا في النَّعيمِ، وغرقوا في بحر التَّرَفِ والخِصْبِ، واستعبدوا إخوانهم من ذلك الجيلِ، وأنفقوهم[3] في وجوه الدَّوْلَةِ ومذاهبها، وبقي الَّذين بعدوا عن الأمر، وكبحوا عن المشاركة في ظلٍّ من عزِّ الدَّولةِ التي شاركوها بنسبهم، وبمنجاة من الهرمِ لبعدهم عن التَّرَفِ وأسبابه، فإذا استولت على الأولين الأيَّامُ، وأباد غضراءهم[4] الهرمُ فطَبَخَتْهُم الدَّوْلَةُ، وأكل الدَّهرُ عليهم وشربَ، بما أرْهَفَ النَّعيمُ من حَدِّهم، واشْتَفَّت[5] غريزةُ التَّرف من ملئهم، وبلغوا غايتهم من طبيعةِ التَّمدُّنِ الإنساني، والتَّغلُّبِ السِّياسي. شعر:

كَدُوْدِ القَزِّ يَنسجُ ثُمَّ يَفنى ... بِمَركَزِ نَسجِه في الانعكاس

كانت حينئذ عَصبيَّة الآخرين موفورةً، وسورة غلبهم من الكاسر محفوظةً، وشارتهم في الغلب معلومةً، فتسمُو آماهم إلى الملك الَّذي كانوا ممنوعينَ منه بالقوَّةِ الغالبةِ من جنسِ عَصَبيَّتهم، وترتَفِعُ المنازعةُ لما عرفَ من غلبهم، فيستولون على الأمر ويصير إليهم.

وكذا يتَّفق فيهم مع من بقيَ أيضاً منتبذاً عنه من عشائر أمتهم، فلا يزال الملكُ مُلجئاً في الأمة إلى أن تنكسر سورة العصبية منها، أو يفنى سائر عشائرها: سنَّة الله في الحياة الدُّنيا ﴿وَالآخِرَةُ عندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِيْنَ﴾[الزخرف: ٣٥].

---

١ – في المطبوع: سرير.

٢ – أيَ: تقهرهم وتخضعهم.

٣ – نفقَ: مات وهلك.

٤ – في ن: خضراءهم. وهما بمعنى واحد. والغضراء: الأرض الطيبة الخضراء. وأراد هنا عزهم ومكانتهم وما به قوتهم.

٥ – في ن: واستقت.

واعتبر هذا بما وقع في العرب؛ لما انقرضَ ملك عاد، قام به من بعدهم إخوانهم من ثمود، ومن بعدهم إخوانهم العمالقة، ومن بعدهم إخوانهم من حميرَ أيضاً، ومن بعدهم إخوانهم التبابعة من حمير أيضاً، ومن بعدهم الأذواءُ كذلك، ثم جاءت الدَّوْلَةُ لمضرَ، وكذا الفرس لما انقرضَ أمر الكِينيَّةِ ملكَ من بعدهم السَّاسَانِيَّةُ، حتَّى تأذَّنَ الله بانقراضهم أجمع بالإسلام، وكذا اليونانيون انقرض أمرهم، وانتقل إلى إخوانهم من الروم، وكذا البربرُ بالمغربِ لَمَّا انقرضَ أمرُ مِغراوةَ وكتامة المُلُوكِ الأول منهم رجع إلى صنهاجة، ثم المُلَثَّمينَ من بعدهم، ثمَّ من بقي من شعوبِ زناتةَ وهكذا، سنة الله في عباده وخلقه.

وأصلُ هذا كله إنما يكون بالعصبيَّةِ، وهي متفاوتةٌ في الأجيالِ، **والملك يُخْلِقُهُ**[1] **التَّرَفُ ويُذهبه**، كما سنذكره بعد[2]. فإذا انقرضت دولةٌ فإنما يتناول الأمر منهم من له عَصَبِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لعصبيَّتهم التي عُرِفَ لها التَّسْلِيْمُ والانقيادُ، وأونس منها الغلبُ لجميعِ العَصَبيَّات، وذلك إنما يوجد في النَّسَبِ القريبِ منهم؛ لأنَّ تفاوتَ العصبيَّةِ بحسبِ ما قربَ من ذلك النَّسَبِ التي هي فيه أو بعُدَ [ظ١/٦١]، حتى إذا وقعَ في العالم تبديلٌ كبيرٌ من تحويل ملة، أو ذهاب عمران، أو ما شاء الله من قُدْرَتِهِ، فحينئذٍ يخرجُ عن ذلك الجيلِ إلى الجيلِ الذي يأذنُ الله بقيامه بذلك التبديل. كما وقع لمضرَ حينَ غلبوا على الأمم والدُّوَلِ، وأخذوا الأمر من أيدي أهل العالمِ، بعد أن كانوا مكبوحينَ عنه أحقاباً[3].

---

١ - أي: يبلي جديده ويفنيه.

٢ - مرا في الفصلين ١٦و١٨.

٣ - جمع حُقب ـ بسكون القاف وضمها ـ: ثمانون سنة أو أكثر، والدهر، والسنة أو السنون.

١-٢-٢٣- الْفَصْلُ الثَّالثُ والْعشْرُونَ
في أنَّ المَغلوب مولعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعارِهِ، وزيِّه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده

والسَّبَبُ في ذلك: أنَّ النَّفسَ أبداً تعتقد الكمالَ في من غلبها وانقادت إليه. إمَّا لِنَظَرِهِ بالكمالِ بما وقرَ عندها من تعظيمه، أو لما تُغَالِطُ به من أن انقيادها ليسَ لغلبٍ طبيعي، إنَّما هو لكمال الغالبِ، فإذا غالطت بذلك واتَّصَلَ لها، حصلَ اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالبِ، وتشبَّهت به؛ وذلك هو الاقتداءُ. أو لما تراهُ ـ والله أعلم ـ من أنَّ غَلب الغالب لها ليس بعَصبيَّةٍ ولا قُوَّةِ بأسٍ، وإنَّما هو بما انتحله[1] من العوائد والمذاهِب، تُغالط أيضاً بذلك عن الغَلَبِ، وهذا راجعٌ للأوَّل، ولذلك ترى المَغْلُوبَ يَتشَبَّهُ أبداً بالغَالِبِ في مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلاَحِهِ في اتِّخَاذِهَا وأشْكَالِهَا، بل وفي سَائِرِ أحْوَالِهِ.

وَانظُرْ ذلكَ في الأبناءِ مع آبائهم كيفَ تجدُهم مُتَشَبِّهِينَ بهم دائماً، وما ذلك إلاَّ لاعتقادهم الكمالَ فيهم.

وانظر إلى كُلِّ قُطْرٍ من الأقطارِ، كيفَ يغلبُ على أهلهِ زِيُّ الحاميةِ وجُنْدُ السُّلْطانِ في الأكثرِ، لأنَّهم الغالبونَ لهم.

حتَّى إنه إذا كانت أمَّةٌ تجاورِ أخرى ولها الغلبُ عليها فَيسري إليهم من هذا التَّشَبُّهِ والاقتداءِ حظٌّ كبيرٌ، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقَةِ، فَإنَّك تجدهم يتشبَّهونَ بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التَّماثيلِ في الجدران والمصانع والبيوتِ، حتى لقد يَسْتَشعرُ من ذلك النَّاظرُ بعينِ الحِكمةِ أنَّهُ من علاماتِ الاسْتيلاءِ. والأمرُ لله.

وتأمَّل في هذا سرَّ قولهم: **العامَّة على دينِ الملِكِ**، فإنه من بابه، إذ الملك غالبٌ لمن تحتَ يده، والرَّعيَّةُ مقتدونَ به لاعتِقَادِ الكمالِ فيه، اعتقاد الأبناءِ بآبائهم، والمتعلمينَ بمُعَلِّميهم. والله العليم الحكيمُ، وبه سبحانه وتعالى التَّوفيقُ.

---

١ - في ن: انتحلته.

١ــ٢ــ٢٤ــ الْفَصْلُ الْرَّابعُ والعشرون

في أنَّ الأُمّة إذا غُلبت، وصارت في مُلك غيرها، أسرعَ إليها الفناء

والسَّببُ في ذلك والله أعلم: ما يحصلُ في النُّفوسِ من **التَّكاسل** إذا مُلكَ أمرُها عليها، وَصَارت بالاستعباد آلةً لسوَاها، وعالةً عليهم، فيقصُرُ الأملُ ويضعفُ التَّنَاسُلُ؛ والاعتمارُ، إنَّمَا هو عن جدَّة الأَمَلِ، وبما يحدثُ عنه من النَّشاط في القوى الحيوانية، فإذا ذهب الأملُ بالتَّكاسل، وذهبَ ما يدعو إليه منَ الأحوال [ظ٦١/٢]، وكانت العَصَبيَّةُ ذاهبةً بالغلب الحاصلِ عليهم، تناقصَ عُمراهم، وتلاشت مكَاسبهم ومسَاعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خَضَدَ[١] الغَلَبُ من شوكَتهم، فأصبحوا مُغَلَّبينَ لكلِّ مُتَغَلِّبٍ، وَطُعمةً لكُلِّ آكلٍ، وسواءً كانوا حَصَلوا على غايتهم من الملك أم لم يحصلوا.

وفيه ــ والله أعلم ــ **سرٌّ آخر**، وهو: أنَّ الإنسانَ رئيسٌ بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خُلقَ له. والرَّئيس إذا غلبَ على رئاسته وكُبحَ عن غاية عزِّه، تكاسل حتى عن شبعِ بطنه، وَرَيِّ كَبده. وهذا موجودٌ في أخلاق الأَنَاسي. ولقَد يُقال مثلهُ في الحيوانات المُفْتَرِسَة، وإنها لا تُسَافدُ[٣] إذا كانت في ملكة الآدَميِّينَ. فلا يزال هذا القبيلُ المملوك عليه أمرهُ في تناقصٍ واضمحلال، إلى أن يأخذهم الفَناء، والبقاء لله وحده.

واعتبر ذلكَ في أمة **الفرس** كيفَ كانت قد ملأت العالم كثرة، ولَمَّا فنيت حاميتهم في أيَّام العربِ بقيَ منهم كثيرٌ، وأكثرُ من الكثير. يُقال: إن سعداً أحصى ما وراء المدائن فكانوا مئة ألف وسبعةً وثلاثين ألفاً، منهم سبعةٌ وثلاثون ألفاً ربُّ بيت. ولما تحصَّلوا في مَلَكَة العربِ وقبضَة القهرِ، لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً، ودثروا كأن لم يكُونوا. ولا تحسَبَنَّ أنَّ ذلك لظلمٍ نزل بهم أو عدوان شملهم، فملكةُ الإسلام في العدل ما علمتَ، وإنَّما هي طبيعة في الإنسان إذا غلبَ على أمره، وصار آلة لغيره، ولهذا إنَّما تُذعن للرقِّ في الغالب أمم السُّودان لنقصِ الإنسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجمِ كما قلناه، أو من يرجو بانتظامه في ربقة الرِّق حُصُول رُتبة، أو إفادة مال أو عَزٍّ كما يقع لممالك التُّرْك بالمشرقِ، والعُلُوجِ[٢] منَ الجَلاَلقَةِ وَالإفرنجة. فإنَّ العادة جارية باستخلاصِ الدَّولة لهم، فلا

---

١ - خَضَدَ العود رطباً أو يابساً يَخضدُه: كسره وقطعه.

٢ - جمع عِلْج: وهو الرجل من كفار العجم.

٣- أي تجامع.

يأنفونَ من الْرِّقِّ لما يأملونه من الجَّاهِ وَالْرُّتبةِ باصطفاءِ الدَّوْلَةِ. وا للّهُ سبحانهُ وتعالى أعلمُ، وبه التَّوْفِيق.

١-٢-٢٥- الْفَصْلُ الْخَامِسُ والعشرون
في أنَّ الْعَرَبَ[1] لا يتغلبون إلا على الْبَسَائط

وَذَلكَ أَنَّهم بطبيعةِ الْتَّوَحُّشِ الذي فيهم أهلُ انتهابٍ وعيثٍ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مُغالبةٍ ولا رُكوبِ خَطَرٍ؛ ويفرُّوْنَ إلى منتجعهم بالقَفْرِ، ولا يذهبونَ إلى المزاحفةِ والمحاربةِ إلاَّ إذا دفعوا بذلك عنَ أنفسهم. فكلٌّ معقلٍ أو مستصعب عليهم فهم تاركوهُ إلى ما يسهُلُ عنه ولا يعرضون له. والقبائل الممتنعة عليهم بأوعارِ الجبال بمنجاةٍ من عيثهم وفسادهم، لأنَّهم لا يتسَنَّمون[2] إليهم الهضابَ، ولا يركبون الصِّعابَ، ولا يحاولونَ الخطرَ. وأمَّا البَسَائط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدَّولةِ فهي نهبٌ وطُعمةٌ لأكْلِهم يردِّدون عليها الغارةَ والنَّهْبَ والزَّحْفَ لَسهولتها [ظ٦٢/١] عليهم، إلى أن يُصبِحَ أهلها مُغَلَّبينَ لهم، ثُمَّ يتعاورونهم[3] باختلاف الأيدي، وانحرافِ الْسِّيَاسَةِ، إلى أن ينقَرِضَ عُمْرَانهم. وا لله قادرٌ على خلقه ﴿وهو الواحد القهَّارُ﴾[الرعد: ١٦] لا رَبَّ غيرهُ.

---

١ – العرب: أي الأعراب الرحل ساكنو البادية وأرباب الخيام. قال ا لله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدرُ أن لا يعلموا حدود ما أنزل ا لله﴾.

٢ – تسنَّم الهضبة: علاها. وأصل التسنم: الأخذُ مُغافصةً أي: مفاجأةً على غِرَّة.

٣ – تعاوروه:تداولوه.

١-٢-٢٦- الفصل السَّادس والعشرون

في أنَّ العرب إذا تغلَّبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

والسَّبَبُ في ذلك: أنَّهم أمَّةٌ وحشيَّةٌ باستحكام عوائدِ التَّوحُّشِ، وأسبابه فيهم، فصار لهم خُلقاً وجبلَّةً، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن رِبقَةِ الحُكمِ وعدم الانقياد للسِّياسَةِ. وهذه الطَّبيعةُ مُنافيةٌ للعُمران، ومناقضةٌ له. فغايةُ الأحوالِ العاديةِ كلِّها عندهم الرِّحلة والتَّغلُّبُ، وذلك مناقضٌ للسُّكونِ الَّذي به العمرانُ، ومنافٍ له. فالحجرُ مثلاً إنَّما حاجتهم إليه لنصبهِ أثافيَّ[١] القِدْرِ، فينقلونَهُ منَ المباني ويُخرِّبونها عليه ويُعِدُّونهُ لذلك. والخَشَبُ أيضاً إنَّما حاجتهم إليه ليعمِّروا به خيامهم ويتَّخذوا الأوتادَ منهُ لِبُيُوتهم فيخرِّبون السَّقفَ عليه لذلك، فصارت **طَبيْعَةُ وُجُودهم** مُنافِيَةً للبناءِ الَّذي هو أصلُ العُمْرَانِ. هذا في حَالهم على العُمُوْم.

وأيضاً: فَطَبيعتهم انتهابُ ما في أيدي النَّاس؛ وأن رزقهم في ظلال رِماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال النَّاسِ حدٌّ ينتهون إليه، بل كُلَّما امتدَّت أعينهم إلى مالٍ أو متاعٍ، أو ماعُون انتهبوه. فإذا تمَّ اقتدارُهم على ذلك بالتَّغلُّبِ والمُلكِ بَطَلَتِ السِّيَاسَةُ في حفظِ أموالِ النَّاس، وَخَربَ العُمْرَان.

وأيضاً: فلأنهم يُكَلِّفُون[٢] على أهل الأعمال منَ الصَّنائع والحرفِ أعمالهم لا يرون لها قيمةً ولا قِسطاً من الأجرِ والثَّمنِ. والأعمالُ ـ كمَا سَنَذكُرُهُ ـ هي أصلُ المكاسبِ وحقيقتها؛ وإذا فسدت الأعمالُ، وَصَارَت[٣] مجّاناً، ضَعُفَتِ الآمال في المكاسب، وانقبضت الأيدي عن العملِ، وابذَعَرَّ[٤] السَّاكنُ، وفسد العُمرانُ.

وأيضاً: فإنهم ليست لهم عنايةٌ بالأحكام، وزجر النَّاسِ عن المفاسد، ودفاعِ بعضهم عن بعض. إنَّما همُّهم ما يأخذونهُ من أموالِ النَّاسِ نهباً أو غرامةً[٥]. فإذا توَصَّلوا إلى ذلك، وحصَّلوا عليه، أعرضوا عمَّا بعدهُ من تسديد أحوالهم والنَّظر في مصالحهم، وقهرِ بعضهم

١ - الأثافي: الأحجار توضع تحت القدر تحمى بينها النيران. أو هي آلة مثلثة تعلق عليها القدر عند الطبخ وتكون من حديد، وتعرف بالحمالة. وانظر صبح الأعشى (١٣٨/٢).

٢ - في ن: يُلقون.. يتلفون.

٣ - في ن: وصدرت.

٤ - أي: فر وتشتت.

٥ - في ن: مغرماً.

عن أغْرَاضِ المَفَاسِدِ. رُبَّما فَرَضُوا الْعُقُوْبَاتِ في الأموالِ حِرْصاً على تَحْصِيْلِ الْفَائدةِ والْجِبَايَةِ والاستِكْثَار منها، كما هو شأنهم، وذلك ليس بمغنٍ في دفع المفَاسِدِ، وزجر المتعرِّضِ لها، بل يكونُ ذلك زائداً فيها لاستسهَالِ الغرمِ في جانبِ حُصُوْلِ الْغَرَضِ فَتَبْقَى الرَّعايا في مَلَكَتِهِمْ كأنَّها فَوْضَى[1] دون حكمٍ، والفوضى مهلكةٌ للبشرِ، مفسدةٌ للعُمْرَان بمَا ذكرنَاهُ من أنَّ وجودَ الملكِ خاصَّةٌ طبيعةٌ للإنسانِ لا يسْتَقِيْمُ وجودهم واجْتِمَاعُهم إلا بها، وتقدَّم ذلك أوَّل الفصل.

وأيضاً: فهم متنافسون [ظ٢/٦٢] في الرِّئَاسَةِ؛ وقلَّ أنْ يسلِّم أحدٌ منهم الأمر لغيره، ولو كان أباهُ أو أخاهُ أو كبيرَ عشيرتهِ إلا في الأقلِّ، وعلى كُرهٍ من أجلِ الحيَاء. فَيَتَعَدَّدُ الحُكَّامُ منهم والأمراءُ، وتختلفُ الأيدي على الرَّعيَّةِ في الجبايةِ والأحكام، فيفسُدُ العمرانَ وينتقض.

قال الأعرابيُّ الوافدُ على عبد الملكِ، لَمَّا سَأله عن الحجَّاجِ، وأراد الثَّناء عليه عنده بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمْرَان فقال: **تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحْدَهُ.**

وَانظُرْ إلى مَا مَلَكُوْهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الأَوْطَان من لَدُن الْخَلِيْقَةِ، كيفَ تَقَوَّضَ عُمرانهُ، وأَقْفَرَ ساكنه، وبُدلت الأرضُ فيه غير الأرض. فاليمن قرارهم خَرَابٌ، إلاَّ قَلِيْلاً من الأمصَار، وعراقُ العرب كذلك قد خربَ عُمرانهُ الَّذي كان للفرس أجمعَ، والْشَّامُ لهذا العهد كذلك. وأفْريقيَّة والمغربُ لما جاز إليها بنو هلال وبنو سُليم منذُ أوَّل المئةِ الْخَامِسَةِ، وَتَمَرَّسُوا بها لثلاث مئة وخمسينَ منَ الْسِّنِيْنَ قد لحقَ بها وعادت بَسَائطه خراباً كلها، بعد أن كان ما بين الْسُّودان والبحر الْرُّوْمِيّ كله عُمْرَاناً. تشهدُ بذلك آثارُ الْعُمران فيه من المَعَالِمِ، وتماثيل البناءِ وشواهدُ الْقُرى والمَدَرِ. والله يرثُ الأرضَ ومن عليها[2]، وهو خير الوارثين.

---

١ - ومما يعزى إلى الإمام علي رضي الله عنه:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا.

٢ - قال تعالى: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾[مريم: ٤٠].

١-٢-٢٧- الْفَصْلُ الْسَّابع والعشرون
في أنَّ العربَ لا يحصلُ لهم الملك إلا بصبغةٍ دِينِيَّةٍ من نُبُوَّةٍ أَوْ ولايةٍ أو أثرٍ عظيم من الدِّين على الْجُمْلَةِ

وَالْسَّبَبُ في ذلك: أنهم لخلق التَّوحُّشِ الَّذِي فيهم أصعبُ الأمم انقِيَاداً بعضهم لبعض للغِلظَةِ والأَنَفَةِ، وبعد الهِمَّةِ والمُنَافَسَةِ في الْرِّئاسة؛ فقلَّما تجتمعُ أهواؤهم. فإذا كان الدّينُ بالنُّبوَّةِ أو الْولاَيَةِ كان الْوَازِعُ لهم من أنفسهم، وذهبَ خُلُقُ الكِبْرِ والمنافسةِ منهم، فسهل انْقِيَادهم واجْتِمَاعهم، وذلك بما يَشْمُلُهُم من الْدِّيْنِ المُذهِبِ للغِلْظَةِ والأنفةِ، والوازعِ عن التَّحاسدِ والتَّنافسِ. فإذا كان فيهم النَّبيُّ أو الوَلِيُّ الذي يبعثهم على الْقِيَام بأمرِ اللهِ، ويذهب عنهم مذموماتِ الأخلاق، ويأخذهم بِمَحْمُوْدِهَا، ويؤلِّفُ كلمتهم لإظهار الحقِّ تَمَّ اجتماعهم، وحصلَ لهم الْتَّغَلُّبُ والمُلْكُ. وهم مع ذلك أسرعُ النَّاسِ قبولاً للحقِّ والهُدى لِسَلاَمَةِ طِبَاعهم من عوجِ المَلَكَاتِ وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كانَ من خلق التَّوحُّشِ القريبِ المُعَاناةِ المُتَهيِّءِ لقبول الخير ببقائه على الفِطْرَةِ الأولى، وبعده عمَّا ينطبعُ في النُّفوسِ من قبيحِ العوائد وسوءِ المَلَكَاتِ، فإنَّ «**كلَّ مولودٍ يولدُ على الْفِطْرَةِ**»[1]. كما ورد في الحديث وقد تقدّم.

١ - أخرجه البخاري (١٢٩٢ و١٢٩٣ و٤٤٩٧ و٦٢٢٦) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.

١-٢-٢٨- الفصل الثَّامنُ والعشرون
في أنَّ العربَ أبعد الأمم عن سِيَاسَةِ الْمُلْكِ

وَالْسَّبَبُ في ذلك: أنَّهم أكثر بداوةً من سائرِ الأمم، وأبعدُ مجالاً في القَفْرِ، وأغنى عن حاجاتِ التَّلول وحُبُوبها، لاعتيادهم الْشَّظَفَ وَخُشُوْنَة [ظ٦٣/١] العيش، فاستغنوا عن غيرهم فَصَعُبَ انقيادُ بعضهم لبعضٍ، لإيلافهم ذلك، وللتَّوَحُّشِ. ورئيسهم محتاجٌ إليهم غالباً للعصبيَّةِ التي بها المُدافعة، فكانَ مُضطرّاً إلى إحسانِ ملكتهم وتركِ مراغمتهم لئلاَّ يختلَّ عليه شأنُ عَصَبِيَّتِهِ فيكونُ فيها هلاكهُ وهلاكهم. **وسياسةُ الملكِ والسُّلطانِ تقتضي أنْ يكون السَّائسُ وازعاً بالقهرِ وإلاَّ لم تَسْتَقِم سِيَاستهُ.**

وأيضاً: فإنَّ من طبيعتهم كما قدَّمناه[1] أخذُ ما في أيدي النَّاسِ خاصَّةً، والتَّجَافي عمَّا سوى ذلك من الأحكامِ بينهم، ودفاعِ بعضهم عن بعضٍ، فإذا ملكوا أُمَّةً من الأمم جعلوا غايةَ ملكهم الانتفاعُ بأخذ ما في أيديهم، وتركوا ما سوى ذلك من الأحكامِ بينهم. وربَّما جعَلُوا الْعُقوْبَاتِ على المَفَاسِدِ في الأموالِ حرصاً على تكثير الْجبَايَاتِ، وتحصيلِ الفوائدِ فلا يكونُ ذلك وازعاً، وربَّما يكونُ باعثاً بحسبِ الأغراضِ الباعثةِ على المَفَاسِدِ، واستهانةِ ما يُعطى من مالهِ في جانبِ غَرَضِهِ، فتنمو المفاسدُ بذلك، ويقعُ تخريبُ العُمْرَانِ، فتبقى تلك الأمة كأنَّها فوضى، مستطيلةً أيدي بعضها على بعضٍ، فلا يستقيم لها عمرانٌ، وتخربُ سَرِيعاً، شأن الفَوْضَى، كما قدَّمناهُ.

فبعدت طباعُ العربِ لذلك كلِّهِ عن سِيَاسَةِ المُلكِ. وإنَّما يصيرون إليها بعد انقلابِ طِبَاعهم، وَتَبَدُّلِهَا بصِبْغَةٍ دِيْنِيَّةٍ تمحو ذلك منهم، وتجعلُ الوازعَ لهم من أنفسهم، وتحملهم على دفاعِ النَّاسِ بعضهم عن بعضٍ، كما ذكرناهُ، واعتبر ذلك بدولتهم في المِلَّةِ لَمَّا شَيَّدَ لهم الدِّيْنُ أمرَ الْسِّيَاسَةِ بالْشَّرِيْعَةِ وأحكَامها المُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ العُمْرَان ظاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخُلَفاءُ، عظمَ حينئذٍ مُلكهم وقويَ سُلْطَانهم. وكان **رُسْتُم** إذا رأى الْمُسْلِمِيْنَ يجتمعون للصلاةِ يقول: أكلَ عمرُ كَبِدِي، يُعَلِّمُ الكِلاَبَ الآدَابَ.

ثُمَّ إنَّهم بعد ذلك انقَطَعَت منهم عن الدَّوْلَةِ أجيالٌ **نبذوا الدِّيْنَ فنسوا السِّياسة**، ورجعوا إلى قفرِهِم، وجهلوا شأنَ عَصَبِيَّتهم مع أهل الدَّولَةِ بِبُعْدِهِم عن الانقيادِ وإعطاءِ

---

١ - أي في الفصل الخامس والعشرين من هذا الباب.

النَّصَفَةِ[١]، فتوحَّشُوا كما كانوا، ولم يبقَ لهم من اسمِ الملكِ إلا أنَّهم من جنسِ الخُلَفَاءِ ومن جيلهم، ولمَّا ذَهَبَ أمْرُ الْخِلافَةِ وَامُّحِيَ[٢] رَسْمُهَا، انقطعَ الأمرُ جملةً من أيديهم، وغلبَ عليهم العَجَمُ دُونهم، وأقاموا في باديةِ قِفَارهم لا يعرفون المُلْكَ ولا سِيَاستهُ، بل قَدْ يَجْهَلُ الكثيرُ منهم أنَّهم قد كان لهم ملكٌ في القديم. وما كان في القديم لأحدٍ من الأممِ في الخليقةِ ما كانَ لأجيالهم منَ المُلْكِ. ودولُ عادٍ وَثَمُوْدَ والْعَمَالِقَةِ وحميرَ وَالتَّبَابعةِ شاهدةٌ بذلك، ثُمَّ دولةُ [ظ٦٣/٢] مُضَرَ في الإسْلاَم: بني أُمَيَّةَ وبني الْعَبَّاسِ.

لكن **بَعُدَ عهدهم بالسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا الدِّيْنَ فرجعوا إلى أَصْلِهم من البداوةِ**. وقد يحصلُ لهم في بعض الأحيانِ غلبٌ على الدُّوَلِ المُسْتَضْعَفَةِ، كما في المَغْربِ لهذا العَهْدِ، فلا يكون مآلهُ وغايتهُ إلا تخريبَ ما يستولونَ عليهِ منَ العُمْرَانِ كما قَدَّمناهُ. ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة: ٢٤٧].

---

١ – أي: العدل ولو أخذ من النفس.

٢ – في ن: وانمحى.

١-٢-٢٩- الْفَصْلُ التَّاسعُ والعشرونَ
في أنَّ الْبَوادِي منَ الْقَبَائِلِ والْعَصَائِبِ مَغْلُوبونَ لأهلِ الأَمْصَارِ

قد تقدَّم لنا: أن عُمرانَ الْبَادِيَةِ ناقصٌ عن عُمرَانِ الحواضرِ والأمصَارِ؛ لأنَّ الأمورَ الْضَّرُوْرِيَّةَ في العُمرانِ ليسَ كُلُّها موجودةً لأهلِ البَدْوِ، وَإنَّما توجدُ لديهم في مواطنهم أمورُ الْفَلْحِ، وموادُّها معدومةٌ، ومعظمُهَا الْصَّنائعُ، فلا توجدُ لديهم بالكُلِّيَّةِ من نجَّارٍ وخيَّاطٍ وحدَّادٍ، وأمْثَالِ ذلك ممَّا يُقيمُ لهم ضروريَّات معاشهم في الْفَلْحِ وغيرِهِ. وكذا الْدَّنانيرُ والدَّراهمُ مفقودةٌ لديهم، وإنَّما بأيديهم أعواضها من مُغِلِّ الزِّراعةِ، وأعيانِ الحيوانِ أو فَضَلاتِهِ ألباناً وأوباراً وأشعاراً وإهاباً ممَّا يحتاجُ إليه أهلُ الأَمْصَارِ فيعوِّضونهم عنه بالدَّنانِيْرِ وَالْدَّراهم. إلاَّ أَنَّ حَاجتهم إلى الأمْصَارِ في الْضَّرُوْرِيِّ، وحاجةَ أهل الأمْصَارِ إليهم في الحَاجيِّ والكمَاليِّ. **فهم محتاجونَ إلى الأمصارِ بطبيعةِ وجودهم.**

فما داموا في الباديةِ، و لم يحصل لهم ملكٌ ولا استيلاءٌ على الأمْصَارِ، فهم محتاجونَ إلى أهلها، ويتصرَّفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم إلى ذلك وطالبوهم به. وإن كان في المِصْرِ ملكٌ، كان خضُوعهم وطاعتهم لغلبِ الملكِ. وإن لم يَكُن في المِصْرِ ملكٌ فلا بُدَّ فيه من رِئاسَةٍ ونوعِ اسْتِبْدَادٍ من بعضِ أهلِهِ على الْبَاقِيْنَ، وَإلاَّ انْتَقَضَ عُمْرَانه. وذلك الْرَّئيسُ يحملهم على طاعتهِ والْسَّعي في مصالحه، إمَّا طوعاً ببذلِ المال لهم، ثُمَّ يبذل[1] لهم ما يحتاجونَ إليه من الْضَّروريَّاتِ في مصره، فيستقيم عمرانهم، وأمَّا كرهاً إن تمَّتْ قُدْرَتهُ على ذلك، ولو بالتَّغْرِيبِ[2] بينهم حتَّى يحصلَ له جانبٌ منهم يُغالبُ به الباقينَ، فيضطَرُّ الْبَاقونَ إلى طاعته بما يتوقَّعونَ لذلك من فَسَادِ عمرانهم، ورُبَّما لا يسعهم مُفَارقةُ تلكَ الْنَّواحي إلى جهَاتٍ أُخرى، لأنَّ كُلَّ الْجهَاتِ معمورٌ بالبدوِ الَّذينَ غلبوا عليها ومنعوها من غيرها[3]، فلَا يجد هؤلاء ملجأ إلا طاعةَ المِصْرِ. فهم بالْضَّرُورة مغلوبونَ لأهل الأمصارِ. وا لله القاهرُ فوقَ عباده، (وهو الواحدُ الأحدُ القَهَّارُ)[4]. تمت.[ظ٦٤/١].

---

١ – في ن: يبدي.

٢ – في ن: بالتفريق.

٣ – في ن: غيرهم.

٤ – ليس في ظ.

٣ــ الدول

١ــ حصول الملك والدولة العامة بالقبيل والعصبية.

٢- استغناء الدولة المستقرة عن العصبية.

وضع الإمامة في آخر العقائد الإيمانية..

تبيين وهم للطرطوشي.

٣- استغناء بعض أهل النصاب الملكي عن العصبية في حدوث دولة لهم.

الأدارسة والعبيديون..

٤- الدين (نبوة أو دعوة حق) أصل الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك.

لجمع القلوب وذهاب التنافس.

٥- الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة على قوة العصبية.

سبب ذلك.

القادسية واليرموك.

دولة لمتونة ودولة الموحدين..

أثر فساد الدين في انتقاض الأمر..

٦- لا تتم الدعوة الدينية من غير عصبية..

سبب ذلك..

ثورة المرابطين.

موقفه من الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء.

أحوال الدول وما يحتاج لإزالتها.

أول ابتداء هذه النزعة.

فتنة طاهر.. خالد الدريوس.. سهل بن سلامة الأنصاري.

وصف الموسوسين بذلك.

ادعاء المهدوية: التوبذري.. العباس.

٧- حدود الدولة وأنها لا تزيد عليها.

سبب ذلك.

أهمية العاصمة.

الفرس.. الروم.. العرب.

٨- أثر عدد القائمين بالدولة على عظمها واتساعها وطول أمدها.

سبب ذلك.

أمثلة.

٩- الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تستحكم فيها دولة.

سبب ذلك..

أهل أفريقية.. بنو إسرائيل.

قلة العصائب تسهل تمهيد الدولة.

مصر .. الشام.. الأندلس.

١٠- من طبيعة الملك: الانفراد بالمجد.

سر ذلك.

١١- من طبيعة الملك: الترف.

١٢- من طبيعة الملك: الدعة والسكون.

١٣- إذا استحكمت طبيعة الملك (الانفراد بالمجد، الترف، الدعة والسكون) أقبلت الدولة على الهرم.

بيان ذلك من ثلاثة أوجه.

١٤- للدولة أعمار طبيعية كما للأشخاص.

العمر الطبيعي.

أعمار الدول.

ثلاثة أجيال.

١٥- انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة.

معنى الحضارة.

تقليد أهل الدولة المستجدة لمن سبقهم.

تقليد العرب للفرس والروم.

وصف إعراس المأمون ببوران.
عرس في طليطلة.
وليمة ختان أقامها الحجاج.
الأعطيات والجوائز.
الملك ⇦ الثروة والنعمة ⇦ الترف ⇦ الحضارة.
١٦- الترف في أول الدولة يزيدها قوة إلى قوتها.
سبب ذلك مع الأمثلة.
١٧- أطوار الدولة واختلاف الأخلاق تبعاً لذلك:
أ- طور الظفر.
ب- طور الاستبداد.
ت- طور الفراغ والدعة.
ث- طور القنوع والمسالمة.
ج ــ طور الإسراف والتبذير.
١٨- آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها.
سبب ذلك.
مصانع عاد وثمود. وعوج بن عناق.
إيوان كسرى.
الرد على مزاعم الفلاسفة ومن تابعهم في عظم أجسام الأولين.
حال الأعراس.
أعطيات الدول.
وثيقة عن دخل بيت المال ببغداد. ومناقشتها.
رحلة ابن بطوطة. وميله إلى صدق ما فيها.
١٩- استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين.
٢٠- أحوال الموالي والمصطنعين في الدول.
أسباب قوة الروابط بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك.
أسباب ضعف هذه الروابط بعد حصول الملك.

اختلاف حال المصطنعين بعد حصول الملك.

٢١- ما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه.

٢٢- المتغلبون على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك.

٢٣- حقيقة الملك وأصنافه.

الملك الكامل والملك الناقص.

٢٤- شدة الذكاء مضرة بالملك ومفسد له في الأكثر.

الصفات المطلوبة في الراعي التي تبقي على الرعية.

حسن الملكة وتوابعها.

من شروط الشارع في الحاكم.

الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة.

٢٥- معنى الخلافة والملك.

٢٦- اختلاف الأمة في حكم المنصب وشروطه.

الخلاف في التسمية: بخليفة الله.

وجوب نصب الإمام.

شروط هذا المنصب:

العلم..العدالة..الكفاية..سلامة الحواس والأعضاء..النسب القرشي.

توابع الحواس: المنع من التصرف وأقسامه.

الخلاف في النسب القرشي وميله إلى عدم اعتبارها عند فقد العصبية.

الأمر الشرعي لايخالف الأمر الوجودي.

٢٧- مذاهب الشيعة في حكم الإمامة.

تعريف الشيعة.

النص على علي رضي الله عنه.

انقسام النصوص إلى جلي وخفي.

اختلافهم في مساق الخلافة بعد علي.

الزيدية..

الغلاة..

الكيسانية..

التناسخ..

الواقفية وقولهم بعودة الإمام إلى الحياة..

الهاشمية..

الإمامية.. الإسماعيلية.. الإثنا عشرية..

٢٨- انقلاب الخلافة إلى الملك.

المعاني التي ذمها الشارع من العصبية والغضب والشهوات والملك.

حوار معاوية وعمر حول أبهة الملك.

رفض الصحابة للملك وأحواله.

فتح الدنيا على الصحابة..

الفتنة بين علي ومعاوية ومقاصدها..

سبب وجود الملك.. معاوية.

سبب عدم قدرة عمر بن عبد العزيز على تولية القاسم من بعده.

لا يعني الانفراد بالملك الظلم.. سليمان وداود.

سبب العهد ليزيد بن معاوية. والعهد لعبد الملك بن مروان.

استعمال طبيعة الملك في الأغراض الدنيوية أدى لقيام الدعوة العباسية..

أبو جعفر المنصور يخبر عن أحوال بني أمية.

إيثار الدين على الدنيا في أول الأمر ولو أدى إلى الهلاك.. عثمان.. علي.

ذهاب الخلافة بذهاب عصبية العرب.

الخلافة بدون ملك ⇦ خلافة مع الملك ⇦ انفراد الملك.

٢٩- معنى البيعة.

في اللغة والشرع.

بيعة النبي والخلفاء.

حدوث الإكراه فيها.

فتوى مالك بسقوط يمين الإكراه.

البيعة في العرف.

٣٠- ولاية العهد.

حقيقة الإمامة.

عدم اتهام الإمام فيمن يوليه من بعده.

نماذج من حياة الصحابة ومن تبعهم.

فرار ابن عمر من ولاية العهد.

أثر وازع الدين.

أثر العصبية للملك في إبعاد وازع الدين..

عهد المأمون لعلي الرضا ونقض العباسية للبيعة.

متممات ضرورية:

- فسق يزيد.

- الوصية لعلي وشبهة الإمامية في ذلك.

- شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين.

عدالتهم..

النظر بعين الإنصاف.

موقف الصحابة من حرب الحسين ويزيد.

غلط ابن العربي في تغليط الحسين.

فتنة ابن الزبير.

النهي عن التعرض لأهل القرون الأولى.

٣١- الخطط الدينية الخلافية.

حقيقة الخلافة.

إمامة الصلاة.

الفتيا.

القضاء. وما يتبعها من الشرطة وتقسيم وظائفهم.

سبب إخراج الفقهاء والقضاة من أهل الشورى.

العدالة: تابعيتها للقضاء، حقيقتها، شروطها.

الحسبة.

السكة.

تحول بعض الوظائف الخلافية إلى سلطانية.

اندثار بعض رسوم الخلافة.

٣٢- من سمات الخلافة: اللقب بأمير المؤمنين.

أولية التسمية بهذا اللقب.

الإمامة = الخلافة.

تجافي بني أمية عن ذلك.

أثر ذهاب عصبية العرب في تغير الألقاب.

ألقاب تشريفية لملوك العجم في المشرق.

انتحالهم الألقاب الخاصة بالملك بعد استبدادهم بالملك.

تقاسم ملوك الطوائف بالأندلس لألقاب الخلافة وسبب ذلك.

اكتفاء صنهاجة ومغراوة بلقب السلطان وسبب ذلك.

إعادة ابن تاشفين رسوم الخلافة إلى المغرب.

دعوة الموحدين ورأي الإمام المهدي في الإمام المعصوم.

٣٣- معنى البابا والبطرك والكوهن.

حاجة الملة لقائم بأمر النبي عند غيبته.

سبب اتحاد الخلافة والملك في الإسلام وانفصالهما عند غيرهم.

سيرة بني إسرائيل بعد موسى صلى الله عليه وسلم.

سيرة المسيح صلى الله عليه وسلم وحوارييه.

كتابة الأناجيل وتعددها واختلافها.

من كتب اليهود.

من كتب النصارى.

اختلاف القياصرة في اعتماد النصرانية ثم تبني قسطنطين لها.

مجمع نيقية.

فرق النصارى.

٣٤- مراتب الملك والسلطان وألقابها.

دخول الوظائف السلطانية تحت الخلافة.

كلامه من حيث طبائع العمران لا الأحكام الشرعية.

الإحالة على كتب الأحكام الشرعية.

الوزارة:

أحوال السلطان وتصرفاته.

أقسام الوزارة: تنفيذ.. تفويض.

دراسة تاريخية للمعاني المتعلقة بالوزارة.

الحجابة:

تغير مفهوم الحجابة من الدولة الأموية إلى دولة الترك.

معنى ذي الوزارتين.

ديوان الأعمال والجبايات:

معنى الديوان وأولية نشأته.

ديوان الخراج..

ديوان العطاء..

صاحب الأشغال..

ناظر الجيش..

أستاذ الدولة.. أستاذ الدار.. خازن الدار.

ديوان الرسائل والكتابة:

ضرورتها.

من خططها: التوقيع.. ومعنى ذلك.

الشروط المطلوبة في صاحب هذه الرتبة..

رسالة عبد الحميد إلى الكتاب.

الشرطة:

صاحب الشرطة = الحاكم = صاحب المدينة = الوالي.

شرطة كبرى وشرطة صغرى.

أصل وضعها واختلاف الدول في صلاحيات صاحبها.

قيادة الأساطيل:

اختصاصها بملك المغرب وإفريقية..

تسمية صاحبها: البلّمند..

سيطرة المسلمين على البحر إلى عهد العبيديين.

مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية..

استعادة الثغور أيام صلاح الدين الأيوبي.

٣٥- التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول.

الحاجة إلى السيف أول الدولة.

الاستغناء عن السيف في وسط الدولة.

تغير حال الفريقين مع تبدل الحاجة إليهم.

خوف صاحب السيف من تقلب السلطان عند الاستغناء عنهم.

٣٦- شارات الملك والسلطان الخاصة بهم:

الآلة: ألوية.. رايات.. قرع طبول.. نفخ في الأبواق والقرون.

سر استخدام ذلك في رأي أرسطو والرد عليه.

أثر الموسيقا في النفوس البشرية وكذلك الحيوانات.

سبب إكثار الرايات وتلوينها.

عدم استخدام الطبول والأبواق في أول الدولة الإسلامية.

المسودة والمبيضة..

الشارات في الدول وصولاً إلى الترك والفرنجة وتسمياتها عندهم.

السرير: تنوعه في الأمم وأول من اتخذه في الإسلام.

السكة: معنى ذلك.

أول من ضرب الدينار الإسلامي.

أشكال الدنانير والدراهم وما كتب عليها.

حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان مقدارهما.

الخاتم: أصله الشرعي.

كيفية الخاتم والختم به.

ديوان الختم.

طين الختم.

الطراز: صناعة الثياب.

ديوان الطراز.

تابعيتها للدول، وانفصالها عنها في دولة الترك.

الفساطيط والسياج:

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة:

أول من اتخذها.

أثر الترف في وجودها.

أول من اتخذ المنبر.

أول من دعا للخلفاء في الخطبة.

تساهل الماهد للدولة في عدمَ تعينه بالاسم في الخطبة.

إلزام الخطباء بالدعاء للحكام في طور الترف.

٣٧- الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها.

أسبابها..

أصنافها..

أنواع الحروب:

قتال الزحف.

قتال الكر والفر.

الكراديس.. الساقة.. التعبئة..

القلب.. المقدمة.. الميمنة.. الميسرة.

ضرب المصاف وراء العسكر من الجمادات والحيوانات (الفيلة — الأسرة - المجبوذة).

سبب كون الحروب أول الإسلام زحفاً.

أول من أبطل الصف في الحروب.

سبب اتخاذ ملوك المغرب للفرنجة في جندهم.
صفة قتال أمم الترك.
حفر الخنادق عند الأوائل، وسبب تركه عند الأواخر.
علم الحرب في وصية أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.
سياسة الحرب في قصيدة الصيرفي.
مخالفة القصيدة لوصية عمر رضي الله عنه لأبي عبيد الثقفي.
أسباب النصر: ظاهرة.
خفية: بشرية.. سماوية.
الرد على الطرطوشي في اعتباره الأسباب الظاهرة فقط.
الشهرة والصيت.
٣٨- الجباية:
سبب قلتها أول الدولة وكثرتها آخرها.
تدرج الدولة في زيادة الضرائب.
أثر كثرة الضرائب في انقباض الرعايا عن الاعتمار.
٣٩- المكوس آخر الدولة.
كساد الأسواق بزيادة المكوس.
٤٠- أثر التجارة من السلطان على الرعايا والجباية.
صفات ملوك الفرس وما يشترط عليه.
نماء مال السلطان بالجباية.
٤١- تتكون ثروة السلطان وحاشيته في وسط الدولة.
سبب ذلك.
محاولة فرار أهل الدولة بما في أيديهم من أموال.
أسباب فشلهم في تحقيق المرجو من هذا الفرار.
غلطهم في توهم الحاجة لأن شهرتهم تكفيهم الحاجة.
٤٢- نقص العطاء من السلطان بسبب نقص الجباية.
٤٣- الظلم مؤذن بخراب العمران.

سبب ذلك.
ذهاب آمال الناس في الاكتساب عند الاعتداء على أموالهم.
وفور العمران ونفاق أسواقه بالأعمال.
سبب هجرة الناس من الدولة.
نصيحة الموبذان لملك الفرس.
وقوع الخراب بالتدريج على مقدار اتساع الدولة.
حصول النقص في العمران تابع لوجود الظلم والعدوان.
تعريف الظلم، وأنه أعم من أخذ الأموال.
حكمة تحريم الظلم في الشرع.
مقاصد الشرع الضرورية الخمسة.
عدم وضع عقوبات زاجرة عن الظلم كما هو في الزنا والسرقة..
الفرق بين ظلم الحرابة وظلم السلطان.
من أشد الظلم: تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق.
التسلط على أموال الناس بشرائها بأبخس الأثمان.
أخذ الأموال مجاناً بدون مبررات يؤدي إلى الخلل والفساد دفعة.
سبب شرع المكايسة في البيع والشراء.
الداعي إلى ذلك: الترف وكثرة النفقات.
سبب استحداث الأسماء المتنوعة للجبايات.

٤٤- الحجاب:

كيفية حدوثه في الدول.
عظمه وتعدده عند الهرم.
الحجاب الأول: أول الدولة.
الحجاب الثاني: وسط الدولة.
اتخاذ العباسيين: دار الخاصة ودار العامة.
الحجاب الثالث: آخر الدولة.

٤٥- انقسام الدولة الواحدة:

أول آثار الهرم.
سببه توجس المقربين من السلطة من البطش بهم.
أمثلة من تاريخ المسلمين والعرب وغيرهم.
٤٦- عدم ارتفاع الهرم إذا نزل بالدولة.
شبه ذلك بالأمراض المزمنة التي تصيب البشر.
العادات مانعة من تغيير ما تعوِّد.
خرق الأنبياء للعوائد.
الاستعاضة عن العصبية بالأبهة.
توهم النشاط الذي يسبق الموت لبعضهم فيظنه حياة وهو موت.
٤٧- كيفية طروق الخلل للدولة.
أسس الملك: الجند، والمال.
أثر الترف والقهر في تفتيت العصبية وإضعاف الجند.
أثرهما في إفساد الرعايا وتشتتهم وقلة أعمالهم.
٤٨- اتساع نطاق الدولة إلى نهايته في أول الدولة.
تضايق نطاق الدولة طوراً بعد طور إلى فنائها واضمحلالها.
٤٩- حدوث الدول وتجددها.
أنواعه: استبداد ولاة الأطراف، ثم تنازعهم.
غزو خارجي ممن يجاور الدولة.
٥٠- استيلاء الدولة المستجدة على المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة.
أسباب ذلك: نفسياً - اجتماعياً - اقتصادياً - سياسياً.
الأمور النفسية.
العوائد والطبائع المألوفة .
كثرة أرزاق الدولة المستقرة.
انقطاع الأخبار بينهما وأسبابه.
أمثلة: العباسيون، العبيديون، السلاجقة، المرابطون..
عدم تأثر الفتوحات الإسلامية بهذا القانون لأنها معجزة.

٥١- وفور العمران وكثرة الموتان والمجاعات آخر الدولة.

أسبابه.

أثر كثرة العمران في العفونات والأوبئة العامة.

٥٢- ضرورة السياسة للعمران البشري.

السياسة الشرعية: أثرها، صلاحها.

السياسة العقلية: أثرها، أوجهها.

عدم دخول السياسة المدنية والمدينة الفاضلة في هذه الضرورة.

كتاب طاهر بن الحسين لابنه في آداب الملوك والسياسة:

أهميته.

نصه.

٥٣- أمر الفاطمي (المهدي المنتظر):

أشراط الساعة.

الأحاديث النبوية في شأنه:

دراستها وفق قواعد المصطلح، وقلة السالم من النقد.

رأي الشيعة.

رأي المتصوفة في المهدي والكشف وقولهم بالقطب والأبدال.

تشابه آراء الشيعة والمتصوفة في المهدي.

عرض رأي ابن أبي واطيل وابن عربي والكندي.

اليوم المحمدي.

ضرورة العصبية لوجوده.

تلاشي عصبية الفاطميين وقريش.

نماذج من مدعي المهدوية.

ظهور دعوات إلى الحق بدون انتحال للمهدوية:

حال دعاتها.

حال المدعوين.

تلاشي الدعوة بموت صاحبها.

نماذج من هؤلاء الدعاة.

٥٤- حدثان الدول والأمم، الملاحم، الجفر [أخبار الدول الحادثة].

سبب وجود الكهان والمنجمين..

عناية الملوك بالكهان.

وجود الكهانة في الأمم: نماذج.

مدة هذه الأمة:

مستندات أهل الأثر.

مناقشة المصنف لما أوردوه.

الجفر: نسبته، ومناقشة ما فيه.

استدلال المنجمين بالأحكام النجومية: عرض لكيفية تقريرهم.

الملاحم: عرض لنماذج منظومة منها عن حدثان الدول كالترك..

حيل بعض الأذكياء: الدانيالي، الباجربقي.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

١-٣- الْفصلُ الْثَّالِثُ
منَ الْكِتَابِ الأَوَّل
فِي الْدُّوَلِ العَامَّةِ والُملكِ والخلافةِ والمراتبِ الْسُّلْطَانِيَّة
وَما يعرضُ فِي ذلك كُلِّه منَ الأحوالِ.

وفيه قواعد ومتممات:

١-٣-١- الْفَصْلُ الأوَّل
في أنَّ الملك والدَّولة العامة إنَّما يحصلان بالقبيلِ وَالْعَصَبيَّة

وَذَلِكَ أَنَّا قَرَّرنَا فِي الْفَصْلِ الأَوَّلِ أَنَّ الْمُغَالَبَةَ والممانعة إنما تكون بالعصبيَّةِ، لما فيها من النُّعرةِ والتَّذامرِ واسْتِماتِ كلٍّ واحدٍ منهم دون صاحبه.

ثُمَّ إنَّ الُملْكَ منصبٌ شَرِيْفٌ مَلْذُوذٌ، يشتملُ على جميع الخيراتِ الدُّنيوية والْشَّهواتِ البدنيَّةِ، والَملاذِّ النَّفْسَانيَّةِ، فيقعُ فيه التَّنافُسَ غالباً، وقلَّ أنْ يُسَلِّمَهُ أحدُ لصاحبه إلاَّ إذا غُلِبَ عليه، فتقعُ الُمنَازعةُ وتُفضي إلى الحَرْبِ والقتالِ والُمغَالبةِ، وشيءٌ منها لا يقعُ إلا بالعَصَبيَّةِ كما ذكرناه آنفاً.

وهذا الأمر بعيدٌ عن أفهام الجمهور بالجملةِ، ومتناسون له لأنهم نسوا عهد تمهيد الدَّولة منذُ أوَّلها، وطالَ أمدُ مربَاهُم في الحضارةِ وتَعَاقُبهِمْ فيها جيلاً بعدَ جيلٍ؛ فلا يعرفون ما فعل الله أوَّل الدَّولةِ، إنما يدركون أصحاب الدّولة وقد استحكمتْ صِبغتهم، ووقع التَّسْلِيمُ لهم، والاستغناء عن العَصَبيَّةِ في تمهيد أمرهم، ولا يعرفونَ كيفَ كانَ الأمر من أولِه، وما لقيَ أوَّلهم منَ المتاعبِ دونهُ، وخصوصاً أهلُ الأندلسِ في نسيان هذه العَصَبيَّة وأثرها لِطُوْلِ الأمدِ، واستغنائِهم في الغلب عن قُوَّة العَصَبية، بما تلاشى وَطَنُهم[1] وَخَلاَ مِنَ العَصَائب. والله قادرٌ على ما يشاء، ﴿وهو بكلِّ شيءٍ عليم﴾[البقرة: ٢٩] وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

١ – أي: لتلاشي وطنهم.

١-٣-٢- الْفَصْلُ الثَّاني
في أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّت الدَّوْلَةُ وتمهَّدت فقد تَسْتَغْنِي عنِ العَصَبِيَّةِ

والسَّبَبُ في ذلك: أنَّ الدولة العامَّة في أوَّلها، يصعب على النفوسِ الانقيادُ لها إلا بقوةٍ قويَّة من الغَلبِ لِلْغَرَابَةِ وأنَّ النَّاسَ لم يَألفوا مُلْكَها ولا اعتادوه، فإذا استقرت الرِّئاسة في أهْلِ النِّصَابِ المَخصوصِ بالملكِ في الدَّوْلَةِ وتوارثُوهُ واحداً بعد آخر في أعْقَابِ كثيرينَ وَدُوَلٍ مُتَعَاقِبة، نَسِيَتِ النفوسُ شأنَ الأَوَّلِيَّةِ، واستحكمت لأهلِ ذلكَ النِّصَابِ صِبْغَةُ الرِّئَاسَةِ، وَرَسَخَ في العقائدِ دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل النَّاسُ معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذٍ في أمرهم إلى كبير عِصَابةٍ. بل كأن طاعتها كتابٌ منَ ا للهِ لا يُبَدَّلُ، ولا يُعْلَمُ خلافُهُ.

ولأمرٍ ما يوضَعُ الكلامُ في الإمامةِ آخر الكَلاَمِ على العقائدِ الإيْمَانِيَّةِ، كأنَّهُ من جُملةِ عُقُودها.

ويكون اسْتِظْهَارهم حينئذٍ على سُلْطَانهم ودَوْلَتهم المَخصوصةِ [ظ٦٤/٢] إمَّا **بالمَوالي والمُصْطَنعِيْن**[١] الَّذين نَشأوا في ظلِّ العَصَبِيَّةِ وغيرها، وإمَّا **بالعَصَائب الخارجينَ** عن نَسَبها الدَّاخلين في ولايتها.

ومثلُ هذا وقع **لبني العبَّاسِ**. فإنَّ عَصَبِيَّة العرب كانت فَسَدت لعهد دولةِ المُعْتَصِمْ وابنهِ الواثقِ، واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالمَوالي منَ **العجم والتُّرْكِ والدَّيْلم والسَّلْجُوْقِيَّةِ** وغيرهم. ثُمَّ تغلب العَجمُ الأولياءُ على النَّواحي، وتقلَّصَ ظلُّ الدَّولةِ فلم تكُن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الدَّيْلَمُ وملكوها، وصار الخلائق في حكمهم. ثم انقرضَ أمرهُم، وملك السَّلْجُوقيَّة من بعدهم فصَاروا في حكمهم. ثم انقرضَ أمرهم، وزحفَ آخرُ التَّتار فقتلوا الخليفة، ومحوا رَسْمَ الدَّوْلَةِ.

وكذا **صَنْهَاجةُ بالمغربِ**، فسدت عَصَبِيَّتهم منذُ المئةِ الخَامسةِ أو ما قبلها، واستمرَّت لهم الدَّولةُ متقلِّصة الظِّلِّ بالمهدية وبجَايَةَ والقَلْعَة وسائر ثُغور أفريقية. ورُبَّما انتزى[٢] بتلكَ الثُّغور من نَازعَهُم المُلْكَ واعْتَصَمَ فيها. وَالْسُّلْطَانُ والمُلكُ مع ذلك مُسلمٌ لهم، حتَّى تأذَّنَ ا للهُ بانْقِرَاضِ الدَّولةِ. وجاء الموحِّدونَ بِقُوَّةٍ قَوِيّة منَ الْعَصَبِيَّةِ في الْمَصَامدَةِ فَمَحوا آثَارهم.

---

١ – في ظ: المصطفين.

٢ – أي: وثب.

وَكَذَا **دولةُ بني أُمَيَّةَ بالأندلس**، لما فَسَدت عَصَبيَّتها من العربِ اسْتَولى ملوكُ الطَّوائفِ على أمرها، واقْتَسَموا خِطَّتها وتنافسوا بينهم، وتوزعوا ممالكَ الدَّوْلةِ، وانتزى كلُّ واحدٍ منهم على ما كان في ولايته وشمخَ بأنفه، وبلغهم شأنُ العجم معَ الدَّوْلَةِ العَبَّاسيَّةِ، فَتلقَّبُوا بألْقَابِ الْمُلك. ولبسوا شَارته وأمِنوا ممَّنْ يَنْقُضُ ذلك عليهم أو يُغيِّرهُ، لأنَّ الأندلس ليسَ بدار عَصَائبَ ولا قبَائلَ، كما سنذكرهُ، واستمرَّ لهم ذلك. كما قال ابنُ شَرَف[١]:

مِمَّا يُزَهِّدُنِي في أرضِ أَنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فيها وَمُعْتَضِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غيرِ مَوْضِعِها كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صُورةَ الأَسَدِ

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمُصْطَنَعين، والطُّرَّاء على الأندلس من أهل العُدوَةِ من قبائل البربر وزَنَاتَةَ وغيرهم، اقتداءً بالدَّوْلَةِ ـ في آخر أمرها ـ في الاستظهار بهم حينَ ضَعُفت عَصَبيَّةُ العرب. واستبدَّ ابنُ أبي عامر[٢] على الدَّوْلَةِ فكانَ لهم دولٌ عظيمةٌ استبدَّت كل واحدةٍ منها بجانب من الأندلس، وحظ كبيرٍ من المُلكِ على نسبةِ الدَّولةِ التي اقتسموها، ولم يزالوا في سُلْطَانهم ذلك حتى جَازَ إليهم البحر المرابطون أهل الْعَصَبيَّةِ القويَّةِ من لَمْتُونةَ، فاستَبْدلوا بهم وأزلُّوهم عن مراكزهم، ومحوا آثارهم، ولم يَقْتدروا على مُدافعَتِهم لِفُقْدَان الْعَصَبيَّة لديهم.

فَبِهَذِه العَصَبيَّةِ يكونُ تمهيدُ الدَّولةِ وحمايتها من أوَّلها. وقد ظنَّ **الطُرْطُوشي** أنَّ حامية الدُّوَل بإطلاق همُ الجندُ أهل العطاءِ المفروضِ مع الآهلةِ [ظ٦٥/١]. ذكر ذلك في كتابه الذي سَمّاه **سِرَاجَ المُلُوكِ**[٣].

وكلامهُ لا يتناول تأسيسَ الدُّوَل العامَّةِ في أوَّلها، وإنَّما هو مخصوصٌ بالدُّوَل الأخيرةِ بعدَ التَّمْهيد واستقرارِ المُلكِ في النِّصَابِ، واسْتِحْكَامِ الصِّبْغَةِ لأهلهِ، فالرَّجُلُ إنَّما أدرك الدَّولة عند هرمها، وخَلَق جدَّتها، ورجوعها إلى الاستظهار بالموالي والصَّنائع[٤]، ثُمَّ إلى المُسْتَخْدَمِين من ورائهم بالأجر على الْمُدافعةِ، فإنه إنما أدركَ دولَ الطَّوائفِ، وذلك عند اختلالِ بني أميَّة وانقراضِ عَصَبيَّتها من العربِ، واستبدادِ[٥] كل أميرٍ بقطرهِ. وكان في

١ – نسب المقري في نفح الطيب (١٢٥/١) البيتين لأبي بكر بن عمار.

٢ – يقصد: استبداده على هشام أحد ملوك الأندلس.

٣ – سراج الملوك: ٢٨٧.

٤ – جمع صنيعة، وهو الرجل المصطنع ليكون من خاصة الإنسان.

٥ – أي استقلاله بالأمر.

إيالة المُسْتعين بن هودِ وابنه المُظَفَّر أهلُ سِرْقَسْطَةَ، و لم يكن بقيَ لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء التَّرَفِ على العربِ منذُ ثلاث مئةٍ مِنَ السِّنين وهلاكهم، و لم يُرَ إلا سلطاناً مستبدّاً[1] بالملك عن عشائره، وقد استحكمت له صبغة الاستبدادِ منذ عهد الدَّولةِ وبقيَّةِ الْعَصَبيَّةِ فهو لذلك لا ينازعُ فيه ويستعين على أمره بالأجراء من المُرتزقة. فأطلقَ **الطّرْطُوشِيّ** القولَ في ذلك و لم يتفطَّن لكيفية الأمر منذُ أوَّلِ الدَّوْلَةِ، وأنَّهُ لا يَتِمّ إلا لأهْلِ الْعَصَبيَّةِ. فتفَطَّنْ أنتَ لـه، وافهم سرَّ ا لله فيه، ﴿وا لله يؤْتِي مُلْكَهُ من يَشَاءُ﴾[البقرة: ٢٤٧].

---

١ – أي مستقلاً به، له ثمرته دون أهله وعشيرته.

١-٣-٣- الْفَصْلُ الثَّالثُ

في أنَّهُ قَدْ يَحْدُثُ لِبَعْضِ أهل النِّصَابِ المَلَكِيِّ دولة تَسْتَغْنِي عن الْعَصَبِيَّةِ

وذلك أنه إذا كان لعصَبِيَّةٍ[١] غلبٌ كثيرٌ على الأممِ والأجيالِ، وفي نفوسِ القائمينَ بأمرِهِ من أهلِ القَاصِيَةِ إذعانٌ لهم وانقيادٌ، فإذا نزعَ إليهم هذا الخارجُ، وانتبذَ عن مقرِّ ملكِهِ ومنبتِ عزِّهِ، اشتملوا عليه وقاموا بأمرِهِ وظاهرُوهُ على شأنه، وعنوا بتمهيد دولتِهِ، يرجونَ استقراره في نِصَابه، وتناوله الأمر من يد أعْيَاصِهِ[٢]، وجزاءه لهم على مُظَاهرته، باصطِفَائهم لرتبِ المُلك وخططه، من وزارةٍ أو قيادة أو ولاية ثغر، ولا يطمعون في مشاركته في شيءٍ من سلطانهِ تسليماً لعصَبيَّته، وانقياداً لما استحكمَ له ولقومه من صِبغَةِ الغَلَبِ في العالمِ، وعقيدة إيمانيَّة استقرَّت في الإذعان لهم، فلو راموها معه أو دونه لزلزلتِ الأرضُ زلزالها، وهذا كما وقع للأدارسة بالمغربِ الأقصى والعُبيديِّين بأفريقية ومصرَ، لما انتبذَ الطَّالِبِيُّونَ منَ الْمَشْرِقِ إلى الْقَاصِيَةِ، وابتعدوا عن مقرِّ الخلافةِ وسموا إلى طَلَبِها من أيدي بني العَبَّاسِ، بعد أن استحكمت الصِّبغة لبني عبد منافٍ: لبني أُمَيَّةَ أوّلاً، ثم لبني هاشمٍ من بعدهم، فخرجوا بالقاصية من المغرب، ودعوا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة مرَّة بعد أخرى فأُوْرَبَّةَ ومَغِيْلَةَ للأدارسة. وكتامة وَصَنْهَاجةُ وهوَّارة للعُبَيديِّين. فَشَيَّدوا دولتهم ومهدوا بِعَصَائبهم أمرهم، واقتطعوا من ممالكِ الْعَبَّاسِيين [ظ٦٥/٢] المَغْربَ كله، ثم أفريقيَّةَ. ولم يزل ظلُّ الدَّولةِ يتقلَّصُ، وظلُّ العُبَيديين يمتدُّ إلى أن ملكوا مِصْرَ والشَّامَ والحجازَ، وقاسموهم في الممالك الإسلامية شِقَّ الأَبْلُمَةِ[٣]. وهؤلاء البرابرة القائمون بالدَّولةِ مع ذلك، كلهم مُسَلِّمون للعبيديين أمرهم مذعنون لملكهم، وإنَّما كانوا يتنافسون في الرتبةِ عندهم خاصَّةً، تسليماً لما حصل من صِبغَةِ المُلك لبني هاشم، ولما استحكمَ منَ الغلب لقريشٍ ومصرَ على سائر الأمم، فلم يزل المُلكُ في أعقابهم إلى أن انقرضت دولةُ العربِ بأسرها. ﴿واللهُ يحكم لا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ﴾[الرعد: ٤١].

---

١ - في ن: لعصبيته.

٢ - جمع عيص وهو الأصل. وهو يطلق على الشجر الكبير الملتف.

٣ - أي: مناصفة، والأبلمة: مثلثة الهمزة واللام خوص يشق شقين.

١-٣-٤- الْفَصْلُ الرَّابعُ

في أنَّ الدُّولَ العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدِّين إمَّا من نبوة أو دعوة حق

وذلك لأنَّ الملك، إنَّما يحصُلُ بالتَّغلُّبِ، والتَّغلُّبُ إنَّما يكونُ بالعَصَبيَّةِ. واتِّفَاقُ الأهـواءِ على الْمُطَالَبَةِ، وجمعُ الْقُلُوْبِ وَتَأليفها، إنما يكون بمعونةِ من الله في إقامة دينه. قال تعالى: ﴿لو أَنْفَقْتَ ما في الأرضِ جَميعاً ما أَلَّفْتَ بينَ قُلُوْبهم﴾[الأنفال: ٦٣].

وسرَّهُ: أنَّ القلوبَ إذا تداعت إلى أهواء الباطلِ والميلِ إلى الدُّنيا، حصلَ التَّنـافُسُ وَفَشَا الخِلاَفُ. وإذا انصرفت إلى الحَـقِّ وَرَفَضَـتِ الدُّنيـا والبـاطلَ، وأقبلـت علـى الله اتَّحـدت وجهتها، فذهب التَّنافسُ وقلَّ الخلافُ، وَحَسُنَ التَّعاونُ والتَّعـاضُدُ، واتَّسَـعَ نِطَـاقُ الكلمـة لذلك، فعظمت الدَّولة، كما نُبيِّن لك بَعْدُ إن شاء الله سـبحانه وتعـالى، وبـه التوفيـق، لا ربَّ سِوَاهُ.

١-٣-٥- الْفَصْلُ الْخَامِسُ
في أنَّ الْدَّعوة الْدِّينية، تزيدُ الدَّولةَ في أَصْلِهَا قوّةً على قُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ الْتَّي كَانت لها من عددها

وَالْسَّبَبُ في ذلك، كما قَدَّمناه: أنَّ الْصِّبغةَ الدِّيْنِيَّة تذهبُ بالتَّنافُسِ وَالْتَّحاسُدِ الذي في أهلِ الْعَصَبِيَّةِ، وتفردُ الوجهةَ إلى الحقِّ، فإذا حصلَ لهم الاسْتِبْصارُ في أمرهم[1] لم يقف لهم شيءٌ، لأنَ الوجهةَ واحدةٌ، والمطلوب متساوٍ عندهم، وهم مستميتونَ عليه. وأهل الدولةِ التي هم طالبوها، وإن كانوا أضعافهم، فأغراضهم مُتباينة بالباطلِ، وتخاذلهم لتقيَّةِ الموتِ حاصلٌ، فلا يقاومونهم، وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبونَ عليهم ويعاجلهم الفناءُ بما فيهم من التَّرَفِ والذُّلِّ، كما قدَّمناه.

وهذا كما وقع للعربِ صدرَ الإِسْلامِ في الفتوحاتِ فكانت جيوشُ الْمُسْلمين **بالقادسية واليرموك** بضعةً وثلاثينَ ألفاً في كل مُعَسْكرٍ، وجموعِ فارسَ مئةً وعشرينَ ألفاً بالقادسيَّةِ، وجموعُ هرقلَ - على ما قالهُ الواقديُّ - أَرْبَعُ مئةِ ألفٍ، فلم يقف للعربِ أحدٌ منَ الْجَانِبَيْنِ وهزموهم وغلبوهم على مَا بأَيْدِيهم.

واعتبر ذلك أيضاً في دولةِ لمتونةَ ودولة الموحِّدين، فقد كان بالمغربِ منَ القبائلِ كثيرٌ ممن يقاومهم في العددِ والعَصَبِيَّةِ أو يَشفُّ[2] عليهم، إلا أنَّ الاجتماع الدِّيني ضاعفَ قوَّةَ عَصَبيَّتهم بالاستبصارِ والاستماتةِ [ظ٦٦/١] كما قلناه، فلم يقف لهم شيءٌ.

واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدّين وفَسَدت، كيفَ ينتقِضُ الأمرُ، ويصيرُ الغلبُ على نِسْبَةِ العَصَبيَّة وحدُّها دونَ زيادةِ الدِّيْنِ، فتغلبُ الدَّولة من كان تحتَ يدها منَ الْعَصَائبِ الْمُكافئة لها أو الزَّائدِ القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفةِ الدِّيْنِ لقوتها، ولو كانوا أكثرَ عَصَبِيَّةً منها وأشدَّ بداوة.

واعتبر هذا في الموحِّدينَ مع زَنَاتَةَ، لَمَّا كانت زَنَاتَةَ أبدى منَ المَصَامِدَةِ وأشدَّ توحُّشاً، وكان لِلْمَصامدةِ الدَّعوةُ الدِّينية باتِّبَاعِ المَهْدِيِّ فلبسوا صبغتها، وَتَضاعفت قوَّةُ عَصَبيَّتهم بها، فَغَلَبُوا على زناتةَ أوّلاً واستتبعوهم، وإن كانوا من حيثُ العَصَبِيَّةِ والبداوةِ أشدَّ منهم،

---

١ - أي الاهتداء عن طريق الاستدلال، ويمكن تسميته بالوعي. (العصبية والدولة:٤٣٦).

٢ - أي: يزيد.

فلمَّا خَلَوا من تِلكَ الْصِّبْغَةِ الدِّيْنِيَّةِ انْتَقَضَت عليهم زناتةَ من كُلِّ جانب، وغلبوهم على الأمرِ وانتزعوه منهم. ﴿والله غالبٌ على أمرهِ﴾[يوسف: ٢١].

١-٣-٦- الْفَصْلُ السَّادِسُ
في أنَّ الدَّعوة الْدِّينيَّةِ من غير عَصَبيَّة لا تَتِمُّ

وهذا لما قَدَّمناه، من أنَّ كُلَّ أمر تحملُ عليه الكافَّةُ، فلا بُدَّ له من العصبيَّةِ. وفي الحديث الصَّحيح كمامرَّ: «**ما بَعَثَ ا للهُ نَبيّاً إلا في مَنَعة من قومِهِ**»[١]. وإذا كان هذا في الأنبياء، وهم أولى النَّاسِ بخرقِ العوائدِ، فما ظَنُّكَ بِغَيْرِهم أنْ لا تُخْرَقُ لهُ العَادَةُ في الغَلَبِ بغير عَصَبيَّةٍ.

وقد وقعَ هذا **لابنِ قَسيٍّ** شيخِ الْصُّوفيَّةِ، وصَاحبِ كتاب: **خَلْعِ الْنَّعْلَيْن** في التَّصَوُّفِ. ثَارَ بالأندلسِ داعياً إلى الحقِّ وَسُمِّيَ أصحابهُ بالمُرابطين قُبيلَ دعوةِ المَهْدِيِّ، فاسْتَتَبَّ له الأمرُ قليلاً لِشُغْلِ لمتونَةَ، بما دهمهم من أمْرِ المُوَحِّدين، ولم تكن هنَاكَ عَصَائبُ ولا قبائل يدفعونه عن شأنه، فلم يلبث حين اسْتَولى الموحِّدون على المغربِ أن أذعنَ لهم، ودخل في دعوتهم وتابعهم من مَعْقَلِهِ بحصْنِ أركشَ، وأمكنهم من ثغْرِهِ وكان أوَّلَ داعيةٍ لهم بالأندلسِ، وكانت ثورتهُ تُسَمَّى **ثورة المُرابطين**.

ومن هذا البابِ: أحوالُ الثُّوّار القائمينَ بتغييرِ المُنْكَرِ منَ العامَّةِ والفقهاء. فإنَّ كثيراً منَ المنتحلين للعبادةِ وسُلوكِ طُرُق الدِّين، يذهبون إلى القيام على أهل الجورِ منَ الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنَّهي عنه، والأمر بالمعروفِ رجاءً في الثَّوابِ عليه من ا للهِ، فيكثُرُ أتباعهم والمُتَلَثْلِثُوْنَ[٢] بهم من الغوغَاءِ والدَّهماءِ، ويُعَرِّضونَ أنفسهم في ذلك للمهالكِ، وأكثرهم يهلكون في هذا السَّبيل مأزورينَ[٣] غيرَ مأجورين لأن ا لله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم، وإنما أمر به حيث تكون القُدرة عليه، قال صلى ا لله عليه وسلم: «**من رأى منكم مُنكَراً فليغيِّرهُ بيدِهِ، فإن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فإن لْم يستطع فبِقَلْبِهِ**»[٤].

---

١ – أي: في عز وحماية بفضل قومه. حديث صحيح. أخرجه أحمد (٣٣٢/٢ و٣٤٦ و٣٨٤ و٣٨٩ و٤١٦ و٥٣٣) والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥ و٨٩٦) والترمذي (٣١١٦) من حديث أبي هريرة. وليس في صحيح البخاري ولا مسلم.

٢ – اللثلثة والتلثلث: الإقامة. كأنه قال: والملتصقون بهم التصاق الإقامة. وفي ن: (والمتشبهون) و(المتشبثون).

٣ – أي: عليهم الوزر.

٤ – أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه. ولا بأس من نقل ما قاله الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث ليتبين مذاهب العلماء في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال (١٩١/١ – ١٩٤): وأما قوله صلى ا لله عليه وسلم (فليغيره): فهو أمر إيجاب بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي الدين، ولم يخالف في ذلك إلا

بعض الرافضة، ولا يعتد بخلافهم، كما قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين: لا يكترث بخلافهم في هذا، فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء، ووجوبه بالشرع لا بالعقل، خلافاً للمعتزلة، وأما قول الله عز وجل: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[المائدة: ١٠٥] فليس مخالفاً لما ذكرناه، لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية: إنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركمن، مثل قوله تعالى: ﴿ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى﴾[الأنعام: ١٦٤]. وإذا كان كذلك: فما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعله و لم يمتثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل، لكونه أدَّى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهي لا القبول. وا لله أعلم.

ثم إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف. ثم إنه قد يتعين، كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو: لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف.

قال العلماء رضي ا لله عنهم: لا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول، وكما قال ا لله عز وجل: ﴿وما على الرسول إلا البلاغ﴾[المائدة: ٩٩] ومثل العلماء هذا بمن يرى إنساناً في الحمام أو غيره، مكشوف بعض العورة ونحو ذلك. وا لله أعلم.

قال العلماء: ولا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال، ممتثلاً ما يأمر به مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وإن كان مخلاً بما يأمر به، والنهي وإن كان متلبساً بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر ننفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه. فإذا أخلَّ بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟.

قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك ثابت لآحاد المسلمين. قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين، فإن غير الولاة ــ في الصدر الأولى، والعصر الذي يليه ــ كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر، مع تقرير المسلمين إياهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية، وا لله اعلم.

ثم إنه إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة، والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها. وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال، ومما يتعلق بالاجتهاد لم يك للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء.

ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه لأن ــ على أحد المذهبين ــ كل مجتهد مصيب، وهذا هو المختار عد كثيرين من المحققين أو أكثرهم، وعلى المذهب الآخر: المصيب واحد، والمخطىء غير متعين لنا، والإثم مرفوع عنه لكن إن أدبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق، فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف، إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع في خلاف آخر، وذكر أقضى القضاة أبو الحسن الماوردي البصري الشافعي في كتابه الأحكام السلطانية خلافاً بين العلماء في أن من قلده السلطان الحسبة: هل له أن يحمل الناس على مذهبه فيما اختلف فيه الفقهاء، إذا كان المحتسب من أهل الاجتهاد، أم لا يغير ما كان على مذهب غيره؟ والأصحُّ: أنه لا يغير، لما ذكرناه، و لم يزل الخلاف في الفروع بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم رضي ا لله عنهم أجمعين، ولا ينكر محتسب ولا غيره على غيره، وكذلك قالوا: ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه، إذا لم يخالف نصاً أو إجماعاً أو قياساً جليّاً. وا لله أعلم.

واعلم: أن هذا الباب ـ أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ قد ضيِّع أكثره من أزمان متطاولة، و لم يبقَ منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو بابٌ عظيمٌ، به قوامُ الأمر وملاكهُ وإذا كثر الخبث عمَّ العقاب الصالح

والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه: ﴿فليحذَرِ الَّذِين يخالفونَ عن أمرِهِ أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذابٌ أليمٌ﴾[النور: ٦٣]. فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل: أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيمٌ لا سيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته ولا يهاب من ينكر عليه لارتفاع مرتبته، فإن الله تعالى قال: ﴿ولينصرنَّ الله من ينصرهُ﴾[الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هديَ إلى صراط مستقيم﴾[آل عمران: ١٠١] وقال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[العنكبوت: ٦٩] وقال تعالى: ﴿أحسبَ الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذي صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[العنكبوت: ٢ - ٣].

واعلم: أنَّ الأجر على قدر النصب، ولا يتاركه أيضاً لصداقته ومودته ومداهنته، وطلب الوجاهة عنده، ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجبُ له حرمة وحقاً، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته، وينقذه من مضارها وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته، وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه. وعدوه ممن يسعى في ذهاب أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدواً لنا لهذا، وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها، ونسأل الله الكريم توفيقنا وأحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته، وأن يعمنا بجوده ورحمته، والله أعلم.

وينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يرفق، ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه، مما يتساهل أكثر الناس فيه من هذا الباب: مما إذا رأى إنساناً يبيع متاعاً معيباً أو نحوه، فإنهم لا ينكرون ذلك، ولا يعرفون المشتري بعيبه، وهذا خطأ ظاهر، وقد نص العلماء على أنه يجب على من علم ذلك أن ينكر على البائع، وأن يعلم المشتري به، والله أعلم.

وأما صفة النهي ومراتبه: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح: «فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه». وقوله صلى الله عليه وسلم: «فبقلبه». معناه: فليكرهه بقلبه، وليس ذلك بإزالة وتغيير منه للمنكر، ولكنه هو الذي في وسعه. وقوله صلى الله عليه وسلم: «وذلك أضعف الإيمان». معناه ــ والله أعلم ـ أقله ثمرة، قال القاضي عياض رحمه الله: هذا الحديث أصل في صفة التغيير، فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به، قولاً كان أو فعلاً: فيكسر آلات الباطل، ويريق المسكر بنفسه، أو يأمر من يفعله، وينزع الغصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه أو بأمره، إذا أمكنه، ويرفق في التغيير جهده بالجاهل وبذي العزة الظالم المخوف شره إذ ذلك أدعى إلى قبول قوله، كما يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعني، ويغلظ على المتمادي في غيّه والمسرفُ في بطالته إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكراً أشد ما غيره، لكون جانبه محمياً عن سطوة الظالم فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه، من قتله أو قتل غيره بسببه، كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه، وكان في سعة، وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى. وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان، ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب، وليرفع ذلك إلى من له الأمر إن كان المنكر من غيره أو يقتصر على تغييره بقلبه. هذا هو فقه المسألة، وصواب العمل فيها عند العلماء المحققين، خلافاً لمن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال، وإن قتل ونيل منه كلّ أذى. هذا آخر كلام القاضي رحمه الله.

قال إمام الحرمين رحمه الله: ويسوغ لآحاد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله، مما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح، فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان. قال: وإذا جار والي الوقت، وظهر ظلمه وغشمه، و لم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه بالقول: فلأهل الحلّ والعقد التواطؤ على خلعه، ولو

وأحوال المُلوكِ والدُّولِ راسخةٌ قويَّةٌ لا يزحزحها ويهدمُ بناءهـا إلا المطالبـةُ القويَّـة الـتي من ورائها عَصَبيَّةُ القبائلِ والعشائر، كما قدمناه [ظ٦٦/٢].

وهكـذا كـان حـالُ الأنبيـاء عليهـم الصـلاة والسـلام في دعوتهـم إلى ا لله بالعشـائر والعصائب، وهم المؤيَّدون من ا للهِ بالكونِ كله لو شـاء، لكنـه إنَّمـا أجـرى الأمـورَ علـى مُسْتَقَرِّ العادة[1]، وا لله حكيمٌ عليم.

فإذا ذهبَ أحدٌ منَ النَّاسِ هذا المذهبَ، وكان فيه مُحِقّاً، قصرَ به الانفرادُ عـن الْعَصَبيَّـةِ فطاحَ في هوَّةِ الهلاكِ، وأمَّا إن كانَ مـنَ المُلَبِّسي[2]، بذلـك في طلـبِ الرِّئاسـةِ فـأجدرُ أن تعوقَهُ العوائقُ، وتنقطعُ به المهالك؛ لأنه أمر ا لله لا يتمُّ إلا برضاهُ وإعانته والإخلاص لـهُ، والنَّصيحة للمُسْلِمينَ. ولا يَشُكُّ في ذلك مُسْلِمٌ، ولا يرتابُ فيه ذو بَصِيرةٍ.

وأول ابتداء هذه النَّزعة في المِلَّةِ ببغداد حينَ وقعت فتنـةُ طـاهر، وقتـل الأمـينُ، وأبطـأ المأمونُ بخراسانَ عن مقدم العـراق، ثـم عهـد لعلـي بـن موسـى الرِّضـى مـن آل الحُسَين، فكشفَ بنو العبَّاسِ عن وجهِ النَّكيرِ عليه، وتداعوا للقيامِ وخلعِ طاعةِ المـأمون والاستبدال منه، وبويعَ إبراهيمُ بن المهديِّ، فوقعَ الهـرجُ ببغـدادَ، وانطلقـت أيـدي الزَّعَـرَةِ[3] بهـا مـن

بشهر الأسلحة ونصب الحروب، هذا كلام إمام الحرمين. وهذا الذي ذكره من خلعه غريب، ومع هذا فهـو محمـول على ما إذا لم يخف منه إثارة مفسدة أعظم منه. قال: وليس للآمر بالمعروف البحث والتفتيش والتجسس واقتحـام الدور بالظنون، بل إن عثر على منكر غيره جهده. هذا كلام إمام الحرمين.

وقال أقضى القضاة الماوردي: ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهـر مـن المحرمـات، فـإن غلـب علـى الظـن استسرار قوم بها لأمارة وآثار ظهرت فذلك ضربان:

أحدهما: أن يكون ذلك في انتهاك حرمة يفوت استدراكها، مثـل: أن يخبره مـن يثـق بصدقـه: أن رجـلاً خـلا برجل ليقتله أو بامرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذا الحال أن يتجسس، ويقدم على الكشف والبحث، حذراً من فوات مالا يستدرك، وكذا لو عرف ذلك غير المحتسب من المتطوعة جاز لهم الإقدام على الكشف والإنكار.

الضرب الثاني: ما قصر عن هذه الرتبة، فلا يجوز التجسس عليه ولا كشـف الأسـتار عنـه، فـإن سمعَ أصـوات الملاهي المنكرة من دار أنكرها خارج الدار ولم يهجم عليها بالدخول، لأن المنكر ظاهر وليس عليه أن يكشف عـن الباطن. وقد ذكر الماوردي في آخر الأحكام السلطانية باباً حسناً في الحسبة، مشـتملاً علـى جملـة مـن قواعـد الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أشرنا هنا إلى مقاصدها، وبسطت الكلام في هذا الباب لعظم فائدته وكثرة الحاجة إليه، وكونه من أعظم قواعد الإسلام، وا لله أعلم.

١ – أي الكيفية التي أجرى ا لله بها الحوادث.

٢ – في ن: المتلبسين.

٣ – أي: المفسدون في الأرض.

الْشُّطَّار[١] والحربيَّةِ على أهل العافية والصَّوْن، وقطعوا السَّبيلَ، وامتلأت أيديهم من نِهَابِ النَّاسِ، وباعوها علانيةً في الأسواق، واستعدى أهلهـا الحُكَام فلم يُعدوهم، فتوافرَ أهل الدِّين والصَّلاحِ على منع الفُسَّاق، وكفِّ عاديتهم.

وقام ببغداد رجلٌ يُعرفُ **بخالدِ الدريوش**[٢]، ودعا النَّاسَ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ، فأجابه خلقٌ، وقاتل أهل الزَّعارةِ فغلبهم، وأطلقَ يدهُ فيهم بالضَّرْبِ والتَّنكيلِ.

ثُمَّ قامَ من بعده رجلٌ آخر من سواد أهْلِ بغدادَ، يُعْرَفُ **بسَهْلِ بن سَلامة الأنْصَارِيِّ**[٣]، ويُكَنَّى: **أبا حاتم**، وعلَّقَ مُصْحفاً في عنقهِ ودَعَا النَّاسَ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن الْمُنْكَرِ، والعملِ بكِتابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم فاتَّبَعَهُ النَّاسُ كافَّةً من بينِ شَرِيْفٍ وَوَضِيْعٍ من بَني هاشمٍ فَمَنْ دُونهم، ونـزلَ قصرَ طَاهر، واتَّخذَ الدِّيوانَ وطافَ ببغدادَ، ومنعَ كُلَّ من أخافَ المارَّةَ ومنعَ الخِفَارَةَ لأولئكَ الشُّطَّارِ، وقال له خالد الدُّرَيْوِشُ: أنَا لاَ أعيبُ على الْسُّلطان. فقال له سهلٌ: لكنِّي أُقَاتِلُ كلَّ من خالفَ الكتابَ وَالْسُّنَّةَ كائناً من كان. **وذلك سَنةَ إحدى ومئتين**، وجهَّزَ لهُ إبراهيم بنُ الْمَهْدِيِّ الْعَسَاكرَ، فغلبه وأسرهُ وانحلَّ أمْرُهُ سَرِيعاً، وذهبَ ونجا بنَفْسِهِ.

ثُمَّ اقتدى بهذا العملِ بعد كثيرٌ مِنَ الْمُوَسْوسِيْنَ يأخذونَ أنفسهم بإقامةِ الحقِّ ولا يَعْرِفُونَ ما يحتاجونَ إليه في إقامته منَ الْعَصَبيَّةِ، ولا يَشْعُرُوْنَ بمغبَّةِ أمرهم ومآل أحوالهم. والَّذي يُحتاجُ إليه في أمر هؤلاء: إمَّا الْمُداوَاةُ إن كانوا من أهْلِ الْجُنُوْنِ؛ وإمَّا التَّنْكِيْلُ بالقَتْلِ أو الْضَّرْبِ، إن أحدَثُوا [ظ٦٧/١] هَرَجاً؛ وإمَّا إذاعةُ السُّخْرِيَةِ مِنهم، وعدُّهم من جُمْلَةِ الْصَّفَّاعِيْنَ[٤]. وقد يَنْتَسِبُ بعضهم إلى الْفَاطميِّ المنتظر، إمَّا بأنه هو، أو بأنَّهُ داعٍ لهُ، وليسَ مع ذلك على علمٍ من أمرِ الْفَاطِمِيِّ ولا ما هو.

وأكثرُ الْمُنْتَحِلِيْنَ لِمِثْلِ هذا، تجدهم مُوَسوسِيْنَ أو مَجَانِيْنَ أو مُلَبِّسِيْنَ يَطْلُبُونَ بمِثلِ هذه الدَّعوة رِئَاسةً امْتَلأت بها جوانحهم، وعجزوا عن التَّوصُّلِ إليها بشيءٍ من أسْبَابها العَادِيَّة، فيحسبونَ أنَّ هذا منَ الأسباب البالغةِ بهم إلى ما يؤملونه من ذلك، ولا يحسِبُونَ ما ينالهم فيه من الهَلَكةِ، فيسرع إليهم القتلُ بما يُحْدِثُونه منَ الفتنة، وتسوءُ عاقبة مكرهم.

---

١ – جمع شاطر وهو الخبيث واللص.

٢ – في النسخ: الدريوس. صحح من تاريخ الطبري (٨/ ٥٥٢-٥٥٣).

٣ – انظر أخباره في تاريخ الطبري (٥٥٢/٨، ٥٥٣، ٥٦٣، ٥٧١، ٥٧٣).

٤ – من يصفعون على الأقفية للسخرية بهم وهوان شأنهم.

وقد كان لأوَّل هذه المئةِ: خرجَ بالسُّوسِ رجلٌ منَ المُتَصَوِّفة يُدعى **التُّوبَذْري** عمدَ إلى مسجد ماسَةَ بسَاحِلِ البحرِ هناكَ، وزعمَ أنَّهُ الفَاطميُّ المنتظرُ تلبيساً على العامَّةِ هنالك بما ملأَ قلوبهم منَ الحَدَثَانِ بانتظاره هنالك، وأنَّ من ذلك المسجد يكون أصلُ دعوته، فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش، ثمَّ خشي رؤسَاؤهم اتِّسَاعَ نطاقِ الفتنةِ، فدّسَ إليه كبيرُ المصَامدةِ يومئذٍ **عمر السكسيوي** من قتله في فراشه.

وكذلك خرجَ في غِمارَة أيضاً، **لأوَّل هذه المئةِ**، رجلٌ يُعرف بالعبَّاسِ، وادَّعى مثلَ هذه الدَّعوةِ، واتَّبعَ نعيقهُ الأَرْذَلونَ من سُفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وأغمارهم، وزحفَ إلى بادِسَ من أمْصَارِهم، ودخلها عنوةً، ثُمَّ قُتِلَ لأربعينَ يوماً من ظُهُورِ دعوته، ومضى في الهَالكينَ الأوَّلين.

وأمثالُ ذلك كثيرٌ، **والغلطُ فيه من الغفلةِ عن اعتبارِ العَصَبِيَّةِ في مثلها**. وأمَّا إن كان التَّلْبيسُ فأحرى أن لا يتمَّ له أمرٌ، وأن يبوءَ بإثمٍ، وذلك جزاءُ الظَّالمين. وا لله سبحان وتعالى أعلمُ. وبه التوفيق، لا ربَّ غيره، ولا معبود سواهُ.

١-٣-٧- الْفَصْلُ السَّابِعُ

في أنَّ كل دولة لها حِصَّةٌ منَ المَمالكِ والأوطانِ لا تزيد عليها

والسَّببُ في ذلك: أنَّ عِصَابةَ الدَّولةِ وقومها القائمينَ بها الممهدين لها، لا بُدَّ من توزيعهم حِصصاً على الممالك والثُّغورِ التي تصيرُ إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو، وإمضاء أحكام الدَّولة فيها من جباية وردْعٍ وغير ذلك. فإذا توزَّعتِ العَصَائبُ كلها على الثُّغور والممالكِ، فلا بُدَّ من نفاد عددها، وقد بلغت الممالكُ حينئذٍ إلى حدٍّ يكونُ ثغراً للدَّولَةِ وتخماً لوطنها، ونطاقاً لمركز مُلكها. فإن تَكَفّلتِ الدَّولة بعد ذلك زيادةً على ما بيدها، بقيَ دون حامية، وكان موضعاً لانتهازِ الفُرْصَةِ من العدُوِّ والمجاورِ، ويعودُ وبالُ ذلك على الدَّولةِ بما يكون فيه منَ التَّجاسُرِ وخرقِ سِيَاجِ الهَيْبَةِ.

وما كَانتِ العِصَابةُ موفورة، ولم يَنْفَد عددها في توزيع الحِصَصِ [ظ٦٧/٢] على الثغور والنواحي، بقيَ في الدولة قوة على تناول ما وراء الغايةِ، حتى ينفسحَ نِطاقها إلى غايته. **والعلَّةُ الطَّبيعية في ذلك، هي قوة العَصَبيَّة من سائر القُوى الطَّبيعية. وكلُّ قوةٍ يصدرُ عنها فعلٌ من الأفعال فشأنها ذلك في فعلها. والدَّولة في مركزها أشدُّ مما يكونُ في الطرفِ والنِّطاق، وإذا انتهت إلى النِّطاق الذي هو الغايةُ، عجزت وأقصرت[١] عمَّا وراءهُ، شأنُ الأشعَّةِ والأنوارِ إذا انبعثت من المراكزِ والدَّوائر المنفسحةِ على سطح الماءِ من النَّقرِ[٢] عليه[٣].**

ثُمَّ إذا أدركها الهرمُ والضَّعفُ، فإنَّما تأخذُ في التَّناقصِ من جهةِ الأطْرَافِ، ولا يزالُ المركزُ محفوظاً، إلى أن يتأذَّن الله بانقراضِ الأمرِ جملةً، فحينئذٍ يكونُ، انقراضُ المركز.

وإذا غلبَ على الدَّولةِ من مركزها، فلا ينفعها بقاءُ الأطْرَافِ والنِّطاق بل تضمَحِلُّ لوقتها؛ فإنَّ المركز كالقَلْبِ الَّذي تنبعث من الروح، فإذا غلبَ على القلبِ ومُلِكَ انهزمَ جميعُ الأطرافِ.

١- الإقصار: الإمساك عن الشيئ مع القدرة عليه. والقصر: الكف عنه مع العجز.

٢ - أي: على أثر النقر عليه بحصاة مثلاً.

٣ - قال الدكتور عبد الكريم اليافي في تمهيد في علم الاجتماع (ص١٠٠ - ١٠١): يعتمد المؤلف في بعض المواضع من المقدمة تشبيهات فيزيائية لبيان طبيعة الظواهر الاجتماعية..... ويتضح أن الكاتب يعتبر العصبية على تعبيره، وهي ظاهرة اجتماعية، كسائر القوى الطبيعية في طبيعتها ويدعم اعتباره هذا بتشبيهين طبيعيين، وهو بذلك من السابقين في النظر إلى الأمور الاجتماعية من الوجهة الآلية الميكانيكية والفيزيائية كما ... نرى مثل ذلك عند بعض علماء الاجتماع.

وانظر هذا في الدَّولة الْفَارِسِيَّةِ: كان مركزها المدائنَ؛ فلمَّا غلبَ المسلمون على المدائن انقرضَ أمر فارسَ أجمعُ، ولم ينفع يزدجُرد ما بقي بيده من أطرافِ ممالكه. **وبالعكس من ذلك** الدَّولة الرومية بالشَّام لما كان مركزها القُسْطَنطينية وغلبهم المسلمون بالشَّامِ، تَحَيَّزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية، ولم يضرُّهم انتزاعُ الشَّامِ من أيديهم، فلم يزل ملكهم متصلاً بها إلى أن يأذن الله بانقراضه.

وانظر أيضاً شأن العرب أوَّلَ الإسْلاَمِ: لَمَّا كانت عَصَائبُهُم موفورة كيفَ غلبوا على ما جاورَهم منَ الْشَّام والعراق ومصرَ لأسرع وقت، ثمَّ تجاوزوا ذلك إلى ما وراءهُ من السِّنْدِ والحَبَشَةِ وأفريقيَّة والمغربِ ثُمَّ إلى الأندلس.

فلمَّا تَفَرَّقُوا حِصصاً على الممالِكِ والثُّغورِ ونزلوها حامية، ونفدَ عددهم في تلك التَّوْزِيعات أقصروا عن الفتوحات بعدُ وانتهى أمرُ الإسلام، ولم يتجاوز تلكَ الحدود، ومنها تراجعت الدَّولة حتى تأذَّن الله بانقراضها.

وكذا كان حالُ الدُّوَلِ من بعد ذلك؛ كل دولة على نسبة القائمين بها في القِلَّةِ والكثرةِ، وعند نفاد عددهم بالتَّوزيع، ينقطعُ لهم الفتح والاستيلاء، سنة الله في خلقه.

١-٣-٨- الْفَصْلُ الْثَّامن
في أنَّ عِظَمَ الدَّوْلَةِ وَاتِّسَاعِ نِطَاقِهَا، وطول أَمَدهَا على نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بها في الْقِلَّةِ والكثرةِ

والسَّبب في ذلك: أنَّ المُلك، إنَّما يكونُ بالعصبية. وأهــل العصبيــة هــم الحاميـة الَّذيـن ينزلون بممالك الدَّولة وأقطارها، وينقسمون عليها. فما كانَ منَ الدَّوْلَةِ العَامَّةِ قَبيْلُها وأهلُ عِصَابتِهَا أكثرَ، كانت أقوى وأكثر ممالكَ وأوطاناً، وكان مُلكها أوسع لِذَلِكَ.

واعتبر ذلك بالدَّوْلَةِ الإسْلاَمِيَّة [ظ٦٨/١]: لما أَلَّـفَ الله كلمـة العـربِ علـى الإسـلام، وكان عددُ المُسْلِمِيْنَ في غزوة تَبُوكَ آخرِ غَـزَواتِ النَّبـيِّ صلـى الله عليـه وسـلم مئـة ألـفٍ وعشرة آلافٍ من مُضَر وَقحْطانَ، ما بينَ فارسٍ وراجلٍ، إلى من أسْلَمِ منهم بعد ذلـك إلى الوفاةِ. فلما توجَّهوا لطلبِ ما في أيدي الأمـم مـن الملـكِ، لم يكُـن دُونـهُ حِمـى ولا وِزرٌ، فاستُبيح حمى فارس والرُّوم، أهلِ الدَّوْلَتَيْنِ الْعَظِيْمتَينِ في العالَم لعهدهم، والـتُّرْكُ بالمشـرق، والإفرنجة والبربر بالمغرب، والقُوط بـالأندلسِ وخَطَـوا مـن الحجـاز إلى الْسُّـوسِ الأقْصَـى، ومن اليمن إلى التُّرْكِ بأقصى الْشَّمال، واستولوا على الأقاليمِ الْسَّبعةِ.

ثُمَّ انظُرْ بعد ذلكَ دولةَ صَنْهَاجةَ والموحِّدين مع العُبَيديِّـين قبلهـم لَمَّـا كـان قبيـل كُتامـة القائمين بدولةِ العُبَيديين أكثر من صَنْهَاجةَ، ومن المَصَامدة، كانت دولتهم أعظم، فملكـوا أفريقيَّة والمغرب والشَّام ومِصر والحجاز. ثُمَّ انظر بعد ذلك دولة زَنَاتَةَ لَمَّا كان عددهم أقلَّ من المَصَامدة قَصَّرَ مِلكُهم عن مُلْكِ الموحِّدين لِقُصُورِ عددِهم من عددِ المَصَـامدةِ مُنْـذُ أوَّلِ أمْرِهـم.

ثُمَّ اعْتَبرَ بعد ذلكَ حالَ الدَّوْلَتَيْنِ لهذا العَهْدِ، لِزَنَاتَةَ بني مُرين وَبَنى عبدِ الْوَادِ؛ لما كـان عدد بني مرين لأول ملكهم أكثر من بني عبد الـواد، كَـانت دَوْلَتهـم أقـوى منهـا وأوسـع نِطاقاً، وكان لهم عليهم الغَلَبُ مرَّة بعد أخرى. يُقَـالُ: إنَّ عـدد بـني مريـن لأوَّل مُلْكِهـم، كان ثَلاَثَةَ آلافٍ. وَإنَّ بني عبد الْوَادِ كَانُوا ألفاً. إلاَّ أنَّ الْدَّوْلَةَ بالرِّفد وكثرةِ الْتَّـابع كَـثَّرت مِنْ أعْدَادِهم، وَعَلَـى هَـذِهِ النِّسْبةِ في أعْـدَادِ الْمُتغَلِّبِيْـنَ لأوَّلِ المُلْـكِ يكـونُ اتِّسَـاعُ الدَّوْلَـةِ وَقُوَّتها.

وَأَمَّا طُوْلُ أمَدِهَا أيضاً فعلى تلكَ النِّسْبَةِ لأنَّ عُمر الحَادِثِ من قُوَّةِ مِزَاجهِ؛ ومزاجِ الدُّوَلِ إنَّما هو بالعَصَبيَّةِ؛ فَإذَا كانتِ العَصَبية قويَّةً، كانَ المِزَاجُ تَابعاً لها، وكان أمدُ[1] العمرِ طَويلاً؛ والعَصَبيَّةُ إنَّمَا هي بكثرةِ العدد ووفُورِهِ؛ كما قلناه.

والسَّبَبُ الْصَّحيح في ذلك: أنَّ الْنَّقْصَ، إنَّما يبدو في الدَّوْلَةِ منَ الأَطْرَافِ؛ فإذا كانَتْ مَمالِكُهَا كَثِيْرةً، كانت أطْرَافُهَا بعيدةً عن مركزها وكثيرةً، وكلُّ نقصٍ يقعُ فَلاَ بُدَّ لهُ من زَمَنٍ، فتكثرُ أزمانُ النَّقْصِ لِكَثْرةِ المَمَالِكِ، واختِصَاصِ كُلٍّ واحد منها بنقصٍ وزمانٍ، فيكونُ أمدها طويلاً. وانظُرْ في ذلك دولة العربِ الإسلامية كيفَ كان أمدُها أطولَ الدُّولِ، لا بنو العبَّاسِ، أهل المركزِ، ولا بنو أُميَّةَ المُسْتَبدُّونَ بالأندُلسِ[2]، ولم ينقص أمر جميعهم إلا بعد الأرْبَعِ مِئَةِ منَ الهِجْرَةِ. ودولةِ الْعِبيديِّين، كانَ أمدُها قريباً من مئتين وثمانين سنة، ودولة صَنهاجة دونهم من لَدُن تَقْلِيْدِ مُعِزِّ الدَّولةِ أمرَ أفريقية لبَلكينَ بن زيري في سنة ثَمان وخمسين وثلاث مئة [ظ٦٨/٢]، إلى حين استيلاء الموحدين على القَلْعَةِ وبجَايَةَ سنة سبعٍ وخمسين وخمس مئة. ودولة المُوَحِّدين لهذا العهد تناهزُ مئتين وسبعين سنةً.وهكذا نَسَبُ الدُّوَلِ في أعمارها على نسبةِ القَائمين بها، ﴿سُنَّة الله التي قد خلت في عباده﴾[غافر: ٨٥].

---

١ - في ن: أمر.

٢ - صوابه: لا فرق في ذلك بين بني العباس أهل المركز وبني أمية المستبدين بالأندلس.

١-٣-٩- الْفَصْلُ الْتَّاسِعُ

فِي أنَّ الأَوْطَانَ الكَثِيرة الْقَبَائِلِ والعصائب قَلَّ أنْ تستحكم فِيْهَا دولة

والسَّببُ فِي ذلك: اختلافُ الآراءِ والأَهْوَاءِ، وأنَّ وراءَ كل رأيٍ منها وهوى عَصَبِيَّةٌ تُمانعُ دونها، فيكثرُ الانتقاضُ على الدَّولة والخُرُوجُ عليها في كلِّ وقتٍ، وإن كانت ذَاتَ عَصَبِيَّةٍ لأنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِمَّنْ تحتَ يدها تَظُنُّ في نفسها منعةً وقُوَّةً.

وَانْظُرْ ما وقعَ من ذلك بأَفْرِيقيَّةَ والمغربِ، منذُ أوَّلِ الإسلامِ، ولهذا العهد. فإن ساكنَ هذه الأوطانِ من البربر أهلُ قبائل وعصبيَّات، فلم يُغنِ فيهم الغلبُ الأوَّل ـ الذي كان لابنِ أبي سَرْحٍ عليهم وعلى الإفرنجةِ ـ شيئاً، وعاودوا بعد ذلك الثَّورة والرِّدَّةَ مَرَّةً بعد أخرى، وعظمَ الإثخان من المُسْلِمينَ فيهم. ولما استقرَّ الدِّيْنُ عندهم عادوا إلى الثَّوْرَةِ والخروجِ، والأخذِ بدينِ الخوارجِ مرَّاتٍ عديدة.

قال ابن أبي زيد: ارتَدَّتْ البرابرة بالمغربِ اثنتي عَشَرَةَ مرَّةً، ولم تستقرَّ كلمة الإسلامِ فِيْهم إلاَّ لِعَهْدِ وِلاَيَةِ مُوسى بن نُصَيْر، فما بعده. وهذا معنى ما ينقلُ عن عمر: أنَّ أفريقيةَ مفرِّقةٌ لقلوب أهلها، إشارةً إلى ما فيها من كثرة العصائبِ والقبائل الحاملةِ لهم على عدم الإذعانِ والانقياد، ولم يَكُنْ العِراقُ لذلك العهد بتلك الصِّفة؛ ولا الشام، إنما كانت، حاميتها من فارس والروم، والكَافَّةُ دهماء، أهل مدن وأمصار، فلمَّا غلبهم المُسلمون على الأمرِ وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانعٌ ولا مشاقٌّ. والبربرُ قبائلهم بالمغرب أكثرُ من أن تُحصى وكلُّهم باديةٌ، وأهل عصائبَ وعَشَائر، وكلَّما هلك قبيلةٌ، عادت الأخرى مكانها، وإلى دينها من الخلافِ والرِّدَّةِ، **فطال أمرُ العربِ في تمهيد الدَّولةِ بوطن أفريقيَّة والمغرب.**

وكذلك كان الأمر بالشَّام لعهد **بني إسرائيل:** كان فيه من قبائل فلسطين وكنعانَ وبني عِيصُو وبني مَدْيَنَ وبني لُوطٍ والرومِ واليونان والعمالقةِ وأكريكشَ والنَّبطِ، من جانبِ الجزيرةِ والموصل، مالا يُحصى كثرةً وتنوّعاً في العَصَبِيَّةِ، فَصَعُبَ على بني إسرائيلَ تمهيدُ دولتهم، ورسوخُ أمرهم، واضطرب عليهم الملكُ مرَّةً بعد أخرى. وَسَرى ذلك الخلافُ إليهم، فاختلفوا على سلطانهم، وخرجوا عليه. ولم يكن لهم ملكٌ موطَّد[1] سائرَ أَيَّامهم،

---

١ – في ن: موصد.

إلى أن غلبهم الفرس ثم يونانٌ، ثُـمَّ الْـرُّومُ آخـرَ أمْرِهـم عنـدَ الجـلاءِ، ﴿وا للهُ غـالبٌ علـى أمرهِ﴾[يوسف: ٢١].

وَبعَكْسِ هذا أيضاً: الأوطان [ظ٦٩/١] الخلوةُ(١) منَ العصبيـات يسـهلُ تمهيـدُ الدولـة فيها، ويكونُ سلطانهم وازعاً لقلةِ الهَرْجِ(٢) والانتقاضِ، ولا تحتاجُ الدَّولةُ فيها إلى كثيرٍ من العَصَبيَّةِ، كما هو الْشَّأنُ في مصرَ وَالْشَّامِ لهذا العهد؛ إذ هي خُلوٌّ من القبائل والعَصَبيَّاتِ، كأن لَم يكن الشَّامِ معدنـاً لهـم كمـا قلنـاه. فملـك مصـرَ في غايـةِ الدَّعَـةِ والرُّسُـوخِ لقلَّـةِ الخوارج، وأهل العصائبِ. إنَّما هو سُلطانٌ ورعيَّةٌ، ودولتها قائمةٌ بمُلوكِ التُّرْكِ وعصائبهم يغلبون على الأمر واحداً بعدَ واحدٍ، وينتقل الأمـرُ فيهـم مـن منبـتٍ إلى منبـتٍ، والخلافـة مُسَمَّاةٌ للعبَّاسيِّ من أعْقَابِ الخُلفاءِ ببغداد.

وكذا شأنُ الأندلُسِ لهذا العهد: فإنَّ عَصَبيَّةَ ابنِ الأحمرِ سُلْطَانِهَا لَم تكـن لأوَّلِ دولتهـم بقويَّةٍ، ولا كانت كرَّاتٍ(٣)، إنَّما يكونُ أهلَ بيتٍ من بيوتِ العربِ أهـلِ الدَّوْلَـةِ الأُمَويَّـةِ، بقوا من ذلك الْقِلَّةِ. وذلك أنَّ أهل الأندلس لما انقرضت الدَّوْلَةُ العَرَبيَّةُ منهم(٤)، وملكهـم البربر من لَمتُونَةَ وَالموَحِّدينَ سَـئِموا مَلَكَتَهُـم وثَقُلـت وطـأتهم عليهـم، فَأُشْـرِبَت القلـوبُ بغضاءَهم، وأمكنَ المُوحِّدونَ والسَّادةُ في آخرِ الدَّولَةِ كَثِيراً من الحُصُوْنِ للطَّاغِيَـةِ في سـبيلِ الاستظهارِ به على شأنهم، من تَملُّكِ الحَضْرَةِ مَرَاكِش. فاجتمعَ من كَانَ بَقِيَ بها من أهـلِ العَصَبيَّةِ القَديمة معَادِنُ من بيوتِ العربِ تجافى بهم المنبـتُ عـن الحـاضرةِ والأمصـارِ بعـضَ الشَّيءِ، ورسَخُوا في العَصَبيَّةِ مثلَ ابنِ هُوْدٍ وابنِ الأحمَرِ وابنِ مَرْدَنِيـشَ وأمثالهم، فقـام ابـنُ هُـودٍ بـالأمر ودعـا بدعـوة الخِلاَفـةِ العَبَّاسـيَّةِ بالمَشْـرق، وحمـل النَّاسَ على الخُـرُوْجِ على المُوَحِّدينَ، فنبذوا إليهم العهدَ، وأخرجوهم، واستقلَّ ابنُ هـودٍ بـالأمرِ في الأندلـس(٥). ثُـمَّ سَمَا ابْنُ الأحمَرِ للأمْرِ وخالفَ ابنَ هُودٍ في دعوته، فدعا هؤلاء لابنِ أبـي حَفْـصٍ صَـاحبِ أَفْرِيقيَّةَ من المُوَحِّدينَ، وقـامَ بـالأمرِ، وتناولـه بِعِصَابَـة قريبـةٍ(٦) مـن قرابتـهِ كـانوا يُسَمَّونَ

---

١ – في المطبوع: الخالية.
٢ – أي: الفتنة والقتل.
٣ – أي: مرة بعد مرة.
٤ – في ن: منه.
٥ – في ن: بالأندلس.
٦ – في ن: قليلة.

الْرُّؤَسَاءَ، و لم يَحْتَج لأكثر منهم لِقِلَّةِ الْعَصَائبِ بالأندلس، وإنَّها سُلْطَانٌ ورَعِيَّةٌ، ثُمَّ استظهرَ بعد ذَلِكَ على الْطَّاغِيَةِ بمَنْ يُجيزُ إليه البحر من أعياص[1] زَنَاتَةَ، فَصَارُوا معه عصبةً على الْمُثَاغَرَةِ[2] والْرِّبَاطِ. ثُمَّ سَمَا لِصَاحب المغرب من ملُوكِ زَنَاتَةَ أملٌ في الاستيلاء على الأندلس، فصار أولئكَ الأعياصُ عِصَابةُ ابن الأحْمَرِ على الامْتِنَاعِ منهُ إلى أن تأثَّلَ أمْرُهُ، ورَسَخَ، وألِفتْهُ الْنُّفُوسُ، وعجزَ النَّاسُ عن مُطَالَبَتِهِ وورثه أعْقَابُهُ لهذا العهد، فلا تظُنَّ أنَّهُ بغَيْرِ عِصَابةٍ، فليسَ كذلك، وقد كان مبدؤُه بعِصَابَةٍ، إلاَّ أنَّها قليلةٌ، وعلى قَدَرِ الحَاجَةِ؛ فَإنَّ قطْرَ الأَندلُسِ لِقِلَّةِ الْعَصَائِبِ والْقَبَائِلِ فيه، يغْنِي عن كَثْرَةِ الْعَصبيَّةِ في التَّغلُّبِ عليهم، ﴿وا للهُ غنيٌّ عن العالمين﴾[آل عمران: ٩٧].

١ – من يعتبرون أصولها وذوي المكانة فيها.

٢ – أي: البقاء في الثغور للحرب والدفاع.

١-٣-١٠- الْفَصْلُ الْعَاشِرُ

في أنَّ من طَبِيْعَةِ الملك الانْفِرادُ بالمجد

وَذَلكَ أنَّ الملك - كما قدَّمناه - إنَّما هو [ظ٢/٦٩] بالعَصَبِيَّةِ. والعصبية متألفةٌ من عَصَباتٍ كثيرةٍ وتكونُ واحدةٌ منها أقوى من الأخرى كلِّها فتغلبها وتستولي عليها حتَّى تُصَيِّرها جميعاً في ضِمنها، وبذَلك يكونُ الاجتماعُ والغَلبُ على النَّاس والدُّوَل.

وَسِرُّهُ: أَنَّ الْعَصَبية العامَّة لِلقَبِيل هي مثلُ المزاجِ للمُتَكَوِّن؛ والمزاجُ إنَّما يكون عن العناصر، وقد تَبَيَّنَ في موضعه أنَّ العَنَاصِر إذا اجتمعت متكافئة فَلا يقعُ منها مزاجٌ أصلاً، بل لا بُدَّ من أن تكونَ واحدةً منها هي الغالبة على الكلِّ حتَّى تجمعها، وتؤلِّفها وَتُصَيِّرها عَصبيَّةً واحدةً شَاملةً لجميعِ العَصَائبِ وهي موجودةٌ في ضمنها، وتلك العَصَبِيَّةُ الكُبرى، إنَّما تكونُ لقومٍ أهْلِ بيتٍ ورئاسةٍ فيهم، ولا بُدَّ من أن يكونَ واحدٌ منهم رئيساً لهم غالباً عليهم، فيتعيَّنُ رئيساً للعَصَبيَّاتِ كلِّها لغلبِ مَنْبِتِه لِجَمِيْعِهَا.

وإذا تَعَيَّنَ له ذلك، فمِنَ الطَّبيعةِ الحَيَوَانِيَّةِ خُلُقُ **الكبر والأنفة**، فيأنفُ حينئذٍ من المُسَاهمةِ والمُشَارَكَةِ في استتباعهم والتَّحكُّم فيهم، ويجيءُ خُلُقُ **التَّألُّه** الَّذِي في طباع البَشَر، معَ ما تقتضيه السِّيَاسَةُ من انفرادِ الحاكم لِفَسَادِ الكُلِّ باخْتِلافِ الحُكَّام ﴿لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]. فتجدعُ حينئذٍ أُنوفُ الْعَصَبِيَّاتِ وتُفْلَجُ شَكَائِمُهُم عن أن يَسْمُوا إلى مُشَاركته في التَّحكُّمِ، وتقرعُ عَصَبيَّتهُم عن ذلك، وينفردُ به ما استطاعَ حتَّى لا يَترُكَ لأحدٍ منهم في الأمر، لا ناقةً ولا جملاً، فينفردُ بذلك المجدِ بكُلِّيَّتِه، ويدفعهم عن مساهمته. وقد يتمُّ ذلك للأوَّل من مُلُوْكِ الدَّوْلَةِ، وقد لا يتمُّ إلا للثَّاني والثَّالثِ على قدرِ مُمَانَعَةِ الْعَصَبِيَّاتِ وَقُوَّتها. إلاَّ أنَّهُ أمْرٌ لا بُدَّ منهُ في الدُّوَلِ، ﴿سُنَّةَ اللهِ التي قد خَلَتْ في عباده﴾[غافر: ٨٥]. والله تعالى أعلم.

١-٣-١١- الْفَصْلُ الْحَادِي عَشَرَ
في أنَّ من طَبيعة المُلك التَّرَفَ

وذلك أنَّ الأُمَّةَ إذا تغلَّبت ومَلَكت ما بأيدي أهلِ المُلْكِ قَبْلَها، كَثُرَ رِيَاشُها وَنِعْمَتُهَا، فتكْثُرُ عوائدهم وَيَتجاوَزُوْنَ ضَرُوْرَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُوْنَتَهُ، إلى نَوافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِيْنَتِهِ، وَيَذْهَبُونَ إلى اتِّبَاعِ من قَبلَهم في عوائدهم وأحوالهم، وتَصِيْرُ لتلكَ النَّوافلِ عوائِدُ ضروريَّةٌ في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رِقَّةِ الأحْوَالِ في المَطَاعمِ والملابس، والْفُرُشِ والآنيَةِ، ويتفاخرونَ في ذلك، ويُفاخرون فيه غيرهم من الأمم، في أكلِ الطَّيِّب وَلُبْسِ الأنِيْقِ ورُكُوْبِ الْفَارِهِ، وَيُنَاغِي[1] خَلَفُهُمْ في ذلك سَلَفَهُمْ إلى آخر الدَّوْلَةِ، وعلى قدرِ مُلْكِهم يكونُ حَظّهم من ذلك وَتَرَفُهُم فيه، إلى أن يَبلغُوا من ذلك الغايةَ التي للدولةِ إلى أنَ تَبْلُغَهَا بحسبِ قُوَّتها وعوائدِ مَنْ قَبْلَهَا، سُنَّةَ اللهِ في خلقهِ. والله تعالى أعلم.

---

١ - أي: الجيد السير، ومعنى يناغي: أي: ينافس.

١-٣-١٢- الْفَصْلُ الثَّانِي عَشَرَ
في أنَّ مِنْ طَبِيْعَةِ الْمُلْكِ الدَّعَةَ وَالسُّكُوْنَ

وذلكَ أنَّ الأمة لا يَحْصُلُ لها الملكُ إلاَّ بالمُطالبةِ، والمُطالَبَةُ غايتها الْغَلَبُ والمُلْكُ [ظ٧٠/١]؛ وإذا حَصَلتِ الغاية انْقضَى السَّعيُ إليها. قَالَ الشَّاعرُ[١]:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَينها فَلَمَّا انْقضَى مَا بيننا سَكَنَ الدَّهْرُ

فإذا حصل المُلكُ أقصروا عن المَتاعبِ التي كانوا يَتكَلَّفُونها في طلبهِ، وآثروا الرَّاحةَ والسُّكونَ والدَّعَةَ وَرَجعوا إلى تحصيل ثمراتِ المُلْكِ منَ المَباني والمَساكنِ والمَلابسِ، فَيَبْنُونَ الْقُصُورَ، ويجرُّونَ المِيَاهَ، وَيَغْرِسُونَ الرِّياضَ، وَيَسْتَمْتِعُونَ بأحوال الدُّنيَا، ويؤثرون الرَّاحةَ على المَتاعِبِ، وَيَتأنَّقونَ في أحوال المَلابسِ وَالْمَطَاعِمِ والآنِيَةِ وَالْفُرُشِ مَا اسْتطَاعُوا، وَيَألفونَ ذلكَ ويورِثُونَهُ من بَعْدَهُمْ من أَجْيَالهم، ولا يَزالُ ذلك يتزايدُ فيهم إلى أن يتأذَّنَ اللهُ بأمرهِ، ﴿وهو خيرُ الحاكمين﴾[الأعراف: ٨٧، يونس: ١٠٩، يوسف: ٨٠]، واللهُ تعالى أعلمُ.

---

١ - هو أبو صخر. ومطلع القصيدة: لليل بذات الجيش دار عرفتها..... [الأمالي للقالي (١٤٨/١ - ١٥٢)] ونسب أيضاً للأخطل في ديوان المعاني للعسكري (٢١/١)..

١-٣-١٣- الْفَصْلُ الْثَّالث عشر
في أَنَّهُ إذا اسْتَحْكَمَتْ طَبْيعَةُ الْمُلْك منَ الانْفرَاد بالْمَجْد وَحُصُوْلِ الْتَّرَفِ وَالْدَّعَة، أَقْبَلَتْ الدَّولةُ عَلى الهرمِ.

وبيانه من وجوهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّها تقتضي الإنفراد بالمجد كما قلناه.

وما[1] كان المجدُ مُشتركاً بينَ الْعصَابَة، وكان سَعيهم له واحداً كانت همَمُهم في التَّغَلُّب على الغير وَالْذَّبِّ[2] عن الحَوْزَة[3] أُسوةً في طموحها وقوَّة شكائمها[4]، ومرماهم إلى العزّ جميعاً، وهم يستطيبون الموتَ في بناء مجدهم، ويؤثرون الهَلَكَةَ على فَسَاده؛ وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قَرَعَ عَصَبيَّتهم، وكبحَ من أعنَّتهم، واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسَلوا عن الغزو وفشلَ ريحهم ورئموا[5] المَذَلَّةَ والاستعباد، ثمَّ ربِّي الجيل الْثَّاني منهم على ذلك، يحسبون ما ينالهم من العطاء أجراً من السّلطان لهم عن الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواهُ، وقلَّ أن يستأجر أحدٌ نفسهُ على الموتِ، فيصيرُ ذلك وهناً في الدَّولة، وخضداً[6] من الشَّوكةِ، وتُقبلُ به على مناحي الضَّعفَ والهرَمِ لفَسَادِ العَصَبيَّة بذهابِ البأس من أهلها.

والوجه الْثَّاني: أنَّ طبيعةَ المُلك تقتضي ــ كما قدمناه ــ فتكثر عوائدهم، وتزيد نفقاهم التَّرَفَ على أَعْطياهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم. فالفقيرُ منهم يَهْلكُ، والمترفُ يستغرقُ عطاءهُ بتَرَفه، ثُمَّ يَزْدَادُ ذلك في أجيالهم المتأخِّرة إلى أن يقصرَ العطاءُ كلُّهُ عن التَّرَف وعوائده، وتمَسَّهُمُ الحاجةُ وتطالبهم مُلوكهم بحَصْرِ نفقاهم في الغزو والحروب فلا يجدونَ وَلِيْجةً[7] عنها، فيُوقعونَ بهم الْعُقُوْبَاتِ، وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يَسْتأْثرونَ به

---

١ - في ن: (ومهما).

٢ - أي: الدفاع.

٣ - أي: الناحية، وبيضة الملك.

٤ - جمع شكيمة، وهي الأنفة، والانتصار من الظلم.

٥ - رئم: ألفَ.

٦ - خضد العود: كسره ولم يبن.

٧ - ملجأ تلجأ إليه دونها قال تعالى: ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾[التوبة: ١٦].

عَلَيهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع[1] دولتهم، فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم، ويضعفُ صاحبُ الدَّوْلَةِ بضَعفهم.

وأيضاً: إذا كثُرَ التَّرفُ في الدَّولة وصَارَ عطاؤهم مُقْتَصِراً على[2] حاجاتهم ونفقاتهم، احتاج صاحب الدَّولةِ الذي هو السُّلطانُ إلى الزِّيادة في أعطياتهم حتى يَسُد [ظ٧٠/٢] خللهم، ويزيحَ عِلَلَهم، والجباية مقدارها معلومٌ، ولا تزيدُ ولا تنقصُ. وإن زَادت بما يُسْتَحدَث من المكوسِ فيصيرُ مقدارُها بعد الزِّيادة محدوداً، فإذا وُزِّعت الجبايةُ على الأعطياتِ، وقد حدثت فيها الزِّيادةُ لكلِّ واحدٍ بما حدثَ من ترفهم وكثرةِ نفقاتهم، نقصَ عددُ الحاميةِ حينئذٍ عمَّا كان قبل زيادة الأعطياتِ، ثُمَّ يَعظُمُ التَّرفُ وتكثُرُ مقاديرُ الأعطياتِ لذلك، فينقص عدد الحامية، وثالثاً ورابعاً إلى أن يعُودَ العسكرُ إلى أقل الأعداد، فتضعفُ الحمايةُ لذلك، وتسقطُ قوة الدَّولةِ، ويتجاسرُ عليها من يُجاورها من الدُّول، أو من هو تحتَ يديها من القبائلِ والعصائبِ، ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبهُ على خليقته.

وأيضاً: فالتَّرَفُ مُفسدٌ للخلق بما يحصلُ في النَّفسِ من ألوانِ الشَرِّ وَالْسَّفْسَفَةِ وَعَوائِدها، كما يأتي في فصلِ الحَضَارَةِ، فتذهبُ منهم خلالُ الخيرِ التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه، ويتصفون بما يُناقضُها من خلال الشَّرِّ، فيكون علامةً على الإدبارِ والانقراضِ بما جعل الله من ذلك في خليقتهِ، وتأخذُ الدَّولةُ مبادىءَ العَطَبِ، وتتضعضعُ أحوالها، وتنزلُ بها أمراضٌ مزمنة من الهرم إلى أن يُقضْى عليها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ طبيعةَ المُلكِ تقتضي الدَّعةَ كما ذكرناه. وإذا اتَّخذوا الدَّعةَ والرَّاحة مألفاً وخُلُقاً، صار لهم ذلك طبيعةً وجبلَّةً شأنَ العوائدِ كلِّها وإيلافها، فَتَرَبَّى أجيالهم الحادثة في غَضَارة العيشِ ومهادِ التَّرَفِ والدَّعَةِ. وينقلبُ خُلُقُ التَّوحُّشِ، وينسونَ عوائدَ البداوة التي كان بها الملك من شدَّةِ الْبَأس، وتعوُّد الافتراس، وركوبِ البيداء، وهداية القفرِ، فلا يُفرِّقُ بينهم وبينَ السُّوقَةِ من الحَضَرِ إلا في الثَّقافةِ وَالْشَّارَةِ، فَتَضْعُفُ حمايتهم، ويذهب بأسهم، وتنخضِدُ[3] شَوكتهم، ويعودُ وبالُ ذلك على الدَّولةِ بما تُلَبَّسُ من ثياب الهَرَمِ، ثُمَّ لا يزالون يتلونون بعوائدِ التَّرَفِ والحَضَارَةِ والسُّكونِ والدَّعَةِ ورقَّةِ الحاشيةِ في

---

١ - جمع صنيعة.
٢ - في ن: مقتصراً عن.
٣ - أي: تنكسر

جميع أحوالهم، وينغَمِسُونَ فيها، وَهُم في ذلك يَبعُدُونَ عن البداوةِ والخُشُونةِ، وَيَنْسَلِخُونَ عنها شَيئاً فَشَيْئاً، وينسونَ خلُقَ البَسَالَةِ الَّتي كانت بها الحِمَايَةُ والمُدَافَعَةُ حتَّى يعودوا عِيَالاً على حاميةٍ أُخرى إن كانت لهم.

واعْتَبر ذلك في الدُّولِ الَّتي أخبارهـا في الصُّحُفِ لديكَ تجدُ ما قلتهُ لك من ذلك صحيحاً من غير ريبةٍ.

ورُبَّما يَحدُثُ في الدَّولةِ إذَا طَرَقها هذا الهرمُ بالتَّرَفِ والرَّاحةِ، أن يَتَخيَّرَ صاحبُ الدَّولةِ أنصاراً وشيعةً من غير جلدتهم، ممن تعوَّد الخُشُونة فيتَّخذهم جُنداً يكونُ أصبرُ على الحربِ، وأقْدَرُ على مُعَانَاةِ الشَّدَائدِ منَ الْجُوْعِ وَالشَّظَفِ، ويَكُوْنُ ذلك [ظ١/٧١] دواءً للدَّولةِ من الهرمِ، الَّذِي عَسَاهُ أن يَطْرُقَهَا حتَّى يأذنَ اللهُ فِيْهَا بأمرهِ.

وهذا كما وقع في **دولةِ التُّرْكِ** بالْمَشْرِقِ[1] فإنَّ غالبَ جُنْدِهَا الموالِي منَ التُّرْكِ، فَتَتَخيَّرُ مُلُوكهم من أولئكَ المَمَالِيْكِ المَجْلُوْبِيْنَ إِلَيْهم فُرْسَاناً وَجُنداً، فيكونونَ أجْرَأَ عَلَى الحربِ، وأصبرَ على الشَّظَفِ من أبناءِ الملوْكِ[2] الَّذِين كانوا قَبْلَهُم وَرُبُّوا في ماءِ النَّعِيْمِ وَالسُّلْطَانِ وظِلِّهِ، وكذلك في **دَوْلَةِ المُوَحِّدِيْن** بأفْرِيقيَّةَ فإنَّ صَاحِبْهَا كَثِيْراً ما يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ من زَنَاتَةَ والعربِ، وَيَسْتَكْثِرُ منهم، وَيَتْرُكُ أهلَ الدَّوْلَةِ المُتعوِّدِيْنِ للتَّرَفِ، فَتَسْتَجدُّ الدَّوْلَةُ بذلك عمراً آخرَ سالماً من الهرم، واللهُ وارثُ الأرض ومن عليها.

---

١ - في ن: بالمشرقين.

٢ - في ن: المماليك.

١-٣-١٤- الْفَصْلُ الرَّابعَ عَشَرَ
في أنَّ الدَّوْلة لها أعمار طَبِيْعِيَّة كما لِلأَشْخَاص

اِعْلَمْ: أنَّ الْعُمْر الطَّبِيْعِيَّ للأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الأطِبَّاءُ وَالْمُنَجِّمُونَ مِئَةٌ وَعِشْرُوْنَ سنةً، وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين، ويختلف العمرُ في كلِّ جيلٍ بحسبِ الْقِرَانَاتِ[1] فَيَزِيْدُ عن هذا وَيَنْقُصُ منهُ، فتكونُ أعمارُ بعضِ أهْلِ الْقِرَانَاتِ مئة تامة، وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عندَ النَّاظِرِيْنَ فيها وأعْمَارُ هذه الْمِلَّةِ ما بينَ الْسِّتِّيْنَ إلى الْسَّبْعِيْنِ كَمَا في الْحَدِيْثِ[2]، وَلاَ يَزِيْدُ على الْعُمْرِ الْطَّبِيْعِيّ الَّذِي هو مِئَةٌ وعشرون إلاَّ في الْصُّورِ النَّادِرَةِ، وعلى الأوْضَاعِ الْغَرِيْبَةِ مِنَ الْفَلَكِ، كمَا وَقَعَ في شأن نوحٍ عليه الْسَّلامِ، وقليلٍ من قومِ عادٍ وثمود.

وأمَّا **أعمارُ الدُّول** أيضاً: وإن كانت تختلفُ بحسبِ الْقِرَاناتِ إلاَّ أنَّ الدَّولةَ في الغالبِ لا تعدوُ أعمار ثَلاثةِ أَجيال، والجيلُ هو عمرُ شخصٍ واحدٍ من الْعُمْرِ الوَسَطِ، فيكون أربعينَ، الذي هو انتهاءُ النموِّ والنُّشُوءِ إلى غايته، قال تعالى: ﴿حَتَّى إذا بلغَ أَشُدَّهُ وبلغَ أَرْبَعِيْنَ سَنَة﴾[الأحقاف: ١٥]. ولهذا قلنا: إنَّ عمر الشَّخص الواحد هو عمر الجيلِ، ويؤيدهُ ما ذكرناهُ في حكمة التيه، الذي وقع في بني إسرائيل، وأنَّ المقصود بالأربعين فيه فناءُ الجيلِ الأحياء، ونشأةُ جيلٍ آخرَ لم يعهدوا الذُّلَّ ولا عرفوه فدلَّ على اعتبارِ الأربعين في عمر الجيلِ الذي هو عمرُ الشَّخصِ الواحدِ.

وإنَّما قُلْنا **إنَّ عمر الدَّولةِ لا يعدو - في الغالبِ - ثَلاثَةَ أجْيَال**؛ لأنَّ **الْجِيْلَ الأَوَّلَ** لم يَزالوا على خُلُقِ البداوةِ وخُشُونتها وتوحُّشها من شظفِ العيشِ والْبَسَالَةِ والافتراسِ والاشتراكِ في المجدِ، فلا تزالُ بذلك سَوْرَةُ العَصَبِيَّةِ محفوظةً فيهم، فحدُّهم مُرهفٌ، وجانبهم مرهوبٌ، والنَّاسُ لهم مغلوبونَ، **والجيلُ الثَّاني** تحوَّل حالهم بالملك والتَّرَفُّهِ، من البداوة إلى الحضارة، ومن الشَّظفِ إلى التَّرَفِ والخِصبِ، ومنَ الاشْتراكِ في المجد إلى انفرادِ الواحد به وكسل الباقينَ [ظ٧١/٢] عن السَّعي فيه، ومن عزِّ الاستطالةِ إلى ذلِّ الاستكانة، فتنكسرُ سورةُ العصبية بعضَ الْشَّيءِ وتؤنسُ منهم المَهَانةُ والخُضُوعُ، ويبقى لهم

---

١ – القرانات: تعبير يستخدمه الفلكيون والمنجمون يريدون به التوافقات التي تحدث بين الشمس والقمر والبروج.

٢ – أخرجه ابن ماجة (٤٢٣٦) والترمذي (٣٥٥٠) وابن حبان (٢٩٨٠) من حديث أبي هريرة بلفظ: «وأعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك».

الكثيرُ من ذلك بما أدركوا الجيلَ الأوَّلَ وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعةِ والحماية، فلا يسعهُم ترك ذلك بالكُلِّيَّةِ، وإن ذهبَ منه ما ذهبَ، ويكونون على رجاءٍ من مراجعةِ الأحوالِ التي كانت للجيلِ الأوَّلِ أو على ظنٍّ من وجودها فيهم.

وأمَّا الجيلُ الثَّالثُ: فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدونَ حلاوةَ[1] العزِّ والعَصَبيَّةِ بما هم فيه من ملكةِ القهر، ويبلغَ فيهم التَّرفُ غايته بما تبنقوهُ[2] منَ النَّعيمِ وغضارةِ العيشِ فيصيرون عيالاً على الدَّولةِ، ومن جُملَةِ النِّسَاء والولدان المحتاجين للمدافعةِ عنهم، وتسقطُ العَصَبيَّةُ بالجملةِ، وينسونَ الحمايةَ والمُدافعةَ والمُطالبَةَ ويُلبِّسُونَ على النَّاسِ في الشَّارَةِ والزِّيِّ ورُكُوْبِ الخَيْلِ وحُسنِ الثَّقَافَةِ يُمَوِّهونَ بها، وهم في الأكثر أجبنُ منَ النِّسْوَانِ على ظُهُورها. فإذا جاء المُطالبُ لهم لم يُقَاوموا مُدافعته، فيحتاجُ صاحبُ الدَّولةِ حينئذٍ إلى الاسْتظهارِ بسِواهم من أهلِ النَّجدةِ، ويستكثرُ بالموالي، ويصطنعُ من يُغني عن الدَّوْلَةِ بعضَ الْغنَاء، حتَّى يَتَأذَّنَ ا للهُ بانْقِراضها، فتذهبُ الدَّولة بما حَمَلَت.

فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها، يكونُ هرمُ الدَّولةِ وتخلُّفها، ولهذا كان انقراضُ الحَسَبِ في **الجيلِ الرَّابعِ**، كما مرَّ في أنَّ المجد والحسبَ، إنَّما هو أربعة[3] آباء. وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعيٍّ كافٍ ظاهر مبنيٍّ على ما مهَّدناهُ قبلُ منَ المُقدِّمات، فتأمَّلهُ فلن تعدُو وجه الحق، إن كنت من أهلِ الإنصافِ.

وهذه الأجيالُ الثَّلاثة: **عُمْرُها مئة وعشرون سنة على ما مرَّ**، ولا تعدو الدول في الغالبِ هذا العمرَ بتقريبٍ قبله أو بعده، إلا إن عرضَ لها عارضٌ آخر، من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلاً مستولياً، والطَّالب لم يحضرها، ولو قد جاء الطَّالبُ لما وجد مدافعاً: ﴿فإِذَا جَاء أَجَلُهم لاَ يَسْتَأخرونَ سَاعةً وَلاَ يَسْتَقْدِمون﴾[النحل: ٦١]. فهذا العمر للدَّولةِ بمثابة عمر الشَّخصِ من التَّزيّدِ إلى سنِّ الوُقُوفِ ثمَّ إلَى سِنِّ الرُّجوعِ.

ولهذا يجري على ألسنة النَّاسِ في المشهورِ **أنَّ عمر الدَّولةِ مئةَ سنةٍ**، وهذا معناه، فاعتبره واتخذ منه **قانوناً يصحح لك عدد الآباء في عمود النَّسَبِ**، الَّذي تريدهُ من قبلِ مَعْرِفةِ

---

١ -أي: يفقدون ما يلذ لهم كما يفقد الإنسان الشعور بحلاوة الطعام إذا فقد أدوات الإحساس.

٢ - أي: تقلبوا فيه من النعيم. وفي ن: (تَبَنَّقُوه) وفي ن: (تبنَّكوه). يقال: بنق بالمكان تبنيقاً وتبنك به: أقام.

٣ - في ن: في أربعة.

الْسِّنِينَ الماضِيَة، إذا كُنْتَ قد استربتَ في عددهم، وكانتِ السّنونَ الماضيةُ منذُ أوَّلهم محصَّلة لديك، فعد لكلٍّ مئة منَ السِّنينَ ثَلاَثة من الآباءِ [ظ٧٢/١]، فإن نَفِدَت[1] على هذا القياس مع نفوذ[2] عددهم فهو صحيح، وإن نقَصَت عنه بجيلٍ فقد غَلِطَ عددهم بزيادة واحد في عمود النَّسَبِ، وإن زادت بمثله فقد سَقَطَ واحدٌ، وكذلك تأخذُ عدد السِّنين من عددهم إذا كان محصَّلاً لديكَ فتأمَّلهُ تجدهُ في الغالبِ صحيحاً ﴿والله يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾[المزمل: ٢٠].

---

١ – نفِدَ نفاداً ونفداً: فني وذهب. وفي ظ: تعددت.

٢ – النفوذ: جواز الشيء عن الشيء والخلوص منه تقول: نفذتُ، أي: جزت. وفي المطبوعات: بالدال المهملة. ولا يوافقها المسموع من اللغة كما قال الدكتور وافي. ولعل ما أثبته هو الصواب والله أعلم.

١-٣-١٥- الْفَصْلُ الْخَامِسَ عَشَر
في انْتِقَال الدُّول من الْبَدَاوَةِ إلى الْحَضَارَةِ

اِعْلَمْ: أنَّ هذه الأطوار طبيعيَّةٌ لِلـدُّول، فـإنَّ الغلبَ الـذي يكـونُ بـه الملـكُ، إنَّمـا هـو بالعَصَبيَّةِ وبما يتبعها من شِدَّةِ الْبَأسِ وتعوُّدِ الافْتِرَاس، وَلاَ يكونُ ذلك غَالباً إلا مع البـداوةِ؛ فطورُ الدَّوْلَةِ من أوَّلها بداوةٌ، ثُمَّ إذا حصل الملكُ تبعهُ الرَّفه، واتِّساعُ الأحوال.

والحضارةُ: إنَّمـا هـيَ تفنـنٌ في الْتَّرَفِ وَإحْكَـامِ الْصَّنَائعِ[1]، الْمُسْتَعملةِ في وجوههـا ومذاهبه من الْمَطَابخِ والمَلاَبسِ والمباني والْفُـرشُ والأبنيـة، وسـائرِ عوائـد المَنْزِلِ وأحوالـهِ، فلكُلِّ واحدٍ منها صَنائعُ في اسْتِجَادَّته، وَالْتَّأنُّق فيه، تختصُّ به ويتلو بعضهـا بعضـاً، وتتكـثَّرُ باختلافِ ما تنزعُ إليه النُّفوسُ منَ الْشَّهواتِ والمَلاذِّ والتَّنَعُّمِ بأحوالِ التَّرَفِ، وما تتلـوَّنُ بـه من العوائد، فَصَارَ **طورُ الحَضَارةِ في الملك يتبعُ طورَ البَداوةِ ضَرورةً** لضرورة تبعيّة الرِّفْـهِ للمُلك.

وأهل الدُّوَلِ أبداً يُقَلِّدون في طور الحضارةِ وأحوالهـا للدولـةِ الْسَّابقةِ قبلهـم. فـأحوالهم يُشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون. ومثلُ هـذا وقـع للعـربِ لَمَّا كـان الفتـح، وملكـوا فـارسَ والـرُّومَ، واسـتخدموا بنـاتِهم وأبنـاءهم، و لم يكونـوا لذلـك العهـد في شـيءٍ مـن الحضارةِ؛ فقد حكيَ أنه قدِّم لهم المَرَقَّقُ[2]، فكانوا يحسبونه رِقاعاً، وعَثَروا على الكافورِ في خزائنِ كِسْرَى فاستعملوهُ في عجينهم مِلحاً، ومثالُ ذلك كثيرٌ[3].

فلمَّا استعبدوا أهل الدُّول قبلهم، واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم، واختـاروا منهم المَهَرَةَ في أمثالِ ذلك والقَوَمَةَ عليهـم، أفـادوهم عـلاج ذلـك، والقيـامَ علـى عملـهِ، والتَّفَنُّنَ فيه، مع ما حَصَلَ لهم من اتِّسَاعِ العَيْشِ والتَّفَنُّنِ في أحوالِه، فبلغـوا الغايـة في ذلـك وتطوَّروا بطور الحَضَـارةِ والـتَّرَفِ في الأحـوالِ، واسـتجادةِ المَطَـاعِمِ والمَشَـاربِ والملابـسِ والمَبَانِي والأسْلِحَةِ والفُرُشِ والآنيـةِ وسَـائرِ المـاعونِ والخُرثـيِّ[4] وكذلـك أحوالهـم في أيَّـامِ

---

١ - جمع صناعة.

٢ - المرقق: أي الخبز المرقق ويقـال له: رُقاق أي: الخبز الرقيق، الواحدة: رُقاقة. وقد ظنها الدكتـور: نوعـاً مـن النسيج.

٣ - في ن: وأمثال ذلك.

٤ - الخُرثي: أثاث البيت.

المُبَاهَاةِ والولائم، وليالي الإعْرَاسِ[١]، فأتوا من ذلك وراء الغاية. وانظر ما نقله المَسْعُودِيُّ والطَّبَرِيُّ وغيرهما في إعْرَاسِ المأمونِ ببورانَ بنتِ الحسنِ بنِ سَهْلٍ، وما بذلَ أبوها لحاشيةِ المأمونِ حينَ وافاهُ في خطبتها إلى دارِهِ، بفم الصُّلْحِ، وركبَ إليها في السَّفين، وما أنفقَ في إملاكها[٢]، وما نحلها المأمون، وأنفقَ في عرسها [ظ٢/٧٢]، تقفُ من ذلك على العَجَبِ.

فمنه: أنَّ الحسنَ بن سهل نثرَ يومَ الإملاكِ[٣] في الصَّنيعِ الَّذي حَضَرهُ حاشيةُ المأمون: فَنَثَرَ على **الطَّبقة الأولى** منهم بَنَادِقَ المِسْكِ ملثوثةً[٤] على الرِّقَاعِ بالضِّياعِ والعَقَارِ مُسَوَّغةً لمن حصلت في يده يقع لكل واحدٍ منهم ما أدَّاهُ إليه الاتِّفَاقُ والبَخْتُ[٥]. وفرَّقَ على **الطَّبَقَةِ الثَّانيةِ** بدرَ[٦] الدَّنَانِيْرِ، في كُلِّ بَدْرَة عشرة آلاف، وفرَّقَ على **الطَّبقةِ الثَّالثة** بِدَرَ الدَّراهمِ كذلك بعد أن أنفقَ على مُقَامةِ المأمون بدارِهِ أضعاف ذلك.

ومنه: أنَّ المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاةٍ منَ اليَاقوتِ، وأوقد شموعَ العَنْبَرِ في كلِ واحدٍ مئة مَنٍّ، وهو رِطْلٌ وثُلُثَان[٧]، وبَسَطَ لها فرشاً، كانَ الحصِيْرُ منها منْسُوجاً بالذَّهبِ مُكَلَّلاً بالدُّرِّ والياقوتِ، وقالَ المأمون حين رآه: قاتل الله أبَا نواسٍ، كأنه أبصر هذا حيث يقولُ في صفة الخمر:

كأنّ صُغْرَى وَكُبرى من فوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ على أرض منَ الذَّهبِ

وأعدَّ بدارِ الطَّبخ من الحَطَبِ، لِلَيْلَةِ الوليمَةِ نقل مِئةٍ وأربعينَ بغلاً مُدّة عام كاملٍ ثلاث مرَّاتٍ في كل يومٍ، وَفنِيَ الحطبُ لِلَيْلَتَيْنِ، وأوقدوا الجريد يَصُبُّون عليهِ الزَّيتَ، وأوعز إلى النَّواتِيَةِ[٨] بإحضارِ السُّفنِ لإجازة الخواصِّ من النّاسِ، بدجلة من بغداد إلى قُصُور الملكِ

---

١ - أي: ما نسميه الآن حفلات الزفاف.

٢ - الإملاك: وليمة العرس.

٣ - أي: وليمة الزواج.

٤ - اللث: الندى فكأنه قال: منداة. أي: أن العطر على الرقاع التي فيها تمليك العقارات، وإن كانت كما ذهب الدكتور وافي: ملتوتة بالتاء، فيريد ربط المسك بالرقاع، لأن اللت: الشد والإيثاق.

٥ - البخت: الحظ والنصيب.

٦ - جمع بدرة، وهي في الأصل عشرة آلاف درهم، ولكنه فرقها دنانير.

٧ - قوله: وثلثان: الذي في كتب اللغة: أنَّ المن رطل، وقيل: رطلان. ولم يوجد في النسخة التونسية: ثلثان.

٨ - النواتي: الملاحون في البحر، الواحد: نوتيٌّ.

بمدينة المأمون، لحضورِ الوليمةِ فكانت الحَرَّاقاتُ[١] المُعدَّةُ لذلك ثلاثينَ ألفاً، أجازوا النـاسَ فيها أخريات نهارهم. وكثير من هذا وأمثالِهِ.

وكذلك عِرْسُ المأمون بن ذي النون بِطُلَيْطِلَةَ. نقله ابنُ بَسَّامٍ في كتابِ الذَّخيرة[٢] وابـنُ حيَّان.

بعد أن كانوا كُلُّهم في الطّـوْرِ الأوَّلِ مـن الْبِـدَاوةِ عـاجزينَ عـن ذلـك جُملـة، لفقـدان أسبابه، والقائمين على صنائعه[٣] في غضاضتهم وسذاجتهم.

يذكر أنَّ الحجاج أَوْلَمَ في اختتان بعض ولـده فاستحضرَ بعـض الدَّهـاقين، يسـأله عـن ولائم الفُرسِ، وقال: أخبرني بأعظم صنيعٍ شهدته. فقال لـه: نعـم، أيُّهـا الأمـيرُ، شـهدتُ بعضَ مرازبَةِ كِسْرَى، وقد صنع لأهلِ فارسَ صَنيعـاً، أحضـرَ فيـه صحـاف الْذَّهـبِ على أخْوِنَةِ الْفِضَّةِ أربعاً على كل واحدٍ، وتحمله أربع وَصَائِفَ، ويجلسُ عليه أربعةٌ مـن النّـاسِ، فإذا طعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصَفائها. فقال الحجَّاج: يا غلام، انحر الجـزُر وأطعم النَّاسَ، وعلم أنه لا يستقلّ بهذه الأبهةِ. وكذلك كانت[٤].

ومن هذا الباب: أعطية بني أمية وجوائزهم، فإنمـا كـان أكثرهـا الإبـل أخـذاً بمذاهـب العربِ وبداوتهم، ثُمَّ كانتِ الجوائزُ في دولةِ بني العبَّاسِ والعُبيديينَ من بعدهـم مـا علمـت من أحمال المال وتخوتِ الثِيـابِ، وإعـدادِ الخيـلِ بمراكبهـا. وهكـذا كـان شـأن كتامـة مـع الأغالبة بأفريقيـة، وكـذا بـني طَغْـج بمصرَ، وشـأن لمتونـة مـع ملـوكِ الطوائـفِ بـالأندلس والموحدين كذلك [ظ٧٣/١]، وشأن[٥] زَنَاتةَ مع الموحدين. وهلُمَّ جراً.

الحضارة تنتقلُ من الدُّولِ الْسَالِفَةِ إلى الدُّول الخالفةِ، فانتقلت حضارة الفرسِ للعربِ بني أمية وبني العبَّاسِ، وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس، إلى ملـوكِ المغـرب مـن الموحديـن، وزناتَـةَ **لهـذا العهـد**، وانتقلـت حضـارة بـني العبـاس إلى الْدَّيْلَـمِ، ثُـمَّ إلى الـتُّركِ، ثُـمَّ إلى الْسَّلْجُوقية، ثُمَّ إلى الْتُّرْكِ المماليكِ بمصرَ والتترِ بالعراقين. وعلـى قـدرِ عظـم الدَّولـةِ يكـونُ شـأنها في الحضـارة، إذ **أمورُ الحضـارةِ مـن توابـعِ الْـترفِ، والـتَّرفُ مـن توابـعِ الـثَّروة**

---

١ - بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو. مختار.

٢ - الذخيرة (٤/١/٢٠٥-٢٠٦).

٣ - جمع صناعة.

٤ - في ن: كان.

٥ - في المطبوع: وكذلك شأن.

والنّعمة، والثّروة والنّعمةُ من توابعِ المُلْكِ ومقدارِ ما يستولي عليه أهل الدّولةِ، فعلى نسبة المُلْكِ يكونُ ذلك كله، فاعتبرهُ وتفهمه وتأمّله، تجدهُ صحيحاً في العُمرانِ، والله وارثُ الأرضِ ومن عليها، وهو خير الوارثين.

١-٣-١٦- الْفَصْلُ الْسَّادِسَ عَشَر
في أنَّ التَّرَف يزيد الدَّولة في أوَّلها قوة إلى قوتها

والْسَّبب في ذلك: أنَّ القبيلَ إذا حصلَ لهم الملك والتّرَفُ، كثر التَّناسلُ والولدُ والعموميَّةُ، فكثُرتِ العِصَابةُ، واستكثروا أيضاً من الموالي والصّنائعِ[1]، ورُبِّيَت أجيالهم في جوِّ ذلك النَّعيم والرّفه، فازدادوا به عدداً إلى عددهم، وقوة إلى قوتهم، بسبب كثرة العصائبِ حينئذٍ بكثرةِ العدد، فإذا ذهب الجيل الأول والثاني، وأخذتِ الدَّوْلَةُ في الهَرمِ، لم تَسْتَقِلَّ أولئك الصَّنائعُ والموالي بأنفسهم، في تأسيس الدَّولةِ وتمهيد مُلكها لأنَّهم ليس لهم من الأمر شيءٌ، إنما كانوا عِيالاً على أهلها ومعونةً لها، فإذا ذهبَ الأصلُ لم يستقِلَّ الْفَرعُ بالْرُّسوخِ، فيذهبُ ويتلاشى، ولا تبقى الدَّوْلَةُ على حالِهَا منَ الْقُوَّةِ.

واعتبر هذا بما وقعَ في الدَّولةِ العربيةِ في الإسلام، كان عدد العربِ كما قلنا لعهد النبوة والخلافة مئة وخمسين ألفاً وما يقاربها من مُضَر وقحطان، ولَمَّا بلغَ التّرَفُ مبالغَهُ في الدَّولةِ، وتوفَّر نموهم بتوفُّرِ النِّعمةِ واستكثر الخلفاءُ من الموالي والصَّنائعِ، بلغ ذلك العدد إلى أضعافه. يُقالُ: إنَّ المعتصمَ نازل عَمُّوريّة لما افتتحها في تِسْعِ مئة ألفٍ، ولا يبعدُ مثل هذا العدد أن يكون صحيحاً، إذا اعتبرت حاميتهم في الثُّغورِ الدّانيةِ والقاصِيةِ شرْقاً وغرباً، إلى الجند الحاملين سرير الملك والموالي والمُصْطنعين.

وقال المسعودي: أحصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصَّة أيام المأمون للإنفاق عليهم فكانوا ثلاثينَ ألفاً، بين ذُكران وإناث.

فانظر مبالغ هذا العدد لأقلِّ من مئتي سنة، واعلم أنّ سببه الْرِّفْهُ والنَّعيم الذي حصَلَ للدَّوْلةِ ورُبِّي فيه أجيالهم، وإلا فعَدَدُ العربِ لأوَّلِ الفتح لم يبلغْ هذا ولا قريباً منه. وا لله الخلاَّقُ العليمُ.

---

١ - جمع صنيعة، وهم من يصطفيه الرجل لنفسه.

١-٣-١٧- الْفصْلُ الْسَّابعَ عشَرَ
في أطْوَارِ الْدَّوْلَةِ واخْتِلاَفِ أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار

اعْلَم [ظ٢/٧٣]: أنَّ الدَّولة تنتقلُ في أطوار مختلفة وحالاتٍ متجددة، ويكتسبُ القائمون بها في كلِّ طَوْرٍ خُلُقاً من أحوالِ ذلك الطَّوْرِ لا يكونُ مثلهُ في الطَّوْرِ الآخر، لأنَّ الخلقَ تابعٌ بالطَّبعِ لمزاجِ الحالِ الذي هو فيه. وحالاتُ الدَّولةِ وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار:

الطَّوْرُ الأَوَّلُ: طورُ الظَّفَرِ بالْبُغْيَةِ، وغَلَبِ المُدَافِعِ وَالْمُمَانِعِ، والاسْتِيلاءِ على المُلكِ، وانتزاعهُ من أيدي الدَّولةِ السَّالفةِ قبلها. فيكونُ صاحبُ الدَّولةِ في هذا الطَّوْرِ أُسوة قومهِ في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة[1] والحماية، لا ينفردُ دونهم بشيءٍ؛ لأنَّ ذلك هو مُقتضى العَصَبيَّةِ التي وقعَ بها الغَلَبُ، وهي لم تزل بعدُ بحالها.

الطَّوْرُ الثَّاني: طوْرُ الاسْتِبْدَادِ على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التَّطاول للمُسَاهَمَةِ والمُشَاركة. ويكون صاحبُ الدَّولةِ في هذا الطَّور مَعنيّاً باصطناع الرِّجال، واتِّخاذِ الموالي والصَّنائع والاسْتِكْثَارِ من ذلك؛ لِجَدْعِ أُنوفِ أهلِ عَصَبيَّتهِ وعَشِيْرَتِه المقاسمين له في نسبهِ، الضَّاربينَ في المُلكِ بمثلِ سهمه، فهو يدافعهم عن الأمرِ، ويصدهم عن مَوَارِدِهِ، ويردهم على أعقابهم أن يخلُصُوا إليهِ[2]، حتَّى يُقِرَّ الأمرَ في نصابه، ويُفردَ أهل بيته بما يبْنِي من مجده، فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأوَّلونَ في طلبِ الأمرِ أو أشدَّ، لأنَّ الأوَّلينَ دافعوا الأجانب فكانَ ظُهراؤهُم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم؛ وهذا يُدافع الأقاربَ لا يُظاهرهُ على مدافعتهم إلا الأقلُّ من الأباعدِ، فيركب صَعباً منَ الأمر.

الطَّوْرُ الثَّالِثُ: طوْرُ الْفرَاغ والدَّعةِ لِتَحْصِيْلِ ثَمَراتِ المُلكِ مما تنزعُ طباع البشر إليه، من تحصيل المال وتخليد الآثار، وبُعد الصِّيْتِ، فيستفرِغُ وسعه في الجباية وضبطِ الدّخْلِ والخرجِ، وإحْصاءِ النَّفقَاتِ والقصدِ فيها، وتشييد المباني الحافلة، والمصانع العظيمة، والأمصار المتَّسعة، والهيَاكلِ المُرْتَفعة، وإجازة[3] الْوُفُوْدِ من أشْرَافِ الأمم ووجوهِ القبائل،

---

١ - الحوزة: بيضة الملك، والناحية.

٢ - يعني: يحول بينهم وبين الوصول إلى الحكم.

٣ - منحها الجوائز والهدايا.

وبث المعروف في أهله؛ هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاهِ واعتراضِ[١] جنوده، وإدرار أرزاقهم وإنصافهم في أعطياتهم لكلِّ هلال، حتّى يظهرَ أثرُ ذلك عليهم في ملابسهم وشِكَّتهم[٢]، وشاراتهم يوم الزِّينةِ، فيباهي بهم الدولَ الْمُسالمة، ويرهبُ الدُّولَ المحاربة.

وهذا الطَّوْرُ آخرُ أطْوَارِ الاستبداد من أصحابِ الدَّوْلَةِ، لأنهم في هذه الأطوارِ كلِّها مستقلُّونَ بآرائهم، بانون لعزِّهم، موَضحون الطُّرقَ لمن بَعْدَهم.

الطَّورُ الرَّابعُ: طورُ الْقُنُوعِ وَالْمُسَالَمَةِ. ويكونُ صَاحبُ الدَّوْلَةِ في هذا قانعاً بما بنى أوَّلوهُ، سِلْماً لأنظاره من الْمُلُوكِ وأقتاله[٣][ظ٧٤/١]، مقلِّداً للماضينَ من سَلَفِهِ، فيتبع آثارهم حذو النَّعل بالنَّعل، ويقتفي طُرقهم بأحسنِ مناهجِ الاقتداءِ، ويرى أنَّ في الخروجِ عن تقليدهم فساد أمره، وأنَّهم أبصرُ بما بنوا من مجده.

الطَّوْرُ الخَامِسُ: طورُ الإسْرَافِ والتَّبذير، ويكونُ صاحب الدَّولةِ في هذا الطَّورِ متلِفاً لما جمع أَوَّلوهُ في سبيل الشَّهواتِ والمَلاذِّ، والكَرمِ على بطَانته وفي مجالسه، واصْطناعِ أخدانِ السُّوءِ وخضراء[٤] الدِّمَنِ، وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستقلُّون بحملها، ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسداً لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفِهِ، حتى يضْطَغنوا[٥] عليه، ويتخاذلوا عن نصرته، مُضيِّعاً من جندهِ بما أنفقَ من أَعْطِياتهم في شهواته، وحَجَبَ عنهم وجه مباشرته وتفقده. فيكون مخرِّباً لما كان سلفهُ يؤسِّسون، وهادماً لما كانوا يبنون.

وفي هذا الطَّوْرِ تحصلُ في الدَّولةِ طبيعةُ الهرمِ، ويستولي عليها المرضُ المزمن الذي لا تكادُ تخلصُ منه، ولا يكون لها معه برءٌ إلى أن تنقرض، كما نبيِّنهُ في الأحوَالِ التي نَسرِدُها. وا لله خير الوارثين.

---

١ – يعني: عرضهم وتفقد أحوالهم وإن كان اللفظ هنا لا يفيده.

٢ – الشكة: السلاح. وفي ن: (شُكبهم). أي: عطاءهم وجزاءهم.

٣ – جمع قِتل، وهو العدو والمقاتل، والمثل.

٤ – أي: أصحاب المظاهر الخادعة من ذوي المنابت السيئة.

٥ – يطوون قلوبهم على الضغينة.

١-٣-١٨- الفَصْلُ الْثَّامنَ عَشَر
في أنَّ آثَار الدَّوْلَةِ كلِّها على نسبة قوتها في أصلها

والْسَّبَبُ في ذلك: أنَّ الآثَارَ إنَّما تحدث عن القُوَّة التي بها كانت أوّلاً، وعلى قدرها يكون الأثرُ. فمن ذلك مباني الدَّولةِ وهياكلها العظيمة، فإنما تكونُ على نسبة قوَّةِ الدَّولةِ في أصْلِهَا؛ لأنَّها لا تتمُّ إلا بكثرةِ الفَعَلَةِ، واجتماعِ الأيدي على العملِ بالتَّعاونِ فيه. فإذا كانت الدَّولةُ عَظيمة فَسِيحةَ الجوانبِ، كثيرةَ الممالك والرَّعايا، كان الفعلة كثيرين جدّاً، وحشروا من آفاقِ الدَّولةِ وأقطارها، فتمَّ العملُ على أعظم هياكله.

ألا ترى إلى مصانع قومِ عاد وثمود، وما قَصَّه القرآن عنهما؟ وانظر بالمشاهدةِ إيوانَ كِسْرَى، وما اقتدرَ فيه الفُرسُ، حتى إنَّهُ عَزَمَ الْرَّشِيدُ على هدْمِهِ وتخريبِهِ، فتكاءدَ[1] عنه، وشرعَ فيه، ثم أدركه العجزُ. وقصَّة استشارَته ليحيى بن خالد في شأنه معروفةٌ. فانظر كيفَ تقتدرُ دولةٌ على بناءٍ لا تستطيعُ أخرى على هدمه - مع بون ما بين الهدمِ والبناءِ في السُّهولة - تعرف من ذلكً بون ما بينَ الدَّولتين.

وانظر إلى بلاط الوليد بدمشقَ، وجامع بني أمية بقُرطبة، والقنطرة التي على واديها، وكذلك بناءُ الحنايا لجلبِ الماءِ إلى قَرْطَاجَنَّةَ في القناة الرَّاكبة عليها، وآثارِ شَرْشَالَ بالمغربِ، والأهرام بمصر، وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان، يُعلمُ منه اختلافُ الدُّول في الْقُوَّةِ والْضَّعف.

واعلم أنَّ تلكَ الأفعال للأقدمين إنَّما كانت بالهندَام[2] واجتماعِ الفعلة وكثرة الأيدي عليها، فبذلك شيِّدت تلك الهَيَاكل والمصانع، ولا تتوهَّم ما يتوهَّمهُ العامَّةُ أنَّ ذلك لعظمِ أجسامِ [ظ٢/٧٤] الأقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها؛ فليسَ بينَ البشرِ في ذلك كبيرُ بون. كما نجد بين الهَيَاكلِ والآثَارِ.

ولقد وَلَّعَ القُصَّاص بذلك وتغالوا فيه، وسطَّروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك أخباراً عريقةً في الكذب، من أغربها ما يحكون عن عُوجِ بن عناق[3] رجلٍ من العمالقةِ الَّذين قاتلهم بنو إسرائيل في الشَّامِ، زعموا أنَّه كان لطولِهِ يتناول السَّمكَ من البحرِ، ويشويه إلى

---

١ - أي: أعجزه وشق عليه.

٢ - أي: النظام وإعمال العقل وحسن الإدارة.

٣ - الذي في القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على ألسنة الناس: عنق بالنون. وللإمام السيوطي رسالة في أخباره سماها: الأوج في خبر عوج.

الشَّمسِ. ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشرِ، الجهل بأحوال الكواكب، لما اعتقدوا أنَّ للشَّمسِ حرارةً[١]، وأنها شديدة فيما قرب منهـا، ولا يعلمـون أنَّ الحرَّ هـو الضوء، وأنَّ الضَّوء فيما قربَ من الأرض أكثرُ، لانعكاسِ الأشِعَّةِ من سطحِ الأرضِ، بمقابلـة الأضـواء، فتتضاعفُ الحرارة هنـا لأجلِ ذلـك، وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة، فـلا حـرَّ هنالك، بل يكون فيه البرد، حيث مجاري السَّحابِ، وأنَّ الشَّمسَ في نفسـها لا حـارَّةٌ ولا باردةٌ، وإنَّما هي جسمٌ بسيطٌ مضيءٌ، لا مِزَاجَ له.

وكذلك عوجُ بنُ عِناق ـ هو فيما ذكروه ـ من العمالقةِ، أو من الكنعَانِيِّين الَّذِين كـانوا فريسةَ بني إسرائيلَ عند فتحهم الشَّام، وأطوالُ بني إسرائيلِ وجسمانهم لذلك العهد قريبـةٌ من هياكلنا. يشهد لذلك أبوابُ بيتِ المقدسِ، فإنها وإن خُرِّبت وجدِّدت لم تزل المحافظـة على أشكالها ومقادير أبوابها، وكيفَ يكونُ التَّفاوت بـين عـوج وبـين أهـل عصره بهـذا المقدارِ. وإنما مثارُ غلطهم في هذا أنهم استعظموا آثار الأمـم، ولم يفهمـوا حـالَ الـدُّولِ في الاجتماع والتَّعاونِ، ومـا يحصل بذلـك وبـالهندام مـن الآثـارِ العظيمـة، فصرفـوه إلى قـوة الأجسامِ وشدتها بعظم هياكلها، وليسَ الأمرُ كذلك.

وقد زعم **المسعوديُّ** ـ ونقله عن الفَلاَسِفَة ـ مزعماً لا مُستندَ له إلا التحكم، وهـو: أنَّ الطبيعةَ التي هي جبِلَّةٌ للأجسامِ، لَّما برأ الله الخلقَ، كانت في تمام الكَرَّة[٢]، ونهاية القُوَّة والكمالِ، وكانت الأعمار أطولَ الأجسام أقوى، لكمالِ تلك الطَّبيعة، فإنَّ طـروءَ المـوتِ إنَّما هو بانحلالِ القوى الطبيعية. فإذا كانت قويَّة، كانت الأعمـار أزيـد، فكـان العـالم في أولية نشأته تامَ الأعمار كاملَ الأجسام. ثُمَّ لم يزل يتناقصُ لنقصان المـادَّةِ، إلى أن بلغَ إلى هذه الحالِ التي هو عليها. ثُمَّ لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العلم.

وهذا رأي لا وجه له إلا التَّحكم كما تراه. وليس له عِلَّةٌ طَبِيعيَّـةٌ، ولا سـبب برهـانيٌّ، ونحنُ نُشَاهد مسَاكنَ الأوَّلين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهيـاكل والدِّيـار

---

١ – ما يذهب إليه يناقض ما يجمع العلماء عليه من وجـود حـرارة هائلـة في الشَّمس نفسـها، أمـا تقريـره مـن تناقص درجات الحرارة بالارتفاع عن سطح الأرض فصحيح. إلى ارتفاع ثماني كيلو متراً، ثم تبدأ الحرارة بالارتفاع. وما ذهب إليه هو خلاصة العلوم التي في عصره بما يتعلق بالمحيط الكوني فليس لنا الاعتراض عليه من هذا الباب.

٢ – أي: القوة، ومتانة التكوين. والكرة: البعث وتجديد الخلق بعد الفناء. وقـد صحـح الدكتـور وافي إلى المِرَّة وهي القوة، وذهب إلى أنه لا يوجد معنى يتلاءم مع العبارة وذلك ـ والله أعلم ـ لعدم اطلاعه على ما ذكره الزبيدي في استدراكه في شرح القاموس.

والمَسَاكن، كديار ثمودَ المنحوتة في الصَّلد من الصَّخر بيوتاً صغاراً، وأبوابها ضَيِّقة [ظ٧٥/١]. وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أنَّها ديارهم، ونهى عن استعمال مياههم، وطرحَ ما عجنَ به، وأُهْرِقَ[١] وقال: «**لاَ تَدْخُلُوا مساكنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم إلاَّ أَنْ تَكُونوا باكِيْنَ أَنْ يُصِيْبَكُم مَا أَصَابهُم**»[٢]. وكذلك أرضُ عادٍ ومصرَ، والْشَّامَ، وسائر بقاعِ الأرضِ شرقاً وغرباً. والحقُّ ما قَرَّرْنَاهُ.

ومن آثار الدُوَل أيضاً: حالها في الأعراسِ والولائمِ، كمَا ذكرناهُ في وليمة بُوْرَان[٣]، وصنيع الحَجَّاج، وابنِ ذِي النُّون، وقد مر ذلك كله.

ومن آثارها أيضاً: عَطَايَا الدُّول، وأنَّها تكونُ على نسبتها، ويظهرُ ذلك فيها ولو أشْرَفَتْ على الْهَرَمِ، فإنَّ الهِممَ التي لأهل الْدَّولةِ تكونُ على نسبة قوَّةِ مُلكهم وغلبهم للنَّاسِ، والهمم لا تزال مُصَاحبة لهم إلى انقراض الدولةِ، واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش، كيفَ أعطاهم من أرطالِ الذَّهبِ والفِضَّةِ والأعبُدِ والوَصَائفِ[٤] عَشْراً عَشْراً، ومن كَرِشِ[٥] العَنْبَرِ واحدةً، وأضعفَ ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب؛ وإنَّما ملكه يومئذ قرارةُ اليمن خاصَّةً تحت استبداد فارسَ، وإنما حمله على ذلك همَّة نفسه بما كان لقومه التَّبابعة من المُلْكِ في الأرضِ والغلب على الأمم في العراقين والهند والمغرب[٦].

وكان الصَّنْهَاجيُّونَ بأفْريقيَّةَ أيضاً إذا أجازوا الوفد من أمراء زَنَاتَةَ الوافدين عليهم، فإنما يعطونهم المالَ أحمالاً، والكَساء تخوتاً[٧] مملوءة، والحُمْلاَن نجائب[٨] عديدة. وفي تاريخ الرقيق[٩] من ذلك أخبارٌ كثيرةٌ.

---

١ – أي: صبه وأراقه. أخرجه البخاري (٣٣٧٨) و(٣٣٧٩) ومسلم (٢٩٨١) وابن حبان (٦٢٠٢) من حديث ابن عمر.

٢ – أخرجه البخاري (٤٣٣ و٣٣٨٠ و٣٣٨١ و٤٤١٩ و٤٤٢٠ و٤٧٠٢) ومسلم (٢٩٨٠) وابن حبان (٦١٩٩ و٦٢٠٠ و٦٢٠١ و٦٢٠٣) من حديث ابن عمر.

٣ – بنت الحسن عند زفافها إلى المأمون.

٤ – العبيد. والوصائف جمع وصيفة وهي الجارية تؤهلها ميزاتها لمصاحبة عقيلات الملوك والخدمة في بيوت ذوي الجاه واليسار.

٥ – الكرش: الوعاء.

٦ – يأتي إنكار ابن خلدون أن يكون للتبابعة ملك المغرب والهند. فلعله ذكره هنا من باب الحكاية بدون تدقيق في معانيها. والله أعلم.

٧ – التخوت جمع تخت وهو ما تصان فيها الثِّياب من أوعية أو صناديق.

وكذلك كان عطاءُ البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم، وكانوا إذا كسبوا معدماً، فإنما هو الولاية والنِّعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفذهُ يوم أو بعض يوم. وأخبارهم في ذلك كثيرةٌ مسطورةٌ وهي كلها على نسبة الدُّوَلِ جاريةٌ.

هذا جوهرُ الصِّقلي الكاتبُ، قائد جيشِ العبيديين لما ارتحل إلى فتح مصرَ، استعدَّ من القيروان بألفِ حملٍ من المالِ، ولا تنتهي اليومَ دولةٌ إلى مثل هذا.

وكذلك وجد بخط أحمد بن محمّد بن عبد الحميد عملٌ بما يُحمل إلى بيتِ المالِ ببغداد، أيَّام المأمون من جميع النَّواحي نقلته من جراب الدَّولة:

غَلاَّتُ السَّوادِ: سبعٌ وعشرون ألفَ ألفِ درهمٍ مرَّتين، وثمان مئة ألف درهمٍ، ومن الحلَلِ النَّجْرَانِيَّةِ[1] مئتا حُلَّةٍ، ومن طين الختم مئتان وأربعون رطلاً.

كِنْكَر[2]: أحد عشر ألف ألفِ درهم مرَّتين، وستٌّ مئة ألف درهمٍ.

كوردجلة: عِشْرون ألفَ ألفِ درهمٍ وثمانية دراهم.

حُلْوانُ: أَرْبَعَةُ آلافِ ألفِ درهمٍ مرَّتين، وثمان مئة ألف درهم [ظ٧٥/٢].

الأهواز: خَمسةٌ وعشرون ألفَ درهمٍ مرّةً، ومن السُّكر ثَلاَثون ألف رطلٍ.

فارس: سَبعةٌ وعشرون ألفَ ألفِ درهم، ومن ماءِ الْوَرْدِ ثلاثون ألف قارورة، ومن الزَّيت الأسودِ عِشْرُونَ ألف رَطْلٍ[3].

كَرْمَان: أَرْبَعَةُ آلافِ ألفِ درهمٍ مَرَّتين وَمِئَتا ألفِ درهمٍ، ومن المتاع اليمَانِيّ خَمس مئةِ ثَوبٍ، ومن التَّمرِ عشرون ألفَ رطلٍ.

مُكْرَان: أرْبَعُ مئة ألف درهمٍ مرَّةً.

السِّنْدُ وَمَا يَلِيْه: أحد عشر ألف ألفِ درهمٍ مرَّتين، وخمس مئة ألف درهم، ومن العود الهِندي مئة وخمسون رِطلاً.

---

٨ – الحملان: ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة. والنجائب: جمع نجيب ونجيبة وهي الناقة الحسنة. ولا أدري هل يمكن أن يكون أراد بقوله: جنائب. جمع جنوب أي: الريح حيث قال الأصمعي: إذا جاءت الجنوب جاء معها خير وتلقيح. وتقول العرب للاثنين إذا كانا متصافيين: ريحهما جنوب.

٩ – في النسخ: ابن الرفيق. خطأ. انظر تصحيحه في أول المقدمة.

١ – نسبة إلى نجران. اسم بلد كانت تعرف بتجويد صناعة النسيج.

٢ – كِنكَور: بليدة بين هَمَدان وقرمسين. وقلعة قرب جزيرة ابن عمر معجم البلدان (٤٨٤/٤). وذكره ياقوت أيضاً: كَنْكَار، ولم يحدد موقعها.

٣ – الرطل بكسر الراء ويفتح: اثنتا عشرة أوقية، والأوقية: أربعون درهماً.

سِجستان: أَرْبَعَةُ آلافِ ألفِ درهم مرَّتين، ومن الثِّيابِ الْمُعَينة ثلاث مئةِ ثوبٍ، ومن الفانيذ[١] عشْرُونَ رَطلاً.

خُراسان: ثَمَانية وعشرون ألفَ ألفِ درهمٍ مرَّتين، ومن نُقَرِ الفِضَّةِ ألفا نُقْرَةٍ، ومنَ الْبَراذِينِ أُربعةُ آلافٍ، ومن الرقيقِ ألف رأسٍ، ومن المتاعِ عشرون ألف ثوبٍ، ومن الإِهْلِيْلَجِ[٢] ثَلاَثون ألف رطل.

جُرجان: اثْنا عشر ألف ألفِ درهمٍ مرَّتين، ومن الإبريسم[٣] ألف شُقَّة.

قَوْمس: ألف ألفٍ مَرَّتين وخمس مئة من نقرِ الفضة.

طبرستان والرُّبان ونهاوند: ستَّة آلافِ ألفِ درهم مرتين، وثلاث مئة ألف، ومن الفرشِ الطَّبريِّ ست مئة قطعةٍ، ومنَ الأكسيةِ مئتان، ومن الثِّياب خمس مئة ثوب، ومن المناديل ثلاث مئة، ومن الجَاماتِ ثلاث مئة.

الرَّي: اثنا عشر ألفَ ألفِ درهمٍ مرَّتين، ومن العسلِ عشرون ألف رطلٍ.

هَمَدان: أحد عشر ألف ألف درهمٍ مرتين، وثلاث مئة ألف، ومن رُبِّ الرُّمان ألف رطلٍ، ومن العسل اثنا عشر ألف رطل.

ما بين البصرة والكوفة: عشرة آلاف ألف درهم مرتين، وسبع مئة ألف درهم.

مَاسَبذان والدينار[٤]: أربعةُ آلافِ ألفِ درهم مرَّتين.

شهرزور: ستَّةُ آلافِ ألفِ درهمٍ مرَّتين، وسبع مئة ألف درهم.

الموصل وما يليها: أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرَّتين، ومن العسل الأبيضِ عشرون ألف ألفِ رطلٍ.

أذربيجان: أربعة آلافِ ألفِ درهم مرَّتين.

الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات: أربعةٌ وثلاثون ألف ألفِ درهمٍ مرَّتين، ومن الرَّقيق ألف رأس، ومن العسلِ اثنا عشر ألف زقٍّ، ومن البُزَاة[٥] عشرة، ومن الأكسية عشرون.

---

١ - أي: ضرب من الحلوى.

٢ - ثمر.

٣ - أي: الحرير.

٤ - علق الهوريني بقوله: والدينار والظاهر أنها الدينور. وفي الترجمة التركية ماسنداان وربان. اهـ.

أرْمينية: ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرَّتين، ومن البَسْطِ[1] المحفورِ عشرون، ومن الزَّقمِ[2] خمس مئة وثلاثون رطلاً، ومن المسايجِ السُّورِماهي[3] عشرةُ آلافِ رطلٍ، ومن الصُّونَجِ[4] عشرة آلافِ رطلٍ، ومن البغال مئتان، ومن المهرةِ ثَلاَثون.

قنّسرين: أرْبَعُ مئة ألف دينار، ومن الزَّيْتِ ألف حملٍ.

دمشق: أرْبَعُ مئة ألف دينارٍ وعشرون ألف دينارٍ.

الأردن: سبعةٌ وتسعون ألفَ دينار.

فَلَسطين: ثَلاَث مئة ألف دينارٍ وعشرة آلافِ [ظ٧٦/١] دِيْنَارٍ، ومن الزَّبيب[5] ثلاث مئة ألف رطلٍ.

مصر: ألفُ ألفِ دينارٍ وتسع مئةِ ألف دينارٍ وعشرون ألف دينار.

برقة: ألفُ ألفِ درهمٍ مرَّتين.

أفريقية: ثلاثة عشر ألفَ ألفِ درهمٍ مرَّتين، ومن البسطِ[6] مئةً وعشرون.

اليمن: ثلاث مئة ألف دينارٍ وسبعونَ ألفَ دينارٍ سوى المتاعِ.

الحجاز: ثلاث مئةِ ألفِ دينارٍ . انتهى.

وأمَّا الأندلس: فالذي ذكره الثِّقَاتُ من مؤرخيها، أنَّ عبد الرحمن النَّاصرَ، خلَّفَ في بيوت أمواله خمسة آلافِ ألفِ دينارٍ مكرَّرةً ثلاث مرَّاتٍ، تكونُ جملتها بالقناطير خمس مئة ألفِ قنطارٍ. ورأيت في بعض تواريخ الرَّشيد: أنَّ المحمول إلى بيت المالِ في أيَّامه، سبعة آلافِ قِنطار،وخمس مئة قنطارٍ في كل سنة.

فاعتبر ذلك في نسب الدُّولِ بعضها من بعضٍ، ولا تُنْكرنَّ ما ليس بمعهودٍ عندكَ ولا في عصرك شيءٌ من أمثالِهِ، فتضيقَ حَوْصلتُك عند ملتقط الممكنات. فكثيرٌ من الخواصِّ إذا

---

٥ – علق الهوريني بقوله: «ومن البزاة... الخ» في الترجمة التركية: ومن السكر عشرة صناديق. والبزاة: جمع بازٍ، وهو نوع من الصقور.

١ – أي: عود هندي وعربي يتداوى به. وفي ن: القسط.

٢ – الزقم: أكل الزقوم، وهو طعام لأهل أفريقية فيه زبدٌ وتمر. فكأنه استعمل الفعل مكان المفعول.

٣ – المسايح: ؟

٤ – الصونج: لعلها تحرفت عن الصَّوبج، وهو الذي يُخبز به، وهو شيء من خشبٍ يبسطُ به الخبازون الجَرْدق.

٥ – في المطبوع: الزيت.

٦ – جمع بساط، ويروى القسط كما تقدم.

سمعوا أمثالَ هذه الأخبارِ عن الدُّولِ السَّالفة بادر الإنكار، وليس ذلك من الصَّوابِ، فإنّ أحوال الوجود والعمران متفاوتةٌ،ومَن أدركَ منها رُتبةً سُفلى أو وُسطى، فلا يحصُرُ المدارك كُلَّها فيها.

ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العبَّاسِ، وبني أمية، والعُبَيْديين، وناسَبنا الصَّحيح من ذلك، والذي لا شكَّ فيه، بالذي نُشاهده من هذه الدول التي هي أقلُّ بالنّسبة إلينا وجدنا بيننا بوناً، وهو لما بينها من التَّفاوت في أصل قوتها وعُمران ممالكها؛ فالآثارُ كلها جارية على نسبة الأصل في القُوَّة كما قدمناه؛ ولا يَسَعنا إنكارُ ذلك عنها، إذ كثيرٌ من هذه الأحوالِ في غايةِ الشُّهرةِ والوضوحِ، بل فيها ما يلحقُ بالمستفيضِ والمتواتر، وفيها المُعاين والمشاهدُ من آثارِ البناءِ وغيرِهِ، فخذ من الأحوالِ المنقولةِ مراتبَ الدُّولِ في قوتها أو ضعفها، وضخامتها أو صغرها.

واعتبر ذلك بما نقصُّه عليه من هذه الحكاية المستظرفه. وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنانٍ من ملوكِ بني مرين رجلٌ من مشيخة طنجة يعرف **بابنِ بطُّوطة**[1] كان رحلَ منذُ عشرينَ سنة قبلها إلى المشرق، وتقلَّب في بلاد العراق واليمنِ والهند، ودخل مدينةَ دِهْلي حاضرة ملك الهندِ، وهو السُّلطان محمّد شاه، واتَّصَل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه مكانٌ واستعمله في خُطَّةِ القضاء، بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلبَ إلى المغرب واتَّصَلَ بالسُّلطان أبي عِنان، وكان يحدِّثُ عن شأن رحلته، وما رأى من العجائبِ بممالكِ الأرضِ. وأكثر ما كان يحدِّث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السَّامعون، مثل: أنَّ ملكَ الهند إذا خرج للْسَّفَرِ[2] أحصى أهل مدينته من الْرِّجال [ظ٢/٧٦] وَالنِّساء والولدان، وفرض لهم رزقَ ستَّةِ أشهر، تدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفرِهِ، يدخلُ في يومِ مشهودٍ يبرزُ فيه النَّاس كافَّةً إلى صحراء البلدِ، ويطوفون به، ينصبُ أمامه في ذلك الحفلِ منجنيقاتٌ[3] على الظهر، ترمى بها

---

١ – قال الهوريني: كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهاؤها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرها ٧ كراريس.
٢ – في المطبوع: إلى السفر.
٣ – هي في الأصل آلة حربية تستخدم كالمدافع في قذف العدو. واستخدمت هنا في رمي الدراهم والدنانير.

شكائر[1] الدَّراهم والدَّنانير على النَّاسِ، إلى أن يدخُل إيوانه. وأمثال هذه الحكايات فتناجى النَّاسَ بتكذيبه.

ولقيتُ أيّامئذٍ وزير السُّلطان فارسَ بنَ وردار البعيد الصَّيتِ، ففاوضته في هذا الشَّأن، وأريته إنكار أخبارِ ذلك الرَّجلِ لما استفاض في النَّاسِ من تكذيبه، فقال لي الوزير فارسٌ: إيَّاكَ أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدُّول، بما أنَّكَ لم تره، فتكون كابنِ الوزير النَّاشىء في السِّجنِ. وذلك أنَّ وزيراً اعتقلهُ سلطانهُ ومكثَ في السِّجنِ سنينَ رُبِّي فيها ابنهُ في ذلك المحبس. فلمَّا أدركَ وعقل، سأل عن اللُّحمانِ التي كان يتغذَّى بها[2] فقال له أبوه: هذا لحم الغنمِ. فقال: وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونُعُوتها فيقول: يا أبتِ تراها مثل الفارِ، فينكر عليه ويقولُ: أينَ الغنم من الفأرِ؟ وكذا في لَحْمِ الإبلِ والبقرِ، إذ لم يُعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر، فيحسبها كلها أبناءَ جنسِ الفأرِ، ولهذا كثيراً ما يعتري النَّاسَ في الأخبارِ كما يعتريهم الوسواسُ في الزِّيادة عند قصدِ الإغرابِ كما قدَّمناه أوَّل الكتاب.

فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكُن مهيمناً على نفسه، ومميّزاً بين طبيعة **الممكنِ والممتنعِ** بصريح عقلِهِ، ومستقيم فطرته؛ فما دخل في نطاق الإمكان قبله، وما خرجَ عنه رفضهُ، وليسَ مُرادنا **الإمكان العقليّ المطلَقَ**، فإن نطاقهُ أوسعُ شيء، فلا يفرضُ حدّاً بين الواقعاتِ؛ وإنما مُرادنا **الإمكان بحسبِ المادَّةِ** التي للشَّيء، **فإنا إذاً نظرنا أصل الشيء وجنسهُ وصنفه ومقدارَ عظمهِ وقوَّته، أجرينا الحكمَ من نسبةِ ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه.** ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[طه: ١١٤]. ﴿وأنت أرحم الرَّاحمين﴾ [الأعراف: ١٥١، الأنبياء:٨٣]، والله – سبحانه وتعالى – أعلم.

---

١ – الشكائر: النواصي، فكأنه قال: يلقى إليهم خيرة الدراهم والدنانير لأن الناصية أعلى شيء ومقدمه.

٢ – في ن: اللحم الذي كان يتغذى به.

١-٣-١٩- الْفَصْلُ التَّاسِعَ عَشَر

في اسْتِظْهَارِ صاحبِ الدَّولةِ على قومهِ وأهْلِ عَصَبِيَّته بالموالي والمصطنعين

اعلم: أنَّ صاحبَ الدَّولةِ، إنَّما يتمُّ أمرهُ - كما قلناهُ - بقومه، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه، وبهم يُقارعُ الخوارجَ على دولته، ومنهم يُقَلِّدُ أعمالَ مملكته ووزارةَ دولتهِ وجبايةَ أمواله، لأنَّهم أعوانه على الغَلَبِ، وشركاؤهُ في الأمر، ومساهموه في سائرِ مهمَّاته. هذا ما دام الطَّورُ الأوَّلُ للدَّوْلَةِ كما قلناهُ[1].

فإذا جاء الطَّورُ التَّالي[2]، وظهر الاستبدادُ عنهم والانفرادُ بالمجد، ودافعهم عنه بالمِرَاحِ[3]، صاروا في حقيقةِ الأمر من بعض أعدائه، واحتاج - في مدافعتهم عن الأمر، وصدِّهم عن المشاركة - إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم، فيكونون[4] [ظ٧٧/١] أقرب إليه من سائرهم، وأخصَّ به قرباً واصطناعاً، وأولى إيثاراً وجاهاً، لما أنَّهم يستميتونَ دونه في مدافعة قومه عن الأمرِ الذي كان لهم، والرُّتبةُ التي ألفوها في مشاركتهم، فيستخلصهم صاحب الدَّولة حينئذ، وَيَخصُّهُم بمزيدِ التَّكرمةِ والإيثارِ، ويقسمُ لهُم مثل ما للكثيرِ من قومهِ، ويقلِّدهم جليلَ الأعمالِ والولاياتِ، من الوزارةِ والقيادةِ والجبايَةِ، وما يختصُّ به لنفسه، وتكون خالصةً له دون قومه من ألقابِ المملكة؛ لأنَّهم حينئذٍ أولياؤه الأقربون، ونصحاؤه المخلصون. وذلك حينئذٍ مؤذنٌ باهتضام الدَّولةِ، وعلامةٌ على المرض المزمن فيها لفساد العَصَبيَّةِ التي كان بناء الغلبِ عليها، ومرض قلوب أهلِ الدَّولةِ حينئذٍ من الامتهان، وعداوةِ السُّلطان، فيضطغنون[5] عليه، ويتربصون به الدوائر، ويعود وبالُ ذلك على الدَّولة، ولا يطمع في برئها من هذا الدَّاءِ؛ لأنَّ ما مضى يتأكَّدُ في الأعقابِ إلى أن يذهبَ رسمها.

واعتبر ذلك في **دولةِ بني أمية**، كيف كانوا إنَّما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم برجال العربِ، مثل عمر بن سعد بن أبي وقَّاص، وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان، والحجاج بن يوسف، والمهلَّب بن أبي صفرة، وخالد بن عبد الله القسريِّ، وابن هبيرة،

---

١ - انظر الفصل السابع عشر من هذا الباب وعنوانه: فصل في أطوار الدّولة.

٢ - في ن: (الثاني).

٣ - في ن: (بالراح). والمراح: الأشر، والبطرُ، والاختيال، والتبختر.

٤ - في ظ: فيكون.

٥ - أي: يحملون له الضغينة والحقد.

وموسى بن نصير، وبلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري، ونضر بن سيّار وأمثالهم من رجالاتِ العرب.

وكذا صدرٌ من **دولة بني العبَّاسِ** كان الاستظهار فيها أيضاً برجالاتِ العربِ. فلمَّا صارت الدَّوْلَةُ للانفرادِ بالمجد، وكبحِ العربِ عن التَّطاولِ للولاياتِ، صارت الوزارةُ للعجم والصَّنائع من البرامكة، وبني سهل بن نُوبَخْتَ، وبني طاهرٍ، ثمَّ بني بُوَيه، وموالي التُّرْكِ مثل: بُغَا، وَوَصِيْفٍ، وأتَامِش[1]، وَبَاكِبَاكَ[2]، وابنِ طولون، وأبنائهم، وغير هؤلاءِ من موالي العجم، فتكون الدَّولةُ لغيرِ مَنْ مَهَّدها، والعزُّ لغير من اجتلبه، سُنَّة الله في عباده. والله تعالى أعلم.

---

١ - يرد الاسم في تاريخ الطبري: أتامش، وأوتامش. انظر أخباره (٩/٢٢٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٣، ٣٤٥، ٣٥٦).

٢ - يقال له: باكباك، وبايكباك. انظر تاريخ الطبري (الفهارس). وفي النسخ: باكناك.

١-٣-٢٠- الْفَصْلُ العشرون
في أحوالِ الموالي وَالْمُصْطَنِعِينَ في الدُّول

اِعْلَمْ: أنَّ المصطنعين في الْدُّوَلِ يتفاوتون في الالتحام بصاحبِ الدَّوْلةِ بتفاوتِ قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها؛ **والسَّببُ** في ذلك أنَّ المقصود في العَصَبيَّة من المُدافعةِ والمغالبةِ، إنَّما يتمُّ بالنَّسَبِ لأجلِ التَّناصرِ في ذوي الأرحام والقُربى، والتَّخاذلِ في الأجانبِ والبعداء كما قدَّمناهُ. والولايةُ والمخالطةُ بالرِّقِّ أو بالحلفِ تتنزَّلُ منزلة ذلك، لأنَّ أمر النَّسَبِ وإن كان طَبيعيّاً، فإنَّما هو وهميٌّ، والمعنى الذي كان به الالتحام إنَّما هو العِشْرَةُ والمدافعة وطولُ الممارسةِ، والْصُّحبة بالمَرْبَى والْرِّضَاعِ وسائرِ أحوالِ الموتِ والحياة.

وإذا حصل الالتحامُ بذلك جاءت النُّعرةُ والتَّناصرُ. وهذا مشاهدٌ بينَ النَّاسِ. **واعتبر مثلهُ** في الاصطناعِ، فإنَّهُ يُحدثُ بينَ المُصْطَنِعِ [ظ٢/٧٧] ومنِ اصْطَنعهُ، نسبةً خاصَّةً من الوَصْلَةِ تتنزَّلُ هذه المَنزلةَ وتؤكِّدُ اللحمةَ وإن لم تكن نسبٌ، فثمرات النَّسَبِ موجودةٌ.

فإذا كانت هذه **الولاية بينَ القَبيلِ وبينَ أوليائهم، قبل حصولِ الملكِ لهم**، كانت عروقها أوشَجَ، وعقائدها أصحَّ، ونسبها أصرحَ لوجهين:

أحدهما: أنهم قبل المُلكِ أسوةٌ في حالهم، فلا يتميّز النَّسبُ عن الولاية إلا عندَ الأقلِّ منهم، فيتنزّلون منهم منزلةَ ذَوي قرابتهم وأهل أرحامهم. وإذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبةُ الملكِ مميِّزةً للسَّيِّد عن المَوْلَى، ولأهل القرابةِ عن أهل الولاية والاصطناع، لما تقتضيه أحوالُ الرِّئاسةِ والمُلكِ من تميُّزِ الرُّتبِ وتفاوتها فتتميزُ حالتهم، ويتنزلون منزلة الأجانب ويكونُ الالتحامُ بينهم أضعفَ، والتَّناصرُ لذلك أبعدَ، وذلك أنقصُ من الاصطناع قبل المُلْكِ.

الوجه الْثَّاني: أنَّ الاصطناع قبل الملكِ يَبْعُدُ عهدهُ عن أهل الدَّولةِ بطولِ الزَّمانِ، ويخفى شأن تلك اللُّحمةِ، ويظنُّ بها في الأكثرِ النَّسَبُ فيقوى حالُ الْعَصَبيَّة.

وأمَّا بعد الملكِ فيقربُ العهدُ ويستوي في معرفته الأكثرُ، فتتبيَّنُ اللُّحمةُ وتتميَّزُ عن النَّسَبِ، فتضعفُ العَصَبيَّةُ بالنِّسْبَةِ إلى الولاية التي كانت قبل الدَّولة.

واعتبر ذلك في الدُّول، والْرِّئَاسات تجدهُ. فكلُّ من كان اصطناعه **قبلَ** حُصُولِ الْرِّئَاسةِ والملكِ لمصطنعه تجدهُ أشدَّ التحاماً به وأقربَ قرابةً إليه، ويتنزَّلُ منه منزلة أبنائه وإخوانه وذوي رَحِمِهِ. ومن كان اصطناعه **بعد** حصولِ الملكِ والرِّئاسة لمصطنعه لا يكون له من

القرابةِ واللُّحمةِ ما للأولين. وهذا مشاهدٌ بالعيان؛ حتَّى إنَّ الدولة في آخرِ عمرها ترجعُ إلى استعمالِ الأجانبِ واصطناعهم، ولا يُبنى لهم مجد كما بناهُ المصطنعون قبل الدَّولة لقربِ العهدِ حينئذ بأوليتهم ومشارفةِ الدَّولةِ على الانقراض، فيكونون منحطِّينَ في مهاوي الضَّعةِ.

وإنما يحملُ صاحبَ الدَّولةِ على اصطناعهم والعدول إليهم عن أوليائهم الأقدمين وصنائعها الأوَّلين ما يعتريهم في أنفسهم من العزَّةِ على صاحبِ الدولةِ، وقلَّةِ الخضوع له، ونظره بما ينظرهُ به قبيلهُ وأهل نسبهِ لتأكُّدِ اللُّحمةِ منذُ العصورِ المتطاولة بالمَرْبَى والاتِّصال بآبائه وسَلَفِ قومه والانتظام مع كبراء أهل بيته، فيحصل لهم بذلك دالَّةٌ عليه، واعتزازٌ فينافرهم بسببها صاحبُ الدَّولةِ ويعدلُ عنهم إلى استعمالِ سواهم، ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريباً، فلا يبلغون رتبَ المجدِ، ويبقون على حالهم من الخارجية.

وهكذا شأن الدول في أواخرها، وأكثر ما يُطلقُ اسم **الصَّنائع والأولياء** على الأوَّلين. وأمَّا هؤلاء المُحَدَثون **فخدمٌ وأعوانٌ**، ﴿والله وليُّ المؤمنين﴾[آل عمران: ٦٨]، ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾[الأنعام:١٠٢، الزمر: ٦٢].

١-٣-٢١- الفصل الحَادِي والعشرون
فيما يعرضُ في الدُّول من حجر السُّلطان والاستبداد عليه

إذا استقرَّ الملك في نصاب معين، ومنبتٍ واحدٍ من القبيلِ القائمين بالدَّولةِ، وانفردوا به [ظ٧٨/١]، ودفعوا سائرَ القبيلِ عنه، وتداوله بنوهم واحداً بعد واحد، بحسب التَّرشيح، فربَّما حدثَ التَّغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم. وسببه في الأكثر ولاية صبي صغير، أو مضعفٍ من أهلِ المنبتِ، يترشَّحُ للولاية بعهد أبيه، أو بترشيحِ ذويه وخولهِ[١]، ويؤنس منه العجزُ عنِ القيامِ بالملك، فيقومُ به كافلهُ من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيلهِ، ويُوَرِّي[٢] بحفظِ أمرهِ عليه حتى يُؤنس منه الاستبداد، ويجعل ذلك ذريعةً للملك، فيحجبُ الصَّبيَّ عن النَّاسِ، ويعوِّدهُ اللَّذاتِ التي يدعو إليها ترفُ أحواله ويُسيمُهُ في مراعيها متى أمكنه، وينسيه النَّظرَ في الأمور السُّلطانية حتى يَسْتَبدَّ عليه. وهو بما عوَّده يعتقد أنَّ حظَّ السُّلطان من الملكِ إنَّما هو جلوسُ السَّرير، وإعطاء الصَّفقةِ وخطابُ التَّهويلِ، والقعود مع النِّسَاءِ خَلْفَ الحجاب، وأنَّ الحلَّ والرَّبطَ والأمر والنهي ومباشرةَ الأحوالِ الملوكية وتفقدها من النَّظَرِ في الجيشِ والمالِ والثُّغورِ إنَّما هو للوزيرِ، ويُسَلِّم له في ذلك أنْ تستحكم له صبغة الرِّئاسة والاستبداد، ويتحوَّل الملكَ إليه، ويؤثر به عشيرتهُ وأبناءه من بعده، كما وقع لبني بويه والتُّرك وكافور الأخشيدي وغيرهم بالمَشْرِقِ، وللمنصور بن أبي عامر بالأندلس.

وقد يَتَفَطَّنُ ذلك المحجور المغلَّب لشأنه فيحاول على الخروجِ من ربقةِ الحجر والاستبداد ويُرجعُ الملكُ إلى نصابه، ويضرب على أيدي المتغلِّبين عليه؛ إمَّا بقتلٍ أو برفعٍ عن الرُّتبةِ فقط، إلا أنَّ ذلك في النَّادرِ الأقلَّ، لأنَّ الدَّولةَ إذا أخذت في تغلُّبِ الوزراء والأولياء استمرَّ لها ذلك وقلَّ أن تخرج عنه، لأنَّ ذلك إنما يوجد في الأكثر عن أحوالِ التَّرفِ، ونشأة أبناء الملكِ منغمسين في نعيمه، قد نسوا عهد الرُّجولةِ، وألفوا أخلاقَ الدَّاياتِ والأظآر[٣]، وربُوا عليها، فلا ينزعون إلى رئاسة، ولا يعرفون استبداداً من تغلُّبٍ. إنَّما همهم في القنوع بالأُبَّهةِ، والتَّنفُّسِ[٤] في اللَّذَّاتِ وأنواعَ التَّرفِ. وهذا التَّغَلُّبُ يكون

---

١ – الخدم من البطانة والحاشية.

٢ – أي: يخفي أطماعه الاستبدادية وراء التظاهر بالمحافظة للصبي على ملكه حتى يرشد.

٣ – جمع ظئر.. وهي المرضعة.

٤ – في ن: (التفنن).

للموالي والمصطنعين عند استبداد عشيرِ الملكِ على قومهم، وانفرادهم به دونهم. وهو عارضٌ للدَّولةِ ضروريٌّ كما قدَّمناهُ. وهذان مرضان لا برءَ للدّولةِ منهما إلا في الأقلِّ النَّادرِ. ﴿والله يؤتي مُلكه من يشاء﴾[البقرة: ٢٤٧]. ﴿وهو على كل شيء قدير﴾[المائدة: ١٢٠، هود: ٤، الروم: ٥٠، الشورى: ٩، الحديد: ٢، التغابن: ١، الملك: ١].

١-٣-٢٢- الفصل الثّاني والعشرون
في أنَّ المُتَغَلّبينَ على السُّلطان لا يُشاركونه في اللَّقبِ الخاصِّ بالملكِ

وذلكَ أنَّ المُلكَ والسُّلطانَ حصل لأوَّليّـهِ مـذ أوَّلِ الدَّوْلَـةِ بعصبيـةِ قومـه وعصبيَّـة الـتي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومـه صبغـةُ الملـك والغَلـبِ، وهـي لم تـزل باقيـةً، وبهـا انحفظَ رسم الدولةِ وبقاؤها. وهذا المتَغَلِّبُ وإن كان صاحبَ عَصبيَّـةٍ مـن قبيـلِ الملـكِ أو الموالي [ظ٢/٧٨] والصَّنائعِ، فعصبيّته مندرجةٌ في عصبية أهلِ الملكِ وتابعةٌ لهـا، وليـس لـه صبغةٌ في الملك. وهو لا يحاولُ في استبداده انتزاعَ الملك ظاهراً، وإنما يحاول انـتزاعَ ثمراتِـه من الأمر والنَّهي والحَلِّ والعقد والإبرام والنَّقضِ، يوهم فيها أهل الدَّولةِ أنَّه منصـرفٌ عـن سلطانه، منفِّذٌ في ذلك من وراء الحجاب لأحكامه، فهو يتجافى عن سماتِ الملكِ وشـاراتهِ وألقابه جهدهُ، ويبعدُ نفسهُ عن التُّهمـةِ بذلـك وإنْ حَصَلَ لـه بالاسـتبداد لأنَّـهُ مسـتترٌ في استبداده ذلك بالحجابِ الذي ضربهُ السُّلطانُ وأولوه[1] على أنْفُسهم عن القَبيْلِ منـذُ أوَّلِ الدَّولةِ، ومغالطٌ عنه بالنِّيابةِ. ولو تعرَّضَ لشيءٍ من ذلك لَنَفِسَهُ[2] عليه أهل العَصَبيَّة وقبيـلُ الملكِ، وحاولوا الاستئثار به دونه؛ لأنّه لم تستحكم له في ذلك صبغةٌ تحملهم على التَّسليمِ له والانقياد، فيهلك لأوَّلِ وهلةٍ.

وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بـن النَّاصرِ بـن منصـور بـن أبـي عـامر حـينَ سَمَا إلى مشاركة هشامٍ وأهل بيته في لقبِ الخلافة، ولم يَقْنَع بما قنعَ به أبوه وأخـوه مـن الاسـتبداد بالحلِّ والعقدِ والمراسم المتتابعة. فطلبَ من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافـة فَنَفِسَ ذلـك عليه بنو مروان، وسائر قريش، وبايعوا لابن عمِّ الخليفةِ هشـام محمَّـدِ بـن عبـد الجبَّـار بـن النَّاصرِ، وخرجوا عليهم[3]، وكان في ذلك خرابُ دولةِ العَامِرِيِّين، وهلاكُ المؤيد خليفتهم، واستبدل منه سواه من أعياصِ[4] الدَّوْلَةِ إلى آخرها، واختلَّتْ مراسِمُ ملوكهـم، والله خـير الوارثين.

١ – أي: السابقون له من آبائه.
٢ – نفس عليه الشيء: لم يره أهلاً له.
٣ – في ن: عليه.
٤ – أي: أصول الدولة.

١-٣-٢٣- الفصل الثّالث والعشرون
في حقيقة الملك وأصنافه

المُلكُ منصبٌ طبيْعِيٌّ للإنسان، لأنَّا قد بينا[١] أن البشر لا يُمكنُ حياتهم ووجودهم إلا بالإجتماعِ وتعاونهم على تحصيلِ قُوْتِهم وضروريَّاتهم. وإذا اجتمعوا دعَتِ الضّرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجاتِ، ومدّ كلٌّ واحد منهم يدَهُ إلى حاجته يأخذها من صاحبه؛ لما في الطبيعةِ الحيوانيَّةِ من الظُّلمِ والعدوانِ بعضهم على بعض ويُمانِعُهُ الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة، ومقتضى القوَّةِ البشرية في ذلكَ، فيقعُ التَّنازعُ المفضي إلى المُقَاتَلَةِ، وهي تؤدِّي إلى الهرجِ[٢] وسفكِ الدِّماء، وإذهاب النُّفوسِ المفضي ذلك إلى انقطاع النَّوعِ، وهو مما خصَّهُ الباري سُبْحانه بالمحافظة، فاستحال[٣] بقاؤهم فوضى دون حاكم يَزَعُ بعضهم عن بعض؛ واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع، وهو الحاكم عليهم، وهو بمقتضى الطَّبيعة البَشَرِيَّةِ المُلك القاهرُ المتحكم.

ولا بُدَّ في ذلك من العَصَبِيَّةِ، لما قدَّمناهُ من أنَّ المطالباتِ كلّها والمدافعاتِ كلِّها لا تتمُّ إلا بالعصبيَّةِ. وهذا الملك كما تراهُ منصبٌ شريفٌ تتوجَّهُ نحوهُ المطالباتُ، ويحتاج [ظ٧٩/١] إلى المدافعات؛ ولا يتمُّ شيءٌ من ذلك إلا بالعصبيَّاتِ كما مرَّ والعصبيات متفاوتةٌ، وكل عَصَبِيَّةٍ فلها تحكم وتغلُّب على من يليها من قومها وعشيرها. وليس الملكُ لكل عَصَبِيَّةٍ؛ **وإنَّما الملك على الحقيقةِ لمن يستعبدُ الرَّعيَّة، ويجبي الأموالَ، ويبعثُ البعوثَ، ويحمي الثُّغورَ، ولا تكونُ فوقَ يده يد قاهرةٌ،** وهذا معنى الملكِ وحقيقته في المشهور.

فمن قصرت به عصبيته عن بعضها، مثلِ حمايةِ الثُّغورِ أو جباية الأموال، أو بعثِ البعُوْثِ، فهو **ملكٌ ناقصٌ،** لم تتمَّ حقيقته. كما وقع لكثيرٍ من ملوكِ البربر في دولة الأغالبةِ بالقَيْرَوان، ولملوكِ العَجَم صدر الدَّولةِ العبَّاسية.

ومن قصرت به عصبيَّته أيضاً عن الاستعلاء على جميعِ العَصبيَّاتِ والضَّربِ على سائرِ الأيدي، وكان فوقه حكم غيره فهو أيضاً **ملكٌ ناقصٌ** لم تتم حقيقته، وهؤلاء مثل أمراء

---

١ – انظر المقدمة الأولى.

٢ – أي: الاضطرابات والفتن.

٣ – في ن: واستحال.

النَّواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولـةٌ واحـدةٌ، وكثيراً مـا يوجـد هـذا في الدَّولـةِ المُتَّسِعَةِ النِّطاق، أَعني توجدُ ملوكٌ على قومهم في النَّواحي القاصية، يدينـون بطاعـة الدَّولـةِ التي جمعتهم مثل صنهاجة مع العُبَيديين، وزناتة مع الأمويين تارةً والعبيديـين تـارة أخـرى، ومثلُ ملوك العجمِ في دولةِ بـني العبَّـاسِ، ومثـل أمـراء اللـبربر وملوكهـم مـع الفرنجـة قبـل الإسلام، ومثلُ ملوكِ الطَّوائفِ مـن الفـرسِ مـع الإسـكندر وقومـه اليونـانيين. وكثيرٌ مـن هؤلاء. فاعتبره تجده. وا لله ﴿القاهر فوق عباده﴾[الأنعام: ١٨].

١-٣-٢٤- الفصل الرَّابعُ والعشرون

في أنَّ إرهافَ الحد مُضِرٌّ بالملك ومفسدٌ له في الأكثر

اِعْلَمْ: أنَّ مصلحة الرَّعيَّة في السُّلطان لَيْست في ذاته وجسمه، من حسن شكله أو ملاحة وجهه، أو عظم جثمانه، أو اتِّساعِ علمه، أو جودة خطِّهِ، أو ثقوب ذهنه.

وإنَّما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم؛ فإنَّ المُلك والسُّلطانَ من الأمورِ الإضافية، وهي نِسْبَةٌ بينَ مُنتسبين، فحقيقة السُّلطان أنه الملك للرعية القائمُ في أمورهم عليهم. **فالسُّلطان من له رعيَّةٌ. والرَّعيَّة من لها سلطانٌ**. والصِّفةُ التي له من حيثُ إضافته إليهم، هي التي تُسَمَّى الملكةُ[1] وهي كونه بملكتهم، فإذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود من السُّلطان على أتمِّ الوجه. فإنَّها إن كانت **جميلةً صالحة** كان ذلك مصلحّة لهم، وإن كانت سيِّئة متَّعَسِّفَةً، كان ذلك ضرراً عليهم وإهلاكاً لهم.

ويعود **حُسْنُ المَلَكَةِ** إلى الرِّفقِ، فإنَّ المَلِكَ إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوباتِ، منَقِّباً عن عورات النَّاسِ، وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوفُ والذُّلُّ، ولاذوا منه بالكذبِ والمكر والخديعةِ فتخلَّقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، ورُبَّما خذلوه في مواطنِ الحربِ[2] والمدافعات، ففسدت [ظ٢/٧٩] الحمايةُ بفساد النِّيَّاتِ؛ وربما أجمعوا على قتلهِ لذلك، فتفسدُ الدَّولةُ ويخرَّبُ السِّياجُ، وإن دامَ أمرهُ عليهم وقهرهُ فسدت العَصَبِيَّةُ لما قلناهُ أوّلاً[3] وفسد السِّياج من أصله بالعجزِ عن الحماية.

وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيِّئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأُشربوا محبَّته، واستماتوا دونه في محاربة أعدائه، فاستقام الأمر من كل جانب.

وأمَّا توابعُ **حُسْنِ الملكةِ** فهي النِّعمةُ عليهم والمدافعة عنهم: فالمدافعة بها تتمُّ حقيقةُ الملك، وأمَّا النِّعمةُ عليهم والإحسان لهم، فمن جملةِ الرِّفق بهم، والنَّظر لهم في معاشهم، وهي أصلٌ كبيرٌ من التَّحبُّبِ إلى الرّعية.

واعلم: أنَّهُ قلَّما تكون ملكةُ الرِّفق فيمن يكون يقظاً شديد الذَّكاء من النَّاسِ. وأكثر ما يوجدُ الرِّفق في الغُفْل والمتغفَّل. وأقلُّ ما يكونُ في اليَقِظِ، لأنَّهُ يُكلِّفِ الرّعية فوق طاقتهم،

---

١ - أي الحكم.

٢ - في المطبوع:الحروب..

٣ - في الفصل الثالث عشر من هذا الباب.

لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم، واطِّلاعه على عواقب الأمور في مبادئها بألمعيَّته فيهلكون لذلك. قال صلى الله عليه وسلم: «**سيروا على سَيْر أَضْعَفكم**»[١].

ومن هذا الباب: اشْتَرط الْشَّارع في الْحَاكم قلَّةَ الإفراطِ في الذَّكاء. ومأخذه من قصَّة زياد بن أبي سفيان، لَمَّا عزله عمرُ عن العراق، وقال له: لمَ عزلتني يا أَمير المؤمنين، ألعجز أم لخيانة؟ فقال عمر: لم أَعْزِلْكَ لواحدةٍ منهما. ولَكنِّي كرهتَ أن أحملَ فضل عقلكَ على النَّاس.

فأَخذَ من هذا أنَّ الحاكم لا يكون مُفْرط الْذَّكاءِ والكيْس، مثلُ زياد بن أبي سفيان وعمروِ بن العاص؛ لما يتبعُ ذلك من التَّعَسُّف وسوءِ الملكة[٢] وحملِ الوجودِ[٣] على ما ليسَ في طبعه، كما يأتي في آخرِ هذا الكتاب. والله خيرُ المالكين.

وتقرَّرَ من هذا أنَّ **الكَيْسَ**[٤] **والذكاءَ عيبٌ في صاحب الْسِّيَاسَة**؛ لأنَّه إفراطٌ في الفكرِ، كما أنَّ البلادَةَ إفراطٌ في الجمودِ. والطَّرفَان مذمومانِ من كل صفَةٍ إنْسَانيَّة.

والمحمودُ هو التَّوَسُّط كما في الكرمِ مع التَّبذيرِ والبخلِ، وكما في الشَّجاعةِ مع الهوجِ والجُبْنِ، وغير ذلك من الصِّفات الإنسانية، ولهذا يُوصفُ الْشَّديد الكيِّس بصفات الْشَّيْطَان، فيقال: شيطانٌ ومتشيطنٌ وأمثال ذلك. والله ﴿يخلقُ ما يشاءُ وهو العليم القدير﴾[الروم: ٥٤].

---

١ – قال العجلوني في كشف الخفاء (٥٦٣/١): قال في المقاصد: لا أعرفه بهذا اللفظ، ولكن معناه في قوله صلى الله عليه وسلم: «اقدر القوم بأضعفهم، فيهم الكبير والسقيم والبعيد وذا الحاجة». ورواه الشافعي في مسنده وكذا الترمذي وحسنه، وابن ماجة والحاكم وقال: على شرط مسلم. وابن خزيمة وصححه والحارث بن أبي أسامة عن أبي هريرة رفعه. يا ابا هريرة: إذا كنت إماماً فقس الناس باضعفهم، وفي لفظ: فاقتد بأضعفهم. وقال القاري: لكن معناه في قوله عليه الصلاة والسلام: أم الناس واَقتد بأضعفهم. انتهى.

٢ – أي الامتلاك،، وهنا الحكم.

٣ – أي الموجود.

٤ – الكيس: الفطنة.

١-٣-٢٥- الفصل الخامس والعشرون
في مَعنى الْخِلافَةِ والإمامة

لَّما كانت حقيقةُ الملكِ أنَّـهُ الاجتمـاع الضَّروريّ[١] للبشرِ، ومقتضـاهُ التَّغلُّـبُ والقهرُ اللَّذَان هما آثارِ الغضبِ والحيوانية، كانت أحكـام صاحبه في الغـالبِ جـائرةً عـن الحقِّ، مجحفةً بمن تحتَ يدهِ من الخلقِ في أحوال دنياهم، لحمله إيَّاهم في الغالبِ على مَـا لَيْسَ في طوقهم من أغراضه وشهواته، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلفِ والسَّلفِ منهـم، فتعسُرُ طاعتـه لذلـك، وتجيءُ العَصَبيَّـةُ المفضيـة إلى الهرج[٢] والقتـلِ، فوجـبَ أن يُرجـعَ [ظ٨٠/١] في ذلك إلى قوانين سِيَاسِيَّةٍ مفروضةٍ يُسَلِّمها الكافّة، وينقـادون إلى أحكامهـا، كما كان ذلك للفرسِ وغيرهم من الأمم.

وإذا خلَتِ الدَّولة من مثل هذه الْسِّياسَة لم يستتب أمرها و لم يتمَّ استيلاؤها، ﴿سُنَّة ا للهِ في الَّذِينَ خلوا من قبل﴾[الأحزاب: ٣٨ و٦٢].

فإذا كانت هذه القوانين مفروضةً من العقلاء وأكابر الدَّولة وبصرائها، كـانت **سياسـة عقلية**. وإذا كانت مفروضة من ا للهِ بشارعٍ يقرِّرها ويشرعها، كانت **سِياسةً دينيـة** نافعـة في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة. وذلك أنّ الخلق ليس المقصودُ بهم دنيـاهم فقـط. فإنَّهـا كلهـا عبـث وبـاطلٌ، إذ غايتهـا المـوتُ والفنـاء وا للهِ يقـول: ﴿أفحسـبتم أنَّمـا خَلَقْنَـاكم عَبَثـاً﴾[المؤمنين: ١١٥]. فـالمقصود بهـم إنّمـا هـو دينهـم المُفضـي بهـم إلى الْسَّـعادة في آخرتهم: ﴿صِرَاطِ ا للهِ الَّذي له مافي السّماوات ومافي الأرض﴾[الشورى: ٥٣]. فجـاءت الْشَّرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة، حتَّـى في الملك الـذي هـو طبيعيّ للاجتماع الإنساني، فأجرَتهُ على منهاج الدين ليكون الكلُّ محوطاً بنظرِ الشَّارع.

فما كان منه بمقتضى القهرِ والتَّغلُّبِ وإهمال القوة العصبيَّة في مرعاها فَجَـوْرٌ وعـدوانٌ ومذمومٌ عنده، كما هو مقتضى الحكمة السِّياسية.

وما كان منه بمقتضى السِّياسة وأحكامها فمذموم أيضاً، لأنَّه نظرٌ بغير نور ا للهِ ﴿وَمَـنْ لَمْ يَجْعَلِ ا للهُ لَهُ نوراً فما لهُ من نور﴾[النـور: ٤٠]. **لأنّ الشَّـارع أعلـم بمصـالح الكافّـةِ فيما هو مغيّبٌ عنهم من أمور آخرَتهم**، وأعمالُ البشرِ كلها عائدةٌ عليهم في معادهم من

---

١ – أي ما يؤدي فقدانه لاختلال التوازن العام.

٢ – أي: الفتنة والاضطرابات.

ملك أو غيره. قال صلى الله عليه وسلم: «**إنَّما هي أَعْمَالُكُم تُرَدُّ عَلَيْكُم**»[1]. وأحكامُ الْسِّياسة إنَّما تُطلعُ على مصالح الدُّنيا فقط، ﴿يَعْلَمُونَ ظاهراً منَ الحَيَاةِ الْدُّنيا﴾[الروم: ٧]. ومقصود الشارع بالنَّاسِ صلاحُ آخرتهم، فوجبَ بمُقتضى الْشَّرائع حملُ الكافَّةِ على الأحكام الْشَّرعية في أحوال دُنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكمُ لأهلِ الْشَّريعةِ، وهم **الأنبياءُ** ومن قام فيه مقامهم وهم **الخلفاء**.

فقد تبيَّنَ لك من ذلك معنى الخلافة؟ وأنَّ **الملك الطَّبيعي** هو حملُ الكافَّةِ على مقتضى الغرضِ والْشَّهوةِ، **والْسِّيَاسِيّ** هو حمل الكافَّةِ على مقتضى النَّظرِ العقلي في جلب المصالحِ الدُّنيوية، ودفعِ المضَارِّ، والخلافةُ هي حملُ الكافَّةِ على مقتضى النَّظرِ الْشَّرْعِي في مصالحهم الأخْرَوِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ الْرَّاجعةِ إليها. إذ أحوالُ الدُّنيا ترجعُ كلُّها عندَ الْشَّارعِ إلى اعتبارها بمصالحِ الآخرةِ، فهيَ في الحقيقةِ خلافةٌ عن صاحب الْشَّرعِ في حراسةِ الدِّينِ وسِيَاسَةِ الدُّنيا به، فافهم ذلك واعتبرهُ فيما نورده عليك من بعدُ. وا لله الحكيم العليم.

---

١ - قال العجلوني في كشف الخفاء (١/٢٥٠): قال النجم: رواه أبو نعيم عن حسان بن عطية قال: بلغني أن ا لله تعالى يقول يوم القيامة: يا بني آدم إنا قد أنصتنا لكم مذ خلقناكم، فأنصتوا لنا اليوم نقرأ عليكم أعمالكم، فمن وجد خيراً فليحمد ا لله، ومن وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه، إنما هي أعمالكم ترد عليكم، وفي كتاب ا لله تعالى: ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

١-٣-٢٦- الفصلُ السَّادِسُ والعشرون
في اخْتِلافِ الأُمَّةِ في حكم المنْصِبِ وشُروطه

وإذ قَدْ بَيَّنَّا حقيقة هذا المنصبِ، وأنَّهُ نِيابَةٌ عن صاحبِ الْشَّريعةِ في حفظ الْدِّيْنِ وَسِيَاسةِ الدُّنيا به ويسمَّى[١] **خلافةً** [ظ٨٠/٢] **وإمَامةً**. والقائمُ به **خليفةً وإماماً**. وَسَمّاه المتأخِّرون **سُلطاناً** حين فشا التَّعدُّد فيه، واضْطَّروا بالتَّباعد وفُقْدَانِ شروط المَنْصِبِ إلى عقد البيعةِ لكلِّ متغلِّب.

فأَمَّا تسميته **إماماً** فتشبيهاً بإمام الْصَّلاةِ في اتِّباعه والاقتداءِ به، ولهذا يقالُ: الإمامة الكبرى، وأمَّا تسميته **خليفةً** فلكونه يخلف النَّبي صلوات الله عليه في أمَّته، فيقالُ: خليفة بإطلاق، وخليفةُ رسول الله.

واختلف في تسميته **خليفة الله**، فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافةِ العامَّةِ التي للآدميين في قوله تعالى: ﴿إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾[البقرة: ٣٠]. وقوله: ﴿جَعَلَكم خلائفَ الأَرْضِ﴾[الأنعام: ١٦٥] ومنع الجمهور منه لأنَّ معنى الآية ليس عليه. وقد نهى أبو بكر عنه لمَّا دُعيَ به، وقال: لست خليفة الله، ولكنِّي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولأنَّ الاستخلاف إنَّما هو في حق الغائب، وأمَّا الحاضر فلا.

ثُمَّ إنَّ **نصبَ الإمامِ واجبٌ** قد عرف وجوبهُ في الْشَّرعِ بإجماعِ الْصَّحابةِ والتَّابعينَ، لأنَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بَادَروا إلى بيعةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه، وتسليم النَّظرِ إليه في أمورهم، وكذا في كلِّ عصرٍ من بعد ذلك، ولم تُترك النَّاسُ فوضى في عصر من الأعصار. واستقرَّ ذلك إجماعاً دالاًّ على وجوبِ نصب الإمام.

وقد ذهب بعضُ النَّاسِ إلى أنَّ مُدْرِكَ وجوبه العقلُ، وأنَّ الإجماعَ الذي وقع إنَّما هو قضاء بحكم العقل فيه، قالوا: وَإنَّما وجب بالعقل لضرورة الاجتماعِ للبشرِ، واستحالة حياتهم ووجودهم منفردِينَ، ومن ضرورةِ الاجْتِمَاعِ التَّنازعِ لازْدِحامِ الأغراضِ، فما لم يكن[٢] الحاكمُ الوازعَ أفضى ذلك إلى الهرجِ المؤذِنِ بهلاكِ البشرِ وانقِطاعِهم؛ مع أنَّ حفظ النَّوعِ من **مقاصدِ الْشَّرْعِ** الضَّرورية[٣].

---

١ - في ن: (تسمن). و(به سمي)

٢ - فما لم يوجد.

٣ - وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه **الحكماء** في وجوب النُّبوَّاتِ في البشرِ، وقد نبَّهنا على فساده، وأنَّ إحدى مقدِّماته أنَّ **الوازعَ** إنَّما يكون بشرعٍ من الله تسلِّمُ له الكافَّةُ تسليمَ إيمان واعتقادٍ، وهو غير مُسَلَّم؛ لأنَّ الوازعَ قد يكونُ بسطوة الملكِ وقهر أهل الشَّوكةِ ولو لم يكن شرعٌ، كما في أمم المجوسِ وغيرهم ممن ليسَ له كتابٌ أو لم تبلغه الدَّعوةُ. أو نقولُ: يكفي في رفع التَّنازعِ معرفة كل واحدٍ بتحريم الظُّلمِ عليه بحكمِ العقل. فادِّعاؤهم أنَّ التنازع إنَّما يكون بوجود الشَّرعِ هناك، ونصب الإمام هنا، غير صحيح، بل كما يكون بنصبِ الإمام يكونُ بوجود الرُّؤَساءِ أهل الشَّوكةِ، أو بامتناع النَّاسِ عن التَّنازعِ والتَّظالُمِ، فلا يَنْهَضُ دَلِيْلُهم العَقْلِيُّ المبنيُّ على هذه المُقدِّمَةِ. فدلَّ على أن مُدْرَكَ وجوبهِ إنَّما هو بالشَّرْعِ، وهو الإجماعُ الذي قدَّمناه.

وقد شَذَّ بعض النَّاس فقال بعدم وجوب هذا النَّصْبِ رَأساً لا بالعقل ولا بالشَّرْعِ، منهم الأَصَمُّ منَ المُعْتَزلَةِ، وبعض الخوارجِ، وغيرهم. والواجبُ عند هؤلاء إنَّما هو إمضاءُ [ظ١/٨١] أحكام الشَّرْعِ[1]. فإذا تواطأتِ الأُمَّة على العدلِ وتنفيذِ أحكامِ الله تعالى لم يُحْتَج إلى إمام، ولا يجبُ نصبُهُ، وهؤلاء محجوبون بالإجماع.

والَّذي حملهم على هذا المذهب إنَّما هو الفرارُ عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتَّغلُّبِ والاستمتاع بالدُّنيا لما رأوا الشَّريعة ممتلئة[2] بذم ذلك، والنَّعي على أهله ومرغِّبَة في رفضه.

واعلم أنَّ الشَّرْعَ لم يَذُمَّ المُلكَ لذاته، ولا حظرَ القيام به؛ وإنَّما ذمَّ المفاسدَ النَّاشئة عنه من القهرِ والظُّلمِ والتَّمتُّعِ باللَّذَّاتِ، ولا شَكَّ أنَّ في هذه مفاسدَ محظورةً وهي من توابعه، كما أثنى على العدل والنَّصفَةِ وإقامة مَراسم الدِّيْن والذَّبِّ[3] عنه، وأوجبَ بإزائها الثَّوابَ وهي كلُّها من توابع المُلْكِ. فإذاً إنَّما وقعَ الذَّمُّ للمُلْكِ على صفةٍ وحال دون حال أُخْرَى، ولم يذمَّهُ لِذاته، ولا طلبَ تركه، كما ذم الشَّهوة والغَضَبَ من المُكلَّفين، وليس مُرَاده تركها بالكُلِّيَّةِ لدعاية الضَّرُوْرَةِ إليها، وإنَّما المرادُ تصريفهما على مقتضى الحقِّ. وقد كان

---

١ - في المطبوع: الحكم بالشرع.

٢ - في ن: ممتلة.

٣ - أي: الدفاع عنه.

لداود وسُليمان صلوات الله وسَلاَمهُ عليهما المُلكُ الّذي لم يكن لغيرهما،وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده.

ثُمَّ نَقُوْلُ لهم: إنَّ هذا الفرارَ عن الملك بعَدَم وجوب هذا النَّصْب لا يغنيكم شَيئاً؛ لأَنَّكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الْشَّرِيْعَة، وَذلك لا يَحْصُلُ إلاّ بالْعَصَبيَّة وَالْشَّوْكَة، وَالْعَصَبيَّةُ مُقْتَضِيَةٌ بطبعها للمُلْكِ[1]، فيحصَلُ الملك وإن لم ينصب إمامٌ، وهو عينُ ما فررتم[2].

وإذا تَقَرَّرَ أنَّ هذا النَّصْبَ واجبٌ بإجماع، فهو من فروضِ الكفَاية، وراجعٌ إلى اختيار أهلِ العقد والحلِّ فيتعيَّنُ عليهم نَصْبُهُ. ويجبُ على الخلقِ جميعاً طاعته لقوله تعالى: ﴿أَطِيْعُوا اللّهَ وَأَطِيْعُوا الْرَّسُوْلَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[النساء: ٥٩].

وَأَمَّا **شروطُ هذا المنصب** فهي أربعة: العلمُ، والعدالةُ، والكفَايَةُ، وَسَلاَمَةُ الحَوَاسِّ والأعضَاء، مما يؤثِّرُ في الْرَّأي والعمل، واختلفَ في شرط خامسٍ وهو الْنَّسَبُ الْقُرَشيُّ.

فَأَمَّا اشتراطُ **العلم** فظاهرٌ، لأَنَّه إنما يكون منفِّذاً لأَحكام اللّه تعالى إذا كان عالماً بها، وما لم يعلمها لا يصحُّ تقديمه لها، ولا يكفي من العلمِ إلا أن يكون مجتهداً، لأنَّ الْتَّقليدَ نقصٌ. والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال.

وأمَّا **العدالةُ**: فلأنه منصبٌ دينيٌّ ينظرُ في سائر المَناصبِ التي هي شرطٌ فيها، فكان أولى باشتراطِها فيه، ولا خلاف في انتفاءِ العدالة فيه بِفِسْقِ الجوارحِ، من ارتكابِ المحظورات وأمثالها. وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلافٌ.

وأمَّا **الكفايةُ**: فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود، واقتحام الحرُوب، بصيراً بها، كفيلاً بحمل النَّاسِ عليها، عارفاً بالعَصَبيَّة وأحوال الدَّهاء، قويّاً على معاناة الْسِّيَاسَة، ليصحَّ له بذلك ما جعل إليه من حماية [ظ٢/٨١] الدِّينِ، وجهادِ العدوِّ، وإقامةَ الأحكامِ، وتدبير المصَالح.

وأمَّا **سَلاَمةُ الحواسِّ والأعضاء** منَ الْنَّقْصِ والْعُطْلَة كَالْجُنُون والعَمَى والْصَّمم والخَرَس؛ ومَا يُؤثِّر فَقْدُهُ من الأَعْضَاءِ في العملِ، كفقد الْيَدَيْنِ وَالْرِّجْلَيْنِ وَالأنْثَيَيْنِ[3]،

---

١ - انظر ذلك في الفصل السابع عشر من الباب الثاني وعنوانه: فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك.

٢ - في ن: فررتم عنه.

٣ - الخصيتان.

فَتُشْتَرَطُ: الْسَّلامةُ منها كلها لتأثيرِ ذلك في تمامِ عملهِ وقِيَامه بمَا جعل إليه. وإن كَانَ إنَّما يَشِينُ في المنظرِ فَقَطْ، كفقدِ إحْدَى هذه الأعْضَاءِ فَشَرْطُ الْسَّلامةِ منهُ شَرْطُ كمَالٍ.

ويُلْحَقُ بفقدان الأعضاء المنعُ منَ التَّصرُّفِ، وهوَ ضَرْبَان:

ضَرْبٌ يُلحَقُ بهذه في اشْتِراطِ الْسَّلامةِ منه شرطَ وجوبٍ، وهو القهرُ والعجزُ عن التَّصرُّفِ جُملةً بالأَسْرِ وَشِبْهِه، **وضربٌ** لا يُلْحَقُ بهذه، وَهُوَ الحجرُ باسْتِيلاءِ بعضِ أعوانهِ عليهِ من غَيْرِ عِصْيَان ولا مُشَاقَّةٍ[1]، فينتقلُ النَّظرُ في حال هذا المُسْتَولي، فإن جرى على حكم الدِّين والعَدْلِ وحميدِ الْسِّيَاسَةِ جازَ قَرَارُهُ، وَإِلاَّ استنصرَ الْمُسْلِمون بمَن يَقبضُ يده عن ذلك، ويدفعُ علَّته حتى يَنْفُذَ فِعلُ الخَلِيْفَةِ.

وأمَّا **النَّسبُ الْقُرَشِيُّ**: فَلإجْمَاعِ الْصَّحابةِ يومَ الْسَّقِيْفَةِ[2] على ذلك، واحتجَّتْ قُرَيشٌ على الأنصارِ - لما همُّوا يومئذٍ ببيعةِ سَعْدِ بن عُبَادة، وقالوا: مِنَّا أَمِيرٌ ومِنْكُمْ أَمِيْرٌ - بقوله صلى الله عليه وسلم: «**الأَئِمَّةُ من قريش**»[3]. وبأنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أَوْصَانا بأنْ نُحْسِنَ إلى محسنكم، ونتجاوز عن مُسِيئكم[4]، ولو كانت الإمارَة فيكم لم تكن الوَصِيَّةُ بكم، فحجُّوا الأنصَارَ ورجعوا عن قولهم منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، وعدلوا عمَّا كانوا همُّوا به من بَيْعَةِ سَعْدٍ لِذَلِكَ. وَثَبتَ أيضاً في الْصَّحِيْحِ: «**لاَ يَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيش**»[5]. وَأَمْثَالُ هذه الأَدِلَّةِ كثيرةٌ.

إلاَّ أنَّهُ لَمَّا ضعفَ أمرُ قريشٍ، وتلاشت عَصَبيَّتهم بما نالهم من التَّرَفِ وَالْنَّعيمِ، وبما أنفقتهم الدَّولةُ في سائرِ أقطارِ الأرضِ، عجزوا بذلك عن حمل الخلافة، وتغلَّبت عليهم الأعاجمُ، وصارَ الحلُّ والعقدُ لهم، فاشتبه ذلك على كثيرٍ من المحققين، حتى ذهبوا إلى نفي اشتراطِ الْقُرَشيَّةِ، وعوَّلوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**اسْمَعُوا**

---

١ - أي: ولا مخالفة.

٢ - سقيفة بني ساعدة التي بويع فيها أبو بكر.

٣ - أخرجه أحمد (٣/١٢٩، ١٨٣) وأبو يعلى (٤٠٣٣) والبزار (١٥٧٩) والطبراني في الكبير (٧٢٥) والحاكم في المستدرك (٤/٥٠١) وصححه ووافقه الذهبي من حديث أنس. وروي من حديث غيره. وانظر مجمع الزوائد (٥/٣٤٦ - ٣٥٥) في كتاب الخلافة، الباب الرابع.

٤ - أخرجه البخاري (٣٨٠١) ومسلم (٢٥١٠) من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الأنصار كرشي وعيبتي، وإن الناس يكثرون ويقلون، فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم».

٥ - أخرجه البخاري (٢١٩٥ و٧١٤٠) ومسلم (١٨٢٠) وابن حبان (٦٢٦٦ و٦٦٥٥) من حديث ابن عمر.

وأطِيْعُوا وإنْ وُلِّيَ عَلَيْكُم عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ذُوْ زَبِيْبَةٍ»[١]. وهذا لا تقومُ به حجة في ذلك، فإنه خرجَ مخرج التَّمثيلِ والفرضِ لِلْمُبَالغَةِ في إيجاب الْسَّمعِ والطَّاعة، ومثلِ قول عمر: لو كـان سالمٌ مولى [أبي] حذيفة حيّاً لوَلَيتهُ، أو لما دَخَلَتني فيه الْظِّنَّةُ. وهو أيضاً لا يفيد ذلك لما علمتَ أنَّ مذهب الْصَّحابي ليسَ بحُجَّةٍ، **وأيضاً: «فمولى الْقَوْمِ منهم»**[٢]، وَعَصَبيَّةُ الْوَلاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالمٍ في قريش، وَهِيَ الفائدةُ في اشتراطِ النَّسَبِ. ولَمَّا استعظم عمرُ أمر الخلافَةِ، ورأى شروطها كأنَّها مفقودة في ظنِّه عـدلَ إلى سالمٍ، لتوفُّرِ شروط [ظ٨٢/١] الخلافةِ عنده فيه، حتى من النسَبِ المفيدِ للعصبيَّةِ كما نذكرُ، ولم يبقَ إلاَّ صراحة النَّسَبِ فرآهُ غير محتاجٍ إليه، إذ الفائدةُ في النّسَبِ إنَّما هي العَصَبيَّةُ،وهي حاصلةٌ من الولاءِ فكان ذلك حِرْصاً من عمر رضي الله عنه على النَّظَرِ للمُسْلِمِيْنَ وتقليد أمرهم لمن لا تلحقهُ فيه لائمة، ولا عليه فيه عهدةٌ.

ومن القائلين بنفي اشْتراطِ القُرَشِيَّةِ القاضي أبو بكر البَاقِلاَّنِيُّ، لَمَّا أدركَ ما عليه عصبيَّةُ قريشٍ من التَّلاشي والاضْمِحلال واستبدادِ ملوك العجمِ على الخُلفَاءِ، فأسقطَ شرطَ الْقُرَشِيَّةِ، وإن كان موافقاً لرأي الخوارجِ، لما رأى عليه حالَ الخلفاء لعهده.

وبقي الجمهور على القولِ باشتراطها وصحَّةِ الإمامة للقُرَشِيِّ، ولو كان عاجزاً عن القيامِ بأمور المُسْلِمينَ. وردَّ عليهم سُقُوْط شَرْطِ الْكِفَايَةِ[٣] التي يقوى بها على أمرِهِ؛ لأنَّهُ إذا ذهبتِ الشَوْكَةُ بذهابِ الْعَصَبيَّةِ فقد ذَهَبَت الكفايةُ، وإذا وقع الإخلالُ بشَرْطِ الكفاية تطرَّقَ ذلك أيضاً إلى العلمِ والدِّين، وَسَقَطَ اعتبارُ شروط المنصبِ وهو خلافُ الإجماعِ.

ولنتكلم الآن في **حكمةِ اشتراط النَّسَبِ** ليتحقق به الصَّوابُ في هذه المذاهب فنقول:

إنَّ الأحكام الشَّرعية كلها، لا بُدَّ لها من مَقَاصِدَ وحكم تشتملُ عليها، وتُشْرَعُ لأجلها. ونحنُ إذا بحثنا عن الحكمةِ في اشتراطِ النَّسَبِ الْقُرَشِيّ ومقصد الْشَّارعِ منه، لم يقتصر فيه على التَّبرُّكِ بوصلةِ الْنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كما هو في الْمَشْهُوْرِ، وإن كانت تلك الوَصلة موجودةً والتَّبرُّك بها حاصلاً، لكنَّ **التَّبرُّكَ ليس من المقاصد الْشَّرْعِيَّةِ** كما علمتَ، فلا بُدَّ إذن من المَصْلَحةِ في اشتراط النَّسَبِ، وهي المقصودة من مشروعيتها.

---

١ – أخرجه البخاري (٦٩٣ و٦٩٦ و٧١٤٢) من حديث أنس بلفظه. وأخرج معناه أحمد (٦/٤٠٢ – ٤٠٣) ومسلم (١٨٣٨) من حديث أم حصين. و(١٨٣٧) من حديث أبي ذر.

٢ – مرَّ.

٣ – أي: عند اشتراط القرشية وإهدار ما عداها من شروط.

وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا[1] لم نجدها إلا اعتبار العَصَبِيَّةِ التي تكون بها الحماية والمُطالبةُ، ويرتفعُ الخلافُ والفُرْقة بوجودها لصَاحب المنصبِ، فَتَسكُنُ إليه المِلَّةُ وأهلها، وينتظمُ حبلُ الألفة فيها.

وذلك أنَّ قريشاً كانوا عُصبة مُضَرَ وأصلهم وأهل الغَلَبِ منهم، وكان لهم على سائر مُضَرَ العِزَّةُ بالكثرة والعَصَبِيَّة والشَّرفِ، فكان سائرُ العربِ يعترفُ لهم بذلك، ويستكينون لغلبهم؛ فلو جعل الأمرُ في سواهم لتوقَّعَ افْتِراقُ الكلمةِ بمخالفتهم وعدم انقيادهم، ولا يقدر غيرهم من قبائل مُضَرَ أن يَرُدَّهم عن الخلافِ، ولا يحملهم على الكَرَّةِ[2]، فتتفرَّقَ الجماعة، وتختلف الكَلِمة، والشَّارِعُ محذِّرٌ من ذلك، حريصٌ على اتِّفَاقهم، ورفعِ التَّنَازعِ والشَّتَاتِ بينهم لتحصلَ اللُّحمةُ والعَصَبِيَّةُ، وتحسُنَ الحمايةُ. بخلافِ ما إذا كان الأمر في قريش، لأنَّهم قادرون على سوقِ النَّاسِ بعصا الغَلَبِ، إلى ما يرادُ منهم، فلا يخشى من أحدٍ من خلاف عليهم ولا فُرقة، لأنَّهم كفيلون حينئذٍ بدفعها ومنع النَّاسِ منها، فاشترطَ نسبهم القُرَشِيُّ في هذا المَنْصبِ [ظ٢/٨٢]، وهم أهلُ العَصَبِيَّةِ القَويَّةِ، ليكونَ أبلغَ في انتظامِ المِلَّةِ واتِّفاق الكلمةِ؛ وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمةُ مُضَرَ أجمعَ، فأذعَنَ لهم سائرُ العربِ، وانقادت الأمم سِواهم إلى أحكام المِلَّةِ، ووَطِئَت جنودهم قَاصِيَةَ الْبلادِ، كما وقعَ في أيَّامِ الفتُوحاتِ، واستمرَّ بعدها في الدَّوْلَتَيْنِ إلى أن اضْمَحَلَّ أمْرُ الخِلافَةِ وَتلاشت عَصَبِيَّةُ العَرَبِ.

ويعلمُ ما كان لقريشٍ من الكثرةِ والتَّغَلُّبِ على بُطُوْنِ مُضَرَ من مَارَسَ أخْبَارَ العربِ وَسِيَرَهُم وتَفَطَّنَ لذلك في أحوالهم. وقد ذكر ذلك ابن إسحاقَ في كتاب السِّيَرِ وغيرِهِ.

فإذ ثَبَتَ أنَّ اشتراط القُرَشِيَّةِ إنَّما هو لدفعِ التَّنازعِ بما كان لهم منَ العَصَبِيَّةِ والغَلَبِ، وعلمنا أنَّ الشَّارعَ لا يخصُّ الأحكام بجيلٍ ولا عصرٍ ولا أُمَّةٍ، علمنا أنَّ ذلك إنَّما هو من الكفاية فرددناهُ إليها، وطردنا[3] **العِلَّة المشتملة على المقصودِ من القُرشية، وهي وجود العَصَبِيَّةِ**، فاشترطنا في القائمِ بأمورِ المُسلِمِينَ أن يكون من قومٍ أولي عَصَبِيَّة قوية غالبة على من معها لعصرها، ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية. ولا يعلم ذلك

---

١ - قسم أمره: قدره، أي: إذا نظرنا وبحثنا.
٢ - أي: الرجوع. أي: رجوعهم عن الخلاف.
٣ - أي: عممناها وجعلناها مطردة.

في الأقطارِ والآفاق كما كان في القُرشيَّة، إذ الدَّعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامَّةً، وعَصَبيَّةُ العربِ كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم. وإنَّما يُخص لهذا العهد كل قطرٍ بمن تكونُ لهُ فيه العصبية الغالبة.

وإذا نظرتَ سرَّ الله في الخلافة لم تعدُ هذا[١]؛ لأنَّهُ سبحانه إنَّما جعلَ الخليفةَ نائباً عنه في القيام بأمور عبَاده، ليحملهم على مصالحهم، ويرُدَّهم عن مَضَارِّهم، وهو مخاطبٌ بذلك، ولا يخاطَبُ بالأمر إلاَّ من له قدرةٌ عليه. ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب[٢] في شأن النِّسَاء، وأنَّهُنَّ في كثيرٍ من الأحكامِ الشَّرعية جعلنَ تبعاً للرِّجال، ولم يدخلنَ في الخطاب بالوضعِ، وإنَّما دخلنَ عندهُ بالقياس، وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيءٌ وكان الرِّجالُ قوَّامينَ عليهن، اللهمَّ إلا في العبادات التي كلُّ أحد فيها قائمٌ على نفسه، فخطابُهُنَّ فيها بالوضعِ لا بالقياس، ثُمَّ إنَّ الوجودَ[٣] شَاهدٌ بذلك، فإنَّهُ لا يقومُ بأمر أمة أو جيلٍ إلا من غَلَبَ عليهم، **وقلَّ أنْ يكون الأمر الشَّرْعِيُّ مخالفاً للأمر الوُجودي**. والله تعالى أعلَمُ.

---

١ - وقد تبين لي سرٌّ آخر، وهو: أن الشارع علم من أخلاق الناس والأمم أنها لا تدين إلا لمن تخضع له نفوسهم بأمر الشرع، فحثهم أن يجعلوا للقرشي المنزلة، حتى لا تختلف النفوس، ولا تضيع حماية الدين بانتقالها إلى أناس لم ينزل القرآن بلغتهم. فكان المقصد العام دفع الخصام والتنازع بحصر أمور الخلافة في بقعة محددة ليتفرغ الناس إلى معاشهم، وليتفاضل القرشيون في صفات الخير وفضائله، وهذا كالقوانين التي توضع تحدد صفات الرئيس، وبمقدار المحافظة عليها يكون الهدوء والسكينة والسعادة والرخاء. ذلك أنه لا يكون تنازع إلا في الفضائل، فينتقل حال الناس من البحث عن التغلبات إلى تحسين المعاش لأنه مرتبط بالمعاد... وما أُصبنا ونكبنا إلا بانتزاع السلطان من العرب وعدم الالتفات إلى مثل هذه التوجيهات. والله أعلم.

٢ - قال الهوريني: الإمام ابن الخطيب هو الفخر الرَّازي.

٣ - أي الواقع.

١-٣-٢٧- الْفَصْلُ السَّابعُ والعشرون
في مَذَاهِبِ الشِّيْعَةِ في حكمِ الإمامةِ

اِعْلَمْ: أَنَّ الشِّيْعَةَ لُغَةً: همُ الصَّحْبُ والأَتْبَاعُ، ويُطلقُ في عرفِ الفقهاءِ والمُتَكَلِّمينَ[1] مِنَ الخَلَفِ وَالسَّلَفِ على أتْبَاعِ عليٍّ وَبَنِيْهِ رضي الله عنهم، **ومذهبهم** جميعاً متّفقين عليه أنَّ الإمامة ليست من المَصَالِحِ العامَّةِ التي تُفَوَّضُ إلى نظرِ الأُمَّةِ، ويتعيَّنُ القائمُ بها بتعيينهم، بل هيَ رُكنُ الدِّيْنِ وقاعدةُ [ظ١/٨٣] الإسْلاَمِ، ولا يجوزُ لنبيٍّ إغفالُهُ ولا تفويضُهُ إلى الأمَّةِ، بل يجبُ عليه تعيينُ الإمامِ لهم، ويكونُ مَعْصُوماً منَ الكبائرِ والصَّغائرِ؛ وإنَّ عليّاً رضي الله عنه هو الَّذِي عَيَّنَهُ صَلَواتُ اللهِ وَسَلاَمهُ عليه، بنصوصٍ يَنْقُلُوْنَهَا ويُؤَوِّلونها على مُقْتَضَى مَذْهَبِهِم، لا يعرفها جَهَابذَةُ السُّنَّةِ وَلاَ نَقَلَةُ الشَّرِيْعَةِ، بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ، أو مَطعونٌ في طريقهِ، أو بعيدٌ عن تأويلاَتهم الفَاسِدَةُ.

وتنقسمُ هذه النُّصُوصُ عندهم إلى جَلِيٍّ وَخَفِيٍّ:

فَالْجَلِيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ: **«مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مولاهُ»**[2]. قالوا: و لم تطَّرد هذه الولاية إلاّ في علي، ولهذا قال له عمر: أَصْبَحتَ مولى كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ. ومنها قولُهُ: **«أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ»**[3]. ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله، وهو المرادُ بأولي الأمرِ الواجبةِ طاعتهم بقوله: ﴿أَطِيْعُوا اللهَ وأَطِيْعُوا الرَّسولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[النساء: ٥٩]. والمراد الحكم والقضاء، ولهذا كان حكماً في قضيَّة الإمامة يوم السَّقيفةِ، دون غيره. ومنها قوله: **«من يُبَايِعُنِي عَلَى رُوْحِه، وَهُوَ وَصِيِّي وَوَلِيُّ هذا الأمرِ من بعدي»**[4]. فلم يبايعهُ إلا علي.

---

١ – أي: علماء التوحيد.

٢ – أخرجه الترمذي (٣٧١٣) من حديث أبي سريحة أو زيد بن أرقم. وأحمد (٢٨١/١) عن البراء، و(٨٤/١ و١١٨ و١١٩ و١٥٢ و٣٦٦/٥ و٤١٩) عن علي. و(٣٥٠/٥) وانظر مجمع الزوائد (١٢٨/٩ –) وابن حبان (٦٩٣٠) عن بريدة.

٣ – أخرجه الطبراني في الصغير (٥٥٦) عن جابر بإسناد حسن كما قال الهيثمي في المجمع (١٤٩١٨) وأخرجه أبو يعلى (٥٧٦٣) عن ابن عمر بإسناد ضعيف جداً.

٤ – لم أجده بهذا اللفظ، وإنما أخرج أحمد (٣٠٦٢) والطبراني في الكبير (١٢٥٩٣) من حدث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيكم يواليني في الدنيا والآخرة؟ فأبوا قال: فقال علي: أنا أواليك في الدنيا والآخرة، فقال: أنت ولي في الدنيا والآخرة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت ولي كل مؤمن بعدي». وأخرج الطبراني في الكبير (٦٠٦٣) بإسناد ضعيف جداً عن سلمان قال: قلت: يا رسول الله، إن لكل نبي وصيّاً، فمن وصيك؟ فسكن عني، فلما كان بعد رآني فقال: يا سلمان. فأسرعت إليه قلت: لبيك، قال: تعلم

ومن **الخفيّ** عندهم: بعثُ النَّبي صلى الله عليه وسلم عليّاً لقراءة سورة بَرَاءَةَ في الموسمِ حينَ أُنْزلتَ[١]، فإنه بعثَ بها أَوّلاً أَبَا بكر، ثُمَّ أُوْحيَ إليه: **لِيُبَلِّغهُ رجلُ منكَ، أو من قومك**، فبعثَ عليّاً، ليكون القارىءُ المُبَلِّغ. قالوا: وهذا يدلُّ على تقديم عليّ.

وأيضاً: فلم يُعرف أنَّه قدم أحداً على عليّ. وأمَّا أبو بكر وعمر فقدَّمَ عليهما في غَزَاتَيْنَ[٢] أُسَامة بن زيد مرَّةً، وعمرو بنَ العاصِ أخرى. وهذه كلُّها أدلَّةٌ شاهدةٌ بتعيينِ عليٍّ للخلافة دون غيره. فمنها ما هو غيرُ معروفٍ ومنها ما هو بعيدٌ عن تأويلهم.

ثُمَّ منهم من يرى أَنَّ هذه النُّصُوصَ تدلُّ على تعيينِ عليٍّ وتشخيصه، وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الإمامية؛ ويتبرَّون من الشَّيْخَيْنِ حيثُ لم يُقَدِّمُوا عليّاً ويبايعوهُ بمقتضى هذه النُّصوص، ويَغْمِصُونَ[٣] في إمَامتهما. وَلاَ يُلْتَفَتُ إلى نقلِ القَدْحِ فيهما من غلاتهم، فهو مردودٌ عندنا وعندهم.

ومنهم من يقولُ: إنَّ هذه الأدلَّة إنّما اقتضت تعيينَ عليٍّ بالوصفِ لا بالشَّخص. والنَّاسُ مقصِّرونَ حيثُ لم يضعوا الوصفَ موضعه وهؤلاء هم **الزَّيديَّة**، ولا يتبرؤونَ من

من وصي موسى؟ قال: نعم يوشع بن نون، قال: لِمَ؟ قلت: لأنه كان أعلمهم يومئذ، قال: فإن وصيي وموضع سري، وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي ديني علي بن ابي طالب. قال الهيثمي (١٤٦٦٨): رواه الطبراني وقال: قوله: وصيي. يعني أنه وصاه بأهله لا بالخلافة. وقوله: وخير من أترك بعدي. يعني: من أهل بيته صلى الله عليه وسلم.

١ - أخرج ابن حبان (٦٦٤٤) عن أبي سعيد أو أبي هريرة قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه، فلما بلغ ضَجنَانَ سمعَ بُغَامَ ناقة علي رضي الله عنه، فعرفه، فأتاه فقال: ما شأني؟ قال: خيرٌ، إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم بعثني ببراءة، فلما رجعنا، انطلق أبو بكر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، ما لي؟ قال: خيرٌ، أنت صاحبي في الغار، غير أنه لا يبلغ غيري، أو رجل مني ــ يعني علياً ــ.

وأخرج الترمذي (٣٠٩٠) والنسائي في الخصائص (٧٠) عن أنس بن مالك قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم ببراءة مع أبي بكر ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي. فدعا علياً فأعطاه إياه.

وأخرج النسائي في الخصائص (٧٦) عن علي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ببراءة إلى أهل مكة، قال: فلحقه، فأخذ الكتاب منه، فانصرف أبو بكر وهو كئيب، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أنزل في شيء؟ قال: لا إلا أني أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بيتي.

٢ - قال د. وافي وصوابه: غزوتين مثنى غزوة أو مغزاتين مثنى مغزاة. قلت: وما أتى به المصنف مثنى الغزاة كحصاة: اسمٌ من غزوت العدو. قال ثعلب: إذا قيل غزاةٌ فيه عمل سنة، وإذا قيل: غزوة فهي المرة الواحدة من الغزو. انظر شرح القاموس للزبيدي.

٣ - أي: يعيبونها ولا يعترفون بها.

الشَّيخين ولا يغمصونَ في إمامتهما، مع قولهما بأنَّ عليّاً أفضلُ منهما، لكنَّهم يُجَوِّزون إمامة المفضول مع وجودِ الأفْضَلِ.

ثُمَّ اختلفت نقول هؤلاء الْشِّيْعَةِ في **مسَاق الْخِلاَفَةِ بعدَ عَلِيٍّ**:

فمنهم من سَاقها في وُلدِ فاطمة بالنّصِّ عَليهم واحداً بعدَ واحدٍ على مَا نذكرُ[1] بعدُ، وهؤلاء [ظ٢/٨٣] يُسَمَّون الإماميَّة، نِسْبَة إلى مقالتهم باشتراطِ معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان، وهي أصلٌ عندهم.

ومنهم من ساقَها في ولد فاطمةَ، لكن بالاختيار مع الْشّيُوخ؛ ويشترط أن يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً ويخرجُ داعياً إلى إمامته، وهؤلاء هم **الْزَّيديَّة** نسبةً إلى صاحب المذهب، وهو زيدُ بن علي بن الحُسَين الْسِّبط، وقد كان يُناظرُ أخاه محمّداً الباقر على اشتراطِ الخروجِ في الإمام، فيلزمهُ الباقرُ أنْ لاَ يَكونَ أبوهما زَيْنُ الْعَابدِيْنَ[2] إماماً، لأنَّهُ لم يخرُج ولا تَعرَّضَ للخروج. وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المُعتزلة، وأخذهُ إيَّاها عن واصل بن عطاء، ولمَّا ناظر الإمامية زيداً في إمامةِ الشّيخين، ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرَّأُ منهما رفضوه، ولم يجعلوه من الأئمة، وبذلك سُمُّوا **رافضةً**.

ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه الْسِّبطَيْنِ على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما، محمَّدِ ابن الحَنَفِيَّةِ، ثُمَّ إلى وُلدِهِ، وهم **الكَيْسَانِيَّةُ**، نسبةً إلى كيسان مولاه، وبين هذه الطَّوائفِ اختلافاتٌ كثيرةٌ تركناها اختصاراً.

ومنهم طوائفُ يُسَمَّون **الغُلاَةَ**، تجاوزوا حد العقلِ والإيمان في القول بألوهيَّةِ هؤلاء الأئمةِ: إمَّا على أنَّهم بشرٌ اتَّصَفُوا بصِفَاتِ الألوهيَّةِ أو أنَّ الإلهَ حلَّ في ذَاته[3] البَشَرية، وهو قول بالحلول يوافقُ مذهب النَّصَارى في عيسى، صلواتُ اللهِ عليه، ولقد حَرَقَ عليٌّ رضي الله عنه بالنَّار من ذهب فيه إلى ذلك منهم، وسخطَ محمدُ ابنُ الحَنَفِيَّةِ المختارَ بن أبي عُبَيدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مثلُ ذلك عنه فَصَرَّحَ بلعنته والبراءةِ منهُ، وكذلك فعلَ جعفرٌ الْصَّادقِ رَضِيَ الله تعالى عنه بمن بلغه مثلُ هذا عنه.

---

١ - في ن: يذكر.

٢ - هو علي بن الحسين السِّبط.

٣ - في ن: ذاتهم.

ومنهم من يقولُ: إنَّ كمالَ الإمامِ لا يكونُ لغيره، فإذا ماتَ انتقلت روحهُ إلى إمامٍ آخرَ ليكون فيه ذلك الكمالُ، وهوَ قوْلٌ **بالتَّناسُخ**.

ومن هؤلاء الغُلاَةِ من يقفُ عند واحد منَ الأئمة لا يتجاوزُهُ إلى غيرهِ بحسبِ من يُعَيَّنُ لذلك عندهم وهؤلاء هم **الواقِفِيَّةُ، فبعضهم يقول:** هو حيٌّ لم يمت إلا أنَّهُ غائبٌ عن أعينِ النَّاس، ويستشهدونَ لذلك بقِصَّةِ الخضر[1]. **قيلَ مِثْلُ** ذلك في عليٍّ رضي الله عنه، وأنَّهُ في الْسَّحابِ، والْرَّعدُ صَوْتُهُ، والبرقُ في سوطه[2]. **وقالوا مثلهُ** في محمد ابن الحنفية وأنَّهُ في جبلِ رَضْوَى من أرضِ الحِجَازِ، وقال شاعرهم:

أَلاَ إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلاَةُ الحَقِّ أربَعَةٌ سَوَاءُ
عَلِيٌّ والثَّلاثَةُ مِنْ بَنِيْهِ ... هُمُ الأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ ... وَسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاَءُ[3]
وَسِبْطٌ لاَ يَذُوْقُ الموتَ حَتَّى ... يَذُودَ[4] الجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللِّواءُ[5]
تَغَيَّبَ لا يُرَى فِيْهِم زَمَاناً ... بِرَضْوى عِندَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ

[ظ٨٤/١] **وقال مثله** غُلاَةُ الإماميَّة، وخُصوصاً الاثني عَشَرية منهم، يزعمون أنَّ الثَّاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن الحسن الْعَسْكَرِيُّ - ويُلَقِّبونه المَهْدِيَّ - دخل في سِرداَبٍ بدارهم في الحَلَّةِ[6]، وتغَيَّبَ حينَ اعتُقِلَ مع أُمِّهِ وغابَ هُنَالِكَ، وهو يخرجُ آخرَ الزَّمان فَيَمْلأُ الأَرْضَ عدلاً، يُشِيرون بذلك إلى الحديث الواقعِ في كتاب الْتِّرمذي[7] في المَهدي؛ وهم إلى الآن ينتظرونه ويُسَمُّونه **المُنْتَظَر** لذلك، ويقفون في كُلِّ لَيْلَةٍ بعد صلاةِ المغربِ ببابِ هذا الْسِّرْدَابِ، وقد قَدَّموا مركباً فيهتفونَ باسمه، ويدعونه للخروجِ حتَّى تَشْتَبِكَ النُّجومُ، ثُمَّ يَنْفَضُّونَ ويرجؤونَ الأمرَ إلى اللَّيْلَةِ الآتِيَةِ، وهم على ذلك لهذا العهد.

---

١ - رويت القصة في القرآن الكريم في سورة الكهف.
٢ - في ن: صوته.
٣ - الأول: الحسن. والثاني: الحسين شهيد كربلاء رضي الله عنهما.
٤ - في ن: (يقود).
٥ - هو محمد بن الحنفية بن علي ويسمى سبطاً تجوزاً. د. وافي.
٦ - اسم بلد قرب بغداد.
٧ - انظرها في الترمذي (٢٢٣٠ و٢٢٣١) من حديث أبي هريرة وابن مسعود.

وَبعْضُ هؤلاء الواقِفِيَّةِ يقول: إنَّ الإمَامَ الذي ماتَ يرجعُ إلى حياته الدُّنيا، ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف، والذي مرَّ على قرية[1]، وقتيل بني إسرائيل حينَ ضُربَ بعظام البقرةِ التي أمروا بذبحها[2]. ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة، ولا يصحُّ الاستشهاد بها في غير مواضعها، وكان من هؤلاء السيِّد الحِمْيَريُّ، ومن شعره في ذلك:

إذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَذَالٌ[3] ... وَعَلَّلَهُ الْمَوَاشِطُ[4] بالخِضَابِ

فَقَدْ ذَهَبَتْ بَشَاشَتُهُ وَأَوْدَى ... فَقُمْ يَا صَاحِ نَبْكِ عَلَى الْشَّبابِ

إلَى يَوْمٍ تَثُوبُ[5] النَّاسُ فيه ... إلى دُنْيَاهم قَبْلَ الْحِسَابِ

فَلَيْسَ بعائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ ... إلَى أحدٍ إلى يومِ الإيَاب

أَدِيْنُ بِأَنَّ ذلك دِينُ حَقٍّ ... وَمَا أنا في النُّشُوْرِ بِذِي ارتِيَابِ

كَذَاكَ الله أخبرَ عن أُنَاسٍ ... حَيُوا من بعد درس في التُّراب

وقد كفانا مؤونة هؤلاء الغلاةِ أئمة الْشِّيْعَةِ، فإنَّهم لا يقولون بها، ويُبْطِلُونَ احتجاجاتهم عليها.

وأمَّا **الْكَيْسَانِيَّةُ**: فَسَاقُوا الإمامةَ من بعدِ مُحَمَّدِ ابن الحَنَفِيَّةِ إلى ابنهِ أبي هاشمٍ وهؤلاءِ همُ **الهاشِمِيَّةُ**. ثُمَّ افترقوا: **فمنهم** من ساقها بعدهُ إلى أخيهِ عليٍّ ثُمَّ إلى ابنه الحسن بن عليٍّ، **وآخرونَ** يزعمون أنَّ أبا هاشمٍ لَمَّا ماتَ بأرضِ الْسَّراةِ منصرفاً منَ الشَّام، أَوْصَى إلى محمد ابن عليّ بن عبد الله بن عبَّاس، وأَوْصَى محمد إلى ابنه إبراهيمَ المعروفِ بالإمامِ، وأوصَى إبراهيمُ إلى أخيهِ عبد الله بن الحارثيَّة الملقب بالسَّفَّاحِ، وأوصَى هو إلى أخيهِ عبد الله أبي جعفر الملقَّب بالمنصُوْر، وانتقلت في ولده بالنَّصِّ والعهدِ واحداً بعد واحدٍ إلى آخرهم، وهذا مذهبُ الهاشِمِيَّةِ القائمينَ بدولةِ بني العبَّاسِ، وكان منهم أبو مُسلم[6] وَسُلَيْمَانُ بنُ

---

١ - القصة مذكور في سورة البقرة الآية: ٢٥٩.

٢ - سورة البقرة: [٦٧ - ٧٣].

٣ - وهو جماع مؤخر الرأس.

٤ - جمع ماشطة وهي التي ترجل الشعر وتمشطه.

٥ - في ن: تؤوب.

٦ - الخراساني من أصحاب الفضل الأكبر في قيام الدول العباسية.

كَثِيْرٍ[١]، وأبو سَلَمةَ الخَلَّال وغيرهم، من شيعةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وَرُبَّما يَعْضِدُوْنَ[٢] ذَلِكَ بأنَّ حقهم في هذا الأمرِ يصلُ إليهم من العبَّاسِ، لأنَّه كان حيّاً وقت الوَفَاةِ، وهو أولى بالوراثةِ بعَصبيَّةِ العُمُومة.

وأمَّا الْزَّيدية: فَسَاقوا الإمامة على مذهبهم فيها، وأنَّها باختيار أهلِ الحلِّ والعقدِ، لا بالنَّصِّ، فقالوا بإمامة علي، ثم ابنه الحسنِ ثُمّ أخيه [ظ٢/٨٤] الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، ثُمَّ ابنه زيد بن علي، وهو صاحب هذا المذهب، وخرج بالكوفةِ داعياً إلى الإمامة فقُتلَ، وصُلِبَ بالكُنَاسَةِ[٣]، وقال الزَّيدية بإمامة ابنهِ يحيى من بعدهِ فمضى إلى خراسان وقُتِل بالجوْزَجَان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسنِ بن الحسنِ الْسِّبْطِ، ويقال له: **النَّفسَ الزَّكِيّةُ**، فخرجَ بالحجازِ، وتلقّبَ بالمهديِّ، وجاءته عساكرُ الْمَنْصُوْرِ، فقتلَ وعَهِدَ إلى أخيه إبراهيمَ، فقامَ بالبصرةِ، ومعه عيسى بن زيد بن علي فوَجّهَ إليهم المَنصورُ عسَاكرهُ، فهُزِمَ وقُتِلَ إبراهيمُ وعيسى، وكان **جعفرُ الْصَّادقُ** أخبرهم بذلك كلِّه وهي معدودة في كراماته.

وذهب آخرون منهم إلى أنَّ الإمام بعد محمّد بن عبد الله النَّفْسِ الْزَّكِيَّة، هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر، وعمرُ هو أخو زيدٍ بن علي، فخرجَ محمَّدُ بن القاسم بالطَّالقَانِ، فقُبضَ عليه وسِيقَ إلى الْمُعْتَصِمِ فحبسهُ وماتَ في حبْسِهِ.

وقال آخرون من الزَّيْدِيَّة: إنَّ الإمام بعدَ يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضرَ معَ إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور. ونقلوا الإمامة في عقبه، وإليه انتسبَ دَعِيُّ الزَّنجِ، كما ذكرهُ في أخبارهم.

وقال آخرونَ من الزَّيديَّة: إنَّ الإمام بعدَ محمَّدِ بن عبد اللهِ أخوهُ إدريسُ الَّذي فرَّ إلى المغربِ وماتَ هنالك، وقامَ بأمْرِهِ ابنهُ إدْريسُ، واختطَّ مدينةَ فاسَ، وكان من بعدهِ عَقِبُهُ ملوكاً بالمغرب، إلى أن انْقَرَضُوا كما نذكرهُ في أخبارهم. وبقيَ أمرُ الْزَّيديَّة بعد ذلك غير منتظمٍ. وكان منهم الدَّاعِي الذي ملك طَبَرْسْتَانَ وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل ابن الحسن بن زيد بن علي بن الحُسين السِّبط. وأخوهُ محمَّدُ بن زيد. ثُمَّ قامَ بهذه الدَّعوة في الْدَّيْلَمِ، النَّاصِرُ الأَطْرُوْشُ منهم، وأسلموا على يده، وهو الحسنُ بنُ عَلِيٍّ بن الحسن بن

---

١ - سليمان الخزاعي النقيب، انظر أخباره في تاريخ الطبري (الفهارس).

٢ - أي: يؤيدون رأيهم.

٣ - وهو موضع بالكوفة.

علي بن عمرَ، وعمرَ أخو زَيْدِ بْنِ عليٍّ، فكانت لبنيه بطبرستان دولة، وتوصَّل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغدادَ، كما نذكرُ في أخبارهم.

وأمَّا الإمَاميَّةُ: فَسَاقُوا الإمامة من عليٍّ رضي الله عنه[1] إلى ابنهِ الحسن بالْوَصِيَّةِ، ثُمَّ إلى أخيهِ الحُسَينِ، ثُمَّ إلى ابنهِ علي زين العابدين، ثُمَّ إلى ابنه محمد الباقرِ، ثُمَّ إلى ابنه جعفرٍ الْصَّادِق، ومن هنا افترقوا فِرْقَتَيْنِ: فرقةً سَاقُوها إلى ولدهِ إسْمَاعِيْلَ ويعرفونه بينهم بالإمامِ وهم **الإسْمَاعِيلِيَّةُ**؛ وَفِرْقَة سَاقُوْهَا إلى ابْنِهِ مُوْسَى الكَاظِمِ، وهمُ **الاثْنَا عَشَرِيَّةُ** لوقوفهم عندَ الثَّاني عَشَرَ منَ الأئِمَّةِ، وقولهم بغَيْبَتِهِ إلى آخرِ الزَّمَان كما مرَّ.

فأمَّا الإسْمَاعِيلِيَّةُ: فَقَالُوا بإمامة إسماعيل الإمام بالنّصِّ من أبيه جعفر، **وفائدةُ النّصِّ عليه عندهم**، وإنْ كَانَ قد ماتَ قبل أبيه: إنَّما هو بقاءُ الإمامة في عقبه، كَقِصَّةِ هارونَ مع موسى صلواتُ اللهِ عليهما، **قالوا**: ثُمَّ انتقلتِ [ظ١/٨٥] الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، وهو أوّلُ الأئمة المستورين، لأنَّ الإمامَ عندهم قد لا يكون له شوكةٌ فيستترُ، وتكونُ دُعَاتُهُ ظاهرينَ إقامةً للحجَّةِ على الخلق، وإذا كانت له شوكةٌ ظهرَ، وأظهر دعوته. **قالوا**: وبعد محمد المكتوم، ابنهُ جعفرُ المُصدَّق[2]، وبعدهُ ابنه محمد الحَبيبُ، وهو آخر المَسْتُورِيْنَ، وبعدهُ ابنه عبد اللهِ[3] المَهْدِيُّ الَّذِي أظهرَ دعوته أبو عبد الله الشِّيْعِيُّ في كُتَامَةَ، وتتابعَ النَّاسُ على دعوته، ثُمَّ أخرجه من مُعْتَقَلِهِ بسِجِلْمَاسَةَ ومَلكَ القَيْرَوانَ والمغربَ، وملكَ بنوهُ من بعدُ مِصْرَ كما هو معروفٌ في أخبارهم.

ويُسَمَّى هؤلاء: الإسْمَاعِيلِيَّةُ نسبةً إلى القولِ بإمامة إسماعيلَ، ويُسَمَّونَ أيضاً **بالبَاطِنِيَّة** نسبة إلى قولهم بالإمام الباطنِ ـ أي: المستور ـ ويُسَمَّونَ أيضاً **المُلْحِدَة** لما في ضِمْنِ مقالتهم من الإلحادِ، ولهم مقالاتٌ قديمةٌ ومقالاتٌ جديدةٌ، دعا إليها الحسنُ بن محمّد الصَّبَّاح في آخرِ المئةِ الخامسةِ، وملكَ حُصُوناً بالشَّام والعراق، و لم تزل دعوته فيها إلى أن توزَّعها الهلاكُ بين ملوكِ التُّرْكِ بمِصْرَ، ومُلُوْكِ التَّتَرِ بالعراقِ، فانْقَرَضَتْ. ومقالةُ هذا الْصَّبَّاحِ في دعوته مذكورةٌ في كتابَ **المللِ والنِّحَلِ لِلْشَّهْرَسْتَانِيِّ**.

وأمَّا الاثنا عَشْرِيَّةُ، فربَّما خُصُّوا باسمِ الإمامية عند المتأخرين منهم، فقالوا بإمامة موسى الكَاظِمِ بن جعفرِ الْصَّادِقِ، لوفاةِ أخيه الأكبر إسماعيل الإمام في حياةِ أبيهما جعفرٍ،

---

١ - في المطبوعات: علي الرِّضَا. خطأ صوابه: علي بن أبي طالب. كما في ظ.
٢ - هكذا في الأصل وفي ن: جعفر الصَّادق.
٣ - لعل صوابه: عبيد الله المنسوب إليه العبيديون.

فنصَّ على إمامة موسى هذا، ثُمَّ ابنه عليٌّ الرِّضا الذي عهد إليه المأمونُ، ومات قبلـه، فلـم يتمَّ له أمرٌ. ثُمَّ ابنهِ محمَّد التقيِّ، ثُمَّ ابنهِ علي الهَادِيِّ، ثُمَّ ابنهِ محمَّد الحَسَنِ العَسْكَرِيّ، ثُـمَّ ابنه محمَّدِ المهديِّ المنتظرِ الَّذِي قَدَّمناهُ قبلُ.

وفي كلِّ واحدةٍ من هذه المقالاتِ للشِّيعةِ اختلافٌ كثيرٌ، إلا أنَّ هـذه أشـهرُ مذاهبهـم، ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب **المللِ والنِّحلِ لابن حزم والشَّهرستاني** وغيرهما. ففيها بيانُ ذلك. و﴿الله يُضِلُّ من يشاءُ﴾[فاطر: ٨] ﴿ويهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[يونس: ٢٥] ﴿وهو العليُّ الكبير﴾ [سبأ: ٣٤].

١-٣- ٢٨- الْفَصْلُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُوْنَ

فِي انْقِلَابِ الخلافَةِ إلى الملك

اعلم أنَّ الملكَ غايةٌ طبيعيَّةٌ للعَصَبيَّةِ(١)، لَيْسَ وقوعه عنهـا باختيـار، إنَّما هـو بضَـرُوْرَةِ الوجودِ وترتيبه كما قلنـاه مـن قبلُ، وأنَّ الشَّـرائعَ والدِّيَانَـاتِ وكـلَّ أمـرٍ يُحمـلُ(٢) عليـه الجُمْهُورُ فلا بُدَّ فيه منَ الْعَصَبِيَّةِ، إذِ الْمُطَالَبَةُ لا تتمُّ إلا بها كما قدَّمناهُ.

---

١ – يركز ابن خلدون على العصبية وتجد حديثه عنها مبثوثاً في الكتـاب، ومـن الملاحظـات العامـة حـول هـذا المفهوم في الكتاب القيم للدكتور محمد عابد الجابري، (دار الطليعة١٩٨٢) ص:٤٥٨-٤٦٠ قال:

أ – العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه. والمقصود بالنسب ليس الرابطة الدموية، فهو بهذا المعنى، أمر وهمي لا حقيقة له، وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم. وإنما المقصود بالنسب فائدته وثمرته وهي: هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة. وما فوق ذلك مستغنى عنه. وكل ما يقع به هذا الالتحام فهو داخل في معنى النسب، ومنه: الحلف والولاء والاصطناع وطول المعاشرة والصحبة وسائر أمور الموت والحياة. وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر.

ب – غير أن هذا الالتحام لا يشتد ويصبح عصبية إلا إذا كان هناك ما يهدد كيان الجماعة. فإن القريب يجد في نفسه إضافة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، نزعة طبيعية في البشر منذ كانوا. وبالنظر إلى ما تقدم يمكن تعريف العصبية عند ابن خلدون بأنها رابطة اجتماعية سيكولوجية – شعورية ولا شعورية - تربط أفراد جماعة معينة قائمة على القرابة المادية أو المعنوية، ربطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة.

جـ – إن تقيد يقظة العصبية بوجود تهديد أو عدوان يدل على أن فاعلية العصبية لا تشتد إلا عندما تمسُّ المصلحة المشتركة للجماعة، وهي المصلحة التي تشكل فيها أمور المعاش العنصر الرئيسي والفعال. وإذن فلا بد من استحضار هذه الصبغة الاقتصادية في الصراع العصبي لفهم نظرية ابن خلدون في العصبية. إن الفاعلية السياسية للعصبية، وهذا ما يهم ابن خلدون في الدرجة الأولى تستهدف الحصول على الجاه والملك من أجل توابعه من الترف والنعيم.

د – العصبية ظاهرة خاصة بالبدو لأن أحياءهم (مفتوحة) وتحتاج في الدفاع عنها إلى تكتل وتعاضد فتيانها الشجعان.

وأما الحضر فإن أسوار المدينة وحاميات الدولة تكفيهم مؤونة الدفاع عن أنفسهم وأموالهم، ولذلك فهم لا يحتاجون إلى التعصب والالتحام. أن العصبية في البادية بمثابة الأسوار في المدن.

هـ – العصبية خاصة وعامة: العصبية الخاصة هي المبنية على النسب القريب. والعصبية العامة هي التي تقوم على النسب البعيد. وكل عصبية عامة تتألف من عدة عصبيات خاصة. ومن هنا كانت العصبية تقوم على الكثرة داخل الوحدة، على التنافس والتنافر داخل التعاون والتناصر. ولا تصبح العصبية قوة سياسية إلا إذا التحمت العصبيات الخاصة المتنافسة في إطار عصبية عامة واحدة. غير أن هذا الالتحام العصبي مشروط بوجود ظروف معينة يعبر عنها ابن خلدون بهرم الدولة.

و – هذا والعصبية بالمعنى المشار إليه يعتبرها ابن خلدون عصبية طبيعية إذ لا بد منها في الحماية والمطالبة والمواجهة. أما العصبية المستندة فقط على التعصب للأنساب والاعتداد بها فهي عصبية جاهلية لا فائدة فيها مطلقاً، وهي المقصودة بذم الشارع للعصبية.

٢ – في ن: يَحُلُّ.

فَالْعَصَبِيَّةُ ضروريَّةٌ للمِلَّةِ وبوجودها يتمُّ أمرُ ا لله منها، وفي الْصَّحيح: «**ما بَعَثَ ا للهُ نبيّاً إلا في منعَةٍ من قوْمِهِ**»[1].

ثُمَّ وَجَدْنَا الْشَّارِعَ[2] قد ذَمَّ العَصَبِيَّة، وندبَ إلى اطِّراحها وتركها فقال: «**إنَّ ا للهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ**[3] **الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بالآباء، أنتم بَنُو آدمَ وَآدَمُ من تُرَابٍ**»[4]. وقال تعالى: ﴿إنَّ أَكرَمَكُمْ عِنْدَ ا للهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]. ووجدناه أيضاً قد ذمَّ الملك وأهلهُ، ونعى على أهلِهِ أحوالهم من الاستمتاع بالخَلاَق[5] [ظ٢/٨٥]، والإسْرَافِ في غير القصدِ، والتنكُّبِ عن صراطِ ا للهِ، وَإِنَّما حضَّ على الألفةِ في الدّينِ وحذرَ من الخلافِ والفرقة.

واعلم: أنَّ الدُّنياَ كلها وأحوالها عند الشارع مطيَّةٌ للآخرة، ومن فقد المطيَّة فقد الوُصُولَ، وليسَ مُرادُهُ فيما ينهى عنه أو يذمُّهُ من أفعال البشر، أو ينْدُبُ إلى تَرْكِهِ إهمالهُ بالكليَّةِ، أو اقتلاعه من أصله، وتعطيلُ القوى الَّتِي يَنْشَأَ عليها بالكُلِّيَّةِ؛ إنَّما قَصدُهُ تصريفها في أغراضِ الحقِّ جهدَ الاستطاعة، حتى تصِير المَقاصدُ كُلُّهَا حقّاً، وتتحد الْوِجهةُ، كما قال صلى ا لله عليه وسلم: «**مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى ا للهِ وَرَسُوْلِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى ا للهِ وَرَسُوْلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيْبُها أو امْرَأَةٍ يَتزوَّجها، فهجرته إلى ما هَاجَرَ إليهِ**»[6].

فلم يذمَّ **الغضبَ**، وهو يقصدُ نَزْعَهُ منَ الإنْسَان، فإنَّهُ لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصَارُ للحقِّ، وَبَطَلَ الجهادُ وإعلاءُ كلمَة ا للهِ؛ وإنَّما يَذُمُّ الغَضَبَ لِلْشَّيطان وللأغراضِ الذَّميمةِ، فإذا كانَ الغَضَبُ لذلكَ كان مذموماً، وإذا كان الغضبُ في ا لله و لله كان ممدوحاً، وهو منَ شمائلِهِ صلى ا لله عليه وسلم.

---

١ – ليس في صحيح البخاري ولا مسلم، وإنما أخرجه أحمد (٢/٣٣٢ ٣٤٦، ٣٨٤ ٣٨٩، ٤١٦ن ٥٣٣) والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥ و٨٩٦) والترمذي (٣١١٦) من حديث أبي هريرة.

٢ – أي: الرَّسول صلوات ا لله وسلامه عليه.

٣ – أي: الكبر والفخر. مأخوذ من العَبِ: النور والضوء، وقيل: من العِبءِ: الثقل.

٤ – أخرجه أحمد (٢/٣٦١) رقم (٨٧٤٤) وأبو داود (٥١١٦) والترمذي (٣٩٥٠ و٣٩٥١) من حديث **أبي** هريرة. والترمذي (٣٢٦٦) من حديث ابن عمر، والبزار (٢٠٤٣ و٣٥٨٤) معناه من حديث حذيفة، و**أحمد** (٢٧٣٩) والطبراني في الكبير (١١٨٦١ و١١٨٦٢) بعضه من حديث ابن عباس. وانظر مجمع الزوائد (٨/ص١٦١ – ١٩٣).

٥ – في ظ: الاستماع بالخلاف. والخلاق: النصيب. من قوله تعالى: ﴿فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾.

٦ – أخرجه البخاري (١ و٢٥٢٩ و٣٨٩٨ و٦٦٨٩ و٦٩٥٣) ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر.

وكذا ذمُّ **الشَّهوات** أيضاً لَيْسَ المُرادُ إبطَالها بالكُلِّيَّة فإنَّ من بَطَلت شَهوته، كانَ نَقصاً في حَقِّه؛ وَإنَّما المرادُ تَصْريفها فيما أُبيحَ لهُ باشتماله على المَصَالحِ ليكونَ الإنْسَان عَبداً متصرِّفاً طوعَ الأوامرِ الإلهيَّة.

وكذا **العَصَبيَة** حيثُ ذمَّها الشَّارِع، وقال:﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ﴾[الممتحنة: ٣]. فإنَّما مُرادهُ حيثُ تكونُ العَصَبيَّة على الباطلِ وأحوالِه، كما كانت في الجاهِليَّةِ، وأنْ يكونَ لأحد فخرٌ بها أو حقٌّ علَى أحدٍ، لأنَّ ذلكَ مَجَّانٌ[1] من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرةِ التي هي دار القرارَ. فأمَّا إذا كانت العَصَبيَّةُ في الحقِّ وإقامَةَ أمر الله فأمر مطلوبٌ، ولو بطلَ لبطَلتِ الشَّرائعَ إذ لا يتمُّ قوامها إلا بالعَصَبية، كما قلناه من قبلُ.

وكذا **المُلكُ** لَمَّا ذَمَّهُ الشَّارع لم يذُمَّ منه الغلب بالحقِّ، وقهر الكافَّةِ على الدِّيْن، ومراعاةَ المَصَالحِ، وإنَّما ذمَّهُ لما فيه من التَّغلُّبِ بالباطلِ، وتصريفِ الآدَمِيِّينَ طوعَ الأغراضِ والشَّهواتِ كما قلناه. فلو كان الملكُ مُخلصاً في غَلَبِهِ للنَّاسِ، أنَّهُ للهِ ولحملهم على عبادة الله، وجهاد عدُوِّهِ، لم يكن ذلك مذموماً. وقد قالَ سليمانُ صلوات الله عليه: ﴿رَبِّ اغفر لي وهبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾[ص: ٣٥]. لما علمَ من نفسه أنهُ بمعزلٍ عن الباطلِ في النُّبُوَّةِ والملكِ.

ولما لقي معاوية عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشَّام في أبَّهةِ المُلكِ، وزِيّه من العديد والعُدَّة استنكر ذلك، وقال: أَكِسْرَوِيَّةٌ[2] يا مُعَاوِيَةُ؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنَّا في ثغر تجاه العَدُوِّ، وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحربِ والجهادِ حاجةٌ. فسكت ولم يخطئهُ لَما احتجَّ عليه بمقْصَدٍ من مَقَاصِدِ الحقِّ وَالْدِّيْنِ. فلو كان القَصْدُ رفضَ المُلْكِ من أصلهِ لم يقنعه الجوابُ في تلك الكِسرَوِيَّةِ [ظ٨٦/١] وانتحالها، بل كَانَ يُحَرِّضُ على خُرُوْجِهِ عنها بالجُمْلَةِ. وإنَّمَا أراد عُمَرُ بالكِسْرَوِيَّةِ ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارْتِكَابِ البَاطلِ والظُّلْمِ والبَغيِ، وَسُلُوْكِ سُبُلِهِ[3]، والغفْلَةِ عن اللهِ، وأجابهُ مُعَاوِيَةُ بأنَّ القَصْدَ بذلِكَ لَيسَ كِسْرَوِيَّةَ فارسَ وَبَاطِلَهُم، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بهَا وَجْهَ اللهِ، فَسَكَتَ.

وَهَكَذَا كَانَ شأن الصَّحابةِ، في رفض المُلكِ وأحوالِهِ، ونسيان عوائدِهِ حذراً من التباسها بالباطلِ، فَلَمَّا استُحضر[4] رسول الله صلى الله عليه وسلم، استخلفَ أبا بكرٍ

---

١ – أي: كثيرٌ واسعٌ. أو هو بالتخفيف من الجنون.

٢ – يعني أتشبهاً بكسرى في متاع الدنيا ومظاهرها.

٣ – أي طرقه.

٤ – يعني حضرته الوفاة.

على الْصَّلاَةِ، إذ هي أهم أمور الدِّين، وارتضاه النَّاسُ للخلافة، وهي حملُ الكافَّةِ على أحكام الشَّريعةِ، ولم يجر للمُلْكِ ذكرٌ لما أنَّهُ مظنَّةٌ للباطلِ، ونِحْلَةٌ يومئذ لأهل الكُفرِ وأعداءِ الدين. فقام بذلكَ أبو بكر ما شاء الله، مُتَّبعاً سُنَنُ صَاحِبه، وقاتل أهل الرِّدَّةِ حتى اجتمعَ العربُ على الإسلام.

ثُمَّ عَهد إلى عمر فاقتفى أثرهُ، وقاتل الأمم فغالبهم، وأذِنَ للعربِ بانتزاع ما بأيديهم من الدُّنيَا والمُلكِ، فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم. ثُمَّ صارت إلى عُثمانَ بن عفَانَ، ثُمَّ إلى علي رضي الله عنهما. والكلُّ مُتَبرِّؤونَ من المُلكِ مُتَنكِّبونَ[1] عن طُرقه. وأكد ذلك لديهم، ما كانوا عليه من غَضَاضَةِ[2] الإسلام، وبداوةِ العربِ. فقد كانوا أبعد الأمم عن أحوال الدُّنيا وترفها لا من حيث دينهم، الَّذِي يدعوهم إلى الزُّهْدِ في النَّعيم، ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم، وما كانوا عليه من خشونة العيشِ وشظفه الذي ألفوه. فلم تكن أمةٌ من الأمم أسغب[3] عَيشاً من مضر لما كانوا بالحجازِ في أرض غير ذاتِ زرعٍ ولا ضرعٍ، وكانوا ممنوعين من الأرياف وجبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعةَ واليَمَنِ، فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها. ولقد كانوا كثيراً ما يأكلون العقاربَ والخنافسَ، ويفخرون بأكل العِلْهِزْ[4] وهو وبر الإبل يَمْهُونه[5] بالحجارة في الدَّم، ويطبخونه. وقريباً من هذا كانت حالَ قريش في مطاعمهم ومساكنهم. حتى إذا اجتمعت عَصَبِيَّةُ العرب على الدِّينَ، بما أكرمهم الله من نُبُوَّةِ محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا إلى أمم فارسَ والرُّومِ، وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعدِ الصِّدْق، فابتزُّوا[6] ملكهم، واستباحوا دنياهم، فزخرت بحارُ الرَّفه لديهم، حتى كان الفارسُ الواحدُ يقسمُ له في بعضِ الغَزوَاتِ ثلاثون ألفاً من الذَّهب أو نحوها. فاستولوا من ذلك على مَالا يأخذهُ الحصرُ، وهم مع ذلك على خشونة عيشهم، فكان عمرُ يُرقِّعُ ثوبهُ بالجلدِ، وكان عليٌّ يقول: يَا صَفرَاءُ وَيَا بَيضاءُ[7] غُرِّيَ غَيْرِي. وكان أبو موسى يتجافى عن أكلِ الدَّجَاجِ لأنَّهُ لم يعهدها للعربِ

---

١ - تنكب عن الطريق، عدل عنه. وفي ن: منكّبون.

٢ - أي: جدته ونضارته.

٣ - سغب: جاع، وأسغب أدخل في المجاعة، وكأنه قال: أكثر جوعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أو طعام في يوم ذي مسغبة﴾.

٤ - طعام من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة.

٥ - أي: يضربونه بشدة ليرق.

٦ - ابتزّ الشيء: سلبه ورمى به.

٧ - الصفراء والبيضاء هي قطع الذهب والفضة.

لقلّتها يومئذ. وكانت المناخلُ مفقودةً عندهم بالجُملةِ، وإنَّما يأكلون الحِنطةَ بنخالها. ومكاسبهم [ظ٨٦/٢] مع هذا أتمُّ ما كانت لأحدٍ من أهل العلم.

قال المَسْعُوْدِيُّ: في أيَّام **عثمان** اقتنى الصَّحابة الضِّياعَ والمالَ، فكانَ له يوم قتل عند خازنهِ خمسون ومئة ألف دينار وألفَ ألفِ درهمٍ وقيمة ضياعه بوادي القرى وحُنَيْن وغيرهما مئتا[1] ألف دينار، وخلَّفَ إبلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثُّمنُ الواحدُ من متروكِ **الزُّبَيْر** بعد وفاته خمسين ألفَ دينار، وخلَّفَ ألفَ فَرَسٍ وألف أمةٍ، وكانت غلَّة **طلحة** من العراقَ ألف دينار كلَّ يومٍ، ومن ناحيةِ السَّرَاةِ أكثر من ذلك. وكان على مربطِ **عبد الرحمن بنِ عوفٍ** ألف فرسٍ، وله ألف بعير وعشرةُ آلافٍ من الغنم، وبلغ الرُّبعُ من متروكه بعد وفاته أربعةً وثمانين ألفاً. وخلَّفَ **زيدُ بن ثابتٍ** من الفِضَّةِ والذَّهبِ ما كان يكسرُ بالفؤوسِ غيرَ ما خلَّفَ من الأموالِ والضِّياعِ بمئة ألف دينار.

وبنى **الزُّبَير** داره بالبَصرَةِ وكذلك بنى بمصرَ والكوفة والإسْكَندرية، وكذلك بنى **طلحةُ** دارهُ بالكوفةِ وشيَّدَ دارهُ بالمدينةِ، وبناها بالجَصِّ والآجرِّ والسَّاج. وبنى **سعدُ بن أبي وقَّاص** دارهُ بالعقيقِ ورفعَ سمكها وأوسع فضاءها[2]، وجعل على أعلاها شُرُفاتٍ. وبنى **المقدادُ** داره بالمدينةِ، وجعلها مجصَّصةً[3] الظَّاهرِ والبَاطنِ. وخلَّفَ **يَعلى بن مُنيَةَ** خمسينَ ألف دينارٍ وعقاراً وغيرَ ذلكَ ما قيمته ثلاثُ مئة ألف درهمٍ. انتهى كلامُ المسعودي.

فكانت مكاسبُ القوم كما تراهُ، ولم يكُن ذلك منعياً عليهم في دينهم إذ هي أموالٌ حلالٌ لأنَّها غنائم وفيوءٌ[4]، ولم يكن تصرُّفهم فيها بإسرافٍ، إنَّما كان على قصدٍ في أحوالهم كما قلناهُ، فلم يكن ذلك بقادحٍ فيهم. وإن كان الاستكثارُ من الدنيا مذموماً، فإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسرافِ والخروجِ به عن القصد. وإذا كان حالهم قصداً ونفقاتهم في سُبُلِ الحقِّ ومذاهبه، كان ذلك الاستكثار عوناً لهم على طُرُقِ الحقِّ واكتساب الدَّار الآخرة.

فلمَّا تدرَّجت البداوة والغَضَاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعةُ الملكِ التي هي مقتضى العَصَبِيَّةِ كما قلناه، وحصلَ التَّغلُّبُ والقهرُ، كان حكمُ ذلك الملكَ عندهم حكمُ ذلك

---

١ - في ن: مئة.
٢ - السمك: السقف. الفضاء: ساحة الدار.
٣ - أي: ملاه بالجصِّ.
٤ - جمع فيء: وهو ما يحصل عليه جيش المسلمين من الأعداء بدون قتال.

الرَّفهِ والاستكثارِ من الأموال. فلم يصرفوا ذلك التَّغلُّبَ في باطلٍ، ولا خرجوا به عن مقاصد الدِّيانةِ ومذاهب الحقِّ.

ولمَّا وقعت **الفتنةُ بين علي ومعاوية**، وهيَ مقتضى العَصَبيَّةِ، كان طريقهم فيها الحقَّ والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرضٍ دُنيويٍّ أو لإيثارِ باطلٍ أو لاستشعارِ حقدٍ كما قد يتوهَّمهُ متوهِّمٌ، وينزعُ إليه ملحدٌ، وإنَّما اختلفَ اجتهادَهم في الحقِّ وَسَفَّهُ كلُّ واحدٍ نظر صاحبه باجتهاده في الحقِّ، فاقتتلوا عليه، **وإن كان المُصيبُ عليّاً فلم يكن** [ظ١/٨٧] **معاوية قائماً فيها بقصدِ الباطلِ، إنَّمَا قصدَ الحَقَّ وأخطأ**، والكلُّ كانوا في مقاصدهم على حقّ.

ثُمَّ اقتضت طبيعة الملك الانفرادُ بالمجدِ واستئثار الواحد به، ولم يكن لمعاوية أن يدفعَ ذلك عن نفسه وقومه، فهو أمرٌ طبيعيٌّ ساقته العَصَبيَّةُ بطبيعتها واستشعرته بنو أمية، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحقِّ من أتباعهم فاعصوصَبُوا[1] عليه، واستماتوا دونه، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطَّريقة، وخالفهم في الانفراد بالأمرِ، لوقعَ في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهمَّ عليه من أمرٍ لَيْسَ وراءهُ كبيرُ مخالفة.

وقد كان **عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد ابن أبي بكر: لو كان لي من الأمر شيءٌ لوَلَّيته الخلافة. ولو أراد أن يعهد إليه لفعل. ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحَلِّ والعَقْدِ، لما ذكرناه، فلا يقدرُ أن يُحول الأمر عنهم لئلا تقعَ الفُرقة.

وهذا كله إنَّما حملَ عليه منازعُ الملك التي هي مقتضى العَصَبيَّةِ. فالملك إذا حصل وفرضنا أنَّ الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحقِّ ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه.

ولقد انفرد **سليمان** وأبوه **داود** صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملكِ[2] من الانفراد به، وكانوا ما علمت من النُّبُوَّة والحقِّ.

وكذلك عهد **معاوية** إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمةِ بما كانت بنو أميَّة لم يرضوا تسليمَ الأمر إلى سواهم. فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه، مع أنَّ ظنهم كان به صالحاً، ولا يرتابُ أحد في ذلك، ولا يُظَنُّ بمعاوية غيرهُ، فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، حاشا لله لمعاوية من ذلك. وكذلك كان **مروان بن الحكم** وابنهُ، وإن كانوا ملوكاً، **لم يكن مذهبهم في المُلك مذهب أهل البطالةِ والبغي، إنَّما كانوا متحرِّين لمقاصدِ الحقِّ جُهدهم**، إلا في ضرورة تحملُهم على بعضها مثل خشية افتراقِ الكلمةِ الذي

---

١ – اعصوصبت الإبل: جدت في السير واجتمعت. واعصوصب الشر: اشتد.

٢ – في ن: الملك فيهم.

هو أهم لديهم من كل مقصد. يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء، وما علم السَّلف من أحوالهم ومقاصدهم. فقد احتجَّ مالكٌ في الموطإ بعمل **عبد الملك**. وأمَّا **مروان** فكان من الطّبقَةِ الأولى من التَّابعين وعدالتهم معروفة. ثم تدرج الأمرُ في ولد عبد الملك، وكانوا من الدِّين بالمكان الذي كانوا عليه، وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصَّحابة جهده، ولم يهمل.

ثم جاء خلفهم، واستعمل طبيعة الملك في أغراضهم الدُّنيوية ومقاصدهم، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها، واعتماد الحقِّ في مذاهبها. فكان ذلك مما دعا النَّاس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدَّعوة العبَّاسِيَّة [ظ٢/٨٧] منهم، وولي رجالها الأمر، فكانوا من العدالة بمكان، وصرفوا الملكَ في وجوه الحقِّ ومذاهبه ما استطاعوا، حتى جاء بنو الرَّشيد من بعده فكان منهم الصَّالح والطَّالح.

ثم أفضى الأمر إلى بَنِيْهِم، فأعطوا الملكَ والتَّرَفَ حَقَّهُ، وانغمسوا في الدُّنيا وباطلها، ونبذوا الدِّيْنَ وراءهم ظِهْرِيّاً، فتأذَّنَ الله بحربهم، وانتزعَ الأمر من أيدي العرب جملة، وأمكنَ سواهم منه. و﴿الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ [النساء: ٤٠].

ومن تأمَّلَ سير هؤلاء الخلفاءِ والملوكِ واختلافهم في تحري الحق من الباطلِ علم صحَّةَ ما قلناهُ.

وقد حكى المسعوديُّ مثله في **أحوال بني أمية** عن أبي جعفر المنصور، وقد حضرَ عمومته وذكروا بني أمية فقال: أمَّا عبدَ الملك فكان جبَّاراً لا يُبالي بما صنعَ، وأمَّا سليمان فكان همُّهُ بطنهُ وفرجَهُ، وأمَّا عمر فكان أَعْوَرَ بينَ عُمْيَان، وكان رجلُ القومِ هِشَامٌ. قال: ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من الْسُّلطان يُحَوِّطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تَسَنّمِهِم[1] معالي الأمور، ورفضهم دنياتها، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت همَّتهم قصد الْشَّهوات وركوبَ اللّذّاتِ من معاصي الله جهلاً باستدراجه، وأمناً لمكره، مع اطِّرَاحهم صِيَانَةَ الخلافةِ، واستخفافهم بحقِّ الْرِّئاسة، وضعفهم عن الْسِّياسَةِ، فسلبهم الله العزَّ، وألبسهم الذُّلَّ، ونفى عنهم النعمة، ثُمَّ استحضرَ عبدَ الله[2] بن مروان، فقصَّ عليه خبره مع ملوك[3] النَّوْبَةِ لما دخل أرضهم فاراً أيَّامَ الْسَّفَّاحِ، قال: أقمتُ مَلِيّاً[4]، ثم أتاني ملكهم فقعد على الأرضِ وقد بسطت لي فرشٌ ذات قيمة، فقلتُ: ما منعك عن

١ - أي ارتفاعهم وولايتهم.
٢ - قوله: عبد الله. كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية، وفي بعضها: عبد الملك، وأظنه تصحيفاً. قاله نصر.
٣ - في ن: ملك.
٤ - الملي: الساعة الطويلة من النهار.

القعود على ثيابنا؟ فقال: إني مَلِك، وحقَّ لكل ملك أن يتواضع لعظمة ا لله، إذ رفعه ا لله. ثم قال لي: لم تشربون الخمر وهي محرَّمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عَبيدنا وأتباعنا. قال: فلم تطؤون الزَّرْعَ بدوابِّكم، والفساد محرَّمٌ عليكم؟ قلت: فعلَ ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم. قال: فلم تلبسون الدِّيْبَاجَ والذَّهب والحرير وهو محرَّمٌ عليكم في كتابكم؟ قلت: ذهب منا الملكُ، وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك على الكره منا. فأطرقَ ينكتُ بيده في الأرض، ويقول: عَبِيْدُنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا! ثم رفع رأسه إليَّ وقال: ليس كما ذكرت. بل أنتم قوم استحللتم ما حرَّمَ ا لله عليكم، وأتيتم ما عنه نهيْتُمْ، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم ا لله العزَّ، وألبسكم الذُّلَّ بذنوبكم، و لله نقمةٌ لم تَبلغ غايتها فيكم، وأنا خائفٌ أن يحلَّ بكم العذابُ وأنتم ببلدي فينالني معكم، وإنَّما [ظ١/٨٨] الضِّيافة ثلاث فتزوّد ما احتجتَ إليه، وارتحل عن أرضي. فتعجبَ المنصور وأطرقَ.

فقد تبين لك **كيفَ انقلبت الخلافة إلى الملك**، وأنَّ الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه، وهو الدِّين، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم، وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافَّةِ.

فهذا **عثمان** لما حُضِرَ في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد ا لله بن عمر وابنِ جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى. ومنع من سل السُّيوف بينَ المُسْلِمِيْنَ مَخافة الفُرْقَةِ وحفظاً للألفةِ الَّتي بها حِفظُ الكلمة، ولو أدَّى إلى هلاكه.

وهذا **عليٌّ** أشار عليه المغيرة لأوَّل ولايته باستبقاء الزُّبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتَّى يجتمع النَّاسُ على بيعته، وتتَّفِقَ الكلمة، وله بعدَ ذلك ما شاء من أمرِهِ، وكان ذلك من سِيَاسَةِ المُلكِ، فأبى فراراً من الغشِّ الذي ينافيه الإسلام. وغدا عليه المغيرة من الغداةِ فقال: لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرتُ، ثمَّ عُدتُ إلى نظري، فعلمتُ أنَّه ليس من الحقِّ والنَّصيحة، وأنَّ الحقَّ فيمَا رأيتهُ أنتَ. فقال علي: لاَ وا لله، بل أعلمُ أنَّكَ نَصَحتني بالأمس، وغششتني الْيوْمَ، وَلَكن منعني ممَّا أشرتَ به ذائدُ الحَقِّ.

وَهكَذَا كَانت أَحْوَالُهم في إصْلاَحِ دِينهم بِفسَادِ دُنْيَاهم، ونحنُ:

نُرَقِّعُ دُنْيانَا بِتمْزِيْقِ دِينِنا ... فَلاَ دِيْنُنا يَبْقَى وَلاَ مَا نُرَقِّعُ

فقد رأيت كيفَ صارَ الأمرُ إلى المُلكِ، وبقيت معاني الخلافة من تَحرِّي الدِّينِ ومذاهبِهِ والجَرْيِ على منهاجِ الحقِّ، وَلَم يظهر التَّغَيُّرُ إلا في الوازِعِ الَّذِي كان دِيناً، ثُمَّ انقلبَ عَصبيَّةً وسيفاً. وهكذا كان الأمرُ لِعَهْدِ مُعاوية ومروان وابنهِ عبد المَلِكِ، والصَّدر الأوَّل من خَلفاء بني العبَّاسِ إلى الرَّشيد وبعضِ ولدهِ، ثُمَّ ذهبت معاني الخلافة ولم يبقَ إلا اسمها،

وصارَ الأمرُ ملكاً بحتاً، وجَرت طبيعةُ التَّغلُّب إلى غايتها، واستعملت في أغراضها من القهر والتَّقلُّبِ في الشَّهواتِ والملاذِّ. وهكذا كان الأمرُ لولدِ عبد الملكِ، ولمن جاءَ بعدَ الرَّشيد من بني العبَّاسِ، واسمُ الخِلافَةِ باقياً فيهم لبقاءِ عَصبيَّةِ العربِ، والخلافةُ والملك في الطَّوْرَيْنِ مُلتبسٌ بعضهما ببعض.

ثُمَّ ذهبَ رَسمُ الخلافةِ وأثرُها بذَهابِ عَصَبيَّةِ العربِ وفناءِ جيلهم وتلاشي أحوالهم، وبقيَ الأمرُ مُلكاً بحتاً، كما كان الشَّأنُ في ملوكِ العجمِ بالمشرق، يدينون بطاعةِ الخليفةِ تبرُّكاً، والملكُ بجميعِ ألقابهِ ومناحيه لَهُم، وليسَ للخليفة منه شيءٌ. وكذلك فعلَ مُلُوكُ زَنَاتَةَ بالمغربِ مثلَ صَنْهَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْديينَ وَمَغْرَاوةَ وَبَني يَفْرُنَ أيضاً مع خُلَفاءِ بني أمية بالأندلسِ والعُبَيديِّين بالقَيْرَوان.

فقد تبين أنَّ الخلافة قد وُجدت بدون المُلك أوّلاً ثُمَّ التَبَسَت معانيهما واختلطت. ثُمَّ انفردَ المُلكُ حيثُ افترقت عَصَبيَّته من عَصَبيَّةِ الخلافةِ [ظ٢/٨٨]. والله مُقَدِّرُ اللَّيْلِ والنَّهارِ و﴿هوَ الواحدُ القَهَّارُ﴾[الرعد: ١٦].

١-٣- ٢٩- الْفَصْلُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُون
في مَعْنى الْبيْعَةِ[١]

اعلَم: أنَّ الْبيعَةَ هيَ العهْدُ على الطَّاعةِ. كأنَّ المبَايعَ يُعاهدُ أميرهُ على أنَّهُ يُسلِّمُ لهُ النَّظرَ في أمرِ نفسهِ وأمورِ المسْلمين لا يُنازعه في شيءٍ من ذلك، ويُطيعه فيما يُكلِّفه به من الأمرِ على المَنْشَطِ والمكرهِ[٢].

وكَانُوا إذا بايعوا الأميرَ وعَقَدُوا عهدهُ، جعلوا أيديهم في يده، تأكيداً للعهد، فأشبَهَ ذلك فعل الْبائع والمشتري، فَسُمِّيَ بيعةً، مصدرَ باعَ، وصارت البيعةُ مُصافحةً بالأيدي. هذا مدلولها في عرف اللُّغةِ ومعهودِ الشَّرْعِ، وهو المراد في الحديثِ في بيعةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ليلةَ العَقبَةِ[٣] وعندَ الشَّجَرَةِ[٤]، وَحَيْثما وردَ هذا اللَّفظ. ومنه بيعةُ الخُلَفاء. ومنه أيمانُ البيعةِ. كان الخُلَفاء يستحلفون على العهد ويستوعبونَ الأيمانَ كلّها لذلك، فَسُمِّيَ هذا الاستيعاب أيمانَ البيعة.

وكان الإكراهُ فيها أكثر وأغلب. ولهذا لما أفتى مالكٌ رضي الله عنه بسقوطِ يمين الإكراه[٥] أنكرها الولاةُ عليه، ورأوها قادحةً في أيمان البيعة، ووقع ما وقعَ من محنةِ الإمام رضي الله عنه.

وأمَّا البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحيَّةُ الملوك الكِسْرَوية، من تقبيلِ الأرضِ أو اليدِ أو الرِّجلِ أو الذَّيلِ، أُطلِقَ عليها اسمُ البَيْعَةِ، التي هي العهدُ على الطَّاعةِ مجازاً، لَمَّا كان هذا الخضوعِ في التَّحيَّةِ والتزامُ الآدابِ من لوازمِ الطَّاعةِ وتوابعها، وغلبَ فيه حتى صارت حقيقيَّةً عُرْفيَّة، واستغنى بها عن مصافحة أيدي النَّاسِ، التي هي الحقيقية في الأصل، لما في الْمُصَافحةِ لكلِّ أحد من التَّنزُّلِ والابتذال المُنَافيين للرِّئاسةِ وَصَون المنصبِ المُلوكيِّ، إلاَّ في الأقلِّ، مِمَّنْ يَقصِدُ التَّواضع منَ الملوكِ، فيَأخذُ به نَفْسَهُ مع خواصِّهِ ومشاهير أهل الدِّينِ من رعيته.

فافهم معنى البيعةِ في العرفِ، فإنَّه أكيدٌ على الإنسان معرفتُه، لَما يلزمهُ من حقِّ سُلْطَانه وإمامه، ولا تكونُ أفعالهُ عبثاً ومجانّاً، واعتبر ذلكَ من أفعالك مع الملوكِ. والله القوي العزيز.

---

١ - البيعة بفتح الموحدة. وأما بكسرها على وزن شيعة بسكون الياء فهي معبد النصارى.

٢ - يطيعه فيما يحب وفيما يكره.

٣ - هما بيعتان: الأولى في السنة الثانية عشرة من البعثة. والثانية في الثالثة عشرة.

٤ - وهي التي ذكرها القرآن الكريم. وانظرها في سورة الفتح الآية: ١٨.

٥ - روى ابن جرير: أنَّ مالكاً حينما قال له بعض من بايعوا المنصور: إن في أعناقنا بيعته، قال: لقد بايعتم مكرهين، وليس على مستكره يمين، ولقي بذلك من العنت ما رفع ذكره وأعلى قدره.

١-٣- ٣٠- الفَصْلُ الثَّلاثون
في وِلاَيَةِ الْعَهْدِ

اِعْلَمْ: أنَّا قدَّمنا الكلام في الإمامةِ ومشروعيتها، لما فيها من المصلحةِ، وأنَّ حقيقتها النَّظرُ[١] في مصالحِ الأمَّةِ لدينهم ودنياهم، فهو وليُّهم والأمينُ عليهم، ينظرُ لهم ذلك في حياته، ويتبعُ ذلكَ أن ينظرَ لهم بعد مماته، ويقيمَ لهم من يتولَّى أمورهم، كما كان هو يتولاَّها، ويثقون بنظرهِ لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل.

وقد عُرِفَ ذلك من الشَّرْعِ بإجماعِ الأُمَّةِ على جوازه وانعقاده. إذ وقعَ بعهد أبي بكر - رضي الله عنه - لعمرَ بمحضر من الصَّحابةِ وأجازوه، وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم، وكذلك عهد عمر في الشورى إلى الستة بقية العشرة، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين، ففوضَ بعضهم إلى بعض حتَّى أفضى ذلك[٢] إلى عبد الرَّحمنِ [ظ٨٩/١] بن عَوْفٍ، فاجْتَهَدَ وناظرَ المُسْلِمينَ فوجدهم متَّفقينَ على عثمانَ وعلى عليٍّ، فآثرَ عُثمان بالبيعةِ على ذلك، لموافقته إيَّاهُ على لزوم الاقتداء بالشَّيخين في كل ما يعنّ دون اجتهاده. فانعقد أمرُ عثمان لذلك، وأوجبوا طاعتهَ، والملأ من الصَّحابة حاضرون للأولى والثَّانية، و لم ينكره أحدٌ منهم، فدلَّ على أنَّهم متَّفقون على صحَّةِ هذا العهد، عارفون بمشروعيته، والإجماعُ حجةٌ كما عرفَ.

ولا يتَّهم الإمامُ في هذا الأمر، وإن عهد إلى أبيه أو ابنه، لأنَّه مأمون على النَّظرِ لهم في حياته، فأولى أن لا يحتملَ فيها تبعَةً بعدَ مماته، خلافاً لمن قالَ باتِّهامه في الولد والوالد. أو لمن خَصَّصَ التهمَةَ بالولدِ دون الوَالدِ، فإنَّه بعيدٌ عنِ الظِّنَّةِ في ذلك كلِّه، لا سِيَما إذا كانت هناك داعيةٌ تدعو إليه من إيثار مصلحة أو توقُّعِ مفسدة. فتنتفي الظِّنّة في ذلك رأساً، كما وقعَ في عهد معاوية لابنهِ يزيد، وإن كان فعلُ معاوية مع وفاق النَّاسِ له حجة في الباب. والذي دعا معاوية لإيثار ابنهِ يزيد بالعهد دون من سواه، إنَّما هو مراعاة المَصْلَحة في اجتماع النَّاسِ، واتِّفاق أهوائهم، باتِّفَاق أهلِ الحلِّ والعقد عليه حينئذ من بني أمية، إذ بنو أميَّة يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عِصَابةُ قريش، وأهل المِلَّةِ أجمعَ، وأهل الغَلَبِ منهم، فآثره بذلك دون غيره، ممَّنْ يظنّ أنه أولى بها، وعدلَ عن الفاضلِ إلى المفضول، حرصاً على الاتفاق واجتماعِ الأهواءِ الذي شأنه أهمُّ عند الشَّارع. وإن كان لا يُظَنُّ بمعاوية غير هذا، فعدالتهُ وصحبته مانعةٌ من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك، وسكوتهم عنه، دليلٌ على انتفاءِ الرِّيبِ فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحقِّ هوادة،

---

١ -في ن: للنَّظر.
٢ - ليس في ظ: ذلك.

وليسَ معاوية ممن تأخذهُ العِزَّةُ في قبول الحقِّ، فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك، وعدالتهم مانعةٌ منهُ.

وفرارُ عبدِ الله بن عمر مِن ذلك إنَّما هو محمولٌ على تورُّعِهِ من الدُّخول في شيء من الأمور مُباحاً كان أو محظوراً كما هو معروفٌ عنه، ولم يبقَ في المخالفَةِ لهذا العهد الَّذي اتَّفقَ عليه الجمهور إلا ابن الزُّبير، وندور المخالفِ معروفٌ.

ثُمَّ إنَّهُ وقعَ مثلُ ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذي كانوا يتحرون الحقَّ ويعملون به مثل عبدِ الملك وسليمان من بني أمية، والسَّفَّاحِ والمنصورِ والمهديِّ والرَّشيد من بني العبَّاسِ، وأمثالهم ممَّن عُرفت عدالتهم، وحُسْنُ رأيهم للمسلمينَ والنَّظرُ لهم.

ولاَ يُعَابُ عليهم، إيثارُ أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعةِ في ذلك، فشأنهم غيرِ شأن أولئك الخلفاء. فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعةُ الملك، وكان الوازع دينياً، فعند كلِّ أحد وازع من نفسه، فعهدوا إلى من يرتضيه الدينُ فقط، وآثروه على غيره، ووكلوا كلَّ من يسمو إلى ذلك إلى وازعه.

وأمَّا [ظ٢/٨٩] من بعدهم من لَدُن معاوية، فكانت العَصَبيَّة قد أشرفت على غايتها من الملك، والوازع الدِّيني قد ضعف، واحتيج إلى الوازع السُّلطاني والعَصْباني. فلو عهد إلى غير من ترتضيه العَصَبِيَّةُ لردَّت ذلك العهد، وانتقض أمرهُ سريعاً، وصارت الجماعةُ إلى الفرقة والاختلافِ.

سألَ رجلٌ عليّاً رضي الله عنه: ما بالُ المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكرٍ وعمرَ؟ فقال: لأنَّ أبا بكرٍ وعمرَ كانا واليينِ على مثلي، وأنا اليومَ والٍ على مثلكَ. يُشيرُ إلى وازعِ الدِّيْنِ.

أفلا ترى إلى المأمونَ، لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصَّادِقِ وَسَمَّاهُ الرِّضا، كيفَ أنكرتِ العَبَّاسِيَّةَ ذلك ونقضوا بيعته، وبايعوا لعمِّهِ إبراهيم بن المهديِّ، وظهر من الهرْجِ والخلافِ وانقطاعِ السُّبُلِ وتعدُّدِ الثُّوَّارِ والخوارجِ ما كادَ أن يصطلمَ[1] الأمرَ، حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد، وردَّ أمرهم لمعاهده.

فلا بُدّ من اعتبارِ ذلك في العهد. فالعصور تختلف باختلافِ ما يحدثُ فيها من الأمورِ والقبائلِ والعَصَبِيَّاتِ، وتختلفُ باختلاف المصالحِ، ولكلِّ واحدٍ منها حكمٌ يخصُّهُ، لطفاً من الله بعباده.

---

١ - أي: يقطعه ويستأصله.

وأمَّا أن يكونَ القصدُ بالعهد حفظ التُّراثِ على الأبناء. فليسَ مـنَ المقاصد الدِّيْنِيَّةِ، **إذ** هو أمرٌ من ا للهِ، يخصُّ به من يشاء من عبادهِ، ينبغي أن تُحَسَّنَ فيه النِّيَّة ما أمكنَ، خوفاً من العبثِ بالمناصبِ الدِّيْنِيَّةِ. والملك لله يؤتيه من يشاءُ.

وعرضَ هنا أمورٌ تدعو الْضَّرُوْرَةُ إلى بيان الحق فيها:

فالأول منها: ما حدثَ في **يزيد** منَ الفسقَ أيَّامَ خلافته. فَإِيَّاكَ أن تظُنَّ بمعاوية رضي ا لله عنه أنَّهُ علمَ ذلك من يزيدَ، فإنَّهُ أعدلُ منَ ذلك وأفضلُ، بل كان يَعْذُلُهُ[1] أيَّامَ حيَاتِهِ في سماعِ الغناءِ وينهاه عنه، وهو أقلُّ من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة. ولَمَّا حدث في يزيد ما حدثَ من الفسْق، اختلف الصَّحابة حينئذٍ في شأنه، فمنهم من رأى الخروج عليه، ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحُسَيْنُ وعبد ا لله بن الزّبير رضي ا لله عنهما ومن اتبعهما في ذلك؛ ومنهم من أباهُ[2] لما فيه من إثارةِ الفتنة وكثرةِ القَتلِ مع العجزِ عن الوفاء به، لأنَّ شوكةَ يزيدَ يومئذٍ هي عصابة بني أمية وجمهورِ أهلِ الحلِّ والعقدِ من قريش، وتستتبعُ عصبيَّة مضر أجمع، وهي أعظم من كل شوكة، ولا تُطاق مقاومتهم، فأقصروا عن يزيد بسبب ذلك، وأقاموا على الدُّعاء بهدايته والرَّاحةِ منه. وهذا كان شأنُ جمهورِ المُسْلِمِيْنِ. والكلُّ مجتهدون، ولا يُنكرُ على أحدٍ من الفريقين. فمقاصدهم في البرّ وتحرِّي الحقِّ معروفة. وفّقنا ا لله للاقتداء بهم.

والأمرُ الثَّانِي: هو شأنُ العهد مع النَّبيِّ صلى ا لله عليه وسلم، وما تَدَّعيه الشِّيْعَةُ من **وَصِيَّتِهِ** [ظ٩٠/١] **لعلِيٍ** رضي ا لله عنه، وهو أمرٌ لم يصحّ، ولا نقلهُ أحدٌ من أئمة النَّقلِ. والَّذِي وقعَ في الْصَّحيح من طلبِ الدَّواةِ والْقِرْطَاسِ ليكتبَ الوَصِيَّةَ، وأنَّ عمرَ منعَ من ذلك فدليلٌ واضحٌ على أنَّهُ لم يقعْ. وكذا قولُ عمرَ رضي ا لله عنه حينَ طُعِنَ وَسُئِلَ في العهدِ فقال: إنْ أعهد فقد عهدَ من هو خيرٌ مني، يعني أبا بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ مني، يعني أنَّ النَّبي صلى ا لله عليه وسلم لم يَعْهد. وكذلك قولُ عليٍّ للعَبَّاس رضي ا لله عنهما حينَ دَعَاهُ للدُّخول إلى النَّبيِّ صلى ا لله عليه وسلم يَسْألانهِ عن شَأْنهما في العهد، فأبى عليٌّ من ذلك، وقال: إنَّهُ إن منعنا منها فلا نطمعُ فيها آخرَ الدَّهْرِ. وهذا دليلٌ على أنَّ عليّاً علمَ أنَّهُ لم يوصِ ولا عهد إلى أحدٍ.

وشبهةُ الإمامية في ذلك، إنَّما هي كونُ الإمامة من أركان الدِّين، كما يزعمونَ، وليسَ كذلك، وإنَّما هي من المصالحِ العامَّةِ المفوَّضَةِ إلى نظرِ الخلق، ولو كانت من أركان الدِّينِ، لكان شأنها شأن الصلاة، ولكان يُستخلف فيها، كما استخلف أبا بكر في

---

١ - العذل: الملامة.

٢ - رفض فكرة الخروج عليه.

الصلاة، ولكان يشتهر كما اشتهر أمرُ الصَّلاةِ. واحتجاج الصَّحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الْصَّلاةِ في قولهم: ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا، أفلا نرضاهُ لدنيانا؟ دليلٌ على أنَّ الوصية لم تقع. ويدلُّ ذلك أيضاً على أنَّ أمْرَ الإمامة والعهد بها لم يكن مهمّاً كما هو اليومَ، وشأنُ العصبيَّة المراعاة في الاجتماعِ والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار، لأنَّ أمر الدِّين والإسلام كان كلُّه بخوارقِ العادةِ من تأليف القلوب عليه، واستماتة النَّاسِ دونه، وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضورِ الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم، وتجدد خطابِ الله في كل حادثة تتلى عليهم، فلم يحتج إلى مراعاة العَصَبيَّة لما شَمل النَّاس من صبغةِ الانقياد والإذعان، وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة، والأحوالِ الإلهية الواقعة، والملائكة المترددة، التي وجموا منها، ودهشوا من تتابعها، فكان أمرُ الخلافةِ والملكِ والعهد والعصبيَّةِ وسائر هذه الأنواعِ مندرجاً في ذلك القَبيْلِ كما وقعَ.

فلمَّا انحسرَ ذلك المدد بذهابِ تلك المعجزاتِ، ثُمَّ بفناءِ القرون الَّذين شاهدوها، فاستحالت تلك الْصِّبْغَةِ قليلاً قليلاً، وذهبت الخوارق، وصارَ الحكم للعادةِ كما كان. فاعتُبرَ أمرُ العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد، وأصبح الملكُ والخلافة والعهد بهما مهمّاً من المهمَّات الأكيدة، كما زعموا[1]، ولم يكُن ذلك [ظ٩٠/٢] من قبل.

فانظر كيفَ كانت الخلافة لعهد النَّبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة، فلم يعهد فيها، ثُمَّ تدرَّجت الأهمّية زمانَ الخلافة بعض الشَّيء، بما دعتِ الضَّرورة إليه، في الحماية والجهاد وشأن الرِّدَّةِ والفتوحات، فكانوا بالخيارِ في الفعل والتَّرْكِ، كما ذكرناه عن عمر رضي الله عنه، ثُمَّ صارت اليوم من أهمِّ الأمورِ للألفةِ على الحِمَاية، والقيام بالمصالح، فاعتبرت فيها العَصَبيَّةُ التي هي سرُّ الوازع عن الفَرقَةِ والتَّخاذل، ومنشأ الاجتماعِ والتَّوافقِ الكفيلُ بمقاصدِ الْشَّرِيعةِ وأحكامها.

والأمر الثالثُ: شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتَّابعين: فاعلم أنَّ اختلافهم إنَّما يقع في الأمور الدِّينية، وينشأ عن الاجتهاد في الأدِلَّةِ الْصَّحِيحةِ والمداركِ المعتبرة. والمجتهدون إذا اختلفوا، فإن قلنا: إنَّ الحقَّ في المسائل الاجتهادية واحدٌ من الطَّرَفين، ومن لم يُصادفه فهو مخطئٌ فإنَّ جهته لا تتعينُ بإجماعٍ، فيبقى الكلُّ على احتمال الإصابةَ، ولا يتعين المخطىء منهم، والتَّأثيمُ مدفوعٌ عن الكلِّ إجماعاً، وإن قلنا: إن كلَ

---

[1] - في ظ: زعموه.

مجتهد مصيبٌ فأحرى بنفي الخطأ والتأثيم. **وغاية الخلافِ** الذي بينَ الصَّحابة والتَّابعين، أنَّهُ خلافٌ اجتهادي في مسائل دينية ظنِّيَّة، وهذا حكمه.

والذي وقع من ذلك في الإسلام إنَّما هو واقعةُ عليٍّ مع معاوية، ومع الزُّبير وعائشة وطلحة، وواقعة الحسين مع يزيد، وواقعة ابن الزُّبير مع عبد الملك.

فأمَّا واقعةُ عليٍّ، فإنَّ النَّاسَ كانوا عندَ مقتلِ عثمان مفترقين في الأمصارِ فلم يشهدوا بيعةَ علي. والذين شهدوا فمنهم من بايعَ، ومنهم من توقَّفَ، حتى يجتمعَ النَّاسُ، ويتفقوا على إمام كسعدٍ وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن سلام، وقدامة بن مظعون، وأبي سعيد الخدري، وكعب بن عُجْرَة، وكعب بن مالك، والنعمان ابن بشير، وحسَّان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وفضالة بنِ عُبيد، وأمثالهم من أكابر الصَّحابةِ. والذين كانوا في الأمصار، عدلوا عن بيعته أيضاً إلى الطَّلب بدمِ عُثمان، وتركوا الأمر فوضى، حتى يكون شُورى بين المسلمين لمن يولُّونه، وظنوا بعلي هوادة في السُّكوت عن نصر عثمان من قاتليه[1]، لا في الممالأةِ عليه، فحاشَ لله من ذلك. ولقد كان معاوية إذا صرَّح بملامته، إنما يوجهها عليه في سكوته فقط.

ثم اختلفوا بعد ذلك، فرأى عليٌّ أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخَّرَ عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينةِ دار النَّبيِّ صلى الله عليه وسلمِ وموطنِ الصَّحابة، وأرجأ الأمرَ في المطالبة بدمِ عُثمانَ إلى اجتماعِ [ظ١/٩١] النَّاسِ، واتِّفاق الكَلمةِ، فيتمكن حينئذٍ من ذلك. **ورأى** الآخرون أن بيعته لم تنعقد، لافتراق الصَّحابة أهل الحلِّ والعقدِ بالآفاقِ، ولم يحضر إلا قليلٌ، ولا تكونُ البيعة إلا باتِّفاقِ أهل الحلِّ والعقد، ولا تلزمُ بعقدِ من تولاَّهَا من غيرهم، أو من القليل منهم، وإنَّ المسلمينَ حينئذٍ فوضى، فيطالبون أوّلاً بدم عُثمانَ، ثُمَّ يجتمعونَ على إمام، وذهبَ إلى هذا معاوية، وعمرُو بن العاص وأمُّ المؤمنين عائشة، والزُّبيرُ وابنه عبد الله، وطلحة وابنهُ محمَّد، وسعدٌ، وسعيدٌ، والنعمان بن بشير، ومعاوية ابن حُدَيْج[2]، ومن كان على رأيهم من الصَّحابة الَّذين تخلَّفوا عن بيعةِ عليٍّ بالمدينة كما ذكرنا. **إلاّ** أنَّ أهل العصرِ الثَّاني من بعدهم **اتَّفقوا** على انعقادِ بيعةِ عليٍّ، ولزومها للمسلمين أجمعينَ، وتصويبِ رأيه فيما ذهب إليه، وتعيينِ الخطإِ من جهة مُعاوية ومن كان على رأيه، وخصوصاً طلحة والزُّبيرِ، لانتقاضهما على عليٍّ بعدَ البيعةِ لهُ فيما نقل معَ دفع

---

١ - في ن: (قاتله).

٢ - في النسخ: خديج. بالخاء المعجمة . خطأ. وانظر ترجمته في طبقات ابن سعد (٣/٥٠٧) وأسد الغابة (٤/٣٨٣).

التَّأثيم عن كلٍّ من الفريقين، كَالشَّأن في المجتهدين، وصارَ ذَلكَ إجماعاً من أهلِ العصر الثَّاني على أحد قولي أهل العصر الأوَّل كما هو معروفٌ.

ولقد سئل علي رضي الله عنه عن **قتلى الجمَل وصفِّينَ** فقال: والَّذي نفسي بيده، لا يموتنَّ أحدٌ من هؤلاء وقلبهُ نقيٌّ إلا دخل الجنَّةَ، يُشيْرُ إلىَ الفريقين، نقلهَ الطَّبَريُّ وغيرهَ.

فلا يقعنَّ عندكَ ريبٌ في عدالة أحد منهم، وَلا قدحٌ في شيء من ذلك، فهم من علمتَ، وأقوالهم وأفعالهم إنَّما هَي عنَ المستندات، وعدالتهم مفروغٌ منها عند أهلِ السُّنَّة، إلا قولاً للمعتزلة فيمن قاتل عَليّاً، لم يلتفت إليه أحدٌ من أهلِ الحقِّ، ولا عرَّجَ عليه.

وإذا نظرتَ بعين الإنصاف، عذَرتَ النَّاسَ أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان، واختلاف الصَّحابة مَن بعدُ، وعَلمتَ أنَّها كانت فتنةً ابتلى الله بها الأمة بينما المسلمون قد أذهبَ الله عدوهمَ، وملَّكهم أرضهم وديارهم، ونزلوا الأمصارَ على حدودهم بالبَصْرَة والكوفة والْشَّام ومصرَ، وكان أكثر العرب الَّذين نزلوا هذه الأمصارَ جُفاةً لم يستكثروا من صحَبة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا هذبَتهم سيرته وآدابه، ولا ارتاضوا بخلقه، مع ما كان فيهم من الجاهلية من الجفاء والعصبية والتَّفاخر والبعد عن سكينة الإيمان، وإذا هم عند استفحال الدَّولة، قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصَار من قريش وكنانَة وثقيف وهُذَيل وأهل الحجازَ ويثربَ الْسَّابقينَ الأوَّلينَ إلى الإيمان، فاستنكفوا من ذلك، وغصُّوا به [ظ٩١/٢]، لما يرون لأنفسهم من التَّقدُّم بأنسابهم وكثرتهم، ومصادمة فارسَ والروم، مثل قبائل بكر بن وائل، وعبد القيس بن ربيعة وقبائلِ كندة والأزد من اليمَن، وتميم وقيسٍ من مضرَ، فصاروا إلى الغَضِّ من قريش والأنَفة عليهم، والتَّمريض في طاعتهم، والتَّعلُّلِ في ذلك بالتَّظلُّمِ منهم، والاستعداء عليهم، والطَّعنِ فيهم بالعجز عن الْسَّويَّة، والعدولِ في القسم عن الْتسوْية، وفشت المَقالةُ بذلك، وانتهت إلى المدينةَ ـــ وهم مَن علمتَ ـــ فأعظموه، وأبلغوه عثمانَ فبَعثَ إلى الأمصارِ من يكشف له الخبرَ، بعث ابن عمر ومحمَّدَ بن مسلمة، وأسامة بن زيد وأمثالهم، فلمَ ينكروا على الأمراء شيئاً، ولا رأوا عليهم طعناً، وأدُّوا ذلك كما علموهُ، فلم ينقطع الطَّعنُ من أهل الأمصارِ، وما زالت الشَّناعات تنمو. ورمي الوليدُ بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمرِ، وشهدَ عليه جماعةٌ منهم، وحدَّهُ عثمانُ وعزلهُ. ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصَار يسألون عزل العمَّال، وشكوا إلى عائشة وعليٍّ والزُّبيرِ وطلحةَ، وعزلَ لهم عثمان بعضَ العمَّال، فلم تنقطَع بذلك ألسنتهمٍ، بل وفد سعيدُ بن العاص وهو على الكوفة، فلمَّا رجعَ اعترضَوه بالطَّريق، وردُّوه معزولاً. ثم انتقلَ الخلافُ بين عثمان وَمن معهُ من الْصَّحابة بالمدينة،

ونقموا عليه امتناعه من العزل، فأبى إلاَّ أن يكون على جُرْحَةٍ[1]، ثم نقلوا النَّكِير إلى غير ذلك من أفعالِهِ، وهو متمسِّكٌ بالاجتهاد، وهم أيضاً كذلك، ثم تجمَّعَ قومٌ من الغوغاء، وجاؤوا إلى المدينة يُظهرونَ طلبَ النَّصَفَةِ من عثمان، وهم يُضمِرُونَ خِلافَ ذلك من قتله، وفيهم من البصرة والكوفةِ ومصرَ، وقامَ معهم في ذلك عَلِيٌّ وعائشة والزُّبير وطلحة وغيرهم، يحاولون تسكينَ الأمور، ورجوعَ عثمان إلى رأيهم. وعزل لهم عاملَ مصرَ، فانصرفوا قليلاً ثم رجعوا، وقد لَبَّسُوا بكتاب مُدَلَّسٍ يزعمون أنهم لقوه في يد حامله إلى عامل مصر بأنْ يقتلهم، وحلف عثمان على ذلك، فقالوا: مكِّنَّا من مروانَ فإنه كاتبُكَ. فحلف مروان، فقال: ليس في الحكم أكثر من هذا، فحاصروه بداره، ثمَّ بيَّتوهُ على حين غفلةٍ من النَّاسِ وقتلوه وانفتح باب الفتنة.

فلكلٍ من هؤلاء عذرٌ فيما وقعَ، وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدِّين، ولا يضيعون شيئاً من تعلُّقاته، ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا، والله مطّلعٌ على أحوالهم، وعالمٌ بهم. ونحن لا نظُنُّ بهم إلا خيراً، لما شهدت به أحوالهم، ومقالات الصَّادقِ فيهم.

وأمَّا الحُسين: فإنَّهُ لمَّا ظهرَ فسقُ يزيد عند الكافَّةِ من أهل عصرِه، بعثت شيعة أهل البيت بالكوفةِ للحسين أن يأتيهم [ظ١/٩٢] فيقوموا بأمره، فرأى الحسينُ أن الخروج على يزيد متعيِّنٌ من أجَلِ فِسْقِهِ، لا سيما من له القدرة على ذلك، وظنَّها من نفسه بأهليَّته وشوكته، فأمَّا **الأهليَّةُ** فكانت كما ظنَّ وزيادةً. وأمَّا **الشَّوكة:** فغلطَ يرحمهُ الله فيها، لأنَّ عَصَبيَّة مُضَرَ كانت من[2] قريش، وعَصَبيَّةَ قريشٍ في عبد منافٍ، وعصبية عبدِ منافٍ إنما كانَت في بني أمية، تَعرفُ ذلك لهم قريشٌ وسائرُ النَّاسِ، ولا ينكرونه. وإنَّما نُسِيَ ذلك أول الإسلام، لما شغل النَّاسَ من الذُّهول بالخوارق وأمرِ الوَحي، وترددِ الملائكةِ لنصرةِ المُسلمين، فأغفلوا أمور عوائدهم، وذهبت عَصَبيَّة الجاهليَّةِ ومنازعها ونسِيت، ولم يبقَ إلا العَصَبيَّة الطَّبيْعيَّة في الحِمَايةِ والدِّفاع، ينتفعُ بها في إقامة الدِّيْنِ وجهاد المشركين، والدِّينُ فيها مُحَكَّمٌ، والعادةُ معزولةٌ، حتى إذا انقطعَ أمر النُّبُوَّةِ والخوارق المهولة، تراجع الحكم بعض الشَّيءِ للعوائدِ فعادت العَصَبيَّةُ كما كانت ولمن كانت، وأصبحت مُضَرُ أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل.

فقد تبيَّنَ لك غلطُ الحُسَين، إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه، وأمَّا الحكم الشَّرعي فلم يغلط فيه لأنه منوطٌ بظنِّه، وكان ظنه القُدرة على ذلك، ولقد عَذَلَهُ ابن

---

١ - ما يجرح به ويسقط عدالته.

٢ - في ن: في.

العبَّاسِ وابنُ الزُّبيرِ وابنُ عمرَ وابن الحَنَفِيَّةِ أخوهُ وغيرهُ في مسيرهِ إلى الكوفةِ، وعلموا غلطهُ في ذلكَ، ولم يرجع عمَّا هو بسبيله، لما أراده الله.

وأمَّا غير الحسين من الصَّحابة الَّذين كانوا بالحجاز، ومع يزيد بالشَّام والعراق، ومن التَّابعين لهم، فرأوا أنَّ الخروج على يزيد وإن كان فاسقاً لا يجوز، لما ينشأُ عنه من الهرج[1] والدِّماء، فأقصروا عن ذلك، ولم يتابعوا الحُسَين، ولا أنكروا عليه، ولا أثَّموه، لأنه مجتهد، وهو أسوة المجتهدين.

ولا يذهب بك الغلطُ أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالف الحُسَين وقعودهم عن نصرهِ، فإنهم أكثر الصحابة، وكانوا مع يزيد، ولم يرو الخروج عليه، وكان الحسين يستشهد بهم - وهو بكربلاءَ - على فضلهِ وحقِّه، ويقول: سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعد[2] وزيد بن أرقم وأمثالهم، ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصرهِ، ولا تعرَّضَ لذلك، لعلمه أنه عن اجتهاد منهم، كما أن فعله عن اجتهاد منه. وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويبِ قتله لما كان عن اجتهادٍ، وإن كان هو على اجتهادٍ، ويكون ذلك كما يَحُدُّ الشَّافعيُّ والمالكيُّ الحنفيَّ على شُرْبِ النَّبيذِ[3].

واعلم أنَّ الأمر ليسَ كذلك، وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء، وإن كان خلافه عن اجتهادهم، وإنما انفردَ بقتاله يزيد وأصحابه. ولا تقولنَّ [ظ٩٢/٢]: إن يزيد، وإن كان فاسقاً، ولم يجز هؤلاء الخروج عليه، فأفعاله عندهم صحيحة.

واعلم أنَّه إنَّما ينفذُ من أعمال الفاسق ما كان مشروعاً، وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل، وهو مفقودٌ في مسألتنا.

فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد، بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه، والحُسَينُ فيها شهيدٌ مثابٌ، وهو على حق واجتهاد، والصَّحابة الَّذين كانوا مع يزيد على حقٍّ أيضاً واجتهاد.

وقد غلطَ القاضي **أبو بكر بن العربي المالكي** في هذا فقال في كتابه الذي سماه **بالعواصم والقواصم** ما معناه: إنّ الحسين قتل بشرع جده، وهو غلط حملته عليه الغفلة

---

١ - أي: الفتنة والاضطرابات.

٢ - في النسخ: سعيد. خطأ. وهو سهل بن سعد الساعدي.

٣ - أي: كما يقيم القاضي الشافعي أو المالكي الحد على حنفي شرب النبيذ، مع أن الحنفي يرى جواز شربه، لأن القاضي لا يرى ذلك فيعمل برأيه واجتهاده.

عن اشتراطِ الإمام العادل، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء؟!.

وأمَّا ابن الزُّبير فإنَّهُ رأى في قيامه[1] ما رآهُ الحُسَين، وظن كما ظنَّ، وغلطهُ في أمر الشَّوكةِ أعظم. لأنَّ بني أسدٍ لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا إسلام. والقول بتعين الخطأ في جهةٍ مخالفةٍ، كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل إليه[2]، لأنَّ الإجماعَ هنالك قضى لنا به، ولم نجده هاهنا. وأمَّا يزيد فعيَّنَ خطأه فِسقُهُ. وعبد الملك صاحب ابن الزُّبير أعظم النَّاسِ عدالةً، وناهيك بعدالته احتجاجُ مالكٍ بفعله. وعدول ابن عبَّاس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزُّبير وهم معه بالحجاز، مع أنَّ الكثير من الصَّحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزُّبير لم تنعقد؛ لأنَّه لم يحضرها أهل العقد والحلِّ كبيعة مروان. وابن الزُّبير على خلاف ذلك، والكلُّ مجتهدون محمولون على الحقِّ في الظَّاهر، وإن لم يتعيَّن في جهة منهما، والقتل الَّذي نزل به بعد تقرير ما قرَّرناه يجيءُ على قواعد الفقه وقوانينه، مع أنه شهيد مثابٌ باعتبار قصده وتحريه الحقَّ.

هذا هو الَّذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السَّلَفِ منَ الصَّحابة والتَّابعين، فهم خيارُ الأمَّةِ. وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذين يختصُّ بالعدالةِ؟ والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**خيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذين يَلونَهم ـ مَرَّتيْن أَوْ ثَلاثاً ـ ثُمَّ يفشو الكذب**»[3]. فجعل الخيرة وهي العدالة مختصَّة بالقرن الأوَّل، والذي يليه. **فإيَّاكَ أن تعود نفْسَكَ أو لِسَانك التَّعرُّض لأحد منهم، ولا يُشَوِّشُ قلبكَ بالرَّيبِ في شَيء ممَّا وقعَ منهم، والتمس هم مذاهب الحقِّ وطُرُقهُ ما استطعت**، فهم أولى النَّاسِ بذلك، وما اختلفوا إلا عن بيِّنةٍ، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد، أو إظهار حق، واعتقد مع ذلك، أنَّ اختلافهم رحمةٌ لمن بعدهم من الأُمَّةِ، ليقتدي كلُّ واحدٍ بمن يختاره منهم إمَامه وهاديه ودليلهُ. فافهم ذلك؛ وتبيَّن حكمةَ الله في خلقهِ وأكوانه، واعلم ﴿أنَّه على كل شيءٍ قديرٌ﴾[الحج: ٦]، وإليه الملجأ والمصير، والله تعالى أعلم.

---

١ - تحرف في نسخة إلى: (منامه).

٢ - في ن: له.

٣ - أخرج أوله البخاري (٢٦٥١ و٣٦٥٠ و٦٤٢٨ و٦٦٩٥) ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين. ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود. وأخرج معنى أوله، ولفظ آخره أحمد (١٨/١) والترمذي ٢١٦٥) وعبد بن حميد (٢٣) والحميدي (٣٢) وابن حبان (٦٧٢٨) من حديث عمر.

١-٣- ٣١- الْفَصْلُ الْحَادِي وَالثَّلاثُونَ
في الخُطَطِ الدِّينيَّةِ [ظ٩٣/١] الخِلافِيَّةِ[١]

لَمَّا تبيَّنَ أنَّ **حقيقةَ الخلافةِ** نيابةٌ عن صاحبِ الشَّرعِ من حفظ الدين وسياسة الدنيا، فصاحبُ الشرع مُتَصرِّفٌ في الأمرين: أمَّا في الدِّين فبمقتضى التَّكاليفِ الشَّرْعِيَّةِ، الَّذي هو مأمورٌ بتبليغها، وحمل النَّاسِ عَلَيْها؛ وأمَّا سياسة الدُّنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العُمران البَشَري.

وقد قدَّمنا أنّ هذا العُمران ضَرُوريٌّ للبشرِ، وأنَّ رعاية مصالحهِ كذلك، لئلاَّ يفسدُ إن أهملت، وقدمنا أنَّ الملك وسطوته كافٍ في حصول هذه المصالح. نعم إنما تكون أكمل، إذا كانت بالأحكام الشَّرعيةِ لأنه أعلم بهذه المصالحِ، فقد صار الملك يندرجُ تحت الخلافة إذا كان إسلاميّاً، ويكون من توابعها. وقد ينفرد إذا كان في غير الملَّةِ. وله على كل حال مراتبُ خادمةٌ، ووظائفُ تابعةٌ، تتعيَّن خططاً، وتتوزَّعُ على رجال الدَّوْلَةِ وظائف، فيقوم كلٌّ واحد بوظيفته، حسبما يعيِّنُهُ الملك الذي تكون يده عالية عليهم، فيتمُّ بذلك أمرهُ ويحسُنُ قيامه بسُلطانه.

وأمَّا المنصب الخلافيُّ، وإن كان الملك يندرجُ تحتهُ بهذا الاعتبار الذي ذكرناه، فتصرُّفَهُ الدِّيني يختصُّ بخطط ومراتبَ لا تعرفُ إلا للخلفاء الإسلاميين.

فلنذكر الآن **الخطط الدِّينية المختصَّة بالخلافةِ**، ونرجعُ إلى الخطط الملوكيَّةِ السُّلطانية.

فاعلم أنَّ **الخطط الدِّينية الْشَّرْعِيَّةِ**، من الصَّلاةِ والفتيا والقضاءِ والجهاد والحسبةِ كلُّها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة. فكأنها الإمام الكبير، والأصل الجامع، وهذه كلُّها متفرِّعةٌ عنها، وداخلة فيها لعمومِ نظر الخلافةِ، وتصرُّفها في سائرِ أحوالِ المِلَّةِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وتنفيذُ أحكامِ الشَّرْعِ فيها على العموم.

فأمَّا إمامةُ الصَّلاةِ: فهي أرفعُ هذه الخطط كلِّها، وأرفعُ من الملك بخُصُوصهِ المندرجِ معها تحت الخلافة. ولقد يشهدُ لذلك استدلالُ الصَّحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافهِ في الصَّلاةِ على استخلافه في السِّياسةِ في قولهم: ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟ فلولاَ أنَّ الصَّلاةَ أرفع من السِّياسةِ لما صحَّ القياسُ.

وإذا ثبتَ ذلك، فاعلم أنَّ **المساجدَ في المدينة صنفان**: مساجد عظيمة، كثيرةُ الغاشية[٢] معدَّةٌ للصَّلواتِ المشهودة، وأخرى دونها مختصَّةٌ بقومٍ أو محلَّة، وليست للصَّلوات العامَّةِ.

---

١ - نسبة إلى الخلافة.

٢ - من يغشونها من المصلين.

فأمَّا **المَسَاجدُ الْعَظِيْمة**، فأمرها راجعٌ إلى الخليفةِ، أو من يفوِّضُ إليه، من سلطان أو وزيرٍ أو قاضٍ، فينصب لها الإمام في الصَّلواتِ الخمس والجُمُعةِ والعِيْدين [ظ٩٣/٢] والخُسُوفَيْنِ والاَّستسقاء. وتعيُّنُ ذلك إنَّما هو من طريق الأَولى والاستحسان، ولئلا يفتات الرَّعايا عليه في شيءٍ من النَّظر في المصالح العامَّةِ، وقد يقولُ بالوجوبِ في ذلك من يقول بوجوبِ إقامة الجُمُعةِ، فيكونُ نصبُ الإمام لها عندهُ واجباً.

وأمَّا **المساجد المختصَّةُ بقومٍ أو محلَّة** فأمرها راجعٌ إلى الجيرانِ، ولا تحتاجُ إلى نظر خليفةٍ ولا سلطان.

وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفةٌ في كتب الفقه ومبسوطةٌ في كتب الأحكام السُّلطانية للماوردِيِّ وغيره، فلا نُطَوِّلُ بذكرها.

ولقد كان الخلفاءُ الأولونَ لا يقلدونها لغيرهم من النَّاسِ، وانظر من طُعن من الخلفاء في المسجد عند الأذَان بالصَّلاةِ، وترصُّدهم لذلك في أوقاتها، يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها، وأنَّهم لم يكونوا يَستخلفون[1] فيها. وكذا كان رجالُ الدَّولةِ الأمويَّةِ من بعدهم استئثاراً بها واستعظاماً لرتبتها.

يُحْكَى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه: قد جعلت لك حجابةَ بابي إلا عن ثلاثة: صاحب الطَّعام فإنه يفسدُ بالتَّأخير؛ والأذَانِ بالصَّلاةِ فإنَّهُ داعٍ إلى الله؛ والبريد فإنَّ في تأخيره فَسَاد القاصِية[2].

فلمَّا جاءت طبيعةُ المُلكِ وعوارضهُ من الغِلْظَةِ والتَّرفع عن مساواةِ النَّاسِ في دينهم ودُنياهم، استنابوا في الصلاةِ، فكانوا يستأثرون بها في الأحيان، وفي الصَّلواتِ العامَّةِ، كَالْعِيْدَيْنِ والجُمُعَةِ إشارةً[3] وتنويهاً. فعل ذلك كثيرٌ من خلفاءِ بني العبَّاسِ، والعُبَيديين صدر دوْلَتِهم.

وأمَّا الْفُتْيَا: فَلِلْخَلِيْفةِ تصفُّحُ أهلِ العلمِ والتَّدْريسِ، وردُّ الْفُتيا إلى من هو أهلٌ لها، وإعانتُهُ على ذلك، ومنعُ من ليس أهلاً لها وزجرُهُ، لأنَّها من مصالح المُسْلمين في أديانهم، فتجبُ عليه مراعاتها لئلاَّ يتعرَّضَ لذلك من ليس له بأهلٍ فيُضِلَّ النَّاس، وللمُدرِّسِ الانتصابُ لتعليم العلمِ وبَثِّهِ والجُلُوسُ لذلك في المساجد، فإن كانت من المساجد العِظَام التي لِلْسُّلطَان الولايةُ عليها والنَّظرُ في أئِمَّتها ـ كمَا مرَّ ـ فَلاَ بُدَّ من استئذانهِ في ذلك، وإن كانت من مَساجد العامَّةِ، فلا يتوقَّفُ ذلك على إذنٍ. على أنَّهُ ينبغي أنَّ لكلِّ أحد من

---

١ - في ن: مستخلفين.
٢ - أي: البلاد البعيدة.
٣ - في ن: إشادة.

المُفتين والمُدرِّسِين زاجرٌ مِن نفسه، يمنعهُ عن التَّصدِّي لما ليس له بأهل، فيُدِلُّ[١] به المُستهدي، ويضلُّ به المُسْتَرْشِدُ. وفي الأثر: «**أجرَؤُكم على الفُتْيا، أجرَؤكُمْ على جَراثِيمِ جَهَنَّمَ**»[٢]. فلِلسُّلطان فيهم لذلك من النَّظر ما توجبُهُ المَصْلَحةُ من إجازة أو ردّ.

وأمَّا القَضاء: فهو من الوَظَائفِ الدَّاخِلَةِ تحتَ الخلافةِ لأنَّهُ منصبُ الفَصْلِ بينَ النَّاسِ في الخُصُومَاتِ حَسَماً للتداعِي وقَطعاً للتَّنازُع. إلاَّ أنَّهُ بالأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ المُتلقَّاةِ من الكتابِ والسُّنَّةِ. فكَانَ لِذَلِكَ من وظائفِ الخِلافةِ [ظ ١/٩٤]، ومندرجاً في عمومها القضاء.

وكان الخلفاء في صدر الإسلام يُباشرونه بأنفسهم، ولا يجعلونَ القضاء إلى من سواهم. وأوَّلُ من دفعه إلى غيرِهِ وفوَّضَهُ فيه عمرُ رضي الله عنه فولَّى أبا الدَّرْدَاء معه بالمدينةِ، وولَّى شُرَيحاً بالبَصْرَةِ، وولَّى أبا موسى الأشْعَرِيَّ بالكوفةِ[٣]، وكتبَ له في ذلك **الكتابِ المشهور الذي تدورُ عليه أحكام القُضاة**، وهي مستوفاة فيه يقول: أمَّا بعدُ: فإنَّ القَضَاءَ فَريضةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبعةٌ، فَافْهَمْ إذَا أُدْلِيَ إلَيْكَ[٤] فإنَّهُ لا ينفعُ تكلُّمٌ بحقٍّ لاَ نفاذ لهُ. وآسِ[٥] بينَ النَّاسِ في وجهكَ ومجلسكَ وعدلكَ حتى لا يطمع شريفٌ في حيفكَ، ولا ييأسُ ضعيفٌ من عدلك. البيِّنَةُ على من ادَّعى، واليمينُ على من أنكر. والصُّلحُ جائزٌ بينَ المُسْلِمِيْنَ إلاَّ صُلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّمَ حلالاً. ولا يمنعكَ قضاءٌ قَضَيته أمسِ فراجعت اليوم فيه عقلك، وهُديت فيه لرشدك، أن ترجعِ إلى الحقِّ فإنَّ الحقّ قديمٌ ومراجعة الحقّ خيْرٌ من التَّمادي في الباطل. الفهم الفهمَ فيما يتلَجْلَجُ[٦] في صدركَ ممَّا ليس في كتابٍ ولا سُنَّةٍ. ثُمَّ اعْرفْ الأمثال والأشباه وقِسِ الأمور بنظائرِها. واجعل لمن ادَّعى حقّاً غائباً أو بينةً أمداً ينتهي إليه، فإنْ أحضرَ بيِّنتهُ، أخذتَ لهُ بحقِّه، وإلاَّ استحللتَ القضاءَ عليه، فإنَّ ذلكَ أنفى للشَّكِّ وأجلى للعَمَى. المُسْلِمُونَ عدولٌ بَعْضُهم على بعضٍ إلاَّ مجلوداً في حدٍّ أو مجرَّباً عليه شهادةُ زورٍ أو ظَنِّيناً في نسبٍ أو ولاءٍ فإنَّ الله سبحانه عَفَا عن الأيْمانِ[٧] ودرأ

---

١ - في ن: فيضل. وهي من دلت المرأة تدلّ إذا تدللت على زوجها تريه جراءةً عليه في تغنُّجٍ كأنها تخالفه وما بها خلاف.

٢ - أخرجه الدارمي (١/٥٧) من حديث عبيد الله بن أبي جعفر مرسلاً.

٣ - استعمله عمر رضي الله عنه على الكوفة والبصرة. وقال العجلي: كان عمر استخلفه على البصرة، وهو فقههم وعلمهم، وولي الكوفة أيضاً في زمن عثمان ـ انظر ترجمته في تهذيب الكمال (١٥/٤٤٦ - ٤٥٠) خلافاً لمن زعم أنه لم يتولَّ القضاء. فأسقط صحة الكتاب متجاهلاً أن الولاية العامة تتضمن القضاء.

٤ - في الدارقطني (٤/٢٠٦ - ٢٠٧) زيادة: [بحجة. وأنفذ الحق إذا وضح].

٥ - سو بيهم في وجهك؟ بمعنى لا تهش لأحد الخصمين وتعبس في وجه الآخر فليس هذا من العدل.

٦ - في ن: تلجلج.

٧ - في رواية الدارقطني: إنَّ الله تعالى تولّى منكم السَّرائر ودرأ عنكم بالبينات.

بالبيِّناتِ. وَإيَّاكَ والقَلَقَ والضَّجرَ والتَّأفف بالخُصوم، فإنَّ استقرارَ الحقِّ في مواطنِ الحقِّ، يُعَظِّمُ اللهُ بهِ الأجرَ، ويُحسنُ به الذِّكرَ والسَّلامُ. انتهى كتاب عمر[1].

وإنَّما كانوا يُقلِّدون القَضَاءَ لغيرهم، وإن كان ممَّا يتعلَّقُ بهم لقيامهم بالسِّياسةِ العامَّةِ، وكثرةِ أشغالها من الجهادِ والفتُوحاتِ وسدِّ الثُّغورِ وحمايةِ البَيْضَةِ[2]، ولم يكن ذلك ممَّا يقومُ به غيرهم لِعظَمِ العنايةِ، فاستخفُّوا القضاءَ في الواقعاتِ بينَ النَّاسِ، واستخلفوا فيه من يقومُ به تخفيفاً على أنفسهم. وكانوا مع ذلك إنما يُقلِّدونه أهلَ عَصبيَّتهم بالنَّسَبِ أو الولاء، ولا يُقلِّدونه لمن بعد عنهم في ذلك.

وأمَّا أحكامُ هذا المَنْصِبِ وشروطهُ، فمعرُوفةٌ في كُتُبِ الفِقْهِ وخصوصاً كُتبَ الأحكام السُّلطانية.

إلاَّ أنَّ القاضي إنَّما كان له في عصر الخلفاء الفصل بينَ الخصوم فقط. ثمَّ دُفعَ لهم بعد ذلك أمورٌ أخرى على التَّدريج، بحسب اشتغالَ الخلفاءِ والمُلوكِ بالسِّياسَةِ الكبرى.

واستقرَّ منصبُ القضَاء آخرَ الأمرِ على أنَّهُ يجمعُ معَ الفصلِ بيَن الخصومِ، استيفاءَ بعض الحقوق العامَّةِ للمُسلمين بالنَّظر [ظ٤ ٢/٩] في أموال[3] المحجورِ عليهم من المجانين واليتامى والمُفلسين وأهل السَّفه، وفي وصايا المُسلمين وأوقافهم، وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأي من رآه، والنَّظرُ في مصالحِ الطُّرُقاتِ والأبنية، وتَصفحِ الشُّهود والأمناءِ والنُّوَّابِ، واستيفاءِ العلمِ والخبرةِ فيهم بالعدالةِ والجرحِ، ليحصل لهُ الوثوق بهم. وصارت هذه كلّها من تعلُّقَاتِ وظيفَتِهِ، وتوابع ولايته.

وقد كان الخلفاءُ من قبلُ يجعلونَ للقاضي النَّظرَ في **المظالم**، وهي وظيفةٌ ممتزجة من سطوةِ السَّلْطَنةِ ونَصفةِ القَضاءِ، وتحتاجُ إلى علوِّ يدٍ وعظيم رهبةٍ تقمعُ الظَّالم من الخصمين، وتزجرُ المتعدِّي. وكأنَه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه. ويكون نظرهُ في البيِّناتِ والتعزير، واعتماد الأمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاءِ الحقِّ، وحملِ الخَصْمَين على الصُّلح، واستحلافِ الشُّهودِ. وذلك أوسع من نظر القاضي.

وكان الخلفاءُ الأولونَ يباشرونها بأنفسهم إلى أيَّامِ المهتدي من بني العبَّاسِ. ورُبَّما كانوا يجعلونها لقضاتهم، كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي إدريس الخَولاني، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثمَ، والمعتصمُ لأحمد بنِ أبي دؤاد. ورُبَّما كانوا يجعلونَ للقاضي

---

١ - أخرجه الدارقطني والبيهقي، وشرحه شرحاً وافياً ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين. وانظره مطولاً في التعريف والإخبار لابن قطلوبغا (٢/٢١٤ - ٢١٥).

٢ - حماية أرض البلاد وما تشتمل عليه.

٣ - في ن: أمور.

قيادة الجهاد في عساكر الطَّوَائفِ[1]. وكان يحيى بن أكثمَ يخرجُ أيَّام المأمون بالطَّائفةِ إلى أرضِ الرُّوم، وكذا منذرُ بن سعيد قاضي عبد الرحمن النَّاصرِ من بني أميَّة بالأندلسِ. فكانت تولِيَةُ هذه الوظَائِفِ، إنَّما تكونُ للخلفاءِ، أو من يجعلونَ ذلك له من وزيرٍ مفوَّضٍ أو سُلطان مُتَغَلِّب.

وكان أيضاً النَّظرُ في الجرائم، وإقامة الحدود في الدَّولة العبَّاسيَّةِ والأمويَّةِ بالأندلس والعُبَيديين بمصر والمغرب، راجعاً إلى صاحب الشّرطة، وهي وظيفةٌ أخرى دينيَّةٌ كانت من الوظائفِ الشَّرعية في تلك الدُّول، توسع النَّظرُ فيها عن أحكام القضاء قليلاً، فيجعلُ للتهمةِ في الحكم مجالاً، ويفرض العقوباتِ الزَّاجرةَ قبل ثُبُوتِ الجرائمِ، ويقيمُ الحدود الثَّابتة في محالها، ويحكمُ في القود والقصاص ويقيمُ التَّعزيرَ[2] والتَّأديب في حقِّ من لم ينتهِ عن الجريمة.

ثُمَّ تُنوسيَ شأنُ هاتين الوظيفتين في الدُّول التي تُنوسيَ فيها أمرُ الخلافةِ فصار أمر المظالمِ راجعاً إلى السُّلطان، كان له تفويضٌ من الخليفةِ أو لم يكن.

وانقسمت وظِيفَة الشَّرطة قسمين:

منها وظيفةُ التّهمةِ على الجرائم، وإقامةُ حدودها، ومباشرةُ القطعِ والقِصَاصِ حيثُ يتعيَّنُ، **ونصب** لذلك في هذه الدُّوَل حاكم يحكم فيها بموجب السِّياسة دون مراجعة الأحكام الشَّرعية، ويُسَمَّى تارةً باسمَ **الوالي**، وتارةً باسم **الشُّرطة**.

وبقي قسمُ التَّعَازِيْرِ وإقامة الحدودِ في الجرائمِ الثَّابتةِ شرعاً، فجمع ذلك القاضي مع ما تقدَّم وصار ذلك من توابعِ وظيفته وولايته، واستقرَّ [ظ٩٥/١] الأمرُ لهذا العهد على ذلك، وخرجت هذه الوظيفةُ عن أهل عصبيَّةِ الدَّولةِ، لأنَّ الأمر لَّما كان خلافةً دينيَّة، وهذه الخُطَّة من مراسم الدِّين، فكانوا لا يُوَلُّونَ فيها إلا من أهل عَصَبيَّتهم من العربِ ومواليهم بالحِلْفِ أو بالرِّقِّ أو بالاصطِناعِ، مِمَّنْ يُوثقُ بكفايته أو غنائه فيما يدفعُ إليه. ولَّما انقرضَ شأنُ الخلافةِ وطورها، وصار الأمر كلُّهُ مُلكاً أو سُلْطاناً، صارت هذه الخطط الدِّينيّة بعيدةً عنه بعض الشَّيء لأنَّها ليست من ألقاب المُلْكِ ولا مراسمه. ثُمَ خرجَ الأمرُ جملةً من العرب، وصار المُلكُ لِسِواهم من أمم التُّرْكِ والبربر، فازدادت هذه الخطط الخلافيَّةُ بعداً عنهم، بمنحاها وعَصَبيَّتها. وذلك أنَّ العربَ كانوا يرون أنَّ الشَّريعةَ دينهم،

---

١ - يرجح الدكتور وافي أنها محرفة عن الصوائف جمع صائفة وهي الغزوة في الصيف. قال عبد الله: لعل المؤلف أراد بهم العسس لأنه يطلق الطائف على العسس.

٢ - عقوبة يترك للقاضي تقديرها حسب حجم الجريمة وظروفها.

وأنَّ النَّبِيّ صلى ا لله عليه وسلم منهم، وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الأمم وطريقتهم[١]، وغيرهم لا يرون ذلك، إنَّما يولونها جَانباً من التَّعظيم، لما دانوا بالملَّةِ فقط. فصاروا يُقلِّدونها من غيرِ عِصَابتهم مِمَّن كان تأهَّلَ لها في دول الخُلَفَاءِ السَّالِفَة.

وكان أُوْلَئِكَ الْمُتَأَهِّلونَ لما أَخَذَهم ترفُ الدُّوَل منذُ مِئِيْن منَ السِّنين قد نَسُوا عهدَ البداوةِ وخُشُونتها والتبسوا بالحضارةِ في عوائد ترفهم ودعتهم، وقلَّةِ المُمَانعةِ عن أَنْفسِهم، وَصَارت هذه الخطط في الدُّوَل المَمْلوكيَّةِ من بعد الخلفاء مختصَّةً بهذا الصِّنْفِ من المُسْتَضعفين في أهلِ الأمصار، ونزَلَ أهلها عن مراتبِ العزِّ، لفقَدِ الأهْلِيَّةِ بأَنْسَابهِمْ، وما هُمْ عليه من الحضارةِ، فَلَحِقَهم من الاحتقارِ ما لحقَ الحضرَ المُنْغَمِسِين في التَّرَفِ والدَّعةِ، البُعداءَ عن عَصَبيَّةِ الملكِ الَّذِينَ هم عيالٌ على الحامِيَةِ، وصار اعتبارهم في الدَّولةِ من أجل قيامها بالمِلَّةِ، وأَخذِهَا بأحكامِ الشَّريعةِ لما أنَّهم الحاملونَ للأحكامِ المقتدون بها. ولم يكن إيثارهم في الدَّولةِ حينئذٍ إكراماً لذواتهم، وإنما هو لما يُتَلَمَّحُ من التَّحمُّلِ بمكانهم في مجالسِ الملكِ لتعظيمِ الرُّتبِ الشَّرعيةِ ولم يكنْ لهم فيها من الحلِّ والعقدِ شيءٌ، وإنْ حضروهُ فحضورٌ رسميٌّ، لا حقيقة وراءه. **إذ حقيقةُ الحلِّ والعقدِ** إنَّما هي لأهلِ القدرةِ عليه. فمن لا قدرةَ له عليه فلا حلَّ له، ولا عقد لديه، اللهمَّ إلا أخذُ الأحكامِ الشَّرْعِيَّةِ عنهم، وتلقِّي الفَتَاوى منهم، فنعم وا لله الموفق.

ورُبَّما يظنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ الحقَّ فيما وراء ذلك، وأنّ فعل الملوكِ فيما فعلوهُ من إخراجِ الفقهاءِ والقضاةِ من الشُّورى مرجوحٌ، وقد قال صلى ا لله عليه وسلم: «**العلمَاءُ ورثةُ الأَنْبِيَاء**»[٢].

فَاعلَم: أنَّ ذلك ليس كما ظنَّهُ. وحكم الملكِ والسُّلطان إنَّما يجري على ما تقتضيه طبيعةُ العمران، وإلا كان بعيداً عن السِّياسَةِ. فطبيعةُ العُمران في هؤلاءِ لا تقتضي لهم شيئاً من ذلك، لأنَّ الشُّورى والحلَّ والعقد [ظ٩٥/٢] إنَّما يكونُ[٣] لصاحبِ عَصَبيَّةٍ يقتدرِ بها على حلٍّ أو عقدٍ أو فعلٍ أو تركٍ. وأمَّا من لا عصبية له، ولا يملكُ من أمر نفسه شيئاً، ولا من حمايتها، إنَّما هو عيالٌ على غيرِهِ، فأيُّ مدخلٍ له في الشُّوْرَى، أو أيُّ معنًى يدعو إلى اعتبارِهِ فيها. اللَّهُمَّ إلاَّ شوراهُ فيما يعلمهُ من الأحكام الشَّرعيَّة، فموجودةٌ في الاستفتاء خاصَّةً، وأمَّا شُوراه في السِّياسة، فهو بعيدٌ عنها لفقدانه العَصَبيَّةَ والقيام على معرفة أحوالها

---

١ - في ن: طريقهم.

٢ - أخرجه أحمد (١٩٦/٥) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجة (٢٢٣) وابن حبان (٨٨) من حديث أبي الدرداء. وفي إسناده مقال.

٣ - في المطبوع: لا تكون إلا لصاحب.

وأحكامها. وإنَّما إكرامهم من تَبَرُّعاتِ الملوكِ والأمراءِ، الْشَّـاهدةِ لهـم بجميـلِ الاعتقـاد في الدِّين، وتعظيمِ من ينتسبُ إليه بأيِّ جهةٍ انتسب.

وأَمَّا قوله صلى ا لله عليه وسلم: «**الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنْبيَاء**». فاعلم أنَّ **الفقهاء** في الأغلبِ لهذا العهدِ وما احتفَّ به إنَّما حمَّلوا الْشَّرِيْعَةَ أقوالاً في كَيفيَّةِ الأعمال في العباداتِ، وكيفيَّـة القضاءِ في المعاملاتِ، ينصُّونها على من يحتـاجُ إلى العمـلِ بهـا، هـذه غايـةُ أكـابرهم، ولا يتَّصِفُونَ إلا بالأقلِّ منها وفي بعضِ الأحوال.

والسَّلَفُ رضوان ا لله عليهم وأهلُ الدِّينِ والورعِ من الْمُسْلِمِينَ حملوا الْشَّرِيْعَةَ اتِّصَافاً بها وتحقُّقاً بمذاهبها. فمن حملها اتِّصَافاً وتحقُّقاً دون نقلٍ فهـو مـن **الوارثـينَ** مثـلَ أهـلِ رِسَـالةِ القُشَيْرِيّ.

ومن اجتمع له الأمـران فهـو **العـالم**، وهـو الـوارثُ علـى الحقيقةِ مثـل فقهـاءِ التَّـابعين والْسَّلَفِ والأئمَّةِ الأَرْبَعَةِ، وَمن اقْتَفَى طَرِيقهم، وَجَاءَ على أَثَرهم.

وَإِذَا انفردَ واحدٌ مِن الأُمَّةِ بأحدِ الأمرين **فالعابدُ** أحقُّ بالوراثـةِ مـنِ الفقيـهِ الَّـذي لَيْـسَ **بعابدٍ** لأنَّ العابدَ وَرث **بصِفَةٍ**، والفقيه الذي ليس بعابد لم يـرث شيئاً، إنمـا هـو صـاحبُ أقوال ينصُّها علينا في كَيفيَّـاتِ العمـلِ. وهـؤلاء أكـثرُ فقهـاءِ عصرنـا. ﴿إِلاَّ الَّذِيـنَ آمنـوا وعملُوا الْصَّالحاتِ وَقَلِيْلٌ ما هُم﴾[ص: ٢٤].

العَدَالَةُ: وهي وظيفة دينيَّةٌ تابعةٌ للقضاءِ، ومن موادِّ تصريفـه. **وحقيقـةُ هـذه الوَظِيفـةِ:** القيامُ عن إذن القاضي بالشَّهادَةِ بين النَّاسِ فيما لهم وعليهـم، تحمُّـلاً عنـد الإشـهادِ، وأداءً عند التَّنازعِ، وكتبـاً في الْسِّجلاَّتِ تحفـظُ بـه حقـوقُ النَّـاسِ وأملاكهـم وديونهـم وسـائر معاملاتهم. **وشرطُ هذه الْوَظِيْفَةِ** الاتِّصَافُ بالعدالةِ الْشَّرْعِيَّةِ، والبراءةُ من الجرحِ، ثُمَّ القيامُ بكتب الْسِّجلاَّتِ، والعقودِ من جهـةِ عباراتهـا[1]، وانتظـام فصولهـا، ومـن جهـة إحكـام شروطها الْشَّرْعِيَّةِ وعقودها، فيحتاجُ حينئذٍ إلى ما يتعلَّـقُ بذلـك مـن الفقـهِ، ولأجـلِ هـذه الْشُّرُوْطِ، وما يحتـاجُ إليـه مـن المِرَانِ[2] علـى ذَلِـكَ، والمُمارسة لـه اختـصَّ ذلـك ببعـضِ العدُولِ، وصارَ الصِّنفُ القائمونَ به كَأنهم مختصُّونَ بالعدالةِ وليس كذلك. وإنَّمـا العدالـة من شروط اختصاصهم بالوظيفةِ.

---

١ – في ن: عبارتها.

٢ – هو التمرن والاعتياد على الشيء.

ويجبُ على القاضي تصفُّحُ أحوالهم، والكشفُ عن سيرِهم، رعايةً لشرطِ العدالةِ فيهم، وأنْ لا يهملَ ذلك [ظ٩٦/١] لما يتعيَّنُ عليه من حفظِ حُقُوقِ النَّاسِ. فالعهدةُ عليه في ذلك كُلِّهِ، وهو ضامنٌ دَرَكَه[1].

وإذا تَعَيَّنَ هؤلاء لهذه الوَظِيْفَةِ عمَّتِ الفائدةُ في تعيينِ من تَخْفَى عَدَالتهُ على القضاةِ بسببِ اتِّسَاعِ الأمصارِ واشتباه الأحوالِ، واضطرار القضاةِ إلى الْفَصْلِ بينَ المُتَنَازعين بالبِّيناتِ الموثوقةِ، فيعولون غالباً في الوثُوقِ بها على هذا الصِّنْفِ. ولهم في سائرِ الأمصارِ دَكَاكِيْنُ ومصَاطبُ يختصُّونَ بالجلوسِ عليها فيتعاهدون أصحاب المعاملاتِ للإشهاد وتقييده بالكتابِ. وصار مدلول هذه اللَّفظةِ مشتركاً بين هذه الوَظِيْفَةِ، التي تبين مدلولها، وبين العدالةِ الشَّرْعِيَّةِ التي هي أخت الجرح. وقد يتواردان ويفترقان. والله تعالى أعلمُ.

الْحِسْبَةُ وَالسِّكَّةُ:

أَمَّا الْحِسْبَة: فهي وظيفةٌ دينيَّةٌ، من بابِ الأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ، الَّذِي هو فرضٌ على القائم بأمورِ المسلمين، يُعَيِّنُ لذلك من يراه أهلاً له، فيتعيَّنُ فرضهُ عليه، ويتخذ الأعوانَ على ذلك، ويبحث عن المنكراتِ، ويُعَزِّرُ ويُؤدِّبُ على قدرِها، ويحملُ النَّاسَ على المصالحِ العامَّةِ في المدينةِ مثلِ المنعِ من المُضَايقةِ في الطُّرُقَاتِ، ومنعِ الحَمَّالِينَ وأهلِ السُّفُنِ من الإكْثَارِ في الحملِ، والحُكمِ على أهلِ المباني المُتَدَاعية للسُّقوطِ بهدمها وإزالة ما يتوقَّعُ من ضررها على السَّابِلَةِ، وَالضَّرْبِ على أيدي المُعَلِّمين في المكاتب وغيرها في الإبْلاغِ[2] في ضَربهم للصُّبيان المُتَعَلِّمين. ولا يتوقَّفُ حكمهُ على تنازعٍ أو استعداء، بل له النَّظرُ والحكمُ فيما يصلِ إلى عَلَمه من ذلك ويرفع إليه، وليس له إمضاءُ الحكمِ في الدَّعاوى مُطلقاً، بل فيما يتعلَّقُ بالغشِّ والتَّدليس في المعايشِ وغيرها في المكاييلِ والموازين، وله أيضاً حملُ المُمَاطِلين على الإنصافِ، وأمثالُ ذلك مما ليس فيه سماعُ بينةٍ، ولا إنفاذُ حكمٍ، وكأنَّها أحكامٌ يُنَزَّهُ القاضي عنها لعمومها وسُهولة أغراضها، فتدفعُ إلى صاحبِ هذه الوظيفة ليقوم بها. فوضعها على ذلك أن تكونَ خادمةً لمنصبِ القضاء.

وقد كانت في كثير من الدُّوَلِ الإسْلاَمِيَّةِ، مثلِ العُبَيديين بمِصْر والمغرب، والأُمويين بالأندلسِ، داخلةً في عُمُومِ ولايةَ القَاضِي، يُولِّي فيها باختيارِه. ثُمَّ لَمَّا انفردت وظيفة السُّلطان عن الخلافةِ، وصار نظرهُ عامّاً في أمور السِّيَاسةِ، اندرجت في وظائفِ المَلكِ وأفردت بالولاية.

---

١ - أي: ضامنٌ تبعته.

٢ - المبالغة فيه بما يفقد العقوبة غايتها.

وأمَّا السِّكَّةُ: فهي النَّظرُ في النُّقودِ المتعامل بها بين النَّاس، وحفظها ممَّا يُداخلها من الغشِّ أو النَّقْص إن كان يتعامل بها عدداً، أو ما يتعلَّقُ بذلك، ويُوصلُ إليه من جميع الاعتبارات، ثُمَّ في وضع علامة السُّلطان على تلكَ النُّقودِ بالاستجادَةِ والخلوص[1] برَسْمِ تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتُّخِذ [ظ٩٦/٢] لذلك، ونقش فيه نُقُوشٌ خاصَّة به فيوضع على الدِّينار، بعدَ أن يُقدَّرَ ويُضربَ عليه بالمطرقةِ، حتَّى ترسمَ فيه تلكَ النُّقوش، وتكونُ علامة على جودته بحَسَبِ الغاية التي وقفَ عندها السَّبك والتَّخليصُ في متعارف أهلِ القطر، ومذاهب الدَّوْلَةِ الحاكمةِ.

فإنَّ السَّبكَ والتَّخْليصَ في النُّقُوْدِ لا يقفُ عند غاية، وإنَّما ترجعُ غايتهُ إلى الاجتهادِ، فَإذَا وقفَ أهلِ أُفُقٍ أو قُطْرٍ على غاية مِنَ التَّخليص وقفوا عندها وسَمَّوها إماماً وعياراً يعتبرون به نُقُودَهمْ وينتقدُّونها بمُمَاثَلَتِهِ. فإن نقصَ عن ذلك كان زَيفاً.

والنَّظَرُ في ذلك كلِّه لصاحبِ هذه الوظيفةِ، وهي دينيَّةٌ بهذا الاعتبار، فتندرجُ تحت الخلافةِ، وقد كانت تندرجُ في عمومِ ولاية القاضي، ثُمَّ أفردت لهذا العهدِ كما وقع في الحِسْبَةِ.

هذا آخر الكلامِ في الوَظَائِفِ الخلافيَّةِ، وبقيت منها وظائفُ ذَهَبَت بذهابِ ما ينظرُ فيه، وأخرى صارت سُلْطَانيّةً.

فوظيفةُ الإمارة والوزارةِ والحرب والخَرَاجِ، صارت سُلْطَانِيَّةً نتكلَّمُ عليها في أماكنها بعدَ وظيفة الجهاد.

ووظيفةُ الجهاد بَطَلَتْ ببطلانهِ، إلا في قليلٍ من الدُّوَلِ يُمَارِسُونه، ويُدرجون أحكامه غالباً في السُّلْطَانِيَّات.

وكذا **نِقَابَةُ الأنْسَابِ**، التي يُتَوَصَّلُ بها إلى الخلافةِ أو الحقِّ في بيت المالِ، قد بَطَلَتِ لدثُورِ الخلافةِ ورُسُوْمِهَا.

وبالجُمْلَةِ قدِ انْدرَجَتْ رسومُ الخلافةِ ووظَائِفُهَا في رُسُومِ المُلْكِ والسِّيَاسَةِ في سائرِ الدُّوَلِ، لهذا العَهْدِ. والله مُصرِّفُ الأُمُورِ كيفَ يَشَاءُ.

---

١ - من التزييف والغشّ.

١-٣-٣٢- الْفَصْلُ الْثَانِي والثَّلاثونَ
فِي اللَّقَبِ بِأَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ، وَأَنَّهُ من سمات الخلافةِ، وهو محدثٌ منذُ عهد الخُلَفاء

وَذَلكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويعَ أَبُو بكـر رضـي ا الله عنـه وكـانَ الْصَّحَابَـة رضـي ا الله عنهـم وَسَـائرُ الْمُسْلمينَ يُسَمُّونه خليفة رسولِ ا اللهِ صلى ا الله عليه وسلم، ولم يزل الأمـر علـى ذلـك إلى أن هلكَ. فلمَّا بويعَ لعمرَ بعهدِهِ إليه، كانوا يَدْعُونـهُ خليفـة خليفـةِ رَسُوْلِ ا اللهِ صلى ا الله عليه وسلم. وكأنَّهُم استثقلُوا هذا اللَّقَبَ بكثرتـه وطـول إضَافَتِـهِ، وأنَّـهُ يَتَزَايدُ فيما بَعْدُ دَائماً، إلى أن يَنْتَهي إلى الهُجْنَـةِ[1]، ويذهـبُ منه التَّميـيزُ بتعـدُّدِ الإضَافَـاتِ وكثرتها فـلا يُعْرَفُ، فكانوا يعدلونَ عن هذا اللَّقَبِ إلى ما سواهُ، ممَّا يُنَاسِبُهُ ويُدعى بـه مثلُهُ، وكـانوا يسمّون قُوَّاد البعوث باسم الأمير، وهو فَعِيلٌ من الإمارة، وقد كان الجاهليَّةُ يدعـونَ النَّبيَّ صلى ا الله عليه وسلم أميرَ مكَّة، وأميرَ الحجاز، وكانَ الْصَّحابةُ أيضاً يدعونَ سَعْدَ بـن أبَـي وَقَّاصٍ أمير المؤمنينَ لإمارته على جَيْشِ الْقَادِسَيَّةِ، وهم معظَمُ الْمسْلِمِينَ يومئذٍ.

واتَّفقَ أنْ دعا بعض الْصَّحابة عمر رضي ا الله عنه: يا أميرَ الْمُؤْمِنِينَ، فاسْتَحْسَـنَهُ النَّـاسُ، واستَصْوَبُوهُ وَدَعُوهُ به. **يُقالُ**: إنَّ أوَّل [ظ١/٩٧] من دعاه بذلـك عبـد ا الله بـن جحش، **وقيلَ**: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، **وقيلَ**: بريدٌ جـاء بـالفتح مـن بعـض البُعُـوثِ، ودخـل المدينـة، وهـو يسـألُ عـن عمـر، ويقـول: أيـنَ أمـيرُ المؤمنـين؟ وسمعهـا أصحابـهُ فاستحسنوهُ. وقالوا: أصَبْتَ وا اللهِ اسْمَهُ، إنَّـهُ وا الله أمـيرُ المؤمنـين حقّـاً. فدعـوه بذلـك، وذهبَ لقباً له في النَّاسِ، وتوارثه الخلفاء من بعده، سمةً لا يشاركهم فيها أحـدٌ سـواهم إلا سائر دَولةِ بني أُميَّة.

ثُمَّ إنَّ الْشِّيعَةَ خَصُّوا عليّاً باسم **الإمام** نعتاً لهُ بالإمامة، التي هي أختُ الخلافةِ، وتعريضاً بمذهبهم، في أنَّهُ أحقُّ بإمامةِ الصَّلاةِ من أبي بكر لما هو مذهبهـم وبدعتهـم فَخصُّوهُ بهـذا اللَّقَبِ، ولمن يسوقون إليه منصبَ الخلافةِ من بعدِه، فكانوا كلُّهم يُسَمَّون بالإمام، ما داموا يدعون لهم في الخفاء[2]، حتَّى إذا استولوا على الدَّوْلَةِ يحوِّلونَ اللَّقـبَ فيمـا بعـدهُ إلى أمير المؤمنين، كما فعله شيعةُ بني العبَّاس. فإنَّهم مـا زالـوا يدعـونَ أئمَّتهـم بالإمـامِ إلى إبراهيـم الَّذي جهروا بالدُّعاء له، وعقدوا الرَّايات للحـربِ علـى أمـره. فلمَّـا هلـكَ، دُعـيَ أخـوه السَّفَّاحُ بأمير المؤمنينَ، وكذا الرَّافضة بأفريقية. فـإنَّهم مـا زالـوا يدعـونَ أئمتهـم مـن ولـد إسماعيل بالإمام، حتى انتهى الأمر إلى عبيـد ا الله المهـديِّ، وكـانوا أيضـاً يدعونـه بالإمـام،

---

١ – الهجنة في الكلام: ما يعيبه.

٢ – في ن: الخلفاء.

ولابنه أبي القاسم من بعده، فلمَّا استوثقَ لهم الأمر، دعوا من بعدهما بأمير المؤمنينَ. وكذا الأدارسة بالمغربِ، كانوا يُلقِّبونَ إدريسَ بالإمامِ، وابنهُ إدريسَ الأصْغَرَ كذلك. وهكذا شأنهم.

وتوارثَ الخُلَفَاءُ هذا اللَّقبَ، بأمير المؤمنينَ وجعلوه سمةً لمن يملكُ الحجاز والشَّامِ والعراقَ والمواطنَ التي هي ديار العربِ ومراكز الدَّولةِ وأهل المِلَّةِ والفتح.

وازداد كذلك في عنفوان الدَّولةِ وبذخها لَقبٌ آخرُ للخلفاء يتميَّزُ به بعضهم عن بعض، لما في أميرِ المؤمنين مِنَ الاشتراكِ بينهم، فاستحدث لذلك بنو العبَّاس حجاباً لأسمائهم الأعلامِ عنِ امتهانها في ألسنةِ السُّوْقَةِ، وصوناً لها عنِ الابتذال، فتَلَقَّبُوا بالسَّفَّاح، والمنصورِ، والمهديِّ، والهادي، والرَّشيد، إلى آخرِ الدَّوْلَةِ. واقْتفى أثَرهم في ذلك العُبَيديُّونَ بأفريقيَّةَ ومصرَ.

وتجافي **بنو أميَّةَ** عن ذلك بالمشرق (فجرياً على)[1] الغضاضةِ والسَّذَاجةِ؛ لأنَّ العروبيَّةَ ومنازعها لم تفارقهم حينئذٍ، ولم يتحوَّل عنهم شعارُ البداوةِ؛ إلى شعار الحضَارَةِ، وأمَّا **بالأندلس**، فتقليداً[2] لسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القُصُور عن ذلك بالقصور عن الخلافةِ التي استأثرَ بها بنو العبَّاس، ثم بالعجزِ عن مُلكِ الحجاز، أصلِ العرَبِ والمِلَّةِ، والبعدِ عن دار الخلافةِ التي هي مركز العَصَبيَّةِ، وأنَّهم إنَّما منعوه[3] بإمارة القاصيَةِ أنفسهم [ظ٩٧/٢] من مهالكِ بني العبَّاسِ. حتى إذا جاءَ عبد الرحمن الآخر منهم، وهو النَّاصرُ ابنُ الأمير عبد الله محمَّدٍ بن عبد الرحمن الأوسط، لأوَّل المئةِ الرَّابعةِ، واشتهر ما نالَ الخلافةَ بالمشرق منَ الحجر، واستبداد الموالي، وعيثهم في الخلفاء بالعَزْلِ والاستبدال، والقتلِ والسَّمْلِ[4]. ذهَبَ عبدُ الرحمن هذا إلى مثلِ مذاهب الخلفاء بالمشرق وأفريقيَّةَ، وتسمَّى بأمير المؤمنين، وتَلَقَّبَ بالنَّاصرِ لدينِ الله، وأخذت من بعده عادةٌ ومذهبٌ لُقِّنَ عنه، ولم يكن لآبائهِ وسلفِ قومه.

واستمرَّ الحالُ على ذلك، إلى أن انقرضت عَصَبيَّةُ العرب أجمعَ، وذهب رسمُ الخلافة، وتغلَّبَ الموالي من العجمِ على بني العبَّاسِ، والصَّنائع على العُبَيديين بالقاهرةِ، وصَنْهاجة على أمراء أفريقيَّة، وزناتةَ على المغرب، وملوكِ الطَّوائفِ بالأندلسِ على أمر بني أميَّة

١ - في ن: (قبلهم مع).
٢ - في ن: فتلقبوا كسلفهم.
٣ - في ن: منعوا.
٤ - أي: فقء العين.

واقتسموه، وافترق أمر الإسلامِ، فاختلفت مذاهب الملوكِ بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالألقاب، بعد أن تسموا جميعاً باسم السُّلطان.

فأمَّا **ملوك المَشْرق** من العجم، فكان الخلفاء يخصونهم بألقَابٍ تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحُسن ولايتهم، مثل شرف الدَّوْلَةِ، وعضد الدَّوْلَةِ، وركن الدَّولة، ومعز الدَّولةِ، ونصيرِ الدولة، ونظام الملك، وبهاء الدولة، وذخيرةِ المُلْكِ، وأمثال هذه. وكان العُبَيديُّون أيضاً يخصُّون بها أمراءِ صَنْهَاجة، فلمَّا استبدُّوا على الخلافةِ قنعوا بهذه الألقاب، وتجافوا عن ألقاب الخلافةِ أدباً معها، وعدولاً عن سماتها المختصة بها، شأنَ المتغلبين المستبدين كما قلناه.

ونزع المتأخرون **أعاجمُ المشرق** حين قَوِيَ استبدادهم على الملك، وَعَلاَ كَعبُهم في الدَّولةِ والسُّلطان، وتلاشت عَصَبيَّة الخلافة، واضمحلَّت بالجملة إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل النَّاصر، والمنصور، زيادة على ألقابٍ يختصون بها قبل هذا الانتحال، مشعرة بالخروج عن ربقةِ الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدِّين فقط، فيقولون صلاح الدين، أسد الدِّين، نور الدِّين.

وأمَّا **مُلوكُ الطَّوائفَ** بالأندلسِ، فاقتسموا ألقابَ الخلافةِ وتوزَّعوها، لقوَّةِ استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبُوا بالنَّاصرِ، والمنصورِ، والمعتمد، والمُظَفَّر، وأمثالها، كما قال ابن شرف[1] ينعي عليهم:

مِمَّا يُزَهِّدُني في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْمَاءُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالْهِرِّ يَحكي انتفاخاً صورة الأَسَدِ

وَأَمَّا **صنهاجة**، فاقتصروا عن الألقابِ التي كان الخلفاء العُبيديون يُلقبون بها للتَّنويه، مثل نَصير الدَّولةِ، ومعزِّ الدَّولةِ. واتَّصَلَ لهم ذلك [ظ٩٨/١] لَمَّا أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العَبَّاسيين، ثُمَّ بعدتِ الشُّقَّة بينهم وبينَ الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السُّلطَان. وكذا شأنُ ملوكِ **مِغْرَاوَة** بالمغرب لم ينتحِلُوا شيئاً من هذه الألقاب، إلا اسمَ السُّلطَان جَرياً على مذاهبِ البداوةِ والغَضَاضَة.

ولَمَّا مُحي رسمُ الخلافةَ، وتعطَّلَ دَسْتها، وقام بالمغربِ من قبائلِ البربر، **يوسفُ بنَ تاشفين**، مَلِكُ لمتونةَ فملكَ العدوتين، وكان من أهل الخير والاقتداءِ، نزعت به همَّته إلى

---

١ - في الأصل: ابن أبي شرف. خطأ، جاء صواباً فيما مضى في الفصل الثاني من الباب الثالث، وهو محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني. انظر ترجمته في معجم المؤلفين (١٠/٢٥ - ٢٦). وقد نسب المقري في نفح الطيب (١/١٢٥) البيتين لأبي بكر بن عمار.

الدُّخول في طاعةِ الخليفةِ تكميلاً لمراسمِ دينه، فخاطبَ المستظهرَ العَبَّاسِي، وأوفد عليه ببيعته عبد اللهِ بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخةِ إشْبِيْلِيَّةَ، يطلبان توْلِيَته إيَّاها[1] على المغربِ وتقليدهُ ذلك، فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المَغربِ، واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته، وخاطبه فيه: يا أمير المؤمنين تشريفاً واختصاصاً، فاتَّخذها لقباً. ويُقَالُ: إنَّهُ كان دُعِي له بأمير المؤمنين من قبل[2]، أدباً مع رتبةِ الخلافةِ، لما كان عليه هو وقومه المرابطونَ من انتحال الدِّينِ، واتِّباعِ السُّنَّةِ.

وجاء **المهدي** على أثرهم، داعياً إلى الحقِّ آخذاً بمذاهبِ الأشعرية، ناعياً على أهل المغربِ عدولهم عنها إلى تقليد السَّلَف في تَرْكِ التَّأويلِ لظواهر الشَّريعةِ، وما يؤول إليه ذلك من التَّجسيم، كما هو معروفٌ في مذهب الأشْعَرِيَّةِ، وسَمَّى أتباعَهُ **الموحدين**، تعريضاً بذلك النَّكِيْرِ[3]. وكانَ يرى رأي أهل البيتِ في الإمام المعصُوم، وأَنَّهُ لا بُدَّ منه في كل زمان، يُحفظَ بوجوده نظام هذا العالم، فَسُمِّي بالإمام لما قلناهُ أوّلاً من مذهبِ الشِّيْعَةِ في ألقابِ خلفائهم، وأُرْدِفَ بالمعصوم إشارة إلى مذهبه في عصمة الإمام. وتنزَّه عندَ **أتْباعِهِ** عن أمير المؤمنين، أخذاً بمذاهبِ المُتَقَدِّمينَ من الشِّيْعَةِ، ولما فيها من مُشَاركة الأغمارِ والولدَان من أعقابِ أهل الخلافةِ يومئذ بالمشرق.

ثُمَّ انتحلَ **عبد المُؤْمِنِ** وَلِي عهدهِ اللَّقبَ بأميرِ المُؤمنين، وجرى عليه من بعده خلفاءُ بني عبد المؤمنِ، وآل أبي حَفص من بعدهم، استئثاراً به عمن سواهم، لَمَّا دعا إليه شَيخهم المهديّ من ذلك، وأنَّهُ صاحب الأمرِ، وأولياؤهُ من بعده كذلك دونَ كلِّ أحد لانتفاءِ عَصَبيَّةِ قريش وتلاشيها، فكان ذلكَ دأبهم.

ولَمَّا انتقضَ الأمرُ بالمغربِ، وانتزعهُ **زناتةُ**، ذهبَ أوّلهم مذاهبَ البداوةِ والسَّذَاجةِ، وأتباعِ لمتونة في انتحال اللَّقبِ بأمير المؤمنين أدباً مع رُتْبَةِ الخلافةِ، الَّتي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أوّلاً ولَبني أبي حفص من بعدهم، ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللَّقب بأمير المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد، استبلاغاً في منازعِ الملك، وتتميماً لمذاهبه وسِمَاته [ظ٩٨/٢]. ﴿والله غالبٌ على أمْرِهِ﴾[يوسف: ٢١].

---

١ - في ن: إياه.
٢ - ذهب وافي إلى أن هنا جملة ساقطة بين كلمتي قبل وأدباً، وهي (ثم أهمل).
٣ - يعني القول المفضي إلى التّشبّه والتجسيم.

١ـ٣ـ٣٣ـ الْفَصْلُ الثَّالثُ وَالثَّلاثُونَ
في شَرْحِ اسْمِ الْبَابَا وَالْبَطْرَك في المِلَّة النَّصرَانيَّة، و[اَسْم] الْكُوْهن عندَ الْيَهُوْد

اعْلَمْ: أنَّ المِلَّةَ لا بُدَّ لها من قائم عندَ غَيبة النَّبيّ، يحملهم على أحكامها وَشَرَائعها، ويكونُ كالخَليفة فيهمَ للنَّبيّ فيما جاء به من التَّكاليف. والنَّوْعُ الإنساني أيضاً، بما تقدَّمَ من ضرورة السِّياسَة فيهم للاجتماعِ البَشَريّ، لا بُدَّ لهم من شخص يحملهم على مصالحهم، ويزعهم[١] عَنْ مَفاسدهم بالْقَهْر، وهو المُسَمَّى بالمَلك. والملَّةُ الإسلامَيَّةُ، لمَّا كانَ الجهادُ فيها مَشْرُوعاً لعُموم الدَّعْوَة، وحمل الكافَّةَ على دينِ الإسْلامِ طَوْعاً أو كَرهاً، اتَّحدَتْ[٢] فيها الخلافة والمُلك، لتوجُّه الشَّوكَة من القَائمَيْنَ بها إليهما معاً.

وأمَّا ما سوى المِلَّة الإسْلاميَّة، فلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُمْ عامَّةً، ولا الجَهادُ عندهم مشروعاً، إلاَّ في المُدَافَعَة فقط. فَصَار القائمُ بأمر الدِّين فيها، لا يَعنيه شيءٌ من سياسة الملك، وإنَّما وقعَ المُلكُ لمن وقع منهم بالعَرض، ولأمر غير دِيْنيٍّ، وهو ما اقتضته لهم العَصَبيَّة لما فيها من الطَّلب للمُلك بالطَّبْعِ، لما قدَّمناهُ، لأنَّهم غيرُ مُكَلَّفينَ بالتَّغلُّب على الأمم، كما في المِلَّة الإسْلاميَّة، وإنَّما هم مطلوبونَ بإقامة دينهم في خاصَّتهم.

ولذلك بقيَ **بنو إسرائيل** منِ بعد موسى ويوشَع صَلواتُ الله عليهما نحو أربع مئة سَنَة لا يعتنونَ بشيءٍ من أمر الملك، إنَّما همُّهُم إقامةُ دينهم فقط. وكان القائمُ به بينهم يُسَمَّى الكوهنَ كأنَّهُ خليفةُ موسى صلوات الله عَليه، يُقيْمُ لهم أمر الصَّلاة والقُربان، ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارونَ صلوات الله عليه، لأنَّ موسى لمَ يعقب. ثُمَّ اختاروا لإقامة السِّياسة التي هي للبشر بالطَّبع سبعينَ شَيْخاً، كانوا يتلونَ أحكامهم العامَّة، والكوهنُ أعظمُ منهم رُتبةً في الدِّين، وأبعدُ عن شغَب الأحكام. واتَّصلَ ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعةُ العَصبيَّة، وتمحَّضت الشَّوكةُ للملك، فغلبوا **الكَنْعَانِيِّينَ** على الأرض التي أورَثهم الله بيتَ المَقدس ـ وما جاوَرَهَا ـ كمَا بَيَّنَ لهم على لسَان موسى صَلَواتُ الله عليه، فَحَارَبَتهُم أُمَمُ الْفلسْطيْن، والْكَنْعَانيِّينَ، والأَرْمَن، وأُرْدُنَّ، وعَمَّانَ، ومَأْرِبَ، ورئَاسَتُهُمْ في ذلكَ راجعةٌ إلى شيوخهم، وأَقَاموا على ذلك نحواً من أرْبَعِ مئة سَنَة. ولم تكن لهم صَوْلَةُ الملك، وضَجر بنو إسرائيل من مطالبة الأمم، فطلبوا على لسانِ **شَمَّويل**[٣] من أنبيائهم أن يأذنَ الله لهم في تمليك رجلَ عليهم فوَلِيَ طَالُوتَ، وغلبَ

---

١ - أي: يمنعهم ويردهم.

٢ - في جميع النسخ: اتخذت بالذال المعجمة وهو تحريف.

٣ - شمويل: هو إسماعيل تحرف في النطق. وما ذكره من أسماء الأنبياء والمعلومات المتعلقة بهم لا يمكن اتخاذها كخبر صادق لا محيد عنه، وإنما هي من باب الظن، إذ لا يوجد نص صحيح يؤكد وجود نبي اسمه يوشع، أو أنّ موسى لم يعقّب...

الأمم، وقتلَ جَالُوتَ[١] ملكَ الْفلسْطيْن، ثمّ مَلَكَ بعدهُ داوُدُ، ثُمّ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهمَا، وَاسْتَفْحَلَ ملكُهُ وامتدَّ إلى الحجَاز، ثُمَّ أطْرَافَ اليَمَن، ثُمّ إلى أطْرَاف بلاد الرُّوْم.

ثُمَّ افْتَرقَ الأَسْبَاطُ من بعد سُلَيْمَانَ صلواتُ الله عليه [ظ٩٩/١] بمقتضى العَصَبيَّة في الدُّوَل، كما قدَّمناهُ، إلى دولتين، كانت إحَداهما بالجزيرَة والموصَلِ للأَسْبَاط العَشرَة، والأُخْرَى بالقُدْسِ والشَّام لِبَني يَهُوْذَا وَبنْيَامِيْن.

ثُمَّ غَلبهَم **بُخْتَنَصَّر** ملكُ بَابلَ، على ما كانَ بأيديهم من المُلْك، أوّلاً الأَسْبَاطَ العَشْرَةَ، ثُمَّ ثَانياً بني يهوذا وبيتَ المقدس بعدَ اتِّصَال ملكهم نحو ألفَ سَنَة، وخرَّبَ مسجدَهم وأحرقَ توراتَهم[٢]، وأمَاتَ دينهم، ونقلهم إلى أَصْبهَانَ وبلادَ الْعرَاق، إلى أن رَدَّهمْ بَعضُ ملوك الكيَانيَّة من الفُرْس إلى بيت المَقْدس من بعد سَبْعينَ سنة من خروجهم، فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرَّسْمِ الأوَّل للكَهَنَة فقط، والمُلْكُ للفرس.

ثُمَّ غلبَ الإسكندرَ، وبنو يُونانَ على الفُرْس، وصارَ الْيَهُودُ في ملكتهم، ثُمَّ فَشَلَ أمرُ اليونانيين، فاعتزَّ اليهودُ[٣] عليهم بالعَصَبيَّة الطَّبيعيَّة، ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنَةُ الَّذينَ كانوا فيهم من بني **حَشْمَنَاي**، وقاتلوا يونانَ حتَّى انْقَرضَ أمرهم، وغلبهمَ الرُّومُ فصاروا تحت أمرهم. ثُمَّ رجعوا إلى بيت المقدسِ وفيها بَنُو هيْرُوْدُسَ، أصهَارُ بني حَشْمَنَايَ، وبقيت دولتهم فحاصروهم مدَّةً، ثم افتتحوها عنوةً، وأفحشوا في القتلِ والهَدْمِ والتَّحْرِيْق، وخرَّبوا بيتَ المقدس، وأجلَوهم عنها إلى رُوْمَةَ ومَا ورَاءَهَا وهو الخرابُ الثَّاني للمَسْجد[٤]، ويُسَميه اليهود بالجَلْوَة الكبرى. فلم يَقم لهم بعدها ملكٌ لفقدان العَصَبيَّة منهم، وبقوا بعد ذلك في ملكَة الرُّومِ من بعَدهم، يُقيم لهَم أمر دينهم، الرَّئيسُ عليهم، المُسمَّى بالكوَهن.

ثُمَّ جاء **المسيحُ** صلواتُ الله وسلامهُ عليه، بما جاءهم به من الدِّين، والنسخ لبعضِ أحكامِ التَّوْرَاة، وظهرت على يديه الخوارقُ العَجيبةُ، من إبراء الأكمه والأبرصِ، وإحياءِ الموتى، واجتمع عليه كثيرٌ من

---

١ - أسماء: (طالوت وجالوت).. تتشابه مع اسمي الملكين (هاروت وماروت) وكأن هذه الأسماء نابعة من بيئة محددة ذات طبيعة خاصة حيث ذكرًا في بابل، فأين هي من بيت المقدس؟!.

٢ - كل هذه المعلومات مما يدعيه اليهود، ولا يمكن أن يعطى صفة المصداقية، وإنما هي رغبات أريد منها توثيق تاريخ لا يخدم ما يريدون. إذ أن ما سمي بالسبي البابلي غير موافق للمجريات العامة للأحداث. إذ كيف يسمّى المرءُ إلى عاصمة ملكه.. ذلك أن سليمان عليه السلام كانت قاعدته وكرسي ملكه في بابل وليس في القدس، يستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿ولسليمان الريح تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ فلو كانت قاعدة الملك لقال: (من الأرض).

٣ - يحسن التفريق بين اليهود وبني إسرائيل، لأن القرآن الكريم يميز بينهما، ويعطي اليهود كل صفة سيئة منذ ذكروا، في حين يلعن الكافرين من بني إسرائيل ويمتدح المؤمنين الصادقين.. ولم يكن في الأنبياء من ينتسب إلى اليهود، ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا﴾. ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل: بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾.

٤ - لم تنص الآيات الكريمة على خراب المسجد وإنما على إفسادين لبني إسرائيل في الأرض كان أولهما يسبق تسلط فرعون عليهم، ثم ردّت لهم الكرة بوجود موسى ﷺ، والثانية بعد فرعون، لقوله تعالى: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾.

النَّاس، وآمنوا به، وأكثرهم الحواريُّونَ من أصحابه، وكانوا اثني عَشَرَ، وبعثَ منهم رُسُلاً إلى الآفاق، داعينَ إل ملَّته، وذلك أيَّامَ **أوْغُسطس**، أوَّلُ ملوك القَياصرَة. وفي مدَّة هيرودُسُ ملك اليهود، الَّذي انتزع المُلكَ من بني حَشمنَاي أصْهَاره، فحسدهُ اليهودُ وكَذَّبوهُ، وكاتَب **هيْرودُسَ** ملكهم ملك القَياصرَة أوْغُسطسَ يُغريه به، فأذنَ لهم في قتله، ووقعَ ما تلاهُ القرآن من أمره.

وافترَق **الحواريُّون** شيعاً، ودخل أكثرهم بلادَ الرُّوم داعينَ إلى دين النَّصْرانيَّة، وكانَ **بُطْرُس** كبيرهم، فترل برومةَ دار ملك القَياصرَة، ثُمَّ كتبوا الإنجيلَ الذي أنزل على عيسى صلواتَ الله عليه، في نسخٍ أربعٍ على اختلاف رواياتهم. فكَتَبَ **متَّى** إنجيله في بيت المقدس بالعبْرَانيَّة(١)، ونقلهُ **يوحنَّا** بنُ زبدي منهم إلى اللِّسَان اللاَّتيني، وكتبَ **لُوقَا** منهم إنجيلهُ باللاَّتيني إلى بعض أكَابر الرُّوم، وكتبَ يُوحَنَّا بَنَ زبدي منهم إنْجيلهُ برومَةَ [ظ٩٩/٢]، وكتبَ بُطْرُسُ إنْجيلهُ باللاَّتيني ونَسبهُ إلى **مُرْقَاص**(٢) تلْميذه. واختَلَفت هذه النُّسَخُ الأربعُ من الإنجيلِ، مع أنَّها **ليست كلهاَ وحياً صرْفاً**، بل مشوبةً بكلام عيسَى عليه السلام وبكلام الحوَاريين، وكلّها مواعظٌ وقصص، والأحكامُ فيها قليلةٌ جداً.

واجتمع الحواريُّونَ، الرُّسلُ لذلك العهد، برومة، ووضعوا قوانين المِلَّة النَّصْرانيَّة، وَصَيَّرُوْهَا بيد **أَقْليمَنْطُس** تلْميذ بُطْرُسَ، وكتبوا فيها عددَ الكُتُب التي يجبُ قبولها والعمل بها.

فمن شريعَةَ اليهود القديمة: التَّوْرَاةُ وهي خَمسة أَسْفَار، وكتابُ يُوشعَ، وكتابُ القُضَاة، وكتابُ رَاعُوث، وكتاب يهوذا(٣)، وأسفارُ الملوك، أربعةٌ، وسفرُ بنْيَامين(٤)، وكتب المَقَابِيّينَ لابن كرْيونَ(٥) ثلاثةٌ، وكتابُ عزرا الإمَام، وكتابُ أوشيرَ(٦) وقَصة هامانَ، وكتَابُ أيُّوب الصِّديق، ومزاميرُ داودَ عليه السَّلام، وكتب ابنه سليمانَ عليه السلام خَمسةٌ(٧)، ونبؤاتُ الأنبياء الكبارِ والصِّغارِ ستَّة عشرَ(١)، وكتابُ يَشُوعَ بن شَارِخ(٢)، وزير سُلَيمانَ(٣).

---

١ - لم يترل كتاب من كتب الله ﷺ إلا بالعربية أخرج الحاكم (٧٣/٤) والطبراني في الكبير (٤٥٥/١٢) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق السماوات سبعا فاختار العلياء منها فأسكنها من شاء من خلقه، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشا، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فيبغضي أبغضهم». وانظر البداية والنهاية (٢٥٧/٢).. وما العبرية في واقعها إلا محاولة للتأكيد على وجود غير مثبت، ومن يتابع ما كان عليه أهل المدينة المنورة يعلم أنهم لم يكن ذكر اللسان العبراني موجوداً وإنما هو لسان يهودٍ الذين أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه بتعلمه، وقد تعلم السريانية في أربعة عشر يوما..

٢ - مرقص.

٣ - المعروف بسفر يهوديت.

٤ - لعله تحرف عن (سفر نحميا) أو (سفر بل والتنين).

٥ - الصواب أنه (يس الكريوني) نسبة إلى كريان، المعروفة الآن ببرقة في ليبيا. وهو مختصر أسفار المكابين الأربعة في ثلاثة أجزاء.

٦ - وهو سفر إستير.

٧ - الموجود منها الآن أربعة: أمثال، الجامعة، نشيد الأناشيد، الحكمة. =

ومن شَريعَة عيسى صلواتُ الله عليه المُتلَقَّاة منَ الحَوارِيِّينَ: نسخُ الإنجيل الأربعِ، وكتبُ القَتاليقونَ سَبْعُ رَسَائِلَ، وَثَامنها الإبْريكسيْسُ[٤] فِي قصص الرُّسُلِ، وكتاب بُولُسَ أربع عشرة رسالة، وكتاب أَقْليمنطُس، وفيه الأحكامُ، وكتاب أبو غالمسيس[٥]، وفيه رؤيَا يوحنَّا بن زبدي.

واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشَّريعة تارة وتعظيم أهلها ثُمَّ تَرَكها أخرى، والتَّسَلُّط عليهم بالقتل والبغي، إلى أن جاء **قسطَنطِينَ**، وأخذ بها واستمرُّوا عليها.

وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه يُسَمُّونه **البَطْرَك**، وهو رئيسُ المِلَّة عندهم وخليفة المسيح فيهم، يبعث نوَّابهُ وخلفاءهُ إلى ما بعد عنه من أمم النَّصرانية، ويُسَمونه الأَسَقَف أي نائب البَطْرَك، ويُسمون الإمام الذي يُقيم الصَّلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس، ويسمون المنقطع الذي حبسَ نفسه في الخلوة للعبادة **بالرَّاهب**، وأكثرُ خلواتهم في الصَّوامع، وكان **بطْرُسُ** الرَّسولُ، رأس الحواريين، وكبير التَّلاميذ بَرومة، يقيمُ بها دين النَّصرانية، إلى أن قتلهُ نيرون خامسُ القياصرة، فيمن قتل من البطارق والأساقفة، ثم قام بخلافته في كرسي رومة **آريوس**[٦]. وكان **مُرْقَاس**[٧] الإنجيلي بالإسكندرية ومصرَ والمغرب داعياً سبع سنين، فقام بعده نَائباً، وتسمَّى بالبطرك، وهو أوَّل البطَارِكة فيها، وجعل معهُ اثني عشر قسَّاً، على أَنَّهُ إذا مات البَطْرَك، يكونُ واحد من الاثني عشر مكانه، ويختار من المؤمنين واحداً، مكانَ ذلك الثَّاني عشر فكان أمرُ البَطَارِكة إلى القُسوس.

ثُمَّ لَمَّا وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده، واجتمعوا بنيقية، أيَّام قسطنطينَ لتحرير الحقِّ في الدِّين، واتَّفقَ ثلاث مئة وثمانية عشر [ظ١٠٠/١] من أساقفتهم على رأي واحد في الدِّين، فكتبوهُ وسَمَّوه الإمام، وصيَّروه أصلاً يرجعون إليه، وكان فيما كتبوه: أنَّ البطرك القائمَ بالدِّين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأقسَّة[٨]، كما قرَّرهُ حنانيا تلميذ مرقاس. وأبطلوا ذلك الرأي، وإنَّما يُقدَّم عن بلاء واختبار من أئمة المؤمنينَ ورؤسائهم. فبقي الأمر كذلك. ثمَّ اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين،

---

١ – هي: سبعة عشر إذا لم يعتبر سفر أرمياء وسفر مرائي أرمياء سفراً واحداً.

٢ – هو سفر الكهنوت ليسوع بن سيراخ بن سيراخ بن يسوع لم يلحق النبي سليمان.. فلعله أحد أجداده.

٣ – انظر تفصيلات عن هذه الكتب والمعتمد منها والمرفوض فيما كتبه الدكتور السقا في كتابه البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، وإظهار الحق للهندي، والأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام للدكتور وافي.

٤ – أي: أعمال الرسل.

٥ – أي: الرؤيا أو الوحي.

٦ – لم يلحق أريوس بطرس و لم يتسلم كرسي البابوية أبداً. وانظر عرض حياته مفصلاً في كتاب عيسى يبشر بالإسلام.. تأليف البروفسور عطا الرحيم.

٧ – مرقص الرسول.

٨ – لم يذكر في جموع قسّ وقسّيس أقِسَّة.. وقد ذكر قُسُوس وقسيسون، وقساوسة على غير قياس كمهالبة في جمع المهلب.

وكانت لهم مجتمعات في تقريره، ولم يختلفوا في هذه القاعدة، فبقي الأمرُ فيها على ذلك، واتَّصلَ فيهم نِيابةُ الأَسَاقفة عن البَطاركة.

وكان الأسَاقفة يدعون البطرك **بالأب** الأعظم تعظيماً له. فصار الأقسّة يدعون الأسقف فيما غاب عن البطرك بالأب أيضاً، تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة، يقال: آخرها بطركيَّة هرقل بإسكندريَّةَ، فأرادوا أن يميزوا البطركَ عن الأسقف في التَّعظيم، فدعوهُ **البابا**، ومعناه أبو الآباء. وظهر هذا الاسم أوَّل ظهوره بمصرَ، على ما زعم **جرجيسُ بنُ العميد في تاريخه**، ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم، وهو كرسيّ رومة لأنه كرسي بطرس الرَّسول، كما قدَّمناه، فلم يزل سِمَةً عليه حتى الآن.

ثُمَّ اختلفت النَّصارى في دينهم بعد ذلك، وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائفَ وفرقاً، واستظهروا بملوك النَّصْرانيَّة، كل على صاحبه، فاختلف الحالُ في العصور في ظهور فرقة دون فرقة، إلى أن استقرَّتْ لهمَ ثلاثُ طوائف هي فِرَقُهم، ولا يلتفتونَ إلى غيرها، وهمُ المَلكيَّةُ، وَالْيعْقُوبيَّة، وَالنَّسْطُورِيَّةُ.

وَلَمْ نَرَ أَنْ نُسَخِّمَ[1] أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم، فهي على الجملة معروفةٌ، وكلُّها كفرٌ كما صرح به القرآن الكريم، ولم يبقَ بيننا وبينهم في ذلك جدالٌ ولا استبدالٌ، إنَّما هو الإسْلاَمُ أوِ الْجزيَةُ أو القَتْلُ.

ثمّ اختُصّت كلُّ فرقة منهم ببطرك، فبطركُ رومة اليومَ، المُسَمَّى بالبَابَّا على رأي المُلكيَّة، ورومة للإفرنجة، وملكهم قائمٌ بتلك النَّاحية، وبطرك المعاهدين بمصرَ على رأي اليعقوبية، وهو ساكنٌ بينَ ظهرانيهم، والحبشة يدينون بدينهم، ولبطرك مصرَ فيهم أساقفةٌ، ينوبون عنه في إقامة دينهم هنالك. واختصَّ اسمُ البابا ببطرك رومة، لهذا العهد. وَلا تُسَمَّى اليَعَاقبةُ بَطْرَكهم بهذا الاسم.

وضبط هذه اللَّفظة[2] ببَاءين مُوَحَّدَتَيْن، من أسفلَ، والنُّطق بها مُفخَّمةً، والثَّانيَةُ مُشَدَّدةٌ.

ومن مذاهب البَابَّا عند الإفرنجة أنَّه يحضُّهم، على الانقيادَ لملك واحد، يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تحرُّجاً من افتراق الكلمة، ويُتحَرَّى به العصبية التي لاً فوقها منهم لتكونَ يدهُ غاليَةً على جَميعهم [ظ ٢/١٠٠]، ويُسمُّونَهُ **الإنْبرَذُور**[3]، وحرفهُ الوسط بين الذَّالِ والظَّاءِ المُعْجمتين، ومُبَاشِرُهُ يضعُ التَّاجَ على رأسه، للتَّبرُّك، فيُسمَّى **المتوَّجَ**، ولعلَّهُ معنى لفظة الإنبرذور.

وهذا ملخَّصُ ما أوردناهُ من شرح هذين الاسمين اللذين هَما البابا والكوهن. و﴿اللَّهُ يضلُّ من يشاء ويهدي من يَشَاءُ﴾[فاطر: ٨].

---

١ – أي: نسوِّد.
٢ – أي: لفظة البابا.
٣ – في ظ: (الإنبراطور). بالطاء المهملة، ومعناه عندهم الحاكم.

١-٣-٣٤- الْفَصْلُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ
في مراتبِ الملكِ والسُّلْطَانِ وألْقَابِها

اعلم: أنَّ السُّلطانَ في نفسه ضعيفٌ، يحمِّلُ أمراً ثقيلاً، فلا بُدَّ له مِنَ الاستعانة بأبناءِ جنسهِ، وإذا كان يستعين بهم في ضرورةِ معاشه وسائر مِهَنِهِ[1]، فما ظنُّكَ بسياسة نوعِهِ، ومن استرعاه الله من خلقهِ وعبادهِ. وهو مُحْتَاجٌ إلى حمايةِ الكافَّةِ من عدوِّهم بالمُدافعةِ عنهم. وإلى كَفِّ عدوان بعضهم على بعضٍ في أنفسهم، بإمضاء الأحكامِ الوازعةِ فيهم، وكفِّ العدوان عليهم في أموالهم، بإصلاحِ سابِلتهم، وإلى حملهم على مَصَالِحِهِمْ، وما تعُمُّهم به البلوَى في معاشهم ومُعَاملاتهم، من تَفَقُّدِ الْمَعَايشَ والمكَايِيْلَ والموازينَ حَذَراً من التَّطْفِيْفِ، وإلى النَّظَرِ في السِّكَّةِ بحفظِ النُّقُوْدِ الَّتي يَتَعَامَلُونَ بها من الْغِشِّ، وإلى سِيَاسَتِهِم بمَا يُرِيدُهُ منهم منَ الانقيادِ لهُ، والرِّضَا بِمَقَاصدِهِ منهُم، وانفرادهِ بالمجدِ دُونهم، فيتحمَّلُ مَن ذلك فوقَ الغَايَةِ من مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ.

قال بعض الأشْرَافِ من الحكماء: لَمُعَاناةُ نقل الجبالِ من أماكنها أهونُ عليَّ من معاناةِ قلوبِ الرِّجال.

ثُمَّ إنَّ الاستعانةَ إذا كانت بأولي الْقُرْبَى، من أهل النَّسَبِ، أوِ التَّرْبِيَةِ، أو الاصطِنَاعِ القديمِ للدَّولةِ كانت أكمل، لما يقعُ في ذلك من مجانسةِ خلقهم لخُلُقه، فتتمُّ المُشَاكلةُ في الاستعانة، قال تعالى: ﴿واجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي، هَارُوْنَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي﴾[طه: ٢٩ - ٣٢].

وهو إمَّا أن يستعين في ذلك بسَيفِهِ أو قَلَمِهِ أو رأيه أو معارفِه أو بحُجَّابِهِ عن النَّاس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النَّظرِ في مهمَّاتهم، أو يدفعَ النَّظَرَ في الملكِ كلِّهِ، ويُعوِّلَ على كفايته في ذلك، واضطلاعهِ. فلذلك قد توجد في رجل واحد، وقد تفترق في أشخاص. وقد يتفرَّعُ كل واحد منها إلى فروع كثيرة. كالقلمِ يتفرَّعُ، إلى قلم الرَّسَائلِ والمخاطباتِ، وقلمِ الصُّكوكِ والإقطاعات، وإلى قلم المُحَاسَبَاتِ، وهو صاحبُ الجبَايَةِ والعطاء وديوان الجيشِ. وكالسَّيْفِ، يتفرَّعُ إلى: صاحبِ الحَرْبِ، وَصَاحبِ الشُّرطَة، وصاحبَ البريد، وولاية الثغور.

ثُمَّ اعلم أنَّ **الوَظَائفَ السُّلْطَانِيَّةَ** في هذه الملة الإسلامية مندرجةٌ تحتَ الخلافة، لاشتمال منصبِ الخلافة على الدِّيْنِ والدُّنيا كما قدَّمناه.

---

١ - المهنة الخدمة وجمعها مهن بكسر الميم.

فالأحكام الْشَّرْعِيَّةُ متعلِّقةٌ بجميعها وموجودةٌ لكل واحدةٍ منها في سائر وجوهها، لعموم تعلُّق الحكمِ الْشَّرْعِيِّ، بجميع أفعال [ظ١٠١/١] العبادِ. فالفقيهُ[1] ينظرُ في مرتبةِ الملكِ والسُّلْطَانِ وشروط تقْلِيدها استبداداً على الخلافة، وهو معنى الْسُّلْطان، أو تعويضاً منها، وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي، وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر الْسِّياساتِ، مطلقاً أو مقيَّداً، وفي موجباتِ العزل، إن عرضت، وغير ذلك من معاني الملكَ والْسُّلْطَان، وكذا في سائر الوظائفِ التي تحت المَلكِ والْسُّلطان من وزارة أو جبايةٍ أو ولايةٍ، لا بُدَّ للفقيهِ من النَّظرِ في جميع ذلك لما قدَّمناه، من انسحاب حكمِ الخلافةِ الشَّرْعِيَّةِ في المِلَّةِ الإسلامية على رتبة الملك والْسُّلطان.

إلا أنَّ **كلامنا في وظائفِ المُلكِ والْسُّلطان ورتبته إنَّما هو بمقتضى طبيعةِ العمران ووجودِ البشر، لا بما يخصُّها من أحكامِ الْشَّرْعِ، فليس من غرضِ كتابنا** كما علمتَ، فلا نحتاجُ إلى تفصيل أحكامها الْشَّرْعِيَّة، مع أنَّها مستوفاةٌ في كتبِ الأحكام الْسُّلطانية، مثل كتاب القاضِي أبي الحسن المَاوَرْدِيِّ وغيرِهِ من أعلامِ الفقهاء.

فإنْ أردتَ استيفاءها فعليكَ بمطالعتها هنالكَ، وإنَّما تكلَّمنا في الوظائفِ الخلافيَّةِ، وأفردناها لنميِّز بينها وبين الوظائفِ الْسُّلطَانيَّةِ فقط، لا لتحقيق أحكامها الشَّرْعِيَّةِ، **فليس من غرضِ كتابنا**، وإنَّما نتكلَّمُ في ذلك بما يقتضيه طبيعةُ العمرانِ في الوجودِ الإنساني، والله الموفق.

الْوَزَارَةُ: وهي أمُّ الخطط الْسُّلْطَانية، والْرُّتَبِ الْمُلوكِيَّةِ، لأنَّ اسْمَهَا يدلُّ على مطلقِ الإعانةِ. فإنَّ الوزارةَ مأخوذةٌ: إمَّا منَ المُؤَازَرَةِ، وهيَ المُعَاوَنَةُ، أو منَ الْوِزْرِ، وهوَ الْثِّقَلُ، كأَنَّهُ يحملُ، مع مُفَاعِلِهِ أوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ، وهوَ رَاجعٌ إلى المُعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ.

وَقَدْ كُنَّا قَدَّمنَا في أوَّل الفصْل أنَّ **أَحْوَالَ الْسُّلْطَان وَتَصرُّفَاتِهِ لا تَعْدُو أَرْبَعةً**، لأنَّهَا:

إمَّا أَنْ تَكُوْنَ في أُمُوْرِ حِمَايَةِ الكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا منَ النَّظَرِ في الجُندِ والْسِّلاحِ وَالْحُرُوْبِ وَسَائِرِ أُمُوْرِ الْحِمَايَةِ والْمُطَالَبَةِ. وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ المُتَعَارفُ في الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ، بالمَشْرق، وَلِهَذَا العَهْدِ بالمَغْربِ.

وَإمَّا أَنْ تكونَ في أُمُوْرِ مُخَاطَبَاتِهِ لمن بَعُدَ عنه في المكان، أو في الزمان، وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوبٌ عنه، وصاحب هذا هو **الكاتب**.

---

١ - في ن: والفقيه.

وإما أن تكون في أمور جبايَةِ المال وإنفاقه، وضبط ذلك من جَمِيع وجوهه أن يكونَ بمَضْيَعَةٍ[1]. وصاحِبُ هذا هُوَ صَاحِبُ المالِ والجِبَايَةِ، وَهُوَ المُسَمَّى بِالْوَزِيْرِ، لهذا العَهْدِ بَالمَشْرق.

وَإمَّا أنْ يَكُونَ في مدافعة النَّاسِ ذَوي الحاجَاتِ عنه أن يَزْدَحِمُوا عليه، فَيُشْغِلوهُ عن فهمِهِ، وَهَذَا راجع لصاحبِ البابِ الَّذي يحجبُهُ.

فَلاَ تعدو أحوالهُ هذه الأربعةِ بوجهٍ. وكلُّ خِطَّة أو رُتبة من رتب [ظ١٠١/٢] الملكِ وَالْسُّلطان فإليها يرجعُ. إلا أنَّ الأرفعَ منها ما كانت الإعانة فيه عامَّةً فيما تحت يد الْسُّلطان من ذلك الصِّنْفِ، إذ هو يَقْتَضِي مباشرة الْسُّلطان دائماً، وَمُشَارَكَتَهُ في كلِّ صنفٍ من أحوال مُلْكِهِ. وأمَّا ما كان خاصّاً ببعضِ النَّاسِ أو ببَعض الجهات، فيكون دون الرتبةِ الأخرى كقيادة ثغر، أو ولاية جباية خاصَّة، أو النَّظر في أمر خاصٍّ كَحِسْبَةِ الطَّعام، أو النَّظر في السِّكَّةِ، فإن هَذه كلها نظرٌ في أحوالٍ خاصَّة، فَيكون صاحبها تبعاً لأهلِ النَّظرِ العامّ، وتكون رتبته مرؤوسة لأولئك.

وما زالَ الأمرُ في الدُّول قبلَ الإسلامِ هكذا، حتى جاء الإسلامُ، وصارَ الأَمْرُ خِلافةً، فَذَهَبت تلك الخطط كلّها بذهابِ رسم المُلك إلاَّ[2] ما هوَ طبيعي، من المعاونة بالرَّأي، والمفاوضة فيه، فلم يمكن زواله إذ هو أمرٌ لا بدَ منه. فكان صلى الله عليه وسلم يُشاورُ أصحابهُ، ويفاوضهم في مهمَّاته العامَّةِ والخاصَّةِ، ويخصُّ مع ذلك أبا بكر بخصوصيَّات أخرى، حتى كان العرب الَّذِينَ عرفوا الدُّولَ وأحوالها في كِسْرى وقيصرَ والنَّجاشِي، يُسَمُّونَ أبا بكر وزيرهُ ولم يكن لفظ الوزير يعرفُ بين المسلمين، لذهابِ رتبة الملكِ بسذاجة الإسلاَم، وكذا عمر مع أبي بكر وعلي، وعثمان مع عمر.

وأمَّا حالُ الجباية والإنفاق والحُسْبان فلم يكن عندهم برتبة، لأنَّ القوم كانوا عرباً أُمِّين، لا يُحسنون الكتاب والحسابَ، فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب، أو أفراداً من موالي العجمِ، ممن يجيده، وكان قليلاً فيهم. وأمَّا أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه، لأنَّ الأُمِّيَّة كانت صِفتهم التي امتازوا بها. وكذا حال المخاطباتِ وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبةً خاصَّةً للأمِّيَّةِ التي كانت فيهم، والأمانة العامَّةِ في كتمان القول وتأديتهِ، ولم تُحوج[3] الْسِّيَاسة إلى اختياره، لأن الخلافة إنما هي دين ليست من السياسَة الملكية في شيءٍ.

---

١ - في ن: (بمضبطه).
٢ - في جميع النسخ (إل) وهو تحريف لا يستقيم معه المعنى.
٣ - في أكثر النسخ: (تخرج) ويأباه السِّياق.

وأيضاً: فلم تكن الكتابة صناعةً، فيُستجادَ للخليفة أحسنها، لأنَّ الكلَّ كانوا يعبِّرون عن مقاصدهم، بأبلغِ العباراتِ، ولم يبقَ إلا الخطُّ فكان الخليفةُ يستنيبُ في كتابته، متى عنَّ له من يُحْسِنهُ.

وأمَّا مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم، فكان محظوراً بالْشَّريعةِ، فلم يفعله.

فلمَّا انقلبتِ الخلافة إلى الملك، وجاءت رُسُوم الْسُّلطان وألقابه، كان أوَّلُ شيء بُديءَ به في الدَّولةِ شأنَ البَابِ، وَسَدَّه دون الجُمهُورِ، بما كانوا يخشون على[1] أنفسهم من اغتيالِ الخوارجِ وغيرهم، كما وقع بعمرٍ وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم. مع ما في فتحهِ من ازدِحامِ النَّاسِ عليهم وشُغْلِهم بهم عنِ المهِمَّاتِ، فاتَّخذوا من يقومُ لهم بذلك وسَمَّوهُ **الحاجبَ**.

وقد جاء: أنَّ **عبد الملك** [ظ٢ ١/١٠٢] لَمَّا ولَّى حاجبهُ، قال له: وَلَّيْتُكَ[2] حجابَةَ بابي إلاَّ عن ثلاثة: الْمُؤَذِّن للصَّلاةِ، فَإِنَّهُ دَاعِي اللهِ، وَصَاحِبَ البريدِ، فأمرٌ ما جاءَ به، وَصَاحِب الطَّعامِ لئلا يَفْسُدَ.

ثُمَّ استفحل المُلكُ بعد ذلك، فظهر المُشَاورُ والمعينُ في أمور القبائلِ والعصائبِ واستِئلافِهم، وأطلقَ عليه اسم **الوزير**، وبقي أمرُ الحُسْبَانِ في الموالي والذِّمِّيين. واتخذ لِلْسِّجلاَّتِ كاتبٌ مخصوصٌ حوطةً على أسرار الْسُّلطان أنَ تشتهرَ فتفسُد سياسته مع قومه، ولم يكن بمثابة الوزير، لأنه إنما احتيجَ له من حيثَ الخطِّ والكتاب، لا من حيث اللِّسَان الذي هو الكلامُ، إذِ اللِّسَانُ لذلك العهد على حاله لم يَفْسُد. فكَانت الْوزَارَةُ لذلك أرفعَ رتبهم يومئذٍ في سائر دولة **بني أميَّةَ**. فكان النَّظرُ للوزيرِ عامّاً في أحوالِ التَّدبيرِ والمفاوضاتِ وسائرِ أمورِ الحماياتِ والمُطالباتِ، وما يتبعها من النَّظرِ في ديوانِ الجُندِ، وفرضِ العطاء بالأهليَّةِ وغير ذلك.

فلمَّا جاءَتَ دولةُ **بني العبَّاس**، واستفحلَ المُلكُ وعظمت مراتبه، وارتفعت، وعظم شأنُ الوزير وصارت إليه النِّيابَةُ في إنفاذِ الحلِّ والعقْدِ، تعيَّنت مرتبته في الدَّوْلَةِ وَعَنَتْ لها الوجوهُ وخضَعت لها الرِّقَابُ، وجعل لها النَّظَرُ في ديوان الحُسْبَان، لَمَا تحتاجُ إليه خُطَّتهُ من قسمِ الأعطيَاتِ في الجُندِ، فاحتاجَ إلى النَّظَرِ في جمعهِ وتفريقهِ، وأضيفَ إليه النَّظرُ فيه، ثُمَّ جُعِلَ له النَّظرُ في القَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِصوْنِ أسْرَارِ الْسُّلطَانِ، ولحفظ البَلاغَةِ لما كان اللِّسَان قد **فسدَ** عند الجمهور، وجُعِلَ الخاتمُ لِسِجلاَّتِ الْسُّلْطَانِ ليَحفظها منَ الْذِّيَاعِ والْشِّيَاعِ، ودفعِ إليه. فَصَارَ اسمُ الوزير جامعاً لخطَّيِ السَّيْفِ والقَلَمِ، وَسَائِرِ مَعَانِي الْوِزَارَةِ والمعاونةِ، حَتى **لقد**

---

١ – في ن: عن.

٢– في ن: قد وليتك.

دُعِيَ جعفرُ بن يَحيى بالسُّلطان أَيَّامَ الرَّشِيد، إشارةً إلى عُموم نظرِهِ وقيامه بالدَّولةِ. ولم يخرجْ عنه من الرُّتبِ السُّلطانية كلِّهَا، إلا الحجابةُ التي هي القيامُ على البابِ فلم تكن له لاستنكافه عن مثلِ ذلك.

ثُمَّ جاء في الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ الاسْتِبْدَادِ على السُّلْطَان، وَتَعاوَرَ(١) فيها استبدادُ الوزَارَةِ مرَّةً، والسُّلْطَان أخرى، وصارَ الوزيرُ إذا استبدَّ محتاجاً إلى استنابةِ الخليفةِ إيَّاهُ لذلكَ لِتَصِحَّ الأحكامُ الشَّرْعِيَّةُ، وتجيء على حالها، كما تقدَّم.

فانْقَسَمَتْ الوزارةُ حينئذٍ إلى **وزارةِ تنفيذ**، وهي حالُ ما يكون السُّلطان قائماً على نفسه، وإلى **وزارة تفويض**، وهي حالُ ما يكونُ الوزيرُ مستبدّاً عليه. ثُمَّ استمرَّ الاستبدادُ وصارَ الأمرُ لملوكِ العجمِ، وتعطَّلَ [ظ٢/١٠٢] رسمُ الخلافةِ. ولم يكن لأولئكَ المُتَغَلِّبينَ أنْ ينتحلوا ألقابَ الخلافة، واستنكفوا من مشاركةِ الوزراء في اللَّقبِ لأنَّهم خولٌ لهم فَتَسَمَّوا بالإمارةِ وَالسُّلْطَان. وكان المُسْتَبِدُّ على الدَّوْلَةِ، يُسَمَّى أَمِيرَ الأُمَرَاء، أو بالسُّلْطَان إلى مَا يُحَلِّيهِ به الخليفةُ من ألقابه كما تراهُ في ألقابهم، وتركوا اسمَ الوزارةِ إلى مَن يتولاهَا للخليفةِ في خاصَّتِهِ. ولم يزلِ هذا الشَّأْنُ عندهم إلى آخرِ دولتهم. وفسد اللِّسَانُ خلال ذلك كله، وصارت صِناعة ينتحلها بعضُ النَّاسِ، فامتُهِنت وترفَّعَ الوزراءُ عنها لذلك، ولأنَّهم عجمٌ، وليست تلكَ البلاغة هِيَ المقصودة من لسانهم، فتخيَّرَ لها من سائر الطَّبَقاتِ، واختصَّت به، وصارت خادمةً للوزير، واختصَّ اسمُ الأمير بصاحبِ الحروب والجند، وما يرجعُ إليها، ويدهُ مع ذلك عاليةٌ على أهلِ الرُّتبِ، وأمرهُ نافذٌ في الكلِّ، إمَّا نِيابةً أو استبداداً، واستمرَّ الأمرُ على هذا.

ثُمَّ جاءت دولةُ التُّرْكِ آخراً بمِصْرَ، فرأوا أنَّ الوزارةَ قد ابتذلت بترفُّعِ أولئكَ عنها، ودفعها لمن يقومُ بها للخليفةِ المحجور، ونظرهُ مع ذلك متعقَّبٌ بنظر الأمير، فصَارَت مَرْؤُوسَةً ناقِصَةً، فاستنكفَ أهلُ هذه الرُّتبةِ العالية في الدَّولةِ عن اسم الوزارةِ، وَصَارَ صَاحِبَ الأحكامِ والنَّظرِ في الجندِ، يُسَمَّى عندهم بالنَّائبِ لهذا العهدِ، وبقيَ اسمُ الحاجبِ في مدلولهِ واختصَّ اسمُ الوزيرِ عندهم بالنَّظرِ في الجبايةِ.

وأمَّا **دولةُ بني أُمَيَّةَ بالأَنْدَلُسِ** فأَنِفوا اسمَ الْوَزِيرِ في مدلوله أوَّلَ الدَّولةِ، ثُمَّ قَسَمُوا خُطَّتَهُ أصْنافاً، وأفردوا لكلِّ صِنفٍ وزيراً، فجعلوا لِحُسْبَان المَال وزيراً، وَلِلتَّرْسِيلِ وزيراً، وللنَّظَرِ في حوائجِ المُتَظَلِّمِينَ وزيراً، وللنَّظرِ في أحوالِ أهلِ الثُّغُوْرِ وزيراً، وجُعِلَ لهم بيتٌ يجلِسُونَ فيه على فُرُشٍ مُنضَّدَةٍ لهم، وَيُنَفِّذُونَ أمرَ السُّلْطَان هناكَ كلٌّ فيما جعل له، وأفرد للتَّرَدُّدِ بينهم وبينَ الخَلِيْفَةِ واحدٌ منهم، ارتفعَ عنهم بِمُبَاشَرَةِ السُّلْطَانِ في كل وَقْتٍ، فارْتَفَعَ

---

١ - أي تبادل.

مجلسُهُ عن مجالسِهم، وَخَصُّوهُ باسمِ **الحاجب**. ولم يَزَل الشَّأْنُ هَذَا إلى آخِرِ دَوْلَتهم، فارْتفعَتْ خُطَّةُ الحاجبِ ومرتبتهُ على سائرِ الرُّتبِ حتى صارَ **ملوكُ الطَّوائفِ** ينتحلونَ لقبهَا فأكثرهم يومئذٍ يسَمَّى الحاجبَ كما نذكرهُ.

ثُمَّ جاءَتْ **دولةُ الشِّيْعةِ** بأَفْريقيَّةَ والقَيْرَوَان وكَانَ لِلْقائِمِيْنَ بها رُسُوْخٌ في الْبَدَاوَةِ، فَأغْفَلُوا أمر هذه الخُطط أوّلاً، وتَنقيحَ أَسْمَائها، حتىأدركت دولتهم الحضارة، فصاروا إلى تقليد الدولتين قبلهم في وضع أسمائها، كما تراهُ في أخبار دولتهم.

ولَمَّا جاءت **دولةُ الموحِّدينَ** من بعد ذَاكَ أغفلت الأمرَ أوّلاً للبداوة، ثُمَّ صارت إلى انتحال الأسماء والألْقَابِ، وكان اسم الوزير في مدلولهِ، ثُمَّ اتَّبَعُوا دَوْلَةَ الأمويين وقلَّدوها في مذَاهَبِ الْسُّلْطَان، واختاروا اسمَ الْوَزِيْرِ لمن يحجبُ الْسُّلْطان في مجلسه، ويقف بالوفود الداخلين [ظ١٠٣/١] على السلطان عندَ الحدودِ في تَحِيَّتهِم وخِطَابهم، والآدابِ التي تلزم في الكون بين يديه، ورفعوا خُطَّةَ الحِجَابَةِ عنهُ ما شَاؤُوا، وَلَمْ يَزَلِ الْشَّأنُ ذلك إلى هذا العَهْدِ.

وأمَّا في **دَوْلَةِ الْتُرْكِ** بالْمَشْرق فَيُسَمَّونَ هذا الذي يقفُ بالنَّاس على حدودِ الآدَابِ في اللِّقَاء والتَّحيَّةِ في مجالسِ الْسُّلْطَانَ والتَّقَدُّم بالوفودِ بينَ يَدَيْهِ: **الدَّويدار**، ويُضيفونَ إليه استتباعَ كاتبِ الْسِّرِّ وأَصحَابِ الْبَرِيْدِ الْمُتَصَرِّفِيْنَ في حاجاتِ السُّلْطَانَ بالقَاصِيَةِ وبالحاضرةِ، وحالهم على ذلك لهذا العهد. واللهُ مولِّي الأمور لمن يشاء.

الحِجَابَة: قد قَدَّمنا أنَّ هذا اللَّقَبَ كان مخصوصاً في الدَّولَةِ الأُمَويَّةِ والعَبَّاسِيَّةِ بمن يحجبُ الْسُّلْطان عن العامَّةِ، ويغلقُ بابه دونهم أو يفتحهُ لهم على قَدْرِهِ في مواقيتهِ. وكانت هذه مُنَزَّلَةً يوماً[1] عن الخطط مرؤوسة لها؛ إذ الوزيرُ مُتَصَرِّفٌ فيها بما يراهُ. وهكذا كانت سائرُ أيَّام بني العبَّاسِ وإلى هذا العهد، فهي بمَصْرَ مرؤوسة لصاحبِ الخطة العليا المسمى: **بالنائب**، وأما في الدولة الأموية بالأندلسَ فكانت الحجابة لمن يحجُبُ الْسُّلطان عن الخَاصَّةِ والعامَّةِ، ويكونُ واسطةً بينه وبين الوزراء فمن دونهم. فكانت في دولتهم رفيعةً غايةً كما تراه في أخبارهم، **كابن حديدٍ** وغيرهِ من حجَّابهم. ثُمَّ لَمَّا جاء الاستبداد على الدَّوْلَةِ اختصَّ المُسْتَبِدُّ باسم الحجابةِ لشَرَفها، فكان **المنصورُ بن أبي عامر** وأبناؤه كذلك. ولَمَّا بَدَؤُوا في مظَاهر الملك وأطواره، جاءَ من بعدهم من مُلوكِ الطَّوائفِ، فلم يتركوا لقبها، وكانوا يَعُدُّونه شرفاً لهم. وكان أعْظَمهم ملكاً بعد انتحال ألقابِ المَلِكِ وأسمائه لا بُدَّ له من ذكر الحاجبِ وذي الوِزَارَتَيْنِ، يعنون به الْسَّيْفَ والقَلَمَ.

---

١ - في ن: يومئذ.

ويدلُّونَ بالحجابةِ على حجَابةِ السُّلطان عن العامَّةِ والخاصَّةِ، وبذِي الوزَارَتين عن جمعهِ لخِطَّيِ السَّيْفِ والقلم. ثُمَّ لم يكُن في دولَ المغربِ وأفريقيّة ذكـر لهذا الاَسم للبداوةِ الـتي كانت فيهم، وربَّما يُوجدُ في دولة العُبَيديين بمصرَ عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليلٌ.

ولَّما جاءت **دولةُ الموحِّديـن** لم تَستَمْكن فيهـا الحضـارةُ الدَّاعيـةُ إلى انتحـال الألقَـابِ، وتمييزِ الخطط، وتعيينها بالأسماء، إلا آخراً. فلم يَكُن عندهم من الرُّتبِ إلا الوزيـرُ. فكـانوا أوّلاً يخصُّون بهذا الاسم الكاتبَ المتصرِّفَ المشارك للسُّلطان، في خاصِّ أمرهِ، كابن عطيَّـة وعبد السَّلامِ الكوميِّ، وكان له مع ذلك النَّظرُ في الحساب، والأشغال الماليَّةِ. ثُمَّ صارَ بعد ذلك اسمُ الوزير، لأهْلِ نَسَبِ الدَّوْلَةِ من الموحدين، كـابن جـامعٍ وغيرهِ. ولم يكـن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذٍ.

وأمَّا **بنو أبي حفص بأفريقيَّة**، فكـانتِ الرِّئاسَـةِ في دولتهـم أوّلاً، والتَّقـدُّمُ [ظ١٠٣/٢] لوزير الرّأي والمَشُوْرَةِ؛ وكَان يُخصُّ باسم شَيْخِ الموَحِّدِيـنَ، وكـانَ لـهُ النَّظرُ في الولايـاتِ والعزلِ وقودِ العَساكرِ والحُروبِ، واختصَّ الحُسْبَانُ والدِّيوانُ برُتْبَةٍ أُخْرَى، ويُسَمَّى مُتَوَلِّيها بصاحبِ الأشْغَال، ينظُـرُ فيهـا النَّظـرَ المُطْلَـقَ في الدَّخْـلِ والخَرج، ويُحاسِـبُ ويَسْتَخلِصُ الأموالَ، ويُعَاقبُ على التَّفريطِ. وكَانَ من شَرْطِهِ أن يكُون منَ المُوحِّدِينَ.

واختصَّ عنْدَهم القَلَمُ أيضاً بمَنْ يُجيْدُ التَّرسِيْلَ، ويُؤتَمنُ على الأسْرَارِ، لأنَّ الْكِتَابَـة لم تَكُن من مُنتحَلِ الْقوْمِ، ولاَ التَّرْسِيْلَ بلِسَانِهم، فَلَمْ يُشْتَرط فِيْهِ النَّسبُ.

واحتاجَ السُّلْطَانُ لاتِّسَاعِ مُلْكِهِ وكَثرةِ المُرْتزقينَ بداره إلى **قَهْرَمَانٍ**[1] خـاصٍّ بـداره، في أحوالـه يُجْريهـا علـى قَدْرِهَـا، وتَرْتِيبهـا مـن رِزْق وعطـاء وكِسْـوَةٍ ونفقـة في المطَـابخ والاصطبْلاَتِ وغيرهما، وحَصْر الذَّخيْرَةِ، وتنفيذَ ما يحتاجُ إليه في ذلك على أهـل الجبايـة، فخصّوه باسم الحاجبِ، وربَّما أضافوا إليه **كتابـةَ العلامـةِ** علـى السِّجلاَّتِ، إذا اتَّفـقَ أنَّـهُ يُحْسِنُ صِناعة الكِتَابَةِ، ورُبَّما جعَلُوه لغيرهِ.

واستمرَّ الأمرُ على ذلك، وحجبَ السُّلْطانُ نفسهُ عن النَّاسِ فصارَ هذا الحاجبُ واسطةً بينَ النَّاسِ، وبينَ أهلِ الرُّتبِ كلِّهم، ثُمَّ جُمعَ لهُ آخرَ الدَّولةِ السَّـيفُ والحـربُ، ثُـمَّ الـرَّأي والمَشُورَةُ، فصَارتِ الخُطَّةُ أرفعَ الرُّتبِ وأوعبها للخطط.

ثُمَّ جاءَ الاستبدادُ والحَجرُ مُدَّةً من بعد السُّلْطَان الثَّاني عشر منهم، ثُمَّ استبَدَّ بعد ذلـك حفيدُهُ السُّلْطانُ أبو الْعَبَّاسِ على نفسه، وأذهـبَ آثـارَ الحَجْـر والاستبدادِ بإذهـابِ خُطَّـةِ الحجابةِ التي كانت سُلَّماً إليه، وباشرَ أمورهُ كُلَّها بنفسهِ مـن غـير استِعَانةٍ بـأحدٍ. والأمـرُ على ذلك لهذا العهد.

---

١ – أي: خادم.

وأمَّا **دَوْلَةُ زَنَاتَة بالمغرب** وأعظمها دولة بني مرين، فلا أثرَ لاسمِ الحاجبِ عندهم. وأمَّا رئاسَةُ الحربِ والعساكرِ فهي للوزير، ورتبةُ القلمِ في الحُسْبَان والرَّسائلِ راجعةٌ إلى من يُحْسِنُهَا من أهلها، وإن اختصَّتْ ببعضِ البيوتِ المُصْطَنعينَ في دولتهم، وقد تجمعُ عندهم، وقد تفرَّق.

وأمَّا باب السُّلطان وحجبُهُ عن العامَّةِ، فهي رُتْبَةٌ عندهم، فيُسَمَّى صَاحِبُهَا عندهم **بالمِزْوَار**، ومعناهُ: المقدَّمُ على الجَنَادِرَةِ المُتصرِّفين ببابِ السُّلطان في تنفيذ أوامرِهِ، وتصريفِ عُقُوباته، وإنزال سَطَواته، وحفظِ المُعْتَقَلِينَ في سُجُونِهِ، والعريفُ عليهم في ذلك. فالبابُ له وأخذ النَّاسُ بالوقوفِ عند الحُدُودِ في دار العامَّةِ راجعٌ إليه، فكأنَّها وزارةٌ صُغْرَى.

وَأمَّا **دَوْلَةُ بني عبدِ الوادِّ**، فَلاَ أثرَ عِنْدَهم لشيءٍ من هذه الألقابِ ولا تمييزِ الخُطَطِ، لبداوةِ دَوْلتهم وقُصُورِهَا، وَإنَّما يخصُّونَ باسم الحاجبِ في بعض الأحوال منفِّذَ الخَاص بالسُّلْطَان في دارهِ، كَمَا كانَ في دولةِ بني أبي حفص [ظ١/١٠٤]، وقد يَجْمَعونَ له الحُسْبَانَ وَالسِّجِلَّ كما كان فيها. حملهم على ذلك تقليد الدَّوْلَةِ بما كانوا في تبعتها، وقائمينَ بدعوتها منذُ أوَّل أمرهم.

وَأمَّا **أهْلُ الأنْدُلُس** لهذَا العهد، فالمَخْصوصُ عندهم بالحُسْبَان وتنفيذِ خاصِّ[1] السُّلْطَان وَسَائر الأمور المَاليَّةِ يُسَمُّونه **بالوكيل**. وأمَّا الْوَزِيْرُ: فكالوزير، إلاَّ أنَّهُ يُجمعُ له التَّرسيلُ. وَالسُّلْطَانُ عندهم يَضَعُ خطَّهُ على السِّجلاَّتِ كلِّها فليسَ هُنَاكَ خطَّةُ العلامةِ كما لِغَيْرِهم منَ الدُّوَل.

وأمَّا **دَولةُ التُّرْك** بمِصْرَ، فاسمُ الحاجبِ عندهم موضوعٌ لحاكمٍ من أهلِ الشَّوْكَةِ، وهم التُّرْكُ ينفذُ الأحكامَ بينَ النَّاسِ في المدينةِ، وهم متعدِّدونَ. وهذه الوظيفة عندهم تحتَ وظيفةِ النِّيَابَةِ التي لها الحكمُ في أهلِ الدَّوْلَةِ وفي العلامةِ على الإطلاق. وللنَّائبِ التَّوْليةُ والعزلُ في بعضِ الوَظَائفِ على الأحيان، ويقطعُ القليلَ منَ الأرْزَاق ويُثْبتُهَا، وتنفذُ أوامرهُ كما تنفَّذ المراسمُ السُّلْطَانيَّةُ، وكان لهُ النِّيَابةُ المُطْلقَةُ عنِ السُّلْطَان. وللحجَّابِ الحكمُ فقط في طبقات العامَّةِ والجُندِ عند التَّرَافعِ إليهم، وإجبار من أبى الانقياد للحكم، وطورهم تحتَ طور النِّيَابَةِ. والوزيرُ في دولةِ التُّرْكِ هو صاحبُ جباية الأموال في الدَّوْلَةِ على اختلافِ أصنافها من خراج أو مكس أو جزية، ثُمَّ في تصريفها في الإنفاقاتِ السُّلطانية أو الجرَايَاتِ المقدَّرةِ، ولهُ مع ذلك التَّوْليةُ والعزلُ في سائرِ العمَّالِ المُبَاشِرِيْنَ لهذه الجبَايَةِ والتَّنفيْذُ على اختلافِ مَرَاتِبِهِمْ، وتبَاينِ أصْنافهم.

---

١ - في ن: حال.

ومن عوائدهم أن يكونَ هذا الوزير من صنفِ القبطِ، القائمينَ على ديوان الحُسْبَانَ والجبايةِ، لاختصاصهم بذلك في مصرَ منذُ عصور قديمةٍ. وقد يُولِّيها السُّلطَانُ بعضَ الأحيان لأهلِ الشَّوْكَةِ من رجالاتِ التُّرْكِ أو أبنائهمْ على حسبِ الدَّاعيةِ لذلك. والله مدبِّرُ الأمور ومُصرِّفُها بحكمَتِهِ، لاَ إلهَ إلاَّ هوَ رَبُّ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ.

دِيْوَانُ الأَعْمَال وَالْجِبَايَات:

اِعْلَمْ: أنَّ هذهِ الوظيفةَ من الوظائفِ الضَّرُوْرِيَّةِ للمُلكِ، وهي القيَامُ على أعمال الجباياتِ وحفظُ حُقُوق الدَّوْلَةِ في الدَّخلِ والخرج، وإحصاء العَسَاكر بأسمائهم وتقديرُ أرزاقهم وصرفُ أعطياتهم في إباناتها[1]، والرُّجوعِ في ذلك إلى القَوانِين التي يُرَتِّبُها[2] قَوَمَةُ تلك الأعمال، وقَهَارمةُ[3] الدَّولةِ، وهي كلها مسطورةٌ في كتاب شاهدٍ بتفاصيل ذلك في الدَّخلِ والخرج، مبنيٍّ على جزء كبير من الحسابِ لا يقومُ به إلا المهرةُ من أهل تلك الأعمالِ، ويُسَمَّى ذلك الكتابُ **بالدِّيوانِ**، وكذلك مكانُ جلوسِ العُمَّالِ المباشرين لها.

ويُقالُ: إنَّ أصلَ هذه التَّسْمِيَةِ أن كسرى نظرَ يوماً إلى [ظ٢/١٠٤] كتاب ديوانه، وهم يَحسبونَ مع[4] أنفسهم كأنهم يُحادثون، فقال: ديوانه، أي مجانين بلغة الفرس، فَسُمِّيَ موضعهم بذلك، وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوانٌ، ثُمَّ نقلَ هذا الاسم إلى كتابِ هذه الأعمال المتضمِّن للقوانين والحُسْبَانَاتِ.

وَقِيْلَ: إنَّهُ اسمٌ للشَّياطين بالفَارِسِيَّةِ، سُمِّيَ الكُتَّاب بذلك لِسُرْعَةِ نُفُوْذِهم في فهم الأمورِ، وَوُقُوْفِهم على الجَلِيِّ منها والخفيِّ، وجمعهم لما شذَّ وتفرَّقَ، ثُمَّ نُقِلَ إلى مكانِ جُلُوسهم[5] لتلكَ الأعمال.

وعلى هذا فيتناول اسمُ الدِّيوانِ كُتَّاب الرَّسَائلِ، ومكانَ جُلُوسهم بباب السُّلطانِ على ما يأتي بعد.

وقد تُفْرَدُ هذه الوظيفةُ بناظرٍ واحدٍ، ينظرُ في سائر هذه الأعمال، وقد يفردُ كلُّ صِنفٍ منها بناظر، كما يُفردُ في بعضِ الدُّوَل النَّظرُ في العساكر وإقطاعاتهم وحُسْبَانِ أعطياتهم، أو غير ذلك على حسبِ مُصطَلَحِ الدَّوْلَةِ وما قرَّرهُ أوَّلوهَا.

---

١ - أي: في مواعيدها.
٢ - أي: يسنها.
٣ - جمع قهرمان... وهو الخادم الخاص. ويفيد السياق أن هؤلاء القهارمة كانوا بمثابة الخبراء في ترتيب تلك القوانين.
٤ -في ن: على.
٥ - في ن: جلوسه.

واعلم أنَّ هذه الوظيفة، إنَّما تحدثُ في الدُّولِ عند تمكن الغلبِ والاستيلاءِ، والنَّظرِ في أعطافِ المُلْكِ وفنون التَّمهيد.

وأوَّلُ من وضع الدِّيوانَ في الدَّولةِ الإسلامية عمرُ رضي الله عنه يُقَالُ: لسبب مال أتى به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين، فاستكثروه وتعبوا في قسمه، فَسَمَوا إلىَ إحصاء الأموال وضبطِ العطاء والحقوق، فأشارَ خالدُ بنُ الوليدِ بالدِّيوانِ وقال: رأيتُ ملوكَ الشَّام يدوِّنون، فقبلَ منهُ عمرُ.

وقيلَ: بل أشارَ عليه به الهُرْمُزَانُ(١) لما رآهُ يبعثُ البعوث بغير ديوان، فقيل له: ومن يعلمُ بغيبةِ من يغيب منهم؟ فإنَّ من تخلَّفَ أخلَّ بمكانه. وإنَّما يضبطُ ذلك الكتابُ. فأثبت لهم ديواناً. وسأل عمرُ عن اسمِ الدِّيوان، فعبِّر له، ولَمَّا اجتمع ذلك أمر عَقيلَ بن أبي طالب ومخرمة بن نَوْفَلٍ وجُبَيْرَ بن مطعمٍ، وكانوا مِنْ كُتَّابِ قُريش، فكتبوا ديوانَ العَسَاكِرِ الإسلامية، على ترتيبِ الأنسابِ مُبتدأً من قرابةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما بعدها الأقربُ، فالأقرب. هكذا كان ابتداءُ **ديوان الجيش**. وروى الزُّهريُّ عن سعيد بن المسيب: أنَّ ذلك كان في المحرَّم سنة عشرين.

وأمَّا **ديوانُ الخراجِ والجبَايَاتِ** فبقيَ بعد الإسلام، على ما كان عليه من قبل، ديوان العِرَاق بالفارسِيَّةِ؛ وديوانَ الشَّام بالرُّوميَّةِ؛ وكتاب الدَّواوين من أهلِ العهدِ منَ الفريقين.

ولَمَّا جاءَ عَبد الملكِ بن مروان واستحالَ الأمرُ مُلكاً، وانتقلَ القومُ من غضاضةِ البداوةِ إلى رونق الحَضَارةِ، ومن سَذَاجةِ الأُمِّيَّةِ إلى حذق الكتابةِ، وظهر في العربِ ومواليهم مهرةٌ في الكتابِ والحُسبَان، فأمر عبد الملك سُليمانَ بن سعدٍ ـ والي الأردُنِّ لعهده ـ أن ينقلَ ديوانَ الشَّام إلى العربيَّةِ، فأكملهُ لِسَنةٍ من يوم ابتدائه [ظ١٠٥/١]، ووقفَ عليه سَرجون كاتب عَبد الملكَ، فقال لكُتَّابِ الرُّومِ: اطلُبُوا العيشَ في غير هذه الصِّناعةِ، فقد قطعها الله عنكم.

وأمَّا ديوانُ العراق فأمرَ الحجَّاجُ كاتبهُ صالحَ بنَ عبدِ الرَّحمنِ، وكان يكتب بالعربيَّةِ والفارسِيَّةِ، ولُقِّن ذلكَ عن زاذان فرُّوخ كاتبِ الحجَّاج قبلَهُ، ولَمَّا قُتلَ زاذانُ في حربِ عبد الرحمنِ بن الأشعث استخلف الحجَّاجُ صَالحاً هذا مكانهُ، وأمرهُ أن ينقل الدِّيوان من الفارسِيَّة إلى العربيةِ ففعلَ، ورَغِمَ لذلك كُتَّاب الفرس، وكان عبد الحميد بن يحيى يقولُ: لله در صالح ما أعظم منَّته على الكتَّاب.

ثُمَّ جُعلت هذه الوَظيفةُ في دولة بني العبَّاسِ مُضَافة إلى من كان له النَّظر فيه، كما كان شأن بني برمك، وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدَّولةِ.

---

١ - يلقب به الكبير من ملوكِ العجم.

وأمَّا ما يتعلَّقُ بهذه الوظيفة من الأحكام الشَّرْعِيَّةِ مما يختصُّ بالجيش، أو بيت المال في الدخل والخرج، وتمييز النَّواحي بالصَّلحِ والعنوةِ، وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون، وشروط النَّاظر فيها والكاتب، وقوانين الحُسبَانَاتِ، فأمر راجعٌ إلى كتبِ الأحكامِ السُّلطانية، وهي مَسطورةٌ هنالك، **وليست من غرض كتابنا**، وإنَّما نتكلَّمُ فيها من حيث طبيعةُ الملكِ الذي نحن بصدد الكلام فيه.

وهذه الوظيفة جزءٌ عظيمٌ من الملك، بل هي ثالثة أركانه؛ لأنَّ الملك لا بد له من الجند والمالِ والمخاطبةِ لمن غابَ عنه، فاحتاجَ صاحب الملك إلى الأعوانِ في أمرِ السَّيْفِ وأمر القَلمِ وأمر المال، فينفردُ صاحبُها لذلك بجزء من رئاسة الملك.

وكذلك كان الأمرُ في دولة بني أمية بالأنْدَلس والطوائف بعدهم.

وأمَّا في **دولة الموحدين** فكان صاحبها إنَّما يكون من الموحدين، يستقلُّ بالنَّظر في استخراجِ الأموالِ وجمعها وضبطها، وتعقبِ نظر الولاةِ والعُمَّال فيها، ثُمَّ تنفيذها على قدرها، وفي مواقيتِها وكان يعرف **بصاحب الأشغال**. وكان رُبَّمَا يليها في الجهاتِ غيرُ الموحدين ممن يُحْسِنهَا.

ولَمَّا استبدَّ **بنو أبي حفص بأفريقيَّة**، وكان شأن الجالية من الأندلس، فقدمَ عليهم أهل البيوتات، وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس، مثل بني سعيد، أصحاب القلعةِ، جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن، فاستكفوا بهم في ذلك، وجعلوا لهم النَّظَرَ في الأشغال كما كان لهم بالأندلس، ودالوا[1] فيها بينهم وبينَ الموحدين، ثُمَّ استقلَ بها أهل الحسبانَ والكُتَّابُ وخرجت عن الموحدين. ثمَّ لما استغلظَ أمرُ الحاجبِ، ونفذَ أمرهُ في كل شأن من شؤون الدَّولةِ، تعطَّلَ هذا الرسم، وصارَ صاحبهُ مرؤوساً للحاجبِ، وأصبح من جملة الجباةِ [ظ٥ ١٠٠/٢]، وذهبت تلك الرِّئَاسةُ التي كانت له في الدَّولةِ.

وأمَّا **دولة بني مُرينَ**، لهذا العهد فَحُسْبَانُ العطاء والخراج مجموعٌ لواحدٍ، وصاحب هذه الرُّتبِ هو الذي يُصَحِّحُ الحُسُباتِ[2] كلِّها، ويرجعُ إلى ديوانه ونظرهُ مُعقَّبٌ بنظرِ السُّلطانِ أو الوزير، وخطُّهُ معتبرٌ في صحَّةِ الحُسْبَان في الخراجِ والعطاء.

هذه أصولُ الرُّتبِ والخطط السُّلطانية، وهي الرُّتبُ العالية، التي هي عامَّةُ النَّظرِ ومباشرةٌ للسُّلْطَان.

وأمَّا هذه الرُّتبةُ في **دولةُ التُرْكِ**، فمتنوعةٌ. وصاحبُ ديوان العطاءِ يعرفُ بناظر الجيش. وَصَاحبُ المالِ مخصوصٌ باسمِ الوزيرِ، وهوَ النَّاظرُ في ديوانَ الجبايةِ العامَّةِ للدَّولةِ، وهو

---

١ – أي: تداولوها فيما بينهم.

٢ – في ن: (الحسنات).

أعلى رُتب النَّاظرين في الأموال، لأنَّ النَّظرَ في الأموال عندهم يَتَنوَّعُ إلى رتبٍ كثيرةٍ، لانفساحِ دولتهم، وعظمةِ سُلْطانهم، واتِّساعِ الأموال والجبايات عن أن يَسْتَقِلَّ بضَبْطِها الواحدُ من الرِّجَالِ، وَلَوْ بَلَغَ في الْكِفَايَةِ مَبَالِغَهُ. فَتَعَيَّنَ لِلنَّظرِ العامِّ منها هذا المخصوصَ باسمِ الوَزير.

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَدِيْفٌ لِمَولى من موالي الْسُّلطان وأهلِ عَصَبِيَّتِهِ وأربابِ الْسُّيُوفِ في الدَّولةِ، يرجعُ نظرُ الْوَزيْرِ إلى نظرِهِ، ويجتهدُ جهدَهُ في مُتابعتِهِ، ويُسَمَّى عندهم **أُستاذ الدَّوْلَةِ**، وهو أحدُ الأُمَرَاءِ الأكابرِ في الدَّوْلَةِ مِن الجُنْدِ، وَأَرْبَابِ الْسُّيُوْفِ.

ويتبعُ هذه الخُطَّةَ خُطَطٌ عندهم أخرى كلُّها راجعةٌ إلى الأموال والحُسْبَان، مَقْصُوْرَةُ النَّظَرِ إلى أمورٍ خاصَّةٍ مثل ناظرِ الخاصِّ وهو المباشرُ لأموالِ السُّلطَان الخاصَّةِ به من إقطاعاتِهِ أو سُهمَانِهِ[1] من أموالِ الخَرَاجِ وبلادِ الجِبَايَةِ، ممَّا ليسَ من أموالِ المسلمين العامَّةِ، وهو تحتَ يدَ الأميرِ **أُستاذِ الدَّار**.

وإن كان الوزيرُ من الجندِ فلا يكون لأستاذِ الدَّار نظرٌ عليه. وناظرُ الخاصِّ تحتَ يدِ الخازنِ لأموالِ السُّلطانِ من مماليكهِ المُسَمَّى **خازنَ الدَّارِ** لاختصاصِ وظيفتهما بمالِ السُّلطَان الخاصِّ.

هذا بَيانُ هذه الخطَّةِ، بدولةِ التُّرْكِ بالمَشْرِقِ، بعدَ ما قَدَّمْنَاهُ من أمرها بالمغربِ. واللهُ مُصرِّفُ الأمور لاربَّ غيرُهُ.

دِيْوَانُ الْرَّسَائِلِ والْكِتَابَةِ:

هذه الْوَظِيفةِ غير ضروريةٍ في الملك لاستغناء كثيرٍ من الدُّوَل عنها رأساً، كما في الدُّولِ العريقةِ في البداوةِ التي لم يأخذها تهذيبُ الحضارةِ ولا استحكامَ الصَّنائع.

وإنَّما أكَّدَ الحاجة إليها في الدَّوْلَةِ الإسلامية، شأن اللِّسَان العربي، والبلاغةُ في العبارةِ عن المقاصدِ، فصارَ الكتابُ يؤدِّي كنهَ الحاجةِ بأبلغ من العبَارةِ اللِّسَانية في الأكثر. وكان الكاتبُ للأميرِ يكونُ من أهل نسَبِهِ، ومن عظماء قبيله، كما كان للخلفاء وأمراءِ الصَّحابةِ بالشَّام والعراقِ [ظ١٠٦/١] لعظيمِ أمانتهم وخلوصِ أسرارهم.

فلمَّا فَسَدَ اللِّسَانُ وصارَ صِناعةً اختصَّ بمن يُحسنهُ. وكانت عندَ بني العبَّاسِ رفيعةً، وكان الكاتبُ يُصدرُ السِّجلاَّتِ مُطلقةً، ويكتبُ في آخرها اسمهُ، ويختمُ عليها بخاتمِ السُّلطان، وهو طابعٌ منقوشٌ فيه اسمُ السُّلطان أو شارتهُ يغمسُ في طينٍ أحمرَ مذابٍ بالماءِ ويُسَمَّى طين الخَتْمِ، ويطبعُ به على طرفي السِّجلِّ عندَ طيِّهِ وإلصاقه.

---

١ - جمع سهم.

ثُمَّ صارت السِّجلاَّتِ من بعدهم تُصَدَّرُ باسم السُّلطانِ، ويضعُ الكاتبُ فيها علامتهُ أولاً أو آخراً، على حسبِ الاختيار في محلِّهَا وفي لفظها.

ثُمَّ قد تنزلُ هذه الخِطَّةُ بارتفاعِ المكان عندَ السُّلطان لغير صاحبها، من أهل المراتبِ في الدَّولةِ، أو استبداد وزير عليه، فتصيرُ علامةُ هذا الكتابِ مُلغاة الحُكم بعلامةِ الرَّئيسِ عليه، يستدلُّ بها، فيكتبُ صورة علامته المعهودة، والحكمُ لعلامةِ ذلك الرَّئيس، كما وَقعَ آخرَ الدَّوْلَةِ الحَفْصِيَّةِ، لِمَا ارْتَفَعَ شأنُ الحجَابَةِ، وَصَارَ أمْرُهَا إلى التَّفْويضِ ثُمَّ الاسْتبدادِ، صَارَ حُكْمُ العلامةِ التي للكاتبِ مُلْغًى وصورتها ثابتة، إتباعاً لما سلفَ من أمرها. فَصَارَ الحاجبُ يرسمُ للكاتبِ إمضاءَ كِتَابهِ ذلك بخطٍّ يصنعهُ[1] ويتخيَّرُ له من صِيَغِ الإنْفَاذِ مَا شَاءَ، فيأتمرُ الكاتبِ لهُ، ويضعُ العلامةَ المعتادة، وقد يختصُّ السُّلطانُ لنفسهِ بوضعِ[2] ذلك إذا كان مُستَبدّاً بأمرهِ قائماً على نفسهِ فيرسمُ الأمرَ للكاتبِ ليضعَ علامتهُ.

ومن خُطط الكتابةِ: **التَّوْقِيْعُ**، وهو أن يَجْلِسَ الكاتبُ بين يدي السُّلطان في مجالسِ حُكمهِ وفصله، ويوقع على القصص المرفوعةِ إليه أحكامها والفصلُ فيها، مُتَلَقَّاةً من السُّلطَان بأوجَز لفظٍ وأبلغه. فإمَّا أن تصدر كذلكَ، وإمَّا أنْ يَحْذُو الكاتب على مثالها في سِجلٍّ يكَونُ بيدَ صاحبِ القصَّةِ. ويحتاجُ الموقِّعُ إلى عارضةٍ من البلاغةِ يَسْتَقيمُ بها توقيعُهُ.

وقد كان جعفرُ بن يحيى يوقِّعُ في القصصِ بين يدَي الرَّشيد، ويَرْمي بالقِصَّةِ إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلِها للوقوفِ فيها على أساليب البلاغةِ وفنونها، حتَّى قيل: إنها كانت تباع كلُّ قِصَّةٍ منها بدينار، وهكذا كان شأن الدُّوَل.

واعلم أنَّ صاحبِ هذه الخُطَّةِ لا بُدَّ من أن يُتخيَّرَ من أرفع طبَقَاتِ النَّاسِ وأهلِ المروءةِ والحشمة منهم وزيادة العلمِ وعارضة البلاغة، فإنه مُعَرَّضٌ للنظرِ في أصول العلمِ لمَا يعرضُ في مجالسِ الملوكِ ومقاصدِ أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرةُ الملوكِ من القيامِ على الآدابِ والتَّخلُّقِ بالفضائلِ، مع ما يُضطَرُّ إليه في التَّرسِيلِ وتطبيقِ مقاصدِ الكلامِ من البلاغةِ وأسرارها.

وقد تكونُ الرُّتبة في بعض [ظ١٠٦ /٢] الدُّول مُسْنَدَةً[3] إلى أربابِ السُّيوف لما يقتضيه طبع الدَّولةِ من البعدِ عن معاناةِ العلوم لأجلِ سَذَاجةِ العَصَبيَّةِ، فيختصُّ السُّلطان أهلَ عَصَبيَّته بخطط دولته، وسائر رُتبه، فيقلِّدُ المالَ والسَّيْفَ والكتابَة منهم. فأمَّا رُتبةُ السَّيْفِ فتستغني عن معاناة العلمِ. وأمَّا المال والكتابةُ فيضطر إلى ذلك للبلاغة في هذه والحسبَان في

---

١ - في ن: (يضعه).

٢ - في ن: (بنفسه).

٣ -في ن: مستندة.

الأخرى، فيختارون لها من هذه الطَّبقةِ ما دعت إليه الضَّرورة، ويقلِّدونه، إلا أنَّهُ تكون[١] يد آخرَ من أهل العَصَبيَّةِ غالبةً على يدهِ، ويكونُ نظرهُ متصرِّفاً عن نظره، كما هو في **دولة التركِ** لهذا العهد بالمشرق؛ فإنَّ الكتابةَ عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء، إلا أنه تحتَ يدِ أميرٍ من أهلِ عَصبيَّةِ السُّلطان يعرفُ **بالدَّويدار**. وتعويل السُّلطان ووثوقه به، واستنامَتهُ[٢] في غالبِ أحوالهِ إليه، وتعويله على الآخرِ في أحوالِ البلاغةِ، وتطبيقِ المقاصدِ وكتمان الأسرارِ وغير ذلك من توابعها.

وأمَّا **الشُّروطُ المعتبرة في صاحب هذه الرُّتبة** التي يلاحظُها السُّلطان في اختياره وانتقائه من أصناف النَّاسِ فهيَ كثيرةٌ وأحسنُ من استوعبها عبدُ الحميد الكاتبُ في رسالته إلى الكتاب[٣] وهي:

أمَّا بعدُ: حفظكم الله يا أهلَ صناعة الكتابةِ، وحاطكم ووفَّقكم وأرشدكم!! فإنَّ الله عز وجلَّ جعل النَّاسَ بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بَعْدِ الملوكِ المكرمين أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقةِ سواءً. وصرفهم في صُنُوفِ الصِّناعات، وضُرُوبِ المحاولات، إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشرَ الكتَّابِ في أشرفِ الجهاتِ، أهلَ الأدَبِ والمروءات والعلم والرَّزانة[٤]. بكم ينتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها. وبنصحائكم[٥] يصلحُ الله للخلق سلطانهم، وتعمرُ بلدانهم[٦]، ولا يستغني المُلكُ عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم. فموقعُكم من الملوكِ موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشُون، فأمتعكم الله بما خصَّكم من فضْلِ صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النِّعمة عليكم!!.

وليس أحدٌ من أهل الْصِّناعات كلِّها أحوج إلى اجتماعِ خلال الخيرِ المحمودة وخِصَالِ الفضل المذكورة المعدودةِ منكم.

أيُّها الكتَّابُ: إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتابِ من صفتكم، فإنَّ الكاتبَ يحتاجُ في[٧] نفسه، ويحتاجُ منه صاحبهُ الذي يثق به في مُهِمَّات أموره، أن يكون حليماً في موضع

١ - في الأصل: (لاتكون) بزيادة لا. وفيه مناقضة للمعنى. وقد حذفه الدكتور وافي في نسخته وهو الصواب.
٢ - اطمئنانه إليه.
٣ - انظرها بتمامها في صبح الأعشى للقلقشدي (١/٨٥ - ٨٩).
٤ - في صبح الأعشى: المروءة والعلم والرواية.
٥ - في صبح الأعشى: بنصائحكم.
٦ - في صبح الأعشى: بلادهم.
٧ - في صبح الأعشى: (من).

الحلمِ، فهيماً في موضع الحكم، مِقدَاماً في موضعِ الإقدامِ، مُحْجماً في موضعِ الإحجامِ، مُؤْثِراً للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وَفِياً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النَّوازل، يضعُ الأمورَ مواضِعهَا، والطوارقَ في[1] أماكنها. قد نظرَ في كل فن من فنون العلمِ فأحكمه، فإن[2] لم يُحْكِمْه أخذ [ظ١٠٧/١] منه بمقدارِ ما[3] يكتفي به. يعرف بغريزة عقلِهِ وحُسنِ أدبهِ وفضلِ تجربته، ما يَرِدُ عليه قبلَ وروده، وعاقبةَ ما يَصْدُرُ عنه قبل صُدُوره، فيُعِدُّ لكلِّ أمرٍ عدَّته وعَتَادهُ، ويُهيىءُ لكل وجهٍ هيئته وعادته.

فتنافسوا ـ يا معشرَ الكُتَّابِ ـ في صنوفِ الآدابِ. وتفقهوا في الدِّينِ وابدؤوا بعلم كتاب الله عزَّ وجل، والفرائض، ثم العربيةِ فإنها ثقاف[4] ألسنتكم.

ثم أجيدوا الخطَّ؛ فإنه حِلْية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبَها ومعانِيها، وأيامَ العرب والعجمِ، وأحاديثها وسِيَرَها، فإنَّ ذلك معينٌ لكم على ما تسمو إليه هِمَمُكم؛ ولا تضيّعوا النَّظرَ في الحساب فإنه قِوَامُ كُتَّاب الخراجِ.

وارغبوا بأنفسكم عن المطامعِ سَنِيِّهَا وَدَنِيِّهَا، وَسَفْسَافِ الأمورِ ومحَاقِرها، فإنها مذَلَّةٌ للرقابِ، مفسَدَةٌ للكتَّابِ، وَنَزِّهوا صِناعتكم عن الدَّنَاءَةِ[5] واربَؤوا بِأَنْفُسِكم عنِ السِّعَايةِ والنَّميْمَةِ، وما فيه أهلِ الجهالاتِ.

وإيَّاكم والكِبرَ والسُّخْفَ[6] والعَظَمَة، فإنَّها عداوةٌ مجتلبَةٌ من غير إحنة، وتحابُّوا في الله عزّ وجلَّ في صِنَاعتكم وتواصوا عليها بالَّذِي هو أليقُ لأهل[7] الفضل والعدلِ والنُّبْلِ من سلفكم.

وإن نَبَا الزَّمانُ برجُلٍ منكم، فاعْطِفُوا عليه وآسوهُ حتَّى يرجع إليه حالهُ، ويَثُوْبَ إليه أمرهُ. وإن أقعدَ (أحداً منكم)[8] الكبرُ عن مكسَبهِ ولقاءِ إخوانه، فزوروه وعظِّموه وَشَاوِرُوهُ، واستظهِرُوا بفضلِ تجربته وقديمِ[9] معرفته.

---

١ – ليس في صبح الأعشى: (في).
٢ – في ن: وإن.
٣ – ليس في صبح الأعشى: (ما).
٤ – وسيلة تقويمها. والثقاف في الأصل الآلة التي تسوى بها الرماح.
٥ – في صبح الأعشى: الدناءات.
٦ – في صبح الأعشى: (الصلف) وهو أوجه.
٧ – في صبح الأعشى: بأهل.
٨ – في صبح الأعشى: (أحدكم).
٩ – في صبح الأعشى: (قدم).

وليكن الرَّجلُ منكم على من اصطنعه واستظهرَ به ليوم حاجته إليه أحوطُ منه على ولده وأخيه. فإن عرضت في الشغل محمدةٌ فلا يصرفها[١] إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمَّةٌ فليحملها هو من دونه. وليحذر السَّقطةَ والزَّلَّة والمللَ عند تغيُّر الحال.

فإنَّ العيب إليكم معشرَ الكُتَّابِ أسرعَ منه إلى القُرَّاءِ[٢]، وهو لكَم أفسَدُ منه لهم.

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبهُ من يبذلُ له مَن نفسه ما يجبُ له عليه من حقِّهِ؛ فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه، وشكره، واحتماله، وخيره[٣]، ونصيحته، وكتمان سره، وتدبير أمره، ما هو جزاءٌ لحقِّه. ويَصدُقُ ذلك بفعالهِ عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه، فاستشعروا (ذلك)[٤] وفَّقكم الله من أنفسكم في حالة الرَّخاء، والشِّدَّةِ، والحرمان، والمواساة، والإحسان، والسَّراء، والضَّرَّاءِ؛ فنعمت الشيمة[٥] هذه مَن[٦] وسم بها من أَهلِ هذه الْصِّناعة الْشَّريفة.

وإذا وليَّ الرجل منكم أو صُيِّرَ إليه من أمرِ خلق الله وعياله أمرٌ، فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقاً، وللمظلوم منصفاً، فإنَّ الخلق عيالُ الله وأحبُّهم إليه أرفقهم بعياله. ثُمَّ ليكن بالعدل حاكماً وللأشرافِ مكرماً، وللفيء موفِّراً، وللبلادِ عامراً [ظ٢/١٠٧]، وللرَّعيَّةِ متألِّفاً، وعن أذاهم[٧] متخلِّفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلاَّتِ خراجه، واستقضاء حقوقه رفيقاً.

وإذا صَحِبَ أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه، فإذا عرفَ حُسْنها وقبحها، أعانه على ما يوافقه من الحُسْنِ، واحتالَ (على صرفه)[٨] عمَّا يهواه من القبحِ[٩] بألطفِ حيلةٍ وأجمل وسيلة.

وقد علمتم أنَّ سائسَ البهيمةِ، إذا كان بَصِيْراً بسيَاستها التمسَ معرفة أخلاقها، فإن كانت رَمُوحاً[١٠] لم يهجها، إذا ركبها، وإن كانت شَبُوباً[١١] اتَّقاها من بين[١٢] يديها،

---

١ – في ن: يصفها. وفي صبح الأعشى: (يضيفها).
٢ – أي: الفقهاء. وفي نسخة وصبح الأعشى: الفِرَاء.. لها.
٣ – في صبح الأعشى: (صبره).
٤ – في صبح الأعشى: (ذلكم).
٥ – في ن: السمة.
٦ – في صبح الأعشى: (لمن).
٧ – في صبح الأعشى: (إيذائهم).
٨ – في صبح الأعشى: (لصرفه).
٩ – في صبح الأعشى: (القبيح).
١٠ – كثيرة الرفس.
١١ – أي: كثيرة رفع اليدين.
١٢ – في صبح الأعشى: (قبل).

وإن خافَ منها شُرُوداً توقَّاها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً[١] قمعَ برفقٍ هواهـا في طرقها[٢]، فإن استمرَّت عطفها يسيراً، فَيَسْلَسُ[٣] له قيادها. وفي هذا الوصفِ من السِّياسة دلائلُ لمن ساسَ النَّاسَ وعاملهم وجربهم[٤] وداخلهم.

والكاتبُ ـ بفضلِ أدبه، وشريف صنعته، ولطيفِ حيلته، ومعاملته لمن يُحاوِرُهُ من النَّاسِ ويناظِرهُ ويفهم عنه أو يخاف سطوته ـ أولى بالرفق لصاحبه ومداراتهِ وتقويمِ أودِهِ من سائس البهيمة التي لا تُحيرُ[٥] جواباً، ولا تعرفُ صواباً، ولا تفهم خِطاباً إلاَّ بقدر ما يُصَيِّرها إليه صاحبها الرَّاكب عليها.

ألا فارفقوا[٦] رحمكم الله في النَّظَرِ، واعملوا ما أمكنكم فيه من الرَّوِيَّةِ والفكرِ، تأمنوا بإذن الله، ممَّنْ صَحِبتموه النَّبوَةَ والاستثقال والجفوة ويصيرُ منكم إلى الموافقةِ، وتصيروا منه إلى المؤاخاةِ والشَّفقةِ، إن شاء الله.

ولا يُجاوزنَّ الرَّجلُ منكم في هيئةِ مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمرهِ قدر حقِّه؛ فإنكم مع ما فضَّلكم الله به من شرفِ صنعتكم خَدَمَةٌ لا تحملونَ في خدمتكم على التَّقصير، وحَفَظَةٌ لا تحتملُ منكم أفعالُ التَّضييعِ والتبذير. واستعينوا على عفافكم بالقصد في كلِّ ما ذكرته لكم وقصصته عليكم. واحذروا متالفَ السَّرف، وسوء عاقبة التَّرَفِ؛ فإنَّهما يُعقِبَانِ الفقرَ ويذلانِ الرِّقابِ وَيفضحَان أهلهما ولا سِيّما الكُتَّاب وأرباب الآداب.

وللأمورِ أشباهٌ، وبعضها دليلٌ على بعض، فاستدلوا على مؤتنَفِ[٧] أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالكِ التدبير أوضحها محجَّةً، وأصدقها حُجَّةً، وأحمدها عاقبةً. واعلموا أنَّ للتدبير آفةً متلفةً، وهو الوصفُ الشَّاغلُ لصاحبه عن إنفاذ علمه[٨] ورويته؛ فليقصدِ الرَّجلُ منكم في مجلسهِ قصد الكافي من منطقِهِ، وليوجز في ابتدائه وجوابِهِ؛ وليأخذ بمجامع حُججه؛ فإنَّ ذلك مصلحةٌ لفعله، ومَدْفَعَةٌ للتشاغلِ عن إكثارِهِ. وليضرَع إلى الله في صلة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافة وقوعه في الغلطِ المُضِرِّ ببدنهِ وَعَقْلِهِ وأدَبِهِ.

---

١ – التي إذا استُدِرَّ جريها وقفت و لم تستجب.
٢ – في ضربه لها. وفي صبح الأعشى: (طريقها).
٣ – يلين.
٤ – في صبح الأعشى: (خدمهم).
٥ – لا ترد جواباً.
٦ – في صبح الأعشى: (فأمعنوا).
٧ – ما لم تجربوه.
٨ – في صبح الأعشى: عمله.

فإنَّهُ إنْ ظنَّ به [ظ١٠٨/١] منكم ظانٌّ، أوْ قَالَ قائلٌ: إنَّ الذي برزَ من جميلِ صنعته، وقوَّةِ حركته، إنَّما هو بفضلِ حيلته، وحسنِ تدبيره، فقد تعرَّضَ بظنِّهِ أو مقالته إلى أن يَكِلَهُ الله عز وجلَّ إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كافٍ، وذلك على من تأمله غير خافٍ.

ولا يقُلْ أحدٌ منكمْ: إنه أبصرَ بالأمورِ، وأحملَ لعبء التدبير من مرافقه في صناعته، ومصاحبه في خدمته؛ فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره، ورأى أن صاحبه[1] أعقلُ منه وأحمد في طريقته. وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرفَ فضل نعم الله جلَّ ثناؤهُ من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه. ولا يكاثر على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيره. وحمد الله واجبٌ على الجميع، وذلك بالتَّواضع لعظمته، والتَّذلل لعزَّته، والتَّحدث بنعمته.

وأنَا أقولُ في كتابي هذا ما سبق به المثل: **من تلزمه النَّصيحة يلزمه العملُ**، وهو جوهر هذا الكتابِ، وغرَّةُ[2] كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل. فلذلك جعلته آخرهُ، وتممته به. تولانا الله وإيَّاكم يا معشر الطَّلبة والكتبة بما يتولى به من سبقَ علمه بإسعاده وإرشاده؛ فإن ذلك إليه وبيده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشُّرطةُ: ويسمى صاحبها لهذا العهد بأفريقية **الحاكم**، وفي دولة أهل الأندلس **صاحب المدينة**. وفي دولة الترك **الوالي**.

وهي وظيفة مرؤوسةٌ لصاحب السَّيْفِ في الدَّولة، وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان.

وكان أصل وضعها في الدَّولة العبَّاسية لمن يُقِيم أحكام الجرائمِ في حال استبدائها[3] أوّلاً، ثُمَّ الحدودَ بعد استيفائها، فإنَّ التُّهمَ التي تعرضُ في الجرائم لا نظرَ للشَّرْعِ إلا في استيفاء حُدودها، وللسِّيَاسة النَّظرُ في استيفاء موجباتها بإقرار يكرههُ عليه الحاكم إذا احتفَّت به القرائنُ لما توجبهُ المصلحة العامَّةُ في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء[4] وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزّه عنه القاضي يُسَمَّى صاحب الشرطة. وربَّما جعلوا إليه النَّظرَ في الحدود والدماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي، ونزَّهوا هذه المرتبة وقلَّدوها كبارَ القوَّادِ وعظماء الخَاصَّةِ من مواليهم.

---

١ - في الأصل: (أصاحبه) والتصحيح من صبح الأعشى.

٢ - أحسن ما فيه.

٣ - في ن: استبدادها.

٤ - في ن: الاستبداد.

ولم تكن عامَّةَ التنفيذ في طبقات النَّاسِ، إنَّما كان حكمهم على الدَّهماء وأهل الريب، والضَّربُ على أيدي الرَّعاع والفجرة.

ثُمَّ عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس، ونوِّعت إلى **شرطة كبرى وشرطةٍ صغرى.** وجعلِ حكم الكبرى على الخاصَّةِ والدَّهماءِ وجعل له الحكمُ على أهلِ المراتبِ السُّلطانية والضَّرْبِ على أيديهم في الظلاماتِ، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاهِ؛ وجعل [ظ١٠٨/٢] صاحبُ الصُّغرى مخصوصاً بالعامة. ونُصِبَ لصاحب الكبرى كرسيٌّ ببابِ دار السُّلطان، ورجالٌ يتبَوَّؤون المقاعدَ بين يديه فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه، وكانت ولايتها للأكابر من رجالاتِ الدَّولةِ، حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة.

وأمَّا في دولةِ الموحِّدين بالمغرب، فكانَ لها حظٌّ من التنويه، وإن لم يجعلوها عامَّةً، وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبراؤهم ولم يكن له التَّحكُّمُ على أهل المراتب السُّلْطانية.

ثم فسدَ اليوم منصبها، وخرجت عن رجالِ الموحِّدين، وصارت ولايتها لمن قام بها من المُصطنعين.

وأمَّا في دولةِ بني مَرينَ، لهذا العهد بالمشرقِ، فولايتها في بيوتِ مواليهم وأهل اصطناعهم.

وفي دولة التُّرْكِ بالمشرق في رجالاتِ التُّرْكِ أو أعقابِ أهلِ الدَّوْلَة قبلهم من الكرْدِ[1] يتخيَّرونهم لها في النَّظر بما يظهر منهم من الصَّلابَةِ والمضاء في الأحكامِ، لقطعِ موادِّ الفساد وحسمِ أبوابِ الدَّعارةِ، وتخريب مواطنِ الفُسُوق وتفريق مجامعه، مع إقامة الحدود الشَّرعية والسِّياسة كما تقتضيه رعاية المصالح العامَّةِ في المدينة. والله مقلِّبُ اللَّيل والنَّهارِ، وهو العزيز الجبَّار. والله تعالى أعلم.

قيادة الأساطيل: وهي من مراتبِ الدَّوْلَةِ وخططها في ملكِ المغربِ وأفريقية، ومرؤوسةٌ لصاحبِ السَّيْفِ وتحتَ حُكمه في كثير من الأحوال، ويُسَمَّى صاحبها في عرفهم: **الملند**[2] بتفخيم اللام، منقولاً من لغةِ الإفرنجة، فإنَّهُ اسمها في اصطلاح لغتهم، وإنَّما اختصت هذه المرتبة بملك أفريقية والمغرب؛ لأنهما جميعاً على ضِفَّةِ البحر الرُّومي من جهةِ الجنوبِ، وعلى عدوتهِ الجنوبية بلاد البربر كلّهم من سبتة إلى الشَّامِ، وعلى

---

١ - في ن: الترك.

٢ - في ن: البلمند.

عدوته الشَّمالية بلاد الأندلس والإفرنجة والصَّقالبةِ والرُّومِ إلى بلادِ الشَّامِ أيضاً، ويُسَمَّى البحر الرُّوميَّ والبحرَ الشَّامي نسبة إلى أهل عدوته.

والسَّاكنونَ بسِيْفِ[1] هذا البحر، وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله مالا تعانيه أمَّةٌ من أمم البحَار. فقد كانت الرُّوم والإفرنجة والقوطُ بالعدوةِ الشَّمالية من هذا البحر الرُّومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السُّفُنِ، فكانوا مهرةً في ركوبه، والحربُ في أساطيله. ولما أَسَفَّ[2] من أسف منهم إلى ملك العَدوة الجنوبية مثلَ الرُّومِ إلى أفريقيَّة، والقوطِ إلى المغربِ، أجازوا في الأساطيل وملكوها، وتغلَّبوا على البربرِ بها، وانتزعوا من أيديهم أمرها، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وَسَبيطلة وجلولاءَ ومرناق وَشِرْشَالَ وَطَنْجَةَ. وكان صاحبُ قرطاجنَّةَ من قبلهم يُحاربُ صاحب رُومة، ويبعث الأساطيل [ظ١٠٩/١] لحربه مشحونةً بالعساكر والعددِ. فكانت هذه عادةً لأهل هذا البحرِ السَّاكنين حفافيه معروفةً في القديم والحديث.

ولَّما ملكَ المسلمون مصرَ، كتبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنْ صف لي البحرَ، فكتبَ إليه: إنَّ البحر خَلْقٌ عظيمٌ، يركبه خلقٌ ضعيفٌ، دودٌ على عودٍ. فأوعزَ حينئذٍ بمنع المسلمين من ركوبه، ولم يركبه أحدٌ من العربِ، إلا من افتاتَ على عمر في رُكوبه، ونالَ من عِقابهِ كما فعل بعرفَجَةَ بن هرثَمَةَ الأزْدِيّ سيِّد بجيلَةَ، لَّما أغزاه عمَّانَ فبلغهُ غزوهُ في البحر، فأنكرَ عليه وعنَّفهُ أنَّهُ ركبَ البحرَ للغزو.

ولم يزل الشَّأن ذلك حتى إذا كان لعهدِ معاوية أذنَ للمُسْلِمِينَ في ركوبه، والجهاد على أعوادهِ. **والسَّببُ في ذلك** أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أولِ الأمر مهرةً في ثقافته وركوبه، والرُّومُ والإفرنجة لمُمَارَستهم أحوالهِ، ومرباهم في التَّقلُّبِ على أعواده، مرنوا عليه، وأحكموا الدِّراية بثقافته.

فلمَّا استقرَّ المُلكُ للعربِ، وشمخَ سُلْطَانهم، وصارت أممُ العجمِ خَوَلاً لهم، وتحتَ أيديهم، وتقرَّب كلُّ ذي صنعةٍ إليهم بمبلغِ صناعته، واستخدموا من النَّواتِيَةِ في حاجاتهم البحريَّةِ أمماً، وتكرَّرت ممارستهم للبحرِ وثقافته، واستحدثوا بُصرَاءَ بها، فشرهوا إلى الجهادِ فيه، وأنشؤوا السُّفُنَ فيه والشَّواني[3]، وَشَحنوا الأَساطيلَ بالرِّجَالِ والْسِّلاَحِ، وأمطَوهَا العَسَاكِرَ والمقاتلة لمن وراءَ البحرِ من أمم الكفر، واختصُّوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقربَ لهذا البحرِ وعلى حافتهِ مثلَ الشَّامِ وأفريقيَّةَ والمغربِ والأندلس.

---

١ - بساحله.

٢ - أسف: تتبع مداقَّ الأمور.

٣ - المراكب الحربية

وأوْعَزَ الخليفةُ عبد الملكِ إلى حَسَّانَ بنِ النَّعمان عامل أفريقيَّة، باتِّخاذِ دار صناعة بتونس لإنشاء الآلاتِ البحريَّةِ حِرْصاً على مراسمِ الجهادِ، ومنها كان فتْحُ **صِقِلِّيَّة** أيَّامَ زيادةِ اللهِ الأوَّل ابن إبراهيمَ بنِ الأغْلَبِ على يدِ أسدِ بْنِ الْفُراتِ شيخِ الْفُتْيَا، وفتحُ **قُوصَرَّةَ** أيضاً في أيَّامه بعدَ أن كانَ معاوية بن حُدَيجٍ أغزى صِقِلِّيَّةَ أيَّامَ مُعَاوية بن أبي سُفيان فلم يَفْتَحِ الله على يديه وفتحت على يد ابنِ الأغلب وقائده أسد بن الفرات. وكانت من بعد ذلك أساطيلُ إفريقيَّةَ والأندلس في دولةِ العُبَيديين والأمويين تتعاقبُ إلى بلادهما في سبيلِ الفتنة فتجوسُ خلالَ السَّواحلِ بالإفساد والتخريبِ.

وانتهى أُسطولُ الأندلسِ أيَّام عبدِ الرَّحمن النَّاصرِ إلى مئتي مركبٍ أو نحوها، وأُسطول أفريقيَّة كذلك مثلهُ أو قريباً منه، وكان قائدُ الأساطيلِ بالأندلسِ، **ابنُ رَمَاحِس**، ومرفأها للحطِّ والإقلاعِ بجاية والمَرِيَّةَ، وكانت أساطيلها مجتمعة من سائرِ الممالكِ من كلِّ بلد تتَّخذُ فيه السُّفن أسطولاً يرجعُ نظرهُ إلى قائد من النَّواتيَةِ يُدَبِّرُ أمر حربه وسلاحه [ظ١٠٩/٢] ومقاتلته، ورائس[1] يدبِّرُ أمر جَرْيتهِ بالرِّيح أو بالمجاديفِ وأمرَ إرسائه في مرفئه. فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفِلٍ[2] أو غرضٍ سُلطاني مهم، عسكرت بمرفئها المعلومِ وشحنها السُّلطان برجالهِ وأنجادِ عساكره ومواليه، وجعلهم لنظرِ أمير واحدٍ من أعلى طَبَقَاتِ أهلِ مملكته، يرجعونَ كلُّهم إليه، ثم يُسَرِّحُهُم لوجههم، وينتظرُ إيَابهم بالفتح والغنيمة.

وكان المسلمون لعهد[3] الدَّولةِ الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكُن للأممِ النَّصْرَانيَّةِ قِبَلٌ بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائرَ أيامهم، فكانت لهم المقاماتُ المعلومة من الفتح والغنائم، وملكوا سائرَ الجزائرِ المنقطعة عن السَّواحلِ فيه مثلَ ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصِقِلِّيَّةَ وقوصرة ومالطةَ وأقريطشَ وقُبرُس، وسائر ممالكِ الرُّومِ والإفرنجِ. وكان **أبو القاسم الشِّيعي** وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهديَّةِ جزيرةَ جنوةَ فتنقلبُ بالظَّفرِ والغنيمةِ. وافتتحَ **مجاهدٌ العامريُّ** صاحبُ دانيَةَ من ملوكِ الطَّوائفِ جزيرةَ سِرْدَانيَّةَ في أساطيله سنة خمسٍ وأربع مئة، وارتجعها النَّصارى لوقتها. والمسلمون خلالَ ذلك كلِّه قد تغلَّبُوا على كثيرٍ من لُجَّةِ هذا البحر، وصارت أساطيلهم فيهم جائيةً وذاهبةً، والعساكرُ الإسلاميَّة تَجيزُ البحرَ في الأساطيل من صِقِلِّيَّةَ إلى البرِّ الكبيرِ المقابلِ لها من العُدوةِ

---

١ - في ن: رئيس.

٢ - أي: مجتمع.

٣ - في ن: (لعهدة).

الْشَّماليَّةِ، فتُوْقِعُ بملوكِ الأفرنجِ، وتُثخنُ في ممالكهم، كما وقع في أيَّام بني الحُسَين، ملوك صِقِليَّةَ القَائمينَ فيها بدعوةِ العُبَيديين. وانحازت أمم النَّصْرانيَّةِ بأساطيلهم إلى الجانبِ الشَّماليّ الْشَّرْقِي منه من سواحلِ الإفرنجةِ والْصَّقالبةِ وجزائر الرُّومانيَّةِ لا يعدونها، وأساطيلُ المُسْلمين قد ضَرَبَت عليهم ضِرَاءَ[1] الأسَدِ على فريسته، وقد مَلأَتِ الأكثرَ من بسيط هذا البحر عُدَّة وعدداً، واختلفت في طرفه سِلماً وحرباً، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواحٌ.

حتى إذا أدركَ الدَّوْلَة العُبيديَّةَ والأمويَّة الفَشَلُ والوهنُ، وطرقها الاعتلالُ، مدَّ النَّصارى أيديهم إلى جزائر البحر الْشَّرْقِيَّة مثلَ صِقِلِيَّةَ وَأَقْريطش ومالطةَ فَمَلكُوهَا، ثُمَّ ألحُّوا على سواحلِ الشَّامِ في تلك الفترة وملكوا طرابُلسَ وعَسْقَلان وصور وعكَّا، واستولوا على جميعِ الثُّغورِ بسواحلِ الشَّام، وغلبوا على بيت المقدس، وبنوا عليه كنيسةً لمظهرِ[2] دينهم وعبادتهم، وغلبوا بني خَرْزُون على طرابلس، ثم على قَابسَ وَصَفَاقِسَ، ووضعوا عليهم الجزيَةَ، ثم ملكوا المهدية مقرَّ ملوكِ العُبيديين، من يد أعقابِ بُلكين بن زيري. وكانت لهم في **المئةِ الخامسةِ** الكرَّةُ بهذا البحر [ظ١١٠/١]. وضعف شأن الأساطيلِ في دولة مصر والشَّام، إلى أن انقطعَ، ولم يعتنوا بشيءٍ من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدَّولة العُبيدية عنايةٌ تجاوزت الحدَّ، كما هو معروف في أخبارهم. فبطلَ رسم هذه الوظيفةِ هنالك، وبقيت بأفريقيَّة والمغربِ، فصارت مختصَّةً بها.

وكان الجانبُ الغربي من هذا البحر لهذا العهدِ موفورَ الأساطيل، ثابت القُوَّة لم يتحيَّفه عدُوٌّ، ولا كانت لهم به كرَّةٌ، فكان قائدُ الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادسَ ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم، وانتهى عدد أساطيلهم إلى المئةِ من بلادِ العُدْوَتَيْن جميعاً.

ولَمَّا استفحلت دولة المَوحدين **في المئة السَّادسة**، وملكوا العدوتين، أقاموا خطَّة هذا الأسطول، على أتمّ ما عرف وأعظم ما عهد، وكانَ قائد أسطولهم أحمدُ الْصِقِلي أصْلُهُ من ضدغيَارِ الموطنين بجزيرة جربةَ من سرويكش، أسرهُ النَّصَارى من سواحلها، وربِّيَ عندهم، واستخلصه صاحب صِقِلِيَّة، واستكفاه، ثم هلكَ وولي ابنهُ، فأسخطه ببعضِ النَّزعاتِ وخشيَ على نفسه، ولحق بتونس، ونزل على السَّيد بها من بني عبد المؤمن، وأجاز مراكش فتلقاه الخليفة يُوسف بن عبد المؤمن بالمبَرَّةِ والكرامة، وأجزل الصِّلَةَ وقلَّده أمرَ أساطيله فجلَّى في جهاد أمم النَّصرانية، وكانت له آثارٌ وأخبارٌ ومقامات مذكورة في

---

١ - اجتراءه عليها.

٢ - في ن: لإظهار.

دولة الموحدين. وانتهت أساطيلُ المسلمين على عهده في الكثرةِ والاستجادة إلى ما لم تبلغهُ من قبلُ ولا بعدُ، فيما عهدناه.

ولَمَّا قامَ **صلاح الدِّين يوسفُ بن أيوب**، ملك مصر والشَّامِ لعهده باسترجاعِ ثغور الشَّام من يد أمم النَّصرانية وتطهير بيت المقدسِ من رجس الكفر وبنائه، تتابعت أساطيلهم الكفريَّة بالمدد لتلك الثُّغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس، الذي كانوا قد استولوا عليه، فأمدوهم بالعدد والأقواتِ، ولم تقاومهم أساطيلُ الإسكندرية، لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانبِ الشَّرقي من البحرية، وتعدُّدِ أساطيلهم فيه، وضعف المُسْلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل. فأوفد صلاح الدين على أبي يعقوبَ المنصورِ سلطان المغرب لعهده من الموحِّدين رسوله عبد الكريم بن منقذٍ من بيت بني منقذ ملوك شَيزَرَ، وكان ملكها من أيديهم، وأبقى عليهم في دولته، فبعثَ عبد الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً مدد الأساطيلَ، لتحولَ في البحرِ بينَ أساطيل الكفرةِ[1] وبينَ مرامهم من إمدادِ النَّصْرَانِيَّة بثغورِ الشَّام، وَأَصْحَبَهُ كتابه [ظ١١٠/٢] إليه في ذلك من إنشاء **الفاضل البيساني** يقولُ في افتتاحه: فتحَ الله لسيدنا أبوابَ المناجحِ والميامن. حَسْبَما نقله العماد الأصفهاني في كتاب الفتح القيسي.

فَنَقِمَ عليهم المنصور تجافيهم عن خطابهِ بأمير المؤمنين، وأسَرَّها في نفسه، وحملهم على مناهج البر والكرامة وردَّهم إلى مُرْسِلِهم، ولم يجبهُ إلى حاجته من ذلك. وفي هذا دليلٌ على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل، وما حصل للنصرانيَّةِ في الجانب الشَّرقي من هذا البحر من الاستطالة، وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده لشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة.

ولما هلك أبو يعقوب المنصورُ، واعتلت دولةُ الموحدين، واستولت أمم الجلالقةِ على الأكثر من بلاد الأندلس، وألجؤوا المسلمين إلى سِيفِ[2] البحر، وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربيّ من البحر الرومي، قَويت ريحهم في بسيطِ هذا البحر، واشتدت شوكتهم، وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المُسَاواةِ معهُم، كما وقع لعهد السُّلطان أبي الحسن ملك زَنَاتَةَ بالمغرب، فإنَّ أساطيلهُ كانت عندَ مرامهِ الجهاد مثل عُدَّة النَّصْرَانية وعديدهم.

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة، ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب، وانقطاع العوائد الأندلسية، ورجع النَّصارى فيه إلى دينهم

---

١ – في ن: (الأجانب).

٢ – إلى جانبه وساحله.

المعروف من الدُّرْبَةِ فيه، والمِرَانِ عليه، والبصرِ بأحوالهِ، وَغَلَبِ الأمم في لجَّتِهِ على أعـواده، وصار المسلمون فيه كالأجانبِ، إلا قليلاً من أهل البـلاد السَّـاحلية لهـم المِرَانُ عليـه، لـو وجدوا كثرة من الأنصارِ والأعوان، أو قوة[1] من الدَّولةِ تستجيش لهـم أعوانـاً، وتوضـح لهم في هذا الغرضِ مَسْلكاً. وبقيت الرُّتبة لهذا العهد في الدّولة الغربية محفوظة، والرَّسـم في معاناة الأساطيل بالإنشاء والرُّكوبِ معهوداً، لما عَسَاهُ أن تدعوا إليه الحاجة مـن الأغـراضِ الْسُّلطانية في البلاد البحريَّةِ، والمسلمون يستهبُّون الرِّيحَ على الكفـرِ وأهلـه. فمـن المشـتهر بين أهلِ المغربِ عن كُتبِ الحدْثَان أنَّهُ لابُدَّ لَلمُسْلمينَ من الكَرَّةِ علـى الْنَّصرانيـة، وافتتـاح ما وراءِ البحرِ من بلاد الإفرنجة، وأنَّ ذلك يكونُ في الأساطيل. ﴿وا لله وليُّ المؤمنـين﴾[آل عمران: ٦٨] وهو حسبنا ونعم الوكيلِ.

---

١ - في ن: (قلة).

١-٣-٣٥- الْفَصْلُ الخَامسُ وَالْثَّلاثُونَ
في التَّفاوتِ بينَ مَرَاتِبِ الْسَّيْفِ وَالْقَلَمِ في الدُّول

اِعْلَمْ: أنَّ السَّيفَ والقلمَ كلاهما آلةٌ لصاحبِ الدَّولةِ يستعينُ بها على أمره. إلا أنَّ الحاجةَ في أوَّل الدَّوْلَةِ إلى السَّيْفِ - ما دَامَ أهلها في تمهيد أمرهم - أشدُّ من الحاجة إلى القلم، لأنَّ القلَمَ في تلكَ الحال خادم فقط منفِّذٌ للحكم السّلطاني، والسَّيفِ شريكٌ في المعونة. وكذلك في آخر الدَّوْلَةِ، حيث تضعف عصبيتهما[1] كما ذكرناه، ويقل [ظ١١١/١] أهلها بما ينالهم من الهرمِ الذي قدَّمناه، فتحتاج الدَّولة إلى الاستظهار بأربابِ السُّيوفِ وتقوى الحاجة إليهم في حمايَة الدَّولةِ والمُدافعةِ عنها، كما كان الشّأن أوَّلَ الأمر في تمهيدها، فيكون للسَّيفِ مزيَّةٌ على القلم في الحالتين، ويكونُ أربابُ السَّيف حينئذٍ أوسعَ جاهاً، وأكثرَ نعمة، وأسنى إقطاعاً.

وأمَّا في وَسَطِ الددولة، فَيَستغني صاحبُّها بعضَ الشيء عن الْسَّيفِ، لأنَّهُ قد تمهد أمرهُ، ولم يبقَ همُّهُ إلا في تحصيل ثمراتِ الملكِ من الجباية والضَّبطِ، ومباهاةِ الدُّول، وتنفيذِ الأحكامِ، والقلم هو المعين له في ذلكَ، فتعظُمُ الحاجةُ إلى تصريفه، وتكونُ السُّيوفُ مهملةً في مضاجع أغمادها، إلا إذا أنابت[2] نائبة، أو دعيت إلى سدّ فرجة، وما سوى ذلك، فلا حاجة إليها. فتكونُ أربابُ الأقلامِ في هذه الحاجةِ أوسعَ جاهاً، وأعلى رُتبة، وأعظم نعمةً وثروةً، وأقربَ من السُّلطانِ مجلساً وأكثرَ إليه تردداً، وفي خلواته نجيّاً؛ لأنَّهُ[3] حينئذٍ آلتهُ التي بها يستظهرُ على تحصَيلِ ثمرات ملكه، والنَّظر إلى أعطافه، وتثقيف أطرافهِ، والمباهاةِ بأحواله، ويكونُ الوزراء حينئذٍ وأهل السُّيُوفِ مستغنىً عنهم مبعدين عن باطنِ السُّلطان، حَذِرينَ على أنفسهم من بوادره.

وفي معنى ذَلك ما كتبَ به أبو مسلم للمنصور حين أمرهُ بالقدوم: أمَّا بعد: فإنّه مما حفظناه من وصايا الفرس، **أخوف ما يكون الوزَراء إذا سَكَنَتِ الدَّهْمَاءُ**. سنّةا لله في عباده، وا لله سبحانه وتعالى أعلم.

---

١ - في ن: عصبيتها.
٢ - في ن: (دعت).
٣ - يعني القلم

١-٣-٣٦- الْفَصْلُ السَّادسُ والثَّلاثُون
في شَارَاتِ الملكِ والسُّلْطَان الخاصة به

إعْلَمْ: أنَّ للسُّلطان شاراتٍ وأحوالاً تقتضيها الأُبَّهَةُ والبَذَخُ، فيختصُّ بها ويتميَّزُ بانتحَالها عن الرَّعيَّةِ والبِطَانَةِ، وسائر الرُّؤسَاءِ في دولته، فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْم عَلِيْمٌ﴾[يوسف: ٧٦].

الآلة: فمِن شَاراتِ الملكِ اتخاذ الآلة، من نشرِ الألْوِيَةِ والرَّايَاتِ، وقرع الطُّبُوْل والنَّفْخ في الأَبْوَاق والقُرُون، وقد ذكَرَ أَرسْطُو في الكتابِ المَنْسُوبِ إليه في **السِّيَاسَة**[١]: أنَّ السِّرَّ في ذلك إرْهَابُ العَدوِّ في الحربِ؛ فإنَّ الأَصْوَاتَ الهَائلةَ لها تأثيرٌ في النُّفوسِ بالرَّوعةِ. ولعمري إنَّهُ أمرٌ وُجدانيٌّ، في مواطنِ الحَرْبِ، يجدُهُ كلُّ أحد من نفسه، وهذا السَّبَبُ الذي ذكرهُ أَرسطو - إنْ كَانَ ذكرهُ - فهو صَحِيْحٌ ببعضِ الاعتِبَاراتِ.

وأمَّا الحقّ في ذلك فهو: أنَّ النَّفسَ عندَ سماعِ النَّغَمِ والأَصْوَاتِ، يدركها الفرحُ والطَّرَبُ بلا شَكٍّ، فيصيبُ مزاجَ الرُّوْحِ نشوةٌ يستسهل بها الصَّعْبَ، ويستميتُ في ذلك الوَجْهِ الَّذِي هو فيه، وهذا موجودٌ حتى في الحيوانات العُجمِ فانفعال الإبلِ بالحداء [ظ١١١/٢]، والخيلِ بالصَّفيرِ والصَّرِيْحِ كما عَلِمتَ، ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت الأصواتُ متناسبةً كما في الغناء، وأنتَ تعلمُ ما يحدث لسامعهِ من مثل هذا المعنى.

لأجل ذلك، تتَّخذُ العجمُ فيَ مواطنِ حروبهم الآلات الموسِيقيَّةَ[٢] لا طبلاً ولا بُوقاً؛ فيُحدِق المغنَّون بالسُّلطانِ في موكبه بآلاتهم، ويغنون فيحركون نفوس الشُّجعان بضربهم إلى الاسْتماتة.

ولقد رأينا في حروب العرب، من يتغنَّى أمامَ الموكبِ بالشِّعْرِ ويُطربُ، فَتَجيشُ همم الأبطال بما فيها، ويُسَارعون إلى مجال الحربِ، وينبعثُ كل قرنٍ[٣] إلى قرنه.

وكذَلك زناتَةَ من أمم المغربِ يتقدَّمُ الشَّاعرُ عندهم أمام الصُّفوف، ويتغنَّى فيحرِّكُ بغنائه الجبال الرَّواسي، ويبعث على الاستماتة من لا يظنُّ بها، ويُسمُّون ذلك الغناء **تَاصُوكَايتْ**، وأصلهُ كلُّهُ فرحٌ يحدُثُ في النَّفس، فتَنْبعِثُ عنهُ الشَّجاعةِ، كما تنبَعِثُ عَنْ نَشْوَةِ الخَمْر بما حَدَثَ عنها منَ الفَرَحِ. وا لله أعلَمُ.

---

١ - السياسة في تدبير الرياسة ص:١٤٨.

٢ - علق الهوريني بقوله: قوله: الموسيقة وفي نسخة: الموسيقارية وهي صحيحة لأن الموسيقى بكسر القاف بين التحتيّتين اسم للنغم والألحان وتوقيعها ويقال فيها: موسيقير، ويقال لضارب الآلة: موسيقار.

٣ - القرن: المثيل والمكافىء.

وَأَمَّا تكثيرُ الرَّاياتِ وتلوينها وإطالتها، فالقصد به التَّهويلُ لا أكثرُ، وربَّما تحدثُ في النُّفوسِ من التَّهويلِ زيادةٌ في الإقدامِ، وأحوال النُّفوسِ وتلوُّناتها غريبةٌ، والله ﴿الخلَّاقُ العليمُ﴾[الحجر: ٨٦ يس: ٨١].

ثُمَّ إنَّ الملوكَ والدُّولَ، يختلفون في اتِّخاذِ هذه الشَّاراتِ، فَمِنهم مُكْثِرٌ، ومنهم مُقَلِّلٌ، بحسبِ اتِّساعِ الدَّوْلَةِ وعظمها.

فأمَّا **الرَّايات** فإنَّها شعارُ الحُرُوْبِ من عهدِ الخَلِيْقَةِ، ولم تزل الأممُ تعقدها في مواطنِ الحروبِ والغزوات لعهد النَّبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهُ مِنَ الخُلَفاء.

وَأَمَّا **قرعُ الطُّبول والنَّفْخ في الأبْواق**، فكانَ المسْلمونَ لأوَّلِ المِلَّةِ مُتَجافين عنه تنزهاً عن غلظة الملك، ورفضاً لأحوالهِ، واحتقاراً لأُبَّهتِهِ التي ليست مِنَ الحقِّ في شيءٍ، حتى إذا انقلبت الخلافة مُلكاً، وَتَبَجَّحُوا بزهرةِ الدُّنيا ونعيمها، ولابسهم المَوالي مِنَ الفُرْسِ والرُّوْمِ أهلِ الدُّوَلِ السَّالفةِ، وأروهم ما كان أولئكَ ينتحلونه من مذاهبِ البَذخِ والتَّرَف، فكان ممَّا اسْتحسنوهُ اتِّخاذُ الآلةِ، فأخذوها وأذنوا لعُمَّالهم في اتِّخاذها تنويهاً بالملك وأهلِهِ.

فكثيراً ما كان العاملُ صاحبُ الثَّغْرِ، أو قائدُ الجيشِ يعقدُ الخليفةُ من العبَّاسيين أو العُبَيْديينَ لِوَاءَهُ، ويخرجُ إلى بَعْثِهِ أوعملِهِ من دارِ الخليفةِ أو داره في موكبٍ من أصحابِ الرَّاياتِ والآلاتِ، فلا يُمَيَّزُ بين موكبِ العاملِ والخليفةِ إلا بكثرةِ الألويةِ وقلَّتها، أو بما اختصَّ به الخليفةُ منَ الألْوَان لرايتِهِ، **كالسَّوادِ في رايات بني العبَّاس**، فإنَّ رَاياتهم كانت سُوداً، حُزناً على شُهَدَائِهِمْ مَن بَنِي هَاشِمٍ، ونعياً على بَنِي أُمَيَّةَ في قَتْلِهِم، ولذلك سُمُّوا **المُسَوِّدَةَ**.

ولما افترقَ [ظ١١٢/١] أمرُ الهَاشِمِيِّينَ، وخرجَ الطَّالِبِيُّونَ على العبَّاسِيِّينَ من كُلِّ جهةٍ وَعَصْر، ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك، فاتَّخذوا الرَّايات بيضاً، وسُمُّوا **المُبيِّضَةَ** لذلك سَائر أَيَّامِ العُبَيديينَ، ومن خرجَ منَ الطَّالِبِيِّينَ في ذلك العَهْدِ بالْمَشْرِق كالدَّاعي بِطَبَرَسْتَانَ، وَدَاعِي صَعْدَةَ، أو من دعَا إلى بدعةِ الرَّافضةِ من غَيْرِهِم كالقَرَامِطَةِ.

ولمَّا نزعَ المأمونُ عَنْ لُبْسِ الْسَّوَادِ وَشِعَارِهِ في دولته،عَدَلَ إلىلَوْنِ الخضرةِ، فجعلَ **رَايَتَهُ خضراءَ**.

وَأَمَّا **الاستِكثارُ منها** فلا ينتهي إلى حَدٍّ، وقد كانت آلةُ العُبَيدِيين لَمَّا خرَجَ العزيز إلى فَتح الْشَّامِ، خمْسَ مِئَةٍ مِنَ الْبُنُوْدِ، وَخمْسَ مِئَةٍ مِنَ الأبْوَاق.

وَأَمَّا **مُلُوكُ الْبَربَرِ بالمغربِ** من صَنْهَاجَةَ وَغَيْرِهَا، فَلَمْ يختَصُّوا بلَون واحدٍ، بل وَشَّوهَا بالذَّهبِ، واتَّخذوها منَ الحرير الخالِصِ مُلَوَّنَةً، واسْتَمرُّوا على الإِذْنِ فيها لِعُمَّالهم، حتى

إذا جاءت دولةُ المُوحدين، ومن بَعدهم من زَنَاتَةَ، قَصرُوا الآلـةَ مـن الطُّبُـوْل والبُنود على الْسُّلطان، وحظروها على مـن سـواهُ مـن عُمَّالـهِ، وجعلـوا لهـا مركبـاً(١) خاصّـاً يتبعُ أثـر الْسُّلطانَ في(٢) مسيرهِ، يُسَمَّى **الْسَّاقَة**، وهُمْ فيه بينَ مُكثرٍ ومُقِلٍّ باختلافِ مذاهبِ الـدُّوَلِ في ذلك، فمنهم من يقتصـرُ علـى سبعةٍ مـن العـدد تبرُّكـاً بالسَّبْعَةِ، كمـا هـو في دولـةَ المُوحدين، وبني الأحمر بالأندلس؛ ومنهم من يبلغ العشرةَ والعِشرين، كما هو عنـد زنَاتـة، وقد بَلَغت في أيَّام الْسُّلطان أبي الحسن ـ فِيمَا أَدْرَكنَاهُ ـ مِئةً من الطَّبول، ومئةً مـن البُنـودِ ملونة بالحرير منسوجة بالذَّهب، ما بين كبير وصغير، ويأذنون للولاةِ والعمَّـال والقـوَّاد في اتِّخاذِ رايةٍ واحدةٍ صغيرة مـن الكتـان بيضـاء، وطَبْـلٍ صغـيرٍ أيَّـامَ الحـربِ، لاَ يتجـاوَزونَ ذلك.

وأمَّا **دولةُ التُّرْكِ** لهذا العهد بالمشرق، فيتَّخِذُون رايةً واحدةً عظيمة، وفي رأسها خصلةٌ كبيرة من الشَّعر، يُسَـمونها **الشَّـالش** والجـترَ، وهـي شـعار السُّلطان عندهـم، ثـم تتعـدد الرَّايـات، ويُسَـمونها **السَّـناجقَ**، واحدُهـا سَنجق، وهـي الرَّايـة بلسـانهم. وأمَّـا الطبـولُ فيبالغونَ في الاستكثارِ منها، ويُسَمُّونها الكوسات. ويبيحونَ لكل أمـيرٍ أو قـائد عسـكرٍ، أن يتَّخذ من ذلك ما يَشاءُ إلا الجتْرَ، فإنَّهُ خاصٌّ بالسُّلطان.

وأمَّا **الجلالقَةُ** لهذا العهد من أمم الإفرنجةِ بالأندلسِ، فأكثرُ شأنهم اتِّخاذ الألويـة القليلـة ذاهبةً في الجوِّ صُعُداً، ومعها قرعُ الأوتارِ مـن الطَّنابـيرِ، ونفـخ العِيْطَـات(٣)، يذهبـون فيهـا مذهبَ الغِناءِ وطريقه في مواطنِ حروبهم هكذا يبلغنـا عنهم، وعمَّـن وراءهـم مـن ملوك العجم [ظ٢/١١٢].

﴿ومن آياتهِ خَلْقُ الْسَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاختِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمين﴾[الروم: ٢٢].

الْسَّرير: وأمَّـا الْسَّريرُ، والمنبرُ، والتَّختُ والكُرْسِيّ، فهي أعـوادٌ منصوبـةٌ أو أرائـك مُنَضَّدَةٌ، لجلُوسِ السُّلطان عليها مرتفعاً عن أهل مجلسِهِ أن يُسَـاويهم في الْصَّعيـد. ولم يـزل ذلك من سُنَنِ المُلوكِ قبلَ الإسْلاَمِ، وفي دُول العجـمِ؛ وقـد كـانوا يجْلِسُون على أَسِرَّةِ الذَّهبِ، وكانَ لِسُلَيْمانَ بنِ داوُدَ ـ صلواتُ الله عليهمـا وَسَـلامهُ ـ، كرسـيٌّ وَسَـريرٌ مـن عاجٍ مُغشَّى بالذَّهبِ، إلا أنَّهُ لا تأخذ به الدُّولُ إلاَّ بعد الاستفحال والتَّرفِ، شأن الأُبَّهةِ كلِّها كما قلناهُ، وأمَّا في أول الدَّوْلَةِ عندَ البِداوة، فلا يَتَشَوَّفونَ إليه.

---

١ – في ن: معكباً.

٢ – في ن: (من).

٣ – وفي ن: الغيطات بالغين. ولعلها من التعيُّط: الجلبة والصياح. وكأنها آلة تضخم الصوت.

وأوّلُ من اتَّخذَهُ في الإِسْلاَمِ مُعَاوِيَةُ، وَاسْتَأذَنَ النَّاس فيهِ، وقال لهم: إنّي قد بَدَّنْتُ، فأذنوا له، فاتَّخذهُ واتَّبعَهُ المُلوكُ الإسلاميّون فيه، وصار من منازعِ الأُبَّهةِ.

ولقد كان عمرُو بنُ العَاصِ بمصر، يجلسُ في قَصْرِهِ على الأرضِ مع العربِ ويأتيه المقوقس إلى قصره، ومعه سريرٌ من الذّهبِ محمولاً على الأيدي لجلوسهِ، شأنَ المُلوكِ، فيجلسُ عليه وهو أمامهُ ولا يُغيرُونَ عليهِ وفاءً لهُ بما عقد[1] معهم منَ الذِّمَّةِ، واطِّراحاً لأُبَّهَةِ المُلْكِ.

ثُمَّ كانَ بعد ذلك لبني العَبَّاسِ والعُبَيديين وسَائرِ مُلوكِ الإسلامِ، شَرْقاً وغرباً، من الأَسِرَّةِ والمنابر والتّخوتِ، ما عفا عنِ الأكاسِرَةِ والقَيَاصِرَةِ، والله مقلبُ الليل والنَّهار.

السِّكَّةُ: وهي الختمُ على الدّنانير والدَّراهم المتعامل بها بين النَّاسِ بطابعِ حديدٍ يُنقشُ فيه صُورٌ، أو كلماتٌ مقلوبةٌ، ويضربُ بها على الدِّينارِ أو الدِّرهم، فتخرجُ رُسُومُ تلكَ النُّقوش عليها ظاهرةً مستقيمةً، بعد أن يُعتبر عيارُ النَّقدِ من ذلك الجنس، في خلوصه بالسَّبكِ مرَّةً بعد أخرى، وبعد تقديرِ أشخاصِ الدّراهم والدّنانير بوزَنٍ مُعَيَّنٍ صحيح، يُصْطَلَحُ عليه فيكونُ التَّعاملُ بها عدداً، وإن لم تُقَدَّرْ أشخاصها يكونُ التَّعاملُ بها وزناً.

ولفظ السِّكَّةِ كان اسماً للطَّابعِ، وهي الحديدةُ المتَّخذَةُ لذلك، ثُمَّ نُقِلَ إلى أثرها وهي النُّقوشُ الماثلة على الدّنانير والدَّراهم، ثم نقل إلى القيامِ على ذلك، والنَّظرُ في استيفاء حاجاته وشُرُوطهِ، وهي الوظيفة، فصارَ عَلَماً عليها في عرفِ الدُّولِ، وهي وظيفة ضروريَّةٌ للملك إذ بها يتميَّزُ الخالصُ من المغشوش بينَ النَّاسِ في النُّقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغشَّ بختم السُّلطان عليها بتلك النُّقوشِ المَعروفةِ، وكان ملوك العجم يتَّخذونها، وينقشون فيها تماثيلَ تكونُ مَخصوصةً بها، مثلَ تمثال السُّلْطَان لعهدها، أو تمثيلِ حصنٍ أو حيوانٍ أو مصنوعٍ أو غير ذلك [ظ١١٣/١]، ولم يزل هذا الشَّأنُ عند العجم إلى آخرِ أمرهم.

ولمَّا جاء الإسلام أُغفلَ ذلك لِسَذَاجةِ[2] الدِّينِ، وبداوةِ العربِ، وكانوا يتَعاملونَ بالذَّهبِ والفِضَّةِ وزناً، وكانت دنانيرُ الفُرْسِ ودراهمهم بينَ أيديهم، ويردونها في معاملتهم إلى الوزن، ويتصارفونَ بها بينهم، إلى أَنْ تفاحشَ الغِشُّ في الدّنانير والدَّراهم، لغفلة الدَّوْلةِ عن ذلك.

وأمر عبد الملكِ الحجَّاج - على ما نقلَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ وأبو الزِّناد - بضرب الدَّراهم، وتمييز المغشوش من الخالص، وذلك سنة أربعٍ وسبعين. وقال المدائني: سنة خمسٍ وسبعين.

---

١ - في ن: اعتقد.

٢ - السَّاذج: الذي على لونٍ واحدٍ لا يخالطه غيره. انظر تاج العروس (٤٠١/٣).

ثُمَّ أمرَ بصرفها في سائر النّواحي سنة ستٍّ وسبعين، وكتب عليها: ﴿الله أحد، الله الصَّمد﴾.

ثُمَّ وليَ ابنِ هُبيرَة العراقَ أيَّام يزيد بن عبد الملك فجود السِّكَّة، ثم بالغ خالد القسري في تجويدها. ثمَّ يوسف بن عمر بعده.

وقيل: أوّلُ من ضربَ الدّنانير والدّراهم مُصْعَبُ بن الزُّبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز، وكتب عليها في أحد الوجهين: بركةُ الله. وفي الآخر: اسم الله. ثم غيّرها الحجّاجُ بعد ذلك بسنة، وكتب عليها اسمَ الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرّت أيام عمر. وذلك أنَّ الدّرهم كان وزنه أوّلَ الإسلام ستة دوانق. والمثقال وزنهُ درهمٌ وثلاثة أسباع درهم، فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل.

وكان السبب في ذلك أنَّ أوزان الدّرهم أيَّام الفرس كانت مختلفة، وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً، ومنها اثنا عشر، ومنها عشرة. فلما احتيج إلى تقديره في الزَّكاة أُخذَ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطاً، فكان المثقَالُ درهماً وثلاثة أسباع درهم. وقيل: كان منها البَغْلِيّ بثمانية دوانِق، والطَّبري أربعة دوانق، والمغربيّ ثمانية دوانق، واليمني ستة دوانق. فأمر عمرَ أن ينظر الأغلبُ في التَّعامل فكان البغلي والطَّبري وهما اثنا عشر دانقاً. وكان الدّرهم ستة دوانق. وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً، وإذا انقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهماً.

فلمّا رأى عبد الملك اتِّخاذ السِّكَّة لصيانة النَّقدين الجاريين في معاملة المُسْلمين من الغشِّ، عيّن مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه. واتخذ طابع الحديد، واتخذ فيه كلمات لا صوراً، لأنَّ العرب كان الكلام والبلاغة أقربُ مناحيهم وأظهرها، مع أنَّ الشرع ينهى عن الصُّور. فلمَّا فعل ذلك استمرَّ بين النَّاسِ في أيَّامِ الملَّة كلها.

وكان الدينارُ والدِّرهمُ على شكلين **مدوَّرين**. والكتابةُ عليهما في دوائر متوازية يكتبُ فيها من أحد الوجهين أسماءُ الله تهليلاً وتحميداً [ظ٢/١١٣] وصلاة على النَّبي وآله، وفي الوجه الثاني التَّاريخ واسمُ الخليفة.

وهكذا أيَّام العبَّاسيين والعُبَيديين والأُمَويين. وَأَمَّا صَنْهَاجة فلم يتَّخذوا سِكَّةً إلا آخرَ الأمر، اتَّخذَها منصور صاحبُ بجَاية. ذكر ذلك ابن حمَّادٍ في تاريخه.

ولَمَّا جاءت دولة الموحدين كَان مَّما سَنَّ لهم المهديّ اتخاذ سِكَّةِ الدِّرْهَمِ **مربّع** الشَّكلِ، وأن يرسم في دائرة الدينار شكلٌ مربعٌ في وسطه، ويملأ من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً، ومن الجانبِ الآخر كَتْباً في السُّطور باسمه واسم الخلفاء من بعده. ففعل ذلك الموحدون، وكانت سكَّتهم عَلَى هذا الشَّكْلِ لهذا العهد. ولقد كَان المهديُّ فيما ينقلُ يُنْعَتُ قبل

ظهوره بصاحب الدِّرْهَمِ المربَّعِ، نعته بذلك المتكلمون بالحِدْثَانِ[1] من قَبْلِه، المخبرون في مَلاحمهم عن دولته.

وأَمَّا أهلُ المشرق لهذا العهد فَسكَّتهم غير مقدرة، وإنَّما يتعاملون بالدَّنانير والدّراهم وزناً بالْصَّنْجَات[2] المقدرة بعدة منهَا، ولا يطبعون عليها بالسِّكَّة نقوش الكلمات بالتَّهليل والصلاَة واسم السُّلطان كما يفعله أهْلُ الْمَغربِ. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيْرُ الْعَزِيْزِ الْعَلِيْمِ﴾[الأنعام:٩٦، يس: ٣٨].

ولَنختم الكلام في السِّكَّةِ بذكْرِ **حقيقةِ الدِّرْهَم والدِّينارِ الشَّرْعيَّيْنِ وبيانُ حقيقةِ مقدارِهما:**

وذلك أنَّ الدِّينارَ والدِّرهم مختلفَا الْسِّكَّة في المقدار والموازين بالآفاق والأمصارِ وسائرِ الأعمال، والشرعُ قد تعرّض لذكرِهما، وعلّق كثيراً من الأحكامِ بهما فَي الزَّكاة والحدود [ظ١١٤/١] والأنْكحَة وغيرها. فَلاَ بُدَّ لهما عنده من حقيقةٍ ومقدارٍ معيَّنٍ في تقدير تجري عليهما أحكامه دونَ غير الْشَّرْعِيِ منهما.

فاعلم أنَّ الإجماعَ منعقدٌ منذُ صدرِ الإسلامِ وعهد الصَّحابة والتَّابعينَ، أنَّ **الدرهم الشَّرْعِيَّ** هو الذي تزنُ العشرةُ منه سبعةَ مثاقيلَ من الذَّهب، والأوقيةُ منه أربعينَ درهماً، وهو على هذا سبعةُ أعشارِ الْدِّينار. ووزنُ المثقال من الذَّهب اثنتان وسبعون حبَّةً من الشَّعير. فالدّرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسونَ حبَّة وخُمسا حبة. وهذه المَقاديرُ كلها ثابتةٌ بالإجماع. فإنَّ الدرهمِ الجاهليّ كان بينهم على أنواعِ أجودها الطَّبريُّ، وهو أرْبَعَةُ دوانق. والبَغْلِيُّ وهو ثمانيةُ دوانق. فجعلوا الْشَّرْعِيَّ بينهما وهو ستَّة دوانق. فكانوا يُوجبونَ الزَّكَاةَ في مئة درهم بغليَّة، ومئة طبرية خمسةَ دراهم وسطاً.

وقد اختلف النَّاسُ: هل كان ذَلك من وضعِ عبد الملك، وإجْمَاعِ النَّاس بعدُ عليه كما ذكرناه؟ ذكر ذلك الخطابي في كتاب **معالمِ السُّنَن**، والمَاوَرْدِيُّ في **الأحكَامِ الْسُّلْطَانية**، وأنكره المحققون من المتأخرينَ، لما يلزمُ عليه أن يكون الدِّيْنَارُ والدرهمُ الْشَّرعيان مجهولَيْنِ في عهد الصَّحابة ومن بعدهم مع تعلُّقِ الحقوقِ الْشَّرْعِيَّة بهما في الزَّكاةِ والأنكحةِ والحدود وغيرها كما ذكرناه.

---

١ - أي: المتحدثون عما يتشوف إليه الناس من أمور الغيب.

٢ - مفرده صنجة. وهي المعروفة الآن بالأوزان التي توضع في إحدى كفتي الميزان.

والحقُّ أنَّهما كانا معلُومي المِقدار في ذلك العصر لجريَان الأحكام يومئذٍ بما يتعلق بهما من الحقوق. وكان مقدارُهما غير مشخَّصٍ في الخارجِ، وإنَّما كان متعارفاً بينهم بالحكم الشَّرْعِيّ علَى المقدّر في مقدارهما وزنَتِهما. حتى استفحلَ الإسلامُ وعظمت الدَّولة، ودعت الحالُ إلى تشخيصهما في المقدارِ والوزن كما هو عند الشَّرْعِ ليستريحوا من كلفةِ التقدير. وقارن ذلك أيَّام عبد الملك فشخَّصَ مقدارهما وعيَّنهما في الخارجِ كما هو في الذِّهن، ونقشَ عليهما السِّكَّة باسمه وتأريخه إثرَ الشَّهادَتين الإيمانيتين، وطرحَ النّقود الجاهلِيَة رأساً حتى خلصت، ونقش عليها سكَّةً وتلاشى وجودها. فهذا هو الحقّ الذي لا محيدَ عنه.

ومن بعد ذلك وقع اختيارُ أهل السّكَّةِ في الدول على مخالفةِ المقدار الشَّرعي في الدِّينار والدِّرهم، واختلفت في كل الأقطارِ والآفاق، ورجع الناسُ إلى تصوُّر مقاديرهما الشَّرعيَّةَ ذهناً، كما كان في الصَّدْرِ الأوَّل. وصار أهلَ كل أفق يستخرجون الحقوق الشَّرْعِيَّة من سكَّتهم بمعرفةِ النِّسْبَةِ التي بينها وبين مقاديرها الشَّرْعِيَّةِ.

وأمَّا **وزن الدينار** باثنين وسبعين حبَّةً من الشَّعير الوسطِ فهو الذي نقلهُ المحققونَ وعليه الإجماعُ إلا ابن حزمٍ[1] خالفَ ذلك وزعم أن وزنهُ أربعة وثمانون حبة، نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ـ وردَّهُ المحقِّقونَ ـ، وعده وهماً وغلطاً، وهو الصَّحيح[2]. وا لله ﴿يُحِقُّ الحقَّ بكلماته﴾[الأنفال: ٧، الشورى: ٢٤].

وكذلك تعلم أنَّ الأُوقية الشَّرعية ليست هي المتعارفة بين النَّاس، لأن المتعارفة مختلفة باختلافِ الأقطارِ، والشَّرعية متحدة ذهناً لا اختلاف فيها، وا لله ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[الفرقان: ٢].

الخاتم: وأمَّا الخاتم فهو من الخُطط السُّلطانية والوَظَائفِ الملوكيَّة. والختمُ على الرَّسَائلِ والصُّكوكِ معروفٌ للملوكِ قبل الإسْلاَمِ وبعده. وقد ثبتَ في الصَّحيحين[3]: أنَّ النَّبيَّ صلى ا لله عليه وسلم أرادَ أن يكتبَ إلى قيصرَ، فقيل له: إنَّ العجمَ لا يقبلونَ كتاباً إلا أن يكونَ مختوماً؛ فاتَّخذ خاتماً من فضَّةٍ ونقش فيه: محمَّدٌ رسولُ ا للهِ. قال البُخاري[4]: جعل

---

١ – ولد بقرطبة سنة ٣٨٣ أو ٣٨٤هـ. وتوفي سنة ٤٥٧هـ.

٢ – أي: ما ذهب إليه عبد الحق من تخطئة ابن حزم.

٣ – أخرجه البخاري (٦٥ و٢٩٣٨ و٥٨٧٠ و٥٨٧٢ و٥٨٧٤ و٥٨٧٥ و٥٨٧٧ و٧١٦٢). ومسلم (٢٠٩٢) من حديث أنس.

٤ – الذي في البخاري (٥٨٧٨) في كتاب اللباس، باب هل يجعل نقش الخاتم ثلاثة أسطر، من حديث أنس: أنَّ أبا بكر رضي ا لله عنه لما استخلف كتب له، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، وا لله سطر.

ثلاث كلماتٍ في ثلاثة أسطر وختم به وقال[1]: «**لا ينقشُ أحدٌ مثله**». قال[2]: وَتَخَتَّمَ به أبو بكر وعمرُ وعثمانُ، ثم سَقطَ من يد عثمان في بئر أريسَ، وكانت قليلة الماءِ فلم يدرك قعرها بعد. واغتمَّ عُثمانَ، وتطيَّرَ منه، وصنع آخر على مثله.

وفي **كيفيَّةِ نقش الخاتمِ والختم به** وجوهٌ: وذلك أنَّ الخاتم يطلق على الآلةِ التي تجعل في الإصبع، ومنه تختَّمَ إذا لبسه. ويطلقُ على النهاية والتمام، ومنه ختمت الأمر إذا بلغت آخره، وختمت [ظ١١٤/٢] القرآن كذلك، ومنه خاتمِ النَّبيينَ وخاتم الأمر. ويطلقُ على السّداد الذي يسد به الأواني والدِّنان. ويقال فيه: خِتَام، ومنه قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾[المطففين: ٢٦]. وقد غلِطَ من فسَّر هذا بالنهاية والتمام. قال: لأن آخر ما يجدونه في شرابهم ريحُ المسكِ، وليس المعنى عليه؛ وإنَّما هو من الختام الذي هو السّدادُ، لأنَّ الخمر يجعل لها في المدن سدادُ الطِّين أو القار يحفظها ويُطيِّبُ عَرْفَها وذوقها، فبولغ في وصف خمرِ الجنةِ بأَن سدادها من المِسْكِ، وهو أطيبُ عَرفاً وذوقاً من القار والطِّين المعهودين في الدُّنيا.

فإذا صحَّ إطلاقُ الخاتمِ على هذه كلها صح إطلاقهُ على أثرها النَّاشيء عنها. وذلك أنَّ الخاتَم إذا نقشت به كلماتٌ أو أشكالٌ ثم غمسَ في مدافٍ[3] من الطِّينِ أو مداد. ووضع على صُفح القِرْطَاسِ بقي أكثر الكلمات في ذلك الصَّفح. وكذلك إذا طُبِع به على جسم لين كالشمعِ، فإنه يبقى نقش ذلك المكتوبِ مرتسماً فيه. وإذا كانت كلماتٌ وارتسمت فقدْ يقرأ من الجهةِ اليُسْرَى إذا كانَ النَّقشُ على الاستقامة من اليمنى، وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النقشُ من الجهة اليسرى؛ لأنَّ الخَتْمَ يقلب جهة الخطِّ في الصَّفح عما كانَ في النَّقشِ من يمينٍ أو يسار، فيحتملُ أن يكونَ الختم بهذا الخاتم بغمسه في المِدَاد أو الطِّين، ووضعه على الصَّفَح، فتنتقَّش الكلمات فيه، ويكون هذا من معنى النِّهاية والتَّمام، بمعنى صحَّة ذلك المكتوب ونُفوذه، كأنَّ الكِتاب إنما يتمُّ العملُ به بهذه العلامات، وهو من دونها ملغى ليس بتمام.

---

١ - أخرجه البخاري (٥٨٧٧) من حديث أنس، وقعه: إني اتخذت خاتماً من ورق ونقشت فيه: محمد رسول الله فلا ينقش أحد على نقشه.

٢ - وقد ذكر معاني ذلك في البخاري (٥٨٦٦ و٥٨٧٣٩ ومسلم (٢٠٩١) (٥٤ - ٥٥) من حديث ابن عمر.

٣ - الدوفُ: الخلط والبل بماء ونحوه، ودفتُه فهو مسك مدوف ومدووف أي: مبلول أو مسحوق ورجح الدكتور وافي أنها محرفة عن مُذَاق من قولهم: حذفت اللبن بالماء إذا مزجته وخلطته ولا أدري ما الذي دعاه لذلك!!.

وقد يكون هذا الختم بالخطِّ آخر الكتاب أو أوله بكلماتٍ منتظمة من تحميد أو تسبيح، أو باسم السُّلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب كائناً من كانَ أو شيء من نعوته يكون ذلك الخطُّ علامةً على صحة الكتاب ونفوذه. ويسمّى ذلك في المتعارَف علامةً، ويسمى **ختماً** تشبيهاً له بأثر الخاتم الآصفي[1] في النَّقش؛ ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم، أي علامته وخطه الذي ينفذ بهما أحكامه، ومنه خاتم السُّلطان أو الخليفة أي علامته.

قال الرشيدُ ليحيى بن خالد لما أراد أن يستوزرَ جعفراً، ويستبدلَ به من الفضل أخيه، فقال لأبيهما يحيى: يا أبتِ، إني أردت أن أحوِّلَ الخاتم من يميني إلى شمالي. فكنّى له بالخاتم عن الوزارة، لما كانت العلامة على الرسائل والصّكوكِ من وظائف الوزارة، ويشهدُ لصحَّةِ هذا الإطلاق ما نقله الطَّبري: أنَّ معاوية أرسلَ إلى الحَسَنِ عند مراودته إياه في الصُّلح صحيفةً بيضاءَ ختم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصَّحيفةِ التي ختمتُ أسفلها ما شئت فهو لك. ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصَّحيفة بخطه أو غيره. ويحتملُ أن يختمَ به في جسمٍ لين فتنتقشُ فيه حروفه. ويجعلُ[2] على موضع الحزْمِ من الكتابِ [ظ١١٥/١] إذا حُزِمَ، وعلى المودوعات، وهو من السَّداد، كما مر، وهو في الوجهين آثار الخاتم، فيطلق عليه خاتم.

وأول من أطلقَ الختم على الكتابِ ـ أي العلامة ـ معاوية، لأنَّهُ أمر لعمر بن الزُّبير عند زياد بالكوفةِ بمئة ألف، ففتح الكتاب وصيَّرَ المئة مئتين، ورفع زياد حِسَابه، فأنكرها معاوية، وطلب بها عمر وحبسه، حتى قضَاها عنه أخوه عبد الله. واتَّخذ معاويةُ عند ذلك ديوان الخاتمِ. ذكره الطَّبريُّ.

وقال آخرون: وحزم الكتب، ولم تكن تحزم، أي: جعل لها السَّداد.

وديوان الختم: عبارة عن الكتَّابِ القائمين على إنفاذ كتب السُّلطان والختمِ عليها إما بالعلامة أو بالحزم. وقد يطلقُ الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال[3].

والحزم للكتبِ يكون إمَّا بدسِّ الورق كما في عُرف كتَّاب المغرب، وإمَّا بلصق[4] رأسِ الصَّحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل المشرق. وقد يجعل على مكان الدّسِّ أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطِّلاعِ على ما فيه.

---

١ – نسبة إلى آصف: كاتب سليمان صلوات الله وسلامه عليه.
٢ – في ن: ويحمل.
٣ – انظر الحديث عنه في الفصل الرابع والثلاثين من هذا الباب.
٤ – في ن: بإلصاق.

فأهل المغرب يجعلون على مكان الدَّسِّ قطعةً من الشَّمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك. فيرتسم النَّقش في الشَّمع. وكان في المشرق في الدُّول القديمة يُختم على مكان اللَّصق بخاتم منقوش أيضاً قد غمس في مُدَافٍ من الطِّيْنِ معدٌ لذلك، صبغه أحمر، فيرتسم ذلك النقش عليه.

وكان هذا الطِّيْنُ في الدولة العبَّاسية يعرف **بطين الختم**، وكان يجلبُ من سِيْرَافَ، فيظهر أنه مخصوص بها.

فهذا الخاتم ـ الذي هو العلامةُ المكتوبةُ أو النَّقش للسَّداد والحزم للكتب ـ خاصٌّ بديوان الرَّسَائل. وكان ذلك للوزير في الدَّولةِ العبَّاسية. ثم اختلف العرفُ وصار لمن إليه التَّرسيل وديوان الكتاب في الدَّولة، ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للأصبع، فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصِّعونه بالفُصُوصِ من الياقوتِ والفيروزج والزُّمرّد، ويلبسه السُّلطان شارةً في عرفهم كما كانت البردَة والقضيبُ في الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ، والمظلَّةِ في الدولة العُبَيدية. والله مُصَرِّفُ الأمور بحكمه.

الطِّرَاز: من أُبَّهة الملك والسُّلطان، ومذاهبِ الدول أن ترسم أسماؤهم أو علاماتٌ تختصُّ بهم في طراز أثوابهم المعدَّة للباسهم من الحرير أو الدِّيباجِ أو الإبريسم[1]، تعتبر كتابة خطِّها في نسج الثَّوْبِ ألحاماً وأسداءً[2]، بخيط الذهب، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملوَّنة من غير الذهب على ما يحكمُهُ الصّناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم. فتصير الثيابُ [ظ١١٥/٢] الملوكية معلمةً بذلك الطِّراز قصد التَّنويه بلابسها من السُّلطان فمن دونه، أو التنويه بمن يختصه السُّلطان بملبوسه إذا قصدَ تَشْرِيْفَهُ بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته.

وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطِّراز بصور الملوك وأشكالهم، أو أشكال وصور معيَّنة لذلك. ثُمَّ اعتاضَ ملوك الإسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو السِّجلاَّت. وكان ذلك في الدولتين من أُبَّهة الأمور وأفخم الأحوال.

وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطِّراز لذلك، وكان القائم على النظر فيها يسمَّى صاحبُ الطراز، ينظرُ في أمور الصِّباغ والآلة، والحاكَة فيها، وإجراء أرزاقهم، وتسهيل آلاتهم، ومشارفة أعمالهم. وكانوا يُقلِّدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم. وكذلك كان الحالُ في دولة بني أمية بالأندلس والطَّوائف من بعدهم،

---

١ – نوع من الحرير.

٢ – اللحمة بالفتح والضَّم للثوب ما ينسج عرضاً؛ والسَّدي ما يمد طولاً في النَّسج، وجمعه أسداء.

وفي دولة العُبيديين بمصر، ومن كان على عهدهم من ملوكِ العجمَ بالمشرق. ثـمَّ لما ضَاقَ نطاقُ الدَّول عن التَّرَف والتَّفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء، وتعددت الـدُّولُ، تعطَّلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة.

ولَمَّا جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المئـة السَّادسـة، لم يـأخذوا بذلـك أول دولتهم، لما كانوا عليه من منازعِ الدِّيانة والسَّذَاجةِ التي لقنوها عن إمـامهم محمَّـد بـن تُومَرْت المهدي، وكانوا يتورعون عن لباسِ الحريرِ والذهب. فسـقطت هـذه الوظيفـة مـن دولتهم؛ واستدرك منها أعقابهم آخر الدَّوْلَةِ طَرَفاً لم يكن بتلك النَّباهةِ.

وأمَّا لهذا العهد فأدركنا بالمغربِ في الدَّولةِ المرينيَّةِ لعنفوانها وشموخها رسماً جليـلاً لُقنُّـوه من دولة ابنِ الأحمرِ مُعاصرهم بالأندلس، واتبع هـو في ذلـك ملـوكَ الطَّوائـف، فـأتى منـه بلمحة شاهدَة بالأَثَر.

وأمَّا دولةُ التُّرك بمصر والشَّام لهذا العهد ففيها من الطِّرَازِ تحريرٌ آخر على مقدار ملكهم وعُمـرَان بلادهـم، إلاّ أنَّ ذلـك لا يصنـع في دورهـم وقُصُورهـم، وليسـت مـن وظـائف دولتهم، وإنَّما ينسجُ ما تطلبه الدَّوْلَةُ من ذلك عندَ صُنَّاعِهِ منَ الحريرِ ومن الذَّهبِ الخالص ويسمُّونه **المُزَرْكَش** ـ لفظة أعجميَّةٌ ـ. ويرسم اسم السُّلطان أو الأميرِ عليه، ويُعِدُّهُ الصُّنَّاعُ لهم فيما يُعِدُّونه للدولةِ من طُرَف الصِّناعةِ اللائقةِ بها. وا للهُ مقدِّرُ اللَّيْلِ والنَّهار. وا للهُ خيرُ الوَارِثِينَ.

الفساطِيْطُ وَالْسِّياجُ: اعلم أنَّ مـن شـاراتِ الملـكِ وترفـه اتِّخـاذَ [ظ١١٦/١] الأخبيـةِ والفَسَاطيط والفَـازَاتِ[١] مـن ثيـاب الكتَّـان والصُّـوْفِ والْقطْـن، بجـدل الكتَّـان والقطـن، فيُباهي بها في الأسفار، وتنوَّعُ منها الألوانُ مَا بين كبيرٍ وصغيرٍ على نسبَة الدَّولةِ في الثَّرْوَةِ واليسارِ. وإنَّما يكونُ الأمرُ في أول الدَّولة في بيوتهـم الَّتي جـرَت عـادتهم باتِّخاذهـا قبـل الملكِ. وكان العربُ لعهد الخلفاء الأولينَ من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهـم خياماً من الوبرِ والصُّوْفِ. ولم تزل العرب لذلـك العهـد بَادِينَ إلا الأقـل منهـم، فكـانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم[٢] وسائر حالهم وأحيائهم من الأهـل والولـد كمـا هو شأن العرب لهذا العهد. وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل، بعيدة ما بـين المنازل، متفرقة الأحياء، يغيبُ كلُّ واحدٍ منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب. ولذلك كان عبد الملكَ يحتاج إلى ساقة[٣]، تحشدُ النَّاسَ على أثرهِ أن يقيموا إذا ظَعَنَ[٤]. ونقل أنـه

---

١ – في القاموس: الفازة مظلة بعمودين.

٢ – الظعينة: الهودج فيه امرأة أم لا. ولم يرد هذا الجمع ولعله تحرف عن ظُعُن.

٣ – ساق سوقاً فهو سائق وسواق ويجمع على ساقة، وهم من يتبع أثر السلطان في مسيره..

٤ – أي: رحلَ.

استعمل في ذلك الحجَّاجَ حين أشار به رَوْحُ بـنِ زِنبَـاع، وقصتهـا[1] في إحـراقِ فسَـاطيط روح وخِيَامه لأوَّلِ ولايته حِينَ وجدهم مُقيمين في يوم رحيل عبد الملـك قصـة مشـهورة. ومن هذه الولاية تُعْرَفُ رتبةُ الحجَّاجِ بين العربِ، فإنه لا يتولى إرادتهم على الظَّعنِ إلا من يأمن بوادرَ السُّفهاءِ من أحيائهم، بما له من العصبية الحائلة دون ذلك، ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقَة بغنائه فيها بعصبيَّته وصرامته.

فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذَخ ونزلوا المـدن والأمصار وانتقلوا من سكنى الخيامِ إلى سكنى القصور، ومن ظَهْرِ الخُفِّ إلى ظهر الحافر[2]، اتخذوا للسُّكنى في أسفارهم ثيـاب الكتـان يستعملون منهـا بيوتـاً مختلفـة الأشـكال مقـدرة الأمثـال مـن القَوْراء[3] والمستطيلة والمربَّعة، ويحتفلون فيها بأبلغِ مذاهبِ الاحتفالِ والزِّينةِ، ويدير الأمير القائد للعساكر على فَسَاطيطه وفازاته[4] من بينهم سياجاً من الكتَّـان يُسَمَّى في المغربِ بلسان البربر الذي هو لسان أهله **أَفْرَاك** بالكاف التي بينَ الكـاف والقـاف، ويختصُّ به السُّلطان بذلك القطر لا يكون لغيره. وأمَّـا في المشـرقِ فيتَّخـذهُ كـل أمير وإن كـان دون السُّلطان.

ثُمَّ جنحت الدَّعةُ بالنِّسَاءِ والولدَان إلى المقامِ بقصورهم ومنازلهم، فخف لذلك ظهرهـم وتقاربت السَّاحُ[5] بين منَـازل العسَكر، واجتمعَ الجيشُ والسُّلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطه زهواً أنيقاً لاختلاَفِ ألوانه. واستمرَّ الحال على ذلـك في مَذاهـب الدول في بذخها وترفها [ظ١١٦/٢].

وكَذلك[6] كانت دولةُ الموحِّدين وزنَاتة التي أظلتنا كان سفرهم أوَّل أمرهـم في بيـوت سكناهم قبلَ الملك من الخيـامِ والقيَـاطن[7]. حتـى إذا أخـذت الدولـة في مذاهـب التَّرفِ وسكنى القُصور عادوا إلى سكنى الأخبية والْفَسَاطيط. وبلغوا من ذلـك فـوق مـا أرادوه وهو من التَّرفِ بمكان. إلا أنَّ العساكر به تصـيرُ عُرْضَـةً للبَيَـاتِ[8] لاجتمـاعهم في مكـان

١ - في ن: قصتهما.
٢ - أي: من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل.
٣ - القوراء: أي المقطوعة من وسطها على شكل دائرة. وليس كما ذهب الدكتـور وافي إلى أنهـا الواسـعة لأن السياق لا يسمح بذلك..
٤ - أي: خيامه ومظلاته.
٥ - في ن: السياح.
٦ - في ن: كذا.
٧ - جمع قيطون وهو المخدع.
٨ - بَيّتَ العدو: أوقع بهم ليلاً والاسم البيات.

واحد تشملهم فيه الصَّيحة، ولخفتهم من الأهل والولد الذين تكون الاستماتةُ دونهم، فيحتاجُ في ذلك إلى تحفظ آخر، والله ﴿القوي العزيز﴾[الشورى: ١٩].

الْمَقْصُورَةُ للصَّلاةِ والدُّعاء في الخُطْبَة: وهما من الأمور الخلافيَّة، ومن شارات الملك الإسلامي، ولم يعرف في غير دَول الإسلام.

فأمَّا البيت **المقصورة** من المسجد لصلاة السُّلطان فيتخذ سِياجاً على المحرابِ فيُحوِّزُه وما يليه. فأوَّلُ من اتَّخذها معاوية بن أبي سُفيان حين طعنه الخارجي، والقِصَّة معروفة؛ وقيل: أوَّلُ من اتَّخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني. ثم اتخذها الخلفاءُ من بعدهما، وصارت سُنَّةً في تمييز السُّلطان عن النَّاس في الصَّلاة. وهي إنما تحدث عند حصول التَّرف في الدول والاستفحال، شأن أحوال الأُبَّهة كلها. وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها. وعند افتراق الدَّوْلَةِ العبَّاسية، وتعدد الدول بالمشرق، وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطَّوائف. وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العُبيديون، ثم وُلاتهم على المغرب من صَنْهَاجة، بنو بَادِيس بفَاس، وبنو حمَّاد بالقلعة.

ثُمَّ ملكَ الموحِّدون سائر المغرب والأندلُس، ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم، ولمَّا استفحلت الدولةُ وأخذت بحظّها من التَّرَفِ، وجاء أبو يعقوب المنصور ثالثُ ملوكهم، فاتَّخذ هذه المقصورة، وبقيت من بعده سنة لملوك المغربِ والأندلُس. وهكذا كان الشَّأنُ في سائر الدُّول. سنة الله في عباده.

وأمَّا **الدعاءُ على المنابر** في الخطبةِ فكان الشَّأن أولاً عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم. فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة بالصلاة على النَّبي صلى الله عليه وسلم والرِّضا عن أصحابه. وأوَّلُ من اتَّخذ المنبر[1] عمرُو بنُ العاص لَمَّا بنى جامعه بمصر. وأوَّلُ من دعا للخليفةِ على المنبر ابنِ عبَّاسٍ دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل عليها، فقال: اللَّهُمَّ انصُرْ عليَّاً على الحقِ. واتَّصَلَ العملِ على ذلك فيما بعدُ.

وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغَ عمر بنَ الخطَّابِ ذلك، فكتب إليه عمر بن الخطَّابِ: أمَّا بعدُ: فقد بَلَغني أنَّكَ اتَّخذت منبراً ترقى به على رقابِ المسلمين، أوما يكفيك أن تكون قائماً، والمسلمون تحت عَقِبك؟! فعزمتُ عليكَ إلا ما كسرته.

---

١ – لعله أراد أن أول من اتخذ المنبر على هيئة المعهودة الآن في الأبهة والعظمة وليس على ما اتخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم من البساطة وقلة المراقي. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من صنع له المنبر. وحادثة حنين الجذع مشهورة.

فلمَّا حدثت الأُبّهة، وحدث في الخلفاء المانعُ [ظ١١٧/١] من الخُطْبَةِ والصَّلاة استنابوا[1] فيهما. فكان الخطيب يُشيد بذكر الخليفةِ على المنبر تنويهاً باسمه ودعاءً له بما جعل الله مصلحة العالم فيه؛ ولأنَّ تلكَ السَّاعة مظنَّةٌ للإجابة، ولما ثبتَ عن السَّلف في قولهم: من كانت له دعوةٌ صالحة فليضعها في السُّلطان. وكان الخليفة يُفرد بذلك.

فلما جاءَ الحجرُ والاستبداد صار المتغلِّبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك، ويشَاد باسمهم عقبَ اسمه، وذهب ذلك بذهاب تلك الدول، وصار الأمرُ إلى اختصاص السُّلطان بالدُّعاء له على المنبر دونَ من سواه، وحظرَ أن يشاركه فيه أحد ويسمو إليه.

وكثيراً ما يغفل المَاهدُون من أهل الدُّول هذا الرَّسمَ عندمَا تكون الدَّولة في أسلوب الغَضَاضة ومناحِي البَدَاوة في التَّغافل والخُشُونة، ويقنعون بالدعاء على الإبهام والإجمال لَمَنْ وَلِي أمورَ المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عبَّاسيَّة، يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العبَّاسي تقليداً في ذلك لما سلف من الأمر، ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتَّصريح باسمه.

يُحكى أن يُغْمراسِن بن زَيَّان، ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكريا يحيى ابن أبي حفص على تلمسَان، ثُمَّ بدا له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها، كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله، فقال يغمراسن: تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا.

وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مَرِين، حضره رسولُ المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالثِ ملوكهم، وتخلفَ بعض أيَّامه عن شهود الجمعة، فقيل له: لم يحضر هذا الرسول كراهيةً لخلو الخطبة من ذكر سلطانه. فأذن في الدعاء له، وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته.

وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبَداوة. فإذا انتبهت عيونُ ساستهم، ونظروا في أعطاف ملكهم، واستتموا شِيَات[2] الحضارة ومعاني البَذخ والأُبّهة، انتحلوا جميع هذه السِّمات وتفننوا فيها، وتجاروا إلى غايتها، وأنفوا من المشاركة فيها، وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها. والعالم بستانٌ. والله على كل شيء رقيب.

---

١ – في ظ: واستننابوا.

٢ – الشية: العلامة واللون.

١-٣-٣٧-١- فَصْلٌ
في الْحُرُوْبِ وَمَذَاهِبِ الأُمم في تَرْتِيْبِها[١]

اعْلَمْ: أنَّ الْحُرُوْبَ وَأَنْوَاعَ الْمُقَاتَلَةِ لم تزل واقعة في الخليقةِ منذ برأها الله. وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض [ظ١١٧/٢]، ويتعصَّبُ لكل منها أهل عصبيته. فإذا تذامروا[٢] لذلك وتواقفت الطائفتان، إحداهما تطلب الانتقام، والأخرى تدافع، كانت الحرب. وهو أمرٌ طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمّةٌ ولا جيل.

وسببُ هذا الانتقام في الأكثر: إمَّا غيرة ومنافسة، وإمَّا عدوان؛ وإمَّا غضبٌ لله ولدينه؛ وإمَّا غضب للمُلك وسعي في تمهيده.

فالأوَّلُ أكثرُ ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. **والثَّاني**: وهو العدوانُ، أكثر ما يكون من الأمم الوحشيَّةِ السَّاكنين بالقَفْر كالعرب[٣] والترك والتُّركمان والأكراد وأشباههم؛ لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم. ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحربِ ولا بُغْيَةَ لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإنما همهم ونصبُ أعينهم غلبُ النَّاسِ على مافي أيديهم. **والثَّالث** هو المُسَمَّى في الشَّريعة بالجهاد. **والرَّابعُ** هو حروب الدُّوَلِ مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها.

فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب **بغي** وفتنة؛ والصِّنفان الأخيران حروب جهاد وعدل.

وصفةُ الحروبِ الواقعة بين الخليقةِ منذُ أول وجودهم على نوعين: **نوع** بالزَّحف صفوفاً؛ **ونوع** بالكرِّ والفرِّ. أمَّا الذي بالزَّحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأمَّا الذي بالكرِّ والفرِّ فهو قتال العرب والبربر من أهل المغربِ.

وقتالُ الزحف أوثقُ وأشدُّ من قتال الكرِّ والفرِّ. وذلك لأن قتال الزَّحف ترتب فيه الصفوف، وتسوَّى كما تسوى القِدَاحُ أو صفوف الصلاةِ ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدماً. فلذلك تكون أثبتَ عند المصارِعِ وأصدقَ في القتال وأرهبَ للعدو؛ لأنه كالحائطِ الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته. وفي التنزيل: ﴿إنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتلون في سبيله صَفّاً كَأَنَّهم بُنْيَانٌ مَرْصُوْصٌ﴾[الصف: ٤]. أي: يشد بعضهم بعضاً بالثبات. وفي

---

١ – ما يقرره ابن خلدون هنا لا ينطبق إلا على الشعوب التي عاصرها وشهد أحوالها، وخاصة العرب والبربر. أمَّا غيرها فلم يستقرئها، ومن ثم لا تندرج أحكامه عليها. ونقص الاستقراء أكبر ما أخذ على ابن خلدون في بعض فصول المقدمة.

٢ – أي: تحاضوا على القتال.

٣ – يعني: الأعراب.

الحديث الكريم: «**الْمُؤْمنُ للمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَان يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**»[١]. ومن هنا يظهرُ لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التَّولي في الزَّحفَ[٢]؛ فإن المقصود من الصفِّ في القتال حفظُ النظام كما قلناه، فمن ولَّى العدوّ ظهره فقد أخلَّ بالمصاف، وباء بإثم الهزيمة إن وقعت، وصار كأنه جرَّها على المسلمين وأمكن منهم عدوَّهم؛ فعظُم الذنب لعموم المفسدة وتعدِّيها إلى الدِّين بخرقِ سِيَاجه؛ فعُدَّ من الكبائر. ويظهر من هذه الأدلة أن **قتال الزَّحف أشدُّ عند الشَّارع**.

وأمَّا **قتالُ الكرِّ والفرِّ** فليس فيه من الشِّدَّة والأمنِ من الهزيمة ما في قتال الزَّحف. إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجؤون إليه في الكرِّ والفرِّ [ظ١١٨/١]، ويقوم لهم مقام ذلك قتال الزحف كما نذكره بعد.

ثُمَّ إن الدّول القديمة الكثيرة الجنود المتَّسعة الممالك، كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها **كراديس**، ويسوُّون في كل كردوس[٣] صفوفه. وسبب ذلك أنه لما كثرت جُنودهم الكثرة البالغة، وحشدوا من قاصية النَّواحي، استدعى ذلك أن يجهلَ بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحربِ، واعتوروا[٤] مع عدوهم الطعنَ والضربَ، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النَّكْرَاءِ[٥] وجهلِ بعضهم ببعض. فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض، ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في **الجهات** الأربع، ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في **القلب**. ويسمون هذا الترتيب **التَّعبئة**، وهو مذكورٌ في أخبار فارس والروم والدولتين. وصدر الإسلام. فيجعلون بين يدي الملك عسكراً منفرداً بصفوفه مميَّزاً بقائده ورايته وشعاره، ويسمُّونه **المقدّمة**؛ ثم عسكراً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمونه **الميمنة**؛ ثم عسكراً آخر من ناحية الشَّمال كذلك يسمونه **الميسرةَ**؛ ثم عسكراً آخر من وراءِ العسكر يسمونه **السَّاقَةَ**[٦]، ويقفُ الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع، ويسمُّون موقفهُ **القلبَ**. فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم، إمَّا في مدى واحد للبصر أو على

---

١ – أخرجه البخاري (٤٨١ و٢٤٤٦ و٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري.

٢ – يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار. ومن يولهم يومئذٍ دبره إلا متحرِّفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾[الأنفال: ١٥ – ١٦].

٣ – الكردوسة بالضم: قطعة عظيمة من الخيل، وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة. وأصلها من الكردسة: وهي الوثاق، ومشي في تقارب خطو كالمقيد.

٤ – اعتوروا الشيء: تداولَوه.

٥ – النكراء: المنكر والأمر الشديد. أي: لأجلِ شدة الحرب وجهل بعضهم بعضاً.

٦ – ساقة الجيش: مؤخرته وكأنها تسوقه سوقا.

مسافةٍ بعيدةٍ، أكثرها اليومُ واليومان بين كل عسكرين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلَّة والكثرة، فحينئذ يكون **الزَّحف** من بعد هذه **التَّعبئة**.

وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدَّولتين بالمشرق، وكيف كانت العساكرُ لعهد عبد الملك تتخلَّف عن رَحِيله لِبُعد المدى في التعبئة، فاحتيج لمن يسوقها من خلفه، وعين لذلك الحجَّاجَ بنَ يوسفَ كما أشرنا إليه[1]، وكما هو معروف في أخباره. وكان في الدَّولة الأموية بالأندلس أيضاً كثيرٌ منه، وهو مجهول فيما لدينا، لأنَّا إنَّما أدركنا دولاً قليلة العساكرِ لا تنتهي في مجالِ الحربِ إلى التناكُر، بل أكثر الجيوش من الطائفتين معاً يجمعهم لديناً حِلَّةٌ أو مدينة ويعرِف كل واحد منهم قرنَهُ[2]، ويناديه في حومة الحرب باسمة ولقبه، فاستغنى عن تلك التعبئة.

١-٣-٣٧-٢- فَصْلٌ

ومن مذاهبِ أهل الكرِّ والفرِّ في الحروبِ **ضربُ المَصَافِّ** وراءَ **عسكرهم** من الجمادات والحيوانات العُجم، فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرِّهم وفرهم، يطلبونَ به ثبات المُقَاتلةَ ليكون أدوم للحرب وأقربَ إلى الغلب. وقد يفعله أهل الزَّحْفِ أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة.

فقد كان الفرس، وهم أهل الزَّحف، يتخذون **الفيلة** في الحروب ويحمِّلون عليها أبراجها من الخشب أمثال الصُّروح، مشحونةً بالمقاتلة والسِّلاحِ والرَّايَاتِ، ويصفونها وراءهم [ظ١١٨/٢] في حومة الحربِ كأنَّها الحُصُون[3]، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم.

وانظر ما وقعَ من ذلك في **القادِسِيَّةِ**، وإنَّ فارسَ في اليوم الثَّالثِ اشتدوا بهم[4] على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها[5] بالسيوفِ على خَرَاطِيْمها، فنفرت ونَكَصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن، فجفا معسكرُ فارس لذلك، وانهزموا في اليوم الرَّابع.

وأمَّا الرُّوْمُ وملوك القُوْطِ بالأندلسِ وأكثر العجم، فكانوا يتَّخذون لذلكَ **الأسِرَّة**، ينصبونَ للملك سريره في حومةِ الحَرْبِ، ويَحُفُّ به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو

---

١ – في الفصل السابق عند حديثه عن الفساطيط والسياج.
٢ – قرينه ونظيره.
٣ – في ن: حصونٌ.
٤ – في ن: بها.
٥ – بعجه: شَقَّهُ.

زعيم بالاستماتة دونهُ، وترفع الرَّاياتُ في أَرْكَان السَّرير، ويحدق به سياجٌ آخر من الرُّماةِ والرَّجَّالة[١]، فيعظم هيكل السرير ويصير فئةً للمقاتلة وملجأ للكرِّ والفرِّ.

وجعل ذلك الفرس أيَّام القادسية، وكانَ رُستم جالساً على سريرٍ نصبهُ لجلوسه، حتى اختلفت صفوفُ فارس، وخالطه العربُ في سريره ذلك، فتحولُ عنه إلى الفرات وقُتل.

وأمَّا أهل الكرِّ والفرِّ من العرب وأكثر الأمم البدوية الرَّحَّالة فيصُفّون لذلك إبلهم والظَّهْر الذي يحملُ ظعائنهم فيكونُ فئةً لهم، ويُسمُّونها **المجبوذة**. وليسَ أمةٌ من الأمم إلاَّ وهيَ تفعلُ ذلك في حُرُوبها، وتراهُ أوثقَ في الجولة، وآمنَ من الغرَّة والهزيمة. وهو أمرٌ مشاهدٌ.

وقد أغفلته الدولُ لعهدنا بالجملة، واعتاضُوا عنه بالظَّهْر الحاملِ للأثقال والفَساطيط، يجعلونها ساقة من خلفهم، ولا تغنيَ غناء الفيلة والإبل. فصارت العساكر بذلك عُرْضَةً للهزائم، ومستشعرةً للفرار في المواقف.

وكان الحربُ أول الإسلام كلهُ زحفاً. وكان العرب إنَّما يعرفون الكرَّ والفرَّ. **لكن حملهم على ذلك** أول الإسلام أمران:

أحدهما: أنَّ أعداءهم[٢] كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مَقاتلتهم بمثل قتالهم.

الثَّاني: أنهم كانوا مُستَميتين في جهادهم، لما رغبوا فيه من الصَّبر، ولما رسخ فيهم من الإيمان. والزحفُ إلى الاستمَاتَة أقربُ.

وأوَّلُ من أبطلَ الصَّفَّ في الحروب وصَارَ إلى التَّعبئة كراديس: مروانُ بنُ الحكم في قتالهم الضَّحَّاك الخارجيّ والخَيْبَريِّ[٣] بعده.

قال الطَّبَري[٤] لَمَّا ذكر قتال الخيبري: فولَّى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليَشْكُري ويُلقَّب أبا الذّلفَاء[٥] قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطلَ الصفّ من يومئذ. انتهى.

فتُنوسي قتال الزَّحف بإبطال الصَّف، ثُمَّ تُنوسي الصّفُّ وراء المقاتلة بما داخل الدول من التَّرَف. وذلك أنَّها حينما كانت بدويةً وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النِّساء والولدان معهم [ظ١١٩/١] في الأحياء، فلما حصلوا على ترف الملك

---

١ – المشاة.

٢ – في ن: (عدوهم).

٣ – في المطبوعات: الحبيري والجبيري.. وكلاهما خطأ. وهو سعيد بن بهدل الخيبري أخباره في تاريخ الطبري (٣١٦/٧ و٣٢٢ و٣٤٦ و٣٤٧ و٣٤٩ و٣٥٢)

٤ – تاريخ الطبري: (٣٤٧/٧ و٣٤٩) بتصرف.

٥ – في الطبري: الدلفاء بالدال المهملة.

وألفوا سُكنى القصور والحواضر، وتركوا شأن البادية والقفرَ نسوا لذلك عهد الإبل والظّعائنِ، وصعُب عليهم اتخاذها، فخلّفوا النساءَ في الأسفار، وحملهم الملك والتّرف على اتخاذ الفسَاطيط والأخبية، فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية[١]. وكان ذلك صفتهم في الحربِ. ولا يغني كل الغناء لأنّه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال. فيخف الصبر من أجل ذلك، وتصرفهم الهيعات[٢] وتخرم صفوفهم.

١-٣-٣٧-٣- فَصْلٌ

وَلِما ذكرناه من ضرب المصافِّ وراء العساكر وتأكده في قتال الكرِّ والفرِّ، صار ملوك المغرب **يتخذون طائفة من الإفرنج في جندهم**، واختصُّوا بذلك لأنَّ قتال أهل وطنهم كلّه بالكرِّ والفرِّ. والسُّلطان يتأكد في حقّه ضرب المصاف ليكون ردءاً للمقاتلة أمامه، فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصَّفِّ من قوم متعودين للثبات في الزحف، وإلا أجفَلوا[٣] على طريقة أهل الكرِّ والفرِّ، فانهزم السُّلطان والعساكر بإجفالهم، فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتّخذوا جنداً من هذه الأمة المتعوّدة الثبات في الزحف وهم الإفرنج، ويرتبون مصافّهم المحدق بهم منها. هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر. وإنما استخفوا ذلك للضرورة التي أريناكها من تخوف الإجفال على مَصَافّ السُّلطان. والإفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك، لأنَّ عادتهم في القتال الزحفُ، فكانوا أقوم بذلك من غيرهم. مع أنّ الملوكَ في المغرب إنَّما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربرَ وقتالهم على الطّاعةِ؛ وأمَّا في الجهادِ فلا يستعينون بهم حذراً من ممالأتهم على المُسلِمينَ. هذا هو الواقعُ بالمغربِ لهذا العهد، وقد أبدينا سببه. ﴿وا لله بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيْمٌ﴾[البقرة: ٢٨٢، آل عمران: ١٧٦، النور: ٣٥، الحجرات: ١٦، التغابن: ١١].

١-٣-٣٧-٤- فَصْلٌ

وَبَلَغنا أنَّ **أمم الترك** لهذا العهد **قتالهم مناضلةٌ بالسِّهامِ**، وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصَافِّ، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف، يضربون صفّاً وراء صَفٍّ، ويترجّلون عن خيولهم، ويفرغون سهامهم بينَ أيديهم، ثُمَّ يتناضلون جلوساً، وكل صف ردءٌ للذي أمامه أن يكبِسَهُم العدو، إلى أن يتهيأ النصرُ لإحدى الطّائفتين على الأخرى، وهي تعبئة محكمة غريبة.

---

١ – علق الهوريني على الكلمة بقوله: مراده بالأبنية الخيام، كما يدل له في قوله في فصل الخندق الآتي قريباً إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم.

٢ – الهيعة: كل ما أفزعك من صوت أو غيره.

٣ – أجفل القوم: أسرعوا في الهرب.

١-٣-٣٧-٥ فصلٌ

وَكَانَ من مَذَاهِبِ الأُوَل في حروبهم حفرُ **الخنادق** على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذراً من مَعَرَّةِ البياتِ[١] والهجومِ على العسكَر بالليلِ لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوفِ، فيلوذُ الجيشُ بالفرار، وتجد النفوس في الظُّلمة ستراً من عاره، فإذا تساووا في ذلك أُرْجِفَ[٢] [ظ٢/١١٩] العسكر ووقعت الهزيمة. فكانوا لذلك يحتفرون الخنادقَ على معسكَرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم، ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم، حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا.

وكانت للدُّول في أمثال هذا قُوَّةٌ وعليه اقتدارٌ باحتشاد الرجالِ وجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازِلهم، بما كانوا عليه من وفورِ العمرانِ وضخامة الملك. فلما خربَ العمران وتبعه ضعفُ الدَّول[٣] وقلَّة الجنود وعدم الفَعَلَةِ نسِيَ هذا الشَّأنُ جُمْلَةً كأنَّهُ لم يكن. واللهُ خيرُ القَادِرين.

وانظُرْ **وصيةَ عليٍّ** رضي الله عنه وتحريضَه لأصحابه يوم صِفِّينَ تجد كثيراً من علم الحربِ ولم يكن أحداً أبصر بها منه[٤].

قال في كلام له: فَسَوُّوا صفوفَكم كَالْبُنْيَان الْمَرْصُوْص. وَقَدِّموا الدَّارِعَ[٥]، وأَخِّروا الحاسِرَ[٦]، وعَضُّوا على الأضراسِ؛ فإنه أنبى للسُّيوف عن الهام[٧]. والتَووا على أطْرَافِ الرِّماحِ، فإنَّهُ أصْوَنُ للأَسِنَّة. وغُضوا الأبْصَارَ؛ فإنه أربطُ للجأش، وأسكَنُ للقُلُوبِ. وأخفِتوا الأصوات، فإنه أطْرَدُ للفَشَلِ وأوْلَى بالوقَار. وأقيموا رَاياتكم فلا تمِيْلُوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شُجعَانكم. وَاسْتَعِيْنُوا بالْصِّدْقِ وَالْصَّبْر؛ فإنَّهُ بقدر الصَّبْرِ ينزلُ النَّصْرُ.

وقال الأَشْتَرُ يومئذٍ يحرضُ الأزدَ: عضُّوا على النَّواجذِ مِنَ الأَضْرَاسِ. وَاسْتَقْبِلُوا الْقَوْمَ بهَامِكم. وَشُدُّوا شدَّةَ قوم موتورينَ يَثأَرُونَ بآبائهم وإخوانهم، حناقاً على عدوهم، وقد وَطَّنوا على الموت أنفسهمْ لئلا يُسبقوا بوِتْرٍ[٨]، ولا يلحقهم في الدُّنيا عارٌ.

---

١ – الإيقاع بالعدو ليلاً.
٢ – من معاني الإرجاف: الاضطراب والزلزلة.
٣ – في ن: (الدولة).
٤ – انظر الكامل للمبرد ١/١٠ – ١٤. طبعة التقدم.
٥ – لابس الدرع.
٦ – من لا درع له.
٧ – الهامة من الشخص: رأسه، وجمعه هام.
٨ – الوِتْر: الثأر.

وقد أشارَ إلى كثيرٍ من ذلك أبو بكر الْصَّيْرَفِيّ شَاعِرُ لَمتونـةَ وَأَهْـلِ الأنْدَلُسَ في كلمةٍ يمدحُ بها تَاشَفِينَ بن عَليّ بن يُوسُف، وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ في حربٍ شَهِدَهَا، وَيُذَكِّره بأمور الحربِ في وَصَايا وتحذيراتٍ تنبهك على معرفة كثيرٍ من سياسة الحربِ يقول فيها:

يَـا أَيُّهَـا الْمَـلأُ الَّـذِي يَتَقَنَّـعُ ... مَـنْ مِنكُـم المَلِـكُ الْهُمَـامُ الأَرْوَعُ

وَمَنِ الَّذِي غَـدَرَ العَـدُوُّ بـه دُجًـى ... فَـانْفَضَّ كُـلٌّ وَهْـوَ لاَ يَـتَزَعْزَعُ

تَمْضِـي الْفَـوَارِسُ وَالطِّعَـانُ يَصُدُّهَـا ... عَنْـهُ وَيُذْمِرُهَـا الْوَفَـاءُ فَـتَرجعُ

وَاللَّيْـلُ مـن وَضَحِ الـتَّرَائِكِ[1] إنَّـهُ ... صبـحٌ عَلَـى هَـام الجُيُـوش يُلَمِّـعُ

أَنَّـى فزعتـم يَـا بَنِـي صِنْهَاجَـةٍ ... وَإِلَيْكُـمُ في الْـرَّوْع كَـان المَفـزَع

إِنْسَـانُ عَيْـنٍ لَـمْ يُصِبْهَـا مِنْكُـم ... حَضْـنٌ وَقَلْـبٌ أَسْـلَمتهُ الأَضْلَـعُ

وَصَدَدْتُـم عَـنْ تَاشِـفِينَ وأنَّـه ... لِعِقَابِـهِ لَـوْ شَـاءَ فِيْكُـم مَوْضِـع

مَـا أَنْتُـمُ إلاَّ أُسُـودُ خَفِيَّـةٍ[2] ... كُـلٌّ لكـلِّ كَرِيهَـة مُسْـتطلعُ

يَـا تَاشِـفِينُ أَقِـمْ لِجَيْشِـكَ عُـذْرَه ... بِـاللَّيْلِ وَالْعُـذْرِ[3] الَّـذِي لا يُدْفَـع

وَمِنْهَا فِي سِيَاسَةِ الْحَرْبِ [ظ١٢٠/١]:

أُهْدِيْـكَ مـن أدبِ الْسِّيَاسَةِ مَـا بـه ... كَـانَتْ مُلُوكُ الْفُـرْسِ قبلـكَ تُوْلَـع

لاَ أَنَّـنِي أَدْرَى بِهَـا لَكِنَّهـا ... ذِكْـرَى تحـضُّ الْمُؤْمِنِـينَ وتنفَـعُ

وَالْبَس من الحَلَـقِ[4] الْمُضَاعفةِ الَّـتِي ... وَصَّى بِهَـا صِنْـعُ الْصَّنَـائعِ[5] تُبَّـعُ

وَالْهِنْدُوانِـيّ[6] الرَّقِيـقُ فإنَّـهُ ... أَمْضَى عَلَى حَدِّ الـدِّلاَصِ[7] وَأَقطع

---

١ – من معاني التريكة كسفينة: بيضة الحديد تلبس في الحرب.

٢ – الخفية كغنية: الغيضة الملتفة الأشجار.

٣ – في ن: والقدر.

٤ – الحلقة: الدرع... وجمعه حلق.

٥ – يقال: رجل صنع اليدين بالكسر وصنع اليدين وصناعهما أي: حاذق في الصَّنعة.

٦ – السيف الهندواني بكسر الهاء وضمها منسوب إلى الهند.

٧ – يقال: درع دلاص ككتاب ملساء لينة. والمعنى: أن السيف الهندواني أقوى السيوف على قطع الدروع وأمضاها على حدها.

وَارْكَب منَ الخيلِ السَّوابق عُدَّة ... سِيَّانُ تَتْبَع ظَافراً أو تُتْبَع
خَنْدِق عَلَيْكَ إذا ضَربت محلَّةً ... حِصْناً حَصِيناً ليسَ فيه مَدْفَعُ
وَالْوَادِ لا تَعْبُرْهُ وَانْزِلْ عندَهُ ... بينَ العَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يقطعُ
واجْعَلْ مُنَاجزَة الجُيُوش عَشِيَّةً ... وَوَراءَكَ الصَّدَفُ[8] الَّذِي هو أمنعُ
وَإذَا تَضَايقتِ الجُيُوشُ بمعرك ... ضَنْكٍ فأطْرَافُ الرِّماحِ تُوَسِّعُ
وَاصْدِمْهُ أَوَّل وهلَةٍ لا تكترثْ ... شَيئاً فَإِظْهَارُ النُّكولِ يُضَعْضِع
وَاجْعَلْ منَ الطُلاَّعِ[9] أهلَ شَهامةٍ ... لِلْصِّدْقِ فِيْهم شِيْمَةٌ لاَ تَخْدَع
لاَ تَسْمَع الكَذَّاب جَاءَك مُرْجِفاً ... لاَ رَأْيَ للكذَّاب فيما يَصنعُ

قوله:

وَاصْدِمهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لا تكترث

البيت مخالف لما عليه النَّاسُ في أمر الحربِ. فقد **قال عمرُ** لأبي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولاَّه حرب فارس والعراق فقال له: اسْمَع وَأَطِعْ من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأشْركهم في الأمْر، ولاَ تُجيبنَّ مسرعاً حتى تَتَبَيَّنَ، فإنَّها الحربُ! وَلاَ يصلُحُ لها إلاَّ الرَّجلُ المكيثَ[1] الذي يعرفُ الفُرْصة والكفَّ.

وقال له في أخرى: إنَّهُ لن يمنعني أنّ أؤمّر سَلِيطاً[2] إلاَّ سُرْعَتُهُ في الحربِ، وفي التَّسرُّع في الحرب إلا عن بيانٍ ضَيَاعٌ. والله لولا ذلك لأمَّرتهُ. لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث.

هذا كلامُ عمر؛ وهو شاهدٌ بأن التَّثاقل في الحرب أولى من الخُفُوْفِ[3]، حتى يتبين حال تلكَ الحرب، وذلك عكسُ ما قاله الْصَّيْرَفِيُّ، إلاَّ أن يريْدَ أنَّ الصَّدم بعد البَيَان[4]، فله وجهٌ. والله تعالى أعلم.

٨ - في جميع النسخ: الصدق. بالقاف، وهو تحريف، وصوابه الصدف. والصدف منقطع الجبل أو ناحيته وكل شيء مرتفع من حائط ونحوه. والمعنى: لتناجز الأعداء ووراءك ما يحمي ظهرك من جبل ونحوه. أو لعلَّ الكلمة محرفة عن الصَّف أي: لتناجز الأعداء ووراءك صف منيع من الجيش يحمي ظهرك.د. وافي.

٩ - الطليعة القوم يبعثون أمام الجيش يتعرفون طلع العدو. أي: خبره والجمع طلائع.

١ - المكيث: الرزين الذي لا يعجل.

٢ - هو سليط بن قيس الأنصاري، صحابي، قتل يوم جسر أبي عبيد الثقفي بالعراق. انظر ترجمته في أسد الغابة (٤٤١/٢).

٣ - خف إلى العدو خفوفاً: أسرع.

١-٣-٣٧-٦- فصلٌ

وَلاَ وثوقَ في الحربِ بالظَّفر وإن حَصَلت أسبابه من العدة والعديد، وإنَّمـا الظَّفـر فيهـا والغَلَبَ من قَبيْلِ البخت(١) والاتِّفاق.

وبيان ذلكَ: أنَّ أسْبابَ الغَلَـب في الأكْثَرِ مجتمعةٌ مـن **أمـور ظاهرة**، وهـي: الجيـوش ووفورها، وكمالُ الأسْلحة واستجادتها، وكثَرة الشُّجعان وترتيبُ المصافّ، ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك.

ومن أمور خفية وهي: **إمَّا** من خِدَعِ البشر وحيلهم في الإرْجَـافِ والتَّشَـانِيع الـتي يقـع بها التَّخذيل، وفي التَّقدُّم إلى الأماكنِ المرتفعة، ليكونَ الحربُ من أعلـى فيتوهـم المنخفـض لذلك، وفي الكُمُون في الغياض(٢) ومطمئـن الأرض، والتَّـواري بـالكُدى(٣) عـن(٤) العـدوّ حتى يتداولهم [ظ ٢/١٢٠] العَساكرُ دفعة وقـد تورّطـوا فَيَتَلَمَّمُـون(٥) إلى النَّجـاةِ، وأمثـال ذلك. **وإمَّا** أن تكون تلك الأسباب الخفيَّةِ أموراً سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب، فيستولي الرَّهَبُ عليهم لأجلها فتختلّ مراكزهم فتقع الهزيمة. وأكـثر مـا تقـع الهزائم عن هذه الأسباب الخفيَّةِ لكثرة ما يعتمَلُ لكلِّ واحدٍ من الفريقين فيها حرصـاً علـى الغَلَبِ، فلا بدّ من وقوعِ التأثير في ذلك لأحدهما ضـرورة. ولذلـك قـال صلـى الله عليـه وسلم: «**الْحَرْبُ خدْعَة**(٦)»(٧).

ومن أمثال العرب: **رُبَّ حيلةٍ أنفعُ من قبيلة.**

فقد تبين أن وقوع الغلب في الحـروب غالبـاً عـن أسباب خفيـة غـير ظـاهرة، ووقـوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه. فاعتبره، وتفهَّم ــ مـن وقوع الغلب عن الأمور السَّـماوية كمـا شـرحناه ــ معنى قولـه صلـى الله عليـه وسـلم:

---

٤ – أي بعد عرض البيان الشرعي من الإسلام أو الجزية أو الحرب.

١ – في ن: البحث.

٢ – الغيضة: البستان كثير الشجر.

٣ – الكدية: الأرض الصلبة، والجمع كدى مثل مدية ومدى.

٤ – في ن: (حول).

٥ – يتلممون: أي يجتمعون بعد التفرق. وقال الدكتور وافي: هي تحريف عن: فيتلفتون.

٦ – قال الخطابي في معالم السنن (٢٢٦٩): معناه: إباحة الخداع في الحرب وإن كان محظوراً في غيرها من الأمور، وهذا الحرف يروى على ثلاثة أوجه: خدعة بفتح الخاء وسكون الدال، وخدعة بضم الخاء وسكون الدال، وخدعة الخاء مضمومة والدال منصوبة، وأصوبها خدعة. قلت: القائل الخطابي: معنى الخدعة أنها هي مرة واحدة، أي: إذا خدع المقاتل مرة واحدة لم يكن له إقالة، ومن قال: خدعة، أراد الاسم كما يقال: هذه لعبة، ومن قال: خدعة بفتح الدال، كان معناه أنها تخدع الرجال وتمنيهم، ثم لا تفي لهم كما يقال: رجل لعبة، إذا كان كثير التلعب بالأشياء.

٧ – أخرجه البخاري (٣٠٣٠) ومسلم (١٧٣٩) وأبو داود (٢٦٣٦) والترمذي (١٦٧٥) من حديث جابر.

«نُصِرْتُ بِالْرُّعْبِ مَسِيْرَةَ شَهْرٍ»[1]. وما وقعَ من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل، وغلبَ المُسلمين من بعدهِ كذلكَ في الفتوحاتِ. فإنَّ الله سبحانه وتعالى تكفَّلَ لنبيِّه بإلْقَاء الْرُّعبِ في قلوبِ الكافرينَ حتى يَسْتَوْلِيَ على قلوْبهم فينهزموا معجزةً لرسوله صلى الله عليه وسلم، فكان الرعبُ في قلوبهم سبباً للهزائمِ في الفتوحاتِ الإسْلاَمِيَّةِ كلها، إلا أنَّهُ خفيَ عن العُيُون.

وقد ذكر **الطَّرْطُوْشِي**: أنَّ من أسْبَابِ الغلب في الحروبِ أن تفضل عدَّةُ الفرسان المشاهير من الشُّجْعَان في أحدِ الجَّانبين على عدَّتهم في الجانبِ الآخرَ، مثل أن يكون أحد الجَّانبين فيه عشرةٌ أو عشرون من الشُّجعان المشاهير، وفي الجانب الآخرَ ثمانية أو ستة عشر فالجَّانبُ الزَّائدُ ولو بواحدٍ يكون له الغلبُ؛ وأعاد في ذلك وأبدى؛ وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا، وليس بصحيح.

وَإنما الْصَّحيحُ المعتبرُ في الغلبِ حال العصبيَّةِ: أن يكون في أحد الجَّانبين عَصَبِيَّةٌ واحدة جامعةٌ لكلِّهم، وفي الجانب الآخر عَصَائب متعددةٌ، لأنَّ العصائبَ إذا كانت متعددة يقع بينها من التَّخاذل ما يقعُ في الوحدان المتفرِّقين الفاقدين للعصبية، تنزل[2] كل عصابة منهم منزلة الواحد، ويكون الجانبُ الذيَ عصابته متعددة لا يقاوم الجانبُ الذي عصبته[3] واحدة لأجل ذلك فتفهمه.

واعلم أنه أصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطَّرْطُوشي، ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصبية في جيله[4] وبلده، وأنَّهم إنما يردون[5] ذلك [ظ١/١٢١] الدِّفاع والحماية والمطالبة إلى الوحْدان والجماعةِ النَّاشئة عنهم، لا يعتبرون في ذلك عَصَبِيَّة ولا نسباً. وقد بيَّنا ذلك أول الكتابِ، مع أنَّ هذا وأمثاله على تقدير صحَّته إنَّما هو من الأسباب الظَّاهرة مثل اتِّفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرةِ الأسلحة وما شابهها[6]؛ فكيفَ يجعل ذلك كفيلاً بالغلب؟ ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئاً منها لا يُعارضُ الأسباب الخفيّة من

---

١ – أخرجه البخاري (٣٣٥ و٤٣٨ و٣١٢٢) ومسلم (٥٢١) وابن حبان (٦٣٩٨) من حديث جابر بن عبد الله.

٢ – في ن: (إذا تنزل).

٣ – في ن: (عصبيته).

٤ – في ن: (حلته). و(حله).

٥ – في المطبوع: (يرون). بمعنى يرجعون الأمر إلى ذلك. وقد أشكل ذلك على الدكتور وافي وقال:أظنها محرفة عن (يردون). وقد صدق ظنه إذ هي كذلك في ظ.

٦ – في ن: (وما أشبهها).

الحيلِ والخِدَاعِ، ولا الأمور السَّماوية من الرُّعب والخذلان الإلهي. فافهمه وتفهم أحوال الكون. وا لله مقدِّر الليل والنَّهار.

١-٣-٣٧-٧- فَصْلٌ

ويلحقُ بمعنى الغَلَب في الحروب وأن أسبابه خفيّة وغير طبيعيّة حال الشُّهْرَةِ والصِّيْتِ. فقلَّ أن تصادف موضعها في أحد من طَبَقَاتِ النَّاس من الملوكِ والعلماء والصَّالحين والمُنتحلين للفضَائلِ على العُمومِ، وكثيرٍ ممن اشتهرَ بالشَّرِّ وهو بخلافه، وكثير ممَّن تَجَاوَزَت عنه الشُّهْرَة وهو أَحقُّ بها وأهلُها. وقدْ تَصَادفَ موضِعهَا وتكونُ طبقاً على صَاحبها.

وَالسَّبَبُ في ذلك: أنَّ الشُّهرةَ والصيتَ إنّما هما بالأخبار، والأخبارُ يدخلها الذهولُ عن المقاصدِ عند التَّناقُل، ويدخلها التَّعصُّبِ والتَّشيُّع، ويدخلهَا الأوهامُ، ويدخلها الجهلُ بمطابقةِ الحكايات للأحوال، لخفائها بالتَّلبيس[1] والتَّصنّعِ أو لجهل النَّاقل، ويدخلها التَّقرُّب لأصحاب التَّجلَّةِ والمراتبِ الدُّنيويَّةِ بالثَّناء والمَدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، والنفوسُ مولعةٌ بحب الثَّناء، والنَّاس متطاوَلون إلى الدُّنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضَائل ولا متنافسين[2] في أهلها، وأينَ مطابقة الحقّ مع هذه كلّها؟ فتختلّ الشهرةُ عن أسباب خفية من هذه، وتكونُ غير مطابقة، وكل ما حصلَ بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه **بالبخت** كما تقرر. وا لله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

---

١ - في ن: (بالتلبس).

٢ - في ن: (منافسين).

١-٣-٣٨- فَصْلٌ
في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

اعلم أنَّ الجباية أوَّلَ الدَّولةِ تكونُ قليلة الوزائع[١] كثيرة الجملة، وآخرَ الدَّولةِ تكونُ كثيرة الوزائع قليلةَ الجُملة[٢].

والسبب في ذلك: أنَّ الدَّولةَ إن كانت على سنن الدِّين فليست تقتضي إلا المغارمَ الشَّرْعِيَّةَ من الصَّدقات والخراجِ والجزية، وهي قليلةُ الوزائع، لأن مقدار الزَّكاة من المال قليلٌ كما علمت، وكذا زكاة الحبوبِ والماشية، وكذا الجزية والخراجُ وجميعُ المغارمِ الشَّرعِيَّةِ، وهي حدود لا تتعدَّى.

وإن كانت على سننِ التَّغَلُّبِ والْعَصَبِيَّةِ فلا بدَّ من البداوةِ في أوَّلها كما تقدم، والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمةَ وخفض الجناحِ والتَّجافي عن أموال النَّاسِ، والغفلةِ عن تحصيل ذلك إلا في النَّادر، فيقل لذلك مقدارُ الوظيفةِ [ظ١٢١/٢] الواحدَة والوزيعة التي تجمع الأموال من مجموعها. وإذا قلَّت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغِبوا فيه، فيكثرُ الاعتمادُ ويتزايد، لحصول[٣] الاغتباط[٤] بقلَّةِ المغرَمِ، وإذا كثر الاعتمارُ كثرت أعدادُ تلك الوظائفِ[٥] والوزائع، فكثرة الجِبَايةِ التي هي جملَتها. فإذا استمرَّت الدولة واتَّصلت، وتعاقبَ ملوكها واحداً بعد واحدٍ واتَّصفُوا بالكيس، وذهب شر البداوة والسَّذَاجة وخلُقُها من الإغضاءِ والتَّجافي، وجاء الملكُ العضُوض والحضارة الدَّاعية إلى الكَيْس، وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التَّحَذْلُق[٦] وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النَّعيم والتَّرَف، فيكثِّرون الوَظَائِف والوَزَائِع حينئذٍ على الرَّعايا والأَكَرَةِ[٧] والفلاَّحين وسائر أهل المغارمِ، ويزيدون في كل وظيفةٍ ووزيعةٍ مقداراً عظيماً لتكثرَ لهم الجباية، ويضعون المَكوسَ على المبايعاتِ وفي الأبواب كما نذكر بعد، ثم تتدرَّجُ الزِّيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرُّج عوائد الدَّولةِ في التَّرَفِ وكثرةِ الحاجاتِ والإنفاق

---

١ - جمع وزيعة وهو ما يتوزع على الأشخاص.

٢ -أي أن مقدار الضرائب المفروضة على الأشخاص والممتلكات يكون ضئيلاً، ولكن مجموعها يكون كثيراً لكثرة من يؤديها وقلة من يطلبها؛ فإذا ارتفع مقدار الوزيعة الواحدة عن الحد المعقول، عجزت أغلبية السكان عن أدائها، فيكون بمجموعها قليلاً لا يفي بالمتطلبات لكثرة المصاريف. (العصبية والدولة: ٤٧٣ بتصرف).

٣ - في ن: (محصول).

٤ - الغبطة: حسن الحال والاغتباط:التبجح بالحال الحسنة.

٥ - جمع وظيفة، وهي ما يفرض على الشخص بعينه من الضرائب.

٦ - حذلق: أظهر الحذق أو ادَّعى أكثر مما عنده كتحذلق.

٧ - الأكار: الحراث والجمع أكرة. وهم المزارعون.

بسببه، حتى تثقلَ المغارمَ على الرَّعايا وتَهضَّمُهُم[١] وتصير عادةً مفروضة، لأنَّ تلك الزِّيادة تدرجت قليلاً قليلاً، ولم يشعرِ أحدٌ بمن زادها على التَّعيين، ولا من هو واضعها، إنَّما تثبت على الرَّعايا، كأَنَّها عادةٌ مفروضةٌ، ثمَّ تزيدُ إلى الخروجِ عن حدِّ الاعتدال فتذهب غبطةُ الرَّعايا في الاعتمارِ لذهابِ الأملِ من نفوسهم بقلَّةِ النَّفعِ، إذا قابلَ بينَ نفعه ومغارمه، وبينَ ثمرته وفائدته، فتنقبضُ كثيرٌ من الأيدي عن الاعتمار جملةً، فتنقصُ جملة الجباية حينئذٍ بنقصان تلك الوزائع منها. وربَّما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبراً لما نقصَ، حتَّى تنتهي كلُّ وظيفة ووزيعةٍ إلى غايةٍ ليس وراءها نفعٌ ولا فائدة، لكثرةِ الإنفاق حينئذٍ في الاعتمار، وكثرةِ المغارمِ، وعدمِ وفاء الفائدةِ المرجوَّةِ به، فلا تزال الجملةُ في نقص، ومقدارُ الوزائع والوظائفِ في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها، إلى أن ينتقضَ العُمران بذهاب الآمال من الاعتمار، ويعودَ وبالُ ذلك على الدَّوْلَةِ، لأنَّ فائدة الاعتمار عائدةٌ إليها.

وإذا فهمتَ ذلك علمتَ أنَّ **أقوى الأسباب في الاعتمار تقليلُ مقدارِ الوَظَائفِ على المعتمرين ما أمكن**، فبذلك تنبسطُ النُّفوسُ إليه لِثقتها بإدارةِ المنفعةِ فيه. واللهُ سبحانهُ وتعالى مالكُ الأمور كلِّها، و﴿بِيَدِهِ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيءٍ﴾[يس: ٨٣].

---

١ – في ن: وتنهضم. وتهضَّمه: فهو هضيم، أي: مظلوم ومنصوب.

١-٣-٣٩- فَصْلٌ
في ضَرْبِ المُكُوْسِ أوَاخر الدَّوْلَةِ

اعلم: أنَّ الدولة تكون في أولها بدَوِيَّةً كما قلنـا، فتكـونُ لذلـك قليلـةَ الحاجـاتِ لعـدم التَّرَفِ وعوائدهِ، فيكونُ خَرْجُها وإنفاقُها [ظ١٢٢/١] قليلاً، فيكونُ في الجباية حينئذٍ وفاءٌ بأزيدَ منها، بلِ يفضلُ منها كثيرٌ عن حاجاتهم.

ثُمَّ لا تلبثُ أن تأخذَ بدينِ الحضـارةِ في الـترفِ وعوائدهـا، وتجـري علـى نهـجِ الـدُّولِ السَّابقةِ قبلها، فيكثر لذلك خَراج أهل الدَّولةِ، ويكـثر خـراجُ السُّلطان خصوصـاً، كـثرةً بالغةً بنفقته في خاصَّته، وكثرة عطائه، ولا تفي بذلك الجبَاية.

فتحتاجُ الدولةُ إلى الزِّياد في الجبايـة لمـا تحتـاج إليـه الحَاميـة مـن العَطَـاء والسُّلْطَان مـنَ النَّفَقَةِ، فيزيدُ في مقدارِ الوظائف والوزائـع أوّلاً كمـا قلنـاه، ثـم يزيـد الخَـراجُ والحاجـاتُ والتدريجُ في عوائد التَّرفِ وفي العطاء للحامية. ويُدْرِكُ الدولة الهَرَمُ، وتضعفُ عصَابتها عن جباية الأموال مـن الأعمـالِ والقَاصِيَـةِ، فَتَقِـلُّ الجبايَـة وعطـاؤهـم، فتكـثر العوائـدُ، ويكـثر بكثرتها أرزاقِ الجند وعطاؤهم.

فيستحدثُ صاحب الدَّولة أنواعاً من الجباية يضربها على البيَاعات، ويفرض لهـا قـدراً معلوماً على الأثمان في الأسواق، وعلى أعيان السِّلع في أموال المَدينةِ. وهو مع هذا مضطـرٌ لذلك بما دعاهُ إليهَ ترفُ النَّاسِ من كثرةِ العطَاء مع[1] زيادة الجُيُوشِ والحامِيَةِ. ورُبَّما يزيـد ذلك في أواخر الدَّولةِ زيادةً بالغة، فتكسدُ الأَسواقُ لفسادِ الآمال، ويؤذن ذلك بـاختلال العُمْرَان، ويعودُ على الدَّوْلَةِ، ولا يزال ذلك يتزايدُ إلى أن تضمحلَّ.

وقد كان وقع منه بأمصار المشرقِ في أخريات الدَّولةِ العبَّاسيَّة والعُبيدية كثيرٌ، وفرضت المغـارم حتَّـى علـى الحـاجِّ في الموسَم، وأسـقط صـلاح الديـن أيـوب تلـك الرُّسـومَ جملـةً وأعاضها بآثار الخير.

وكذلك وقـع بـالأندلس لعهـد الطَّوائـف حتـى محـا رسمـه، يوسـف بـن تَاشَفين أمـيرُ المرابطين.

وكذلك وقعَ بأمصار الجَرِيد بإفريقيَّة لهذا العهد حين استبدَّ بها رؤساؤها. والله تعـالى أعلم.

---

١ – في ن: من.

١-٣-٤٠- فَصْلٌ
في أنَّ التِّجَارَةَ من السُّلطان مُضِرَّةٌ بالرعايا مُفْسِدَةٌ للجباية

اعلم: أنَّ الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من التَّرَفِ وكثرةِ العوائد والنفقات، وقصَّرَ الحاصلُ من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها، واحتاجت إلى مزيد المالِ والجباية، **فتارةً** توضع المكوسُ على بياعاتَ الرَّعايا وأسواقهم، كما قدَّمنا ذلك في الفصلِ قبله، **وتارةً** بالزيادة في ألقابِ المكوسِ إن كان قد استحدث من قبل؛ **وتارةً** بمقاسمة العمَّال والجباة، وامتكاك[1] عظامهم، لما يرونَ أنَّهم قد حصلوا على شيءٍ طائلٍ من أموال الجباية لا يظهرهُ الحُسْبَانُ؛ **وتارةً** باستحداثِ التِّجارةِ والفلاحةِ للسُّلطان على تَسْمِيَةِ الجبَايَةِ[2]، لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد [ظ٢/١٢٢] والغلاَّت مع يَسَارة أموالهم، وأنَّ الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال. فيأخذون في اكتساب الحيوانِ والنَّبات لاستغلاله في شراء البضائع، والتَّعرُّضِ بها لحوالةِ الأسواق، ويحسبون ذلك من إدرارِ الجباية وتكثير الفوائد. وهوغلطٌ عظيمٌ، وإدخال الضَّرر على الرَّعايا من وجوه متعددة.

فأوّلاً: مضايقة الفلاحين والتُّجَّار في شراء الحيوان والبضائع وعدم تيسير أسباب ذلك، فإنَّ الرعايا متكافؤون، في الْيَسَار متقاربون، ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرُب، وإذا رافقهم السُّلطان في ذلك، وماله أعظم كثيراً منهم، فلا يكادُ أحدٌ منهم يحصل على غرضه في شيءٍ من حاجاته، ويدخل على النُّفوس من ذلك غمٌّ ونكد.

ثُمَّ إنَّ السُّلطان قد ينتزع الكثيرَ من ذلك إذا تعرَّضَ له غصْباً أو بأيسر ثمن، (إذ)[3] لا يجدُ من ينافسه[4] في شرائه، فيبخس ثمنه على بائعه.

ثُمَّ إذا حصل فوائدُ الفلاحة ومُغلُّها كله من زرعٍ أو حرير أو عسلٍ أو سكَّرٍ أو غيرِ ذلك من أنواعِ الغلاَّتِ، وحصلت بضائعُ التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالةَ الأسواقِ ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدَّولةِ، فيكلفونَ أهل تلكَ الأصنافِ من تاجرٍ أو فلاَّحٍ بشراء تلك البضائع، ولا يرضون في أثمانها إلا القِيَمَ وأزيد، فيستوعبون في ذلك ناضَّ[5] أموالهم، وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدة ويمكثون عُطَّلاً من التجارة التي فيها كسبُهم ومعاشهم. وربما تدعوهم الضَّرورةُ إلى شيءٍ من المالِ فيبيعون

---

١ - مكه وامتكه... امتصه جميعه.

٢ - أي: باسم الجباية أو كما نقول نحن: على أنها ضرائب غير مباشرة تجبى من المستهلكين.

٣ - في جميع النسخ: أو لا يجد. وهو تحريف كما لا يخفى.

٤ - نسخة: يناقشه.

٥ - النَّاض: الدرهم والدينار.

تلك السّلع على كساد من الأسواق بأبخسِ ثمنٍ. وربَّما يتكرَّرُ ذلك على التَّاجر والفلاح منهم بما يُذهبُ رأس ماله، فيقعد عن سوقه، ويتعدد ذلك ويتكرَّرُ، ويدخلُ به على الرَّعايا من العَنَتِ والمضايقةِ وفسادِ الأرْبَاحِ ما يقبض آمالهم عن السَّعي في ذلك جملةً ويؤدِّي إلى فساد الجباية، فإنَّ معظم الجباية إنَّما هي من الفلاَّحين والتّجَّار، ولا سيما بعد وضع المكوسِ ونموِّ الجباية بها؛ فإذا انقبضَ الفلاَّحونَ عن الفلاحةِ، وقعدَ التُّجَّارُ عن التِّجارة، ذهبت الجبايةُ جملة أو دخلها النقصُ المتفاحشُ[1].

وإذا قايسَ السُّلطانُ بينَ ما يحصلُ له من الجبايةِ وبينَ هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقلَّ من القليل. ثُمَّ إنَّهُ ولو كان مفيداً فيذهب له بحظٍّ عظيمٍ من الجباية فيما يعانيه من شراء و[2] بيع، فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس. ولو كان غيرهُ في تلك الصَّفَقَاتِ لكانَّ مكسُها[3] كلها حاصلاً من جهةِ الجباية. ثم فيه التعرضُ لأهل [ظ١٢٣/١] عُمرانه[4]، واختلال الدولةِ بفسادهم ونقصهم، فإنَّ الرعايا إذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتِّجارة نقصت وتلاشت بالنَّفَقَاتِ[5]، وكان فيها إتلافُ أحوالهم، فافهم ذلك.

وكان الفرسُ لا يُمَلِّكُون عليهم إلا من أهلِ بيت المملكة، ثُمَّ يختارونه من أهل الفضل والدِّين والأدبِ والسَّخاء والشَّجاعةِ والكرم، ثُمَّ يَشْتَرِطُوْنَ عليه مع ذلك العدلَ، وأن لا يتخذَ صنعةً فيضرُّ بجيرانهَ، ولا يتاجرُ فيحبُّ غلاءَ الأسعار في البضائعِ، وأن لا يستخدم العبيدَ فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة.

واعلم أنَّ السُّلْطَان لا يُنمي ماله ولا يدِرُّ موجودهُ إلا الجبايةُ؛ وإدْرَارهَا إنَّما يكونُ بالعدلِ في أهلِ الأموال، والنظر لهم بذلك؛ فبذلك تنبسط آمالهم، وتنشرحُ صدُورهم للأخذِ في تثمير الأموالَ وتنميتها، فتعظم منها جباية السلطان، وأمَّا غير ذلك من تجارة أو فلح فإنَّما هو مضرة عاجلة للرعايا، وفسادٌ للجباية، ونقصٌ للعمارة. وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلاَّت والسِّلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون،

١ – يعني أن حاشية السلطان بعد أن تحصل على السلع لا تعرضها في الأسواق لتسري عليها قوانين العرض والطلب، بل تستدعي التجار وتلزمهم بشرائها بأثمان باهظة، فتمتص بذلك أموالهم، وتبقى هذه البضائع جامدة بأيديهم، إذ لا يجدون من يشتريها منهم بأثمان مجزية فتتعطل تجارتهم التي فيها كسبهم ومعاشهم. (د. وافي).

٢ – في ن: أو.

٣ – في ن: تكسُّبُها.

٤ – في ظ: ثم في التعرض لفساد العمران واختلال الدولة بفساده ونقصه.

٥ – في ن: (النفقات).

ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا ما يفرضون من الثَّمن، وهذه أشدُّ من الأولى، وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم، وربما يحمل السلطان على ذلك من يُداخله من هذه الأصناف ، أعني: التجار والفلاحين ـ بما[١] هي صناعته التي نشأ عليها، فيحملُ السُّلطان على ذلك ويضربُ معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعاً، ولا سيَّما مع ما يحصل له من التجارة بلا مَغْرم ولا مكس، فإنها أجْدَرُ بنموِّ الأموال، وأسرعُ في تثميره، ولا يفهم ما يدخلُ على السلطان من الضرر بنقص جبايته، فينبغي للسلطان أن يحذرَ من هؤلاء، ويُعرض عن سِعَايتهم المضرة بجبايته وسلطانه. والله يلهمنا رشد أنفسنا، وينفعنا بصالحِ أعمالنا. لا رب غيره[٢].

١-٣-٤١- فَصْلٌ

في أنَّ ثروة السُّلطان وحاشيته إنما تكونُ في وسط الدولة

والسَّببُ في ذلك: أنَّ الجبايةَ في أوَّل الدَّولة تتوزع على أهل القبيلِ والعصبيَّةِ بمقدارِ غنائهم وعصبيتهم، ولأنَّ الحاجةَ إليهم في تمهيد الدَّولةِ كما قلناه من قَبل. فرئيسهم في ذلك متجافٍ لهم عما يَسمُون إليه من الجباية، معتاضٌ عن ذلك بما يرومُ من الاستبدادِ عليهم، فله عليهم عزة وله إليهم حاجة. فلا يُطيِّر[٣] في سهمانه من الجباية إلا الأقلّ من حاجته. فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالي مُمْلقينَ[٤] [ظ١٢٤/١] في الغالبِ، وجاههم متقلص لأنه من جاه مخدومهم، ونطاقه قد ضاقَ بمن يزاحمه فيه من أهل عصبيَّته.

فإذا استفحلت طبيعةُ الملك، وحصلَ لصاحب الدَّولة الاستبدادُ على قومه، قبضَ أيديهم عن الجبايات إلا ما يُطيَّر لهم بين النَّاس في سُهمانهم، وتقل حظوظهم إذ ذاك لقلة غنائهم في الدَّولةِ، بما انكبحَ من أعنتهم، وصار الموالي والصَّنائع مُسَاهمين لهم في القيام بالدَّولةِ وتمهيدِ الأمر، فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها، ويحتوي على الأموال ويحتجنُها[٥] للنَّفَقَاتِ في مهمَّات الأحوال، فتكثُرُ ثروته وتمتلىء خزائنه، ويتسع نطاق جاهه، ويعتزّ على سائر قومه، فيعظم حَالُ حاشيته وذويه، من وزير وكاتب وحاجب ومولًى وشُرْطيّ، ويتسع جاهُهم، ويقتنون الأموال ويتأثَّلونها[٦].

---

١ – في ن: لما.
٢ – في ن: بصالحِ الأعمال. والله تعالى أعلم. بصالحِ الأعمال. والله تعالى أعلم.
٣ – أطار المال وطيره: قسمه.
٤ – الملق: الفقير. وفي ن: (متملقين).
٥ – يختص نفسه بها.
٦ – أثَّل المال تأثيلاً: زكَّاه وأصَّله. وتأثل المال: اكتسبه.

ثمَّ إذا أخذت الدولةُ في الهرمِ بتلاشي العَصَبيَّةِ وفناء (القبيلِ الماهدين)[1] للدَّولـةِ احتـاجَ صاحبُ الأمرِ حينئذ إلى الأعوانَ والأنصـار. لكـثرة الخـوارجِ والمنـازعين والثّـوار، وتوهـمُّ الانتقاض، فصار خراجه لظُهرائه وأعوانه، وهم أربابُ السُّيوف وأهل العَصَبيَّـات، وأنفـقَ خزائنه وحاصله في مهمات الدولة، وقلَّت مع ذلـك الجباية لما قدَّمنـاه مـن كـثرةِ العطـاء والإنفاق، فيقلّ الخراجُ وتشتد حاجةُ الدولة إلى المـال، فيتقلّـص ظلُّ النّعمـة والـتَّرف عـن الخواصِّ والحُجَّابِ والكُتَّاب بتقلُّصِ الجاهِ عنهم، وضيق نطاقه على صاحبِ الدَّولةِ.

ثُمَّ يشتدُّ حاجةُ صاحب الدَّولةِ إلى المال، وتنفق أبناءُ البطانة والحَاشية مـا تأثّلـه آبـاؤهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحبَ الدَّولة، ويقبلون علـى غـير مـا كـان عليهـم آباؤهم وسلفهم من المناصحَةِ، ويرى صاحبُ الدَّولةِ أنه أحقُّ بتلك الأموالِ التي اكتسـبت في دولة سلفه وبجـاههم، فيصطلمهـا[2] وينتزعهـا منهـم لنفسـه شيئاً فشيئاً وواحـداً بعـد واحدٍ، على نسبة رُتبهم وتنكُّر الدَّولةِ لهم، ويعودَ وبالُ ذلك علـى الدَّولـةِ بفنـاء حاشـيتها ورجالاتها وأهلِ الثَّروة والنِّعمةِ من بطانتها، ويتقوَّض بذلك كثيرٌ من مبـاني المجَد بعـد أن يدعمه أهلهُ ويرفَعوه.

وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدَّولة العبَّاسية في بني قَحْطَبة، وبني بَرْمَك، وبني سَـهل، وبني طَاهِر، وأمثالهم في الدَّولةِ الأموية بالأندلس عند انحلالها أيَّـام الطوائـف في بـني شُـهَيد وَبَنِيِ أبي عبدَةَ وبَني حدَيرةَ وَبَنِي بـرد وأمثـالهم، وكـذا في الدَّولـةِ الـتي أدركناهـا لعهدنـا. ﴿سنة ا لله التي قد خلت في عباده﴾[غافر: ٨٥].

١-٣-١٤-١- فَصْلٌ

ولما يتوقعه أهلُ الدَّولة من أمثال هذه المعاطب، صار الكثير منهم يـنزعون [ظ١٢٤/١] إلى الفرار عن الرُّتب والتَّخلّص من ربقةِ السُّلطان بما حصل في أيديهم من مال الدَّولةِ إلى قطر آخر، ويرون أنه أهنأ لهم وأسلمَ في إنفاقه وحَصُول ثمرته. وهو من الأغلاطِ الفاحشةِ والأوهامِ المفسدة لأحوالهم ودنياهم.

واعلم: أنَّ الخلاصَ من ذلك بعد الحصُولِ فيه عسيرٌ ممتنعٌ. فـإنَ صـاحب هـذا الغرضِ إذا كان هو الملكُ نفسه، فلا تمكنه الرعيَّة منَ ذلك طرفة عين ولا أهل العصبيَّـةِ المزاحمـون له، بل في ظهورِ ذلك منه هدمٌ لملكهِ وإتلافٌ لنفسه بمجاريَ العادة بذلك؛ لأنَّ ربقةَ الملكِ يعسرُ الخلاصُ منَها، ولا سيّما عند استفحال الدَّولةِ وضيقِ نطاقهـا ومـا يعـرضُ فيهـا مـن

---

١ – في ن: (القليل المعاهدين).

٢ – الاصطلام: الاستئصال.

البعد عن المجد والخلال والتخلّق بالشّر. وأمّا إذا كان صاحبُ هذا الغرضِ من بطانةِ السُّلطان وحاشيته وأهل الرُّتبِ في دولته، فقلَّ أن يُخلّى بينه وبين ذلك.

أمّا **أوّلاً**: فلما يراه الملوكُ أن ذويهم وحاشيتهم ـ بل وسائر رعاياهم ـ مماليك لهم، مطّلعون على ذات صدورهم، فلا يسمحون بحلِّ ربقته من الخدمة ضنّاً بأسرارهم وأحوالهم أن يطّلعَ عليها أحدٌ، وغيرةً من خدمته لسواهم. ولقد كان بنو أميةَ بالأندلس يمنعون أهلَ دولتهم من السّفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العبّاس؛ فلم يحج سائر أيّامهم أحدٌ من أهل دولتهم، وما أبيح الحج لأهل الدُّول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأمويَّة ورجوعها إلى الطّوائف.

وأمّا **ثانياً**: فلأنهم وإن سمحوا بحلِّ ربقته هو فلا يسمحون بالتّجافي عن ذلك المال، لما يرون أنه جزءٌ من مالهم، كما يرون أنه جزءٌ من دولتهم، إذ لم يُكتسب إلا بها وفي ظلِّ جاهها؛ فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المالِ والتقامه كما هو جزءٌ من الدولةِ ينتفعون به.

ثمَّ إذا توهمنا أنه خلصَ بذلك المال إلى قُطْرٍ آخر، وهو في النّادر الأقلّ، فتمتد إليه أعين الملوك بذلك القطر وينتزعونه بالإرهابٍ والتّخويف تعريضاً أو بالقهر ظاهراً، لما يرون أنه مالُ الجباية والدول، وأنه مستحقٌّ للإنفاق في المصالح. وإذا كانت أعينهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش، فأحْرَى بها أن تمتدَّ إلى أموال الجباية والدُّول التي تجد السَّبيل إليه بالشَّرع والعادة. ولقد حاول **السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللّحياني** تاسع أو عاشر ملوك [ظ٢/١٢٤] الحفصيين بإفريقية الخروج عن عهدة الملك واللّحاق بمصرَ فراراً من طلبِ صاحبِ الثّغورِ الغربية لمّا استجمعَ لغزو تونس، فاستعمل اللِّحياني لرحلة إلى ثغرِ طرابلس يُوَرِّي بتمهيده، وركبَ السّفين من هنالك، وخلصَ إلى الإسكندرية بعد أن حملَ جميع ما وجده ببيت المال من الصّامتِ[1] والذخيرة، وباع كلَّ ما كان بخزائنهم من المتاعِ والعقارِ والجواهر، حتى الكتب، واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزلَ على **الملك النّاصر محمّد بن قلاون**، سنة سبع عشرة من المئة الثّامنة، فأكرمَ نزله ورفع مجلسه، ولم يزل يستخلصْ ذخيرته شيئاً فشيئاً بالتّعريض إلى أن حصل عليها ولم يبقَ معاشُ ابن اللِّحياني إلا في جرايته التي فرضت[2] له إلى أن هَلك سنة ثمان وعشرين حسبما نذكره في أخباره.

---

١ - الصامت من المال: الذهب والفضة.

٢ - في ن: فرضَ. أي: الملك الناصر.

فهذا وأمثاله من جملة الوسوَاس الذي يعتري أهل الدُّولِ لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب، وإنَّما يخلصون إن اتَّفقَ لهم الخلاصُ بأنفسهم، **وما يتوهمونه من الحاجةِ فغلط ووهم. والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرايات السُّلطانية أو بالجاهِ في انتحالِ طرقِ الكسبِ من التجارةِ والفلاحة**. والدول أنساب؛ لكن[1]:

النَّفْسُ راغِبَةٌ إذا رَغَّبتها وَإِذَا تُرَدُّ إلى قَلِيْلٍ تقْنَعُ

واللهُ سبحانه هو الرَّزاقُ، وهو الموفِّقُ بمنّه وفضله، والله أعلم.

١-٣-٢-٤٢- فَصْلٌ
في أَنَّ نَقْصَ الْعَطَاء منَ الْسُّلْطَان نَقْصٌ في الْجبَايَةِ

والسَّببُ في ذلك: أنَّ الدَّولةَ والسُّلطَانَ هي السُّوْقُ الأعظمُ للعالَم، ومنه مادة العمران، فإذا احتجنَ السُّلْطَانُ الأموالَ أو الجبايَاتِ، أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها، قلَّ حينئذٍ ما بأيدي الحاشية والحامية، وانقطعَ أيضاً ما كان يصلُ منهم لحاشيتهم وذويهم، وقلَّت نفقاتهم جملة، وهم معظمُ السَّوادِ، ونفقاتهم أكثر مادةً للأسواق ممن سواهم فيقع الكسادُ حينئذٍ في الأسواق، وتضعفُ الأرباحُ في المتاجرِ فيقلَّ الخراجِ لذلك، لأن الخراج والجباية إنما تكونُ من الاعتَمارِ والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب النَّاسِ للفوائدِ والأرباحِ. ووبالُ ذلك عائدٌ على الدولةَ بالنقص لقلة أموال السُّلطان حينئذٍ بقلة الخراج، فإنَّ الدَّولةَ ــ كما قلناه ـ هي السُّوقُ الأعظمُ، أم الأسواق كلها، وأصلها ومادتها في الدَّخْلِ والخرجِ؛ فإن كسدت وقلَّت مصارفها[2]، فأجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثلُ ذلك وأشد منه.

وأيضاً: فالمالُ إنَّما هو مترددٌ بين الرَّعية والسُّلطان: منهم إليه، ومنه إليهم؛ فإذا حبسه السُّلطان عنده فقدته [ظ١٢٥/١] الرَّعيَّةُ. سنة الله في عباده.

---

١ – من شعر أبي ذؤيب الهذلي، انظر ديوان الهذليين (٢/١).
٢ – في ن: مصاريفها.

١-٣-٤٣- فَصْلٌ
في أنَّ الظُّلْمَ مُؤْذِنٌ بخراب العُمْرَان

اعلم: أنَّ الْعُدوانَ على النَّاسِ في أموالِهم ذاهبٌ بآمالهم في تحَصيلها واكْتِسابها لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السَّعي في ذلك. وعلى قدرِ الاعتداءِ ونسبته يكون انقباض الرَّعايا عن السَّعي في الاكتسابِ، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبوابِ المعاشِ، كان القعودُ عن الكسبِ كذلك لذهابه بالآمال جملةً بدخوله من جميع أبوابها؛ وإن كان الاعتداءُ يسيراً، كان الانقباضُ عن الكسبِ على نسبته.

والعمرانُ ووفوره ونفاق أسواقه، إنما هو بالأعمال، وسعي النَّاسِ في المصالحِ والمكاسب ذاهبينَ وجائينَ. فإذا قعد النَّاسُ عن المعاشِ، وانقبضَت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواقُ العمران، وانتقضت الأحوالُ، وابْذَعَرَّ[1] النَّاسُ في الآفاق من غير تلكَ الإيَالة في طلبِ الرِّزْق فيما خرج عن نطاقها؛ فخفَّ ساكن القطرِ، وَخلت ديارُهُ، وخربت[2] أمصاره، واَختلَّ باختلاله حالُ الدَّولةِ والسُّلطان؛ لما أنَّها صورةٌ للعمران تفسد بفسادِ مادَّتها ضرورةً.

وانظرْ في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن المُوْبَذَان صاحب الدِّين عندهم أيَّام بهرام بن بهرام، وما عرَّض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظُّلمِ والغفلةِ عن عائدته على الدَّولةِ، بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها، فقال له: إنَّ بوماً ذكراً يرومُ نكاحَ بُوم أُنثى، وأنها شرطت عليه عشرين قريةً من الخرابِ في أيَّام بهرَام، فقبلَ شرطها؛ وقالَ لها: إنْ دَامت أيَّام الملك أقطعتك ألف قريةٍ، وهذا أسهلُ مرام. فتنبه الملك من غفلته، وخلا بالموبذَان وسأله عن مراده، فقال له: أيها الملك، إن الملك لا يتم عزُّه إلا بالشَّريعةِ، والقيامَ لله بطاعته، والتَّصرُّفِ تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشَّريعة إلا بالملك، ولا عزَّ للمَلِكِ إلا بالرجال، ولا قوامَ للرِّجَال إلا بالمال، ولا سبيلَ إلى المال إلا بالعمارةِ، ولا سبيل للعمارة إلا بالَعدل. والعدلُ الميزَانُ المنصوبَ بينَ الخليقةِ، نصبه الرَّبُّ وجعل له قيِّماً، وهو الملك. وأنت أيُّها الملك عمدت إلى الضِّيَاعِ فانتزعتها من أربابها وعُمَّارها، وهم أربابُ الخراجِ ومن تؤخذ منهم الأموال، وأقطعتها الحاشية والخدمَ وأهل البطالةِ، فتركوا العمارة، والنَّظرَ في العواقبِ، وما يُصلحُ الْضِّيَاعَ، وسُوْمحوا في الخراجِ لقربهم من الملكِ. ووقع الحَيْفُ على من

---

١ – ابذعروا: تفرقوا وفروا.

٢ – في ن: خرجت.

بقيَ من أربـاب الخـراجِ وعُمَّـارِ الضِّيَـاعِ؛ فـأجلوا[1] [ظ٢/١٢٥] عـن ضِيـاعهم، وخلّـوا دِيَارهم، وآووا إلى ما تعَذَّرَ من الضِّيـاعِ، فَسَكَنوها، فقلت العمـارة، وخُرِّبت الضِّيـاعُ، وقلَّتْ الأموالُ وهلكت الجنودُ والرَّعِيَّة، وطمع في ملـك فـارسَ مـن جـاورهم مـن الملوكِ لعلمِهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها. فلما سمع الملك ذلك أقبلَ على النَّظَرِ في ملكه، وانتزعت الضِّياعُ من أيـدي الخاصَّةِ ورُدَّت على أربابهـا، وحُملوا على رُسُومهم السَّالفة، وأخذوا في العمـارةِ، وقـويَ مـن ضعــفَ منهـم، فعمـرت الأرضُ، وأخصبت البلادُ، وكثرت الأمـوالُ عنـدَ جباةِ الخـَراجِ، وقويت الجنـود، وقطعت مـوادُّ الأعداءِ، وشحنت الثُّغورُ، وأقبلَ الملك على مباشرة أموره بنفسه، فحسنت أيَّامه، وانتظـم ملكه.

فتَفَهَّمْ من هذه الحكاية أنَّ الظُّلم مخرِّبٌ للعمرانِ، وأنَّ عائدة الخـرابِ في العمـرانِ على الدَّولةِ بالفسَادِ والانتقاض.

ولا تنظرُ في ذلك إلى أنَّ الاعتداءَ قد يوجد بالأمصار العَظيمةِ من الدُّولِ الـتي بهـا، ولم يقع فيها خرابٌ.

واعلم أنَّ ذلك إنَّما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهـل المِصْـر. فلمـا كـان المصر كبيراً، وعمرانـه كثيراً، وأحوالـه متسعةً بما لا ينحصـرُ، كـان وقـوع النقصِ فيه بالاعتداء والظُّلمِ يسيراً؛ لأنَّ النَّقصَ إنَّما يقعُ بالتدريج. فإذا خفي بكثرة الأحوال واتِّسَـاعِ الأعمالَ في المصرِ، لم يظهر أثره إلا بعد حين. وقد تذهبُ تلك الدولةُ المعتدية مـن أصلهـا قبل خرابِ المصرِ، وتجيء الدَّولةُ الأخرى، فترقعه بجدَّتها، وتجبر النَّقصَ الـذي كـان خفيّـاً فيه، فلا يكادُ يشعرُ به، إلا أنَّ ذلك في الأقلِّ النَّادِرِ.

والمرادُ من هذا أنَّ **حصول النَّقص في العمران عَن الظُّلم والعـدوان أمْرٌ واقـعٌ لا بُـدَّ منه**، لما قدَّمناه، ووبَالُهُ عائدٌ على الدُّول.

ولا تحسبنَّ الظُّلمَ إنَّما هو أخذُ المال أو الملك من يد مالكه مـن غيرِ عِوَض ولا سـبب كما هو المشهورُ، بل **الظلمُ أعمُّ من ذلك**. وكلُّ من أخذ ملك أحد أو غصبـه في عملـه، أو طالبه بغير حقّ، أو فرض عليه حقّاً لم يفرضه الشَّرْعُ، فقد ظلمه. فجُبَـاةُ الأمـوال بغير حقِّها ظلمة، والمعتدون عليها ظَلَمَةٌ، والمنتهبُون لها ظلمةٌ، والمانعونَ لحقـوق النَّـاسِ ظلمـة، وغُصَّابُ الأملاكِ على العموم ظلمةٌ، ووبَالُ ذلك كله عائدٌ علـى الدَّولـةِ بخـرابِ العمـرانِ الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله.

---

١ - في ن: فانجلوا.

واعلم: أنَّ هذه هي الحكمةُ المقصودة للشَّارع في تحريم الظُّلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذنٌ بانقطاع النوع البشريِّ، وهي الحكمة العامَّة المراعاةُ[١] للشَّرع في جميع **مقاصده الضَّرورية الخمسة**: من حفظ الدِّين والنَّفس والعقل والنَّسْل [ظ١٢٦/١] والمال. فلمَّا كان الظُّلم -كما رأيت- مؤذناً بانقطاع النَّوْع لما أدَّى إليه من تخريب العُمران، كانت حكمةُ الحظر فيه موجودةً، فكان تحريمُهُ مهمّاً. وأدلته من القرآن والسُّنَّة كثيرةٌ، أكثرُ من أن يأخذها قانون الضَّبْط والحَصْر.

ولو كان كلٌّ واحد قادراً على الظالم[٢] لوضع بإزائه من العقوبات الزَّاجرة ما وضع بإزاء غيره من المُفْسِدَات للنَّوْعِ، التي يقدرُ كلُّ أحد على اقترافها من الزِّنا والقتلِ والسُّكر، إلاَّ أن الظلم يَقْدر عليه[٣] إلا من لا يقدر عليه، لأنَّه إنما يقع من أهل القُدْرَة والسُّلطان. فبولغ في ذَمِّه وتكرير الوعيد فيه، عسى أن يكون الوازعُ فيه للقادرِ عليه في نفسه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ﴾[فصلت: ٤٦].

وَلاَ تقولَنَّ: إنَّ العقوبةَ قد وضعت بإزاء الحرابة[٤] في الشَّرْعِ، وهي من ظلم القادرِ، لأنَّ المحاربَ زمن حرابته قادر. فإن في الجوابِ عن ذلك طريقين:

أحدهما: أن تقول: العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أو مال على ما ذهب إليه الكثير، وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالَبة بجنايته، وأمَّاً نفسُ الحرابةِ فهي خلوٌّ من العقوبة.

الطريق **الثَّاني**: أن تقولَ: المحاربُ لا يوصف بالقدرة، لأنا إنما نعني بقدرة الظَّالم اليدَ المبسوطة التي لا تعارضها قدرة، فهي المؤذنة بالخراب، وأمَّا قدرةُ المحارب فإنما هي إخافة يجعلها ذريعةً لأخذ الأموال، والمدافعة عنها بيد الكلِّ موجودةٌ شرعاً وسياسة؛ فليست من القدر المؤذنِ بالخرَابِ. والله قادرٌ على ما يشاء.

---

١ - في ن: المراعية.

٢ - في ن: (عليه).

٣ - أي: لا يظلم إلا القادر على الظلم ومن له القدرة من سلطان أو غيره. وقد رجح الدكتور وافي سقوط حرف النفي من العبارة فتكون: (لا يقدر عليه لا من لا يقددر عليه) وكلاهما يصحان.

٤ - الحرابة هي قطع الطريق. وعقوبتها القتل أو الصلب أو كلاهما معاً ولكل عقوبة حالتها التي تجد تفصيلها عند الفقهاء.

١-٣-٤٣-١- فصل

ومن أشدِّ الظلاماتِ وأعظمها في إفساد العمران **تكليفُ الأعمالِ وتسخيرُ الرَّعايا بغير حق.**

وذلك أن الأعمال من قبيلِ المتمولات كما سَنبين في باب الرِّزْق[١]؛ لأنَّ الرزق والكسب إنَّما هو قيمُ أعمالِ أهل العمران. فإذاً مساعيهم وأعمالهم كلُّها متمولات ومكاسب لهم، بل لا مكاسبَ لهم سواها، فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك. فإذا كلِّفوا العملَ في غير شأنهم، واتَّخذوا سُخريّاً في معاشهم، بطل كسبُهم، واغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو متموَّلهم فدخل عليهم الضَّررُ، وذهب لهم حظٌّ كبيرٌ من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة. وإن تكرَّرَ ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة، وقعدوا عن[٢] السَّعي فيها جملةً؛ فأدَّى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

١-٣-٤٣-٢- فَصْلٌ [الاحتكار]

وأعظمُ من ذلك في الظُّلم وإفساد العمران والدَّولة التَّسلُّط على أموال النَّاس، بشراء ما بين أيديهم بأبخَسِ الأثمان، ثُمَّ فَرْضِ البَضَائعِ عليهم بأَرْفع الأثمان على وجه الغصب والإكْرَاه في الشِّراءِ والبيعِ، ورُبَّما تُفرَضُ عليهم تلك الأثمان على التَّرَاخِي[٣] والتَّأجيل، فيتعلَّلونَ في تلك الخَسَارة [ظ١٢٦/٢] التي تلحقهم بما تحدِّثهم المطامع من جبرِ ذلك بحوالةِ الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخسِ الأثمان، وتعود خسارةُ ما بينَ الصَّفقتين على رؤوس أموالهم. وقد يعمُّ ذلك أصناف التُّجَّارَ المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع، وسائر السُّوقة وأهل الدَّكاكين في المأكل والفواكه، وأهلَ الصَّنائع فيما يَتَّخذ من الآلات والمواعين، فتشمل الخسارة سائرَ الأصنافِ والطَّبقاتِ، وتتوالى على السَّاعات، وتجحف برؤوس الأموال، ولا يجدون عنها وَلِيجةً[٤] إلا القعود عن الأسواق لذهَابِ رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح[٥]، وَيَتَثَاقلُ الواردُون من الآفاق لشراء البَضَائِع وبيعها من أجلِ ذلكَ، فتكسد الأسواق ويبطلُ معاشَ الرَّعايا، لأنَّ عامته من البَيع والشِّراء. وإذا كانت الأسواق عطَّلاً منها بطلَ معاشهم، وتنقص جباية

---

١ – انظر الباب الخامس في المعاش ووجوهه.

٢ – في ن: (من).

٣ – في جميع النسخ: (النواحي). ولا يستقيم به المعنى.

٤ – يعني لا يجدون ملجأ.

٥ – في العبارة تقديم وتأخير وتقرأ على النحو التالي: لا يجدون [أي التجار] عنها [أي الخسائر] في جبرها بالأرباح [أي لعظم الخسائر وتماديها] إلا القعود عن الأسواق لذهاب رؤوس الأموال [أي: كلها أو معظمها].

السُّلطان أو تفسد، لأنَّ معظمها من أواسط[1] الدَّولة، وما بعدَها إنَّما هو من المكوس على البياعَات كما قدمناه[2]. وَيؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفَسَادِ عمران المدينةِ. ويتطرق هذا الخلل على التَّدريج ولا يُشعر به.

هذا ما كان بأمثال هذه الذَّرائع والأسباب إلى أخذ الأموال، وأمَّا أخذُها مجّاناً، والعدوان على النَّاسِ في أموالهم وحُرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم، فهو يفضي إلى الخلل والفَسَادِ دفعة، وتنتقضُ الدَّولة سَريعاً بما ينشأ عنه من الهَرْج المفضي إلى الانتقَاض.

ومن أجل هذه المفاسد حظرَ الشَّرْعُ ذلك كلَّه، وشرع المكايسة[3] في البيع والشِّراء، وحظر أكلَ أموال الناس بالباطل، سدّاً لأبواب المفاسد المفضية إلى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش.

واعلم: أنَّ الدَّاعي لذلك كله، إنَّما هو حاجة الدَّولة والسُّلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من التَّرَف في الأحوال، فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرجُ ولا يفي به الدَّخل عَلى القوانين المعتادة، فيستحدثون ألقاباً ووجوهاً يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخلُ بالخرج، ثم لا يزال الترف يزيد، والخرجُ بسببه يكثر، والحاجة إلى أموال النَّاس تشتد، ونطاق الدَّولة بذلك يزيد، إلى أن تنمحي[4] دائرتها، ويذهب رسمها، ويغلبها طالبها. وا لله أعلم.

---

١ - في ن: أوسط.

٢ - انظر الفصول: (٣٨ و٣٩ و٤٠ و٤١) من هذا الباب وخاصَّة فصل ٤١.

٣ - المكايسة أي: المساومة.

٤ - في ن: تمحى.

١-٣-٤٤- الفَصْل الرابع والأربعون
في الحجَاب كيف يقعُ في الدول وفي أنه يعظم عند الهرم

اعلم: أنَّ الدولة في أوَّل أمرها تكون بعيدةً عن منازع الملك كما قدَّمناه، لأنَّه لا بُدَّ لها من العَصَبيَّةِ التي بها يتمُّ أمرها ويحصل استيلاؤها، والبداوة هي شعارُ العَصَبيَّة. والدَّولة إن كان قيامها بالدِّين فإنه بعيدٌ عن منازع الملك، وإن كان قيامها بعز الغلب فَقط، فالبداوة التي بها [ظ١٢٧/١] يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه، فإذا كانت الدَّولة في أوَّلِ أمرها بدويّةً، كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من النَّاس وسهولةِ الإذنَ.

فإذا رسخ عزُّه وصار إلى الانفراد بالمجد، واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن النَّاس للحديثِ مع أوليائه في خواص شؤونه، لما يكثرُ حينئذ مَنْ بحاشيته، فيطلبُ الانفرادِ من[1] العامة ما استطاع، ويتخذِ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته، ويتَّخذ حاجباً له عن النَّاس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة.

ثمَّ إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه، استحالت خُلُق[2] صاحب الدَّولة إلى خُلُق[3] الملك، وهي خُلُقٌ[4] غريبةٌ مخصوصة، يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجبُ لها، وربَّما جهل تلك الأخلاق[5] منهم[6] بعض من يباشرُهم فوقع فيما لا يرضيهم، فسَخِطوه[7] وصارُوا إلى حالة الانتقام منه. فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواصُّ من أوليائهم، وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت، حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يُسْخِطُهم، وعلى[8] النَّاسِ من التَّعرُّضِ لعقابهم.

فصار لهم حجابٌ آخر أخص من الحجابَ الأوَّل، يُفضي إليهم منه خواصُّهم من الأولياء، ويحجبُ دونهُ من سواهم من العامَّةِ، والحجابُ الثَّاني يفضي إلى مجالس الأولياءِ، ويحجب دونه من سواهم من العامَّةِ.

---

١ - في ن: عن.
٢ - في ن: أخلاق.
٣ - في ن: أخلاق.
٤ - في ن: أخلاق.
٥ - في ن: الخلق.
٦ - أي: من الملوك.
٧ - في ن: فسخطوا.
٨ - في نسخة بدون الواو.

والحجابُ الأوَّلُ: يكونُ في أوَّل الدولة كما ذكرنا، كما حدث لأيَّام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية، وكان القائم على ذلك الحجاب يُسَمَّى عندهم الحاجب جرياً على مذهب الاشتقاق الصَّحيح.

ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولةُ من التَّرفِ والعزِّ ما هو معروفٌ، وكملت خلق الملك على ما يجب فيها، فدعا ذلك إلى **الحجاب الثاني**، وصار اسم الحاجب أخصَّ به، وصار بباب الخلفاء دَاران للعبَّاسية: دَارُ الخَاصَّةِ، ودارُ العامَّةِ، كما هو مسطور في أخبارهم.

ثُمَّ حدث في الدول **حجابٌ ثالثٌ** أخصُّ من الأولين، وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدَّولة. وذلك أنَّ أهلَ الدَولة وخواصَّ الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقَاب، وحاولوا الاستبداد عليهم، فأوَّل ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة أبيه[1] وخواصَّ أوليَائه، يوهمُهُ أنَّ في مباشرتهم إيَّاهُ خرق حجاب الهيبة، وفساد قانون الأدب، ليقطعُ بذلك لقاءَ الغير، ويعوده ملابسةَ أخلاقهِ هو، حتى لا يتبدَّل به سواه، إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه، فيكون هذا الحجاب من دواعيه. وهذا الحجاب لا يقعُ في الغالب إلا أواخر الدَّولة كما قدَّمناه في الحجر[2]، ويكون دليلاً على هرم الدَّولة ونفاد قوتها. وهو مما يخشَاه أهل الدول على أنَفسهم؛ لأنَّ القَائمين [ظ١٢٧/٢] بالدَّوْلَة يحاولون على ذلك بطِبَاعهم عند هرمَ الدَّولةِ، وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم، لما رُكِّبَ في النفوس من محبَّةِ الاستبداد بالملك، وخصوصاً مع الترشيح لذلك، وحصُول دواعيه ومباديه.

---

١ – في جميع النسخ: بطانة ابنه. ولا يستقيم معه المعنى.

٢ – يقصد الفصل الواحد والعشرون من هذا الباب. فصل: فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه.

١-٣-٤٥- الفَصْلِ الخامس والأربعون:
في انْقِسَامِ الدَّوْلَةِ الْوَاحدةِ بدولتين

اعلم: أنَّ أول ما يقع من آثار الهَرَم في الدَّولةِ انقسامها. وذلك أنَّ الملكَ عندما يستفحلُ ويبلغ من أحوال التَّرف والنَّعيم إلى غايتها، ويستبدَّ صاحب الدَّولة بالمجد وينفرد به، يأنفُ حينئذ عن المشاركة، ويصير إلى قطعِ أسبابها ما استطاعَ بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشَّحين لمنصبه. فُربَّما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم، ونزعوا إلى الْقَاصِيَة، واجتمع إليهم من يلحق بهم في مثل[1] حالهم من الاغترار والاسترابة. ويكون نطاقُ الدَّولة قد أخذ في التَّضَايق ورجع عن القاصية. فيستبد ذلك النَّازع من القرابة فيها، ولا يزال أمرهُ يعظم بتراجع نطاق الدَّولة، حتى يقاسم الدولة أو يكاد.

وانظر ذلك في الدَّولةِ الإسْلاَمِيَّةِ العربيَّة حين كان أمرها حريزاً[2] مجتمعاً، ونطاقها ممتداً في الاتساع، وعصبيَّة بني عبد مناف واحدةً غالبة على سائر مضر، فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامها[3] إلا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم، لم يكن ذلك لنزعة مُلك ولا رئاسة، ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية.

ثم لَّما خرج الأمر من بني أمية، واستقلَّ بنو العباس بالأمر، وكانت الدَّولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والتَّرَف، وآذنت بالتَّقلّص عن الْقَاصِيَة نزع عبدُ الرحمن الداخل إلى الأندلس - قاصية دولة الإسلام - فاستحدثَ بها ملكاً، واقتطعها عن دولتهم، وصيَّر الدولة دَولتين. ثُمَّ نزع إدريسُ إلى المغربَ، وخرج به وقام بأمره. وأَمَّرَ ابنه من بعده البرابرةُ من أوربة ومغيلة وزَنَاتَة، واستولى على ناحية المغربين. ثم ازدادت الدولة تقلّصاً، فاضطرب الأغالبة في الامتناع عليهم.

ثم خرج الشِّيْعَة وقام بأمرهم كتامة وصنهَاجة، واستولوا على إفريقيَّة والمغرب، ثم مصر والشام والحجاز، وغلبوا على الأدارسة، وقسموا الدولة دولتَين أخريين، وصارت **الدولةُ العربية ثلاث دول:** دول بني العباس بمركز[4] العرب، وأصلهم ومادتهم الإسلامُ، ودولة بني أمية المجددين بالأندلس ملكهم القديمَ وخلافتهم بالمشرق، ودولة العُبَيديين بإفريقيّة ومصر والشَّام والحجاز. ولم تزل هذه الدول إلى أن أصبح انقراضها متقارباً أو جميعاً [ظ١٢٨/١].

---

١ - في ن: (بهم مثل).
٢ - أي: حين كان أمرها متماسكاً قويّاً.
٣ - في ن: أيامه.
٤ - في ن: مركز.

وكذلك انقسمت **دولة بني العبَّاس** بدول أخرى، وكان بالقاصية بنو سَامَان[1] فيما وراء النهر وخراسان؛ والعلوية في الدَّيلم وطَبَرسْتَان؛ وآل ذلكَ إلى استيلاء الدَّيلم على العرَاقين وعلى بغداد والخلفاء. ثُمَّ جاء السَّلجوقيَّة فملكوا جميع ذلك. ثُمَّ انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم.

وكذلك اعتبره في **دولة صنهاجة** بالمغرب وإفريقية، لما بلغت إلى غايتها أيَّام بَاديس بن المنصور، خرج عليه عمه حمَّاد واقتطعَ ممالكَ الغرب لنفسه، ما بين جبل أوراس إلى تِلِمْسَان وملوية، واختطَّ القلعة بجبل كتامة حيالَ المَسِيلة، ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى، واستحدثَ مُلكاً آخر قسيماً لملك آلِ باديس، وبقيَ آلُ باديس بالقَيروان وما إليها، ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً.

وكذلك **دولةُ الموحدين** لَّما تقلَّصَ ظِلُّها ثار بإفريقية بنو أبي حفص، فاستقلُّوا بها، واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحِيها. ثُمَّ لَّما استفحل أمرهم واستولى على الغاية، خرج على المَمالك الغربيَّةِ من أعقابهِم الأمير أبو زِكريا يحيى ابن السُّلْطان أبي إسحاق إبراهيم رابع خُلفائهم، واستحدث ملكاً، ببجاية وقَسَنْطِينة وما إليها، أوْرَثه بنيه، وقسموا به الدولة قسمين، ثُمَّ استولى على كرَسيٍّ الحضرة بتونس، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عادَ الاستيلاء فيهم.

وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثة، وفي غير أعيَاص المُلْكِ من قومه، كما وقع في ملوك الطَّوائف بالأندلس، وملوك العجم بالمشرق، وفي ملك صِنْهاجة بأفريقية، فقد كان لآخر دولتهم في كلِّ حصنٍ من حصون إفريقية ثائرٌ مستقلٌّ بأمره كما تقدم ذكره. وكذا حال الجريد والزَّاب منْ إفريقية قبيلَ هذا العهد كما نذكره.

وهكذا شأن كلِّ دولةٍ لا بُدَّ وأن يعرضَ فيها عوارض الهرم بالتَّرَفِ والدَّعةِ، وتقلص ظلِ الغلب فينقسم أعيَاصُهَا أو من يَغلب من رجَال دولتها الأمرَ، ويتعدد فيها الدّول، والله وَارِثُ الأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا.

---

١ – في ن: ساسان.

١-٣-٤٦- الفَصْلُ السادس والأربعون:
في أنَّ الْهَرَمَ إِذَا نَزَلَ بِالْدَّوْلَةِ لا يَرْتَفِع

قَد قدَّمنا ذكر العوارِضِ المؤذِنةِ بالهَرَمِ وأسبابَه واحداً بعد واحد، وَبَيَّنا أنَّها تحدث للدولةِ بالطَّبعِ، وأنَّها كلّها أمورٌ طبيعية لها. وإذا كان الهرمُ طبيعيّاً في الدَّولةِ كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطَّبيعيَّة كما يحدث الهَرَم في المزاج الحَيَواني.

والهرَم من الأمْرَاض المزمنةِ التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها، لما أنَّه طبيعي، **والأمور الطَّبيعية لا تتبدَّل**. وقد يتنبَّه كثيرٌ من أهل الدُّول ممن له يقظةٌ في السِّياسة، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهَرَمِ وأسبابه [ظ١٢٨/٢]، ويحسبهُ[1] ممكن الارتفاع، فيأخذ نفسه بتلافي الدَّولةِ، وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم، ويحسبه أنه لحقها بتقصير مَنْ قبله من أهل الدَّولةِ وغفلتهم، وليسَ كذلك، فإنها أمورٌ طبيعيّة للدَّولة، والعوائد هي المانعةُ له من تلافيها.

والعوائد منزلة طبيعية أخرى[2]؛ فإنَّ من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهلِ بيته يلبسون الحريرَ والدِّيباج، ويتحلّون بالذهب في السِّلاح والمراكب، ويحتجبون عن النَّاسِ في المجالس والصَّلوات، فلا يمكنه مخالفة سلفهِ في ذلك إلى الخُشُونة في اللِّباس والزِّيِّ والاختلاط بالنَّاس، إذ العوائد حينئذٍ تمنعه وتقبِّحُ عليه مُرْتَكَبَهُ. ولو فعله لرمي بالجنونِ والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة، وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانهِ.

وانظر شأن الأنبياء في إنكارِ العوائدِ ومخالفتها، لولا التَّأييد الإلهي والنَّصر السَّماوي.

وربَّما تكون العَصَبيَّةُ قد ذهبت فتكون الأُبَّهة تعوضُ عن موقعها من النفوس. فإذا أُزيلت تلك الأُبَّهةُ معَ ضعف العصبيةِ، تجاسرت الرَّعايا على الدَّوْلَةِ بذهابِ أوْهَام الأُبَّهةِ، فتتذرعُ الدَّولةُ بتلكَ الأُبَّهةِ ما أمكنها حتى ينقضيَ الأمر.

وَرُبَّما يحدث عند آخرِ الدَّولةِ قوة توهُم أن الهرَم قد ارتفع عنها، ويومضُ ذُبَالُها إيْمَاضَةَ الخُمود كما يقعُ في الذُّبال المشتعل؛ فإنه عند مُقاربة انطفائه يومضُ إيماضة توهم أنها اشتعالٌ، وهيَ انطفاءٌ. فاعتبر ذلكَ، ولا تُغْفل سِرَّ الله تعالى وحكمته في اطِّرَادِ وجوده على ما قدَّر فيه. و﴿لِكُلِّ أجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد: ٣٨].

---

١ –في ن: الهرم ويظن أنه ممكن.

٢ – يعرف هذا بالقسر الاجتماعي الذي تتصف به الظواهر الاجتماعية ولا سيما القائمة على الاقتداء والعادات. (تمهيد في علم الاجتماع ص:١٠٤).

١ــ٣ــ٤٧ــ الفَصْل الرابع والأربعون:
في كَيْفِيَّة طُرُوق الخلل للدَّوْلَة

اعلم أنَّ مبنى الملك على أساسين لَا بُدَّ منهما:

فالأوَّلُ: الشَّوْكَةُ والعَصَبِيَّةُ وهو المعبَّرُ عنه بالجند.

والثَّاني: المالُ الذي هو قَوام أُولَئكَ الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملكُ من الأحوال.

والخلَل إذا طرَقَ الدَّولة طرقها فيَ هذين الأسَاسين.

فلنذكر أوّلاً طروق الخلل في الشَّوكة والعصبية، ثم نرجع إلى طروقه في المال والجباية.

واعلم أنَّ تمهيد الدَّولة وتأسيسها كما قلناهُ إنَّما يكونُ بالعصبية، وأنه لا بُدَّ من عصبيَّة كبرى جامعة للعَصَائب مستتبعة لها، وهي عصبية صاحب الدَّولة الخاصَّة[١] من عشيرة وقبيلة. فإذا جاءت الدَّوْلَةَ طبيعةُ الملك من التَّرف وجدع أنوف أَهل العصَبيّة، كان أوَّلُ ما يجدع أنوفَ عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك. فيستبدّ في جدع أنوفهم بما

---

١ - قال الجابري في العصبية والدولة (ص٤٤٦ - ٤٤٨): الدولة في اصطلاح ابن خلدون هي على العموم: الامتداد الزماني والمكاني لحكم عصبية ما.

أ- فمن حيث الامتداد في المكان تكون الدولة عامة أو خاصة.

- الدولة العامة: هي مجموع المناطق والأقاليم التي تجري عليها سلطة العصبية الحاكمة سواء كانت هذه السلطة فعلية أم إسمية فقط.

- والدولة الخاصة هي الولايةٍ أو الإقليم الذي استقل به الوالي خارجاً عن السلطة المركزية.

وهكذا فالدولة العباسية مثلاً دولة عامة بالنسبة إلى الدويلات التي استقلت عنها كدولة بني بويه، وبني حمدان وغيرهما من الدول التابعة اسمياً للخلافة العباسية والتي تسمى في لغة ابن خلدون دولاً خاصة.

ب - أما من حيث الامتداد في الزمان فإن الدولة إما كلية وإما شخصية...

- الدولة الكلية هي مدة حكم عصبية من العصبيات، والتي يتعاقب فيها الملوك واحداً بعد الآخر. إنها حكم أسرة معينة منذ استلامها الحكم إلى يوم خروجه منها. الدولة العباسية، الدولة الأموية، الدولة الموحدية... الخ.

- والدولة الشخصية هي مدة حكم شخص واحد من أشخاص الدولة الكلية، مثل دولة المأمون، دولة معاوية، دولة عبد المؤمن... الخ.

جـ - ويتحدث ابن خلدون أيضاً عن الدولة المستقرة والدولة المستجدة أو الحادثة وذلك حين يتعلق الأمر بالفترة التي يحتدم فيها الصراع بين العصبية صاحبة الدولة وإحدى العصبيات الثائرة ضدها والتي تستهدف الإطاحة بها وتأسيس دولة جديدة. فالدولة المستقرة يعني بها الدولة القائمة التي نشبت الثورة ضدها. والدولة المستجدة أو الحادثة هي دولة العصبية الثائرة المطالبة بالملك والتي لم تنته بعد من القضاء على الدولة القديمة المستقرة.

د - هذل ولا يختلف مفهوم ابن خلدون للدولة عن معناها بل معانيها عند القدماء باستثناء هذه التقسيمات المشار إليها أعلاه. إن الدولة في الاصطلاح القديم هي القوة والسيطرة والسلطان. أو صاحب هذه الصفات، أو البيت الذيٍ يتمتع بها. فيقال: دولة عبد الملك بن مروان، ودولة صلاح الدين، والدولة الأموية، والدولة الفاطمية. وتطلق أيضاً على المنطقة التي يشملها نفوذ الدولة وأصحابها والفرق بين الدولة والمملكة في الاصطلاح القديم هو أن الدولة عبارة عن الحكومة ورجالها، والمملكة هي البلاد وأهلها.

بلغَ من سوادهم[١]. ويأخذهم الترفُ أيضاً أكثر من سواهم لمكانهم من الملك والعزّ والغَلَبِ، فيحيط بهم هادمان وهما: **التّرفُ والقهرُ**.

ثُمَّ يصير القهر آخراً إلى القتل لما يحصل من مرضِ قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر [ظ١٢٩/١]، فتقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه، فيأخذهم بالقتلِ والإهانة وسلبِ النعمة والتَّرَفِ الذي تعوَّدُوا الكثير منه، فيهلكون ويقلّون، وتفسد عصبيَّة صاحب الدَّوْلَةِ منهم، وهي العصبيَّة الكبرى التي كانت تجمعُ بها العصائبُ وتستتبعها، فتنحل عروتها، وتضعفُ شَكِيمتها، وتستبدل عنها بالبطانة[٢] من موالي النعمةِ وصنائع الإحسان، وتتّخذ منهم عصبية، إلا أنها ليست مثل تلك الشّدة الشَّكيميَّةِ، لفقدان الرحم[٣] والقران منها، وقد كنا قدمنا أنَّ شأن العصبيَّة وقوتها إنما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في ذلك. فينفرد صاحبُ الدَّولةِ عن العشير والأنصارِ الطَّبيعيَّة، ويُحس بذلك أهلُ العصائب الأُخرى، فيتجاسَرون عليه وعلى بطانته تجاسراً طَبيعيّاً، فيهلكُهم صاحب الدولة، ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد. ويقلد الآخرُ من أهل الدولة في ذلك الأوَّل؛ مع ما يكون قد نزلَ بهم من مهلكة التَّرف الذي قدمنا. فيستولي عليهم الهلاكُ بالتَّرفِ والقتلِ، حتى يخرجوا عن صِبْغَةِ تلك العَصَبيَّةِ، وينسوا نُعرتها وسورتها[٤] ويصيروا أجراء على الحماية. ويقلّون لذلك، فتقل الحامية[٥] التي تنزل بالأطراف والثغور. فتتجاسر الرعايا على نقض[٦] الدعوة في الأطراف، ويبادر الخوارجُ على الدولة من الأعياص وغيرهم إلى تلك الأطراف، لما يرجون حينئذ من حُصُول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم، وأمنهم من وُصُول الحامية إليهم. ولا يزال ذلك يتدرَّجَ ونطاق الدولةِ يتضايق حتى تصير الخوارجُ في أقربِ الأماكنِ إلى مركزِ الدَّولة. وربَّما انقسمت الدَّولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة على قدْر قوَّتها في الأصل كَما قُلناه[٧]، ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها، ولكن إذعاناً لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود.

واعتبر هذا في دولة العرب في الإسلام، انتهت أوّلاً إلى الأندلس والهند والصِّين، وكان أمر بني أميّة نافذاً في جميع العرب بعصبيَّة بني عبد مناف، حتى لقد أمر سليمان بنُ عبد

---

١ – في ن: سواهم.
٢ – في جميع النسخ: (البطالة) باللام، وهو تحريف واضح.
٣ – انظر لتفصيل ذلك الفصل الثامن من الباب الثاني في أنَّ العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب وما في معناه.
٤ – في ن: ويفشو بعزتها وثورتها. وفي ن: وينشو بعزتها وشورتها. والمثبت من نسخة د. وافي.
٥ – في نسخة (الحماية).
٦ – في جميع النسخ: بعض. ويصح أن تكون محرفة عن (بغض أو نقض) والله أعلم.
٧ – انظر الفصل الخامس والأربعين من هذا الباب.

الملك من دمشق[1] بقتل عبد العزيز بن موسى بن نُصير بقرطبة فقتل و لم يُرَدَّ أمرهُ. ثم تلاشت عصبيَّةُ بني أمية بما أصابهم من التَّرَفِ فانقرضوا. وجاء بنو العبَّاس فغضُّوا من أعِنَّة بني هاشم، وقتلوا الطَّالِبيِّين وشرَّدوهم، فانحلَّت عصبيةُ عبدِ مناف وتلاشت، وتجاسَر العربُ عليهم، فاستبدَّ عليهم أهل القَاصِيَة مثل بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلسِ وغيرهم، وانقسمت الدولة، ثم خرج بنو إدريس بالمغرب، وقام البربر بأمرهم إذعاناً للعصبية التي لهم، وأمناً أن تصلهم مقاتلةٌ أو حامية للدولة.

فإذا خرجَ الدعاة آخراً فيتغلبون على الأطراف والقَاصية، وتحصَّل لهم هناك دعوةٌ ملك تنقسم به الدَّولة. وربَّما يزيدُ ذلك متى زادت[2] [ظ٢/١٢٩] الدّولة تقلصاً[3]، إلى أن تنتهي إلى المركز، وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذَ منها التَّرَفُ، فتهلك وتضْمَحِلّ وتضعف الدَّولة المنقسمةُ كلها.

وربما طالَ أمدُها بعد ذلك فتستغني عن العصبية بما حصل لها من الصِّبْغة في نفوس أهل إيَالتها، وهي صبغة الانقياد والتَّسْليم منذ السِّنين الطويلة التي لا يعقل أحدٌ من الأجيال مبدأها ولا أوَّليتها فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدَّولةِ، فيستغني بذلك عن قوَّةِ العصائب، ويكفي صاحبَها ـ بما حصل لها في تمهيد أمرها ـ الأجراءُ على الحامية من جنديٍّ ومُرْتزق، ويعضدُ ذلك ما وقع في النُّفوس عامة من التَّسْلِيم؛ فلا يكادُ أحدٌ أن يتصور عصياناً أو خروجاً إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له؛ فلا يقدرُ على التَّصَدِّي لذلك ولو جهد جهده. وربَّما كانت الدَّولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صِبْغَةِ التَّسْلِيم والانقياد لهم. فلا تكاد النُّفوسُ تحدث سرّها بمخالفة، ولا يختلج في ضميرها انحراف عن الطَّاعة. فيكون أسلم من الهرج والانتقاض الذي يحدث من العصائب والعشائر. ثُمَّ لا يزال أمر الدَّولةِ كذلك، وهي تتلاشى في ذاتها، شأن الحرارة الغريزية في البدن العَادِم للغذاء، إلى أن تنتهي إلى وقتها المقدور. و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد: ٣٧]. ولكل دولةٍ أمد. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[المزمل: ٢٠]. ﴿وهو الواحدُ الْقَهَّار﴾[الرعد: ١٦].

وأمَّا الخلل الذي يتطرَّق من جهةِ المَال، فاعلم أنَّ الدَّولة في أوَّلها تكونُ بدويَّةً كما مر، فيكون خلقُ الرِّفق بالرَّعايا والقصد في النَّفَقَاتِ، والتَّعَفُّفِ عن الأموال، فتتجافى عن الإمعان في الجَبَاية، والتَّحذْلُقِ والكَيْس في جمع الأموال وحُسْبَان العمّال، ولا داعية حينئذٍ

١ - في ن: بدمشق.
٢ - في ظ: حتى زالت.
٣ - في ن: (نقصا).

إلى الإسراف في النفقة، فلا تحتاج الدَّولة إلى كثرة المال. ثُمَّ يحصل الاستيلاء ويعظمُ، ويستفحل الملك، فيدعو إلى التَّرف، ويكثر الإنفاق بسببه، فتعظم نفقاتُ السُّلطان وأهل الدولة على العمومُ، بل يتعدَّى ذلك إلى أهل المِصْر، ويدعو ذلك إلى الزِّيادة في أعطيات الجُند وأرزاق أهل الدَّوْلَةِ. ثم يعظم الترفُ فيكثر الإسراف في النَّفقَاتِ، وينتشر ذلك في الرَّعية، لأنَّ النَّاسِ على دين ملوكها وعوائدها. ويحتاج السُّلطان إلى ضرب المكوس على أثمان البيَاعَات في الأسواق لإدرار الجباية لما يراهُ من تَرَف المدينة الشَّاهد عليهم بالرَّفه، ولما يحتاجُ هو إليه من نفقات سلطانه وأرزَاق جنده. ثُمَّ تزيد عوائدُ الترف فلا تفي بها المكوس، وتكون الدَّولة قد استفحلَت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا، فتمتد أيديهم إلى جَمْع المال من أموال الرَّعايا من مكس أو تجارة أو نقدٍ في بعض الأحوال، بشُبْهة أو بغير شبهة [ظ١٣٠/١]. ويكون الجندُ في ذلك الطَّور قد تجاسروا[١] على الدَّوْلَةِ بما لَحِقها من الفَشَلِ والهرَمِ في العصبيَّة فتتوقَّع ذلك منهم، وتُداوى بسكينة العطايا وكثرة الإنفاق فيهم، ولا تجدُ عن ذلك وليجَةً، ويكون جباة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم، وبما اتَّسع لذلك من جاههم. فيتوجَّهُ إليهم باحتجان الأموال من الجباية، وتفشو السّعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقدِ، فتعمّهم النكباتُ والمصَادرات واحداً واحداً إلى أن تذهب ثروتهم وتتلاشى أحوالهم، ويُفقد ما كان للدولة من الأُبهة والجمال بهم. وإذا اصطُلِمت نعمتهم، تجاوزتهم الدَّولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم، ويكون الوهن في هذا الطّور قد لحقَ الشَّوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر، فتنصرف سياسَة صاحب الدَّوْلَةِ حينئذٍ إلى مداراة الأمور ببذل المال، ويراه أرفع من السَّيف لقلة غنائه؛ فتعظم حاجته إلى الأموال، زيادةً على النفقات وأرزاق الجند، ولا يغني فيما يريدُ[٢]. ويعظم الهرم بالدَّولة ويتجاسر عليها أهل النواحي، والدَّولة تنحلُّ عراها في كل طور من هذه إلى أن تُفضي إلى الهلاك، وتتعوَّضُ من الاستيلاء الكَلَلَ[٣]. فإن قصدها طالبٌ انتزعها من أيدي القائمين بها، وإلا بَقِيت وهي تتلاشى إلى أن تضمحلَّ كالذُّبال في السِّراج إذا فني زيتهُ وطفىء. والله مالك الأمور، ومدبر الأكوان، لا إله إلا هو.

---

١ - في ن: تجاسرَ.
٢ - أي: لا يغني ما يبذله في تحقيق ما يريده. (د. وافي).
٣ - في ن: تتعرض لاستيلاء الطلاب.

١-٣-٤٨- الفَصْل الثامن والأربعون: في اتّسَاع نطاق الدَّوْلَةِ أَوّلاً إلى نهايته ثمَّ تضايقهُ طوراً بعد طورَ إلى فناء الدَّوَلة واضمحلالها[١]

قد كان تقدم لنا في فصل الخلافَة والملكِ، وهو الثَّالث من هذه المقدمة، أنَّ كل دولة لها حصةٌ من الممالك والعِمَالات لا تزيد عليها[٢]. واعتبر ذلك بتوزيع عصابة الدّولة على حماية أقطارها وجهاتها. فحيث نفد عددهم فالطَّرَف الذي انتهى عنده هو الثغر؛ ويحيط بالدولة من سائر جهاتها كالنِّطاق. وقد تكون النهايةُ هي نطاق الدّولة الأولى. وقد يكون أوسع منه إذا كان عددُ العصابة أَوفر من الدَّولة قبلها. وهذا كله عندما تكون الدولة في شعار البداوة وخشونة البأس. فإذا استفحلَ العزُّ والغلب وتوفرت النعمُ والأرزاق بدرُوْر الجبايات، وزخرَ بحرُ التّرَف والحضارة، ونشأت الأجيال على اعتياد ذلك، لطفت أخلاقُ الحامية ورقَّت حواشيهم، وعاد من ذلك إلى نفوسهم هيئات الجبن والكَسل بما يعانونه من خنَث[٣] الحضارة المؤدي إلى الانسِلاَخ لا من شعار البأس والرجولِيَّة بمفارقة البداوة وخشونتها وبأخذهم العزَّ بالتطاول إلى الرئاسة والتنازعُ عليها. فيفضي إلى قتل بعضهم بعضهم؛ ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدي إلى قتل أكابرهم وإهلاكِ رؤسائهم. فتفقد الأمراء والكُبراء، ويكثر التابعُ والمرؤوس، فيفلّ[٤] ذلك من حدّ الدَّولةِ، ويكسر من شوكتها، ويقعُ الخللُ الأولُ في الدَّولةِ، وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدم. ويُسَاوِق ذلك السَّرَفُ في النَّفَقَاتِ بما يعتريهم من أُبّهة العز، وتجاوز الحدود بالبذخ، بالمناغَاة في المطاعم والملابس، وتشييد القصور واستجادة السِّلاح وارتباط الخيول؛ فيقصر دخلُ الدولة حينئذ عن[٥] خرجها، ويطرق الخلل الثاني في الدَّولةِ، وهو الذي من جهة المال والجباية. ويحصل العجز والانتقاض بوجود الخَلَلَيْن. ورُبَّما تنافسَ رؤساؤهم، فتنازعوا وعجزوا عن مغالبة المجاورين والمنازعين ومدافعتهم. وربما اعتزَّ أهل الثّغور والأطراف بما

---

١ – هذا الفصل هو أحد الفصول التي تزيد بها طبعة باريس عن الطبعات المتداولة في العالم العربي. وقد وضع في طبعة باريس في هذا الموضع، أي: بعد الفصل السَّابع والأربعين من هذا الباب وهو كذلك مثبت في نسخة الدكتور وافي.

٢ – انظر الفصل السابع الفرعي من هذا الباب. وعنوانه: فصل في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها.

٣ – خنث خنثاً من باب تعب إذا كان فيه لين وتكسُّر كالنساء.

٤ – في طبعة باريس: فيقل. بالقاف. وهو تحريف. وفي التيمورية: فيقل ذلك من حدود الدولة. وهو معنى محتمل. (د.وافي). والفَلُّ: الثلم والتكسر.

٥ – في طبعة باريس: ويقصر دخل الدولة من خرجها. وفي التيمورية: ويقصر دخل الدولة عن خروجها، وكلتاهما تشتمل على تحريف. (د.وافي).

يحسون من ضعف الدّولة وراءهم، فيصيرون إلى الاستقلال والاستبداد بما في أيديهم من العِمَالات، ويعجزَ صاحب الدَّولة عن حملهم على الجادَّة، فيضيق نطاقُ الدولة عما كانت انتهت إليه في أوَّلها، وترجع العناية في تدبيرها بنطاق دونه، إلى أن يحدُثَ في النطاق الثاني ما حدثَ في الأول بعينه من العجز والكسل في العصَابة وقلَّة الأموال والجباية. فيذهب القائم بالدَّولة إلى تغيير القوانين التي كانت عليها سياسة الدول من قِبَلِ الجند والمَال والولايات ليجري حالها على استقامة بتكافؤ الدَّخل والخَرج والحامية والعمالات وتوزيع الجبَاية على الأرزاق، ومقايسة[1] ذلك بأوّل الدولة في سائر الأحوال. والمفاسدُ مع ذلك متوقّعةٌ من كل جهة. فيحدث في هذا الطَّور من بعدُ ما حدث في الأوَّل من قبلُ. ويعتبرُ صاحب الدَّولة ما اعتبره الأول، ويقايس بالوزَان[2] الأوّل أحوالها الثَّانية، يروم دفعَ مفاسد الخلل الذي يتجدد في كل طور، ويأخذ من كل طرف، حتى يضيق نطاقها الآخر إلى نطاق دونه كذلك، ويقعُ فيه ما وقع في الأوَّل. فكلٌّ واحدٍ من هؤلاء المغيرين للقوانين قبلهم كأنهم منشؤون دولةً أخرى، ومجدِّدونَ مُلكاً، حتى تنقرضَ الدولة، وتتطاول الأمم حولها إلى التَّغلُّبِ عليها وإنشاء دولة أخرى لهم، فيقعِ من ذلك ما قدَّر الله وقوعه.

واعتبر ذلك في الدَّولة الإسلاميَّة كيفَ اتَّسَعَ نطاقها بالفتوحات والتغلُّبِ على الأمم، ثُمَّ تزايد الحامية وتكاثر عددهم بما تخوّلوه من النِّعم والأرزاق إلى أن انقرض أمرُ بني أميَّة وغلبَ بنو العبَّاس. ثُمَّ تزايد التّرَف، ونشأت الحضارةُ، وطرق الخللُ، فضاق النِّطاق من الأندلس والمغرب بحدوث الدَّولة الأمويَّة المروانية والعَلويّة، واقتطعوا ذَيْنك الثَّغرين عن نطاقها، إلى أن وقعَ الخلافُ بين بني الرَّشيد، وظهر دعاة العلوية في كل جانبٍ وتمهدت لهم دولٌ، ثم قتل المتوكِّل، واستبدَّ الأمراءُ على الخلفَاء وحجرُوهم، واستقلَّ الولاة بالعمالات في الأطراف، وانقطعَ الخراج منها، وتزايد الترفُ. وجاء المعتضد فغيَّر قوانين الدولة إلى قانون آخر من السِّياسة أقطع فيه ولاةَ الأطْرَاف ما غلبوا عليه، مثلِ بني سَامَان وراء النَّهر، وبني طاهر العراق وخُراسان، وبني الصّفار السِّندَ وفارسَ، وبني طوْلُون مِصْر، وبني الأغلب إفريقية إلى أن افتقر أمر العرب وغلب العَجمُ، واستبدَّ بنو بُويه والدّيلمُ بدولة الإسلام وحجروا الخلافة، وبقي بنو سَامَان في استبدادهم وراء النَّهر، وتطاولَ الفاطميون من المغرب إلى مصرَ والشَّام فملكوه.

ثُمَّ قامت الدولة السَّلجوقيّة من التّرك فاستولوا على ممالك الإسلام، وأبقوا الخلفاء في حجرهم، إلى أن تلاشت دولهم. واستبدَّ الخلفاءُ منذ عهد النَّاصر في نطاقٍ أضيق من هالة

---

١ – قايسته جاريته في القياس، وقايست بين الأمرين قدرت، يعني المقارنة بينهما.

٢ – في القاموس: وازنه موازنه ووزاناً عادله وقابله وحاذاه.

القمر، وهو عراقُ العرب إلى أصبهان وفارس والبحرين. وأقامت الدولةُ كذلك بعض الشيء إلى انقراض أمر الخلفاء على يد هولاكو بن طُولي بن دُوْشِي خان ملك التَّترُ والمُغلُ حين غلبوا السَّلجُوقية وملكوا ما كان في أيديهم من ممالك الإسلام.

وهكذا يتضايق نطاقُ كل دولة على نسبة نطاقها الأول. ولا يزال طوراً بعد طور إلى أن تنقرضَ الدولة. **واعتبر ذلك** في كل دولة عظمت أو صغرت. فهكذا سنة الله في الدول، إلى أن يأتي ما قدَّر الله من الفناءِ على خلقه. و﴿كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاّ وجهه﴾[القصص: ٨٨].

١-٣-٤٩- الفَصْل التاسع والأربعون:
في حدُوثِ الدَّوْلَةِ وتَجَدُّدها كيف يقع

اعْلَمْ: أنَّ نشأة الدول[١] وبدايتها إذا أخذت الدَّوْلةِ المستقرَّةُ في الهرمِ والانتقاص تكونُ على **نوعين:**

إمَّا بأن يستبدَّ ولاةُ الأعمال في الدولةِ بالقاصية عندما يتقلَّصُ ظلها عنهم، فيكونُ لكل واحد منهم دولة يستجدُّها لقومه وما يستقرُّ في نصابه، يرثه عنه أبناؤه أو مواليه، ويستفحل لهم الملك بالتدريج، وربما يزدحمون على ذلك المُلْكِ ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به، ويغلبُ منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، وينتزعُ مافي يده، كما وقع في دولة بني العبَّاس حين أخذت دولتهم في الهرم، وتقلص ظلها عن القاصية، واستبدَّ بنو سَامَانَ[٢] بما وراء النهر، وبنو حمدان بالموصل والشَّام، وبنو طولون بمصرَ، وكما وقع بالدولةِ الأموية بالأندلس؛ وافترق ملكها في الطوائف الذين كانوا وُلاتها في الأعمال، وانقسمت دولاً وملوكاً أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليهم. وهذا النوعُ لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حربٌ[٣]، لأنهم مستقرون [ظ١٣٠/٢] في رياستهم[٤] وملكهم، ولا يطمعون في الاستيلاء على الدَّولة المستقرة بحرب، وإنما الدَّولة أدركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية، وعجزت عن الوصُول إليها.

والنوعُ الثَّاني: بأن يخرج عن الدَّولة خارجٌ ممن يجاورها من الأمم والقبائلِ، إمَّا بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه، أو يكون صاحب شوكة وعصبية، كبيراً في قومه قد استفحلَ أمرهُ، فيسمو بهم إلى الملك، وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدَّولة المستقرة، وما نزل بها من الهرم. فيتعيَّن له ولقومه الاستيلاءُ عليها، ويمارسونها بالمطالبةِ إلى أن يظفروا بها، وَيَزِنون أمرها[٥] كما يتبين. وا لله سبحانه وتعالى أعلم.

---

١ - في ن: الدولة.
٢ - في ن: ساسان.
٣ - في ن: حرباً.
٤ - في ن: رئاساتهم.
٥ - في بعض النسخ: (ويرفون أمرها). من رفا الثوب، أصلحه كما في القاموس ولعل الكلمة محرفة عن: (يرثون). (د.وافي). وليس في الكلمة تحريف، ذلك أن وزن الأمور جعلها موزونة، وهي قبل ذلك مختلفة النظام غير متوازنة الكفتين.

١-٣-٥٠- الفَصْل الخمسون: في أنَّ الدَّوْلَة الْمُسْتَجدّة إنَّما تَسْتَوْلِي على الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّة بالْمُطَاوَلَةِ لاَ بالْمُناجَزَةِ

قد ذكرنا أنَّ **الدول الحادثة المتجددة نوعان:**

نوعٌ من ولاية الأطرافِ إذا تقلَّصَ ظلُّ الدَّولة عنهم وانحسرَ تيارها، وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدَّولةِ في الأكثر كما قدمناه، لأنَّ قُصَاراهم [ظ١٣٢/١] القنوعُ بما في أيديهم، وهو نهاية قوتهم.

والنَّوْعُ الثَّاني: نوعُ الدُّعاة والخوارج على الدَّولة، وهؤلاء لا بدَّ لهم من المطالبة، لأنَّ قوتهم وافية بها، فإنَّ ذلك إنما يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كِفَاءُ[١] ذلك ووافٍ به. فيقعُ بينهم وبين الدَّوْلَةِ المستقرة حروب سِجال، تتكرَّرُ[٢] وتتصِلُ إلى أن يقعَ لهم الاستيلاء والظَّفَرُ بالمطلوبِ، ولا يحصل لهم في الغالب ظفرٌ بالمناجزة.

والسَّببُ في ذلك: أنَّ الظَّفَرَ في الحروبِ إنَّما يقعُ كما قدَّمناه بأمور نفسانية وهمية، وإن كان العدد والسِّلاحُ وصدقُ القتال كفيلاً به لكنه قاصرٌ مع تلك الأمور الوهمية كما مرَّ[٣]؛ ولذلك كان الخِدَاع من أنفع[٤] ما يستعمل في الحرب، وأكثر ما يقعُ الظَّفَرُ به، وفي الحديث: **«الحَرْبُ خدْعَة»**[٥].

والدولةُ المستقرّة قد صيَّرت العوائد المألوفةُ طاعتها ضروريَّةً واجبةً كما تقدم في غير موضع. فتكثر بذلك العوائقُ لصاحب الدَّوْلَةِ المستجدة، ويُكْسَرُ[٦] من هِممِ أتباعه وأهل شوكته، وإن كان الأقربون من بطانته على بصيرة في طاعته ومؤازرَته، إلاَّ أنَّ الآخرين أكثر، وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التَّسْلِيم للدولة المستقرة، فيحصل بعض الفتور منهم، ولا يكادُ صاحبُ الدَّوْلَةِ المستجدة يقاوِم صاحب الدولة المستقرة. فيرجع إلى الصَّبْرِ والمطاولة، حتى يتَّضح هَرَمُ الدَّولة المستقرّة، فتَضْمَحِلُّ عقائدُ التَّسْلِيْمِ لها من قومه، وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظَّفرُ والاستيلاء.

---

١ - يعني: الكفء.
٢ - في ن: تتكور.
٣ - انظر الفصل السابع والثلاثين من هذا الباب، وعنوانه: فصل في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها.
٤ - في ن: أرفع.
٥ - أخرجه البخاري (٣٠٣٠) ومسلم (١٧٣٩) من حديث جابر.
٦ - في جميع النسخ: (ويكثر) بالثاء. وهو تحريف. والمقصود أن ذلك يثبط هممهم ويضعف عزائمهم. (د.وافي). إلا إذا قلنا: (يُكثّر من همِّ أتباعه). أي: الهموم.

وأيضاً: فالدَّوْلَةُ [ظ١٣١/١] المستقرة كثيرةُ الترفِ[١] بما استحكم لهم من الملكِ، وتوسَّعَ من النَّعيم واللَّذَّاتِ، واختصّوا به دون غيرهم من أموال الجباية، فيكثر عندهم ارتباط الخُيُول واستجادة الأسْلِحة، وتعظمُ فيهم الأُبَّهة الملكيَّة، ويفيضُ العطاءُ بينهم من ملوكهم اختياراً واضطراراً، فيرهبونَ بذلك كله عدوّهم. وأهل الدَّوْلَةِ المستجدّة بمعزل عن ذلك؛ لما هم فيه من البداوةِ وأحوال الفَقْرِ والخَصَاصَةِ[٢]، الَّتي يُفْقَدُ معها الاستعدادُ من ذلك، فيسبق إلى قلوبهم أوهامُ الرُّعب بما يبلغهم من أحوال الدَّولة المستقرة وكَثْرَةِ استعدادها، ويُحجمون[٣] عن قتالهم من أجلِ ذلك، فيصير أمرهم إلى المطاولةِ حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الهرمَ، ويستحكم الخَلَلُ فيها في العَصَبيَّةِ والجباية، فينتهز حينئذ صاحب الدَّولةِ المستجدَّةِ فرصته في الاستيلاء عليها بعد حينَ منذُ المُطَالَبَةِ. سُنَّة الله في عباده.

وأيضاً: فأهلُ الدَّولة المستجدة كلَّهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم، ثمَّ هم مفاخِرون لهم ومنابذون بما وقعَ من هذه المطالبةِ وبطمعهم في الاستيلاء عليها[٤]، فتتمكن المباعدةُ بين أهلَ الدَّوْلَتَيْن سرّاً وجهراً، [ظ١٣٣/١] ولا يصلُ إلى أهل الدولة المستجدَّة خبرٌ عن أهل الدولة المستقرَّة يصيبون منه غرَّة باطناً وظاهراً، لانقطاع المدَاخلة بينَ الدَّوْلَتَيْن، فيقيمون على المطالبةِ وهم في إحجام، وينكلُون[٥] عن المناجزةِ حتى يأذن الله بزوالَ الدَّولة المستقرّة[٦]، وفناءَ عمرها ووفور الخَلَلِ في جميع جهاتها، ويتضحَ[٧] لأهلِ الدَّولةِ المستجدّة مع الأيَّام ما كان يخفى منها[٨]، من هرمها وتلاشيها، وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها، فتنبعث

---

١ - في ن: الرزق.
٢ - الخصاصة بالفتح: الفقر والحاجة.
٣ - في ن: يحرمون.
٤ - في ن: عليه.
٥ - يجبنون عن القتال، ويقعدون عنه.
٦ - لفظها في ظ: من الدولة المستقرة ويحيط الخلل بها في جميع جوانبها، فيقع الاستيلاء عليها سنة الله في خلقه وعباده.

وأيضاً فإن هذه الدولة المستجدة كلهم مباينون لأهل الدولة المستقرة بجميع أحوالهم وعوائدهم وأنسابهم وسائر عباداتهم، ثم منافرون لهم بحدوث هذه المطالبة ومنابذون فلا يطلعون من أهل هذه الدولة على شيء. ولا يصل إليهم خبر من أخبارهم يصيبون به غرة منها لانقطاع أسباب المداخلة بينهما، فيمكثون السنين العديدة في مطالبتها وهم في أحجام، وتكون عنها سائر أوقاتهم حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة.

٧ - في ن: واتضح.
٨ - في نسخة: منهم.

هممهم يداً واحدة للمناجزةِ، ويذهب ما كان بُثَّ في عزائمهم من التَّوَهُّمَاتِ، وتنتهي المطاولةُ إلى حدّها، ويقعُ الاستيلاء آخراً بالمعاجلةِ.

واعتبر ذلك في دولة بني العبَّاسِ عند ظهورها، وفي بدايتها، كيف أقام[1] الشّيعةُ بخُراسان بعد انعقاد الدَّعوة واجتماعهم على المطالبةِ عشر سنين أو تزيد، وحينئذ تم لهم الظَّفرَ، واستولوا على الدَّولة الأموية.

وكذا العلوية بطَبَرستَان عند ظهور دعوتهم في الدَّيلم: كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك النَّاحية. ثم لما انقضى أمرُ العَلَويَّة وَسَمَا الدَّيلمُ إلى مُلْكِ فارس والعراقين، فمكثوا سنين كثيرة يُطاولون حتى اقتطعوا أصبهان ثُمَّ استولوا على الخليفة ببغداد.

وكذا العُبَيديون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي ببني كتامة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد، يُطاولُ بني الأغلب بإفريقية حتى ظفر بهم، واستولوا على المغرب كله، وسموا إلى ملك مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجهِّزون [ظ١٣١/٢] إليها العساكر والأساطيل في كل وقت، ويجيء المددَ لمدافعتهم براً وبحراً من بغداد والشَّام، وملكوا الإسكندرية والفيُّوم والصَّعيد، وتخطَّت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين. ثُمَّ نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها، واقتلعَ دولة بني طُغْج[2] من أصولها، واختط القاهرة، فجاء الخليفةُ بعدُ - المُعِزُّ لدين الله - فنزلها لستِّينَ سنة أو نحوها منذُ استيلائهم على الإسكندريّة[3].

وكذا السلجوقية ملوك التُّرْكِ لما استولوا عل بني سَامان[4]، وأجازوا من وراء النَّهر مكثوا نحواً من ثلاثين سنة، يطاولون بني سَبَكْتكِين بخراسان حتَّى استولوا على دولته. ثُمَّ زحفوا إلى بغدادَ فاستولوا عليها وعلى الخَليفة بها بعد أيَّام من الدَّهْرِ.

وكذا التَتَرُ[5] من بعدهم خرجوا من المَفَازَةِ عامَ[6] سبع عشرة وست مئة فلم يتمّ لهم الاستيلاءُ إلاَّ بعد أربعينَ سنة.

---

١ - في ن: بني العبَّاسِ حين ظهورها، حين قام الشِّيعة.

٢ - هي دولة الأخشيد التي كان أول سلاطينها محمد بن طغج الأخشيد، وقد ظلّت هذه الدولة تحكم مصر نحو خمس وثلاثين سنة (من ٣٢٣هـ إلى ٣٥٨هـ). د. وافي.

٣ - كان هذا سنة ٣٠١هـ و لم يتم للفاطميين الاستيلاء على مصر إلا سنة ٣٥٨هـ.

٤ - في ن: (ساسان).

٥ - في ظ: الططر.

٦ - في ظ: أعوام.

وكذا أهلُ المغربِ خرجَ به المرابطُون من لمتونةَ على ملوكه من مِغْرَاوةَ، فَطَاوَلُوهم سنين ثُمَّ استولوا عليه. ثُمَّ خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحواً من ثلاثين سنة يُحَارِبونهم حتى استولوا على كرسيهم بمُرَّاكش.

وكذا بنو مَرين من زَنَاتَةَ خرجوا على المُوَحِّدين فمكثوا يُطاولونهم نحواً من ثلاثين سنة، واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم. ثُمَّ أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى، حتى استولوا على كرسيِّهم بمرَّاكش.

حَسْبَمَا نذكر ذلك كلّه في تواريخ هذه الدُّول.

فهكذا حالُ الدُّول المستجدّة مع المستقرَّةِ في المطالبة والمطَاولةُ. سنَّةَ الله في عباده، ﴿ولن تجدَ لسنَّة الله تَبْدِيلاً﴾[الأحزاب: ٦٢].

ولا تعترضُ[1] **ذلك بما وقع في الفتوحات الإسلامية**، وكيفَ كان استيلاؤهم على فارس والرُّوم لثلاث أو أربع من وفاة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، واعلم أنَّ ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبيّنا صلى الله عليه وسلم، سِرُّها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبصاراً[2] بالإيمان، وما أوقع الله في قلوبِ عدوِّهم من الرُّعبِ والتَّخاذُل. فكان ذلك كله خارقاً للعادة المقررة في مطاولة الدول المستجدّة للمستقرّة. وإذا كان ذلك خارقاً فهو من معجزات نبيّنا، صلوات الله عليه، المتعارفُ ظهورها في المِلَّةِ الإسلامية. **والمعجزات لا يقاس عليها الأمور العادية، ولا يعترض بها.** [والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التَّوفيق].

---

١ - في ن: **يُعارَضُ.**

٢ - في جميع النسخ: استبعاداً. وهو تحريف. (د.وافي). أي الوعي والفهم، والاهتداء به.

١-٣-١٥- الفَصْلُ الحادي والخمسون:
في وُفُوْرِ الْعُمْرَانِ آخِرَ الدَّوْلَةِ
وَمَا يَقَعُ فِيْهَا مِنْ كَثْرَةِ الْمَوَتَانِ[١] وَالْمَجَاعَاتِ

اعلم أنّه قد تقرر لك فيما سلف[٢] أنَّ الدَّولة في أوَّل أمرها لا بُدَّ لها من الرفق في ملكتها والاعتدال في إيالتها؛ إمَّا من الدّين إن كانت الدعوة دينيَّةً، أو من المكارمة والمحاسنَة التي تقتضيها البداوة الطبيعيّة للدول. وإذا كانت الملكةُ[٣] رفيقةً محسنةً انبسطت آمالُ الرَّعايا، وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفَّرَ، ويكثر التناسلُ، وإذا كان ذلك كله بالتدريج فإنما يظهرُ أثره بعد جيلٍ أو جيلين في الأقل. وفي انقضاء الجيلين تشرفُ الدَّولةُ على نهاية عمرها الطَّبيعي. فيكونُ حينئذٍ العمرانُ في غاية الوفور والنَّماء. ولا تقولن إنه قد مرَّ لك[٤] أن أواخر الدَّولةِ يكون فيها الإجحاف بالرعايا وسوءُ المَلكَة[٥]، فذلك صحيحٌ، ولا يعارض ما قلناه، لأن الإجحاف وإن حدث حينئذٍ وقلَّت الجباياتُ فإنَّما يظهر أثرهُ في تناقص العمران بعد حين، من أجل التَّدْريج في الأمور الطَّبيعيّة.

ثُمَّ إنَّ المجاعات والموَتَان تكثرُ عند ذلك في أواخرِ الدُّول. **والسبب فيه:**

إمَّا المجاعات: فلقبض الناس أيديهم عن الفَلْح في الأكثر، بسبب ما يقعُ في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعةِ في انتقاضِ الرَّعايا وكثرةِ الخوارجِ لهَرَمِ الدَّوْلَةِ، فيقلُّ احتكارُ الزَّرْعِ غالباً؛ وليس صَلاح الزَّرْع وثمرته بمستمرٍّ الوجودِ، ولا على وَتيرةٍ واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، والمطرُ يقوى ويضعف ويقل ويكثر، والزَّرْعُ والثِّمارُ والضَّرع على نسبته، إلا أنَّ النَّاسَ واثقونَ في أقواتهم بالاحتكار. فإذا فُقد الاحتكار عظمَ توقّع النَّاسِ للمجاعاتِ فغلا الزرعُ، وعجزُ عنه أولو الخَصَاصة فهلكوا. وكان[٦] بعضُ السَّنوات، والاحتكار مفقودٌ، فشمل النَّاسَ الجوعُ.

وأمَّا **كثرةُ الموتان**: فلها أسبابٌ من كثرة المجاعات كما ذكرناه، أو كثرة الفتن لاختلال الدَّولة فيكثر الهرجَ والقتل، أو وقوع الوباء. وسببه في الغالب: **فَسَادُ الهواءِ**

---

١ – الموتان بفتحتين: الموت، وهو كذلك مصدر ماتت الأرض موتاناً أي: خلت من العمارة والسُّكَّان.

٢ – في الفصل الرابع والعشرين من هذا الباب، وعنوانه: فصل في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر. وفي الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب، وعنوانه: فصل في أنَّ الظلم مؤذن بخراب العمران.

٣ – أي امتلاك الناس بالحكم والسلطان.

٤ – في الفصل السَّابع والأربعين من هذا الباب، وعنوانه: فصل في كيفية طروق الخلل بالدولة، وقد عرض كذلك لهذه الحقيقة نفسها في الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب.

٥ – أي الحكم.

٦ – كان هنا تامة بمعنى حصل وبعض فاعل كان، وجملة والاحتكار مفقود جملة حالية، والواو فيها للحال لا للعطف.(د.وافي).

بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة. وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحَيواني ومُلاَبسُهُ دائماً، فيسري الفسادُ إلى مزاجه، فإن كان الفسادُ قويّاً وقع المرضُ في الرِّئة. وهذهَ هي الطَّواعين وأمراضها مخصوصةٌ بالرئة. وإن كان الفسادُ دونَ القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحميَّات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك.

وسبب كثرة العَفَن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرةُ [ظ٢/١٣٣] العمران، ووفوره آخرَ الدولة، لَمَا كان في أوائلها من حسن الملَكَةِ، ورفقها وقلة المَغْرَم، وهو ظاهر. ولهذا تبيَّن في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروريٌّ، ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفسادَ والعَفَن بمخالطة الحيوانات، ويأتي بالهواء الصحيح.

ولهذا أيضاً فإن الموتان يكونُ في المُدن الموفورة العمران أكثرَ من غيرها بكثيرٍ، كمصر بالمشرق، وفاس بالمغرب. وا لله يقدرُ ما يشاء.

١-٣-٢-٥٢- الفَصْل الثاني والخمسون:
في أنَّ الْعُمْرَان الْبَشَرِيّ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ سِيَاسَةٍ يَنتظم بها أمرهُ

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضَرُورْي(١)، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازعٍ حاكم يرجعون إليه. **وحكمه فيهم: تارةً** يكون مستنداً إلى شرعٍ منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثَّواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلِّغه؛ **وتارةً** إلى سياسة عقليّة يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثوابِ ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم. **فالأولى يحصل نفعها في الدُّنيا والآخرة لعلم الشَّارع بالمصلح في العاقبة، ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة**؛ والثَّانية إنَّما يحصلُ نفعُها في الدُّنيا فقط.

وما تسمعه من **السِّيَاسة المدنية** فليس من هذا الباب، وإنَّما معناه عند الحكماء: ما يجبُ أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخَلْقه حتى يَسْتغنوا عن الحكَّام رأساً، ويسمون المجتمع الذي يحصلُ فيه ما يُسَمَّى من ذلك **بالمدينة الفَاضِلَة**؛ والقوانينَ المراعاةَ في ذلك **بالسِّياسةِ المدنيَّةِ**(٢)، وليس مرادهم السِّيَاسة التي يُحملُ عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة؛ فإن هذه غير تلك. وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع، وإنَّما يتكلمون عليها على جهة الفرضِ والتَّقديرِ.

ثُمَّ إنَّ **السِّياسة العقلية** التي قدَّمناها تكونُ على وجهين:

أحدهما: يراعى فيها المصالح على العموم، ومصالح السُّلطان في استقامة ملكه على الخصوص. وهذه كانت سياسة الفرس، وهي على جهة الحكمة. وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملَّة ولعهد الخلافة، لأنَّ الأحكام الشَّرعية مُغنيةٌ عنها في المصالح العامَّةِ والخاصَّةِ والآداب، وأحكام الملك مندرجة فيها(٣).

الوجه الثَّاني: أن يراعى فيها مصلحة السُّلطان، وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة، وتكونُ المصالح العامة في هذه تبعاً. وهذه السياسَة التي يحملُ عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملُوكِ في العالم من مسلم وكافر، إلاَّ أن ملوك المسلمين يجرون منها على ماتقتضيه الشَّريعة الإسلامية بحسب جهدهم [ظ١٣٤/١]، فقوانينها إذاً مجتمعةٌ من أحكام شَرْعِيَّة، وآداب خلقية، وقوانينَ في الاجتماع طبيعيَّة، وأشياء من مراعاة الشَّوْكة

---

١ – انظر المقدمة الأولى من الكتاب الأول وعنوانها: المقدمة الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري.

٢ – يشير بذلك على الأخص إلى آراء أفلاطون في كتابه الجمهورية وإلى آراء الفارابي في كتابه: آراء أهل المدينة الفاضلة. انظر فصول من آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي بقلم الدكتور وافي.

٣ – أي: في الخلافة.

والعصبيَّةِ ضروريَّة؛ والاقتداء فيها بالشرع أوّلاً، ثُمَّ الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم؛ ومن أحسن ما كتب في ذلك وأُوْدِعَ **كتابُ طاهر بن الحسين** لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاّه المأمون الرَّقَّة ومصر وما بينهما. فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور، عهد إليه فيه، ووصَّاهُ بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآدابِ الدِّينية والخُلُقيَّة، والسِّياسَة الْشَّرْعِيَّة والملوكيَّة، وحثَّهُ على مكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الْشِّيَمِ بما لا يَسْتَغْنِي عنه مَلِكٌ وَلاَ سُوْقَةٌ. ونص الكتابِ[1]:

بسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

أمَّا بَعْدُ: فَعَلَيْكَ بتقْوَى اللهِ وَحْدَه لا شريكَ له، وخشيتِه، ومُراقبتهُ عزَّ وجلَّ، ومزايلة[2] سُخطه، واحفظ رعيتكَ في اللَّيلِ والنَّهارِ. وَالْزَمْ مَا أَلْبَسَكَ الله منَ العَافِيَةِ بالذِّكرِ لمعَادكَ، وما أنتَ صَائِرٌ إليه، وموقوفٌ عليه، ومسؤولٌ عنه، والعملُ في ذلكَ كله بِمَا يَعْصِمُكَ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويُنْجيْكَ يومَ الْقِيامَةِ مِنْ عِقَابه وَأَلِيم عَذَابه[3]. فَإِنَّ الله سبحانهُ قد أحسنَ إليك، وأوجبَ الرَّأفة عليكَ بمن اسْتَرْعاكَ أمْرَهم من عِبَادِهِ، وَأَلْزمكَ العدل فيهم[4]، والقيام بحقِّه وحدودهُ عَلَيهم[5]، والذَّبّ عنهم، والدَّفعَ عن حَرِيمهم وبيضتهم[6]، والحَقْنَ لِدِمائهم، والأمنَ لِسِربهم[7]، وإدخالَ الْرَّاحة عَلَيْهِم [في معايشهم][8]. وَمُؤاخِذُكَ بما فرضَ عليكَ [من ذلكَ]، وموقِفكَ عليه، وسَائِلُكَ[9] عنه، وَمُثِيبُكَ عليه بما قدمت وأخرت. ففرِّغ لذلك فَهْمَكَ[10] وعقلَكَ وبصرَكَ، [ولا يُذهلك عنه ذاهل]، ولاَ يَشْغَلكَ عنه شاغلٌ، وَإِنَّهُ[11] رَأْسُ أَمْرِكَ وَمِلاَكُ شَأْنِك، وَأَوَّلُ مَا يُوقِفُكَ الله عليه[12].

---

١ - نص الكتاب في تاريخ الطبري (٥٨٢/٨ - ٥٩١). كاملاً. وأثبت أكثره ابن الأثير في تاريخه (٣٦٤/٦ - ٣٧٧).

٢ - يعني: الابتعاد عنه.

٣ - في الطبري: من عذابه وأليم عقابه.

٤ - في الطبري: عليهم.

٥ - في الطبري: فيهم.

٦ - في الأصل: منصبهم. وصحح من الطبري.

٧ - في الطبري: لسبيلهم.

٨ - ما بين: [ ] زيادة من الطبري.

٩ - في الطبري: مسائلك.

١٠ - في الطبري: فكرك..... وبصرك ورؤيتك.

١١ - في الطبري: فإنه.

١٢ - في الطبري: وأول ما يوفقك الله به لرشدك.

وَلِيَكُنْ أَوَّلُ ما تُلزمُ به نفسكَ، وتَنْسبُ إليه فعلَكَ[١] المواظبةَ على ما فرضَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليك من الْصَّلوات الخمسِ والجماعَة عليها بالنَّاسِ قَبْلَكَ، وتوابعها[٢]، على سننها، من إسباغِ الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله عَزَّ وجلَّ فيها، ورتِّل[٣] في قراءتكَ، وتمكَّن في ركوعك وسُجودكَ، وتَشَهُّدكَ، ولتصرفَ فيه رأيكَ ونيَّتكَ[٤]، واحضضِ عليه جَمَاعة مَنْ[٥] مَعَكَ وتحتَ يَدكَ، وادْأَبْ عليها فإنها[٦] كما قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥].

ثُمَّ أَتْبِعَ ذَلكَ بالأخذ بسننِ رَسُوْلِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، والْمُثابرةِ على خلائقه، واقتفاء أثر[٧] السَّلَفِ الْصَّالح من بعده.

وإذَا وردَ عليك أمرٌ فاستعن عليه باستخارة اللهِ عزَّ وجلَّ وتقواه، وبلزوم ما أنزل اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثارُ عن[٨] رسول الله [ظ٢/١٣٤] صلىَ الله عليه وسلم. ثُمَّ قُمْ فيه بالحقِّ للهِ عز وجلّ[٩]. ولا تَميلَنَّ عن العدل فيما أحببتَ أو كرهتَ لقريب من النَّاسِ أو لبعيد.

وآثِرْ الفِقهَ وأهلهُ، والدِّين وحَمَلَته، وكتابَ اللهِ عز وجلَّ والعاملين به، فإنَّ أفضلَ ما يتزيَّنُ به المَرءُ الفقهُ في الدِّينِ، والطلبُ له، والحثُّ عليه والمعرفةُ بما يتقرَّب به[١٠] إلى اللهِ عزَّ وجل فإنه الدَّليل على الخير، كلّه والقائدُ إليه[١١]، والآمر به، والنَّاهي عن المعاصي والموبقات كلِّها. و[بها] ــ مع توفيق الله عزَّ وجلَّ ــ يزدادُ المرء معرفة وإجلالاً له، ودَرَكاً للدَّرَجَات العُلَى في المعاد، مع ما في ظهوره للنَّاسِ من التَّوْقِيْرِ لأمركَ، والهَيبة لِسُلطانك، والأنسَة بك والثقة بعدلك.

---

١ – في الطبري: فعالك.

٢ – رجح الدكتور وافي أنها محرفة عن (وتوقعها). وأحسب أنه أراد بهذه العبارة ما يتبع الصلوات الخمس من الجمعة والعيدين... إن لم تكن محرفة عن (في مواقيتها) كما جاء في الطبري.

٣ – في الطبري: وترتل.

٤ – في ابن الأثير (وليصدق فيه رأيك ونيتك). وفي الطبري: (ولتصدُق فيه لربك نيتك)

٥ – في الأصل: ممن. والمثبت أوجه.

٦ – في الطبري: (فإنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر) و لم يذكر الآية.

٧ – في الطبري: آثار.

٨ – في الطبري: على النبي.

٩ – في الطبري: (قم فيه بما يحق لله عليك).

١٠ – في الطبري: فيه منه.

١١ – في الطبري: له.

وعليك بالاقتصاد في الأمور كلِّها، فليسَ شيء أبينَ نفعاً، ولا أخصّ[١] أمناً، ولا أجمع فضلاً منه، والقصدُ داعيةٌ إلى الرَّشد، والرشد دليلٌ على التوفيق، والتَّوفيق قائدٌ إلى السَّعادة، وقوامُ الدِّينِ والسُّنن الهادية بالاقتصَادِ، فآثره في دنياك كلها.

ولا تقصِّر في طلبِ الآخرة والأجر والأعمال الصَّالحة والسُّنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة[٢]، والاستِكْثار من البرِّ والسَّعي له، إذا كان يطلبُ به وجه الله تعالى ومرضاته، ومرافقة أولياء الله في دارِ كرامته.

واعلم[٣] أنَّ القصد في شأن الدُّنيا يورثُ العزّ، ويمحِّصُ[٤] من الذنوب، وأنَّك لن تحوط نفسكِ (من قائل)[٥]، ولا تنصَلحُ[٦] أمورك بأفضل منه، فأتهِ واهتَدِ به، تتمَّ أمورُكَ، وتزدَدْ مقدرتُك، وتصلحُ عامَّتك وخاصَّتك.

وأحسن ظنَّك بالله عزَّ وجلَّ تستقم لكَ رعيَّتك، والتَمِسْ الوَسِيْلَة إليه في الأمور كلِّهَا تستدِمْ بهِ النِّعمةَ عليك.

وَلا تَتَّهمَنَّ أحداً منَ النَّاسِ فِيْمَا تُوْلِيه من عملِكَ قبلَ أنْ تَكْشِفَ أمْره؛ فإنَّ إيْقَاعَ التُّهم بالبُرآء والظنون السَّيئة بهم إثمٌ[٧]. فاجعل من شأنك حسنَ الظَّنِّ بأصحابك، واطْرد عنك سوء الظَّنِّ بهم، وارْفُضْهُ فيهم[٨] يُعِنْك ذلك على استطاعتهم[٩] ورياضتهم، ولا يَجِدَنَّ[١٠] عدوّ اللهِ الشَّيطان في أمرك مَغْمَزاً، فإنه [إنما] يكتفي بالقليل من وَهنكَ، ويَدخل عليكَ من الغمِّ بسوءِ الظَّنِّ (بهم ما ينقص)[١١] لذاذةَ عَيْشِكَ.

واعْلَمْ: أنَّكَ تجدُ بحُسْنِ الظَّنِّ قوةً وراحة. وتكتفي[١٢] به ما أحببتَ كفايته من أمورك، وتدعو به النَّاسَ إلى محبَّتك والاستقامة في الأمور كلها [لك]. ولاَ يمنعكَ حسنُ الظَّنِّ بأصحابكَ، والرأفة برعيتك، أن تستعملَ المسألة والبحثَ عن أمورِكَ، والمباشرة

---

١ – في الطبري: أحضر.
٢ – في الطبري: فلا غاية للاستكثار..
٣ – في ن: أما تعلم.
٤ – في الطبري: يحصِّن.
٥ – في الطبري: (ومن يليك).
٦ – في الطبري: تستصلح.
٧ – في الطبري: مأثم.
٨ – في الطبري: عنهم.
٩ – في الطبري: اصطناعهم.
١٠ – في ن: ولا تتخذن
١١ – في الطبري: الظن ما ينغصك.
١٢ – في الطبري: تكفى.

لأمور الأولياءَ [والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها، بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء][١] وحياطةُ الرَّعيَّة والنَّظرُ في حوائجهم، وحملُ مؤوناتهم، آثرُ[٢] عندك مما سوى ذلك، فإنه أقومُ للدين وأحيا للسُّنة.

وأخلص نِيَّتك في جميع هذا، وتفرَّد بتقويم [ظ١٣٥/١] نفسك تفرُّدَ من يعلم أنه مسؤول عمَّا صنع، ومجزيٌّ بما أحسن، ومؤاخذٌ[٣] بما أساء. فإنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل الدِّينَ حِرْزاً وعزّاً، ورفع من اتَّبعه وعزَّزه.

واسْلُك بمن تسوسُه وترعاهُ نهجَ الدِّيْنِ وطريقةِ الهدى، وأقم حدود الله تعالى في أصحابِ الجرائم على قدرِ منازلهم وما استحقّوه، ولا تُعطِّلْ ذلك ولا تتهاون به، ولا تؤخِّر عقوبةَ أهل العُقوبة، فإنَّ في تفريطكَ في ذلك ما يفسدُ عليك حسنَ ظنِّكَ.

واعتزم[٤] على أمْركَ في ذلك بالسُّنن المعروفة، وجانب البدعَ والشُّبُهاتِ[٥]، يسلَمْ لك دينك وتعم[٦] لك مروؤتك.

وإذا عاهدتَ عهداً فأوْفِ به، وإذا وعدتَ الخير فأنجزه. واقْبَلِ الحسنةَ وادفع بها. واغْمض عن عيبِ كلِّ ذي عيبٍ من رعيَّتك. واشدد لِسَانكَ عن قول الكذبِ والزُّور، وابغَض أهل النَّميمة، فإن أوَّلَ فسادِ أمورك[٧] في عاجلها وآجلهَا، تقريبُ الكذوب، والجراءَةُ على الكَذبِ، لأنَّ الكَذِبَ رأسُ المآثم، والزُّوْرَ والنَّميمةَ خاتمتها؛ لأنَّ النَّميمة لا يسلمُ صَاحبها، وقائلها لا يسلمُ له صاحبٌ، ولا يستَقِيْمُ له أمْرٌ.

وأحبب أهلَ الصَّلاحِ والْصِّدق، وأعِزَّ[٨] الأشراف بالحقِّ، وأعِنْ[٩] الْضُّعفاءَ، وَصِلِ الْرَّحمِ، وابْتَغِ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز[١٠] أمره، والتَمس فيه ثوابه والدَّار الآخرة.

واجتنِبْ سوءَ الأهواء والجَوْر، واصرف عنهما رأيك، وأظْهرْ براءتكَ من ذلك لرعِيَّتك. وأنعم بالعدل سِيَاستهُم، وقُم بالحقِّ فيهم، وبالمعرفةِ التي تنتهي بكَ إلى سبيل

---

١ - ما بين: [ ] زيادة من الطبري.
٢ - في الأصل: أيسر. والمثبت من الطبري.
٣ - في الطبري: مأخوذ.
٤ - في الطبري: (اعزم).
٥ - في الطبري: الشّبه والبدعات.
٦ - في ن: (وتتم).
٧ - في الطبري: أمرك.
٨ - في الطبري: أعن.
٩ - في ن: وآس. وفي الطبري: وواصل.
١٠ - في الطبري: عزة.

الهدى، واملُك نفسَك عندَ الغَضَبِ، وآثِرْ الحلمَ والوقارَ، وإيَّاكَ والحدَّة والطَّيْشُ[1] والغرور فيما أنت بسبيله.

وإيَّاكَ أن تقول: أنا[2] مسلَّطٌ أفعلُ ما أشاء؛ فإنَّ ذلك سريعٌ [فيك] إلى نقص الرأي وقلَّة اليقين با لله عز وجل. وأخلص لله وحده النيَّة فيه واليقين به. واعلم أنَّ الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه[3] من يشاءُ وَيَنْزعهُ مِمَّنْ يشاءُ. وَلَنْ تَجدَ تَغَيّر النِّعمة وَحُلُولَ النِّقْمَةِ إلى أحدٍ أَسْرَعُ منه إلى حملة[4] النعمةِ من أصحاب السُّلطان، والمبسوط لهم في الدَّولةِ إذا كفروا نعم الله وإحسانه، واستطالوا بما أعطاهم[5] الله عزّ وجلّ من فضله. ودع عنكَ شرَه نفسكَ.

ولتكن ذَخَائِركَ وكنوزكَ التي تدّخر وتكنز البر والتَّقوى [والمعدلة][6]، واستصلاح الرَّعِيَّةِ، وَعِمَارةِ بلادِهم، وَالتَّفَقّدِ لأُمُوْرهم، وَالحِفظَ لدمَائِهم، وَالإغاثة لملهوفهم.

وَاعْلَمْ أنَّ الأموالَ إذا اكتنِزَتْ وادُّخِرَتْ في الخَزائنِ لا تنمُو[7]، وإذا كانت في صَلاَح الرَّعِيَّة، وإعْطَاء حُقوْقهم، وكفِّ الأذيَّةِ[8] عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكت[9]، وَصَلُحت بها[10] العامة، و(ترتبَت بها الولايةُ)[11]، وطابَ بها[12] الزَّمان، واعتُقِدْ فيها[13] العزّ والمنفعة[14].

فليكن كنزُ خزائنكَ[15] تفريقَ الأموال [ظ٢/١٣٥] في عمارةِ الإسلام وأهله، ووفِّر منه على أولياء أمير المؤمنين قِبَلَكَ حُقُوْقهم، وأوْفِ [رعيتك] من ذلك حِصَصهم، وتعهد

---

١ - في الطبري: (الطيرة).
٢ - في الطبري: إني.
٣ - انظر سورة آل عمران الآية: ٢٦.
٤ - في ن: جهلة.
٥ - في الطبري: يعطيه.
٦ - ما بين: [ ] زيادة من الطبري.
٧ - في الطبري: كثرت وذخرت.... لا تنمو.
٨ - في الطبري: المؤنة.
٩ - في الطبري: رَبَت.
١٠ - في الطبري: به.
١١ - في الطبري: تزينت الولاة.
١٢ - في الطبري: به.
١٣ - في الطبري: فيه.
١٤ - في الطبري: المنعة.
١٥ - في ظ: خزانتك.

مَا يصلح أمورهم ومعاشهم[١]؛ فإنَّكَ إذا فعلت ذلك قرَّت النعمة عليك، واستوجبتَ المزيدَ من الله تعالى، وكنت بذلك على جباية خراجك، وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر، وكان الجميعُ[٢] لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلسَ لطاعتك. وأطيب[٣] أنفساً بكل ما أردتُ.

واجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب، وليعظم حقك[٤] فيه. وإنَّما يبقى من المال ما أنفقَ في سبيل الله وفي سبيل حقِّه. واعرف للشَّاكرين حقَّهم[٥] وأثِبهم عليه.

وإيَّاكَ أن تنسيك الدُّنيا وغرورها هولَ الآخرة فتتهاون بما يحق عليك، فإن التَّهاون يورثُ[٦] التَّفريطَ، والتفريط يورثُ البَوار. وليكن عملكَ لله عز وجلَّ وفيه، وارْجُ الثَّواب منه، فإنَّ الله سبحانه قد أسبغ عليك [نعمته في الدنيا، وأظهر لديك] فضله. واعتصِمْ بالشُّكْرِ، وعليه فاعتمد، يَزِدْكَ الله خيراً وإحساناً، فإن الله عزَّ وجلَّ يُثِيبُ بقدر شكر الشَّاكِرِينَ، وإحسان[٧] المحسنين. [وقضّ الحقَّ فيما حمل من النعم، وألبس من العافية والكرامة]، ولا تُحقِّرَنَّ ذَنْباً، وَلاَ تُمالِئَنَّ[٨] حَاسِداً، وَلاَ تَرْحَمَنَّ فَاجِراً، وَلاَ تَصِلَنَّ كَفُوْراً وَلاَ تُداهِنن عَدوّاً، وَلاَ تُصدِّقنَّ نمَّاماً، ولا تأمننَّ غدّاراً، وَلاَ تُوالِيَنَّ فَاسِقاً، وَلاَ تتبعنَّ غاويّاً، ولا تحمدَنَّ مرائياً، ولاَ تُحقِّرَنَّ إنْسَاناً، وَلاَ تردنَّ سَائِلاً فَقِيْراً، وَلاَ تُحَسِّنَنَّ[٩] بَاطلاً، وَلاَ تُلاَحِظَنَّ مُضْحِكاً، وَلاَ تُخلِفَنَّ وَعداً، وَلاَ تزْهُونَّ فَخْراً[١٠]، وَلاَ تُظْهِرَنَّ[١١] غَضَباً، ولا تباينِنَّ رجاءً[١٢]، وَلاَ تمْشينَّ مرحاً، ولا تزَكِّيَنَّ سَفِيهاً[١٣]، وَلاَ تُفرِّطَنَ في طلبِ الآخرة، ولا ترْفعَنَّ للنَّمَّام عَيناً[١٤]، ولا تغمضنَّ عن ظالمٍ رهبة منه أو محاباةً[١٥]، ولاَ تَطْلُبَنَّ ثَوابَ الآخِرَة في الدُّنْيَا.

---

١ – في الطبري: معايشهم.
٢ – في الطبري: الجمع.
٣ – في ن: وطب.
٤ – في الطبري: لتعظم حسبتك.
٥ – في الطبري: شكرهم.
٦ – في الطبري: يوجب.
٧ – في الطبري: سيرة.
٨ – في الطبري: (تمايلن).
٩ – في الطبري: تجبن.
١٠ – في الطبري: ترهبن مجرًا.
١١ – في الطبري: تعملن.
١٢ – في الطبري: تأتين بذحاً.
١٣ – في الطبري: تركبن سفهاً.
١٤ – في الطبري: تدفع الأيام عياناً. وفي ابن الأثير: تدفع الأنام عتاباً. وفي ن: ترفع.
١٥ – في الطبري: الظالم رهبة أو مخافة.

وَأَكْثِرْ مُشَاوَرَة الْفُقَهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التَّجارب وذوي العقل والرأي والحكمة، ولا تُدْخِلَنَّ في مشورتك أهل الرَّفه[1] والبُخلِ، ولا تسمَعنّ لهم قولاً، فإنَّ ضررهم أكثر من نفعهم[2].

وليسَ شيءٌ أسرعَ فساداً لما استقبلتَ فيه أمر رعيَّتك من الشُّحِّ. واعلم أنَّك إذا كنت حريصاً كنت كثيرَ الأخذ قليلَ العطيَّة، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرُك إلا قليلاً، فَإنَّ رعيَّتك إنما تعقد[3] على محبَّتك بالكَفِّ عن أموالهم وترك الجَوْر عليهم[4]. ووال[5] من صَافَاكَ من أَوْلِيَائكَ بالإفضال عليهم وحُسْنِ العطيَّة لهم، واجتنب الشُّحَّ، واعلم أنه أول ما عصى الإنسانُ به ربَّه، وأنَّ العاصي بمنزلة الخزي، وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يُوْقَ شُحَّ نَفْسه، فَأُوْلَئكَ هُمُ الْمُفْلحون﴾[التغابن: ١٦]. فسهِّل طريق الجود بالحق، واجعل للمسلمينَ كلهم في فيئك[6] حَظّاً ونصيباً، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال [ظ١٣٦/١] العباد، فاعدده[7] لنفسك خلقاً، وارض به عملاً ومذهباً. وتفقد الجند في دواوينهم ومكاتبهم، وأدرَّ عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم في معايشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم، فيقوى[8] لك أمرهم، وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً. وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة في عدله وعطيته[9] وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته. فزايل مكروه أحد البابين[10] باستشعار فضلٍ[11] الباب الآخر، ولزوم العمل به، تلق إن شاء الله تعالى به نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً.

واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه[12] شيء من الأمور. لأنه ميزان الله الذي تعدل عليه (أحوال الناس)[13] في الأرض. وبإقامة العدل في القضاء

---

١ - في الطبري: الدقة. وابن الأثير: مذمة. وفي ن: الرقة.
٢ - في الطبري: منفعتهم.
٣ - في الطبري: تعتقد.
٤ - في الطبري: عنهم.
٥ - في ن: وابتدىء. وفي الطبري: ويدوم صفاء أوليائك لك.
٦ - في الطبري: من نيتك.
٧ - في ن: فأعده.
٨ - في الطبري: ويقوم.
٩ - في الطبري: حيطته.
١٠ - في الطبري: إحدى البليتين.
١١ - في الطبري: تكلمة.
١٢ - في الطبري: به.
١٣ - في الطبري: الأحوال.

والعمل، تصلح أحوال الرعية وتُؤمَنُ السبل، وينتصِفُ المظلوم، وتأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقيم[١] الدين، ويُجري السُّنن والشرائع في مجاريها[٢].

واشتد في أمر الله عز وجل. وتورع عن النَّطَف[٣]. وامض لإقامة الحدود. وأقلل العجلة، وأبعد عن[٤] الضجر والقلق، واقنع بالقسم، [ولتسكن ريحك، ويقرّ جدُّك]، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صحتك[٥]، واسدد في منطقك، وأنصف الخصم، وقف عند الشُّبهة، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباةٌ ولا مجاملةٌ[٦]، ولا لومةُ لائم، وتثبت، تَأنَّ وراقب، وانظر، وتفكَّرْ، وتدبَّر، واعتبر، وتواضع لربك، وارفق[٧] بجميع الرَّعيَّة، وسلِّط الحقَّ على نفسك، ولا تسْرِعنَّ إلى سفكِ دمٍ ـ فإنَّ الدِّماء من الله عز وجلّ بمكان عظيم ـ انتهاكاً لها بغَيْرِ حَقِّها.

وانْظُرْ هذا الخراج الذي استقَامت عليه الرَّعية، وجعله الله للإسلام عزّاً ورفعة، ولأهله توسعةً ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاديهم[٨] ذلاً وصغاراً، فوزِّعه بين أصحابه بالحقِّ والعدل، والتَّسْوية والعموم [فيه]، ولا تدفعنَّ[٩] شيئاً منه عن شريف لشرفه، ولا عن غني لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا عن أحد من خاصَّتك ولا حاشيتك، ولا تأخذنَّ منه فوق الاحتمال له. ولا تُكلِّف أمراً فيه شَطَطٌ. واحمل النَّاس كلَّهم على أمر[١٠] الحقّ، فإنَّ ذلك أجمع لألفَتِهم[١١] وَأَلزم لرضاء العامَّةِ.

واعلَم أنَّكَ جُعلتَ بولايتك خازناً، وحافظاً وراعياً. وإنَّما سمِي أهل عملك رعيتك لأنَّك راعيهم وقيِّمهم، فخذ منهم ما أعطوكَ من عفوهم[١٢] [وقدرتهم]، ونفذه[١٣] في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أوَدِهم. واستعمل [ظ١٣٦/٢] عليهم [في كور عملك]

---

١ – في الطبري: يقوم.
٢ – في الطبري: وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء.
٣ – أي: العيب والفساد.
٤ – في الطبري: من.
٥ – في الطبري: صمتك.
٦ – في الطبري: محاماة ولا لوم.
٧ – في الطبري: ارأف.
٨ – في الطبري: معاهدتهم. وابن الأثير: معانديهم.
٩ – في الطبري: ترفعن.
١٠ – في الطبري: مر.
١١ – في ن: لأنفسهم.
١٢ – عفو المال: ما يفضل عن النفقة. أي: خذ منهم مما تطيب به أنفسهم وهم قادرون على إعطائه.
١٣ – في الطبري ونسخة من ابن الأثير: تنفقه.

ذوي[١] الرَّأي والتدبير والتَّجربة والخبرة [بالعمل] وبالعلم والعدل[٢] بالسِّيَاسَـةِ والعفـاف، ووسِّع عليهم في الرزق، فإنَّ ذلك من الحقوق اللاَّزمة لك فيما تقَلَّدت وأُسند إليـك، فـلا يشغلك عنه شاغل، ولا يصرفـك عنـه صارفٌ. فـإنك متـى آثرتـه وقمـتَ فيـه الواجـب استدعيت به زيادة النعمةِ من ربِّكَ، وحسن الأحدوثة في عملك[٣]، واجترزت[٤] به المحبـة من رعيَّتك، وأعنتَ على الصَّلاح، فـدرَّت الخيراتُ ببلـدك، وفشَـت العمـارةُ بنـاحيتك، وظهر الخِصْبِ في كُوْرِ كَ[٥]، وكـثر خراجُـكَ، وتوفـرت أموالـك، وقويـتَ بذلـك علـى ارتياض[٦] جندك، وإرضاء العامَّةِ بإفاضةِ العطاء فيهم من نفسك، وكنتَ محمودَ السِّيَاسَةِ، مرضيَّ العدلِ في ذلك عند عدوِّكَ، وكنتَ في أمـورك كلِّهَـا ذا عـدل وآلـة وقـوّة وعُـدَّة. فنافس في ذلكَ ولا تُقَدّم عليه شيئاً تُحمدُ عاقبةُ[٧] أمركَ إن شاء الله تعالى.

واجْعَلْ في كُلِّ كُوْرَةٍ من عملكَ أميناً يخبركَ أخبار عُمَّالكَ، ويكتـب إليـك بسـيرهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كلِّ عاملٍ في عمله، معاينٌ لأموره كلها. فإذا أردت أن تأمرهم بأمرٍ فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السَّلامةَ فيه وَالعَافيـة، ورجـوتَ فيـه حسْنَ الدِّفاع [والنصح] والصنع فأمضِهِ، وإلا فتوقَّفْ عنه، وراجع أهلَ البَصَرِ والعلـمِ بـه، ثُمَّ خذْ فيه عُدَّته؛ فإنّه رُبَّما نظر الرجل في [أمر مـن] أمـره وقـد[٨] أتـاه علـى مـا يهـوى، فأغواه ذلك وأعجبَه، فإنْ لم ينظُر في عواقبه أهلَكَهُ، ونقض عليه أمره.

فاستعمِلِ الحزمَ في كلِّ ما أردت، وباشره بعد عون الله عـزَّ وجـلَّ بـالقُوَّةِ. وأكـثر مـن استخارةِ رَبِّكَ في جميع أمورك.

وافرغ من عمل يومك ولا تؤخِّره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسـك، فـإنَّ لغـدٍ[٩] أمـوراً وحوادث تلْهيكَ عن عمل يومك الذي أخَّرْت.

واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخَّرت عمله اجتمـع عليـك عمـل يومـين، فيشغلك[١٠] ذلـك حتـى تمـرض منـه[١١]. وإذا أمضيـت لكـل يـوم عملـه أرحـتَ بدنـك ونفسكَ، وجمعت[١٢] أمرَ سُلطانكَ.

---

١ – في نسخة: أولي.
٢ – في الطبري: بالعمل. والعلم بالسياسة. وفي الأصل: والخبرة وبالعلم والعدل.
٣ – في الطبري: أعمالك.
٤ – في ن: استجررت. وفي الطبري: احتززت النصيحة. وفي ابن الأثير: احتززت به المحبة.
٥ – في القاموس: الكورة: المدينة. والصقع وجمعه كور.
٦ – في الطبري وابن الأثير: ارتباط.
٧ – في الطبري وابن الأثير: مغبة.
٨ – في ن: وقدره و.
٩ – في ن: للغد.

وانظرْ أحرار النَّاسِ وذوي (الفضل منهم ممَّن بلوت)[١] صفاءَ طويَّتهم، وشهدت[٢] مودَّتهم لك، ومظاهرتهم بالنُّصْحِ والمحافظةِ[٣] على أمْرِكَ، فاستخلصهم وأحسن إليهم، وتعاهد أهلِ البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، واحتمل مؤنتهم. وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا لخلّتهم منافساً[٤]. وأفْرِد نفسك للنَّظَرِ في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدرُ على رفع مظلمته إليك، والمحتقَرِ الذي لا علم له بطلب حقّه، فَسَلْ عنه أحفى[٥] مسألة، ووكّل بأمثاله أهل الصَّلاح من رعيَّتك، ومُرْهم برفعِ حوائجهم وحالاتهم[٦] إليك، لتنظرَ فيما يصلح الله به أمرهم. وتعاهد ذوي البَأْسَاء وأيتامهم [ظ١٣٧/١] وأرَاملهم، واجعل لهم أرْزَاقاً من بيتِ المال اقتداءً بأميرِ المؤمنين أعزَّهُ الله تعالى، في العطفِ عليهم والصِّلَة لهم، ليصلح الله بذلك عَيْشَهم، ويرزُقك به بركة وزيادة. وأَجْرِ للأضِرَّاءِ[٧] من بيت المال، وقدّم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية[٨] على غَيرهم.

وانصُبْ لمرضى المسلَمين دوراً تأويهم وقُوَّاماً يرفقون بهم، وأطِبَّاءَ يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤدِّ ذلك إلى سَرَفٍ[٩] في بيت المال.

واعلم أنَّ النَّاسَ إذا أعطوا حقوقَهم وأفضل أمانِيِّهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دونَ رفعِ حوائجهم إلى وُلاتهم، طمعاً في نيل الزِّيَادة وفضل الرِّفق بهم[١٠]، وربَّما تبرم المتصفِّحُ لأمور النَّاسِ لكثرة ما يرد عليه. ويشغل فكرهُ وذهنه منها ما يناله به من مؤونة ومشقَّة. وليس من يرغب في العدل، ويعرف محاسنَ أموره في العاجل وفضل ثوابِ الآجلِ، كالَّذِي يستقلُّ[١١] ما يقرِّبه إلى الله تعالى ويلتمسُ رحمته به.

---

١٠ - في ن: فيثقلك.

١١ - في الطبري وابن الأثير: تعرض عنه.

١٢ - في الطبري وابن الأثير: أحكمت أمور سلطانك.

١ - في الطبري:(الشرف منهم، ثم استيقن). وفي ابن الأثير: (السن منهم ممن تستيقن).

٢ - في الطبري: تهذيب.

٣ - في الطبري وابن الأثير: المخالصة.

٤ - وفي ن: منافراً. من معاني المنافرة المفاخرة. وهذا المعنى هو المقصود في هذه العبارة. أي: حتى لا يجدوا من يتعاظم عليهم بسبب فقرهم.

٥ - يعني: اهتم بأمره وبالغ في رعايته.

٦ - يعني هنا: الحاجة والفقر والخصاصة.

٧ - في القاموس: الأضراء، جمع ضرير وهو الذاهب البصر. وفي بعض النسخ: الأمراء.

٨ - في ابن الأثير: الجرائد.

٩ - في ن: إسراف.

١٠ - في الطبري وابن الأثير: منهم.

١١ - في الطبري: يستقبل. وابن الأثير: يستثقل.

وأكثر الإذْنَ للناس عليك وأبرز لهم[1] وجهكَ، وسكِّن لهم حواسَّكَ[2]، واخفض لهم جناحكَ، وأظهر لهم بشرَكَ، ولِنْ لهم في المسألة والنُّطق[3]، واعطف عليهم بجودكَ وفَضْلِك، وإذا أعطيتَ فأعطِ بسماحة وطيب نفسٍ والتماسٍ[4] للصَّنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان[5]؛ فإنَّ العطيَّةَ على ذلك تجارةٌ مُربحةٌ إن شاء الله تعالى.

واعتبر بما ترىً من أمور الدُّنيا ومن مضى من قَبْلكَ من أهل السُّلطان والرِّئاسة في القرون الخالية والأمم البائدة.

ثُمَّ اعتصمْ في أحوالك كلِّها بـ[أمر] الله سبحانه وتعالى، والوقُوفِ عندَ محبَّته والعمل بشريعته وسنته، وبإقامةِ دينه وكتابه، واجتنب ما فارقَ ذلك وخالَفَه ودعا إلى سخط الله عزَّ وجلّ.

واعْرف ما يجمعُ عمَّالك من الأموال، وما ينفقون منها. ولا تجمع حراماً، ولا تُنفق إسرافاً.

وأكْثِرْ مجالسَةَ العُلَماء ومُشَاوَرَتهم ومخالَطَتهُم، وليكن هواكَ اتباعَ السنن وإقامتها، وإيثارَ مكارم الأخلاق[6] ومعاليها. وليكن أكرمَ دُخلائك وخاصَّتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتكَ من إنهاء ذلك إليكَ في سرك، وإعلامِكَ[7] بما فيه من النَّقصِ؛ فإنَّ أُوْلَئكَ أَنْصَحُ أوليائكَ ومظاهرون لك.

وانظر عمَّالك الَّذينَ بحضرتك وكُتَّابكَ، فوقِّت لكل رجلٍ منهم في كل يوم وقتاً يدخلِ عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمَّالِكَ وأُمور الدَّوْلَةِ[8] ورعيَّتك. ثُمَّ فرِّغ لما يُورد عليك من ذلك سَمعكَ وبَصَرَك وفهمك وعقلكَ، وكرِّر النَّظرَ فيه[9] والتَّدبُّر له، فما كان موافقاً للحقِّ والحزْم فأمضهِ، واستخر الله عزَّ وجلَّ فيه، وما كان مخالفاً [ظ١٣٧/٢] لذلك فاصرفهُ إلى المَسْألةِ عنه، والتَّثبُّتِ فيه.

---

١ - في نسخة: وأرهم.

٢ - في بعض النسخ: وسكن حراسك، وفي الطبري: أحراسك. وفي نسخة من ابن الأثير: حراسك. وفي نسخة موافق لما هنا. أي: اجعلهم ساكنين حتى يدخل عليك من يريد لقاءك.

٣ - في الطبري وابن الأثير: المنطق.

٤ - في الطبري: التمس الصنيعة.

٥ - في الطبري: مكدر ولا منان.

٦ - في الطبري وابن الأثير: الأمور.

٧ - في ن: (وإعلانك).

٨ - في الطبري وابن الأثير: كدرك.

٩ - في الطبري: إليه.

ولا تمنن[1] على رَعِيَّتك ولا غيرهم بمعروفٍ تؤتيه إليهم. ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعونَ في أمور أمير المسلمين[2]، ولا تَضَعَنَّ المعروف إلا على ذلك.

وَتَفَهَّمْ كتابي إليكَ وأَمْعِنْ[3] النَّظَر فيه والعملَ به، واسْتَعِنْ با لله على جميع أمورك واستخره، فإنَّ ا لله عزَّ وجلَّ مع الصلاح وأهله. وليكن أعظمُ سيرتك وأفضلُ رغبتكَ ما كان لله عز وجل رضاً، ولدينه نظاماً، ولأهله عزّاً وتمكيناً، وللملَّةِ والذِّمة عدلاً وَصَلاحاً.

وأنا أَسْأَلُ ا لله عز وجلَّ أن يحسنَ عونكَ وتوفيقكَ ورشدكَ وكلاءتكَ والسَّلام.

وحدث الإخباريون أنَّ هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أُعجبَ به النَّاسُ واتَّصلَ بالمأمون فلما قرىء عليه قال:

ما أبقَى أبو الطَّيب ـ يعني: طاهراً ـ شيئاً من أمور الدُّنْيَا والدِّيْنِ والتَّدبير والرأي والسِّياسةِ وصلاحِ المُلك والرَّعيَّة وحفظ السُّلطان وطاعةِ الخلفاءِ وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به.

ثُمَّ أمر المأمون فكتبَ به إلى جميع العُمَّال في النَّواحي لِيَقتدوا به، ويعملوا بما فيه.

هذا أحسنُ ما وقفتُ عليه في هذه السِّيَاسة وا لله أعلم.

---

١ – في ن: ولا تمتن.

٢ – في الطبري وابن الأثير: (المؤمنين).

٣ – في ن: (وأنعم). وفي الطبري وابن الأثير: أكثر.

١-٣-٥٣- الفصل الثالث والخمسون: في أَمْرِ الْفَاطِمِيّ ومَا يَذْهَبُ إليهِ النَّاسُ في شأنه وكشفِ الغطاء عن ذَلِكَ

اعلم أنَّ في المشهور بينَ الكافَّةِ من أهل الإسلام على ممرِّ الأعصار، أنَّه لا بُدَّ في آخر الزَّمان من ظهورِ رجلٍ من أهل البيت يؤيِّدُ الدِّين، ويظهر العدلَ، ويتبعه المسلمون، ويستولي على المَمالك الإسلامية، ويُسَمَّى بالمهدي؛ ويكون خروج الدَّجَّال وما بعده من أشراط السَّاعة - الثَّابتة في الصَّحيح - على أثره؛ وأنَّ عيسى ينزل من بعده فيقتل الدَّجَّالَ، أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتمُّ بالمهديِّ في صلاته ويحتجُّونَ في هذا الشَّأن بأحاديث خرَّجها الأئمة وتكلَّمَ فِيْهَا المنكرون لذلك، وَرُبَّما عارضوها ببعض الأخبار. وللمتصوِّفة المتأخرين في أمْرِ هذا الْفَاطمي طريقة أخرى، ونوع من الاستدلال؛ وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم[1].

ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشَّأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في إنكارهم من المستند، ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم، ليتبين لك الصحيح من ذلك إن شاء الله تعالى فنقول:

إنَّ جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهديِّ منهم الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجة والحاكم والطَّبراني وأبو يعلى الموصلي، وأسندوها إلى جماعةٍ من الصَّحابة مثل علي وابن عبَّاسٍ وابن عمرَ وطلحة وابن مسعودٍ وأبي هريرةَ وأنس وأبي سعيد الخُدْريّ وأم حبيبة وأم سلمة [ظ١٣٨/١] وثوبان وقُرَّة بن إيَّاس وعليّ الهلالي وعبد الله بن الحَارث ابن جَزْء، بأسانيد رُبَّما يعرض لها المنكرون كما نذكره، إلا أن المعروف عند أهل الحديث أنَّ الجرحَ مقدَّمٌ على التعديل. فإذا وجدنا طعناً في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظٍ أو ضعفٍ أو سوء رأي تطرق ذلك إلى صحَّة الحديث وأوهن منها. ولا تقولنَّ: مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصَّحيحين[2]، فَإنَّ الإجماعَ قد اتَّصَلَ في الأمَّةِ على تلَقِّيهما بالقبول والعمل بما فيهما؛ وفي الإجماع أعظمَ حماية وأحسنُ دفع. وليس غير الصَّحيحين بمثابتهما في ذلك، فقد نجد مجالاً للكلامِ في أسانيدها بما نقلَ عن أئمة الحديث في ذلك.

ولقد توغَّلَ أبو بكر بن أبي خيثمة - على ما نقل السهيلي عنه - في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فقال: ومن أغربها إسناداً ما ذكره أبو بكر الإسْكَاف في فوائد

---

١ - في ن: طوائفهم.

٢ - يعني البخاري ومسلم.

الأخبار[١]، مسنداً إلى مالك بن أنس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من كَذَّبَ بالمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ، ومن كَذَّبَ بالدَّجَّالِ فقد كفر**»[٢].

وقال في طلوع الشَّمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب. وحسبك هذا غلواً. والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس. على أنَّ أبا بكر الإسكاف عندهم متَّهمٌ وَضَّاعٌ[٣].

وأمَّا التِّرمذي فخرَّجَ هو وأبو داود[٤] بسنديهما إلى ابن عبَّاس[٥] من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السَّبعة إلى زرِّ بن حُبَيْش، عن عبد الله بنِ مسعود، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم: «**لو لم يبقَ من الدُّنيا إلا يومٌ لَطوَّل الله ذلك اليومَ حتَّى يبعثَ الله فيه رجلاً منِّي - أو من أهل بيتي - يُواطئُ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي**». هذا لفظ أبي داود. وسكت عليه. وقال في رسالته المشهورة: إنَّ ما سكت عليه في كتابه فهو صالح.

ولفظ التِّرمذي[٦]: «**لا تذهب الدُّنيا حتى يملكَ العرب رجلٌ من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي**». وفي لفظٍ آخر: «**حتَّى يَلِي رجلٌ من أهل بيتي**». وكلاهما حديثٌ حسنٌ صحيح.

ورواه أيضاً من طريقه[٧] موقوفاً على أبي هريرة.

وقال الحاكم[٨]: رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم[٩] من أئمة المُسْلمين عن عاصم. قال: وطرق عاصم، عن زر، عن عبد الله، كلها صحيحة على ما أصَّلته من الاحتجاج بأخبار عاصم، إذ هو إمامٌ من أئمة المسلمين. انتهى.

إلاَّ أنَّ عاصماً[١٠] قال فيه أحمدُ بن حنبل: كانَ رجلاً صالحاً قارئاً للقرآن خيِّراً ثقةً. والأعمش أحفظ منه. وكان شعبةُ يختار الأعمشَ عليه في تثبيت الحديث.

---

١ - نقله السيوطي في الحاوي (٨٣/٢) عن أبي بكر الإسكاف، و لم يزد على ذلك.

٢ - في بعض النسخ: ومن كذب بالدجال فقد كذب.

٣ - أي: يكثر من وضع الأحاديث واختلاقها.

٤ - أخرجه أحمد (٣٧٦/١ و٣٧٧ و٤٣٠ و٤٤٨) وأبو داود (٤٢٨٢) الترمذي (٢٢٣٠ و٢٢٣١) من طرقٍ عن عاصم به.

٥ - لا معنى لقوله (ابن عباس). إلا إذا تحرفت عن (ابن عياش). وفي هذا مؤاخذة أخرى لأنه من طريق أبي بكر بن عياش في أبي داود فقط.

٦ - وهو رواية لأبي داود أيضاً.

٧ - في الأصل: طريق. والصحيح ما أثبته لأنه من طريق عاصم في الترمذي (٢٢٣٢).

٨ - انظر قول الحاكم في المستدرك في موضعين (٤٤٢/٤ و٥٥٧).

٩ - أي وسفيان بن عيينة وعمر بن عبيد، وأبو بكر بن عياش، وفطر. وانظر التخريج الأول.

١٠ - انظر هذه الأقوال في تهذيب الكمال للحافظ المزي (٤٧٣/٣ - ٤٨٢).

وقال العجلي: كان يختلف عليه في زر وأبي وائل [ظ٢/١٣٨]. يشير بذلك إلى ضعفِ روايته عنهما.

وقال محمد بن سعد: كان ثقة إلا أنه كثير الخطأ في حديثه.

وقال يعقوب بن سفيان: في حديثه اضطراب.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قلت لأبي، إنَّ أبا زرعةَ يقول: عاصمٌ ثقةٌ، فقال: ليس محلّه هذا. وقد تكلّم فيه ابنُ عُلَيَّة فقال: كلُّ من اسمه عاصم سَيِّءِ الحفظ.

وقال أبو حاتم: محله عندي محل الصِّدْقِ، صالح الحديث. و لم يكن بذلك الحافظ. واختلف فيه قول النسائي.

وقال ابن خرَّاش[1]: في حديثه نكرة.

وقال أبو جعفر العُقيلي: لم يكن فيه إلا سوء الحفظ.

وقال الدَّارقطني: في حفظه شيءٌ.

وقال يحيى القطّان: ما وجدتُ رجلاً اسمه عاصم، إلا وجدته رديء الحفظ. وقال أيضاً: سمعت شعبة يقول: حدثنا عاصم بن أبي النجود، وفي النَّفس[2] ما فيها.

وقال الذهبي[3]: ثبتٌ في القراءِة، وهو في الحديث دونَ الثَّبت، صدوق يهم[4]. وهو حسن الحديث.

وإن احتجَّ أحدٌ بأنَّ الشَّيْخَينِ أخرجا له فنقولُ: أخرجا له مقروناً بغيره لا أصلاً. والله أعلم.

وخرَّجَ أبو داود[5] في الباب عن عليٍّ رضي الله عنه من رواية فطر بن خليفة، عن القاسم بن أبي بَزَّة[6]، عن أبي الطفيل، عن علي، عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **«لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إلاَّ يَوْمٌ لبعثَ الله رجلاً من أهلِ بيتي يملأها عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً»**.

---

١ - في الأصل: حراش. خطأ.

٢ - في الأصل: (الناس) خطأ. صحح من تاريخ ابن عساكر (٢٢/٣). وميزان الاعتدال. أي: وفي النفس من ناحيته وناحية الثقة بكلامه ما فيها. وهو: عاصم بن بهدلة.

٣ - انظره في ميزان الاعتدال (٢/٣٥٧ - ٣٥٨).

٤ - في الأصل: فهم. خطأ. صحح من الميزان.

٥ - أخرجه أبو داود (٤٢٨٣). وأخرجه أحمد (٩٩/١) من طريقين قال في أحدهما: قال أبو نعيم الفضل بن دكين: وسمعه [أي: فطر] مرة يذكره عن حبيب [يعني ابن أبي ثابت].

٦ - في الأصل: (مرة) خطأ. وصححه الدكتور وافي إلى (برة) خطأ أيضاً. وهو ابن بَزَّة وهو ثقة قليل الحديث.

وفطر بن خليفة[١]، وإن وثقه أحمد ويحيى بن القطّان وابن معينٍ والنَّسائي وغيرهم، إلا أنَّ العجلي قال: حسنُ الحديث وفيه تَشَيُّعٌ قَلِيْلٌ.
وقال ابن معين مرَّةً: ثقةٌ شيعيٌّ.
وقال أحمد بن عبد الله بن يونس: كنّا نمرُّ على فطر وهو مطروح لا نكتبُ عنه.
وقال مرَّةً: كنتُ أمرُّ به وأدعهُ مثل الكلبِ.
وقال الدَّارقطني: لا يحتجُّ به.
وقال أبو بكر بن عيَّاش: ما تركتُ الرِّوَايَةَ عنهُ إلاَّ لسوء مذهبه.
وقال الْجَوْزَجَاني[٢]: زَائِغٌ غير ثقة. انتهى.
وخرَّج أبو داود[٣] أيضاً بسنده، إلى علي رضي الله عنه، عن هارون بن المغيرة، عن عمرو[٤] بن أبي قيس، عن شُعيب بن خالد[٥]، عن أبي إسحاق السَّبيعي قال: قال عليٌّ ونظر إلى ابنه الحسن: «**إنَّ ابْنِي هذا سَيِّدٌ كمَا سَمَّاهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، [و] سيخرجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى باسمِ نَبِيِّكم يُشْبِهُهُ في الخُلُقِ ولا يُشْبهُهُ في الخَلْقِ يَمْلأُ الأرْضَ عدلاً**».
وقال هَارُوْنُ: حدثنا (عمرو)[٦] بن أبي قيس، عن مُطَرِّف بن طريف، عن أبي الحسن، عن هلال بن (عمرو)[٧]، سمعت علياً يقول: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «**يَخْرُجُ رَجُلٌ من وَراءِ النَّهْرِ يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ** [حرّاث]، **عَلَى مُقَدِّمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لـه: مَنْصور يُوَطِّىءُ أو يمكِّنُ لآلِ محمَّدٍ كما مكنت قريشٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وجب** [ظ١٣٩/١] **على كل مؤمن نصرهُ، أو قال: إجابته**».
سكت أبو داود[٨] عليه. وقال في موضع آخر[٩]: **هارون** هو من ولد الشِّيعة .
وقال السُّليماني: فيه نظر[١٠].

---

١ - انظر ترجمته وتوثيق هذه الأقوال في تهذيب الكمال (٣١٢/٢٣ - ٣١٦) وميزان الاعتدال (٣/ت٦٧٧٩) وخلاصة رأي الذهبي فيه أنه ثقة، إذ ذكره في من تكلم فيه وهو موثق.
٢ - في الأصل: (الجوجاني) خطأ. وقوله في كتابه: أحوال الرجال ترجمة (٧٢).
٣ - رقم: (٤٢٩٠).
٤ - في الأصل: (عمر) خطأ.
٥ - في الأصل: (ابن أبي خالد) خطأ. وهو البجلي الرازي قاضي الري. ليس به بأس. وانظر ترجمته في تهذيب الكمال (٥٢١/١٢ - ٥٢٢).
٦ -في الأصل: (عمر) خطأ.
٧ - في الأصل (عمر) خطأ. صحح من أبي داود وكتب الرجال.
٨ - أبو داود (٤٢٩٠).
٩ - الذي في تهذيب الكمال (١١١/٣٠) وميزان الاعتدال (٢٨٧/٤): ليس به بأس، هو من الشيعة.

وقال أبو داود في **عمرو**[١] **بن أبي قيس**: لا بأسَ به. في حديثه خطأٌ.
وقال الذهبي: صَدُوْقٌ لهُ أَوْهَام[٢].
وأمَّا أبو إسْحَاقَ السبيعي[٣]: وإن خرّج عنه في الصَّحيحين فقد ثبتَ أنه اختلط آخر عمره، وروايته عن علي منقطعة، وكذلك[٤] رواية أبي داود عن هارون بن المغيرة.
وأمَّا السَّندُ الثَّاني، **فأبو الحسن فيه وهلال بن عمرو**[٥]: مجهولان؛ ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مُطَرِّف بن طريف عنه. انتهى.
وخرَّج أبو داود[٦] أيضاً عن أم سلمة وكذا ابن ماجة[٧]، والحاكم في المستدرك[٨]، من طريق علي بن نُفَيل[٩]، عن سعيد بن المُسَيِّب، عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**المَهْدِيُّ [من عترتي] من ولد فاطمة**».
ولفظ الحاكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهديَّ فقال: «**نَعَمْ هُوَ حَقٌّ، وَهُوَ من بني فاطمة**».
ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره، وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال: لا يتابع علي ابن نفيل عليه، ولا يعرف إلا به[١٠].
وخرَّج أبو داود[١١] أيضاً عن أم سلمة من رواية صالح أبي الخليل[١٢]، عن صاحب، عن أم سلمة قال: «**يكونُ اختلافٌ عند موتِ خليفة، فيخرجُ رجلٌ من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه ناسٌ من أهل مكة، فيُخرجونه وهو كارهٌ، فيبايعونه بين الرُّكنِ**

---

١٠ - تفرد السليماني بهذا القول، وقد وثقه غير واحد.
١ - في الأصل: عمر. خطأ.
٢ - وقد وثقه ابن معين وابن حبان وابن الجنيد وقال البزار: مستقيم الحديث. انظر تهذيب الكمال (٢٢/٢٠٣ - ٢٠٥).
٣ - في الأصل: (الشيعي) خطأ.
٤ - أي: أن الحديث الذي مر قبل قليل منقطعٌ. بسبب رواية أبي إسحاق، عن علي. وخصوصاً لعدم تصريح السبيعي بسماعه من علي.
٥ - في الأصل: عمر. خطأ.
٦ - رقم: (٤٢٨٤).
٧ - رقم: (٤٠٨٦).
٨ - المستدرك: (٤/٥٥٧).
٩ - وثقه ابن حبان. وقال أبو حاتم: لا بأس به، وأثنى عليه أبو المليح الرقي. انظر تهذيب الكمال (٩/٤٣٦ - ٤٤٧) و(٢١/١٦٢ - ١٦٣).
١٠ - وقال البخاري في تاريخه الكبير (٣/ت١١٧١) عن هذا الإسناد: في إسناده نظر.
١١ - أخرجه أحمد (٦٣١٦) وأبو داود (٤٢٨٦ و٤٢٨٧).
١٢ - هو صالح بن أبي مريم. وقد تحرف في مطبوعة الدكتور وافي إلى صالح بن الخليل.

والمقامِ، فيبعث إليه بعثٌ من الشَّامِ، فيخسف بهم بالبيداء بينَ مكّة والمدينة، فإذا رأى النَّاسُ ذلك أتاه أبدَالُ[١] **أهلِ الشَّامِ، وعصائبُ أهل العراق فيبايعونه، ثُمَّ ينشأُ رجلٌ من قريش أخواله كلب فيبعثُ إليهم بعثاً فيظهرون عليهم، وذلك بَعثُ كلبٍ، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلبٍ، فيقسم المال، ويعملُ في النَّاسِ بسنَّةِ نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويلْقِي الإسلام بجِرَانه**[٢] **على الأرْضِ، فيلبثُ سبع سنين»**. وقال بعضهم: «**تسع سنين [ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون]**».

ثُمَّ رواه أبو داود[٣] من رواية أبي الخليل، عن عبد الله بن الحارث، عن أم سلمة، فتبين بذلك المبهم في الإسناد الأول، ورجاله رجال الصَّحيحين[٤] لا مطعنَ فيهم ولا مغمزَ.

وقد يُقَالُ: إنه من رواية قتادة عن أبي الخليل، وقتادة مُدَلِّس، وقد عنعنه. والمدلِّس لا يُقبل من حديثِهِ إلا ما صرَّحَ فيه بالسَّماعِ. مع أنَّ الحديث ليس فيه تصريحٌ بذكر المهدي. نعم ذكره أبو داود في أبوابه.

وخرَّج [ظ٢/١٣٩] أبو دَاود[٥] أيضاً وتابعه الحاكم، عن أبي سعيد الخدري من طريق عمران القطَّان، عن قتادة، عن أبي نَضْرَة[٦]، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ**[٧] **أَقْنَى الأَنْفِ**[٨] **يملأُ الأرضَ قِسْطاً**

---

١ - الأبدال: قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض، اختلف في عددهم: ٧، ١٤، ٣٠، ٤٠، ٦٠، ٧٠، ٨٠. وقيل: أربعون رجل وأربعون امراة. صفاتهم: ليسوا بالمتنطعين ولا بالمبتدعين ولا بالمتعمقين ولا بالمعجبين بأعمالهم. غير مكثرين من الصلاة والصوم والصدقة، يمتازون بسخاوة النفس وسلامة القلب والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، حسننة أخلاقهم ونيتهم وورعهم، غير متماوتين ولا طعانين على الأئمة ولا بالمتهالكين لا المتناوشين وليسوا متخشعين لا يلعنون شيئاً ولا يؤذون أحداً لا يتطاولون على أحدٍ تحتهم ولا يحتقرونه، ولا يحسدون أحداً فوقهم، ولا يحبون لدنيا ولا يحبون الدنيا. ولا يضربون بأيديهم شيئاً. يعفون عمن ظلمهم ويحسنوون إلى من أساء إليهم ويتواسون فيما آتاهم الله، يرضون بالقضاء ويصبرون عن محارم الله ويغضبون في ذات الله، علامتهم: قلة الكلام والطعام والمنام واعتزال الأنام. انظر تفصيلات ذلك في الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال للسيوطي وطبقات الصوفية للسلي (ص٥١).

٢ - الجران: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره. فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل : ألقى جرانه. والتعبير هنا كناية عن الاستقرار والتمكن.

٣ - رقم: (٤٢٨٨).

٤ - يريد الإسناد الأول إذا ثبت أن صاحب صالح هو عبد الله بن الحارث وإلا فإن في الإسناد الثاني، أبو العوام عمران بن داود القطان، وقد تحدث عنه فيما يأتي.

٥ - رقم: (٤٢٨٥).

٦ - في الأصل: بصرة. خطأ.

٧ - في القاموس: هو أجلى الجبهة: واسعها.

٨ - في القاموس: قنا الأنف: ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه.

وَعَدْلاً كما مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِيْنَ»[1]. هـذا لفظ أبي داود، وسكت عليه.

ولفظ الحاكم[2]: «**الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، أَشَمُّ الأَنْفِ أَقْنَى، أَجْلَى، يَمْلأُ الأَرْضَ قِسطاً وَعَدْلاً، كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً، يَعِيْشُ هَكَذَا، وَبَسَطَ يَسَارَهُ وَإِصْبَعَيْنِ من يَمينه الْسَّبَّابة**[3] **والإبهام وَعَقدَ ثَلاَث**».

قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيح على شرط مسلم، و لم يُخرِّجاه[4]. انتهى.

وعمرانُ القَطَّان مختلفٌ في الاحتجاجِ به، إنما أخرج له البخاري استشهاداً لا أصلاً. وكان يحيى القطَّان لا يحدث عنه[5].

وقال يحيى بن معين: ليسَ بالقويِّ، وقال مرّة: ليس بشيء.

وقال أحمدُ بن حنبل: أرْجُو أن يكونَ صالح الحديث.

وقال يَزِيْدُ بن زُرَيْعٍ: كَانَ حَرُوْرِيّاً[6]، وكان يرى السَّيْفَ على أهل القبلَةِ.

وقال النَّسائي: ضعيف.

وقال أبو عبيد الآجُرّي: سألت أبا داود عنه فقال: من أصحاب الحسن، وما سمعت عنه إلا خيراً. وسمعته مرة أخرى ذكره فقال: ضعيفٌ، أفتى في أيَّامِ إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بفتوى شديدة، فيها سَفْكُ الدِّماء.

وخرَّج[7] التِّرمذي وابن ماجة والحاكم، عن أبي سعيد الخدري، من طريق زيد العَمِّي، عن أبي صديق النَّاجي، عن أبي سعيد الخدري قال: خشينا أن يكون (بعد نبياً)[8] حدث، فسألنا نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**إنَّ في أُمَّتِي المَهْدِيّ، يخرجُ، يَعِيْشُ خَمْساً أَوْ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً**». زَيْدٌ الشَّاكُّ، قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: «**سِنِيْنَ**». قال:

---

١ – أخرجه أحمد (٣/١٧ و٢٨ و٣٦ و٧٠) من طرق عن مطر بن طهمان الوراق، والمعلى، وعوف وأبي هارون العبدي كلهم عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «لا تقوم الساعة حتى يملك رجل من أهل بيتي، أجلى أقنى، يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت قبله ظلماً، يكون سبع سنين». فلم ينص على تسميته وسيذكر قريباً أنها فيما يأتي وهي صحيحة لم يطعن فيها.

٢ – المستدرك (٤/٥٥٧).

٣ – في المستدرك: المسبحة.

٤ – وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: عمران ضعيف و لم يخرج له مسلم.

٥ – قال عمرو بن علي: كان عبد الرحمن بن مهدي يحدث عنه، وكان يحيى لا يحدث عنه، وقد ذكره يحيى يوماً فأحسن الثناء عليه. وانظر باقي الأقوال في تهذيب الكمال (٢٣/٣٢٨ – ٣٣٠).

٦ – الحرورية: فرقة من الخوارج. ينسبون إلى حروراء. وهي: قرية بقرب الكوفة كان بها أول اجتماعٍ لهم.

٧ – أخرجه أحمد (٣/٢١ و٢٦) والترمذي (٢٢٣٢) وابن ماجة (٤٠٨٣) والحاكم (٤/٥٥٨).

٨ – تحرف في المطبوع إلى: بعض شيء.

«فَيَجِيءُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ: يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي [أعطني]». قال: «**فَيَحثي لهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أن يَحْمِلَه**».

لَفْظُ التِّرْمذي وقال: هذا حديثٌ حسنٌ، وقد رويَ من غير وجهٍ، عن أبي سعيد، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

ولفظ ابن ماجه والحاكم: «**يَكُوْنُ فِي أُمَّتِي المَهدِيّ إِنْ قَصَّرَ فَسَبْعٌ وَإِلاَّ فَتِسْعٌ، فَتَنْعَم أُمَّتِي فيهِ نِعمةً لَمْ يَنْعَموا بمِثْلها قَطّ، تُؤْتِي الأرضُ أكلَها ولا يدخِرُ منه شيء، وَالمالُ يومئذٍ كُدُوسٌ**[1] **فيقوم الرَجل فيقول: يا مَهْدِيّ أعطني! فيقول: خُذْ**». انتهى.

وزيد العَمِّي وَإِنْ قال فيه الدَّارقطنيُّ وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين: إنَّهُ صالحٌ، وزاد أحمد: إنه فوق يزيد الرَّقاشيِّ وفَضْل بن عيسى، إلا أنهُ قال فيه أبو حاتم: ضعيف، يُكتب حديثُهُ، ولا يُحْتَجُّ به.

وقال يحيى بنُ معين في روايةٍ أخرى: لا شيء. وقال مرَّةً: يكتب حديثه، وهو ضعيف.

وقال الجَوْزجَاني[2]: متماسك.

وقال أبو زرعة: ليس بقوي، واهي الحديث ضعيف.

وقال [ظ١٤٠/١] أبو داود[3]: ليس بذاك، وقد حدَّث عن شعبة.

وقال النَّسائي: ضعيف.

وقال ابن عدي: عامة ما يرويه ومن يروي عنهم ضعفاء [هم وهو]، على أنَّ شعبة قد روى عنه، ولعلَّ شعبة لم يروِ عن أضعف منه.

وقد يُقَالُ: إن حديث التِّرمذي وقع تفسيراً لما رواه مُسْلِمٌ[4] في صحيحهِ من حديثِ جابرٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ويَكُوْنُ فِي آخرِ أُمَّتِي خَلِيْفَةٌ يَحْثُو المالَ حَثْواً لا يَعُدُّه عَدّاً**».

ومن حديث[5] أبي سعيد قال: «**من خُلَفَائِكم خَلِيْفَةٌ يَحْثُو المَالَ حَثواً**».

ومن طريق أخرى[6] عنهما قال: «**يكونُ في آخرِ الزَّمانِ خَليفةٌ يَقْسِمُ المالَ ولا يعده**». انتهى.

---

١ - يعني: كثير، يكدس بعضه فوق بعض.

٢ - في الأصل: الجرجاني. خطأ. وانظر قوله في كتابه أحوال الرجال وتهذيب الكمال (٥٨/١٠).

٣ - في الأصل: أبو حاتم. خطأ. لأنه مر قبل قليل و لم أجد هذا القول في الجرح والتعديل (٥٦٠/٣ - ٥٦١) وإنما هو قول لأبي داود نقله عنه أبو عبيد الآجري في سؤالاته (٣/ رقم ٢٨٦) والمزي في تهذيب الكمال (٥٩/١٠).

٤ - رقم (٢٩١٣ و٢٩١٤)(٦٧).

٥ - رقم (٢٩١٣ و٢٩١٤)(٦٨).

٦ - رقم (٢٩١٣ و٢٩١٤)(٦٩).

وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهديّ ولا دليل يقومٌ على أنه المراد منها.

ورواه الحاكمُ[1] أيضاً من طريق عوف الأعرابي، عن أبـي الصدِّيـق النّـاجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا تَقومُ السَّاعةُ حَتّي تَمْلأَ الأرضُ جَوراً وَظُلْماً وَعُدْوَاناً، ثُمَّ يخرجُ من أهل بيتي رَجُلُ يَمْلأُهَا قِسْطاً وَعَدْلاً، كَمَا مُلِئت ظُلْماً وَعُدْوَاناً»**.

وقال فيه الحاكم: هذا صحيحٌ على شرط الشَّيخين، و لم يخرِّجاه[2].

ورواه الحاكم[3] أيضاً، من طريق سليمان بن عبيد، عن أبي الصِّدِّيق النّاجي، عـن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«يَخرُجُ في آخر أُمَّتِي المَهْدِيَّ يَسقِيْهِ اللهُ الغيثَ، وتخرُجُ الأرضُ نباتها، ويُعْطِي المالَ صَحَاحاً، وتكثرُ المَاشيةُ، وتعظمُ الأمة، يعيشُ سَبْعاً أَوْ ثَمَانياً»**. يعني: حججاً.

وقال فيه: حديثٌ صحيحُ الإسناد و لم يخرجاه. مع أنَّ سليمان بن عبيد لم يخرج له أحدٌ من السِّتة. لكن ذكره ابن حبَّان[4] في الثِّقات. و لم يرد أنَّ أحداً تكلم فيه.

ثُمَّ رواه الحاكم[5] أيضاً، من طريق أسد بن موسى، عـن حمّاد بـن سلمة، عـن مطر الورَّاق وأبي هارون العبدي، عن أبي الصدّيق النَّاجي، عن أبي سعيد أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«تَملأُ الأرضِ جَوْراً وَظُلْمـاً، فيخرج رجلٌ مِنْ عِتْرَتي، فَيملكُ سبعاً أو تِسعاً فيملأُ الأرَض عَدْلاً وقِسطاً، كما مُلِئت جَوْراً وَظُلماً»**.

وقال الحاكم فيه: هذا حديثٌ صحيح على شرط مسلم. وإنَّما جعله على شرط مسلم لأنه أخرج عن حمّاد بن سلمة، وعن شيخه مطر الورَّاق.

وأمَّا شيخه الآخر وهو: أبو هارون العبدي[6] فلم يُخرّج له. وهو ضعيـف جـدّاً متهم بالكذب، ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه.

وأمَّا الرَّاوي له عن حمَّاد بن سلمة، فهو: أسد بن موسـى، ويُلَقَّـبُ: **أسـدُ السُّـنَّةِ**. وإن قال البخاري: مشهور الحديث، واستشهد به في صحيحه، واحتجَّ به أبـو داود والنَّسـائي،

---

١ - المستدرك: (٥٥٧/٤) وأحمد (٣٦/٣) وأبو يعلى (٩٨٧) وابن حبان (٦٨٢٣) وأبو نعيم في الحلية (١٠١/٣).

٢ - ووافقه الذهبي . وقال أبو نعيم: مشهور في حديث أبي الصديق عن أبي سعيد. وأبو الصديق: هو بكر بـن عمرو. ويقال: بكر بن قيس. متفق على توثيقه.

٣ - المستدرك: (٥٥٨/٤).

٤ - وهو السلمي: وثقه ابن معين. وقال أبو حاتم: صدوق. انظر الجرح والتعديل (١٢٩/٤).

٥ - المستدرك (٥٥٨/٤).

٦ - هو عُمارة بنُ جوين العبدي. ولعل الحاكم قبل من حديثه ما بين فيه الواسطة بينه وبـين أبـي سعيد، لأن غالب ما يروى عنه عن أبي سعيد الخدري وابن عمر بدون واسطة. وانظر أقوال الأئمة في تضعيفه في تهذيب الكمال (٢٣٢/٢١ - ٢٣٦).

إلا أنَّهُ قال[١] مرّة أخرى: ثقة لو لم يُصَنِّف كان خيراً له. وقال فيه محمد بن حزم: منكر الحديث[٢].

ورواه الطبراني في مُعجمه الأوسط[٣] من رواية أبي الواصل[٤] عبد الحميد [ظ١٤٠/٢] بن واصل، عن أبي الصِّدِّيق النَّاجي، عن الحسن بن يزيد السَّعدي أحد بني بَهْدَلَة، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«يَخْرجُ رَجُلٌ من أُمَّتِي يَقُوْلُ بسُنَّتي، يُنْزِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ القطرَ منَ السَّماء، وتخرُجُ الأرضُ[٥] بركتها، وَتُمْلأ الأرض منه قِسْطاً وعدلاً كما ملئت جَوراً وظُلماً، يعمل على هذه الأمَّةِ سبعَ سِنِيْنَ وينزلُ على[٦] بيتِ المقدس».**

وقال الطَّبراني فيه: رواه جماعة، عن أبي الصِّديق، ولم يُدْخِل أحدٌ منهم بينه وبين أبي سعيد أحداً إلاَّ أبا الواصل، فإنه رواه عن الحسن بن يزيد، عن أبي سعيد. انتهى.

وهذا **الحسن بن يزيد** ذكره ابن أبي حاتم[٧] ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد، ورواية أبي الصديق عنه.

وقال الذَّهبي في الميزان: إنه مجهول[٨]. لكن ذكره ابن حبَّان في الثِّقات.

وأمَّا **أبو الواصل** الذي رواه عن أبي الصدّيق، فلم يخرِّج له أحد من السِّتة.

وذكره ابن حبَّان في الثِّقات في الطبقة الثَّانية، وقال فيه: يروي عن أنس. روى عنه: شعبة، وعتّاب بن بشر[٩].

وخرَّج ابن ماجة[١٠] في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود، من طريق يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل فتيةٌ من بني هاشم، فلمَّا رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم،

---

١ - أي: النسائي. انظر قوله في تهذيب الكمال (٥١٤/٢).

٢ - قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٢٠٧/١). وما علمت به بأساً إلا ان ابن حزم ذكره في كتاب العيد فقال: منكر الحديث. وقال ابن حزم أيضاً: ضعيف. وهذا تضعيف مردود. ووثقه ابن يونس وقال: حدث بأحاديث منكره وهو ثقة، فأحسب أن الآفة من غيره.

٣ - رقم: (١٠٧٩).

٤ - في ظ: أبي الواصل عن عبد الحميد. خطأ.

٥ - في الأوسط: تخرج له الأرض من بركتها، تملأ

٦ - ليس في الأوسط: على.

٧ - انظر الجرح والتعديل (٤٢/٣ - ٤٣).

٨ - ميزان الاعتدال: (٥٢٧/١).

٩ - وكذلك ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١٨/٦) وأضاف رواةً آخرين ولم يذكره بتوثيق أو تضعيف.

١٠ - رقم: (٤٠٨٢).

ذرفت[1] عيناه وتغير لونه. قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه. فقال: «**إنّا أهلَ الْبَيْتِ[2] اختارَ الله لنا الآخرةَ على الدُّنيا، وإنَّ أهْلَ بَيْتِي سَيَلْقَونَ بعدي بلاَءً وتشريداً وَتَطْرِيداً، حتّى يأتي قومٌ من قِبَل المَشْرِق معهُم راياتٌ سودٌ، فيَسْألُون الخيرَ فلا يُعطونه، فيُقَاتِلون ويُنصرون[3]، فيعطون ما سَألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجلٍ من أهل بيتي فيملؤها قِسْطاً كما مَلؤُوها جَوْراً. فَمن أدْرَكَ ذلكَ منكم فَلْيَأتهم ولو حَبْواً على الثَّلج**». انتهى.

وهذا الحديث يعرَفُ عند المحدِّثين بحديث **الرَّايات**.

ويَزِيدُ بن أبي زِيَاد[4] راويه: قال فيه شعبة: كان رفّاعاً؛ يعني: يرفع الأحاديث التي لا تعرف مرفوعة.

وقال محمد بن الفضيل: وكان من كبارِ أئمة الشِّيعة.

وقال أحمد بن حنبل: لم يَكُنْ بالحافظ؛ وقال مرَّة: حديثه ليس بذلك.

وقال يحيى بن معين: ضعيف.

وقال العجليّ: جائزُ الحديث، وكان بأَخَرةٍ يُلَقَّنُ.

وقال أبو زرعة: لَيِّنٌ يُكتب حديثه ولا يحتجُّ به.

وقال أبو حاتم: ليس بالقويّ.

وقال الجوزجاني[5]: سمعتهم يضعفون حديثه.

وقال أبو داود: لا أعلم أحداً ترك حديثه، وغيره أحبُّ إليَّ منه.

وقال ابن عدي: هو من شيعة [ظ١٤١/١] أهل الكوفةِ، ومع ضعفه يكتبُ حديثه.

وروى له مسلم لكن مقروناً بغيره.

وبالجملة: فالأكثرون على ضعفه[6].

---

١ - في ابن ماجة: اغرورقت.

٢ - في ابن ماجة: أهلُ بيتٍ.

٣ - في ابن ماجة: فينصرون.

٤ - وقد توبع على هذا الحديث كما في المستدرك (٤٦٤/٤) من طريق حَنان بن سَرير، عن عمرو بن قيس الملائي، عن الحكم بن عُتيبة، عن إبراهيم، عن علقمة بن قيس وعبيدة السلماني، عن ابن مسعود به. وقال الذهبي: موضوع. وقال في الميزان: (٤٤٩/١) في ترجمة حِبان [كذا] بن يزيد [في ن: مدير] [كذا]: قال الأزدي: ليس بالقوي عندهم. وانظر ترجمته في الجرح والتعديل (٢٩٩/٣) فلا أدري لم حكم بوضعه، وليس فيه غير هذا، كما أنه لم يحكم بوضعه عن الطريق الذي في ابن ماجة كما يأتي قوله: ليس بصحيح فقط.

٥ - في الأصل: الجرجاني. خطأ. وانظر قوله في أحوال الرجال رقم (١٤١).

وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث، الذي رواه عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد ا لله وهو حديث الرَّايات.

وقال وكيع بن الجراح فيه: ليس بشيء. وكذلك قال أحمد بن حنبل.

وقال أبو قدامة: سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد، عن إبراهيم في الرَّايات، لو حلفَ عندي خمسينَ يميناً قَسَامةً ما صَدَّقته، أهذا مذهبُ إبراهيم؟ أهذا مذهب علقمة؟ أهذا مذهبُ عبد ا لله؟!.

وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء.

وقال الذَّهبي: ليس بصحيح[1].

وخرَّج ابن ماجة[2]، عن علي رضي ا لله عنه من رواية: ياسين العجلي، عن إبراهيم بن محمد ابن الحنفية، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: «**الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيتِ (يُصْلحُ ا لله به)[3] في ليلة**».

وَيَاسِيْنُ الْعَجْلِيُّ وَإِنْ قال فيه ابن معين: ليس به بأس. فقد قال البخاري: فيه نظر. وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التَّضْعِيْفِ جداً.

وأورد له ابن عدي في الكامل[4] والذهبي في الميزان[5] هذا الحديث على وجه الاستنكار له، وقال: هو معروف به[6].

وخرَّج الطبراني في معجمه الأوسط[7]، عن علي رضي ا لله عنه، أنه قال للنَّبيِّ صلى ا لله عليه وسلم: أمنَّا المَهْدِيُّ، أمْ من غيرنا يا رسول ا لله؟ فقال: «**بَلْ مِنَّا، بنا يختمُ ا لله كمَا بِنَا فَتَحَ، وبنا يُسْتَنْقَذُوْنَ منَ الْشِّرْكِ، وَبِنَا يُؤَلِّف ا لله بينَ قُلُوْبِهم بعد عَدَاوَةٍ بَيِّنة،**

---

٦ - انظر هذه الأقوال في تهذيب الكمال (١٣٥/٣٢ - ١٤٠) ولعل الصواب فيه ما قاله الفسوي في المعرفة والتاريخ: (٨١/٣): وإن كان قد تكلم الناس فيه لتغيره في آخر عمره، فهو على العدالة والثقة، وإن لم يكن مثل منصور والحكم والأعمش، فهو مقبول القول ثقة.

١ - انظر الأقوال السابقة في ميزان الاعتدال (٤٢٤/٤).

٢ - أخرجه أحمد (٨٤/١) وابن ماجة (٤٠٨٥) وأبو نعيم في الحلية (١٧٧/٣) وتاريخ أصبهان (١٧٠/١).

٣ - في ابن ماجة: (يصلحه ا لله).

٤ - (٢٦٤٣/٧).

٥ - (٣٥٩/٤).

٦ - ولم يتفرد به ياسين. قال أبو نعيم بعد ذكره في الحلية: هذا حديث غريب من حديث محمد، رواه وكيع وابن نمير وأبو داود الحضري، عن ياسين ورواه محمد بن فضيل، عن سالم بن أبي حفصة، عن إبراهيم به. [وسالم: صدوق].

٧ - رقم: (١٥٧).

كمَا بنَا أَلَّفَ بينَ قُلوبهم بعد عداوة الْشِّرْك». قال علي: أمؤمنون أم كافرون؟ قال: «**مَفْتُونٌ وكافرٌ**». انتهى.

وفيه: **عبدُ الله بن لَهِيْعَة**: وهو ضعيف معروف الحال.

وفيه: **عمرو**[1] **بن جَابر الحضرمي**: وهو أضعف منه. قال أحمد بن حنبل: روى عن جابر مناكير، وبلغني أنه كان يكذب.

وقال النَّسائي: ليس بثقة.

وقال ابن لهيعة: كان شيخاً[2] أحمقَ ضعيفَ العقل، وكان يقول: عليٌّ في السَّحاب، وكان يجلسُ معنا فيبصر سحابة فيقول: هذا عليٌّ قد مرَّ في السَّحاب.

وَخَرَّجَ الطَّبَرانِيُّ[3]، عن علي رضي الله تعالى عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يَكُوْنُ فِي آخِرِ الْزَّمَان فِتنَةٌ يُحَصَّلُ**[4] **النَّاسُ فيها، كما يُحصلُ الذَّهبُ في المَعْدِنِ فَلاَ تسبُّوا أهلَ الْشَّامِ، ولكِنْ سُبُّوا أشرارهم، فإنَّ فيهم الأبدَالَ. يُوشكُ أن يُرسل على أهل الْشَّامِ صَيِّبٌ**[5] **من السَّماء فيفرق جماعتهم، حتى لو قَاتَلَتْهم الثَّعالبُ غلبتهم، فعندَ ذَلِكَ يخرجُ خارجٌ من أهلَ بيتي في ثلاث رَايَاتٍ، المُكْثِرُ يقولُ: هُمْ خمسة عشرَ ألفاً، والمقلُ يقولُ: هم اثنا عشرَ ألفاً، وأمارتهم أَمِتْ أَمِتْ**[6]**، يلقونَ**[7] **سَبْعَ رَايَاتٍ تحتَ كل رايةٍ منها رجلٌ يطلبُ الملك، فيقتلهم الله جميعاً، ويردُّ الله إلى المسلمين ألفتهم** [ظ١٤١/٢] **ونعمتهم وقاصيهم ودانيهم**».

وفيه: **عبدُ اللهِ بنُ لَهِيْعة** وهوَ ضَعِيْفٌ معروف الحال.

ورواه الحاكم في المستدرك[8]، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه. وفي روايته: «**ثم يظهرُ الهاشميُّ فيردُّ الله النَّاسَ إلى ألفتهم**». الخ، وليس في طريقه ابن لهيعة، وهو إسنادٌ صحيح كما ذكر.

---

١ - في الأصل: عمر. خطأ.

٢ - في المطبوعات: (وقال: كان ابن لهيعة شيخاً) على أنها من قول النسائي عن ابن لهيعة والصواب أنها من قول ابن لهيعة من مجموع روايات كما نقله المزي في تهذيب الكمال (٢١/٥٦٠ - ٥٦١).

٣ - في الأوسط (٢٩٣ و٣٩١٧).

٤ - أي: يمحص الناس فيها كما يخلص الذهب والفضة من معادنه وأصوله.

٥ - في الأوسط: سيب.

٦ - كلمة: أمت أمت: كانت كلمة السر بين أفراد جيش المسلمين في غزوة بدر يعرف بها بعضهم بعضاً، وستكون كلمة السر بين أهل هذه الرايات. هذا وفي كثير من الأحاديث الخاصة بالمهدي يشبه أنصاره بأهل بدر؛ سيأتي في الحديث التالي أن عدتهم على عدة أهل بدر.

٧ - في الأوسط: يأتون. وجاء في المقدمة موافق لما في مجمع الزوائد (١٢٤١٠/٧).

٨ - (٥٥٣/٤).

وخرَّج الحاكم في المستدرك[1]، عن علي رضي الله عنه، من رواية أبي الطُّفيل، عن محمد بن الحنفية قال: «كنَّا عند علي رضي الله عنه، فسأله رجلٌ عن **المهدي**، فقال له: هيهات، ثم عقد بيده سبعاً فقال: ذلك **يخرجُ في آخر الزّمان، إذا قال الرَّجلُ: الله الله قُتلَ. ويجمع الله له قوماً قزعاً كَقزْعِ السَّحابِ**[2]، **يُؤلِّفُ الله بين قلوبهم فلا يستوحِشُونَ إلى أحدٍ، ولا يفْرَحُونَ بأحدٍ دخل فيهم، عدَّتهم**[3] **على عدّة أهل بدرٍ، لم يسبقهم الأولونَ، ولا يدركهم الآخرون، وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النَّهر**[4]». قال أبو الطفيل: قال ابن الحنفية: أتريده؟ قلت: نعم! قال: **فإنه يخرجُ من بين هذينِ الأخشبين**[5]. قلت: لا جرمَ والله، ولا أدعها[6] حتَّى أموت، ومات بها ـ يعني: مكة ـ.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. انتهى.

وَإِنَّما هو على شَرْطِ مُسلِمٍ فقط، فإنَّ فيه عمَّاراً الدُّهني ويونس بن أبي إسحاق، ولم يخرِّجَ لهما البخاري، وفيه: عمرو بن محمد العَنْقَزي، ولم يخرِّج له البخاري احتجاجاً بل استشهاداً، مع ما ينضم إلى ذلك من تشيُّع في عمَّار الدُّهنيِّ[7]، وهو وإن وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم والنَّسائي وغيرهم، فقد قال علي بن المديني، عن سفيان: إنَّ بشر بن مروان قطع عرقوبيه[8]، قلت: في أي شيء؟ قال: في التَّشيّع.

وخرَّج ابن ماجة[9]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد ابن جعفر، عن علي بن زياد اليمامي، عن عِكْرِمَة بن عمَّار، عن إسحاق ابن عبد الله [بن أبي طلحة]، عن أنس قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**نحنُ وَلَد عبد المطَّلب، سَادَات**[10] **أهل الجنة، أنا وحمزة وعليٌّ وجعفر والحسن والحُسين والمهديُّ**». انتهى.

---

١ - (٤/٥٥٤).

٢ - القزع محركة: قطع من السَّحاب الواحدة بهاء. والمعنى: مجتمع الناس إليه أفواجاً ويلتم بعضهم ببعض.

٣ - ليس في المستدرك: عدتهم.

٤ - الذين ورد ذكرهم في قوله سبحانه: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود. قال: إن الله مبتليكم بنهر..﴾[البقرة: ٢٤٩].

٥ - الأخشبان: جبلا مكة، أبو قبيس والأحمر. وفي المستدرك: الخشبتين.

٦ - في المستدرك: (والله لاأريمهما).

٧ - هو عمار بن معاوية. وانظر ما نقله المصنف عن التهذيب (٢١/٢٠٩ - ٢١٠).

٨ - هذا التعبير كناية عن التفاني في الأمر.

٩ - رقم: (٤٠٨٧).

١٠ - في ابن ماجة: (سادة).

وعِكْرِمة بن عَمَّار وَإِنْ أخرجَ له مسلم فإنَّما أخرج متابعة. وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون. وقال أبو حاتم الرَّازي: هو مدلِّسٌ فلا يقبل، إلا أن يُصَرِّحَ بالسَّماع.

علي بن زياد: قال الذَّهبي في الميزان: لا يدرى[1] من هو[2] ثُمَّ قال: الصَّواب فيه عبد الله بن زياد[3].

وسعد بن عبد الحميد وإن وثقه يعقوب بن أبي شيبة[4]، وقال فيه يحيى بن معين: ليس به بأس. فقد تكلَّم فيه الثَّوري، قالوا: لأنَّهُ رآه يفتي في مسائل ويخطىء فيها.

وقال ابن حبَّان: كان ممن فحش خطؤه[5] فلا يحتجُّ به.

وقال أحمد بن حنبل: سعد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عَرْض كُتبِ [ظ١٤٢/١] مالك، والناس ينكرون عليه ذلك، وهو هاهنا ببغداد لم يحج، فكيفَ سمعها؟

وجعله الذَّهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه.

وخرَّجَ الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عبَّاس موقوفاً عليه، قال مجاهد: قال لي ابن عبَّاس: لو لم أسمع أنَّك مثل أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث؛ قال: فقال مجاهد: فإنه في ستر لا أذكره لمن تكره! قال: فقال ابن عبَّاس: «**منَّا أهْلُ الْبَيْتِ أربعة: منَّا السَّفَّاح، ومنَّا المنذرُ، ومنَّا المنصور، ومنَّا المَهْدِيّ**». قال: فقال مجاهد: بين لي هؤلاء الأربعة. فقال ابن عبَّاس: «**أمَّا السَّفَّاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه؛ وأمَّا المنذر** ـ أراه قال[6] ـ **فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه، ويمسك القليل من حقّه؛ وأمَّا المنصور: فإنه يُعطَى النصر على عدوه الشطرَ مما كان يُعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم، (وَيَرْهَبُ)[7] منه عدوه على مسيرة شهرين، والمنصور: يرهب منه (عدوه)[8] على مسيرة شهر، وأمَّا المهديُّ: فإنه[9] الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً،**

١ - في الأصل: لا ندري.
٢ - إلى هنا قول الذهبي في الميزان (١٢٧/٣).
٣ - انظر ترجمة عبد الله بن زياد أبا العلاء الراوي عن عكرمة في ميزان الاعتدال (٤٢٤/٢) ولسان الميزان (٢٨٧/٣) وهو منكر الحديث.
٤ - في المطبوع: ابن أبي شيبة. خطأ. صحح من تاريخ بغداد (١٤٦/٩).
٥ - في المطبوع: عطاؤه. خطأ. صحح من المجروحين (٣٥٧/١).
٦ - ليس في المستدرك: (أراه قال).
٧ - في المستدرك: يرعب.
٨ - في المستدرك: يرعب عدوه منه.
٩ - ليس في المستدرك: فإنه.

وتأمن البهائم السِّباع[١]**، وتلقي الأرض أفلاذ كبدها؟»**. قَالَ: قلت: وما أفلاذ كبدها؟ قال: **«أمثال الأسطوانة من الذَّهب والفضَّةِ»**.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يُخرجاه[٢].

وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن أبيه.

وإسماعيل: ضعيف. **وإبراهيم**: أبوه وإن خرّج له مسلم، فالأكثرون على تضعيفه. انتهى.

وخرَّج ابن ماجة[٣] عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يَقْتَتِلُ عندَ كَنْزِكُمْ ثلاثَةٌ، كلُّهم ابنُ خليفة، ثم لا يصيرُ إلى واحدٍ منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم**[٤] **قتلاً لم يقتله قوم»**. ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال: **«فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفةُ الله المهديُّ»**. اهـ.

ورجاله رجال الصحيحين؛ إلا أن فيه **أبا قلابة الجرمي** وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس؛ وفيه: **سفيان الثوري** وهو مشهور بالتدليس؛ وكل واحد منهما عنعن و لم يصرح بالسماع فلا يقبل؛ وفيه: **عبد الرزاق بن همام** وكان مشهوراً بالتشيع[٥] وعمي في آخر وقته فخلط؛ قال ابن عدي: حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد، ونسبوه إلى التشيع. انتهى.

خرج ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث بن جَزْءِ الزُّبيدي، من طريق ابن لهيعة، عن أبي زرعة عمرو[٦] بن جابر الحضرمي، عن عبد الله بن الحارث بن جَزْءٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يخرجُ ناسٌ من المشرق فيوطؤون للمهدي ـ يعني ـ سلطانه»**.

---

١ – في المستدرك: والسباع.

٢ – وقال الذهبي في التلخيص (٤٥١٤): أين منه الصحة، وإسماعيل مجمع على ضعفه، وأبوه ليس بذاك؟!.

٣ – رقم: (٤٠٨٤).

٤ – في ابن ماجة: فيقتلونكم.

٥ – قال عبد الله بن أحمد في العلل (٢٣٣/١): سألت أبي قلت: عبد الرزاق كان يتشيع ويفرط في التشيع؟ فقال: أما أنا فلم أسمع منه في هذا شيئاً، ولكن كان رجلاً تعجبه أخبار الناس أو الأخبار. ونقل عن عبد الرزاق قوله: والله ما انشرح صدري قط، أن أفضل علياً على أبي بكر وعمر، رحم الله أبا بكر، ورحم الله عمر، ورحم الله عثمان، ورحم الله علياً، من لم يحبهم فما هو مؤمن، وقال: أوثق عملي حبي إياهم.

٦ – في المطبوع: عمر. خطأ.

قال الطبراني[١]: تفرد به ابن لهيعة. وقد تقدم لنا في حديث [ظ٢/١٤٢] علي الذي خرجه الطبراني في معجمه الأوسط أن ابن لهيعة ضعيف، وأن شيخه عمرو[٢] بن جابر أضعف منه.

وخرج البزار في مسنده[٣] والطبراني في معجمه الأوسط[٤] واللفظ للطبراني، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يكون في أمتي المهدي إن قصرَ فسبعٌ، وإلا فثمان وإلا فتسع، تنعمُ فيها أُمَّتي نعمةً لم ينعموا بمِثْلِهَا تُرْسَلُ السَّماء عليهم مدرارا؛ ولا تدَّخِرُ الأرضِ شيئاً منَ النَّباتِ؛ والمالُ كُدُوسٌ[٥] يقومُ الرَّجلُ يقولُ: يا مهديُّ أعطني، فيقول: خذ**».

قال الطَّبراني والبزار: تفرد به **محمّد بن مروان العِجلي**. زاد البزار: ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد.

وهو وإن وثَّقه أبو داود وابن حبَّان أيضاً بما ذكره في الثِّقات. وقال فيه يحيى بن معين: صالح. وقال مرَّةً: ليس به بأس. **فقد** اختلفوا فيه:

قال أبو زرعة: ليس عندي بذاك.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل،[عن أبيه][٦]: رأيت محمّد بن مروان العجلي [و]حدَّثَ بأحاديث وأنَا شاهدٌ لم أكتبها[٧]، تركتها على عمد، وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضَعَّفه.

وخرَّج أبو يعلى المَوْصِليّ في مسنده[٨]، عن أبي هريرة وقال: حدَّثني خليلي أبو الْقَاسم صلى الله عليه وسلم قال: «**لاَ تَقُوْمُ الْسَّاعةُ حَتَّى يَخرُجَ عَلَيْهم رجُلٌ من أهْلِ بَيْتِي، فَيَضْرِبَهُم حَتَّى يَرْجِعُوا إلى الحَقِّ**». قَالَ: قلتُ: وكم يملكُ؟ قال: «**خمْساً واثنتين**». قال: قلت: وما خمساً وَاثْنَتين؟ قال: لا أدْرِي. انتهى.

---

١ – في المعجم الأوسط (٢٨٧).

٢ – في الأصل: عمر. خطأ.

٣ – كشف الأستار رقم (٣٣٢٦) مختصراً. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٤٠٦/٧): رجاله ثقات وفي بعضهم ضعف.

٤ – رقم (٥٤٠٢).

٥ – أي مكدس بعضه فوق بعض.

٦ – زيادة من العلل ومعرفة الرجال (١٧٣/٢) وتهذيب الكمال (٣٨٩/٢٦).

٧ – في المطبوع: نكتبها.

٨ – أبو يعلى رقم (٦٦٦٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٢٤١٣/٧):... ولكن الحديث منكر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يستقبل أحداً في وجهه.

وهذا السَّنَدُ، [غير محتج به]، وإن كان فيه **بشير بن نَهيك**، وقال فيه أبو حاتم: لا يحتجُّ به، فقد احتجَّ به الشَّيخان، ووثَّقه النَّاسُ، ولم يلتفتوا إلى قَول أبي حاتم: لا يحتجُّ به[1]. إلا أنّ فيه (مُرَجَّى بن رجاءَ)[2] الْيَشْكُرِي، وهو مختلفٌ فيه.

قال أبو زرعة: ثقة.

وقال يحيى بن معين: ضعيف.

وقال أبو داود: ضعيف. وقال مرَّة: صالح. وعلَّقَ له البخاري في صحيحه حديثاً واحداً.

وخرَّج أبو بكر الْبَزَّار في مسندهِ[3] والطَّبَراني في مُعْجَمِهِ الْكَبِيْر[4] والأَوْسَطِ[5]، عَنْ قُرَّةَ بن إياس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَتُمْلأَنَّ الأَرْضُ جَوْراً وَظُلْماً، فإذا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلماً بَعَثَ الله رَجُلاً (مني)[6]، اسْمهُ اسمي، واسمُ أبيهِ اسمِ أبي يَملؤها عَدْلاً وقِسْطاً، كما مُلِئَت جوراً وَظُلْماً، فَلاَ تَمنعُ السَّماءُ من قَطْرِهـا شَيئاً، وَلا تدَّخر الأرضُ شيئاً من نَبَاتِهَا. يلبثُ فيكُم سَبْعاً أو ثمانيا أو تسعاً**». يعني: سنين. انتهى.

وفيه: داود بن المُحبَّر بْنُ قَحْذَم، عن أبيه، وهما ضعيفان جدّاً.

(وخرج الطبراني في معجمه الأوسط[7] عن أم حبيبة قالت: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «**يخرج ناسٌ من قبل المشرق يريدون رجلاً عند البيت، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم، فيلحق بهم من تخلف**[8]**، فيصيبهم ما أصابهم**». قلت: يا رسول الله [ظ١٤٣/١]، كيف بمن كان خرج كرهاً[9]؟ قال: «**يصيبهم**[10] **ما أصاب الناس، ثم يبعث الله كل امرئٍ على نيته**». انتهى. وفيه:

١ - انظر ترجمته في تهذيب الكمال (٤/١٨١ - ١٨٢).

٢ - في المطبوعات: (رجاء بن أبي رجاء) خطأ. صحح من تهذيب الكمال (٢٧/٣٦١ - ٣٦٤) ومجمع الزوائد (٧/١٢٤٠١).

٣ - رقم: (٣٣٢٥).

٤ - (١٩/١٣٢).

٥ - رقم: (٨٣٢١).

٦ - في المطبوعات: من أمتي. خطأ.

٧ - المعجم الأوسط رقم (٤٠٤٢). وأصله في الصحيحين من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم. قالت: قلت: يا رسول، كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟! قال: يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم. هذا لفظ البخاري.

٨ - في الأوسط: يخلفهم. والمثبت موافق للمخطوط ومجمع الزوائد (١٢٤٠٢/١).

٩ - في الأوسط والمجمع: أخرج مستكرهاً.

١٠ - في الأوسط: يصيبه. والمثبت موافق للمخطوط ومجمع الزوائد.

سلمة بن [الفضل] الأبرش[١]، وهو ضعيف. وفيه: محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعن، ولا يقبل إلا أن يصرح بالسماع).

وخرَّجَ الطَّبرانيُّ في معجمه الأوسط[٢]، عن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المُهَاجرين والأنصار، وعلي بن أبي طالب عن يساره، والعبَّاسُ عن يمينه، إذ تلاحى[٣] العبَّاسُ ورجلٌ من الأنصار، فأغلظَ الأنصاريُّ للعبَّاس. فأخذ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بيد العبَّاس وبيد عليٍّ وقال: **«سَيَخْرُجُ من صُلْبِ هذا حتى[٤] يملأ الأَرْض جَوراً وَظُلْماً، وَسَيَخْرُج من صُلْبِ هَذَا حتى[٥] يملأ الأرضَ قِسطاً وعدلاً. فإذا رأيتم ذلك فَعَلَيكم بالفتى التَّميميّ، فإنّهُ يُقبلُ من قِبل المشرق، وهو صاحب راية المهديّ»**. انتهى.

وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان.

وخرج الطَّبراني في معجمه الأوسط[٦]، عن طلحة بن عبيد[٧] الله، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: **«ستكونُ فتنةٌ لا يسكنُ[٨] منها جانبٌ إلاَّ (تشاجرَ)[٩] جانبٌ، حتى ينادي منادٍ من السَّماء أنَّ أميركم فلان»**. انتهى.

وفيه: المثنى بن الصَّبَاح وهو ضعيف جدّاً. وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وإنما ذكروه في أبوابه وترجمته استئناساً.

فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخرَ الزَّمانِ[١٠]. وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه.

---

١ - وثقه غير واحد، وضعفه آخرون، وخلاصة القول فيه ما قاله أبو حاتم الرازي: محله الصدق، في حديثه إنكار، لا يمكن أن أطلق لساني فيه بأكثر من هذا، يكتب حديثه ولا يحتج به. الجرح والتعديل (٤/ ت٧٣٩). وتهذيب الكمال (١١/٣٠٥-٣٠٩).

٢ - رقم: (٤١٤٢).

٣ - تلاحيا: تشاتما.

٤ - في المطبوعات: فتى. وفي نسخة من مجمع الزوائد (٧/١٢٤١٣): فتى. وما هنا موافق للأوسط.

٥ - في المطبوعات: فتى. وفي نسخة من مجمع الزوائد (٧/١٢٤١٣): فتى. وما هنا موافق للأوسط.

٦ - رقم: (٤٦٦٣).

٧ -في المطبوعات: عبد. خطأ.

٨ - في الأوسط ومجمع الزوائد (٧/١٢٤٠٨): يهدأ.

٩ - في الأوسط: جاش منها.

١٠ - يوجد غير ما ذكره المصنف من أحاديث جمعها السيوطي في العرف الوردي في ذكر المهدي. ولكن ذكر المصنف أمهات أحاديث المهدي.

وربما تمسَّك المنكرون لشأنه بما رواه محمّد بن خالد الجَنَدِي، عن أَبَان بن صالح بن أبي عيَّاش[1]، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«لا مَهْدِيَّ إلا عيسى ابن مريم»**[2].

وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي: إنه ثقة[3].

---

١ - الصواب: التفريق بين أبان بن صالح وأبان بن أبي عياش. وهما يرويان عن الحسن البصري، إلا أن الجندي يروي عن الأول وهو ثقة أخطأ من ضعفه. انظر ترجمته في تهذيب الكمال (٩/٢ - ١١) وأما الثاني فهو ضعيف متروك الحديث. انظر ترجمته في تهذيب الكمال (١٩/٢ - ٢٤).

٢ - أخرجه ابن ماجة (٤٠٣٩) والحاكم في المستدرك (٤٤١/٤) والخطيب البغدادي تاريخ بغداد (٢٢٠/٤ - ٢٢١) والمزي في تهذيب الكمال (٢٥/ ١٤٧ - ١٤٨) من طريق الشافعي عن الجندي، عن أبان بن صالح [على الصواب] عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال: لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدين إلا إدباراً ولا الناس إلا شحاً، لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ولا مهدي إلا عيسى بن مريم. قال الذهبي: يحيى بن السكن ضعفه صالح جزرة وقال في الحديث: صامت بن معاذ عدلت إلى الجند مسيرة يومين من صنعاء فدخلت على محدث لهم فطلبت هذا الحديث فوجدته عنده عن محمد بن خالد الجندي عن أبان بن أبي عياش، عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله. وقال مبارك أبو سحيم: حدثنا عبد العزيز عن أنس مرفوعاً: لن يزداد الزمان إلا شدة. قال السيوطي في الحاوي للفتاوى (٨٥/٢ -٨٦): قال القرطبي في التذكرة: إسناده ضعيف، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في التنصيص على خروج المهدي من عترته من ولد فاطمة ثابتة أصح من هذا الحديث فالحكم بها دونه، وقال أبو الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم بن عاصم السحري: قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بمجيء المهدي وأنه من أهل بيته وأنه سيملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلاً وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين وأنه يؤم هذه الأمة وعيسى يصلي خلفه في طول من قصته وأمره، قال القرطبي: ويحتمل أن يكون قوله عليه السلام: ولا مهدي إلا عيسى أي: لا مهدي كاملاً معصوماً إلا عيسى قال: وعلى هذا تجتمع الأحاديث ويرتفع التعارض. وقال ابن كثير: هذا الحديث فيما يظهر ببادىء الرأي مخالف للأحاديث الواردة في إثبات مهدي غير عيسى بن مريم وعند التأمل لا ينافيها بل يكون المراد من ذلك أن المهدي حق المهدي هو عيسى ولا ينفي ذلك أن يكون غيره مهدياً أيضاً.

٣ - قال المزي في تهذيب الكمال (١٤٨/٢٥ - ١٤٩): قال أبو الحسن محمد بن الحسين الآبريُّ الحافظ في مناقب الشافعي: أخبرني محمد بن عبد الرحمن الهمذاني ببغداد قال: حدثنا محمد بن مخلد وهو العطار، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن المؤمل العدوي، قال: قال لي يونس بن عبد الأعلى: جاءني رجل قد وخطه الشيب سنة ثلاث عشرة يعني ومئتين عليه مبطنة وأُزيِّر يسألني عن هذا الحديث، فقال لي: من محمد بن خالد الجَنَدي؟ فقلت: لا أدري. فقال لي: هذا مؤذن الجند وهو ثقة. فقلت له: أنت يحيى بن معين؟ فقال: نعم. فقلت له: حديث ابن وهب؟ فقال: ثقة، وكان فيه تساهل. قال أبو الحسن الآبري: قد تواترت الأخبار استفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعني في المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين ويملأ الأرض عدلاً، وأنه يخرج عيسى بن مريم فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين، وإنه يؤم هذه الأمة، وعيسى صلوات الله عليه يصلي خلفه في طول من قصته وأمره، ومحمد بن خالد الجَنَدي وإن كان يُذكر عن يحيى بن معين ما ذكرته فإنه غير معروف عند أهل الصناعة من أهل العلم والنقل.

وقال البيهقي: تفرد به محمد بن خالد. وقال الحاكم فيه: إنه رجل مجهولٌ واختلفَ عليه في إسناده. فمرَّةً يروونه كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدرس الشَّافعي؛ ومرة يروونه عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً.

قال البيهقي: فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجهول، عن أبان [بن] أبي عيَّاش وهو متروك، عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع.

وبالجملة: فالحديث ضعيف مضطرب.

وقد قيل في: «**أن لا مهديَّ إلا عيسى**». أي: لا يتكلم في المهد إلا عيسى، يحاولون بهذا التّأويل رد الاحتجاج به، أو الجمع بينه وبين الأحاديث، وهو مدفوع بحديث جُريج[1] ومثله من الخوارق.

وأمَّا المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا، وإنَّما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها [ظ١٤٣/٢] من نتائج المواجد والأحوال، وكان كلام الإمامية والرَّافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته وادِّعاء الوصية له بذلك من النَّبي صلى الله عليه وسلم والتَّبري من الشَّيخين كما ذكرناه في مذاهبهم[2] ثم حدث فيهم بعد ذلك القولُ بالإمام المعصُوم، وكثرت التآليف في مذاهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول، وآخرون يدعون رجعَةَ من مات من الأئمة بنوع التناسخ، وآخرون منتظرون مجيءَ من يقطع بموته منهم، وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيرها.

ثُمَّ حدث أيضاً عند المتأخرين من الصُّوْفِيَّةِ الكلامُ في الكشف وفيما وراء الحسِّ. وظهر من كثير منهم القولُ على الإطلاق بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإماميَّة والرافضة لقولهم بأُلوهية الأئمة وحلول الإله فيهم.

وظهر منهم أيضاً القولُ بالقطب والأبدال وكأنه يحاكي مذهبَ الرافضة في الإمام والنقباء. وأشربوا أقوال الشيعة، وتوغَّلوا في الديانة بمذاهبهم، حتى لقد جعلوا[3] مستند طريقهم في لبس الخرقة أنَّ عليّاً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذَ عليه العهد بالتزام الطَّريقة. واتَّصَلَ ذلك عنهم بالجُنيد من شيوخهم. ولا يُعلمُ هذا عن عليٍّ من وجه

---

١ - حديث جريج: أخرجه البخاري (١١٤٨ و٢٣٥٠ و٣٢٥٣ و٣٢٧٩) ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة.

٢ - يحيل بذلك على ما ذكره في الفصل السابع والعشرين من هذا الباب.

٣ - في ن: حتى جعلوا.

صحيح. ولم تكن هذه الطَّريقة خاصَّةً بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طريق[1] الهدى؛ وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحةٌ من التَّشيُّع قوية، يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم[2] في التَّشيُّع، وانخراطهم في سلكه.

وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر. وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم عن بعض، وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين. وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات، وهو من نوع الكلام في الملاحم، ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا.

وأكثر من تكلَّم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي، ابن العربي الحاتمي[3] في كتاب: **عنقاءُ مغرب**. وابن قَسِي في كتاب: **خلع النَّعلين**[4]. وعبد الحق بن سَبْعين[5]، وابن أبي واطيل[6] تلميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين.

وأكثر كلماتهم في شأنه ألغازٌ وأمثالٌ، وربَّما يصرحون في الأقلّ، أو يصرح مفسرو كلامهم.

وحاصلُ مذهبهم فيه - على ما ذكر ابن أبي واطيل[7] -: أنَّ النبوة بها ظهر الحقُّ والهدى بعد الضلال والعمىٍ، وأنها تعقبها [ظ١/١٤٤] الخلافة، ثم يعقب الخلافة الملكُ، ثمَّ يعود تجبُّراً وتكبّراً وباطلاً.

قالوا: ولمَّا كان في المعهود من سنة الله رجوعُ الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمر النُّبوة والحقّ بالولاية، ثُمَّ بخلافتها، ثم يعقبها الدَّجلُ مكان الملك والتَّسلُّطِ، ثُمَّ يعودُ الكفرُ بحاله. يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة، والخلافة بعدها، والملك بعد الخلافة. هذه ثلاث مراتب. وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي، والدجل بعدها كنايةٌ عن خروج

---

١ - في ن: طرق.

٢ - في ن: من القوم دخلهم.

٣ - يعني محيي الدين بن عربي من أشهر الصوفية. وقد وصفه بالحاتمي تمييزاً له عن القاضي أبي بكر بن العربي من أهل الأندلس والذي سيأتي ذكره في الفصل الأربعين.

٤ - ابن قسي: هو أبو القاسم أحمد بن قسي الأندلسي، صاحب كتاب خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين. قال الذهبي: فلسفي التصوف، مبتدع أراد الثورة فظفر به عبد المؤمن وسجنه. المتوفى ٥٤٥هـ. انظر ترجمته في ميزان الاعتدال (١/١٢٨) ولسان الميزان لابن حجر (١/٢٤٧) ومعجم المؤلفين (٢/٥١).

٥ - هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد الإشبيلي المرسي توفي سنة ٦٦٩هـ. انظر ترجمته في نفح الطيب (١/٤٢١).

٦ - في ن: واصل. وتتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

٧ - في ن: واصل. وتتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

الدجّال على أثره، والكفر من بعد ذلك. فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث المراتب الأولى.

قالوا: ولمّا كان أمر الخلافة لقريش حكماً شرعيّاً بالإجماع الذي لا يوهنه إنكارُ من لم يزاول علمه، وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخصُّ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم، إما ظاهراً كبني عبد المطلب، وإمّا باطناً ممن كان من حقيقة الآل، والآل: من إذا حضر لم يعب[1] من هو آله.

وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه **عنقاء مغرب** من تأليفه: خاتم الأولياء، وكنّى عنه بلبنة الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النّبيين. قال صلى الله عليه وسلم: **«مَثلي فيمَن قَبْلِي من الأنبياء كمثلِ رجلٍ ابتنى بيتاً وأكمله، حتى إذا لم يبقَ منه إلا موضع لبنة فأنا تلكَ اللّبنة»**[2]. فيفسرونَ خاتم النّبيين باللبنة التي[3] أكملت البنيان، ومعناه النّبي الذي حصلت له النبوة الكاملة. ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوّة، ويجعلون صاحبَ الكمال فيها خاتم الأولياء، أي: حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية، كما كان خاتم الأنبياء حائزاً للمرتبة التي هي خاتمة النبوة، فكنّى الشارع[4] عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور. وهما على نسبة واحدة فيها. فهي لبنة واحدة في التمثيل. ففي النبوة لبنة الذهب وفي الولاية لبنة فضة؛ للتفاوت بين الرتبتين، كما بين الذهب والفضة، فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النّبي صلى الله عليه وسلم، ولبنة الفضة كنايةً عن هذا الولي الفاطميّ المنتظر. وذلك خاتمَ الأنبياء، وهذا خاتم الأولياء.

وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واطيل[5] عنه: وهذا الإمام المنتظر وهو من أهلِ البيت من ولدِ فاطمة، وظهوره يكون من بعد مُضِيّ **خ ف ج** من الهجرة. ورسم حروفاً ثلاثة يريد عددها[6] بحساب الجمَّل، وهو الخاء المعجمة بواحدة من فوق ست مئة. والفاء

---

١ - في ن: بلقب. ولعله أراد أن آل الرجل من يدافع عنهم ولا يقبل من أحد أن يعيبهم في حضرته.

٢ - ورد هذا الحديث في البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين من حديث أبي هريرة (٣٥٣٥) بلفظ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النّبيين» ومن حديث جابر بن عبد الله (٣٥٣٤) بلفظ: مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع لبنة.

٣ - في ن: حتى.

٤ - في ن: الشارح.

٥ - في ن: واصل. وتتكرر كثيراً و لم أقف على ترجمته.

٦ - في ن: عددهم.

أخت القاف بثمانين. والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة، وذلك ست مئة وثلاثٌ [ظ١٤٤/٢] وثمانون سنة، وهي[١] في آخر القرن السَّابع.

ولمَّا انصرمَ هذا العصرُ و لم يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدّة مولده، وعبَّرَ بظهوره عن مولده، وأن خروجه يكون بعد العشر والسَّبع مئة، فإنه الإمام النَّاجم من ناحية المغرب قال: وإذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستّ مئة فيكون عمرهُ عند خروجه ستّاً وعشرين سنة.

قال: وزعموا أن خروج الدَّجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبع مئة من اليوم المحمَّدي.

وابتداءُ اليوم المحمدي عندهم من يوم وفاة النَّبي صلى ا لله عليه وسلم إلى تمام ألف سنة.

قال ابن أبي واطيل[٢] في شرحه كتاب خلع النَّعلين: الوليُّ المنتظر القائمُ بأمر ا لله المشارُ إليه بمحمد المهديِّ وخاتم الأولياء. وليس هو بنبيّ، وإنما هو ولي ابتعثه روحه وحبيبُه، قال صلى ا لله عليه وسلم: «**العالِمُ في قومه كالنَّبيِّ في أمَّته**»[٣].

وقال: «**علماءُ أُمَّتي كأنبياء بني إسرائيل**»[٤].

و لم تزل البشرى تتابع به من أوّل اليوم المحمدي إلى قبيل الخمس مئة نصف اليوم. وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ بتقريب وقته، وازدلاف زمانه منذ انقضت إلى هلم جرا.

قال: وذكر الكندي[٥] أنَّ هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر، ويجدد الإسلام، ويظهر العدل، ويفتح جزيرة الأندلس، ويصل إلى رومية فيفتحها، ويسير إلى المشرق فيفتحه، ويفتح القسطنطينية، ويصير له ملك الأرض، فيتقوى المسلمون، ويعلو

---

١ – في ظ: هو.

٢ – في ن: واصل. وتتكرر كثيراً و لم أقف على ترجمته.

٣ – ليس بحديث، وإنما روي عن النبي صلى ا لله عليه وسلم: إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم. أخرجه أحمد (١٩٦/٥) والدارمي (٣٤٩) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجة (٢٢٣) بإسناد لا بأس به من حديث أبي الدرداء.

٤ – قال السيوطي وابن حجر وغيرهما: لا أصل له. وانظر كشف الخفاء (١٧٤٤) وتذكرة الموضوعات (٢٠).

٥ – يقصد هنا الكندي الفيلسوف أبا يوسف يعقوب بن إسحاق ابن الصباح المتوفى حوالي سنة ٢٥٢هـ.

الإسلام، ويظهر دين الحنيفية[1]. فإن من صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقت صلاة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**ما بين هذين وقت**»[2].

وقال الكندي أيضاً: الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتتح بها سور القرآن جملةً عددها سبع مئة وثلاثةٌ وأربعون، وسبعة دجّاليّة، ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر، فيصلح الدنيا، وتمشي الشّاة مع الذئب. ثم مبلغ[3] مُلك العجم بعد إسلامهم مع عيسى مئةٌ وستون[4] عاماً، عدد حروف المعجم وهي **ق ي ن**، دولة العدل منها أربعون عاماً.

قال ابن أبي واطيل[5]: وما ورد من قوله: «**لا مهديَّ إلا عيسى**»، فمعناه: لا مهديَّ تساوي هدايته ولايته[6]؛ وقيل: لا يتكلّم في المهد إلا عيسى. وهذا مدفوعٌ بحديث جُريج وغيره.

وقد جاء في الصحيح[7] أنه قال: «**لا يزال هذا الأمر قائماً حتى تقومَ السَّاعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفةً**». يعني قرشياً.

وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الإسلام، ومنهم من سيكون في آخره. وقال: «**الخلافةُ بعدي ثلاثون أو إحدى وثلاثون أو ستّةٌ وثلاثون**»[8]. وانقضاؤها في

---

١ - ذهب الدكتور وافي إلى أنَّ هنا جملة ساقطة تقديرها: ويصلي بالناس صلاة بين الظهر والعصر، فإن من صلاة الظهر... الخ. والصواب أن يقال: إن الفتوحات التي يفتتحها بعد صلاة الظهر تمثل صلاة، أو كأنه يفعل ذلك في وقت قصير. والله أعلم.

٢ - أخرجه مسلم (٦١٤) من حديث أبي موسى بلفظ: الوقت بين هذين. ومن حديث بريدة (٦١٣) بلفظ: ما بين ما رأيت وقت.

٣ - في ن: يبقى.

٤ - في ن: وستين.

٥ - في ن: واصل. وتتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

٦ - في ن: هدايته.

٧ - أخرجه مسلم (١٨٢٢) عن جابر بن سمرة. والبخاري (٧٢٢٢ و٧٢٢٣) بعضه.

٨ - لم يرد منه إلا الفقرة الأولى، أخرجه الترمذي (٢٢٧) عن سفينة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك**. قال سعيد بن جمهان: ثم قال: أمسك: خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، ثم قال: أمسك خلافة علي، فوجدناها ثلاثين سنة، قال سعيد: فقلت له: إن بني أمية يزعمون: أن الخلافة فيهم؟ قال: كذبوا بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك.

وأخرجه أبو داود (٤٦٤٦ و٤٦٤٧) عن سفينة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء**. قال سعيد: قال لي سفينة: أمسك: أبو بكر سنتين، وعمر عشراً، وعثمان اثنتي عشرة، وعلي ستاً، كذا قال سعيد: قلتُ لسفينة: إن هؤلاء يزعمون أن علياً لم يكن بخليفةٍ؟ قال: كذبت أستاه بني الزرقاء. يعني: بني مروان.

أو لعله أخذه من حديث ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **تدور رحى الإسلام على خمسٍ وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن هلكوا، فسبيل من هلك، وإن بقوا بقي لهم دينهم سبعين سنة**.

خلافة الحسن وأوَّل أمر معاوية، فيكون أوَّلُ أمر معاوية خلافة أخذاً بأوائل الأسماء **فهو** سادس الخلفاء، وأمَّا سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز، والباقون خمسة من أهل البيت **من** ذرية علي، يؤيده [ظ١٤٥/١] قوله: «**إنَّكَ لذو قَرنيها**»[١]. يريد الأمة، أي: إنك لخليفة في أولها، وذريتك في آخرها.

وربما استدلَّ بهذا الحديث القائلون بالرجعة. فالأول هو المشار إليه عندهم بطلوع الشَّمس من مغربها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصرُ فلا قيصرَ بعده، والذي نَفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[٢].

وقد أنفقَ عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله. والذي يهلك قيصر وينفقُ كنوزه في سبيل الله، هو هذا المنتظر حين يفتحُ الْقُسْطنطينية: «**فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش**»[٣]. كذا قال صلى الله عليه وسلم.

ومدة حكمه: بضع. والبضع من ثلاث إلى تسع، وقيل: إلى عشر. وجاء ذكر أربعين[٤]؛ وفي بعض الروايات: **سبعين**[٥].

فأما[٦] **الأربعون** فإنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده، على جميعهم السلام.

أخرجه أحمد (٣٩٠/١ و ٣٩٣ و٣٩٤ و ٣٩٥ و٤٥١) وأبو داود (٤٢٥٤). وانظر ما قاله ابن حبان في صحيحه (٦٦٦٤) شرحاً لهذا الحديث.

١ - أخرجه أحمد (١٣٧٣) والبزار (١٤١٩) والطبراني في الأوسط (٦٧٨) وفيه ابن إسحاق مدلس وقد عنعن بلفظ: يا علي، إن لك في الجنة كنزاً، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى....

وذو قرنيها: لأنه كان له شجتان في قرني رأسه، إحداهما من ابن ملجم، والأخرى من عمرو بن ود. وقيل: أي طرفي الجنة وجانبيها، وقيل: أراد الحسن والحسين. وانظر مجمع الزوائد (٧٤٥٨ و١٢٩٤٤).

٢ - أخرجه البخاري (٣٠٢٧ و٣٦١٨ و ٣٦٢٠ و ٦٦٣٠) ومسلم (٢٩١٨) عن أبي هريرة. وأخرجه البخاري (٣١٢١ و٣٦١٩ و٦٦٢٩) ومسلم (٢٩١٩) عن جابر بن سمرة.

٣ - أخرجه أحمد (٣٣٥/٤) والبزار (٨٤٨) والطبراني في الكبير (١٢١٦) والحاكم (٤٢٢/٤) عن بشر الخثعمي. وانظر الضعيفة (٨٧٨).

٤ - أخرجه أبو داود (٤٣٢٤) والطبراني في الأوسط (٥٤٦٠) عن أبي هريرة. وانظر الكامل لابن عدي (٢٦٣٤/٧) ومجمع الزوائد (١٣٧٨٩) بلفظ: ينزل عيسى بن مريم فيمكث في الناس أربعين سنة. وله شواهد انظرها في الدر المنثور للسيوطي (٢٤٢/٢ و٢٤٤ و٢٤٥).

وأخرج أحمد (٧٥/٦) وابن حبان (٦٨٢٢) من حديث عائشة: يلبث عيسى في الأرض أربعين سنة. زاد ابن حبان: أو قريباً من أربعين سنة. وانظر مجمع الزوائد (١٢٥١٢).

٥ - لعلها تحرفت عن سبع. فقد أخرج مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو: يبعث الله عيسى ابن مريم.... ثم يمكث الناس **سبع سنين**.... ثم يرسل الله ريحاً.... فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير.

قال: وذكر أصحاب النُّجوم والقِرَانات أن مـدة بقـاء أمـره وأهـل بيتـه مـن بعـده مئـةٌ وتسعةٌ وخمسون عاماً، فيكـون الأمـر علـى هـذا جاريـاً علـى الخلافـة والعـدل أربعـينَ أو سبعين، ثمَّ تختلف الأحوال فتكون مُلكاً. انتهى كلام ابن أبي واطيل[١].

وقال في موضع آخر: **نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر مـن اليـوم المحمّـدي حين تمضي ثلاثة أرباعه.**

قال: وذكر الكنديّ يعقوب بن إسحاق في كتاب: **الجفر**، الذي ذكر فيه القرانات، أنه إذا وصل القران إلى الثَّور على رأس ضح بحرفين: الضَّاد المعجمة والحـاء المهملـة[٢]، يريـد ثمانية وتسعين وستّ مئة من الهجرة، ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى.

قال: وقد ورد في الحديث أنّ عيسى «**ينزل عند المنارة البيضاء شرقّي دمشـق، ينـزلُ بيْنَ مهرودتين**»[٣]. يعني: حلّتين مزعفرتين صفراوين ممصَّرتين «**واضعاً كفَّيه على أجنحة الملكين، له لِمَّةٌ**[٤]**، كأنَّما خرج من دَيْماس، إذا طأطأ رأسـه قطـرَ**[٥]**، وإذا رفعه تحدر منه جُمانٌ كاللؤلؤ، كثير خِيلان الوجه**»[٦].

وفي حديث آخر: «**مربوع الخلق وإلى البياض والحمرة**»[٧].

وفي آخر: «**أنه يتزوج في الغرب**»[٨]. والغرب: دلـو الباديـة، يريـد أنـه يتـزوّج منهـا وتلد زوجته. وذكر وفاته بعد أربعين عاماً.

---

٦ – في ن: وأما.

١ – في ن: واصل. وتتكرر كثيراً و لم أقف على ترجمته.

٢ – علق الهوريني على ذلك بقوله: الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين. والصَّـاد لا داعـي لذكرهـا هنـا، وكان الأوضح أن يقول: الضاد عند المغاربة بتسعين والحاء عنـد المشـارقة والمغاربـة بثمانيـة، فيكـون المجمـوع ثمانيـة وتسعين.

٣ – أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان. وأخرج أوله الطبراني في الكبير (٥٩٠) من حـدث أوس بن أوس. وانظره في مجمع الزائد (١٣٧٩٠).

٤ – في القاموس: اللمة بالكسر: الشعر المجاور شحمة الأذن جمعه لمم ولمام.

٥ – الديماس بفتح الدال ويكسر الحمام.

٦ – أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان إلا قوله: له لمة كأنه خرج من ديمـاس. وقوله: كثير خيلان الوجه. وقوله: كأنه خرج من ديماس. أخرجه مسلم (١٦٨) من حديث أبـي هريـرة. وقولـه: لمـة. أخرجهـا مسلم (١٦٩) من حديث عبد الله بن عمر.

٧ – أخرجه البخاري (٣٠٦٧ و٣٢١٥) ومسلم (١٦٥)(٢٦٧) من حديث ابن عباس. وأحمد (٢/٤٠٦) وأبو داود (٤٣٢٤) وابن حبان (٦٨٢١) من حديث أبي هريرة.

٨ – قال القرطبي في التذكرة (٢/٧٩٠): يقال: إنه يتزوج امرأة من العرب كذا بعدما يقتل الدجال وتلد له بنتاً فتموت ثم يموت هو بعدما يعيش سنتين. ذكره أبو الليث السمرقندي وخالفه كعب في هذا وأنه يولد له ولدان. ثـم ذكر روايته (٢/٧٩١– ٧٩٢).

وجاء «**أنَّ عيسى يموت بالمدينة ويُدفن إلى جانب عمر بن الخطّاب**»[١]. وجاء «**أنَّ أبا بكر وعمر يُحشران بين نبيين**»[٢].

قال ابن أبي واطيل[٣]: والشِّيعة تقول: إنه هو المسيح، مسيحُ المسَائح من آل محمّد.

قلت: وعليه حمل بعض المتصوفة حديث: «**لا مهدِيّ إلا عيسى**». أي: لا يكون مهدي إلا المهديّ الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتِّباع وعدم النَّسخ.

إلى كلام من أمثال هذا يعيِّنون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة، فينقضي الزَّمان ولا أثر لشيء من ذلك، فيرجعون إلى تجديد رأيٍ آخر منتحلَ، كما تراه من مفهومات [ظ٥١٤٥/٢] لغوية وأشياء تخبينية[٤] وأحكام نُجُومية. في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر.

وأمَّا **المتصوفة الذين عاصرناهم** فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدّد لأحكام الملة ومراسم الحقّ ويتحيَّنون ظهوره لما قرب من عصرنا. فبعضهم يقول: من ولد فاطمة، وبعضهم يطلق القول فيه. سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البَادِسِيّ كبير الأولياء بالمغرب، كان في أول هذه المئة الثامنة، وأخبرني عنه حافده[٥] صاحبنا أبو يحيى زكريا، عن أبيه أبي محمّد عبد الله، عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور.

هذا آخرُ ما اطَّلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة.

وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا.

والحقّ الذي ينبغي أن يتقرر لديك: أنه **لا تتم دعوةٌ من الدِّين والمُلك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتمَ أمر الله فيه**. وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك[٦]. **وعصبيةُ الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق**، ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا

---

١ – قال السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٤٥ - ٢٤٦): أخرج البخاري في تاريخه والطبراني عن عبد الله بن سلام قال: يدفن عيسى ابن مريم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فيكون قبره رابعاً. بإسناد ضعيف. انظر مجمع الزوائد (١٣٧٩٢).

٢ – قال القرطبي في التذكرة (٢/٧٩٠): ذكر أبو حفص المَيَّانَشي عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينزل عيسى ابن مريم فيتزوج ويولد له ويمكث خمساً وأربعين سنة، ويدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبي بكر وعمر.

٣ – في ن: واصل. وتتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

٤ – خبن يخبن: غبب وخبأ وقصر، والخَبْن: إسقاط الحرف الثاني في العروض. وفي المطبوع: تخيلية.

٥ – يعني: حفيد.

٦ – يحيل بذلك على ما ذكره في الفصلين الأول والسَّادس من هذا الباب.

ما بقي بالحجاز في مكّة وينبع بالمدينة من الطَّالِبِيِّين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر، وهم منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها، وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم، يبلغون آلافاً من الكثرة.

فإن صحَّ ظهور هذا المهديّ فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم، ويؤلِّف الله بين قلوبهم في أتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها.

وأما على غير هذا الوجه، مثل أن يدعو فاطميٌّ منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرَّد نسبه في أهل البيت، فلا يتم ذلك ولا يمكن، لما أسلفناه من البراهين الصحيحة.

وأمَّا ما تدعيه العامة والأغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يفيده، فيتحينون[1] ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليداً لما اشتهر من ظهور فاطمي، ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه.

وأكثر ما يتحيَّنون[2] في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران، مثل الزَّاب بإفريقية والسُّوس من المغرب.

ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطاً بماسَةَ لما كان ذلك الرباطُ بالمغرب من المُلَثَّمين من كَدَالة[3] واعتقَادهم أنه منهم، أو قائمون بدعوته، زعماً لا مستند لهم، إلا غرابة [ظ١٤٦/١] تلك الأمم، وبعدهم عن يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أو قلة أو ضعف أو قُوَّة، ولبعد القَاصية عن منالِ الدولة وخروجها عن نطاقها، فتقوى عندهم الأوهامُ في ظهوره هناك بخروجه عن ربقَةِ الدولة ومنال الأحكام والقهر، ولا محصول لديهم في ذلك إلا هذا. وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة (تمنيه النفسُ)[4] تمامها وسواساً وحمقاً. وقتل كثير منهم.

أخبرني[5] شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال: خرج **برباط ماسة** لأول المئة الثامنة وعصر السُّلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف، يعرف **بالتَّوَيزَرِيِّ** نسبة إلى تُوزر مصغّراً، وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من ضالة

١ – في ن: فيجيبون.

٢ – في ن: يجيبون.

٣ – في الأصل. كدالة. بالدال المهملة. وهي قبيل من قبائل صنهاجة. انظر تاريخ ابن خلدون (١٨١/٦).

٤ – في ن: يميه.

٥ – في ن: أخبرنا.

وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم، فدسَّ عليه السكسوي من قتله بياتاً[1]، وانحلَّ أمره.

وكذلك ظهر في **غمارة** في آخر المئة السَّابعة وعشر التسعين منها رجلٌ يعرفُ **بالعبَّاس**، وادعى أنه الفاطمي، واتبعه الدَّهماءِ من غمارة، ودخل مدينة فاس عنوةً وحرق أسواقها. وارتحلَ إلى بلد المزمة، فقتل بها غيلةً،، ولم يتم أمره. وكثيرٌ من هذا النَّمط.

وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا، وهو أنه صحبَ ـ في حجه في رباط العباد، وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تِلْمسان المطل عليها ـ رجلاً من أهل البيت من سكان كربلاء، كان متبوعاً معظماً كثير التِّلميذ والخادم.

قال: وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان.

قال: وتأكدت الصُّحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشفَ لي أمرهم، وأنهم إنما جاؤوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطميّ بالمغرب. فلما عاين دولة بني مرِين، ويوسف بن يعقوب يومئذ منازلٌ لتلمسان قال لأصحابه: ارجعوا فقد أزرى بنا الغلَط، وليس هذا الوقت وقتنا.

ويدلُّ هذا القول من هذا الرّجل على أنه مستبصرٌ في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبية المكافئة لأهل الوقت، فلما علم أنه غريبٌ في ذلك الوطن ولا شوكة له، وأن عصبيَّة بني مرين لذلك العهد لا يُقَاوِمُها أحدٌ من أهل المغربِ استكان ورجعَ إلى الحقّ وأقصر عن مطامعه. وبقي عليه أن يستيقنَ أنَّ عصبيّة الفواطم وقُريش أجمع قد ذهبت، لا سيما في المغرب. إلا أن التَّعصُّب لشأنه لم يتركه لهذا القول. ﴿وا لله يعلمُ وأنتم لا تعلمون﴾[النور: ١٩].

وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعةٌ من الدُّعاة إلى الحقّ والقيام بالسُّنّة لا ينتحلون فيها دعوة فاطميّ ولا غيره، وإنَّما ينزع [ظ١٤٦/٢] منهم في بعض الأحيان الواحدُ فالواحد إلى إقامة السُّنة وتغيير المنكرِ ويعتني بذلك ويكثر تابعه. وأكثر ما يُعنَون بإصلاح السَّابلة لما أنَّ أكثر فسادِ الأعراب فيها، لما قدَّمناه من طبيعة معاشهم[2]، فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا. إلا أن العصبية الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدِّين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغَارة والنَّهب؛ لا يعقلون في توبتهم وإقبالهم إلى مناحي الدِّيانة غير ذلك، لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة،

١ – البيات: الإغارة ليلاً.

٢ – انظر على الأخص الفصل السادس والعشرين من هذا الباب.

فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا. إلا أن العصبية الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدِّين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغَارة والنَّهب؛ لا يعقلون في توبتهم وإقبالهم إلى مَنَاحي الدِّيانة غير ذلك، لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة، ومنها توبتهم. فنجد تابع[1] ذلك المنتحل للدَّعوة والقائم بزعمه بالسُّنَّة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتِّباع، إنَّما دينهم الإعراض عن النَّهب والبغي وإفساد السَّابلة، ثُمَّ الإقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم. وشتَّان بين طلب هذا الأمر في صلاح الخلق وبين طلب الدّنيا[2]، فاتفاقهما ممتنعٌ، ولا تستحكم لهم[3] صبغةٌ في الدِّين ولا يكمل لهم[4] نزوعٌ عن الباطل على الجملة، ولا يكثرون.

ويختلف حال صاحب الدَّعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه. فإذا هلك انحلَّ أمرهم وتلاشت عصبيَّتهم. وقد وقع ذلك بإفريقية لرجل من كعب من سليم يسمّى **قاسم بن مرة بن أحمد** في المئة السَّابعة، ثم من بعده لرجلٍ آخر من باديةً رياح من بطنٍ منهم يعرفون بمسلم، وكان يُسمّى **سَعَادة**، وكان أشدّ ديناً من الأول وأقوم طريقة في نَفسه، ومع ذلك فلم يستتبَّ أمر تابعه، كما ذكرناه حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح[5]. وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدَّعوة يتشبَّهون بمثل ذلك، ويُلَبِّسون فيها، وينتحلون اسمَ السُّنّة، وليسوا عليها إلا الأقلّ، فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيءٌ من أمرهم. انتهى.

---

١ - قوله: (تابع) ساقطة من جميع النسخ، وقد عثرنا عليها في التيمورية وهي مفرد في اللفظ وجمع في المعنى (د. وافي).

٢ - هكذا وردت هذه العبارة في النسخة المسماة بالتيمورية وقد وردت في غيرها محرفة وناقصة. وفي ن: بين هذا الأجر من إصلاح الخلق ومن طلب الدنيا.

٣ - في ن: له.

٤ - في ن: له.

٥ - في القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر.

١-٣-٥٤- الفَصل الرابع والخمسون: في حِدْثَان الدُّوَل والأُمم وفي الكلامُ على الملاحم والكَشْفِ عن مسمى الجَفر

اعلم: أن من خواصِّ النفوسِ البشرية التشوّفُ إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخيرٍ وشر، سيَّما الحوادثُ العامة كمعرفة ما بقي من الدُّنيا، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها. والتَّطلع إلى هذا طبيعةٌ للبشر مجبولون عليها. ولذلك تجدُ الكثيرَ من النَّاسِ يتشوّفون إلى الوقوفِ على ذلك في المنام. والأخبارُ من الكُهَّان لمن قصدَهم بمثل ذلك من الملوك والسُّوقة معروفةٌ. ولقد نجدُ في المدن صنفاً من النَّاس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرصِ النَّاسِ عليه، فينتصِبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسائلهم[1] [ظ١٤٧/١] . فتغدو عليهم وتروح نسوانُ المدينة وصِبيانها وكثير من ضعفاء العقول، يستكشِفون عواقبَ أمرهم في الكَسبِ والجاه والمَعَاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك، ما بين خطٍّ في الرمل ويسمونه المنجِّم، وَطَرْق بالحصى والحُبوبِ ويسمُّونه الحَاسب، ونظرٍ في المرايا والمياه ويسمونه **ضاربَ المندَل**، وهو من المنكراتِ الفَاشية في الأمصار، لما تقرَّر في الشَّريعة من ذمِّ ذلك، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نومٍ أو ولاية.

وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلَّعُ إليه الأُمراءُ والملوك في آماد دولتهم. ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه. وكل أمّة من الأمم يوجد لهم كلامٌ من كاهن أو منجِّم أو وليٍّ في مثل ذلك من مُلك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها، وما يحدث لهم من الحربِ والمَلَاحم، ومدة بقاء الدَّولة، وعدد الملوك فيها، والتَّعرض لأسمائهم ويُسَمَّى مثل ذلك: الحِدْثَان.

وكان في العرب الكُهَّانُ والعرَّافون يرجعُون إليهم في ذلك، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملكِ والدَّولة، كما وقع لِشِقٍّ وَسَطِيح[2] في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من

---

١ - في المطبوع: يسألهم عنه.

٢ - أولهما شق بن أنمار الذئبي، والآخر سطيح بن مازن الغساني. وقد علقت بهما أساطير كثيرة. فمن ذلك ما يروى من أن سطحيّاً أخبر بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وأنه عاش ثلاث مئة سنة ومات في أيّام كسرى أنوشروان يعد مولده صلى الله عليه وسلم، وأنه سمي بذلك لأنه لم يكن بين مفاصله قصب تعتمد عليه، فكان أبداً منبسطاً منسطحاً على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود، وإنه كان يطوى كما يطوى الحصير، وكان يتكلّم بالأعاجيب. ومن ذلك ما يروى عن شق من أنه كان نصف إنسان، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة، ولذلك سميٌ شقاً. وهو ابن خالة سطيح. ويروى أن ولادتهما كانت في يوم واحد، وأنه في ذلك اليوم توفيت طريقة ابنة الخير الحميرية الكاهنة. د. وافي. وانظر عنها الروض الأنف للسهيلي (١/١٣١، ١٣٤ - ١٣٩).

ملوك اليمن، أخبرهم بملك الحبشةِ بلادهم ثم رجوعها إليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك. وكذا تأويل سطيح لرؤيا المُوبَذان حين بعث إليه كسرى بها مع عبد المسيح[١]. وأخبرهم بظهور دولة العرب.

وكذا كان في جيل البربر كهانٌ من أشهرهم موسى بن صالح من بني يَفْرن، ويقال: من غمرة، وله كلماتٌ حِدْثَانيةٌ على طريقة الشِّعر برطانتهم، وفيها حِدْثَانٌ كثيرٌ، ومعظمه فيما يكونُ لزناتَةَ من الملكِ والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجيل.

وهم يزعمون تارة أنه وليٌّ، وتارة أنه كاهنٌ، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيّاً، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير. والله أعلم.

وقد يستند الجيلُ في ذلك إلى خبر الأنبياء إن كان لعهدهم، كما وقع لبني إسرائيل، فإن أنبياءهم المتعاقبينَ فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما يعنونهم في السُّؤَال عنه.

وأمَّا في الدَّوْلَةِ الإسلامية فوقعَ منه كثيرٌ فيما يرجع إلى إبقاء الدُّنيا ومدَّتها على العموم، وفيما يرجعُ إلى الدولة وأعمارها على الخصوص. وكذا المعتمد في ذلك في صدر الإسلام، لآثار[٢] منقولة عن الصَّحابة، وخصوصاً مُسْلِمة بني إسرائيل، مثل كعب الأحبار ووهب ابن مُنَبِّه وأمثالهما. وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورةٍ وتأويلات محتملة.

ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثيرٌ من ذلك، ومستندهم فيه ـ والله أعلم ـ الكشفُ[٣] [ظ١٤٧/٢] بما كانوا عليه من الولاية. وإذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الأولياء في ذويهم وأعقابهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ فيكم مُحَدَّثين**»[٤]. فهم أولى النَّاس بهذه الرتب الشَّريفة والكرامات الموهوبة.

وأمَّا بعد صدر الملة، وحين علّق الناس على العلوم والاصطلاحات، وترجمت كتب الحكماء إلى اللِّسان العربي، فأكثرُ معتَمَدهم في ذلك كلامُ المنجِّمين في الملك والدول وسائر الأمور العامة من القرانات وفي المواليد والمسائل وسائر الأمور الخاصة من الطوالع لها، وهي شكل الفلك عند حدوثها.

فلنذكر الآن ما وقع لأهل الأثر في ذلك ثم نرجع إلى كلام المنجمين.

---

١ - هو عبد المسيح بن عمر بن بقيلة الغسَّاني ابن أخت سطيح. انظر الروض الأنف (١٤١/١ - ١٤٣).

٢ - في ن: آثار.

٣ - في ظ: بالكشف.

٤ - أخرجه الحميدي (٢٥٣) وأحمد (٥٥/٦) والبخاري (٣٦٨٩) ومسلم (٢٣٩٨) والترمذي (٣٦٩٣) والنسائي في فضائل الصحابة (١٨) والبيهقي في الدلائل (٣٦٩/٦) من حديث عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة فهو عمر بن الخطاب.

أمَّا أهل الأثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السُّهيلي[١] فإنه نقل عن الطَّبري[٢] ما يقتضي أن مدّة بقاء الدُّنيا منذ الملة خمس مئة سنة، ونقض ذلك بظهور كذبه.

ومستند الطَّبري في ذلك أنه نقل عن ابن عبَّاس: أنَّ الدُّنيا جمعةٌ من جمع الآخرة[٣]. ولم يذكر لذلك دليلاً. وسره ـ والله أعلم ـ تقدير الدُّنيا بأيَّام خلق السَّماوات والأرض، وهي سبعة، ثم اليوم بألف سنة لقوله: ﴿وإنّ يوماً عند ربّك كألفِ سنةٍ مما تعدّون﴾[الحج: ٤٧].

قال: وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أجلُكُم في أجل من كان قبلَكم من صلاة العصر إلى غروب الشَّمس**»[٤]. وقال: «**بُعثت أنا والسَّاعة كهاتين**»[٥]. وأشار بالسَّبَّابة والوسطى، وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشَّمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه. يكون على التقريب نصف سُبْع، وكذلك وصل الوسطى على السَّبابة، فتكون هذه المدة نصف سُبْع الجمعة كلها، وهو خمس مئة سنة. ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم: «**لن يعجز الله أن يؤخّر هذه الأمة نصف يوم**»[٦]. فدلَّ ذلك على أنَّ مدَّة الدُّنيا قبل المِلَّة خمسة آلاف وخمس مئة سنة.

وعن[٧] وهب بن منبّه: أنها خمسة آلاف وست مئة سنة، أعني الماضي.

وعن كعب: أنَّ مدة الدُّنيا كلها ستة آلاف سنة[٨].

---

١ - الروض الأنف: (٤/٤١٩).

٢ - تاريخ الطبري (١/١٧).

٣ - أخرجه الطبري في تاريخه (١/١٠)، وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم في تفسيره ـ في كتاب الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف (ص٨٨).

٤ - أخرجه البخاري (٥٥٧ و٢٦٦٨ و٢٦٦٩ و٣٤٥٩ و٥٠٢١ و٧٤٦٧ و٧٥٣٣) وأحمد (٢/٦ و١١١ و١١٢ و١٢١ و١٢٤ و١٢٩) والترمذي (٢٨٧١) من حديث ابن عمر. ولم يخرجه مسلم.

وأخرج البخاري (٥٥٨ و٢٢٧١) معناه من حديث أبي موسى الأشعري.

٥ - أخرجه البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد.

وأخرجه البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك.

٦ - أخرجه أحمد (٤/١٩٣) موقوفاً وأبو داود (٤٣٤٩) مرفوعاً من حديث أبي ثعلبة الخشني، ولفظ أحمد: والله لا تعجز هذه الأمة من نصف يوم، إذا رأيت الشام مائدة رجل واحد وأهل بيته، فعند ذلك فتح القسطنطينية. ولفظ أبي داود: لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم.

٧ - أخرجه الطبري في تاريخه (١/١٠) مطولاً.

٨ - أخرجه الطبري في تاريخه (١/١٠).

قال السُّهيلي[١]: وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه. فأمَّا قوله: «**لن يعجز ا لله أن يؤخّر هذه الأمة نصف يوم**»، فلا يقتضي نفي الزِّيادة على النِّصف.

وأمَّا قوله: «**بُعثت أنا والسَّاعة كهاتين**». فإنَّما فيه الإشارة إلى القرب، وأنه ليسَ بينه وبين السَّاعة نبي غيره، ولا شرع غير شرعه.

ثم رجع السُّهيلي[٢] إلى تعيين أمد الملَّة من مدرك آخر، لو ساعده التحقيق، وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السُّور بعد حذفِ المكرر، قال: وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك: **ألم يسطع نص حق كره**[٣]. فأخذ [ظ١٤٨/١] عددها بحساب الجُمّل فكان تسع مئة وثلاثة[٤]، تضاف[٥] إلى المنقضي من الألف الآخر قبل بعثه، فهذه هي مدة الملة.

قال: ولا يبعد أن يكون ذلك من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها. **قلت**: وكونه لا يبعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه.

والذي حمل السُّهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب السِّير لابن إسحاق[٦] في حديث ابني أخطب من أحبار اليهود، وهما أبو ياسر، وأخوه حيٌّ، حين سمعا من الأحرف المقطعة ألم، وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب، فبلغت إحدى وسبعين فاستقلاَّ المدة. وجاء حي إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم يسأله: هل مع هذا غيره؟ فقال: ﴿المص﴾، ثم استزاد ﴿الر﴾. ثم استزاد ﴿المر﴾. فكانت إحدى وسبعين ومئتين فاستطال المدة. وقال: قد لُبِّسَ علينا أمرك يا محمد! حتى لا ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً؟ ثم ذهبوا عنه. وقال لهم أبو ياسر: ما يدريكم لعله أعطي عددها كلها تسع مئة وأربع سنين[٧].

قال ابن إسحاق[٨]: فنزل قوله تعالى: ﴿منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتاب وأخرُ متشابهات﴾[٩][آل عمران: ٧]. انتهى.

---

١ – الروض الأنف (٤٢٠/٤) بمعناه لا بنصه.

٢ – الروض الأنف (٤٢٠/٤ – ٤٢١).

٣ – يجمع غالباً هذه الحروف قولهم: نص حكيم قاطع له سر.

٤ – أي: بحساب المغاربة. لأن حساب المشارقة: (٦٩٣). والمثبت موافق للسهيلي في كتابه الروض الأنف (٤٢١/٤).

٥ – في المطبوع: أضافه.

٦ – انظر الروض الأنف شرح السيرة النبوية (٣٤٥/٤ – ٣٤٦).

٧ – في السيرة: ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد.... فذلك سبع مئة وأربع وثلاثون سنة.

٨ – في السيرة: فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم.... ونقل أقوالاً في أسبابها منها أنها نزلت في أهل نجران أو في نفر من اليهود. ويشكك في ذلك.

ولا يقوم من القصة دليلٌ على تقدير الملة بهذا العدد، لأنَّ دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية. وإنَّما هي بالتَّواضع والاصطلاح الذي يسمُّونه حساب الجُمّل. نعم إنه قديمٌ مشهورٌ، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة.

وليس أبو ياسر وأخوه حي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً، ولا من علماء اليهود، لأنهم كانوا باديةٌ بالحجاز، غفلاً عن[1] الصَّنائع والعلوم، حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملَّتهم، وإنما يتلقَّفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوامُّ في كل ملة. فلا ينهض للسُّهيلي دليلٌ على ما ادَّعاه من ذلك.

ووقع في الملة في حِدثان دولتها على الخصوص مسندٌ من الأثر إجماليٍ في حديث خرجه أبو داود[2] عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهلي[3]، عن سعيد [بن الحكم] بن أبي مريم، عن عبد الله بن فرُّوخ، عن أسامة بن زيد الليثي، عن ابن[4] قَبيصة بن ذؤَيب عن أبيه قال: قال حذيفة بن اليمان: والله ما أدري، أنسي أصحابي أم تناسوه[5]؟ والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة[6] إلى أن تنقضي الدُّنيا، يبلغ من معه ثلاث مئة فصاعداً إلا قد سمَّاه لنا باسمه واسم أبيه و[اسم] قبيلته. وسكت عليه أبو داود، وقد تقدم أنه قال في رسالته: ما سكت عليه في كتابه فهو صالح.

وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو مجملٌ، ويفتقر في بيان إجماله وتعيين مبهماته إلى آثار أخرى يجود أسانيدها. وقد وقع إسناد هذا الحديث في غير [ظ١٤٨/٢] كتاب السنن على غير هذا الوجه. فوقع في الصحيحين[7] من حديث حُذيفة أيضاً قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً[8]، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذاك إلى قيام الساعة إلا حدّث عنه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي[9] هؤلاء. انتهى.

---

٩ – وقد اكتفى ابن إسحاق بجزء منها، مع أنَّ المعنى الذي يريد تقريره لا يستفاد إلا إذا ذكرت الآية كلها.

١ – في ن: من.

٢ – سنن أبي داود (٤٢٤٣) وقد بين المصنف رجاله إذ لم يبين في أبي داود أن شيخه هو الذهلي، وأن ابن أبي مريم هو سعيد، وأن ابن فروخ هو عبد الله.

٣ – في الأصل: الذهبي. خطأ. صحح من تهذيب الكمال (٢٦/٦١٧ –).

٤ – في الأصل: أبي. خطأ. صحح من السنن ومصادر الترجمة.

٥ – في أبي داود: تناسوا.

٦ – في الأصل: فئة. خطأ.

٧ – البخاري (٦٦٠٤) ومسلم (٢٨٩١) وأبو داود (٤٢٤٠).

٨ – لفظ مسلم: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً.

٩ – في الأصل: أصحابه. صحح من مسلم.

ولفظ البخاري: «**ما ترك شيئاً إلى قيام السَّاعة إلا ذكره**».

وفي كتاب الترمذي[١] من حديث أبي سعيد الخدري قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاةَ العصر بنهار، ثم قام خطيباً، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام السَّاعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظهُ ونسيه من نسيه. انتهى.

وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبتَ في الصَّحيحين من أحاديث الفتن والأشراطِ لا غير، لأنه المعهود من الشَّارع صلوات الله وسلامه عليه، في أمثال هذه العمومات. وهذه الزيادة التي تفرد بها أبو داود في هذه الطريق[٢] شاذَّةٌ منكرة، مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله.

فقال ابن أبي مريم في **ابن فروخ**[٣]: أحاديثه مناكير.

وقال البخاري: تعرف منه وتنكر.

وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة.

وأسامة بن زيد[٤]، وإن خرّج له في الصحيحين. ووثقه ابن معين، فإنما خرَّج له البخاري استشهاداً، وضعَّفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل.

وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتجُّ به.

وابن[٥] **قبيصة بن ذؤيب**: مجهول[٦]. فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر.

وقد يستندون في حِدْثان الدُّول على الخصوص إلى **كتاب الجَفر**، ويزعمون أن[٧] فيه علم ذلك كلّه من طريق الآثار والنجوم، لا يزيدون على ذلك، ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده.

واعلم أن كتاب الجفر كان أصله: أنَّ هارون بن سعد[٨] العِجْلِي - وهو رأس الزَّيديّة - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصَّادق، وفيه علمُ ما سيقع لأهل البيت على العموم،

---

١ - رقم: (٢١٩٢).

٢ - وهي قوله: «ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاث مئة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته».

٣ - هو عبد الله بن فروخ الخراساني. انظر تهذيب الكمال (١٥/٤٢٨ - ٤٣٠).

٤ - يقصد أسامة بن زيد الليثي الذي ورد اسمه في سند هذا الحديث. وهو مترجم في تهذيب الكمال (٢/٣٤٧ - ٣٥١).

٥ - في الأصل: وأبو. خطأ.

٦ - قال المزي في تهذيب الكمال (٣٤/٤٦٩): إن لم يكن إسحاق بن قبيصة فهو أخ له. فإن كان إسحاق فليس بمجهول الرواية، روى عنه جمع منهم أسامة، وكان من أمراء دمشق، انظر ترجمته في تهذيب الكمال (٢/٤٦٨ - ٤٧٠).

٧ - في ن: فيه.

ولبعض الأشخاص منهم على الخُصوص. وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء. وكان مكتوباً عندَ جعفر في جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العِجْلي وكتبه، وسماه الجفرَ باسم الجلد الذي كتب فيه[1]، لأنَّ الجفر في اللغة هو الصَّغير[2]، وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم. وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مرويّة عن جعفر الصادق.

وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عُرف عينه، وإنما يظهرُ منه شواذٌ من الكلمات لا يصحبها دليلٌ. ولو صحَّ السند [ظ١٤٩/١] إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستنَد من نفسه أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات، وقد صحَّ عنه أنه كان يحذّر بعض قرابته بوقائعَ تكون لهم، فتصح كما يقول. وقد حذر يحيى ابن عمه زيدٍ من مصرعه وعصاه، فخرج وقتل بالجوْزَجَان كما هو معروف. وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم، فما ظنك بهم علماً وديناً وآثاراً من النبوة، وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة!!. وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام، غير منسوب إلى أحد. وفي أخبار دولة العُبيديين كثيرٌ منه. وانظر ما حكاه الرقيق[3] في لقاء أبي عبد الله الشِّيعيّ لعبيد الله المهديّ مع ابنه محمّد الحبيب، وما حدثاه به، وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن، فأمره بالخروج إلى المغرب، وبث الدعوة فيه على علم لُقّنه أن دعوته تتم هناك، وأنَّ عبيد الله لما بنى المهدية بعد استفحال دولتهم بإفريقية قال: بنيتها ليعتصم بها الفَوَاطم ساعةً من نهار. وأراهم موقف صاحبِ الحمار بسَاحتها، وبلغ هذا الخبر حافده إسماعيل المنصور، فلمّا حاصره صاحب الحمار أبو يزيد بالمهدية وكان يُسَأل[4] عن منتهى موقفه، حتى جاءه الخبرُ ببلوغه إلى المكان الذي عينه جدُّه أبو عبيد الله فأيقن بالظَّفرَ، وبرز من البلد، فهزمه واتبعه إلى ناحية الزَّابِ فظفر به وقتله. ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة.

وأمَّا **المنجّمون** فيستندون في حِدْثَان الدول إلى الأحكام النُّجومية.

أما في الأمور العامة مثل الملك والدّوَل فمن القرانَات، وخصوصاً بين العُلْويين. وذلك أنَّ **العُلْويين**: زحل والمُشتري يقترنان في كل عشرين سنة مرة، ثم يعود القِران إلى برج

---

٨ – في الأصل: سعيد. خطأ. ولم تثبت روايته عن جعفر، وإنما عن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

روى له مسلم في صحيحه. ووثقه غير واحد، إلا أنه كان غالياً في الرفض. وانظر ترجمته في تهذيب الكمال (٣٠/٨٥ – ٨٨).

١ – في ن: عليه.

٢ – الجفر في اللغة: ولد الشاء أو المعز الصغير.

٣ – في الأصل: ابن الرقيق. خطأ.

٤ – في ن: يسائل.

آخر في تلك المثلثة من التثليث الأيمن، ثم بعده إلى آخر كذلك، إلى أن يتكرر في المثلثة الواحدة اثني عشرة مرة تستوي بُروجه الثلاثة في ستين سنة، ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة، ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوي في المثلثة باثني عشرة مرة، وأربع عودات في مئتين وأربعين سنة، ويكون انتقاله في كل برج على التَّثليث الأيمن، وينتقل من المثلثة إلى المثلثة التي تليها أعني البرج الذي يلي البرج الأخير من القِرَان الذي قبله في المثلثة.

وهذا **القِرَانُ** الذي هو قران العُلويين، **ينقسم** إلى كبير وصغير ووسط. **فالكبير** هو اجتماع العُلويين في درجة واحدة من الفلك، إلى أن يعود إليها بعد تسع مئة وستين سنة مرة واحدة، **والوسط** هو اقتران العُلويين في كل مثلثة اثنتي عشرة مرة، وبعد مئتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى؛ **والصغير** هو اقتران العُلويين في درجة برج، وبعد عشرين سنة يقترنان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجه أو دقائقه.

مثال ذلك: وقع القران يكون أول[1] [ظ١٤٩/٢] دقيقة من الحمل، وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس، وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد، وهذه كلها ناريّة، وهذا كله قرانٌ صغير. ثم يعود إلى أولِ الحمل بعد ستين سنة ويُسمّى دور القران وعَود القران، وبعد مئتين وأربعين ينتقل من النَّارية إلى الترابية لأنها بعدها، وهذا قرانٌ وسط. ثُمَّ ينتقل إلى الهوائية ثمَّ المائية، ثم يرجع إلى أول الحمل في تسع مئة وستين سنة وهو الكبير.

والقران الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة. وانتقال الملك من قوم إلى قوم، والوسط على ظهور المتغلبين والطَّالبين للمُلك؛ والصَّغير على ظهور الخوارج والدعاة وخرابِ المدن أو عمرانها.

ويقع في أثناء هذه القرانات قران النَّحسين في برج الْسَّرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويُسَمّى الرابع.

وبرج السَّرطان هو طالع العالم وفيه وبَالُ زحل وهبوط المريخ، فتعظم دلالة هذا القِرَانِ في الفتن والحروب، وسفك الدِّماء، وظهور الخوارج وحركة العساكر، وعصيان الجند، والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرانهما على قدر تيسير الدليل فيه.

قال جراش[2] بنُ أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك:

---

١ - في ظ: إذا وقع القران أول.

٢ - في ن: (جراس). وفي أخرى: (خراش). وما أثبته من هدية العارفين في أسماء المصنفين، وهو أبو الفتح الهمداني له كتاب القرانات (٥/ ٢٥٠).

ورجوع المريخ إلى العقرب له أثرٌ عظيم في المِلّة الإسلامية لأنه كان دليلها، فالمولدُ النبوي كان عند قران العُلْويين ببرج العقرب؛ فلما رجع هنالك حدث التَّشويش على الخُلفاء وكثرَ المرضُ في أهلِ العلم والدِّين ونقصت أحوالهم، وربما انهدم بعض بيوت العبادة، وقد يقال: إنه كان عند قتل علي رضي الله عنه، ومروان من بني أمية، والمتوكّل من بني العبَّاس.

فإذا رُوعيت هذه الأحكام مع أحكام القِرَانات كانت في غاية الإحكام.

وذكر شاذان البلخي: أنّ الملة تنتهي إلى ثلاث مئة وعشرين. وقد ظهر كذب هذا القول.

وقال أبو معشر[1]: يظهر بعد المئة والخمسين منها اختلاف كثير، ولم يصح ذلك.

وقال جراش: رأيتُ في كتب القدماء أنَّ المنجّمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوّة فيهم، وأن دليلهم الزُّهرة وكانت في شرفها، فيبقى الملك فيهم أربعين سنة.

وقال أبو معشر في كتاب القرانات: القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة. ووقع في القران مع ذلك ببرج العقرب، وهو دليل العرب، ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبيٌّ، ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزُّهرة، وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت، ومدة ذلك ست مئة وعشر سنين، وكان ظهور أبي مسلم[2] عند انتقال الزُّهرة، ووقوع القسمة أول الحمل، وصاحب الجد المشتري.

وقال يعقوب بن إسحاق الكندي[3]: إنَّ مدة الملة تنتهي إلى ست مئة وثلاث وتسعين سنة. قال [ظ١٥٠/١]: لأنَّ الزّهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة، من الحوت. فالباقي إحدى عشرة درجة وثماني عشرة دقيقة ودقائقها ستّون، فيكون ست مئة وثلاثاً وتسعين سنة.

قال: وهذه مدة الملة باتِّفاق الحكماء، ويعضده الحروف الواقعة في أوّل السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجُمَّل.

قلت: وهذا هو الذي ذكره السُهيلي. والغالبُ أنَّ الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه.

---

١ - هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم توفي سنة ٢٧٢ هـ من كتبه: اقتران النحسين في برج السرطان.
٢ - يقصد أبا مسلم الخراساني داعية بني العباس وموطد دولتهم.
٣ - (١٨٥ - ٢٥١هـ) تقريباً. له رسائل ومؤلفات في شتى فروع العلم وفي النجوم والفلكيات. مثل رسالة في دلائل النحسين في برج السرطان. انظر ثلاث رسائل له في الكواكب في مجلة المورد مجلد (٨ عدد ١ ص١٦٣ - ٢٠٦).

قال جراش: سأل هرمز إفريد الحكيم عن مدة أردشير وولده ملوك السَّاسانية فقال: دليل ملكه المشتري، وكان في شرفه فيعطي أطول السنين وأجودها، أربع مئة وسبعاً وعشرين سنة، ثم تزيد الزهرة، وتكون في شرفها وهي دليلُ العرب، فيملكون؛ لأن طالع القِرَان الميزان، وصاحبه الزُّهرة، وكانت عند القران في شرفها، فدلَّ أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة.

وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب، فأخبره أنَّ القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته، ويملك المشرق والمغرب. والمشتري يغوص إلى الزُّهرة، وينتقل القران من الهوائية إلى العقرب، وهو مائي وهو دليل العرب. فهذه الأدلة تقضي للملة بمدة دور الزُّهرة وهي ألف وستون سنة.

وسأل كسرى أبرويز أليوس الحكيم عن ذلك، فقال مثل قول بزرجمهر.

وقال توفيل الرومي المنجم في أيّام بني أمية: إن ملة الإسلام تبقى مدة القران الكبير تسع مئة وستين سنة. فإذا عاد القران إلى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة، وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة، فحينئذ إمَّا أن يفتر العمل به أو يتجدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظّن.

قال جراش: واتفقوا على أنَّ خراب العالم يكونُ باستيلاء الماء والنار، حتى تهلك سائرُ المكوّنات، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعاً وعشرين درجة. التي[1] هي حدُّ المرِّيخ وذلك بعد مضي تسع مئة وستين سنة.

وذكر جراش: أنَّ ملك زابَلستان بعث إلى المأمون بحكيمه ذوبان، أتحفه به في هديه، وأنّه تصرف للمأمون في الاختيارات بحروب أخيه وبعقد اللواء لطاهرٍ، وأنَّ المأمون أعظم حكمته، فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه، واتّصاله في ولد أخيه، وأنَّ العجم يتغلَّبون على الخلافة من الدَّيلم في دولة سنة خمسين، ويكون ما يريده الله، ثم يسوءُ حالهم، ثمَّ تظهر التُّرك من شمال المشرق فيملكون إلى الشَّام والفرات وسيحون، ويفتحون[2] بلاد الروم، ثم[3] [ظ ٢/١٥٠] يكون ما يريدهُ الله. فقال له المأمون: من أين لك هذا؟ فقال: من كتب الحكماء ومن أحكام صصة[3] بن داهر الهنديّ الذي وضع الشطرنج. **قلت**: والترك[4] الذين أشار إلى ظهورهم بعد الدَّيلم هم السَّلجوقيّة، وقد انقضت دولتهم أول القرن السَّابع.

---

١ - في ن: و.

٢ - في ن: سيملكون. ٣ - في ن: و.

٣ - لعله: كنكه الهندي وله كتاب القرانات الكبيرة، والقرانات الصغيرة. انظر كشف الظنون (١٣٢٤/٢).

٤ - لعل هذا مستند العثمانين في متابعتهم للمنجمين والله أعلم.

وقال جراش: وانتقال القرَان إلى المثلَّثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمان مئة لِيَزْدَجْرَد، وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملة ثلاث وخمسين.

قال: والذي في الحوت هو أول الانتقال، والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة.

قال: وتحويل السّنة الأولى من القران الأول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمان مئة[١].

ولم يستوف الكلام على ذلك.

وأمَّا **مستند المنجِّمين في دولة على الخصوص**، فمن القران الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه، لأنَّ له دلالةً عندهم على حدوث الدولة، وجهاتها من العمران. والقائمين بها من الأمم، وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونِحَلِهم وأديانهم وعوائدهم وحروبهم. كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرانات.

وقد توجد هذه الدلالة من القران الأصغر إذا كان الأوسط دالاً عليه، فمن هذا يوجد الكلام في الدول.

وقد كان يعقوب بن إسحاق الكندي منجِّم الرَّشيد والمأمون وضع في القرانات الكائنة في الملة كتاباً سماه الشّيعة: **بالجفر**، باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصَّادق، وذكر فيه ـ فيما يقال ـ حدثان دولة بني العبَّاس، وأنها نهايته، وأشار إلى انقراضها، والحادثة على بغداد أنّها تقع في[٢] انتصاف المئة السَّابعة، وأنهَ بانقراضها يكون انقراض الملة.

ولم نقف على شيءٍ من خبر هذا الكتاب، ولا رأينا من وقف عليه؛ ولعلّه غَرِقَ في كتبهم التي طرحها هُلاَكُو ملكِ التَّتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء.

وقد وقع بالمغرب جزءٌ منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجَفْرَ الصَّغير، والظَّاهر أنّه وضع لبني عبد المؤمن، لذكر الأولين من الملوك الموحدين فيه على التَّفصيل، ومطابقة من تقدَّم عن ذلك من حدثانه وكذب ما بعده.

وكان في دولة بني العبَّاس من بعد الكندي منجِّمون وكُتب في الحدِثان. وانظر ما نقله الطَّبري[٣] في أخبار المهديّ عن أبي بديل[٤] من أصحاب صَنَائع الدولة، قال: بعث إليَّ الربيع والحسن في غزاتهما مع الرَّشيد أيَّام أبيه، فجئتهما جوفَ اللَّيْلِ، فإذا عندهما كتاب من كتب الدَّولة يعني الحِدثان، وإذا مدّة المهدِيّ فيه عشر سنين. فقلت: هذا الكتاب لا

---

١ – انتهى هنا النص المنقول عن جراس.
٢ – في ن: مع.
٣ – تاريخ الطبري (١٤٦/٨) بمعناه.
٤ – هو الوضاح بن حبيب بن بديل.

يخفى على المهديّ، وقد مضى من دولته ما مضى، فإذا وقف عليه كنتم قد نَعيتم إليه نفسه، قالا: فما الحيلة؟ فاستدعيت عنبسة [ظ١٥١/١] الورَّاق مولى آل [أبي] بديل، وقلت له: انسخ هذه الورقة؛ واكتب مكان عشر أربعين ففعل. فوا لله لولا أني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشكّ أنها هي.

ثم كتب النَّاسُ من بعد ذلك في حدثان الدول منظوماً ومنثوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه؛ وبأيدي النَّاس متفرقة كثيرٌ منها، وتسمَّى **الملاحم**، وبعضها في حِدْثَان الملة على العموم، وبعضها في دولة على الخصوص. وكلُّها منسوبة إلى مشاهير أهل **الخليقة**. وليس منها أصلٌ يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه.

فمن هذه الملاحم بالمغرب **قصيدةُ ابن مِرَانَةَ** من بحر الطَّويل على رَويّ الرّاءِ وهي متداولة بينَ النَّاس. وتحسب العامة أنَّها من الحدثان العام، فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل، والذي سمعناه من شيوخنا أنّها مخصوصة بدولة لمتونةَ، لأنَّ الرجل كان قبيل دولتهم، وذكر فيها استيلاؤهم على سَبْتَة من يد موالي بني حمُّود وملكهم لعدوة الأندلس.

ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً قصيدة تُسَمَّى التُّبَّعِيَّة أوَّلها:

طَرِبْتُ ومَا ذَاكَ منِّي طَرَبْ ... وَقَدْ يُطْرَبُ الطَّائرُ الْمُغْتَصَبْ

وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلَهْوٍ أَرَاهُ ... وَلَكِنْ لِتِذْكَارِ بَعْضِ السَّبَبِ

قريباً من خمس مئة بيت أو ألف فيما يقال. ذكر فيها كثيراً من دولة الموحّدين وأشار فيها إلى الفاطميّ وغيره. والظَّاهرُ أنها مصنوعة.

ومن الملاحم بالمغرب أيضاً **ملعبَةٌ** من الشِّعر الزَّجلي منسوبةٌ لبعض اليهود، ذكر فيها أحكام القِرَانَاتِ لعصره، العُلويين والنَّحسَيْن وغيرهما، وذكر مِيتَتَهُ قتيلاً بِفَاس. وكان كذلك فيما زعموه. وأوّله:

في صبغ ذا الأزرقِ لِشَرفه خياراً ... فافهموا يا قوم هذي الإشارا

نجمُ زحل أخبر بذي العلاما ... وبدل الشكلا وهي سلاما

شَاشِيَّةٌ زرقا بدل العماما ... وشاش أزرق بدل الغرارا

يقولُ في آخره:

قد تمَّ ذا التَّجنيس لإنسان يهودي ... يصلب في بلدة فاس في يوم عيد

حتَّى يجيه النَّاسُ من البَوَادي ... وقتله يا قوم على الفراد

وأبياته نحو الخمس مئة، وهي في القِرَانات التي دلّت على دولة الموحدين.

ومن ملاحم المغرب أيضاً قصيدة من عروض المتقارب على رَوِيّ الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين، منسوبة لابن الأَبَّار، وقال لي قاضي قُسَنْطينه الخطيب الكبير أبو علي ابنُ بَاديس [ظ١٥١/٢]، وكان بصيراً بما يقوله، وله قدمٌ في التنجيم، فقال لي: إنَّ هذا ابن الأَبَّار ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب مقتول المستنصر، وإنَّما هو رجلٌ خيَّاط من أهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ.

وكان والدي رحمة الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة وبقيَ بعضها في حفظي مطلعها:

عَذِيرِيَ من زَمَنٍ قُلَّبِ ... يَغُرُّ بِبَارِقِهِ الأَشْنَبِ

ومنها:

وَيَبْعَثُ من جَيْشِهِ قَائداً ... ويبقى هُنَاكَ عَلَى مَرقَبِ

فتأتي إلى الشَّيْخِ أخْبَارُهُ ... فَيُقْبِلُ كالجملِ الأجرَبِ

وَيُظْهِرُ من عَدْلِهِ سِيْرَةً ... وَتِلْكَ سِيَاسَةُ مُسْتَجْلِبِ

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم:

فإمَّا رأيتَ الرّسوم اِمْحتْ[1] ... ولم يُرْعَ حقٌّ لذي منصبِ

فخُذْ في التَّرحُّلِ عن تُونُس ... وودِّع معالمها واذْهَبِ

فَسَوفَ تكونُ بها فتنة ... تُضِيفُ البريءَ إلى المُذنبِ

ووقفتُ بالمغربِ على ملحمة أخرى في دولة بني أبي حفص هؤلاء بتونس، فيها بعد السلطان أبي يحيى الشَّهير عاشر ملوكهم ذكرُ محمدٍ أخيه من بعده يقول فيها:

وَبَعدَ أبي عبدِ الإلهِ شَقِيْقُهُ ... وَيعرفُ بالوثَّابِ في نُسْخَةِ الأصلِ

إلا أنّ هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه، وكان يُمَنِّي بذلك نفسه إلى أن هلكَ.

ومن الملاحم في المغرب أيضاً المَلْعَبَة المنسوبة إلى الهوشني[2] على لغة العامة في عروض البلد التي أولها:

دَعني بدمعي الهتان ... فترت الأمطار ولم تفتر

واستقت كلها الوديان ... وأنى تملي وتنغدر

البلاد كلها تروى ... فأولى ما ميل ما تدري

---

١ - في ن: امحت.

٢ - وفي ن: الهوثني بالثاء.

مـا بـينَ الصَّيـف والشـتوي	والعـام والربيـع تجـري
قـال حـين صحـت الدَّعـوى	دعـي نبكـي ومـن عـذر
أنـادي مـن ذي الأزمـان	ذا القـرن اشـتدَّ وتمـري

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الأقصى والغالب عليها الوضع، لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل تحرِّفه العامة أو الحارف فيه من ينتحلها من الخاصة.

ووقفتُ بالمشرق على **ملحمة منسوبة لابن العربي** الحاتميّ في كلام طويل شبه الألغاز لا يعلمُ تأويله إلا الله لتخلله[1] إلى أوفاق عددية، ورموزٌ ملغوزة، وأشكال حيوانات تامة، ورؤوس مقطعة، وتماثيل من حيوانات[2] غريبة. وفي آخرها [ظ١٥٢/١] قصيدة على روي اللام، والغالب أنها كلها غيرُ صحيحة. لأنَّها لم تنشأ عن أصلٍ علمي من نجامة ولا غيرها.

وسمعت أيضاً أنَّ هناك ملاحم أخرى منسوبةٌ لابن سينا وابن عقب[3]، وليس في شيء منها دليل على الصحة، لأنَّ ذلك إنَّما يؤخذ من القرانات.

ووقفتُ بالمشرق أيضاً على ملحمة من حدثان **دولة التُّرْك** منسوبة إلى رجلٍ من الصُّوفية يُسَمَّى الباجَربقي[4] وكلها إلغازٌ بالحروف، أولها:

إنْ شئتَ تَكشِفُ سرَّ الجَفْرِ يا سائلي[5]	من علمِ جَفْرٍ وَصِيٍّ والـد الحسن
فـافهم وكـن واعيـاً حرفـاً وجملتـه	والوصفَ فافهم كفعـل الحَـاذِقِ الفطنِ
أمَّا الَّذِي قبلَ عصري لسـت أذْكُـرُه	لكنَّـي أذكـر الآتـي مـن الزَّمـن
بشـهر يـبرس يبقـى بعـد خمسَـتِها	بحاءِ ميمٍ بطيـش نـام في الكنـن
شـينٍ لـه أثـرٌ مـن تحـت سُـرَّته	لـه القضـاء قضـى أي ذلـك المنـن
فمصرٍ والشَّـام مع أرض العـراق لـهُ	وأَذَربيجـان في ملـك إلى اليمـن

ومنها:

وآلُ بُـوْزانَ لمـا نـال طَـاهرهم	الفـاتكُ البـاتكُ المغـنيُّ بالسـمن

---

١ - في ن: لتخلله إلى.

٢ - في ظ: حيوانين.

٣ - هو يحيى بن عقب قيل عنه: معلم الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، له منظومة لامية أولها:

رأيت من الأمور عجيب حال ... لأسباب يسطرها مقالي

انظر كشف الظنون (١٨١٨/٢).

٤ - تأتي ترجمته في آخر الفصل.

٥ - في ن: سؤلي.

لخلعِ سين ضعيفِ السِّنِّ سين أتى … لا لوفاق ونون ذي قرن
قوم شجاعٍ له عقل ومشورة … يبقى بجاء وأينَ بعد ذو سمن

ومنها:

من بعد باءٍ من الأقوامِ قتلته … يلي المشورة ميم الملك ذو اللسن

[ظ٢/١٥٢]ومنها:

هذا هو الأعرجُ الكلبيُّ فاعن به … في عصره فتنٌ ناهيكَ من فتن
يأتي من الشَّرْقِ في جيش يقدمهم … عار عن القافِ قاف جد بالفتن
بقتل دال ومثل الشَّام أجمعها … أبدت بشجو على الأهلين والوطن
إذا أتى زلزلت يا ويح مصر من … الزلزالِ ما زال حاء غير مقتطن
طاءٌ وظاءٌ وعينٌ كلهم حبسوا … هلكاً وينفق أموالاً بلا ثمن
يسير القافُ قافاً عند جمعهم … هونٌ به إن ذاك الحصن في سكن
وينصبون أخاه هو صالحهم … لا سلم الألف سين لذاك بني
تمَّت ولايتهم بالحاء لا أحد … من السِّنين يداني الملك في الزَّمن

ويقال إنه أشار إلى الملك الظاهر وقدوم أبيه عليه بمصر:

يأتي إليه أبوه بعد هجرته … وطول غيبته والشَّظف والزرن

وأبياتها كثيرةٌ والغالب أنها موضوعةٌ، ومثل صنعتها كان في القديم كثيراً ومعروف الانتحال.

حكى المؤرخون لأخبارْ بغداد: أنه كان بها أيَّام المقتدر ورَّاقٌ ذكيٌّ يعرف بالدّانيَاليِّ، يبلُّ الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة، ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم، ويحصل على ما يريده منهم من الدُّنيا، وأنه وضع في بعض دفاتره ميماً مكررة ثلاث مرَّاتٍ، وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر، وكان عظيماً في الدّولة، فقال له: هذا كناية عنك، وهو مفلح مولى مقتدر، ميم في كل واحدة، وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه مما يناله[1] من الدولة ونصب له[2] علامات لذلك من أحواله المتعارفة موّه[3] بها عليه، فبذل له ما أغناه به. ثم وضعه للوزير

١ - في ن: عنه ما يرضاه ويناله.
٢ - في ن: لذلك.
٣ - في ن: يموه.

الحسن بن القاسم بن وهب، على مفلح هذا، وكان معزولاً، فجاءه بأوراق مثلها، وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف، وبعلامات ذكرها، وأنه يلي الوزارة للثامن(١) عشر من الخلفاء، وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعداءَ، وتعمر الدُّنيا في أيَّامه. وأوقف مفلحاً هذا على الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى، وملاحم من هذا النوع، مما وقع ومما لم يقع، ونسب جميعه إلى دانيال. فأعجب به مفلح. ووقف عليه المقتدر، واهتدى من تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب، وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هذه الحيلة [ظ١٥٣/١] العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الألغاز.

والظاهر أن هذه الملحمة التي ينسُبُونها إلى الباجَربقي من هذا النوع. ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالدِّيار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب إليه من الصُّوفية، وهو الباجربقي، وكان عارفاً بطرائقهم. فقال: كان من القَلَنْدرية المبتدعة في حلق اللحية، وكان يتحدث عمَّا يكون بطريق الكشف، ويومىء إلى رجال معينين عنده، ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم، ورُبَّما يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه، وولع النَّاس بها وجعلوها ملحمة مرموزة، وزاد فيها الخرَّاصون(٢) من ذلك الجنس في كل عصر، وشغل العامة بفك رموزها، وهو أمرٌ ممتنع، إذ الرمز إنَّما يهدي إلى كشفه قانون يعرف قبله، ويوضع له، وأمَّا مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه. فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاءً لما كان في النَّفس من أمر هذه الملحمة. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾[الأعراف: ٤٣]. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

ثم وقفت بعد ذلك وأنا بدمشق عند حلولي مع الركاب بها سنة اثنتين وثمان مئة، وأنا على قضاء المالكية بمصر، فوقفت على **تاريخ ابن كثير**(٣) في سنة أربع وعشرين وسبع مئة في ترجمة التعريف بهذا الرجل، فقال شمس الدين محمد الباجربقي الذي نسبت إليه الفرقة الضالة الباجربقية، والمشهور عندهم إنكار الصانع. وكان والده جمال الدين عبد الرحيم ابن عمر الموصلي رجلاً صالحاً من علماء الشافعية، ودرس في مدارس دمشق، ونشأ ابنه هذا بين الفقهاء، فاشتغل قليلاً، ثم أقبل على السلوك، ولازمه جماعة يعتقدون فيه [ويزورونه ويرزقونه] ممن هو على طريقته [وآخرون لا يفهمونه]. ثم حكم القاضي المالكي بإراقة دمه، وهرب إلى المشرق. ثم أقام البينة بالعداوة بينه وبين من شهد عليه. وحكم الحنبلي بحقن دمه. وأقام بالقابون مدة سنين. وتوفي ليلة الأربعاء السَّادس عشر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين يعني وسبع مئة. [ظ١٥٣/٢]. قد **تم الجزء الأول** من كتاب العبر في أخبار العرب والعجم والبربر، وفي الجزء الثاني: الفصل الرابع من الكتاب الأول.

---

١ - في ن: للثاني.

٢ - خرص خرصاً كذب فهو خارص وخرّاص. ٣ - البداية والنهاية (١٤/ ١١٥).

فهرس الموضوعات

الجزء الأول